

قصة الحياة

جمع وإعداد

عبدالإله بن عبدالله بن علي جابر

ح) عبدالإله بن عبدالله بن علي جابر، ١٤٤٦هـ

رقم الإيداع: ١٤٤٦/١٢٢٦٩

ردمك: ٨-٤٨٥٣-٠٥-٦٠٣-٩٧٨

عنوان الكتاب: قصة الحياة

إعداد: عبدالإله بن عبدالله بن علي جابر

القياس: ١٧ × ٢٤ سم

الصفحات: ٧٢٨ ص

الطبعة الأولى: ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

حقوق الطبع محفوظة

المقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن اتبع هداه، أما بعد:
فهذه الرواية الصادقة ليست من نسج الخيال، وإنما غالب فصولها وأحداثها
من أخبار الوحي، ورواية ثقات المؤرخين في خلاصة غنية جدًا من الأحداث
والأحاديث الصحيحة والحسنة - إن شاء الله - التي هي نواة العلم الحقيقي وتاريخ
الكون والبشر.

بعيدًا عن خرافات العصر الحجري وما يسمى بعصر ما قبل التاريخ، ونظريات
النشوء والارتقاء التي تزعم تحول الإنسان من قرد، ونظرية الانفجار العظيم وغيرها
من الفلسفات والتخيلات الباطلة المليئة بالمتناقضات والظنون التي لا تغني من
الحق شيئًا.

بعيدًا عن ذلك كله؛ هناك مصدر للحق الذي يوافقه العقل السليم والفطرة السوية،
فتخبت له القلوب وتطمئن إليه النفوس. إنه نور الوحي السماوي الذي أوحاه رب
الكون، وجعله نورًا وهدى للناس، فيه ذكر أصل الكون وتاريخه السابق واللاحق،
وما كان وما سيكون، وفيه (قصة الحياة).

من خلق هذا الكون؟ وكيف بدأ؟ وما قصة أول إنسان؟ وكيف خُلق؟ وهل
كان عالمًا أم جاهلًا؟ وما علاقته بالسما والارض وبذلك المخلوقات التي تغيب
عن الأعين؟ ولماذا نحن على الأرض؟ وما قصة الأجيال التي عاشت قبلنا؟ والتي
ستأتي بعدنا؟ وما الدين الحق؟ وما قصة الرسائل السماوية التي بُعث بها الأنبياء من
رب العالمين؟ وكيف ستكون نهاية الحياة؟ وما مصير الكون؟

ما أجمل أن تجد من الوحي إجابات صادقة وإرشادًا وهديًا ربانيًا لكل تلك التساؤلات! وقد قال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ: «مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَمَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ، وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ الْجَنَّةِ، إِلَّا وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي».

ولا عجب أن يقول أبو ذر رضي الله عنه: «تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا طَائِرٌ يَقْلُبُ جَنَاحَهُ فِي الْهَوَاءِ، إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا». حتى قَالَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ لِسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رضي الله عنه وَهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ؟! فَقَالَ: «أَجَلْ، لَقَدْ نَهَاَنَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِعَاثِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَجِي بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَجِي بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَجِي بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ». وقال عمرو بن أخطب رضي الله عنه: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَجْرَ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمْنَا أَحْفَظْنَا». وقال حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةً مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ، فَمَا مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَدْ سَأَلْتُهُ عَنْهُ، إِلَّا أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ: مَا يُخْرِجُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيْتُهُ، فَأَرَاهُ، فَادَّكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، ثُمَّ إِذَا رَأَاهُ عَرَفَهُ».

ولما تفرقت تلك الروايات التي تحكي قصة الوجود والغاية من الخلق ونظام الحياة ونهاية الدنيا وتشعبت في الكتب؛ حرصت أن أجمع منها خلاصة غنية موجزة في سياق قصة تجمع أصول العلم الثابت وجوامع الحديث الصحيح وأهم أحداث التاريخ، لتحكي بنسق مترابط أبرز وأهم أحداث قصة الوجود والخلق والطريق

في هذه الحياة وما فيه من تدافع الحق والباطل وأبرز أخبار الأمم وما سيكون إلى حياة الخلود.

وكان البدء قبل سنوات بجمع خلاصة مختصرة من أهم جوامع الأحاديث النبوية لمطالعتها وفهمها وربط أطرافها وتسهيل مذاكرتها، فكان الأصل فيها أحاديث الأربعين النووية وما اتصل بشرحها من الروايات الصحيحة الواردة في كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب، ثم ما ارتبط بها من زيادات صحيحة وحسنة من مختلف كتب السنة وشروحها التي أمكن الاطلاع عليها، وفق تصحيح المحققين من أهل الحديث المتأخرين كالشيخ الألباني وغيره، وأُفدت كثيراً من كتاب الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، لصهيب عبد الجبار، مع الاستفادة الكبرى من خدمات برامج المكتبات الإلكترونية لكتب السنة.

ثم كان ترتيب هذه الروايات لتحكي قصة الحياة بذكر صفة الخالق ﷻ، ثم قصة بدء الخلق، وذكر خلق السموات والأرض وخلق أول البشر وما كان من عداوة الشيطان له، وهبوط آدم وإبليس إلى الأرض، وإرسال الرسل وقصصهم مع أقوامهم، وجمع ما صح من أحاديث قصص الأنبياء وما صح عن الصحابة في ذلك، واستفدت كثيراً من كتاب (صحيح الأنباء المسند من أحاديث الأنبياء) لسليم الهلالي، ثم كان انتقاء روايات حفاظ المؤرخين وترجيحاتهم في الأحداث التاريخية المشتهرة التي لم ترد بأسانيد متصلة، وأكثر النقل غالباً عن الإمام ابن كثير من البداية والنهاية ومن تفسيره، وبعض المختصرات في التفسير، وتبع ذلك ملخص لأهم أحداث السيرة النبوية الشريفة منتقى من بعض الكتب المتأخرة التي اعتنت بصحيح السيرة النبوية، مع جمع أطراف بعض أهم أحداث السيرة؛ كقصة الهجرة وصلاح الحديبية.

ثم بعد السيرة النبوية أوردت فصلاً من جوامع الكلم النبوي وهدى النبي ﷺ من الأحاديث الصحيحة والحسنة إن شاء الله، دون ذكر الرواة والتخريجات اختصاراً،

ومنها ما أخبر النبي ﷺ بوقوعه من الفتن والفتوح وتغير الأحوال وعلامات اقتراب الساعة، ثم أحداث يوم القيامة والبعث والحساب والجزاء ودخول الجنة والنار، وبها تكتمل قصة الحياة من الوجود إلى الخلود.

وقد ازدانت القصة بحواشٍ مليئة بالتوضيحات والفوائد والفرائد وإشارات إلى مهمات ما بينه أهل العلم رحمهم الله في جملة من الموضوعات؛ كوقوع التحريف في دين اليهود والنصارى وكتبهم، وحال الناس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وإعجاز القرآن الكريم وجمعه، وتفرق الأمة، ونشوء علم الرجال، وحفظ السُّنة بالإسناد، وتوضيحات مهمة في مسائل الرق في الإسلام، والحجاب والعفة وحفظ العرض والنسل، وفوائد في حفظ الصحة والتداوي والاسترقاء، وذكر تداعي الأمم الكافرة على المسلمين، وفضل مجتمعات المسلمين على غيرهم، ومسائل في أشراط الساعة، والدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، وغير ذلك من الإثراءات. وكنت أوردت فصلاً في أول الكتاب عن خلق السماوات والأرض والشمس والقمر، والنجوم والأبراج والغاية من وجودها، وهيئة السماوات والأرض والأفلاك، وحساب الزمان والسنين ومعرفة الفصول والمواسم، ثم أفردته مع إضافات وزيادات في كتاب مستقل بعنوان: «البيّنات في هيئة الأرض والبروج والسماوات» ونشرته على الشبكة العنكبوتية ومطبوّعاً بحمد الله.

فتكونت خلاصة متناسقة مفيدة، كانت الغاية أن يسهل فهمها والربط بينها ومذاكرتها ومعاودة قراءتها والاستئناس بها بصورة خاصة، وليس للتأليف العلمي؛ وإنما لأنتفع بها وأنفع بها أولادي وأحببها لهم، بعيداً عن الإطالة والإحالة والإسناد والعزو والتخريج وذكر الخلافات؛ حيث كان القصد جمع الصحيح والحسن من الأخبار قدر الإمكان، واختصار المهم من المطولات وتسهيل الربط بينها ومراجعتها في صورة محببة ميسرة.

وقد رغب إلي بعض الأحبة - ممن اطلع على هذا الكناش - بنشره لما فيه من الانتقاء والتسلسل والربط والتسهيل والخلاصات، وإن قلت فيه الإحالات والتوثيقات؛ فنشرته على شبكة الإنترنت، ثم راجعته وعدلت عليه، فلعل الله أن يفتح لقارئه باباً للتزود من العلم النافع ويسهل لقارئه فهم كثير مما جاء في القرآن والسنة والسيرة والتاريخ وواقعه المعاصر، ويكون بقراءته الممتعة في سياق قصة مترابطة قد مرَّ بفوائد جمة من كثير من الأحاديث وجوامع الكلم والأخبار الصحيحة والحسنة المجتمعة الأطراف في ترابط وترتيب مختصر مفيد. ولا شك أنه عمل يعتريه النقص والخطأ والزلل، فما كان فيه من الصواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي، وأستغفر الله وأتوب إليه، ولعل الله أن يسخر له من يفيد منه، مع وافر الشكر والدعاء لمن نقلت من كتبهم أو مواقعهم أو أبحاثهم أو مقالاتهم وترجيحاتهم فهذا العلم والجهد هو من جهدهم، وإنما جمعت واخترت ولخصت مما أفادوا، فجزاهم الله عني وعن المسلمين خيراً، وبارك فيما كتبوه وعلموه رحم الله الأحياء منهم والأموات وغفر لهم ورفع درجاتهم.

وأسأله سبحانه المغفرة والقبول وأن ينفع بما جُمع وكتب، وأن يوفقنا جميعاً لكل خير، ويعفو عن الخطأ والزلل، ويرحمنا برحمته الواسعة، إنه غفور رحيم.

جمعه وأعدّه

عبدالإله بن عبدالله بن علي جابر

آخر تحرير في جدة، ٤ شعبان ١٤٤٦ هـ



الله

كَانَ اللَّهُ^(١) وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، هُوَ الْأَوَّلُ؛ فَلَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَالْآخِرُ؛ فَلَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، وَالظَّاهِرُ؛ فَلَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، وَالْبَاطِنُ؛ فَلَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ، هُوَ الْأَحَدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ^(٢)، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، طَيِّبٌ^(٣)، وَتَرٌ^(٤) يَحِبُّ الْوَتَرَ، هُوَ الْإِلَهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ^(٥) الرَّبُّ^(٦) عَزَّ وَجَلَّ^(٧)،

(١) لفظ الجلالة (الله) هو اسم الله رب العالمين، لا يسمى به غيره، وهو أصل الأسماء الحسنى، وهو أعلم الأعلام، وأعرف المعارف. ومعناه: (الإله)، أي: المألوه، والمعبود حبًا وتعظيمًا وتألُّهاً وشوقًا، وحذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال.

(٢) الأحد: الذي توحد وتفرد بجميع الكمالات المطلقة لا يشاركه فيها مشارك، والذي لا ثاني له ولا نظير له ولا ند له، وليس كمثله شيء. والصمد: السيد الذي بلغ المنتهى سؤدده. والمصمت الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب. والمصمود إليه، الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها، أي: تميل إليه وتنتهي إليه وترفع إليه حوائجها، فهو بمعنى: الذي يحتاج إليه كل أحد. وهو الذي يُطعم ولا يُطعم.

(٣) في الحديث: (إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ)، وهذا يشمل طيب ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه.

(٤) الوتر: الفرد الواحد الذي لا شريك له، ولا نظير له.

(٥) وأعظم العبادات توحيده ﷻ، وفي الحديث: (فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى).

(٦) ومعنى الرَّبِّ: المالك والمتصرف والمدبر والسيد والمربي. و﴿رَجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: إلى سيدك. ولا يُقال لمخلوق: هذا الرَّبُّ. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم:

أطعم ربك، وضيء ربك؛ وليقل: سيدي ومولاي».

(٧) (عَزَّ) بمعنى: قَهَرَ وغَلَبَ، و(جَلَّ) بمعنى: عَظُمَ.

وَالسَّيِّدُ^(١) تَبَارَكَ^(٢) وَتَعَالَى، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ^(٣) وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، الْحَنَّانُ^(٤) يَتَحَنَّنُ بِرَحْمَتِهِ، أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَخَيْرُ الرَّاحِمِينَ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَوَسَّعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ.

هُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، عَلَّامُ الْغُيُوبِ، أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَوَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ، وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.

وَأِنَّهُ تَعَالَى لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ^(٥)، يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَإِنْ يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيظُهَا نَفَقَةٌ^(٦)، سَحَاءٌ^(٧)، اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَبِيَدِهِ الْآخِرَى الْمِيزَانُ،

(١) الذي له السيادة المطلقة على خلقه.

(٢) تبارك؛ أي: كثرت بركاته وخيراته، «وتبارك اسمك» يعني: اسم الله ﷻ مبارك ما خالط شيئاً إلا نزلت فيه البركة.

(٣) هدي السلف الصالح في توحيد الأسماء والصفات؛ هو أن يسمى الله ويوصف بما سمي ووصف به نفسه على وجه الحقيقة، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكيف، ولا تمثيل، ولا تشبيه.

(٤) الحنان: من الرحمة، يقال: حنّ عليه يحن حناناً، وجاء في الحديث في صحيح ابن حبان (٨٩٣)، وعند الضياء في «الأحاديث المختارة» (١٨٨٤): (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْحَنَّانُ الْمَنَّانُ)، والحديث رواه ثقات وإسناده قوي، وخلف بن خليفة صدوق - وإن كان قد اختلط بآخره - لم ينفرد بهذا الحديث؛ فقد توبع. وانظر كلام المحقق في رواية مسند الإمام أحمد (٢٠/٦١ ط الرسالة)، واختلف أهل العلم في ثبوت (الحَنَّان) من أسماء الله تعالى.

(٥) هو سبحانه منزّه عن الحاجة للنوم، وكيف ينام وهو مالك ما في السماوات وما في الأرض ومربيهم والقيوم عليهم، ومدبر أمور معاشهم ومعادهم؟

(٦) أَي: لَا يَنْقُصُهَا نَفَقَةٌ؛ لِأَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يَدْخُلُهُ نَقْصٌ.

(٧) أَي: دَائِمَةُ الصَّبِّ. و(سحاء) ليست مضافة لما بعدها، فالأفضل الوقوف عليها عند القراءة، وعدم صلتها بما بعدها.

يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ^(١)؛ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ. هُوَ الْفَتْاحُ^(٢)، مَا يَفْتَحُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَاسِعٌ^(٣) العلم والعظمة والسلطان والملك، وَوَاسِعُ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ وَسَائِرُ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَسِعَ رِزْقَهُ الْخَلْقَ أَجْمَعِينَ، فَهُوَ الرَّزَّاقُ الْمُسَعِّرُ^(٤) خَيْرَ الرَّازِقِينَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِنًا^(٥)، وَهُوَ الْوَهَّابُ^(٦)، يَهَبُ مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَهُوَ الْمَنَّانُ^(٧) يَجُودُ بِالنَّوَالِ قَبْلَ السُّؤَالِ، يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، مُحَسِّنٌ يُحِبُّ الْإِحْسَانَ وَالْمُحْسِنِينَ، وَهُوَ الَّذِي أَحْسَنَ وَاتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَأَحْسَنَ إِلَى خَلْقِهِ بِعَظِيمِ نِعَمِهِ وَعَطَائِهِ، جَوَادٌ كَثِيرُ الْعَطَايَا وَالتَّفَضُّلِ عَلَى خَلْقِهِ، يُحِبُّ الْجُودَ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مَعْطِي لِمَا مَنَعَ، وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ^(٨).

- (١) يَخْفِضُ الْمِيزَانَ وَيَرْفَعُهُ بِمَا يُوزَنُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ الْمُتَرَفِّعَةِ، وَيُوزَنُ مِنْ أَرْزَاقِهِمُ النَّازِلَةِ.
- (٢) (الْفَتْاحُ) تَشْمَلُ مَعَانِي كَثِيرَةً، الْفَتْحُ بِالنَّصْرِ وَبِالْعِلْمِ وَبِالْفَهْمِ وَبِالْقَصْدِ الْحَسَنِ، وَبِغَيْرِ ذَلِكَ. وَاللَّهُ الَّذِي يَفْتَحُ مِنْ خَزَائِنِ مَلَكِهِ وَرَحْمَتِهِ وَرِزْقِهِ مَا يَشَاءُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ، وَالَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ بِالْعَدْلِ، وَيَنْصُرُ أَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ.
- (٣) «الوَاسِعُ» أَي: ذُو السَّعَةِ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ. وَالسَّعَةُ أَيْضًا: الْغِنَى، وَالوَاسِعُ: الْغَنِيُّ.
- (٤) وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ (الْمُسَعِّرُ) مَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَرْخِصُ الْأَشْيَاءَ وَيَغْلِيهَا.
- (٥) الْمُقْتِنُ: الَّذِي يَقْدِرُ لِعِبَادَةِ الْقَوْتِ، وَيَحْفَظُ عَلَيْهِمْ رِزْقَهُمْ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْأَقْوَاتَ وَالْأَرْزَاقَ وَتَكَفَّلَ بِإِيصَالِهَا إِلَى الْخَلْقِ، وَهُوَ حَفِيزٌ عَلَيْهَا وَعَلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ.
- (٦) الْهَبَةُ: الْعَطِيَّةُ الْخَالِيَةُ عَنِ الْأَعْوَاضِ وَالْأَغْرَاضِ، فَإِذَا كَثُرَتْ؛ سَمِّيَ صَاحِبُهَا وَهَّابًا.
- (٧) الْمَنَّانُ أَي: الْمَعْطِي ابْتِدَاءً، وَالْمَنَّةُ: النِّعْمَةُ الثَّقِيلَةُ. وَالْمَنُّ: الْعَطَاءُ، وَهُوَ صَنْعُ الْجَمِيلِ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ لَا يَسْتِثْبِيهِ وَلَا يَطْلُبُ الْجَزَاءَ عَلَيْهِ.
- (٨) «الْحَمِيدُ» هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، الَّذِي يُحْمَدُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَفِي الشَّدَةِ وَالرِّخَاءِ، وَهُوَ الْمَسْتَحَقُّ لِلْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ لِأَنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِكُلِّ كَمَالٍ. وَ«الْحَمْدُ» هِيَ: وَصْفُ الْمَحْمُودِ بِالْكَمَالِ، الْكَمَالُ الدَّائِي وَالْفَعْلِيُّ، مَعَ الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا، فَلَا يَسْمَى حَمْدًا، وَإِنَّمَا يَكُونُ مَدْحًا. فَاللَّهُ ﷻ كَامِلٌ فِي ذَاتِهِ، وَمِنْ لَازِمٍ

وَهُوَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُوْمِنُ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَأْسِهِ وَعَذَابِهِ، وَالْمُصَدِّقُ لِلرَّسْلِ وَأَتْبَاعِهِمْ بِشَهَادَتِهِ لَهُمْ بِالْصِّدْقِ، وَبِمَا يَقِيْمُهُ مِنَ الْبِرَاهِينِ عَلَى صِدْقِهِمْ، وَيَصْدُقُهُمْ مَا وَعَدَهُمْ^(١)، رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ^(٢)، رَقِيبٌ مُطَّلِعٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُحْصٍ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ، كَافِيهِمْ مَا أَهْمَهُمْ، وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ مَا أَلَمَ بِهِمْ، حَيِّيٌّ سَتِيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، يَسْتَحْيِي مَنْ عَبْدُهُ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدِيَهُ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ، حَيَاؤُهُ كَرَمٌ وَبِرٌّ وَجُودٌ وَجَلَالٌ، لَا يَسْتُرُ عَلَى عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَكَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ^(٣).

هُوَ الْمَلِكُ الدِّيَّانُ^(٤)، ذُو الْمَلَكُوتِ^(٥)، مَالِكُ الْمُلْكِ، مَلِكُ مُقْتَدِرٍ، سُلْطَانُهُ قَدِيمٌ^(٦)،

كَمَالِهِ فِي ذَاتِهِ أَنْ يَكُونَ كَامِلًا فِي صِفَاتِهِ. كَذَلِكَ فِي فِعْلِهِ، فَفَعْلُهُ دَائِرٌ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ؛ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، إِمَّا أَنْ يَعْمَلَ عِبَادَةَ الْعَدْلِ، وَإِمَّا أَنْ يَعْمَلَ لَهُمُ بِالرَّحْمَةِ وَالْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ. وَالْغِنَى وَحْدَهُ كَمَالٌ، وَالْحَمْدُ وَحْدَهُ كَمَالٌ، وَاجْتِمَاعُهُمَا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ كَمَالٌ أَعْلَى.

(١) وَأَصْلُ الْإِيمَانِ: التَّصَدِيقُ.

(٢) فَهُوَ سَبْحَانَهُ يَتَدْرَجُ فِي الْخَلْقِ وَالتَّشْرِيعِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ الْمَخْلُوقَاتِ وَإِنْزَالِ التَّشْرِيعِ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَهُوَ الَّذِي يَعْمَلَ عِبَادَةَ بِالرِّفْقِ وَاللِّينِ فَلَا يَكْلِفُهُمْ مَا لَا يَطِيقُونَ.

(٣) الرَّأْفَةُ نِعْمَةٌ مُلْدَّةٌ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَالرَّحْمَةُ قَدْ تَكُونُ مَوْْلَمَةً فِي الْحَالِ، وَيَكُونُ عَقْبَاهَا لَذَّةٌ فِي الْمَالِ. قَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ رَحْمَةً، لِأَنَّهُ ضَرَبَ الْعَصَاةَ عَلَى عَصِيَانِهِمْ رَحْمَةً لَهُمْ لَا رَأْفَةً، فَإِنَّ صِفَةَ الرَّأْفَةِ إِذَا انْسَدَلَتْ عَلَى مَخْلُوقٍ لَمْ يَلْحَقْهُ مَكْرُوهٌ.

(٤) الدِّيَّانُ: الَّذِي دَانَتْ لَهُ الْخَلِيقَةُ، وَالَّذِي يَدِينُ الْعِبَادَةَ بِأَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، أَيْ يَجْزِيهِمْ بِهَا يَوْمَ الْجَزَاءِ.

(٥) مُلْكُ اللَّهِ وَمَلَكُوتُهُ: سُلْطَانُهُ وَعَظَمَتُهُ. وَاللَّهُ مَالِكُ الدُّنْيَا، وَهُوَ ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(١) وَمَلِكُهُ، فَفِي الدُّنْيَا مَنْ يَدْعِي الْمُلْكَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، بِخِلَافِ الْآخِرَةِ حَيْثُ فِيهَا يَذْعَنُونَ.

(٦) قَالَ اللَّيْثُ: «السُّلْطَانُ: قُدْرَةُ الْمُلْكِ... وَقُدْرَةُ مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُلْكًا». وَالْقَدِيمُ: هُوَ الْمَوْجُودُ لَمْ يَزَلْ، وَالسَّابِقُ لَغَيْرِهِ، فَهُوَ بِمَعْنَى: الْأَوَّلِ.

فله المُلْكُ، وبِيَدِهِ المُلْكُ، ولم يكن له شريك في المُلْكِ، وَلَهُ الحَمْدُ^(١) والنَّعْمَةُ كُلُّهَا. هو الحَيُّ^(٢) الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْوَارِثُ^(٣) الَّذِي يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، يُحْيِي وَيُمِيتُ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ.

سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ^(٤)، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، الَّذِي تَجِلُّهُ المَخْلُوقَاتُ وَتُكْرَمُ بِعِبَادَتِهِ، جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ^(٥)، وَجْهُهُ كَرِيمٌ، سَتِيرٌ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ^(٦) مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ، هُوَ نُورٌ^(٧) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمُنُورُهَا.

هو السَّلَامُ الَّذِي سَلِمَ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ، وَمِنْهُ السَّلَامُ يُرْجَى وَيُطْلَبُ، الْمَجِيدُ^(٨)،

(١) الحمد: هو الثناء بالصفات الجميلة والأفعال الحسنة، مقترناً بالمحبة والتعظيم، سواء كان في مقابل نعمة أم لا.

(٢) (الحَيُّ) ذو الحياة الكاملة، التي لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال، فله الحياة الكاملة بجميع صفات الكمال.

(٣) الوارِث: الباقي الدائم، الذي دام وجوده، والأشياء ترجع له ويفنى أهلها.

(٤) أي: مُسَبِّحٌ مُقَدَّسٌ، والسُّبُّوح: المنزَّه عن كل عيب ونقص، والقُدُّوس: المطهر من كل ما لا يليق بالخالق، من (القدس) وهو الطهارة، ومن تقديس الله تعالى أن تُقَدَّسَ شرعاً وتُزَّهَى من كل نقص، واقترن - في القرآن - اسم الله (الملك) بالقُدُّوس: لأن الله ﷻ ليس كملوك الأرض يظلمون أو يخطئون أو يعثون، أو تصيبهم الغفلة أو النسيان، بل هو سبحانه ملك قدّوس منزّه عن كل النقائص، وذلك لكماله من كل وجه.

(٥) هو سبحانه الجميل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله جمالاً مطلقاً،

وكلُّ جمالٍ في خلقه فهو منه ﷻ.

(٦) سُبْحَاتُ وَجْهِهِ: نُورُهُ وَجَلَّالُهُ وَبَهَّاءُهُ.

(٧) قال ابن القيم: وَاللَّهُ ﷻ سَمَّى نَفْسَهُ نُورًا، وَجَعَلَ كِتَابَهُ نُورًا، وَرَسُولَهُ ﷺ نُورًا، وَدِينَهُ نُورًا، وَاجْتَنَبَ عَنْ خَلْقِهِ بِالنُّورِ، وَجَعَلَ دَارَ أَوْلِيَائِهِ نُورًا تَتَلَأَلَأُ.. وقد فُسر قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بأنّه مُنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهَادِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَبُنُورِهِ اهْتَدَى أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ فِعْلُهُ، وَإِلَّا فَالنُّورُ الَّذِي هُوَ مِنْ أَوْصَافِهِ، قَائِمٌ بِهِ.

(٨) المجد: المروءة والسخاء، والمجد: الكرم والشرف.

الْعَزِيزُ الْأَعَزُّ^(١)، لَهُ الْعِزَّةُ جَمِيعًا، يَعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَالْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، وَهُوَ الْكَبِيرُ^(٢) الْمُتَكَبِّرُ^(٣)، لَهُ الْكِبْرِيَاءُ^(٤) فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْكَرِيمُ الْأَكْرَمُ، الْعَلِيُّ الْأَعْلَى الْمُتَعَالِ^(٥).

هُوَ اللَّهُ^(٦) الْخَالِقُ الْبَارِئُ^(٧) الْمُصَوِّرُ^(٨) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفَاطِرُ^(٩) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الْخَلَّاقُ^(١٠) الْعَلِيمُ، الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَاتَّقَنَ

(١) عَزِيزُ الْقَدْرِ وَالْقَهْرُ وَالامْتِنَاعُ. فهو الغالب، ذو القدر العظيم والمنزلة العالية، والذي يَمْتَنِعُ أَنْ يَنَالَهُ ﷻ سَوْءٌ أَوْ نَقْصٌ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَجَمِيعِ أَفْعَالِهِ.

(٢) معنى الكبير؛ أي: العظيم الذي كل شيء دونه، وهو أكبر وأعظم من كل شيء، كبير وعظيم في ذاته وأوصافه وأفعاله.

(٣) المتكبر: المتعظيم عن كل سوء ونقص، ومن نازعه في ذلك قصمه وعذّبه. ولا يوصف أحد بـ «المتكبر» على وجه المدح إلا الله تعالى. وأما المخلوق فلا يناسبه إلا التواضع.

(٤) وكبرياء الله: شرفه، وهو من (تَكَبَّرَ): إذا أَعْلَى نفسه.

(٥) الذي له علو الشأن وعلو القهر وعلو الذات.

(٦) قول بعض جهلة الناس أن (هو) من أسماء الله: قول باطل؛ لأن (هو) ضمير لا يدل على معنى بذاته سوى ما يتضمنه مرجع ذلك الضمير، وأسماء الله تعالى كلها حسنى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وهل أحد يقول في البسملة: بسم (هو) بدلًا عن اسم الله - تعالى - ؟ أو يا (هو) اغفر لي؟، كما أن كلمة (هو): ضمير غيبة، وليس ضمير حضور؛ ومن فسر به بما يدل على الحضور فهو من أجهل الناس باللغة العربية ودلالات ألفاظها؛ إن كان الذي حمّله على ذلك الجهل، أو من أعظم الناس افتراء؛ إن كان قد قصد القول على الله، وعلى اللغة العربية.

(٧) الباري: هو الذي خلق الخلق، لا عن مثال.

(٨) الْمُصَوِّرُ: هو الذي صَوَّرَ جميع الموجودات ورتبها، فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

(٩) فَطَرَ؛ أي: شَقَّ، والفطر: الابتداء والاختراع، فطركم أول مرة؛ أي: ابتداء خلقكم، فطر السماوات والأرض؛ أي: شقهما وفتقهما بعد أن كانتا رتقًا، وهو مبدعها ومبتدئها وخالقها.

(١٠) (الخلق) يتضمن ثلاث صفات: الخلق، والعلم، والقدرة.

كُلُّ شَيْءٍ، وَصَنَعَ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتْهُ^(١)، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ^(٢)، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَمَا يُرِيدُ، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ^(٣).

هُوَ الْقَيُّومُ، قَيِّمَ وَقَيَّامِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ^(٤)، يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَهُوَ الْمُهِيمُنُ^(٥)، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ^(٦).

(١) إطلاق الصانع هو وصفٌ لله أنه مبدع للكون.

(٢) الملاحظة التائهون يقولون: ليس له الخلق ولا الأمر؛ لأنهم لا يؤمنون بوجود الله، والمشركون المتناقضون يقولون: له الخلق وليس له الأمر. وأما المؤمنون المهديون فيقولون كما قال ربهم: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾. ومشركو زماننا أغلظ شرًّا من الأولين؛ لأن الأولين يشركون في الرخاء، ويخلصون في الشدة، ومشركو زماننا: شركهم دائمًا في الرخاء والشدة. وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ الْأَوَّلِينَ كَانُوا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ أَنْاسًا مُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللَّهِ؛ إِمَّا مَلَائِكَةً، وَإِمَّا أَنْبِيَاءَ، وَإِمَّا أَوْلِيَاءَ، أَوْ يَدْعُونَ أَشْجَارًا وَأَحْجَارًا مُطِيعَةً لِلَّهِ لَيْسَتْ عَاصِيَةً. وَأَهْلُ زَمَانِنَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ أَنْاسًا مِنْ أَفْسَقِ النَّاسِ. وَقَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُشْرِكِينَ؛ لِيَكُونَ الدُّعَاءُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالذَّبْحُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالنَّذْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالِاسْتِغَاثَةُ كُلُّهَا بِاللَّهِ، وَجَمِيعُ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ كُلُّهَا لِلَّهِ.

(٣) ومشيئته تعالى مقرونة بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. وأفعال العباد مرادة لله ﷻ، قال الشافعي رحمه الله في الرد على القدرية: «ناظروهم بالعلم؛ فإن أفروا به خصموا، وإن أنكروه كفروا». لأن أفعال العباد إن لم تكن مرادة لله؛ فهي إما أن تقع على وفق علمه، أو على خلافه؛ فإن كان على خلافه فهو إنكار لعلمه؛ وإن كان على وفقه فلا بد أن تكون مرادة له؛ لأنه أراد أن تقع على حسب علمه.

(٤) أي القائم على كل شيء، وهو مدبر أمر خلقه. وهو القائم على نفسه فلا يحتاج إلى أحد من خلقه؛ والقائم على غيره فكل أحد محتاج إليه، والقَيُّومُ: القائم بنفسه، المستغني عن خلقه، وهو المقيم لكل من في السماوات والأرض فهم المفتقرون إليه، وهو القَيِّمُ بحفظ كل شيء ورزقه وتدبيره. والقائم على الشيء: الرقيب؛ ويشمل الإيجاد والحفظ والإبقاء والإمداد.

(٥) أصل الهَيْمَنَةُ: الحفظ والارتقاب، يقال: إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده؛ قد هيمن فلان عليه؛ فهو يهيمن هَيْمَنَةً، وهو عليه مهيمن.

(٦) المحيط: هو الذي أحاطت قدرته بجميع المقدورات، وأحاط علمه بجميع المعلومات.

هُوَ الْقَهَّارُ وَالْقَاهِرُ^(١) فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْقَادِرُ الَّذِي هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ الْجَبَّارُ^(٢) ذُو الْجَبَرُوتِ وَالْعَظَمَةِ، وَهُوَ الْقَوِيُّ شَدِيدُ الْمِحَالِ^(٣) ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ^(٤)، لَا يَلْحَقُهُ فِي أَعْمَالِهِ مَشَقَّةٌ وَلَا كَلْفَةٌ وَلَا تَعَبٌ، غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ^(٥)، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَّا وَرُسُلِي﴾^(٦)، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ، نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ، قَرِيبٌ^(٧) مُجِيبٌ، يَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِينَ وَسُؤَالَ السَّائِلِينَ عَلَى مَا يَنْتَظِيهِ عِلْمُهُ وَحِكْمَتُهُ، صَدَقَ وَعْدُهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحَدَهُ.

شَهِيدٌ^(٨) مَطَّلَعٌ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، يَسْمَعُ جَمِيعَ الْأَصْوَاتِ، وَيَبْصُرُ جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ^(٩)، يَحْفَظُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

(١) الذي خضعت له الرقاب وعتت له الوجوه. والقهر بمعنى الغلبة والأخذ من فوق. ومن صفة كل قاهر شيئاً أن يكون مستعليًا عليه.

(٢) «الجبار» الذي يُنفذ مشيئته على سبيل الإجبار والقهر، وبمعنى «الرؤوف» الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لا ذبه ولجأ إليه.

(٣) المِحَالُ والمُمَاحِلَةُ: المماكرة والمغالبة والعُقُوبَةُ.

(٤) ذو الاقتدار الشديد في قوته وقدرته.

(٥) أي: أمره تعالى نافذ؛ لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب.

(٦) أي: لا تنتصرون أنا ورسلي.

(٧) هو سبحانه قريب من عباده حقيقة كما يليق بجلاله وعظمته، وهو مستور على عرشه، بائن من خلقه، يتقرب إليهم حقيقة، ويدنو منهم حقيقة، عليم بالسرائر، وما تكنه الضمائر، وهو قريب بالعلم والقدرة من عامة الخلائق أجمعين، وقريب باللطف والنصرة وهذا خاص بالمؤمنين، من تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، وهو أقرب إلى العبد من عنق راحلته، وهو أيضاً قريب من عبده بقرب ملائكته الذين يطلعون على سره ويصلون إلى مكنون قلبه.

(٨) يقال: شاهد وشهيد؛ كعالم وعليم؛ أي أنه حاضر يشاهد الأشياء ويراهها لا يغيب عنه شيء، شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه، و(شهد الله)؛ بمعنى: علم، وكتب، وقضى، وأظهر، وبين.

(٩) «حفيظ» بمعنى: حافظ، فهو حافظ لما استودع، ويحفظ عباده من السوء والشر، وهو حافظ عليهم أعمالهم يكتبها، ولا يعزب عنه شيء منها، وَلَا يَضِلُّ رَبُّنَا وَلَا يَنْسَى - سبحانه ﷻ - .

وَلَا يَتُودُهُ^(١) حِفْظُهُمَا، ويحفظ أوليائه عن كل ما يضر، وحفيظ على عباده ما عملوه من خير وشر، وهو على كل شيء حَسِيبٌ^(٢).

هُوَ الْحَقُّ^(٣) الْمُبِينُ^(٤)، وَقَوْلُهُ الْحَقُّ، وهو الحكيم^(٥)، الْحَكَمُ^(٦)، وإليه الْحُكْمُ، يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.

هُوَ الْمَقْدَمُ الْمُؤَخَّرُ^(٧)، الْقَابِضُ الْبَاسِطُ، الْمَانِعُ الْمُعْطِي، الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى، وَهُوَ اللَّطِيفُ^(٨) الْخَبِيرُ^(٩).

(١) أي: لا يُثْقَلُهُ أو يشق عليه.

(٢) معنى الحسيب؛ أي: الحفيظ، والكافي، والشهيد، والمحاسب. فالله الذي يحفظ على العباد أعمالهم ويحصيها فهو الحفيظ، ثم يجازيهم عليها فهو حسيب عباده أي محاسبهم، وهو كافي المتوكلين وهو حسبيهم، وهو الكافي عن الشهود فهو الشهيد ﷺ.

(٣) من أسمائه تعالى: الحق، وهو المتحقق كونه ووجوده.

(٤) الْمُبِينُ: الْبَيِّنُ والظاهر أمره في وحدانيته وحكمته ورحمته، والموضح لعباده سبيل الرشاد ليتبعوه، وسُبُلُ الْغَوَايَةِ ليحذروها.

(٥) الحكيم: الذي يضع الأشياء في مواضعها ولا يدخل تدبيره خللًا ولا زللًا، وله الحكمة العليا في خلقه وأمره، فهو ذو الحكمة البالغة التي تعجز عن إدراكها عقول العقلاء وإن كانت قد تدرك شيئًا منها؛ و«الحكمة» هي وضع الشيء في موضعه اللائق به، ومعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم؛ وتكون في شرع الله، وفي قدر الله. والحكيم أيضًا: ذو الحكم، والسلطان التام؛ فلا معقب لحكمه.

(٦) (الحكم) أي: المستحق أن يكون حاكمًا على عباده. وهو الذي يحكم بين خلقه بالعدل، فلا يظلم أحداً منهم، ولا أحسن من حكمه سبحانه، وهو الذي أنزل كتابه العزيز ليكون حكمًا بين الناس. (٧) من الأوصاف المتقابلة التي يطلق أحدها مقرونًا بالآخر، فإن الكمال في اجتماعهما، ومثلها: المعزّ المذل، والخافض الرافع.. ونحوها.

(٨) اللطيف: بمعنى الخبير بدقائق الأمور وما لطف وخفي منها، وبمعنى الرؤوف الذي يوصل الخير واللفظ للخلق، فإن تعدّي بالباء فهو بمعنى: العِلْمُ بِخَفَايَا الْأُمُور، وإن تعدّي باللام لَطِيفٌ لَهُمْ فهو بمعنى الإحسان بِجَلْبِ الْمَطْلُوبِ، ودَفْعِ الْمَكْرُوهِ أو الْمَخُوفِ.

(٩) الخبير: العالم بما كان وما يكون، والعالم بكنه الشيء، المطلع على حقيقته، العليم الذي أحاط علمه ببواطن الأشياء وخفائها كما أحاط بظواهرها، وعنده السرائر كالعلانية.

هو الطبيب^(١) الشافي، الذي لا شفاء إلا شفاؤه.

وهو البرّ^(٢) الودود^(٣) الحليم^(٤)، الغفور^(٥) الغفار، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ^(٦). هو

(١) وصف الله ﷺ بأنه (الطبيب) هو من الطَّبُّ: وهو العلم بالشيء والإبراء والمعافة، وليس مجرد المداواة. ويقال: رجل طَبَّ وطبيبٌ؛ أي: عالمٌ حاذق. وقد جاء هذا الوصف في حديث أبي رمثة رضي الله عنه؛ أنه قال للنبي ﷺ: أرني هذا الذي بظهورك؛ فإني رجل طبيب. قال عليه الصلاة والسلام: (الله الطبيب، بل أنت رجل رفيق، طبيبها الذي خلقها)، حديث صحيح أخرجه أبو داود (٤٢٠٧)، وأحمد (١٧٥٢٧). وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (مرض رسول الله ﷺ فوضعت يدي على صدره فقلت: اذهب البأس، رب الناس، أنت الطبيب، وأنت الشافي...)، رواه أحمد (١٠٨ / ٦) (٢٤٨١٨)، والنسائي في (السنن الكبرى) (٣٦٤ / ٤)، والبيهقي في (الأسماء والصفات) (٢١٧ / ١). قال شعيب الأرناؤوط في (مسند أحمد): إسناده صحيح على شرط البخاري.

(٢) البرُّ: العطف على عباده برّه ولطفه، الواسع في إحسانه لخلقِهِ، الصادق في وعده.

(٣) (الودودُ): مأخوذ من الودّ، وهو خالص المحبة، فالله عز وادُّ لأوليائه، يحب أوليائه ويتودد إليهم بالمغفرة والعطاء. وأوليأؤه يودونه يحبونه، ويحبون الوصول إليه وإلى جنته ورضوانه.

(٤) (الحليمُ) أي: ذو الحلم، والحلم هو تأخير العقوبة عن مُسْتَحَقِّهَا مع القدرة عليها، فبحلمه ﷺ تتأخّر العقوبات؛ لعلّ الناس يتوبون إليه ﷻ.

(٥) الغفور: يَغْفِرُ الذَّنْبَ ويمحو أثره بالكُلِّيَّة، و(المَغْفِرَة) هي سِتْرُ الذَّنْبِ والتَّجَاوُزُ عنه؛ وذلك لَأَنَّهُا مَأْخُودَةٌ من (المَغْفَر) الذي يَغْطِي الرأسَ وَيَقِيهِ السَّهَامَ، وليست مُجَرَّدَ السِّتْرِ؛ لأنَّ مُجَرَّدَ السِّتْرِ لَا تَحْصُلُ بِهِ الْوَقَايَةُ، بل لَا بُدَّ مع السِّتْرِ من الْوَقَايَةِ. ولهذا يقول ﷻ لِعَبْدِهِ إِذَا خَلَا بِهِ وَقَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ يوم القيامة: «كُنْتُ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»؛ فَإِنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السِّتْرَ غَيْرُ الْمَغْفِرَةِ، وَأَنَّ الْمَغْفِرَةَ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ عَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ وَعَدَمِ الْعُقُوبَةِ.

(٦) العفو: المحو، ومنه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾: محاه الله عنك؛ مأخوذ من قولهم: عفت الرياح الآثار: إذا درستّها ومحتّها. ومعنى (العفو): المتجاوز عن السيئات، وكذلك الغفور: الساتر لذنوب عباده المتجاوز عنها. لكن إذا اجتمع العفو والغفور، صار المراد بالعفو: ما يقابل ترك الواجب، والغفور: ما يقابل فعل المحرم؛ أي: عفو عن التفريط في الواجب، غفور عن فعل المحرم.

الْوَلِيِّ^(١) وَالْمَوْلَى^(٢)، وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَمَوْلَاهُمْ^(٣).

حَفِيٍّ بِعِبَادِهِ^(٤)، كَافٍ عِبَادَهُ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ^(٥)، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ الَّذِي يَسْتَعِينُ بِهِ عِبَادَهُ فَيَعِينُهُمْ، وَالْهَادِي الَّذِي يَهْدِي خَلْقَهُ إِلَى مَصَالِحِهِمْ وَكَسْبِ رِزْقِهِمْ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُمْ، هُوَ حَسْبُنَا^(٦) وَنِعْمَ الْوَكِيلُ^(٧)، يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا وَكَفِيلًا^(٨).

لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ. يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ، وَاتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَنَادَاهُ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ، وَكَتَبَ لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً، وَعَتَبَ عَلَيْهِ.

وما أحدٌ أصبر^(٩) على أذى سمعه من الله؛ يدعون له الولد، ثم يعافيههم ويرزقهم.

(١) الْوَلِيُّ: هو الوالي، ومعناه مالك التدبير والمتولي للأمر والقائم به؛ كَوَلِّيَ الْيَتِيمَ، وَوَلِّيَ الْمَرْأَةَ فِي عَقْدِ النِّكَاحِ عَلَيْهَا، وَكَمَا يَقَالُ: لِلْأَمِيرِ الْوَالِي.

(٢) الْمَوْلَى: النَّاصِرُ وَالْمُعِينُ.

(٣) مِنَ الْوِلَايَةِ وَالْمَوْلَاةُ، أَي: نَصِيرُهُمْ وَظَهِيرُهُمْ، وَيَتَوَلَّاهُمْ بِعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ.

(٤) الْحَفِيٍّ؛ أَي: الْبَرُّ اللَّطِيفُ. أَي: بَارًّا عَوَّدَهُمْ مِنْهُ الْإِجَابَةُ إِذَا دَعَا.

(٥) وَفِي الْحَدِيثِ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَأَوَانَا؛ فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِي لَهُ).

(٦) أَي: كَافِينَا.

(٧) الْوَكِيلُ: هُوَ الَّذِي تَوَكَّلَ عَلَيْهِ الْأُمُورَ، الْمَفْوُضُ إِلَيْهِ تَدْبِيرَ خَلْقِهِ وَالْقَائِمُ بِمَصَالِحِهِمْ، وَالْحَافِظُ وَالْكَفِيلُ بِأَرْزَاقِ الْعِبَادِ الْقَائِمُ عَلَيْهِمْ بِمَصَالِحِهِمْ. وَحَقِيقَتُهُ أَنَّهُ يَسْتَقِلُّ بِالْأَمْرِ الْمَوْكُولِ إِلَيْهِ.

(٨) الْكَفِيلُ: الْوَكِيلُ وَالْحَفِيزُ وَالشَّهِيدُ وَالْعَائِلُ وَالضَّامِنُ.

(٩) حَقِيقَةُ الصَّبْرِ: مَنَعَ النَّفْسَ مِنَ الْإِنْتِقَامِ أَوْ غَيْرِهِ؛ فَالصَّبْرُ نَتِيجَةُ الْإِمْتِنَاعِ، فَأُطْلِقَ اسْمُ الصَّبْرِ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى.

وَهُوَ التَّوَابُ^(١) يفرح بتوبة عبده، شَاكِرٌ شَكُورٌ^(٢)، لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمْلُوا^(٣).

وإن الله تعالى يغار^(٤)، وغيره الله تعالى أن يأتي المرء ما حَرَّمَ الله عليه، وَلَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ الله، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ الله حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ الله، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللهُ الْمُرْسَلِينَ، مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ. وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحَةُ مِنَ الله، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللهُ الْجَنَّةَ.

وَيُنْزِلُ اللهُ ﷻ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَجِيبُ لِمَنْ سَأَلَهُ، وَفِي يَوْمٍ عَرَفَةَ يُدْنُو ثُمَّ يباهي بعبادِهِ الْمَلَائِكَةَ. وَعَجِبَ^(٥) رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ، وَيُضْحَكُ^(٦) اللهُ ﷻ وَيُدْخِلُ مَنْ شَاءَ جَنَّتَهُ.

(١) العبد توابٌ إلى الله من ذنبه، والله توابٌ عليه؛ أي: يوفقه للتوبة، ويقبل توبته ويعفو عنه.
(٢) الشكور: من صفات الله جل اسمه، معناه: أنه يزكو عنده القليل من أعمال العباد، فيقبل العمل الصالح من عباده مهما قلَّ، ويثيبُ عليه، ويضاعف لهم الجزاء، ويثيبهم على ما عملوا، بأكثر مما عملوا. ومن شكره لعباده: مغفرته لهم، والله ﷻ شكورٌ للعبد؛ أي: يشكر له عمله؛ فيجازيه عليه.

(٣) قيل المعنى: لا يملُّ من ثواب أعمالكم، حتى تملُّوا من العمل. والله أعلم.
(٤) الغيرة: هي الكراهية للشيء، وذلك جائز في صفات الله. وقد قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ أُنْعَاثَهُمْ﴾.

(٥) صفات الله ﷻ كاملة ولا تشبه صفات المخلوقين، فعجب المخلوقين يكون عن جهل، وأما عجب الرب تعالى فليس كذلك، بل هو عن سابق علم، فيأتي بمعنى استحسان الفعل أو تعظيم أمره بذكره بهذه الصفة اللاتقة به ﷻ.

(٦) كما يليق بجلاله سبحانه من غير تشبيه، وفي الصحيح: (أن رجلاً ينجيه الله من النار ويدنيه من الجنة، فيقول: «يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي أَشَقَى خَلْقِكَ» فيَضْحَكُ اللهُ ﷻ مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ). وصح أيضاً في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: (يَضْحَكُ اللهُ ﷻ إِلَى رَجُلَيْنِ، يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ ثُمَّ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ) فقالوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: (يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ فَيُسْتَشْهِدُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيَهْدِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ فَيُسْتَشْهِدُ).

وَأَحَلَّ مَقْتَهُ وَسَخَطَهُ وَغَضَبَهُ عَلَى الطَّعَاةِ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ لَا يَتُوبُونَ، وَكَرِهَ أَنْبِعَاثَ الْمُنَافِقِينَ فَتَبَّطَهُمْ، يُخَادِعُونَهُ وَهُوَ خَادِعُهُمْ. وَيَمْكُرُ لِعِبَادِهِ عَلَى مَنْ يَمْكُرُ عَلَيْهِمْ^(١)، وَيَسْتَهْزِئُ بِالْمُسْتَهْزِئِينَ بِآيَاتِهِ وَعِبَادِهِ، وَيَسْتَدْرِجُ الْكَافِرِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَإِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ؛ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ^(٢).

وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ^(٣) وَالْعِقَابِ، مُنْتَقِمٌ^(٤) مِنَ الْمُجْرِمِينَ، ذُو بَطْشٍ شَدِيدٍ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

وَاللَّهُ تَسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا^(٥) دَخَلَ الْجَنَّةَ. لَهُ سُبْحَانَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتُ الْعُلَى.



(١) المكر هو: التوصل إلى إيقاع الخصم من حيث لا يشعر. والمكر في محله محمود؛ يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على خصمه. ولا يوصف الله به على الإطلاق، فلا يجوز أن تقول: «إن الله ماهر أو خادع»، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام يكون مدحاً، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾.

(٢) قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

(٣) ذو سرعة في محاسبة عباده يومئذ على أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

(٤) والله عزيز ذو انتقام. ولم أقف على دليل صحيح بأن (المنتقم) من أسماء الله.

(٥) معنى (أحصاها): أي عرفها لفظاً ومعنى، وتعبده الله بمقتضاها، وليس المقصود حصر الأسماء الحسنى بهذا العدد، وذكر بعض العلماء أن المعنى - والله أعلم - : إذا أحصيت تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله فإنك تدخل الجنة. ولم يصح حديث في عددها وسردها، وقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه: (أو استأثرت به في علم الغيب عندك) يدل على أن من أسماء الله ما استأثر الله به، وما استأثر الله به فلا يمكن الوصول إليه. وكان الكفار ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي: يشركون. ومنه أنهم سمو اللات من الإله، والعزى من العزيز. أو أنهم يدخلون فيها ما ليس منها.

بدء الخلق

والله فوق عرشه^(١)، وكان عرش الله على الماء^(٢)، وأوّل ما خلق الله القلم؛ قال

(١) العرش: سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو سقف المخلوقات؛ بمعنى أنه فوق السماوات والأفلاك والأجرام، وهذا لا يمنع أن يوضع عليه شيء، كالكتاب الذي ذكره النبي ﷺ في قوله: (لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي) رواه البخاري (٧٤٥٣) ومسلم (٢٧٥١). والرب تعالى يمتنع أن يحتاج إلى شيء من مخلوقاته، لا إلى العرش، ولا إلى غيره، ولا يحيط به شيء من الموجودات؛ إذ هو الظاهر فليس فوقه شيء، فهو غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، ولهذا لم يكن ما وصف الله به نفسه مماثلاً لصفات المخلوقين، كما لم تكن ذاته كذوات المخلوقين، فهو مستو على عرشه، كما أخبرنا عن نفسه مع غناه عن العرش، وهو الحامل بقدرته العرش وحملة العرش.

(٢) وعن ابن عباس ؓ أن الماء كان: «عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ»، أخرجه ابن جرير في «تفسيره»: (١٥ / ٢٤٩)، والدارمي في «الرد على بشر المريسي»: ص ٤٤٥، وابن أبي عاصم في «السنة»: (١ / ٢٥٨)، والحاكم في «المستدرک»: (٢ / ٣٤١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»: ص ٤٨٠. كلهم بإسنادهم عن سفيان عن الأعمش بنحوه. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وإسناده جيد موقوف. وعن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾. قال: «إن الله تعالى ذكره كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء فسما عليه، فسماه سماءً، ثم أيسس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعل سبع أرضين في يومين..». أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (ص ٢٤٣)، والبيهقي في «الصفات» (ص ٣٧٩ - ٣٨٠)، وقال الألباني في «مختصر العلو للعلی العظیم، للذهبي» ٥٤: إسناده جيد. وقال مجاهد: (إنه تعالى أيسس الماء الذي كان عرشه عليه، فجعله أرضاً، وثار منه دخان، فارتفع فجعله سماءً، فصارت خلق الأرض قبل

له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة (إلى الأبد)، كتب مقادير الخلائق (القدر)، وكتب في الذُّكْر (اللوْح المحفوظ) كل شيء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

وعرش الله هو كالقبة على العالم وله قوائم، والكرسي أمام العرش كالمقدمة له أو تحته كالمرقاة له، والمرقاة: هي ما يُرقى عليه. وهو بالنسبة إلى العرش كحلقة صغيرة في صحراء، والكرسي محيط بالسماوات والأرض، وهن في جوفه كحلقة صغيرة في صحراء. والعرش والكرسي والعالم العلوي والسفلي كله بالنسبة إلى الخالق ﷻ في غاية الصغر.



السَّماء، ثُمَّ قَصَدَ أَمْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَتْ إِذْ خَلَقَهَا غَيْرَ مَدْحُوءَةٍ. أوردَه القرطبي في تفسيره بلفظه دون إسناد (١/ ٢٥٥)، وأخرجه مسندًا بمعناه: عبد الرزاق في تفسيره (٢٩)، وابن جرير في التفسير (١/ ٤٦٣)، وابن أبي حاتم في التفسير (٣٠٥).

خلق السماوات والأرض

في الحديث عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَيْنِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ^(١)، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَوْمَ السَّابِعِ»^(٢).

وفي الحديث أيضًا: «خَلَقَ ﷻ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ (وَخَلَقَ التَّنُّنَ)^(٣) يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ (وَخَلَقَ النَّوْنَ)^(٤) يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ ﷺ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا

(١) جمهور العلماء على أنها أيام كأيامنا. وعن ابن عباس ؓ أن اليوم الواحد من الأيام الستة بألف سنة. وعن ابن عباس، وعن مَرَّة، وعن ابن مسعود، وعن ناسٍ من أصحاب النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾. قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَلَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا غَيْرَ مَا خَلَقَ قَبْلَ الْمَاءِ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ أَخْرَجَ مِنَ الْمَاءِ دَخَانًا، فارتفع فوق الماء فسمما عليه، فسماهُ سماءً، ثم أَيْسَ الْمَاءَ فَجَعَلَهُ أَرْضًا وَاحِدَةً، ثُمَّ فَتَقَهَا فَجَعَلَ سَبْعَ أَرْضِينَ فِي يَوْمَيْنِ...» أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (ص ٢٤٣)، والبيهقي في «الصفات» (ص ٣٧٩ - ٣٨٠)، وقال الألباني في «مختصر العلو للعلی العظيم، للذهبي» ٥٤: إسناده جيد.

(٢) اليوم السابع هو يوم الجمعة، لحديث التربة في صحيح مسلم.

(٣) التَّنُّنُ: هو ما يقوم به المعاش ويصلح به التدبير؛ كالحديد وغيره من جواهر الأرض. وفي صحيح مسلم: (وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ). ولا ينافيه لأن كلاً منهما خلق فيه. وبعضهم

فسر المكروه بالشر، وبعضه مثل للمكروه بالظلام والأمراض والسموم وكل ما يؤلم.

(٤) جاءت رواية (النون) بدل النور، ومعناه: الحوت، ويحتمل أن يكون كلاهما خلقا يوم الأربعاء، والله سبحانه أعلم.

بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ^(١).

واليهود اختاروا يوم السبت عيداً لهم؛ لأنهم اعتقدوه اليوم السابع، ثم زادوا لكفرهم وادعوا أن الله استراح فيه، تعالى الله عن قولهم، وظنوا أن بدء الخلق كان في يوم الأحد، وأن آخر الستة الأيام التي خلق الله فيها الخلق الجمعة، وهو أيضاً مذهب النصارى الباطل؛ حيث اختاروا الأحد لأنه ظنوه أول الأيام في زعمهم.

وقد شهد الرسول ﷺ للفريقين بإضلال اليوم، وقال كما في صحيح مسلم: «إن الله خلق التربة يوم السبت». فبين أن أول الأيام التي خلق الله فيها الخلق: السبت، وآخر الأيام الستة إذا الخميس، والأسبوع عرف بإخبار الأنبياء أن الله خلق هذا العالم

(١) رواه مسلم في صحيحه، والنسائي في التفسير في السنن الكبرى وأحمد في المسند ورواه غيرهم، وصححه الشوكاني والألباني، وقد تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعاً، وأعل بعضهم منته حيث أشكل عليهم أن الله أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأن هذا الحديث يقتضي أن مدة تخليق الأرض وحدها سبعة أيام وأنه لم يذكر السماء. ويزيل هذا الإشكال بيان معنى الحديث، حيث ذكرت الأيام السبعة في الحديث، والأيام الستة في القرآن، والحديث يتحدث عن شيء من التفصيل الذي أجراه الله على الأرض، فهو يزيد على القرآن ولا يخالفه. وإن لم ينص على خلق السماء والتي خلقت من بخار الماء الذي تحت العرش وهو الدخان كما ذكر بعض العلماء في تفسير آية فصلت؛ فقد أشار إليها بذكر النور في اليوم الخامس، وفي السادس الدواب، وحياة الدواب محتاجة إلى الحرارة، والنور والحرارة مصدرهما الأجرام السماوية. وخلق الأرض نفسها كان في أربعة أيام كما في القرآن، والقرآن لما ذكر خلق الأرض في أربعة أيام، لم يذكر ما يدل أن من جملة ذلك خلق النور والدواب، ولما ذكر خلق السماء في يومين لم يذكر ما يدل أنه في أثناء ذلك لم يحدث في الأرض شيئاً، والمعقول أنها بعد تمام خلقها أخذت تتشكل بما أودعه الله تعالى فيها، والله ﷻ لا يشغله شأن عن شأن. ويرجع للفائدة إلى السلسلة الصحيحة للألباني (٢/ ٧٢٦) رقم «١٨٣٣»، وبحث: (إزالة الشبهة عن حديث التربة) لعبد القادر بن حبيب الله السندي، المنشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة العدد ٤٩ صفحة ٢٩.

في ستة أيام، ثم استوى ربنا على العرش يوم السابع.

وقال النبي ﷺ: «أضلَّ الله ﷻ عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله ﷻ بنا فهدانا ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم لنا تبع يوم القيامة، ونحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلاق». رواه مسلم.

وجعل الله خلقه وإبداعه وإنعامه على المخلوقين وتريتهم بنعمه؛ آيات ودلائل على ربوبيته، فهو رب العالمين، تسبَّح له وتقدس السماوات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره، وما من شيء من المخلوقات إلا يسبِّح بحمد الله.

والسما مبنية بناءً حقيقياً شديداً بلا أعمدة، كما وصفها الله في كتابه بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ يَغْيَرِ عَمَدٍ تَرْوْنَهَا﴾ [لقمان: ١٠] ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبا: ١٢]، لها كثافة وأبواب وسكان، حتى أنها تصدر أصواتاً من ثقل ما عليها، كما في الحديث: (أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنُطَّ)^(١). وهي سبع سماوات واحدة فوق الأخرى، وهذا الذي دل عليه القرآن، وليست كما يقول ملاحدة اليوم وغيرهم: إنها فضاء وفراغ، فيسمون الفوق فضاءً، أي: ليس فيه شيء، ويزعمون أنه ليس فيه إلا هذه الكواكب التي تسبح في الفضاء!!

إنَّ الناس - مع تطور تقانتهم ومركباتهم النفاثة - لم يصلوا إلى السماء، ولا قريباً منها، بل يقفون عند حدهم، فهم ضعفاء، والسماء عالية بعيدة، وهذه الكواكب والنجوم إنما تسبح في أفلاكها بين الأرض والسماء الدنيا (السفلى).

لكن الله أعطى بعض الجن قدرة أن يصعدوا فوق بعضهم لكي يصلوا إلى قرب

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠)، انظر الصَّحِيحَة (ح/ ١٧٢٢).

السماء الدنيا لاستراق السمع كما جاء في الحديث^(١)، وحُرِسَت السماء بالشهب، وقيل: زيدت عند بعثة النبي ﷺ، فالذي يسترق السمع من الجن؛ يُرسل عليه الشهاب، فيأخذه قبل أو بعد أن يلقي ما استرقه إلى من تحته. كما في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمَعِ ۖ فَصَنَعَ يَسْمِعَ ۙ أَلَّا يَسْمَعَ ۚ لَهَا شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٨ - ٩].

والسماوات والأرض كانتا رتقا، أي: ليس فيهما ثقب، كما بينه أهل التفسير عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وكانتا ملتصقتين، الجميع متصلاً ببعضه ببعض متلاصق متراكم، بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق ربنا هذه من هذه، فجعل السماوات سبعا، والأرض سبعا، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، وفتقت السماء أيضا بما ينزل منها ويعرج فيها، والأرض بما يخرج منها، وأمطرت السماء ماء، وأنبت الأرض، وجعل الماء أصل الأحياء على الأرض.

وجاء في السنة ذكر المسافات بين الأرض والسماء، فعن عبد الله بن عمرو بن العاصي ؓ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ رَصَاصَةً مِنْ هَذِهِ مِثْلُ هَذِهِ وَأَشَارَ إِلَى مِثْلِ الْجُمُجْمَةِ أُرْسِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَهِيَ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ لَبَلَغَتْ الْأَرْضَ قَبْلَ اللَّيْلِ، وَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِذَا الْأَعْلَىٰ فِي أَغْنَقِيهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١﴾ [غافر: ٧١]^(٢).

(١) الحميدي (١١٨٥)، والبخاري (٤٧٠١)، وابن ماجه (١٩٤)، وأبو داود (٣٩٨٩)، والترمذي (٣٢٢٣). وعبد بن حميد (٦٨٣)، والبيهقي في «الدلائل» ٢ / ٢٣٨ من طريق عبد الرزاق. والطحاوي في «شرح المشكل» ٣ / ١١٣، وأبو نعيم في «الحلية» ٣ / ١٤٣، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص ٢٠٣ - ٢٠٤، وفي «دلائل النبوة» ٢ / ٢٣٦ من طرق عن الأوزاعي.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤ / ٤٩٤) وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجْهُ»،

وخمسمائة عام بمسير الإبل المعتاد تعادل تقريباً: (٩) تسعة ملايين كم فقط^(١)، وعليها فتقدر المسافة الحقيقية بين سطح الأرض ونهاية السماء السابعة بـ (١٢٦) مليون كم فقط، والله أعلم. وليست المسافة بمبالغات الأرقام التي يذكرها الغربيون بتريليونات السنين الضوئية لإيهاهم قدرات رصدتهم، وتقانات حسابهم، وإشعار الناس بعجزهم عن بلوغ تطورهم، والتعقيب والاستدراك عليهم، واكتشاف خطئهم وتضليلاتهم المبنية على نظريات غير مثبتة، وأوهام وتخيلات.

والله ﷻ أصدر رسوله إلى السماء السابعة في ليلة واحدة - ليلة الإسراء والمعراج - وكذلك ثبت أنه إذا قبض العبد الصالح فإن روحه يُصعد بها إلى السماء السابعة ثم تعود، وهذا كله يقع قبل أن يُدفن، أي: ما بين موته وتجهيزه والصلاة عليه ووضعها في قبره، فإذا وُضع في قبره أعيدت روحه إليه، وبعدها يوقف في القبر ويُسأل أسئلة القبر. وجمهور علماء المسلمين وغيرهم منذ القدم يقولون بـ (كروية الأرض) وأنها على شكل كرة وأن السماء محيطة بها، والمعاصرون يقولون: (كروية) وبعض الأقدمين يصفونها بقولهم (كرية) بتشديد الياء، كما يصطلح المعاصرون بتسمية: (علماء الفلك) بدلاً من (أهل الهيئة) وأهل الهندسة والحساب والتنجيم كما يطلق عليهم الأقدمون.

ووافقه الذهبي في التلخيص ٣٦٤٠. وأخرجه أحمد في المسند (١١ / ٦٨٥٦) و(٦٨٥٧). وأخرجه الترمذي وحسنه (٢٥٨٨) ولم يذكر التلاوة.

(١) جاء في حديث ضعيف الإسناد في سنن ابن ماجه أن ما بين السماء والأرض مسيرة ثلاثة وسبعين سنة أو نحوها، وكذا بين كل سماء وسماء. قال الذهبي: «لا منافاة بينهما لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلاً، ونيف وسبعون سنة على سير البريد، لأنه يصح أن يقال بيننا أي بين الشام وبين مصر عشرون يوماً؛ باعتبار سير العادة، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد». ينظر: العرش للذهبي (٢ / ٤٢).

فالسما كروية تحيط بالأرض من كل جانب، فكما أن الأرض على شكل كرة؛ فإن السماوات السبع أيضًا كذلك، بعضها على بعض كقشور البصلة، والأرض كرة في المركز الوسط، تحيط بها السماء الدنيا من كل جانب، فطبقات السماوات الكروية بعضها فوق بعض كطبقات البصلة، وإحاطة السماء الدنيا بالأرض كمثل إحاطة قشرة البيضة أو قشرة البطيخة بما في باطنها، ووضح أهل العلم الأدلة على كروية الأرض والسما^(١).

كما بينوا حركة الشمس والقمر، وأن القمر يبدو أول ليلة من الشهر هلالاً في المغرب، ثم يتأخر كل ليلة نحو المشرق منزلاً، ثم يطلع ليلة الرابع عشر من المشرق قبل غروب الشمس، بدرًا تامًا، وليلة ثمانٍ وعشرين يبدو عند الفجر كالهلال من المشرق، وتختلف مطالعه باختلاف منازلها. وفي كل ليلة من السنة يكون للقمر طور مختلف (قدر ما يعكسه من ضوء الشمس) مع خلفية نجمية مختلفة (ما يظهر من النجوم التي تظهر خلفه في منازلها) فلا يجتمع له ذلك الطور وتلك المنزل معًا في ليلة

(١) ممن بين ذلك من العلماء المتقدمين: ابن حزم في الملل والنحل (٢/ ٧٨)، وابن تيمية في الرسالة العرشية (١٤، ٢١، ٢٢، ٢٤، ٣٧) وفي مجموع الفتاوى (٦/ ٥٨٧) و(٥/ ١٥٠)، وياقوت الحموي في معجم البلدان (٢/ ٣٧٩)، والنيسابوري في تفسيره (٥/ ٢٠٨)، والغزالي في كتاب معيار العلم (ص ٢)، والفخر الرازي في تفسيره (٢/ ٤٩١ - البقرة: ١٦٤)، وابن القيم في التبيان في أقسام القرآن (ص ١٩)، والمقدسي في مقدمة كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (١/ ٢١)، والذهبي في مختصر العلو (ص ٧٣)، والقلشندي في صبح الأعشى (١/ ٤٠٨)، وابن حيان في تفسير البحر المحيط (٧/ ٨٠)، وأبو بكر الصوفي كما جاء في وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/ ٣٥٩)، وابن النفيس في شرح كتاب تشريح قانون ابن سينا (ص ١١٢)، وصاحب تحفة المحتاج في شرح المنهاج (٤/ ٤٠٠ كتاب الصلاة)، وابن خرداذبة في مطلع كتابه المسالك والممالك، والمسعودي في مروج الذهب (١/ ٢٥٣)، وأبو محمد الجويني في رسالة في إثبات الاستواء والفوقية (١/ ٨١)، وابن الجوزي في المنتظم (١/ ١٨٤)، وغيرهم.

أخرى طوال السنة، فهو في كل ليلة في اختلاف في مقدار ما يعكسه من ضوء الشمس مع ما يظهر خلفه من النجوم، فيعرف بذلك الوقت من الشهر، وكذلك الموسم من السنة. ولا يقع خسوف للقمر إلا في منتصف شهر قمري حال كونه بدرًا.

والشمس تطلع من المشرق، وتغرب في المغرب، وتختلف مطالعها ومغارها، على حسب اختلاف منازلها. وعندما تكون الشمس في جهة الشمال؛ يطول النهار ويشتد الحر ويقصر الليل، وعندما تكون في الجنوب؛ يكون عكس ذلك. ولا يقع كسوف الشمس إلا في نهاية شهر قمري.

والقمر كان متوهجًا مضيئًا كالشمس ثم مُحي ضوءه، وقال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، وروي عن عبد الله بن عباس ؓ أنه قال: «كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار»^(١).

وقد سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يريهم آية؛ فأراهم انشقاق القمر بمكة فلقنتين، حتى رأوا حراء بينهما، فستر الجبل فلقة، وكانت فلقة فوق الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا، اشهدوا».

والأفلاك هي مدارات الشمس والقمر والنجوم والكواكب السيارة، وكلها واقعة بين السماء الدنيا المبنية والأرض. مُسَخَّرَةٌ وَمُسَيَّرَةٌ بأمر الله تعالى. ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، قال ابن عباس: «في فلكة كفلكة المغزل، ومنه قولهم: تفلك ثدي الجارية إذا استدار، وأهل الهيئة والحساب متفقون على ذلك».

وقد فسر الإمام مجاهد معنى: ﴿مُحْسَبَانِ﴾ في قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٤ / ٥١٦ - ٥١٧، وفي تاريخه ١ / ٧٧. وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤ / ١٦٦ إلى الطبري وابن المنذر.

يُحْسَبَانِ ﴿٥﴾ [الرحمن: ٥] فقال: «يَعْنِي: بِحُسْبَانٍ كَحُسْبَانِ الرَّحَى»^(١)، وحُسبان الرحي - أي قُطبها - وهو قائم من حديد تدور عليه الرحي، والرحي: هي المطحنة، والمعنى: أن الشمس والقمر يدوران بحركة دائرية في مثل قطب الرحي، كما قال ابن عطية والقرطبي في تفسيريهما.

وقال الفراء: «حسابٌ ومنازلٌ للشمس والقمر لا يعدوانها». فشمّل معنى ﴿يُحْسَبَانِ﴾: هيئة حركتهما الدائرية في الفلك، وانضباطهما في سيرهما زماناً بحساب متقن.

والأرض ثابتة في مركز الكون^(٢)، لا تجري في فلك، ولا تسمى كوكباً^(٣)، ولا تدور حول الشمس، ولا حول نفسها، بل توصف بأنها مركز السفّل والنزول والقرار.

(١) تفسير مجاهد (ص ٦٣٦).

(٢) للاستزادة والتوسع العلمي في موضوع ثبات الأرض وعدم دورانها بالأدلة العلمية التي لم تستوعب جميعها في هذا الموضوع المختصر؛ يمكن الرجوع إلى كتاب: (لماذا حركوا الأرض؟) تأليف: ياسر فتحي وحسن عليّة، المنشور على شبكة الألوكة alukah.net. وكتاب (تحدي الظن) تأليف: هاني أحمد سيد دعلوبه، إصدار مركز الحضارة العربية. ورسالة: (الأدلة النقلية والحسية على إمكان الصعود إلى الكواكب وعلى جريان الشمس والقمر وسكون الأرض) للشيخ عبدالعزيز بن باز. وكتاب (الصواعق الشديدة على اتباع الهيئة الجديدة) للشيخ حمود بن عبدالله التويجري، وكتابه الآخر (ذيل الصواعق لمحو الأباطيل والمخارق). وغيرها من الكتب المتقدمة والمتأخرة المشار إليها في موضوعات هذا الكتاب.

(٣) قال الشيخ حمود بن عبدالله التويجري في كتابه «الصواعق الشديدة على اتباع الهيئة الجديدة» (ص ١١٧، ١٥٩): «كذب وافترى على الله تعالى من سماها كوكباً؛ لأن الله تعالى الذي خلقها سماها أرضاً. والكوكب هو النجم، ومحله العلو. والكوكب من وصفه الإضاءة والإشراق والطلوع والأفول، والأرض بخلاف ذلك.. وإنما أطلقوا عليها اسم الكوكب لأنهم زعموا أنها تسير كما تسير الكواكب وتدور على الشمس، وقد تقدم رد هذا وبيان بطلانه».

ونجد أن الكتب السماوية قد خاطبت الناس بما عهدوه وأحسوه من سكون الأرض واستقرارها، وأسندت الأفعال في الحركة إلى الشمس التي تطلع وتغرب وتأفل وتجري في فلك، فالشمس كما يراها الناس تدور حول الأرض، تشرق وتغرب، فيكون الليل والنهار بإذن الله، ومع دورانها فهي ترتفع صاعدة إلى أوجها، ثم هابطة إلى حضيضها، تنتقل في منازل فيحصل بتقدير الله اختلاف الفصول من الصيف والشتاء والخريف والربيع.

وقد ظهرت نظرية مركزية الشمس ودوران الأرض مع بداية ظهور الإلحاد في أوروبا عام ١٥٤٣م، ثم وجدت الدعم السياسي الاستعماري، حيث ظهرت في بداية عصر النهضة في أوروبا التي كانت متخلفة كثيراً عن الحضارة الإسلامية في ذلك الوقت، وأراد ملوك أوروبا التخلص من تحكّم رجال الدين بهم، وأطلقوا عبارات: «الكنيسة ليست مركز الكون» و«إذا كانت الكنيسة على خطأ؛ فلا سمح لهم ولا طاعة». وعظّم الملحدون الشمس والنار ليجعلوا الشمس مركز الكون، وليتبعوا الشيطان في قياسه الفاسد حين أمر بالسجود لآدم فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، ومن العجائب أن أصبح معتقد (دوران الأرض) المزعوم عند كثير من أهل هذا الزمان من المسلّمات التي لا يُنازع فيها، ولعلّ السرّ في بذل إبليس كل هذه العناية والرعاية لهذه النظرية؛ هو أن نفي دورانها يهدم كثيراً من نظريات الملاحدة.

وأعظم علماء الفلك الأقدمين هو كلوديوس بطليموس، الذي عاش معظم حياته في الإسكندرية وتوفي قربها نحو عام ١٥٠م، قد رفض النظرية القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس، ويرى أن العكس هو الصحيح، وقد ألّف كتابه (المجسطي)، وهو أول كتاب دوّن فيه علم الفلك.

وأما كوبرنيك - الذي أعاد إظهار الانحراف الفيثاغورسي بزعم مركزية الشمس عام ١٥٤٣ م - فقد جاء بعده من العلماء من رد على تناقضاته، وأقام الحجج العلمية عليه، مثل: ريكسيولي riccioli (١٥٩٨ - ١٦٧١)، وشاينر Christoph Scheiner (١٥٧٥ - ١٦٥٠)، وأنطوان ديوسينج Anton Deusing (١٦١٢ - ١٦٦٦) الذي ألّف كتابه ليبرهن على أن الأرض في مركز الكون، وأن يلغي كل تعقيدات كوبرنيك، من خلال براهينه الطويلة التي يستخلص منها أنه لا ضرورة لتحريك الأرض، ولا لجعل النجوم بهذه المسافات الشاسعة^(١).

وهناك الكثير من فلاسفة العلم ممّن نظروا في حقيقة علم الفيزياء الفلكية في أصل الكون يُقررون أن علم الفيزياء الفلكية في أصل الكون ليس علمًا ثابتًا، ولا يُصنّف باعتباره علمًا، ومنهم: توماس كون Thomas Kuhn وبول فايرابند Paul Feyerabend وويلارد كواين Willard Quine وغيرهم الكثير. ويقول عالم الرياضيات الأمريكي مارتن جارندر Martin Gardner: «الأفكار السائدة اليوم في الفيزياء، ليست سائدة؛ لأنها مطابقة للواقع، ولكن لأنها الأسهل والأيسر رياضياً».

فكثير من المعادلات تُقبل فقط لمجرد أنها جماليًا أفضل من غيرها، حتى يقول عالم الفيزياء البريطاني بول ديراك Paul Dirac: «جمال المعادلة يثبت صحة النظرية أكثر من تجربتها». ونظرية عالم الرياضيات الأمريكي هيرمان فايل Hermann Weyl في القياس وُجد أنها لا تنطبق على الجاذبية، لكنها قُبلت لأنها جميلة.

كما أن عالم الرياضيات والفيزياء الفلكية البريطاني - الحاصل على جائزة نوبل - روجر بنروز Roger Penrose والذي يعد من أكبر علماء رياضيات اليوم، خرج

(١) عنوان كتابه:

Devero Systemate mundi dissertatio mathematica (Amestrdam 1643).

مؤخرًا ليعترف أنَّ أغلب هذا العلم وهمٌّ، وليقرر أنَّ (أغلب علم الفيزياء الفلكية في أصل الكون هو مجرد خيال)، مع أنَّه يومًا ما كان أحد أشهر واضعي النماذج الرياضية والفرضيات في هذا العلم، وقد أصدر بالفعل بعد ذلك كتابه: «السائد والإيمان والخيال في الفيزياء الفلكية المعاصرة»

«Fashion, Faith, and Fantasy in the New Physics of the Universe»

ومُلخَّص هذا الكتاب هو أن: «أغلب علم الفيزياء الفلكية المعاصرة في أصل الكون لا يمكن أن يكون صحيحًا».

وقد برز مؤخرًا في هذا العصر تيار من العلماء الغربيين يُعرفون بعلماء «النموذج الأرضي المتأخرين» (New Geocentric Model).

يقولون بالنموذج الأرضي الذي يُثبتون فيه بأدلتهم أن الأرض ثابتة، والشمس متحركة.



النجوم والأبراج

وجاء في القرآن الكريم والسُّنة المشرفة: أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ النُّجُومَ زِينَةً لِلْسَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَىٰ بِهَا، وَجَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا. وفي الحديث: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلْسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءُ مَا تُوعَدُ»^(١).

والبروج في تفسير جمع من العلماء هي: مجموعة أو تشكيلات متقاربة من النجوم الظاهرة، حيث يشاهد في السماء (اثنا عشر برجًا) تكمل دورتها حول الأرض خلال سنة وعشرة أيام وأجزاء من اليوم تقريبًا، ويكون تخيل هذه الأبراج على صورة حيوان أو صورة آلة في رؤية العين؛ فسميت كل مجموعة باسم تلك الصورة التي هي عليها. وذكروا أنها منازل تمر فيها الشمس في دورتها السنوية، وتشكل خلال هذه الدورة الفصول الأربعة.

فالشمس في دورانها حول الأرض تكون ظهرت أمام جميع هذه البروج، كل برج في شهر وزيادة أجزاء من اليوم، حتى تتم الأبراج دورتها في الفلك حول الأرض، ويسير القمر أمام الأبراج في ثمانية وعشرين يومًا وكسور. فكل برج له منزلتان وثلاث، ولكل فصل من الفصول الأربعة سبعة منازل.

ولا يظهر على القبة السماوية في الليل إلا ستة من هذه البروج، يغيب واحدًا منها كل شهر ويطلع مقابله برج جديد. والستة الأخرى تكون في الجهة المقابلة للكرة الأرضية حيث يكون النهار، فإن الشمس بضوئها الوهاج تحول دون رؤية البرج

(١) أي: أن النجوم ما دامت باقية، فالسمااء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة، وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت.

الذي يقع خلفها تمامًا، ولذلك يقولون حينئذ أن الشمس قد نزلت في ذلك البرج. ويستدلون على نزول الشمس في أحد البروج من خلال مراقبة البرج المقابل له تمامًا على فلك البروج (١٨٠ درجة) أو ما يسمى بالرقيب. فرقيب الحمل هو الميزان، وكذلك العكس، ورقيب الثور هو العقرب، وهكذا لبقية الأبراج. وعلى ذلك فإنه يمكن تحديد منزل الشمس في أي وقت من خلال معرفة البرج الرقيب الذي يطلع من جهة الشرق عند غياب الشمس، أو الذي يسقط في الغرب عند شروق الشمس.



التأريخ وحساب السنين والمواسم

وأما حساب الزمان والسنين فلا يستقيم إلا بالأشهر القمرية، منذ خلق الله هذا الكون، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال النبي ﷺ: (إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثُ مُتَوَالِيَاتٍ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ - الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ -) (١).

فالعام يتكون من اثني عشر شهراً قمرياً، والطريقة التي بينها الإسلام في حساب السَّنة والشَّهر والأسبوع واليوم هي أقوم طريقة؛ لأن العام (السَّنة) لم يكن له حد ظاهر في السماء، فكان لا بد فيه من الحساب والعدد، فكان عدد الشهور الهلالية أظهر وأعم من أن يحسب بسير الشمس أو النجوم، فجعلت السَّنة اثني عشر شهراً قمرياً هي: محرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الآخر، وجُمادى الأولى، وجُمادى الآخرة، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشَوَّال، وذو القعدة، وذو الحجة.

وبهذا يتبين معنى قول الله تعالى: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]؛ فإن عدد شهور السَّنة وعدد السَّنة بعد السَّنة إنما أصله بتقدير القمر منازل، وكذلك معرفة الحساب؛ فإن حساب بعض الشهور لما يقع فيه من الآجال ونحوها إنما يكون بالهلال.

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حجة الوداع: ٨٣٢ برقم (٤٤٠٦).

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. فأخبر الله أن هذا هو الدين القيم؛ ليبين أن ما سواه من عادات الأمم ليس قيماً لما يدخله من الانحراف والاضطراب.

فاليوم الطبيعي ليلته من غروب الشمس إلى شروقها، ونهاره من طلوع الشمس إلى غروبها، وأما الأسبوع؛ فهو عددي من أجل الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض ثم استوى على العرش، فوقع التوفيق بين الشمس والقمر في الحساب؛ فيكون حساب اليوم والأسبوع بسير الشمس، ويكون حساب الشهر والسنة بسير القمر، وبهما يتم الحساب المنضبط، فالهلال يكون توقيت الشهر والسنة، وليس شيء يقوم مقام الهلال أبداً؛ لظهوره وظهور العدد المبني عليه وتيسر ذلك وعمومه للناس أجمعين، وغير ذلك من المصالح الخالية عن المفساد.

فالسنة القمرية: هي اثنا عشر شهراً قمرياً، والشهر القمري يكون حسب رؤية الهلال إما ٢٩ أو ٣٠ يوماً.

وأهل الحساب الفلكي يذكرون أن: السنة القمرية: (٣٥٤) يوماً، وثمانى ساعات، و(٤٨) دقيقة، و(٣٦) ثانية! والسنة الشمسية: (٣٦٥) يوماً، وست ساعات، وتسع دقائق، و(٩، ٥) ثانية!! وهي مدّة وصول الشمس إلى النقطة التي فارقتها من نفس البرج.

والتأريخ القمري تأريخ كوني منذ خلق السماوات والأرض، والشهر فيه مرتبط بظاهرة كونية ميسرة وواضحة يراها جميع البشر وهي دورة القمر في أطواره كما يراه الناس، وبهذه الرؤية ترتبط العبادة الشرعية.

والله أخبرنا في كتابه أنه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ [يونس: ٥]، فالهاء في قوله: ﴿وَقَدَرَهُ﴾ تعود على

القمر. ليعلم الناس الأشهر وحساب السنين بآية ظاهرة للشهر يراها جميع الناس؛ وهي القمر.

ويعتمد المسلمون على النظر في الكون والشمس والقمر في توقيت عباداتهم الشرعية، وفي الحديث: (إِنَّ خِيَارَ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ يُرَاعُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ وَالْأَظْلَةَ لِذِكْرِ اللَّهِ) ^(١).

ففي الصلاة اليومية يعتمدون على مراقبة حركة الشمس وزوالها وغروبها وظلالها ومغيب الشفق الأحمر وظهور بياض الفجر الصادق في السماء.

ويعتمدون في توقيت العبادة الشرعية الشهرية والحولية؛ كصيام رمضان والحج وحول الزكاة على رؤية الأهلة، وكذلك بعض الكفارات ومدد الاعتداد والنذور وغيرها، لقوله ﷺ - لما ذكر شهر رمضان - «إنا أمة أمّية، لا نكتب، ولا نحسب» ^(٢) أي: لم نكلف في معرفة شهورنا وعباداتنا ومواقيت صومنا وحجنا وزكاتنا وصلاتنا إلى معرفة حساب فلكي ولا كتابة، وإنما ربطت عباداتنا ومواقيتنا بأعلام واضحة في السماء وأمور ظاهرة يراها الناس أجمعون، ويستوي في معرفتها الحاسبون المتعلمون وغيرهم من الأميين.

ثم قال ﷺ: «الشهر هكذا، وهكذا، وهكذا» - وأشار بيديه ثلاثاً يعني: ثلاثين - ثم قال: «وهكذا وهكذا، وهكذا» وقبض إبهامه في الثالثة - يعني: تسعاً وعشرين - يعني مرة يكون ثلاثين، ومرة تسعاً وعشرين.

وقال ﷺ: «فلا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غم عليكم

(١) الحديث حسن لغيره كما في «صحيح الترمذي» (٢٤٤). وأورده الألباني في الصحيحة (٣٤٤٠).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لا نكتب ولا نحسب (٢ / ٦٧٥).

فأكملوا العدة ثلاثين»، وفي رواية: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته»^(١).

وأما مواسم الصيف والشتاء والرياح والأمطار ومناسبة الزراعة والصيد وتكاثر النبات والحيوان فتكون بمعرفة مواقيت الأبراج وسير النجوم، ومنازل القمر فيها، وطوال النجوم في قبة السماء، فيهدي الناس بذلك إلى معرفة أوقات الفصول الأربعة وتغيراتها ومعرفة الاتجاهات كما قال الله ﷻ: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

ومن نعم الله أن جعل التغير بين عدد أيام السنة الكونية القمرية؛ مع عدد أيام ومدة دورة الأبراج. ونتيجة هذا التغير أن ينعم الناس بالفصول الأربعة الصيف والشتاء والخريف والربيع في كل شهرهم القمرية على مدى السنين؛ فيصومون شهر رمضان مرة في الربيع ومرة في الشتاء وأخرى في الصيف أو الخريف، ويتيسر الحج على الناس في غير الصيف أو الشتاء لمن لا يقدر على الحر أو البرد، وهكذا تتنوع الفصول والمواسم في سائر الشهور القمرية.

وقد قسّم العرب حركة القمر السنوية داخل حزام أو شريط أو دائرة الأبراج إلى ٢٨ منزلاً، وكل منزل منها يمثل منزلة وفسحة ينزل بها القمر ليلة واحدة، وتنزل الشمس في كل واحدة ١٣ يوماً، وكل منزلة منسوبة لنجم أو مجموعة نجوم تمثلها تكون مشاهدة في هذا الجزء من القبة الفلكية. وهي: الشَّرْطَانُ، والبُطَيْنُ، والثُّرَيَّا، والدَّبْرَانُ، والهُقْعَةُ، والهُنْعَةُ، والذَّرَاعُ، والنَّثْرَةُ، والطَّرْفُ، والجَبْهَةُ، والزُّبْرَةُ، والصَّرْفَةُ، والعَوَاءُ، والسَّمَاكُ، والغَفَرُ، والزُّبَانَى، والإِكْلِيلُ، والْقَلْبُ، والشَّوْلَةُ، والنَّعَائِمُ، والْبَلْدَةُ، وسَعْدُ الذَّابْحِ، وسَعْدُ بُلْعٍ، وسَعْدُ السُّعُودِ، وسَعْدُ الْأَخِيَّةِ، والفَرْعُ الْمُقَدَّمُ، والفَرْعُ الْمُؤَخَّرُ، وبَطْنُ الْحُوتِ^(٢).

(١) أخرجه البخاري برقم (١٩٠٩)، ومسلم برقم (١٠٨١) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه مالك (٧٨١)، وعبد الرزاق (٧٣٠٧)، وابن أبي شيبة (٩١١٦)، وأحمد (٤٤٨٨)، والدارمي (١٨٠٧)، والبخاري (١٩٠٦)، ومسلم (٢٤٦٥)، وأبو داود (٢٣٢٠)، والنسائي (٢٤٤٢).

(٢) ينظر: اليانغ في البروج والطوالع، لعبدالله أبو عباة. ودليل الساري والمزارع في معرفة البروج والطوالع لعبدالعزیز آل عبدالله.

وهذه المنازل كانت دليلاً لهم في حركة حياتهم والاهتداء لمواعيد الزراعة وحصاد المحاصيل، وصيد البر والبحر والطير في مواسم هجرة وتكاثر تلك الدواب، ومواسم الأمطار والجفاف، ومواقيت المد والجزر، ومواسم فيضان مياه الأنهار، ومن خلالها كانوا يحددون مواعيد حروبهم وغيرها.

فمنازل القمر أو الأنواء وطوالع النجوم التي تظهر في السماء إنما هي علامات ومواقيت، والله خالقها وهو مسبب الأسباب، ولا يكون شيء إلا أن يشاء الله ﷻ وبتقديره ﷻ.

وقد كان التأريخ عند الرومان (التقويم الروماني) قمرياً، لكن السنة فيه تتألف من عشرة أشهر فقط، حتى جاء ملك روما (توما الثاني ٧١٦ - ٦٧٣ ق.م) الذي أضاف شهري يناير وفبراير وأصبحت السنة تتألف عندهم من ٣٥٥ يوماً.

ثم في قرابة سنة ٤٥ قبل الميلاد عدّل الإمبراطور يوليوس قيصر (التقويم الروماني) القديم بالاستعانة بأحد الفلكيين الإسكندرانيين يدعى سوسيجنيو، على أن السنة تتكون من ٣٦٥، ٢٥ يوماً، وفي الحقيقة لا توجد سنة تتكون من هذا العدد وهذا الكسر من الأيام، وإنما هي دورة الأبراج الإثنا عشر حول الأرض، فأرادوا أن يوافقوا الشهور والأيام مع دورة الأبراج، لتكون مواسم الفصول الأربعة في أشهر محددة، فابتدعوا فكرة الأشهر الشمسية التخيلية؛ لأنهم يعظمون الشمس، وجعلوا السنة ٣٦٥ يوماً، وأضافوا لها من عند أنفسهم يوماً إضافياً للتصحيح كل أربع سنوات، وسمّوا سنة التصحيح الحسابي: (سنة كبسة) وأيامها ٣٦٦ يوماً، وجعلوا عدد أيام الأشهر الفردية: فردياً مكوناً من ٣١ يوماً، وعدد أيام الأشهر الزوجية: زوجياً مكوناً من ٣٠ يوماً.

لكنهم وقعوا في إشكال وهو أن المجموع سيكون (٣٦٦) يوماً وليس (٣٦٥)

يومًا للسنة، فحذفوا اليوم الأخير من الشهر الثاني وهو شهر فبراير الزوجي فأنقصوه من (٣٠) إلى (٢٩) يومًا، ليكون مجموع أيام السنة العادية (٣٦٥) يومًا، ويكون شهر فبراير في السنة العادية ٢٩ يومًا، وفي السنة الكبيسة التصحيحية يضاف له يوم التصحيح والتكيس ليكون ٣٠ يومًا.

وسمي هذا (التقويم اليولياني) نسبة إلى تعديل الإمبراطور (يوليوس قيصر) الذي سمّا الشهر السابع باسمه، لأنه انتصر فيه أو وُلد فيه.

ثم جاء من بعده الإمبراطور أغسطس، وسمّا الشهر الثامن باسمه، ولكن لأن أيام أغسطس (٣٠) يومًا فقط وهي أقل من أيام يوليو البالغة (٣١) يومًا؛ أمر أغسطس الفلكيين أن يزيده يومًا ليكون مثل شهر يوليو، فأخذوا يومًا آخر من شهر فبراير (المعبوث به سابقًا) وأضافوا هذا اليوم إلى شهر أغسطس.

لكنهم وقعوا في مشكلة جديدة، وهي أنه أصبح لديهم ثلاثة أشهر فردية متتابعة مكونة من (٣١) يومًا!! وهي: يوليو وأغسطس وسبتمبر. ووجدوا أنه قد فسد ترتيبهم السابق، وهو أن الشهر الفردي تكون أيامه فردية، ويعقبه الشهر الزوجي وأيامه تكون زوجية!! فاضطروا أن يقلبوا الأشهر الفردية الأخيرة التي تلي شهر أغسطس لتصبح زوجية، وأن يقلبوا الأشهر الزوجية الأخيرة لتصبح فردية!! فانظر إلى العبث والفساد في التأريخ المتراكم بعضه فوق بعض!! ثم ينخدع بهم بعض المستغفلين، ويقولون جهلاً: إن التاريخ الميلادي تاريخ منضبط متقن!! والواقع أنه انحراف عن الأيام والشهور الصحيحة المنضبطة والمرتبطة بالعلامات الكونية التي جعلها الله للحساب منذ خلق السماوات والأرض.

فإن الله جعل الشمس لمعرفة اليوم، وحساب الأسبوع، وجعل القمر لمعرفة الشهر، وحساب السنين. وأما الأبراج وطوالع النجوم فجعلها علامات لمعرفة

المواسم والفصول ووقت الزراعة واللقاح وهجرة البهائم وتكاثرها وانتقالها، ولمعرفة الاتجاهات، ونحوها من المنافع.

لكن الملحدين الذين يعظمون الشمس من الغربيين أرادوا حساب السنة بسير النجوم، ونسبوه للشمس تعظيمًا لها، في حين أن الشمس لا يحسب بها إلا اليوم.

ولأن الضالين من أهل الكتاب يريدون أن يربطوا عباداتهم ومناسباتهم وأعيادهم المحرفة بفصول السنة، ليجعلوا عيد ميلاد المسيح ﷺ في الشتاء، وعيد الفصح في الربيع. ولذلك توافقوا على الحساب بمدة دورة الأبراج حول الأرض، لكنهم نسبوا هذا الحساب للشمس وهي بريئة منه، إذ يزعمون أن الشمس تنزل في منازل هذه الأبراج. ثم نسبوا هذا التاريخ للمسيح ﷺ وهو بريء منه.

فجميع الأنبياء لم يحسبوا شهورهم وسنينهم إلا بالقمر، واليهود يعرفون يوم عاشوراء ويحتفلون به، وهو يوم العاشر من شهر محرم، وهو شهر قمري. وكان الأنبياء يحجون، وموسم الحج إنما هو في أشهر قمرية، وكان باقياً ومعروفاً لدى الناس منذ نادى إليه إبراهيم ﷺ. حتى إن العرب في الجاهلية قبل الإسلام كانوا يحجون، ويعرفون الأشهر الحرم، وهي أشهر قمرية، تحسب برؤية القمر.

وبعد ميلاد المسيح عيسى بن مريم ﷺ بعدة قرون تم تحويل (التقويم اليولياني) إلى التاريخ النصراني الميلادي؛ لتكون بدايته من أول السنة الميلادية نسبة إلى ميلاد المسيح عيسى ﷺ المختلف في تحديده.

ويرى النصارى الغربيون أن بداية هذا التاريخ في اليوم الأول من يناير لأنه يوم ختان المسيح ﷺ حيث يزعمون أن ميلاده ﷺ كان في الخامس والعشرين من ديسمبر (كانون الأول) خلافاً للنصارى الشرقيين الذي يزعمون أنه ولد في السابع من يناير، وغالب العوام يسمون هذا التاريخ بـ (التقويم الميلادي)، وهو مبني على الحساب

وليس منضبطاً، ولذا فإنهم يزيدون عليه أياماً بين حين وآخر، فتكون سنة كبيسة بين سنوات غير كبيسة كما يسمونها.

ثم إنه زاد خطؤهم في الحساب حتى بلغ أحد عشر يوماً، نظراً لوجود فرق سنوي يقارب إحدى عشرة دقيقة سنوياً بين المدة الحقيقية لاكتمال دورة الأبراج حول الأرض - التي تقدر بـ (٢٤٢٥, ٣٦٥) يوماً - وبين (التقويم اليولياني) أو (الميلادي) غير الدقيق الذي اعتبر أن السنة ٢٥, ٣٦٥ يوماً. وتبين هذا الفرق في عام ١٥٨٢ م حيث رأى الفلكيون أنه يلزمهم التصحيح بإضافة يوم واحد لكل ١٣١ سنة تقريباً، وقام بابا النصراري (جوريجوري الثالث عشر) بمحاولة إصلاح هذا الخطأ في تأريخهم وفق آراء وتصحيح الفلكيين حتى تتطابق السنة الحسابية مع مدة دورة الأبراج بقدر ما يمكنهم، وحتى يكون موسم عيد الفصح دوماً في فصل الربيع، ويكون عيد الميلاد في فصل الشتاء؛ فأمر بإعلان إضافة أحد عشر يوماً من التاريخ في لحظة، وذلك بتعديل تأريخ يوم الرابع من أكتوبر عام ١٥٨٢ م وتحويله إلى يوم الخامس عشر من أكتوبر ١٥٨٢ م، كما أمر بتعديل طريقة الحساب بأن يضاف يوم كل أربع سنوات لكل سنة يقبل رقماً الآحاد والعشرات فيها القسمة على (٤) تماماً كما هو الحال في (التقويم اليولياني)، لكن يُستثنى من ذلك السنوات المئوية التي لا تقبل القسمة على ٤٠٠، مثل ١٧٠٠؛ ١٨٠٠؛ ١٩٠٠؛ ٢١٠٠.. إلخ حيث تكون كلها سنوات بسيطة، في حين تكون السنوات المئوية القابلة للقسمة على ٤٠٠ هي فقط السنوات الكبيسة، مثل ١٦٠٠؛ ٢٠٠٠؛ ٢٤٠٠؛ إلخ. وسمي هذا التعديل بـ (التقويم الجوريجوري) Gregorian calendar ولقي ذلك معارضة من الدول غير الكاثوليكية، لكنه فُرض بالقوة واستقر العمل به في غالب الدول النصرانية حتى اليوم.

ولما سقطت حضارة المسلمين وخلافتهم وتسلط أعداء تلك الحضارة؛ فرضوا (التقويم الجريجوري) على الناس وسمّوه (الميلادي)، واستخدموا التقانة والتطور

في الحساب لطباعة تقويم جريجوري طويل الأمد بالتعديلات البشرية ليتوافق مع دورة الأبراج والفصول الأربعة والاعتدال الربيعي والصيفي، ولرغبتهم أن تتكرر مناسبة ميلاد المسيح (المختلف في تحديدها) لتكون في الشتاء في الخامس والعشرين من ديسمبر، ولرغبتهم أن يوافق عيد الفصح عندهم موسم الربيع دومًا.

ففرضوا نشر هذا التأريخ على الناس مع ما فيه من التغيير والتعديل، فأضل الله النصراني عن الارتباط الصحيح بسنين الكون، فضلوا باتباع أهواء أحبارهم ورهبانهم وبابواتهم وملوكهم، وأضلوا كثيرًا، وضلوا عن سواء السبيل.

وقد حذرت (نصوص الوحي) من اتباع سنن وطرق اليهود والنصارى في تحريف الدين والفتنة والشرائع؛ فالعبادات إنما هي بالتأريخ القمري الكوني، فصيام رمضان وهو ركن من أركان الإسلام يكون بالتأريخ القمري، وكذلك الحج وهو ركن من أركان الإسلام، وكذلك الزكاة؛ فلو أخرجها بحول التأريخ الشمسي لكان آثمًا بتأخير الحق عن مستحقه وعدم اعتبار الحول الشرعي.

وما تقدم يبين بوضوح اضطراب النصراني والرومان في تأريخهم، فأنحرفوا من تأريخ قمري منضبط إلى حساب شمسي غير منضبط ليقارب دورة الأبراج، ومن عشرة أشهر في العام إلى اثني عشر شهرًا، ثم عبثهم بعدد أيام الأشهر حتى أصبح التفاوت بينها من ٢٨ يومًا إلى ٣١ يومًا، ومن ٣٥٥ يومًا في السنة إلى ٣٦٥ يومًا، ثم إضافتهم أحد عشر يومًا من التاريخ في لحظة، ثم اتخذهم سنوات كبيسة تكون ٣٦٦ يومًا وسنين غير كبيسة، وكل ذلك ليجعلوا سنوات تأريخهم الحسابي الشمسي ليتوافق مع دورة الأبراج التي فيها الفصول الأربعة، وحيث إن دورة الأبراج لا تنتظم بعدد أيام صحيح، وإنما هناك فوارق وكسور زمنية بالساعات والدقائق والثواني، فاستمر أولئك في التعديل باستخدام التقانة الحديثة والحواسيب الآلية ليزيدوا وينقصوا في الأيام، دون ارتباط صحيح بشهور الكون وعلاماته التي في السماء.

كُلُّ ذَلِكَ يَبَيِّنُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِهَدَايَتِهِمْ لِلتَّارِيخِ (القَمَرِيِّ)، الَّذِي هُوَ أَضْبَطُ وَأَقْدَمُ وَأَصَحُّ تَارِيخٍ عَرَفَتْهُ الْبَشَرِيَّةُ، وَأَوْضَحَهَا ارْتِبَاطًا بِالْكَوْنِ وَعَلَامَاتِهِ السَّمَاوِيَّةِ الظَّاهِرَةِ لِكُلِّ الْبَشَرِ.

وَالْخِلَاصَةُ أَنَّ يَعْلَمَ الْمُسْلِمُ أَنَّ السَّمَاءَ بِنَاءٌ عَالٍ كَرَوِي شَدِيدٌ بِلَا أَعْمَدَةٍ، جَعَلَهُ اللَّهُ سَقْفًا مَحْفُوظًا، وَلِلسَّمَاءِ كَثَافَةٌ وَأَبْوَابٌ وَسُكَّانٌ، وَهِيَ لَيْسَتْ فُضَاءً وَلَا فَرَاغًا، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتَقًا مُلْتَصِقَتَيْنِ لَيْسَ فِيهِمَا ثَقَبٌ فَفَتَقَهُمَا اللَّهُ، وَأَنَّ أَوَّلَ خَلْقِ السَّمَاءِ كَانَ هُوَ الدِّخَانُ، الَّذِي هُوَ بَخَارُ الْمَاءِ الَّذِي تَحْتَ الْعَرْشِ، وَأَنَّ الْمَسَافَاتِ بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَعْلُومَةٌ بِمَا جَاءَ فِي وَحْيِ السَّنَةِ.

وَأَنَّ الْأَرْضَ كَرَوِيَّةٌ، ثَابِتَةٌ فِي مَرْكَزِ الْكَوْنِ، لَا تَدُورُ، وَلَيْسَتْ فِي فَلَكَ، وَلَا تَسْمَى كَوْكَبًا، وَلَسَعَتْهَا وَعَظَمَ جَرْمُهَا؛ فَإِنَّ أَقَالِيمَهَا - الَّتِي هِيَ أَجْزَاءٌ صَغِيرَةٌ جَدًّا مِنْهَا - مَنِسْطَةٌ وَمُسَطَّحَةٌ.

وَأَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يَدُورَانِ فِي فَلَكَ حَوْلَ الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ النُّجُومُ تَدُورُ فِي أَفْلَاقٍ مُسْتَدِيرَةٍ.

وَأَنَّ السَّمَاءَ كَرَوِيَّةٌ تَحِيطُ بِالْأَرْضِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، كإِحَاطَةِ قَشْرَةِ الْبَيْضَةِ بِالْصَفَرِ، وَقَشْرُ الْبَطِيخَةِ بِمَا فِيهَا، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ سَبْعُ طَبَقَاتٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ كَقَشُورِ الْبَصَلَةِ، وَالْأَرْضُ كَرَّةٌ فِي الْمَرْكَزِ الْوَسْطِ.

وَأَنَّ الْقَمَرَ كَانَ مُتَوَهِّجًا فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ، ثُمَّ صَارَ يَعْكُسُ نُورَ الشَّمْسِ، وَقَدْ انْشَقَّ الْقَمَرُ فِي آيَةٍ مُعْجَزَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ مَعْرِفَةَ الْمَوَاسِمِ وَالْفُصُولِ وَالِاتِّجَاهَاتِ بِالنُّجُومِ وَالْأَبْرَاجِ؛ إِذْ جَعَلَ اللَّهُ فِي السَّمَاءِ بَرُوجًا، وَجَعَلَ النُّجُومَ زِينَةً لِلْسَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَأَمْنَةً لِلْسَّمَاءِ، وَرَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يَهْتَدَى بِهَا.

وجعل الله حساب اليوم والأسبوع بسير الشمس في فللكها، وجعل حساب الأشهر والسنين بسير القمر في فلكه.

وجعل مواقيت العبادة مرتبطاً بالعلامات الكونية، وأمر الناس بالتأمل في بديع خلق الله في الأرض والسماء وما بينهما.

ولما دعت الحاجة المسلمين إلى التخطيط لمواعيد أعمالهم المستقبلية وسفرهم ولقاءاتهم ومواسم الفصول الأربعة وتغيراتها، وأن تكون ضمن تقويم حسابي مطبوع للسنين القادمة؛ عمدوا إلى طباعة تقاويم حسابية هجرية حتى يخططوا عليها أمور دنياهم.

ومن تلك التقاويم: (تقويم أم القرى) وهو تأريخ قمري حسابي يعتمد على دورة القمر لتحديد الأشهر، وأضافوا في طباعته منازل الشمس والقمر وطوالع النجوم التي جعلها الله علامات يهتدي بها الناس في معرفة تغيرات الطقس والفصول الأربعة ومواسم الزراعة والتكاثر الفطري.

وتُعتمد إحداثيات (خط الطول وخط العرض) للكعبة المشرفة في مكة المكرمة أساساً لتقويم أم القرى، كما يعتمد ولادة الهلال فلكياً حال غروب القمر بعد غروب الشمس في مكة المكرمة.

ولو لم يكن للمسلمين تقويم (جدول تأريخ حسابي مستقبلي) مطبوع؛ فإنهم هم يؤرخون بالنظر في السماء، ويهتدون إلى مواعيد فصول السنة بالنظر في قبة السماء إلى طوالع النجوم والبروج، ولهم في ذلك علوم متناقلة وأشعار ومنظومات تؤصل خبرتهم الدقيقة العالية في التأمل في النجوم والاهتداء للاتجاهات ودراسة تغيرات الزمان وأثرها على الأرض.

مع تنبيه العلماء على أن الاعتقاد الخاطئ في الأبراج أنها تؤثر بذاتها في جلب الخير أو دفع الشر؛ هي عقائد باطلة وشرك بالله ﷻ.

كما أن التجارب والدراسات العلمية الحديثة حول أوقات الأبراج وولادة الإنسان فيها؛ بينت خرافة ربط صفات الإنسان بقراءة الطوالع والأبراج والتنجيم، حيث إن الدراسات التي قارنت بين مجموعات الأشخاص ممن ولدوا في أزمان متشابهة لم تظهر أية ارتباط بين صفاتهم بعد المقارنة على المدى البعيد، ولا حتى التوائم الذين تجمعهم العوامل الجينية الوراثية، وعوامل التنشئة، ووقت الولادة.

ومن أشهر التجارب المجراة عن علاقة الأبراج بالصفات الشخصية: تجربة العالم (شون كارلسون) سنة ٢٠٠٨ المنشورة في مجلة (Nature)، التي حددت بدقة مواعيد ولادة ١٠٠ شخص اختيروا للتجربة، وأشكال النجوم في أوقات ولادتهم، وقارنتها بنبوءات التنجيم عن شخصياتهم. وكذلك التجربة المنشورة في مجلة Personality and Individual Differences عام ٢٠٠٦، وكلتاهما لم تخرجا بأي ارتباط بين الصفات ومواعيد الولادة.

إلا أن بعض (عوام الناس) ينخدعون بحيل المنجّمين بما يعرف بـ (تأثير فورير)، نسبة لعالم النفس الأمريكي (بيرتام فورير)، أو ما يعرف بـ (تأثير بارنوم) نسبة إلى الاستعراضى الأمريكي الشهير (ب. ت. بارنوم).

وقد أبدع العلماء المسلمون منذ القدم في التأمل في خلق الأرض والسماء، وأنشأوا المراصد الفلكية في بغداد ودمشق وغيرها، وابتكروا وطوّروا العديد من الاختراعات الفلكية؛ مثل مجسمات الكرة السماوية، والكرة الأرضية، والأسطرلابات المتنوعة التي مكنتهم من إيجاد زمن الحدث السماوي كزوغ الشمس وغروبها أو حساب ذروة النجم في كبد السماء، وتقويمًا لتحويل يوم الشهر إلى موقع الشمس على دائرة البروج، ومقاييس مثلثاتية ومدرجًا بـ ٣٦٠ درجة، وذلك مبني على أن الأرض مركز الكون الكروي، مع مراقب خيالي موضوع على ارتفاع معين ووقت معين خارج هذه الكرة وينظر إليها من الأعلى.

كما صنعوا (المحلقات) وهي نموذج صغير للكرة الأرضية محاط بحلقات معدنية متحدة المراكز، تكون الأرض في مركزها والأجرام حولها، لتمثل حال السماء وإحاطة الأرض بدائرة البروج ودائرة خط الاستواء، والمدارات والدوائر القطبية وكرة من النجوم، وتبين الحركات النسبية للأجرام السماوية حول الأرض، وكلها مرتبطة بحلقة مدرّجة، محورها محور خط الاستواء.

وأنشأوا كذلك هياكل (الرُبعيات) و(السُدسيات)، ورسموا خرائط الأرض وتضاريسها، وحددوا أحجام نحو ١٠٢٢ نجمًا وكوكبة، وتميزوا في رصد مواقع النجوم ووضع جداول دقيقة لفصول السنة ومواعيد الصلاة، ومعرفة الاتجاهات في الرحلات والسفر والاتجاه إلى الكعبة في مكة، وقياس ارتفاع الشمس، وتحديد الزمن في الليل والنهار.

بل إنهم أكدوا منذ القدم إمكان رصد موعد كسوف الشمس وخسوف القمر قبل حدوثهما، وتحديد وقت بدايتهما ووقت انجلائهما بدقة. كما بين ذلك الخطيب البغدادي رحمه الله (ت ٤٦٣ هـ) في كتابه «القول في علم النجوم» (ص ١٦٨).

وقاسوا طول الدرجة القوسية الأرضية التي وجدوا أنها تساوي ٦٦٦, ٥٦ ميلاً عريباً، أي ما يعادل ٨١٢, ١١١ كم، وبالتالي حددوا طول محيط الكرة الأرضية بما يعادل ٤, ٢٥٣, ٤٠ كم، وهو قياس قريب جداً من القياس الحديث في هذا الزمان بأجهزة التقانة (التكنولوجيا) المتطورة والذي بلغ ٠, ٧٤, ٤٠ كم. وهذه التقانة الحديثة التي نراها اليوم ما هي إلا امتداد وأثر لحضارة المسلمين الماضية^(١).

(١) بيان وتفصيل ما يتعلق بهيئة السماوات والأرض والنجوم والأفلاك والتأريخ جمعته مختصراً في رسالة بعنوان: (البيّنات في هيئة الأرض والبروج والسماوات)، وهي مطبوعة ومنشورة على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت). ومع أنها مختصرة وموجزة؛ ففيها ما بينه أهل العلم والنظر والاستدلال من البراهين والأدلة على كروية الأرض، وكروية السماء، وثبات



الأرض في المركز، ودوران الشمس والقمر حولها، وفساد نظرية مركزية الشمس التي ارتبط ظهورها مع ظهور الإلحاد في أوروبا؛ حيث عظم الملحدون الشمس والنار لجعلها مركز الكون، وخالفوا الحس والعقل وقوانين الهندسة والفيزياء، وأن كثيراً من نظريات الفلك الحديثة غير مؤكدة وليست مثبتة، بل قد برز مؤخراً في هذا العصر تيار من العلماء الغربيين يُعرفون بـ «علماء النموذج الأرضي المتأخرين» يقولون بالنموذج الأرضي الذي يُثبتون فيه بأدلتهم أن الأرض ثابتة، وأن الشمس متحركة. كما بينت في الرسالة المذكورة كيف انحرف الرومان قديماً من التاريخ الكوني القمري إلى الحساب الشمسي المعتمد على دورة الأبراج، ثم اعتمادهم على التعديل الجريجوري لتصويب أخطاء هذا التأريخ الشمسي الذي لا ينضبط والذي يستلزم استمرار التعديلات والتصويبات وتصحيح السنوات الكبيسة. وفي تلك الرسالة الموجزة أيضاً تفاصيل عديدة في علوم الأبراج وفوائدها وبيان ما ارتبط بها من خرافات وأوهام، وبيان منازل القمر وطوالع النجوم والعلم النافع المتعلق بها.

خلق الملائكة والجن

وُخْلِقتُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، فَهُمْ سَفَرَةٌ، كِرَامٌ بَرَرَةٌ، حَافِظُونَ، كَاتِبُونَ، مُطَهَّرُونَ، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، جعل الله منهم رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ. وقد أَطَّتْ^(١) السَّمَاءُ وَحَقَّقَ لَهَا أَنْ تَتَطَّ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ.

وَلَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ تَمَثِيلٌ^(٢).

(١) أصدرت صوتاً من ثقل ما عليها.

(٢) الْمَلَائِكَةُ لَيْسُوا إِنَاءًا، وَلَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، وَلَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى التَّشَكُّلِ، وَلَا يَدْخُلُونَ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ وَلَا جَرَسٌ وَلَا بَوْلٌ مُنْتَفِعٌ، وَلَا يَصْحَبُونَ رُقْفَةً فِيهَا كَلْبٌ وَلَا جَرَسٌ وَلَا جِلْدٌ نَمِرٍ، وَلَا يَقْرَبُونَ الْجُنُبَ، وَتَتَأَذَى الْمَلَائِكَةُ مِمَّا يَتَأَذَى مِنْهُ بَنُو آدَمَ، وَلَهُمْ قُدْرَاتٌ وَأَحْجَامٌ مُخْتَلِفَةٌ وَلَهُمْ وَظَائِفٌ وَأَعْمَالٌ كَثِيرَةٌ. يقول الدكتور أبو الفداء ابن مسعود في كتابه (معيان النظر عند أهل السنة والأثر) م ٢ ص ٥٣: «فَاللَّهُ ﷻ يَقْضِي الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، فَتَجْرِي أَسْبَابُ حَصُولِهِ عَلَى يَدِ مَلَائِكَةٍ مُوَكَّلَةٍ بِدَقَائِقِ الْأَمْرِ عَلَى نَحْوِ يَحْفَظُ لِلْقَانُونِ السَّبَبِيَّ اطْرَافَهُ، وَلِلتَّفْسِيرِ الطَّبِيعِيِّ عَمَلَهُ، وَلَا يَحْصُلُ فِي الْأَخِيرِ إِلَّا مَا يَقْضِي اللَّهُ بِهِ فِي قَضَائِهِ الشَّامِلِ بِضَبْطٍ وَإِحْكَامٍ وَتَسْيِيرٍ وَحِكْمَةٍ وَفَقْ نَوَامِيسَ نَعْلَمُهَا أَوْ لَا نَعْلَمُهَا، تَتَجَلَّى لَنَا أَوْ تَخْفَى عَلَيْنَا، وَهَذَا هُوَ عَيْنُ الْإِيمَانِ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ وَتَدْبِيرِهِ لِكُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ فِي هَذَا الْكَوْنِ» انتهى. فهناك ملائكة موكلة بالمطر والرعد وحفظ بني آدم وغيرها. ولا مانع علمي ولا مانع عقلي من ترادف أسباب غيبية مع الأسباب الطبيعية الظاهرة، فكل شيء يخضع لتدبير الله وحكمته ومشيتته وتقديره، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء عنده بمقدار. وأكثر أهل العلم على أن الملائكة تموت، وأن ملك الموت يموت، حتى نقل المناوي الإجماع عليه في «فيض القدير» (٣/ ٥٦١)، ثم إذا ماتوا أحياهم الله تعالى قبل الناس، لكن ليس في هذا نص صحيح صريح، بل جاء فيه نصوص محتملة، وجاء فيه حديث الصور المشهور، وهو حديث ضعيف

وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ^(١) مِنْ نَارِ السَّمُومِ^(٢)، ثُمَّ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ طِينٍ. وَخُلِقَ اللهُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِعِبَادَتِهِ وَلِيُخْتَبِرَهُمْ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ مَجْبُولِينَ عَلَى الطَّاعَةِ كَالْمَلَائِكَةِ، بَلْ مَنْحَهُمْ إِرَادَةً وَعَقْلًا وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ وَنَهَاَهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَابْتَلَاهُمْ بِالشَّهَوَاتِ وَالْمَلَذَاتِ وَبِالشَّدَائِدِ، وَوَعَدَ الْمُطِيعَ بِالثَّوَابِ، وَالعَاصِيَ بِالعِقَابِ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ.



أو منكر. وما ذكره بعض أهل العلم من استثناء إسرافيل وبعض الملائكة من الصعق لا يلزم منه استثناءهم من الموت؛ فقد يموتون ويتوفون بأمر الله بعد الصعقة التي يموت منها من في السماوات ومن في الأرض، كما جاء في حديث الصور: «ثُمَّ يُحْيِي أَوَّلَ مَنْ يُحْيِي إِسْرَافِيلُ، وَيَأْمُرُهُ أَنْ يُنْفَخَ فِي الصُّورِ أُخْرَى»، غير أنه حديث ضعيف.

(١) المَارِج: اللَّهَبُ الْمُخْتَلِطُ بِسَوَادِ النَّارِ.

(٢) (السَّمُوم): هِيَ نَارٌ شَدِيدَةُ الْحَرَارَةِ لَا دُخَانَ لَهَا تَنْفُذُ مِنَ الْمَسَامِ.

وفي الحديث: «الْجِنُّ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ لَهُمْ أَجْنَحَةٌ يَطِيرُونَ فِي الْهَوَاءِ، وَصِنْفٌ حَيَّاتٌ وَكِلَابٌ، وَصِنْفٌ يَجْلِسُونَ وَيَطْعَنُونَ». قيل: أي أنواع في خلقتهن ليسوا كبنی آدم نوع واحد وخلقته واحدة. قال الحكيمة الترمذي: والصنف الثاني هم الذين ورد النهي عن قتلهم في خبر نهى عن قتل ذوي البيوت، وخبر نهى عن قتل الحيات؛ فإن تلك في صور الحيات، وهم من الجن ومن سكان البيوت. وقال وهب: إن من الجن من يولد له، ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين، ومنهم من هو بمنزلة الريح، لا يتوالدون، ولا يأكلون ولا يشربون، وهم الشياطين. والله أعلم.

رحمة الله

وَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ؛ كَتَبَ كِتَابًا عَلَى نَفْسِهِ فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: «إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»، وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ (مِائَةَ جُزْءٍ)، كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقٍ^(١) مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ، وَالْإِنْسِ، وَالْبَهَائِمِ، وَالْهَوَامِّ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَرَا حَمُّ الْخَلَائِقِ، وَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، فَبِهَا تَعْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوُحُوشُ عَلَى أَوْلَادِهَا، وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ. وَادَّخَرَ عِنْدَهُ لِأَوْلِيَائِهِ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صَمَّمَهَا إِلَيْهَا فَأَكْمَلَهَا بِهِذِهِ الرَّحْمَةِ وَرَحِمَ بِهَا عِبَادَهُ^(٢)، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ؛ مَا طَمَعَ فِي الْجَنَّةِ أَحَدٌ، وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ؛ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً مَاءً.

(١) يعني: ملء ما بينهما.

(٢) كأن المراد بالعباد هنا: أوليائِهِ الْمُؤْمِنُونَ فقد سبقها بقوله: «وَادَّخَرَ عِنْدَهُ لِأَوْلِيَائِهِ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً»، وَلَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾. وَيُؤَيِّدُهُ مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: «مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَصَبِي عَلَى الطَّرِيقِ، فَلَمَّا رَأَتْ أُمُّهُ الْقَوْمَ خَشِيتُ عَلَى وَلَدِهَا أَنْ يُوْطَأَ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى وَتَقُولُ: ابْنِي، ابْنِي، وَسَعَتْ فَأَخَذَتْهُ، فَقَالَ الْقَوْمُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَتْ هَذِهِ لَتَلْقَى ابْنَهَا فِي النَّارِ، فَقَالَ: وَلَا اللَّهُ بِطَارِحٍ حَبِيبِهِ فِي النَّارِ»، فَالتَّعْبِيرُ بِحَبِيبِهِ يَخْرُجُ الْكَافِرَ، وَكَذَا مِنْ شَاءَ إِدْخَالَهُ مِمَّنْ لَمْ يَتَّبِعْ مِنْ مَرْتَكِبِي الْكِبَائِرِ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فَهِيَ عَامَّةٌ مِنْ جِهَةِ الصَّلَاحَةِ وَخَاصَّةٌ بِمَنْ كُتِبَتْ لَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قصة خلق آدم

وإن الله تعالى خلق آدم ﷺ في خير يوم طلعت فيه الشمس وهو يوم الجمعة^(١)، بعد العصر في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل، فأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، فليله ما أمسى ذلك اليوم حتى عصاه فأخرجه منها.

وخلق الله ﷻ آدم على ستين وثلاث مائة مفصل، طوله ستون ذراعاً في السماء، في سبعة أذرع عرضاً^(٢)، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن.

(١) خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها وفيه تيب عليه وفيه أهيأ وفيه مات، وفيه الصعقة، وفيه النفخة، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة، وما على الأرض من دابة إلا وهي تضح يوم الجمعة مصيخة (مصغية مستمعة) حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة، إلا الجن والإنس، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو قائم يصلي، يسأل الله تعالى فيها شيئاً، إلا أعطاه إياه، ولا يستعبد من شر، إلا أعاده الله منه. قال عبد الله بن سلام ﷺ: هي بعد العصر إلى أن تغرب الشمس، آخر ساعة من يوم الجمعة قبل أن تغيب الشمس، وفي الحديث: «لا يزال العبد في صلاة ما كان في صلاة» ينتظر الصلاة.

(٢) فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، وطوله ستون ذراعاً، «يبعث أهل الجنة على صورة آدم في ميلاد ثلاث وثلاثين، جرداً مردداً مكحليين، ثم يذهب بهم إلى شجرة في الجنة فيكسون منها، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم، وما من أحد يموت سقطاً ولا هريماً - وإنما الناس فيما بين ذلك - إلا بعث ابن ثلاثين سنة، فمن كان من أهل الجنة، كان على مسحة آدم، وصورة يوسف، وقلب أيوب، ومن كان من أهل النار، عظموا وفحشوا كالجبال». وجاء في صحيح مسلم: «خلق الله ﷻ آدم على صورته؛ طوله ستون ذراعاً»، والضمير في (صورته) قيل: أنه

وخلق الله آدمَ مِنْ قُبْضَةٍ قَبْضَهَا مِنْ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ كُلَّهَا أَحْمَرَهَا وَأَسْوَدَهَا وَطَيَّبَهَا وَخَبِيثَهَا، فَسَمَّى: آدَمَ. فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ؛ فَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَالْخَيْثُ وَالطَّيِّبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ^(١).

وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، فَجَعَلَهُ طِينًا لَا زِبَا^(٢)، وَتَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ حَمًّا مَسْنُونًا^(٣) خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَلَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ، تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ^(٤) كَانَ إِبْلِيسُ يَمْرُّ بِهِ فَيَقُولُ: لَقَدْ خُلِقْتَ لِأَمْرِ عَظِيمٍ. فَجَعَلَ إِبْلِيسُ

يعود إلى آدم، أي: على صورة آدم المعروفة، طوله ستون ذراعًا وعرضه سبعة أذرع، لما نفخ فيه الروح وهو على تلك الصورة التي كان عليها، فلم يخلقه أطوارًا من نطفة ثم علقه وما بعدها من الأطوار. وفي الحديث: «إذا قاتل أحدكم أخاه فليجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته»، والضمير في (صورته) يعود إلى الأخ، أي: على صورة المضروب. وقالت طائفة: يعود إلى الله تعالى لرواية: «على صورة الرحمن»، ويكون المراد إضافة تشريف واختصاص وإضافة مُلْكٍ إلى مالك، كقوله تعالى: ﴿كَافَّةُ اللَّهِ﴾ وكما يقال في الكعبة: بيت الله، وفي عيسى ﷺ: روح الله، وكلمة الله، ونظائر ذلك. والله خلق الإنسان في أحسن تقويم، إلا أن صفات الخالق ذي الكمال والجلال لا تشبه صفات المخلوق ذي النقص، فإن الله ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وفي الحديث: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر» لا يلزم منه تشبيههم بالقمر من كل وجه، وإلا لقلنا أنهم يدخلون الجنة وليس لهم أعين وليس لهم أناف وليس لهم أفواه، وأنهم يكونون أحجارًا مستديرة، لكن المفهوم أنهم يكونون على صورة البشر، ويشبهون القمر في الوضاعة والحسن والجمال واستدارة الوجه ونحو ذلك، والله أعلم.

(١) قال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَّرَهَا بِالْأَبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ أَوْ فَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لِيَدْعَنَّ رَجُلٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا التَّنَّ. وفي رواية: (مِنْ الْجُعَلِ الَّذِي يَدْهِيهِ الْخَرءُ بِأَنْفِهِ).

(٢) (لا زبًا) أي: جيدًا لزجًا، يلتصق ببعضه ببعض.

(٣) الحمأ: الطين الأسود. المسنون: المتغير لونه وريحه من طول مكثه.

(٤) صلصالًا: يابسًا لم تصبه نار، ويسمع له صوت عند النقر عليه كصوت الصلصلة. فهو يشبه الفخار وليس فخارًا، لأن الفخار هو الطين الذي يطبخ في النار.

يُطِيفُ بِهِ^(١)، وَيَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ قَالَ: ظَفَرْتُ بِهِ، خَلَقْتُ لَا يَتِمَّ أَلْكَ^(٢).

وقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ۖ ﴿٧١﴾ إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۖ ﴿٧٢﴾﴾ أي: إذا سَوَّيْتُ خلقه، وعدلت صورته، ونفخت فيه من روحي^(٣)، فاسجدوا له.

فلما نفخ الله فيه الروح^(٤) كَانَ أَوَّلُ مَا جَرَى فِيهِ الرُّوحُ بَصَرُهُ وَخَيَاشِيمُهُ؛ فَعَطَسَ، فقال: الحمد لله. فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: يرحمك ربك يا آدم، ثم قال له: اذهب فسلم على أولئك النفر - وهم نفر من الملائكة جلوس - فاستمع ما يجيئونك، فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه، فقال له: إن هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم. وَقَالَ اللَّهُ لَهُ وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ: اخْتَرْتُ أَيُّهُمَا شِئْتَ، فَقَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي وَكِلْتَا يَدَيَّ رَبِّي يَمِينٌ مُّبَارَكَةٌ،

(١) يستدير حواليه.

(٢) فعرف إبليس أَنَّ آدَمَ خُلِقَ خَلْقًا أَجُوفًا لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ وَيَحْبِسُهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَلَا يَمْلِكُ دَفْعَ السُّوسَاسِ عَنْهَا، ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾.

(٣) الروح مخلوقة باتفاق العلماء، وذكر أهل العلم أن إضافة الروح هنا هي إضافة تشريف واختصاص وتمييز، وإضافة مُلْكٍ إلى مالك، والمعنى: من الروح التي هي لي، والتي هي خلق من خلقي، ومثلها: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾.

(٤) الإنسان مكون من جسد وروح لا يعلم ماهيتها إلا الله ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي أنها تكونت بأمره، وبكلمته كانت، وبعلمه الذي لا تعلمونه، وهي شيء غير محسوس ينفذ في الجسد فيحیی، ويفارقه فيموت، وتطلق الروح كذلك على القرآن والوحي وجبريل ؑ. أما النفس فهي الروح والجسد حال اتصالهما، فإذا افترقا كان أحدهما جسد والآخر روح، وقد تطلق النفس على الروح، وعلى الذات. والموت هو فراق الروح للجسد، والروح لا تغنى بفناء الجسد، والميت لا يحس بمرور الزمن، وجعلت أحكام الدنيا على الأبدان، والأرواح تبع لها، وجعلت أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبع لها، وجعلت أحكام يوم القيامة على الأرواح والأبدان جميعاً.

ثُمَّ بَسَطَهَا، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ^(١)، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: ذُرِّيَّتُكَ. فَإِذَا كُلُّ
إِنْسَانٍ مَكْتُوبٌ عُمُرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيَّصًا^(٢) مِنْ نَوْرٍ،
فَرَأَى فِيهِمْ رَجُلًا مِنْ أَصْوَتِهِمْ، فَأَعْجَبَهُ وَبَيَّصَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ مَنْ هَذَا؟
فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدَ. فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمُرَهُ؟
قَالَ: قَدْ كَتَبْتَ لَهُ عُمُرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً. قَالَ: يَا رَبِّ زِدْهُ فِي عُمُرِهِ. قَالَ: ذَاكَ الَّذِي كَتَبْتَ
لَهُ. قَالَ: أَيُّ رَبِّ فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَهُ مِنْ عُمُرِي سِتِينَ سَنَةً. قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ، إِذَا يُكْتَبُ
وَيُخْتَمُ وَلَا يُبَدَّلُ. ثُمَّ أُسْكِنَ آدَمُ الْجَنَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ.



(١) وفي رواية: مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

(٢) يعني: وميضًا أو لمعانًا.

إخبار الله الملائكة بخلق البشر

وأخبر الله ملائكته أنه سيجعل في الأرض بشراً يخلف بعضهم بعضاً، للقيام بعمارته على طاعة الله، فسأل الملائكة ربهم - سؤال استرشاد واستفهام - عن الحكمة من جعل بني آدم خلفاء في الأرض، وهم سيفسدون فيها، ويريقون الدماء ظلماً^(١)، قائلين: ونحن أهل طاعتك، نُزّهك حامدين لك، ومعظمين جلالك وكمالك، لا نفتر عن ذلك.

وَقَدْ كَانَ فِي الْأَرْضِ - قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ آدَمُ بِالْقِيَامِ - الْجِنُّ بَنُو الْجَانِّ، فَافْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ جُنُودًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَضَرَبُوهُمْ حَتَّى أَلْحَقُوهُمْ بِحَزَائِرِ الْبُحُورِ، وَلِذَلِكَ سَأَلَ الْمَلَائِكَةُ رَبَّهُمْ: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا؟» أي: كَمَا فَعَلَ أَوْلَئِكَ الْجِنُّ بَنُو الْجَانِّ؟، فأجابهم الله عن سؤالهم: «إني أعلم ما لا تعلمون»^(٢) أي: من الحكيم الباهرة في خلقهم، والمقاصد العظيمة من استخلافهم.

وليبيان منزلة آدم ﷺ علمه الله تعالى أسماء الأشياء كلها من الحيوان والجماد؛ ألفاظها ومعانيها، ثم عرض تلك المسميات على الملائكة قائلاً: أخبروني بأسمائها إن كنتم صادقين فيما تظنون أنكم أكرم من هذا المخلوق وأفضل منه. فقالوا - مُعْتَرِفِينَ بنقصهم مُرْجِعِينَ الفضل إلى الله -: نُزّهك ونعظمك يا ربنا عن الاعتراض عليك

(١) لعل الله سبحانه أخبر الملائكة أن البشر سيفسدون في الأرض، أو أنهم قاسوهم على الجن إذ أفسدوا لأنهم غير مفطورين على الطاعة، والله أعلم.

(٢) رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين عن ابن عباس ؓ، وصححه الذهبي. ورواه ابن أبي حاتم بسند صحيح في تفسيره عن عبدالله بن عمرو بن العاص ؓ.

في حُكمك وشرعك، فنحن لا نعلم شيئاً إلا ما رزقتنا علمه، إنك أنت العليم الذي لا يخفى عليك شيء، الحكيم الذي تضع الأمور في مواضعها من قدرك وشرعك. وعندئذ أمر الله تعالى آدم أن يخبرهم بأسماء تلك المسميات، فلما أخبرهم كما علمه ربه؛ قال الله للملائكة: ألم أقل لكم: إني أعلم ما خفي في السماوات وفي الأرض؟ وأعلم ما تُظهرون من أحوالكم وما تحدّثون به أنفسكم.



سجود الملائكة لآدم واستكبار إبليس

وأمر الملائكة بالسجود لآدم سجود تقدير واحترام، فسجدوا مسارعين لامثال أمر الله، إلا إبليس الذي كان من الجن، فامتنع اعتراضاً على أمر الله له بالسجود وتكبراً على آدم، فصار بذلك من الكافرين بالله تعالى.

والله - وهو عالم بكل شيء - قال توبيخاً لإبليس: أي شيء منعك من امتثال أمري لك بالسجود لآدم؟؛ أمنعك من السجود التكبر؟، فقال إبليس مجيباً ربه: منعني أني أفضل منه، فقد خلقتني من نار، وخلقته هو من طين، والنار أشرف من الطين. فأخرج الله إبليس من الجنة مذموماً مطروداً من رحمة الله؛ لأن الجنة دار الطيبين الطاهرين، وليست للمستكبرين.

فقال إبليس: يا رب، أمهلني إلى يوم البعث حتى أغوي من أستطيع إغواءه من الناس.

قال له الله: إنك - يا إبليس - من الممهّلين الذين كتبت عليهم الموت يوم النفخة الأولى في الصور حين يموت الخلق كلهم، ويبقى خالقهم وحده.

فقال إبليس: بسبب إضلالك إياي حتى تركت امتثال أمرك بالسجود لآدم لأقعدن لبني آدم لأصرفهم وأضلهم عن صراطك^(١) المستقيم كما ضللت أنا عن السجود لأبيهم آدم، ثم لآتينهم من جميع الجهات بالزهد في الآخرة، والترغيب في الدنيا،

(١) الصراط: هو الطريق المحدود المعتدل، الذي يصل سالكه إلى مطلبه بسرعة.

وإلقاء الشبهات، وتحسين الشهوات، ولا تجد - يا رب - أكثرهم شاكرين لك؛ لما أُمليهم عليهم من الكفر.

قال الله له: إِنَّ عِبَادِي الَّذِينَ قَدَّرْتُ لَهُمُ الْهُدَايَةَ، فَلَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهِمْ، وَلَا وُصُولَ لَكَ إِلَيْهِمْ، ولأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْكَ وَمِنْ كُلِّ مَنْ اتَّبَعَكَ فِي كُفْرٍ وَأَطَاعَكَ وَعَصَى أَمْرَ رَبِّهِ. ^(١)



(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ؛ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ يَا وَيْلَهُ (وَفِي رِوَايَةٍ: يَا وَيْلِي) أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ.

خلق حواء وإسكانها الجنة مع آدم

وخلق الله حواء من ضلع آدم ليأنس إليها، ويطمئن بها، وجعل بينهما مودة ورحمة، وأسكنها الله الجنة مع زوجها آدم. وقال الله لآدم: يا آدم، اسكن أنت وزوجتك حواء الجنة، فكلّا مما فيها من الطيبات ما شئتما، ونهاهما أن يأكلا من شجرة عَيْنَها الله لهما، وأنهما إن أكلا منها بعد نهي لهما كانا من المتجاوزين لحدود الله، وحذهما من عدوهما إبليس.^(١)



(١) عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا» قال: «قِيلَ لآدَمُ أَتَأْخُذُهَا بِمَا فِيهَا، فَإِنْ أَطَعْتَ غُفِرْتُ، وَإِنْ عَصَيْتَ حَذَرْتُكَ؟» قال: قبلت. قال: فما كان إلا كما بين صلاة العصر إلى أن غربت الشمس حتى أصاب الذنب.

و﴿الْأَمَانَةُ﴾ التكاليف الشرعية كالصَّلَوَاتِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْفَرَائِضِ الَّتِي اتَّيَمَّنَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْعِبَادَ مِمَّا فِي فِعْلِهَا مِنَ الثَّوَابِ وَتَرْكِهَا مِنَ الْعِقَابِ وَمَا يَحْفَظُ مِنْ أَمْوَالٍ وَأَسْرَارٍ. ﴿وَأَشْفَقْنَ﴾: خَفَنَ ﴿مِنْهَا﴾. وحملها الإنسان، إنه كان ظلومًا لنفسه، جهولًا بعاقبة حملها.

إغواء الشيطان لآدم وزوجه

واستمر حسد إبليس لآدم وزوجته، فوسوس لهما^(١) ليُظْهِرَ لهما ما سُتِرَ عنهما من عوراتهما، وقال لهما: ما نهاكما الله عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهة أن تكونا مَلَكَيْنِ، وإلا كراهة أن تكونا من الخالدين في الجنة، وحلف لهما بالله: إني لكما - يا آدم وحواء - لمن الناصحين فيما أشرت عليكما به.

وبدأ إبليس بحواء فأغواها وزين لها، حتى جعلها تأكل من الشجرة التي نهيت هي وآدم عن قربها، فقبلت بغواية إبليس فأغوت زوجها ودعته إلى الأكل من تلك الشجرة، فلما أكلا من الشجرة التي نُهيَا عن الأكل منها ظهرت لهما عوراتهما مكشوفة، فأخذا يُلْزِقَانِ عليهما من ورق الجنة؛ ليسترا عوراتهما، وخطَّهما إبليس من المنزلة التي كانا فيها بخداع منه وغرور.

وناداهما ربهما قائلاً: ألم أنهماكُمَا عن الأكل من هذه الشجرة، وأقل لكما محذراً لكما: إن الشيطان عدو لكما بينُ العداوة؟!



(١) بلغتَهما وسوسة إبليس مع أنه مطرود من الجنة. والله ﷻ يُسْمِعُ أهل الجنة إن شاء كلام وأخبار من هم خارج الجنة، كما يُسْمِعُهُمْ نداء أهل النار لهم وطلبهم منهم أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله، وكذلك فإنه لَا تُؤْذِي امرأةً زوجها في الدنيا، إِلَّا قَالَتْ رَوْجَتُهُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ: لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلُكَ اللهُ، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوْشِكُ أَنْ يُفَارِقَكَ إِلَيْنَا.

توبة آدم وحواء

﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾. وألهم الله آدم التوبة والندم ودعا هو وزوجه بكلمات هي: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٣﴾ فقبل الله توبتهما، وغفر لهما، فهو سبحانه غفور رحيم.

وقال آدم: أَيُّ رَبِّ، أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟، قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، أَلَمْ تَنْفُخْ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ؟، قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، أَلَمْ تُسَكِّنِي جَنَّتِكَ؟، قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، أَلَمْ تَسْبِقْ رَحْمَتَكَ غَضَبَكَ؟، قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ تُبْتُ وَأَصْلَحْتُ، أَرَأَيْتَ أَنْتَ إِلَى الْجَنَّةِ؟، قَالَ: بَلَى.



هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض

وقال الله لآدم وزوجه وللشيطان: انزلوا إلى الأرض، بعضكم أعداء بعض، ولكم في تلك الأرض حياة واستقرار وبقاء وتمتّع بما فيها من خيرات إلى أن تنتهي آجالكم فتموتون، حتى تقوم الساعة يوم القيامة فتخرجون من الأرض وتبعثون.

وأهبط آدم وزوجه حواء وأهبط إبليس كذلك إلى الأرض، وما سكّن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، وإن الله كما أخرج آدم من الجنة زوده من ثمار الجنة، وعلمه صنعة كل شيء، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تغير وتلك لا تغير.

وقال الله ﷻ: ﴿أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾. وجعل الله آدم نبياً مرسلًا يدل بنيه على الهدى الذي علمه الله. وأخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان - يعني عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها، فشرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً فقال: ﴿الَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾. (١)

(١) عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ قَالَ: «جَمَعَهُمْ فَجَعَلَهُمْ أَرْوَاحًا، ثُمَّ صَوَّرَهُمْ، فَاسْتَطَقَّهُمْ فَتَكَلَّمُوا، ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟»، قَالَ: فَإِنِّي أَشْهَدُ عَلَيْكُمُ السَّمَوَاتِ



السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، وَأَشْهَدُ عَلَيْكُمْ آبَاكُمْ آدَمَ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ نَعْلَمْ بِهَذَا، اَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرِي، وَلَا رَبَّ غَيْرِي، فَلَا تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا، وَإِنِّي سَأُرْسِلُ إِلَيْكُمْ رُسُلِي يُذَكِّرُونَكُمْ عَهْدِي وَمِيثَاقِي، وَأُنْزِلُ عَلَيْكُمْ كُتُبِي، فَقَالُوا: شَهِدْنَا بِأَنَّكَ رَبُّنَا وَإِلَهُنَا، لَا رَبَّ لَنَا غَيْرُكَ، فَأَقْرَأُوا بِذَلِكَ». قال ابن الأنباري: «مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية: أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وصلب أولاده وهم في صُورِ الذَّرِّ، فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم، وأنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك وقبلوا، وذلك بعد أن رَكَّبَ فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم، كما جعل للجبل عقلاً حين خوطب، وكما فعل ذلك للبعير لما سجد، والنخلة حتى سمعت وانقادت حين دُعِيَتْ»، وقال إسحاق بن راهويه: «وأجمع أهل العلم أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، وأنه استنطقهم وأشهدهم». وقد روى الحسن البصري رحمه الله عن الأسود بن سريع مرفوعاً: «أَلَا إِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَةً تُولَدُ إِلَّا وَلَدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ...» الحديث. ثم قال الحسن عَقِبَهُ: ولقد قال الله ذلك في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الآية.

وجود إبليس وذنوب البشر لحكمة

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ لَا يُعْصَى؛ مَا خَلَقَ إِبْلِيسَ، «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(١)، «نُسِيَ آدَمَ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ»^(٢) وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ. «وَلَوْلَا حَوَاءُ لَمْ تَخُنْ أَنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ»^(٣)، «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَائِينَ التَّوَّابُونَ».

(١) قد يقع في النفس سؤال وشبهة تقول: هل الله يُضِلُّ مَنْ يشاء؟ أليس في ذلك ظلم للمخلوق؟ والجواب: إن الله يضل من يشاء ولكن بعدل الله، والله لا يظلم أحداً، ولا يظلم مثقال ذرة. فإذا وُلِدَ العبد على الفطرة، ومنح العقل، وأعطاه الله الإرادة والتخير بين طريق الخير وطريق الشر، ورأى الآيات، وبلغته الدعوة والحجة والبيان، ورأى عظيم صنع الله، وتقلب في نعمه الظاهرة والباطنة، ثم أصر في هذا الاختبار على سلوك طريق الشر والضلال، وأصر على عدم الرجوع والتوبة والإقامة لله، وأصر على اتباع الهوى؛ فإنه ينال جزاءه بعدل الله. ولنفترض أن حكومة قوية قالت: لا أحد يستطيع أن يخرج على سلطاني، فأنا أعاقب من أشاء، وأكافئ من أشاء، وهذا دستوري. لكن في الوقت نفسه أنا حكومة عادلة! لا أعاقب إلا من يستحق العقوبة، وأكافئ من يستحق المكافأة. فهل تكون هذه الحكومة عادلة أو ظالمة؟ والله المثل الأعلى، وقد حرّم سبحانه الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرماً، فما أرحمه وما أعدله!

(٢) قال ابن عباس: وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ لِأَنَّهُ عَاهَدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ.

(٣) يعني: لولا أن حواء خانت آدم في إغرائه وتحريضه على مخالفة الأمر بتناول الشجرة وسنت هذه السنة لما سلكتها أنثى مع زوجها أبداً. ولذا فإن بناتها أشبهنَهَا بِالْوِلَادَةِ وَنَزَعَ الْعِرْقُ مِمَّا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى الْبَشَرِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ ﷻ لِآدَمَ: «يَا آدَمُ مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا؟» قَالَ: (فَاعْتَلَى) آدَمُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ زَيْنَتْهُ لِي حَوَاءُ، قَالَ: فَإِنِّي (عَاقَبْتُهَا) بِأَنْ لَا تَحْمِلَهَا إِلَّا كُرْهًا، وَلَا تَضَعَهَا إِلَّا كُرْهًا، وَدَمِئْتُهَا فِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّتَيْنِ. قَالَ: فَزَنْتَ حَوَاءَ عِنْدَ ذَلِكَ، فَقِيلَ لَهَا: عَلَيْكَ الرَّئَةُ، وَعَلَى بَنَاتِكَ.

وآدم لما عصى؛ ندم وتاب سأل الله المغفرة والرحمة، وإبليس لما عصى؛ سأل الله أن يمدد في عمره إلى يوم القيامة، فأعطى الله كلا منهما ما سأل.

وإن موسى ﷺ قال: يَا رَبِّ، أَرِنَا آدَمَ الَّذِي أَخْرَجَنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَأَرَاهُ اللَّهُ آدَمَ، فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ؟، أَنْتَ أَبُونَا آدَمُ؟، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: نَعَمْ، قَالَ: أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ؟، أَنْتَ الَّذِي أَشَقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ خَيَّيْتَنَا، وَأَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: وَمَنْ أَنْتَ؟، قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: أَنْتَ نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي كَلَّمَكَ اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ رَسُولًا مِنْ خَلْقِهِ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَأَعْطَاكَ اللَّهُ الْأَلْوَابَ فِيهَا تَبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ؟، وَكَتَبَ لَكَ التَّوْرَةَ بِيَدِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَبِكُمْ وَجَدَتِ اللَّهُ كَتَبَ التَّوْرَةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟، قَالَ: بَارَبَعِينَ سَنَةً، قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَتَلُوْنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بَارَبَعِينَ سَنَةً؟، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى. ^(١)

(١) يعني غلب آدم موسى في الجواب بعلمه وحُجته. واحتج موسى بالمُصيبة فحجّه آدم ﷺ بالقدر، وموسى لم يُلَمَّ آدم لأجل ارتكابه الذنب، وإنما على المُصيبة التي أصابته وذريته بما فعل؛ ولهذا قال موسى: لِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟ وَلَمْ يَقُلْ: لِمَاذَا خَالَفتُ الْأَمْرَ وَلِمَاذَا عَصَيْتُ؟ فَإِنَّ آدَمَ لَمْ يَظْلِمِ أَوْلَادَهُ؛ بَلْ إِنَّمَا وَلِدُوا بَعْدَ هُبُوطِهِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَكَوْنُهُمْ صَارُوا فِي الدُّنْيَا دُونَ الْجَنَّةِ أَمْرٌ كَانَ مُقَدَّرًا عَلَيْهِمْ، لَا يَسْتَحِقُّونَ بِهِ لَوْمَ آدَمَ، فَإِنَّ ذَنْبَ آدَمَ كَانَ قَدْ تَابَ مِنْهُ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له، فإنه من تمام الرضا بالله ربًّا. فهنا احتجاج بالقدر في المصائب والمعائب بعد التوبة. ولا يجوز ولا يصح الاحتجاج بالقدر في تبرير الإصرار على المعاصي والمعائب بعد إقامة الحجة والبلاغ، وإنما الواجب الإقلاع والتوبة. ولذلك لما احتج المشركون بالقدر وزعموا أن الله رضي بكفرهم بتقديره عليهم وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ قال الله: ﴿كَذَلِكَ

إكرام الله بني آدم وإنعامه عليهم

وأكرم الله بني آدم بأن خلق أباهم آدم بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وأسكنه في جنته، وكلمه وعلمه واجتباؤه وتاب عليه وهداه، وقدر له ذرية تخلفه في الأرض، وأسبغ على البشر نعمه ظاهرة وباطنة ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ﴿٧٠﴾.

والله يري ملائكته من علمه وحكمته وتديره لأموال البشر وغيرهم كثيرًا مما لا يعلمون، وهم يعظمونه ويسبحونه ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢٢﴾.



كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٨٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨٩﴾ فبين أن قولهم كذب وأنهم استحقوا العقوبة بإصرارهم بعد أن أقيمت عليهم الحجة، وأن الله قادر على هداية كل الخلق، لكنه سبحانه أراد أن يتلي الناس بالخير والشر وأعطاهم إرادة ومشية، مع حكمته وعدله، وأقام عليهم حجته بإبلاغ الرسل، فيشيب من صبر، ويجزي من شكر، ويعاقب من سخط وعصى وكفر، ويقبل من تاب واستغفر. ولا تكون للكافر حجة يوم القيامة لما يحتاج بالقدر في عصيانه ويقول: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أو يقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبر الله بكذبهم، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

تحذير البشر من عدوهم الشيطان

وحذر الله البشر من شر الشياطين فقال ﷺ: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ اتِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾. وإن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك، لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله: فبعزتي وجلالي، لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني.

ولما كان الشيطان يعلم حدود عقول المخلوقين وأنها لا تحيط بالله علماً؛ فإنه لا يزال يوسوس للناس ويقول: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: هَذَا خَلَقَ اللَّهُ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً؛ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَيْتَهُ، وَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ^(١)، قَالَ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمَ)^(٢).

ويضع إبليس عرشه على البحر وإذا أصبح بث جنوده وسراياه فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده منزلة؛ أعظمهم فتنة. يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول:

(١) وفي رواية: (فَقُولُوا: اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ثُمَّ لِيَتَقُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا.

(٢) فإذا رد العبد تلك الوسوس بذكر الله والإيمان به، وانتهى عن الاسترسال في الوسوس، وكرهها قلبه، واستعاذ بالله من الشيطان؛ فإن ذاك دلالة على (صريح الإيمان) في قلبه، وعلمه أنه لا يحيط بالله علماً. والحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى مجرد الوسوسة ولم يجعل له سلطاناً على المؤمنين.

ما صنعت شيئاً. ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقتُ بينه وبين امرأته. فيدنيه منه ويلتزمه ويقول: نعم أنت، فيقول: من أضل اليوم مسلماً ألبسته التاج، فيجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى عَق والدته، فقال: يوشك أن يبره، ويجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى طلق امرأته فيقول: يوشك أن يتزوج، ويجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول: أنت أنت. ويجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى قتل^(١)، فيقول: أنت أنت، ويلبسه التاج.



(١) قال عليه الصلاة والسلام: «لَا تَقْتُلْ نَفْسَ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»، وقال: «وَكُنْ كَخَيْرِ ابْنِي آدَمَ». قال ابن حجر: «ذَكَرَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ مَشَايِخِهِ بِأَسَانِيدِهِ أَنَّ سَبَبَ قَتْلِ قَابِيلَ لِأَخِيهِ هَابِيلَ أَنَّ آدَمَ كَانَ يُزَوِّجُ ذَكَرَ كُلِّ بَطْنٍ مِنْ وَلَدِهِ بِأُنْثَى الْآخَرِ وَأَنَّ أُخْتَ قَابِيلَ كَانَتْ أَحْسَنَ مِنْ أُخْتِ هَابِيلَ فَأَرَادَ قَابِيلُ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِأُخْتِهِ فَمَنَعَهُ آدَمُ فَلَمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِ أَمَرُهُمَا أَنْ يُقَرَّبَا قُرْبَانًا فَقَرَّبَ قَابِيلُ حُزْمَةً مِنْ زَرْعٍ وَكَانَ صَاحِبَ زَرْعٍ وَقَرَّبَ هَابِيلُ جَدْعَةً سَمِينَةً وَكَانَ صَاحِبَ مَوَاشٍ فَتَزَكَّتْ نَارٌ فَأَكَلَتْ قُرْبَانُ هَابِيلَ دُونَ قَابِيلَ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ الشَّرِّ بَيْنَهُمَا وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ». ثم رُزِقَ آدَمُ بـ (شيث) ﷺ.

وفاة آدم ﷺ

وقد كتب الله على آدم قبل أن يخلقه أنه سيسكن الجنة ثم يخرج منها ويهبط إلى الأرض التي منها خلق ويمكث فيها ما شاء الله من الأجل حتى يموت ويبعث بعد موته، فتكون الجنة مأواه هو ومن تاب وأصلح من ذريته. وليس أول الخلق^(١) بأهون على الله من إعادته^(٢).

ولما أُهبط آدم من الجنة إلى الأرض جعل يُعَدُّ لنفسه أجله وعمره، فلما قُضي عُمُرُ آدم جاءه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجلت!! قد كُتِبَ لي ألف سنة!! أولم يبق من عمري ستين سنة؟!، قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة، قال: ما فعلتُ. فجَحَدَ آدم؛ فجحدت ذريته، فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود^(٣)، ونسي آدم فنسيت ذريته وسمي (الإنسان)، وخَطِئَ آدم، فخطئت ذريته.

وَلَمَّا نَزَلَ بِأَدَمَ الْمَوْتُ قَالَ: أَيُّ بَنِي، إِنِّي أَشْتَهِي مِنْ ثَمَرَةِ الْجَنَّةِ. انطلقوا فاجنوا لي من ثمار الجنة. فَانْطَلَقَ بَنُوهُ يَلْتَمِسُونَ، فَاسْتَقْبَلْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَقَالُوا: أَيْنَ تَرِيدُونَ يَا بَنِي آدَمَ؟ فَقَالُوا: يَشْتَهِي أَبُونَا مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ. فقالوا: ارجعوا قد كفيتهم، فَقَدَّ أَمْرٌ بِقَبْضِ

(١) أي: ابتداء الخلق من العدم.

(٢) أي: ابتداء الخلق وإعادته يستويان عند الله بكلمة (كن)، هذا بالنظر إلى الخالق سبحانه، وأما بالنظر إلى عقول الناس وعاداتهم؛ فهم يعقلون أن إعادة الخلق أسهل وأهون من ابتداء الخلق والإيجاد من العدم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

(٣) يعني: بِكِتَابَةِ الْحُجَّةِ وَإِشْهَادِ الشُّهُودِ لِلتَّوَقُّعِ عَلَى الْحَقُّوقِ وَمَعَ الْبَيِّنَةِ عَلَيْهَا، ولم ينزل الإيجاب فيها.

أَبْيَكُكُمْ. فَرَجَعُوا مَعَهُمْ فَأَقْبَلُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى آدَمَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوَاءُ عَرَفَتْهُمْ وَذَعَرَتْ مِنْهُمْ وَجَعَلَتْ تَدْنُو إِلَى آدَمَ فَلَصَقَتْ بِآدَمَ، فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي فَمِنْ قَبْلِكَ أُتَيْتُ^(١)، دَعِينِي وَمَلَائِكَةُ رَبِّي.

فَقَبَضُوهُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَغَسَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالْمَاءِ وَتَرَا وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَكَفَنُوهُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَحَنَطُوهُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَصَلُّوا عَلَيْهِ، ثُمَّ حَفَرُوا لَهُ وَالْحَدُّوا لَهُ ثُمَّ دَفَنُوهُ، ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا بَنِي آدَمَ، هَذِهِ سُنَّتُكُمْ فِي مَوْتَاكُمْ، هَذِهِ سُنَّةُ آدَمَ فِي وَلَدِهِ، وَهَذَا سَبِيلُكُمْ، فَكَذَاكُمْ فَافْعَلُوا.



(١) في ذلك ما يشير إلى أن الشيطان ابتدأ بإغواء حواء قبل آدم، وأنها تسببت في إغواء زوجها في الأكل من الشجرة والخروج من الجنة. وعن ابن عباس رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ اللَّهُ ﷻ لآدَمَ: «يَا آدَمُ مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا؟»، فَأَعْتَلَّ آدَمُ، فَقَالَ: «يَا رَبِّ زَيَّنَّتْهُ لِي حَوَاءُ». ومع ذلك فقد تاب الله عليهما، وأمر الرجال بحسن معاشره النساء ورعايتهن ووعظهن والصبر عليهن وإكرامهن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِيهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي».

ذرية آدم وتربص الشيطان بهم

وكان آدم نبياً معلماً مكلماً، وأوتي النبوة بعد آدم ابنه شيث^(١) ﷺ، ثم إدريس عليه السلام، ثم كان إرسال نوح عليه السلام إلى قومه لما ظهر فيهم الشرك.

وكان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق^(٢)، وكان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر رجالاً صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى

(١) قال بعض المؤرخين: إنَّ شيث عليه السلام وُلِدَ لآدم بعد مقتل هابيل، وإليه تَنَتَّهَى أنساب بني آدم كلهم اليَوْمَ، وَذَلِكَ أَنَّ نسل ولد آدم غير نسل شيث انقراضوا فلم يبقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ. أمَّا القاتل (قابيل) فهلك نسله بالطوفان، وأمَّا المقتول (هابيل) فلم يعقب. ونوح من ذرية شيث، ومن على الأرض كلهم هم من ذرية نوح عليه السلام.

(٢) قد يراد بالقرن مائة سنة، وقد يراد بالقرن: الجيل من الناس، ورواية ابن عباس مقيمة بكونهم على الحق وهو الإسلام، فقد يكون بينهما قرون آخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، كما أن الظاهر أن الجيل من الناس قبل نوح يعمرود الدهور الطويلة، وعليه يحتمل أن يكون بين آدم ونوح آلاف السنين، والله أعلم. وعن ابن عباس عليه السلام قَالَ: كَانَتْ فِيمَا بَيْنَ نُوحٍ وَإِدْرِيسَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَإِنَّ بَطْنَيْنِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ كَانَ أَحَدُهُمَا يَسْكُنُ السَّهْلَ، وَالْآخَرُ يَسْكُنُ الْجَبَلَ. وَكَانَ رَجُلٌ الْجَبَلِ صَبَاحًا وَفِي النَّسَاءِ دَمَامَةً. وَكَانَ نِسَاءُ السَّهْلِ صَبَاحًا وَفِي الرِّجَالِ دَمَامَةً، وَإِنَّ إِبْلِيسَ أَتَى رَجُلًا مِنْ أَهْلِ السَّهْلِ فِي صُورَةِ غُلَامٍ، فَاجَرَّ نَفْسَهُ مِنْهُ، فَكَانَ يَخْدُمُهُ وَاتَّخَذَ إِبْلِيسَ شَيْئًا مِثْلَ الَّذِي يُزَمَّرُ فِيهِ الرَّعَاءُ، فَجَاءَ فِيهِ بَصُوتٌ لَمْ يَسْمَعْ النَّاسُ مِثْلَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مَنْ حَوْلَهُ، فَانْتَابُوهُمْ يَسْمَعُونَ إِلَيْهِ، وَاتَّخَذُوا عِيدًا يَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ فِي السَّنَةِ، فَيَتَرَجَّجُ النَّسَاءُ لِلرِّجَالِ، وَيتزَّينَ الرِّجَالُ لَهُنَّ، وَإِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَبَلِ هَجَمَ عَلَيْهِمْ فِي عِيدِهِمْ ذَلِكَ، فَرَأَى النَّسَاءُ وَصَبَّاحَتَهُنَّ، فَاتَى أَصْحَابَهُ فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ، فَتَحَوَّلُوا إِلَيْهِنَّ، فَزَلُّوا مَعَهُنَّ وَظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِيهِنَّ، فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَبَرَّحْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: التَّبَرُّجُ: أَنَّهَا تَلْقِي الْخِمَارِ عَلَى رَأْسِهَا، وَلَا تُشَدُّهُ فَيُؤَارِي فَلَا تَدَّهَا وَفُرْطَهَا وَعَنْقَهَا، وَيَبْدُو ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا.

قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد. حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبِدَت واختلَفوا في دينهم، فلما اختلفوا في دينهم بعث الله النبيين برسالة التوحيد والإسلام لله مبشرين ومنذرين.



الأنبياء والمرسلون

«الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَاتٍ^(١)، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»، و«الْأَنْبِيَاءُ مِائَةٌ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، وَالرُّسُلُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةٌ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا»، وقد قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، بعثوا إلى أمم كثيرة لا يعلمهم إلا الله كما قال ﷺ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِّن قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾، وممن ذكرهم الله في القرآن: أبو البشر آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وأيوب، وذو الكفل، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمد خاتم الأنبياء والرسل؛ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وممن لم يصرح بأسمائهم في القرآن: يوشع بن نون عليه السلام^(٢)، والخضر عليه السلام. وما بعث الله نبيًّا إلا رَعَى الغنم.

(١) تقول العرب: هم إخوة لعلات إذا كانت أمهاتهم مختلفات وأبوهام واحد، وشبه دين الأنبياء بالأب الواحد لا شترأك جميعهم فيه، وأما شرائع الأعمال والمأمورات فقد تختلف، فهي بمنزلة الأمهات الشتى، فإن لقاح تلك الأمهات من أب واحد، كما أن مادة تلك الشرائع المختلفة من دين واحد متفق عليه.

(٢) يوشع بن نون هو فتى موسى عليه السلام، الذي ذكر في سورة الكهف، في رحلتها إلى الخضر الذي هو نبي على الأرجح للدلائل عديدة ذكرها أهل العلم منها إشارته للوحي في قوله: وما فعلته عن أمري.

نوح ﷺ

وَكَانَ نُوحٌ إِذَا طَعِمَ طَعَامًا أَوْ لَبَسَ ثَوْبًا حَمِدَ اللَّهَ، فَسَمِّيَ عَبْدًا شَكُورًا. وَكَانَ نُوحٌ أَوَّلُ نَبِيٍّ أُرْسِلَ إِلَى قَوْمِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَكَانُوا هُمْ أَهْلُ الْأَرْضِ، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا سِرًّا وَجَهَارًا، فَأَعْرَضُوا عَنْهُ وَاسْتَنَكَرُوا أَنْ يَرْسَلَ إِلَيْهِمْ بَشَرٌ وَلَيْسَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَأَنَّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا نُوحًا لَيْسُوا مِنْ ذَوِي الْمَكَانَةِ وَالْمَالِ وَهُمْ قَلِيلٌ، وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَطْرُدَ أَوْلَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَطَالَتْ بِهِ السِّنِينَ وَالْقُرُونُ وَهُوَ يَحْذَرُهُمْ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ فَكَذَّبُوهُ وَأَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ، وَمَكَّرُوا مَكْرًا كُبَّرًا فَاحْتَالُوا فِي إِضْلَالِ النَّاسِ بِكُلِّ حِيلَةٍ وَأَمَّا لَهُمْ إِلَى شِرْكِهِمْ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ، وَطَلَبُوا الْعَذَابَ، وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، فَدَعَا عَلَى قَوْمِهِ الْكَافِرِينَ، وَصَنَعَ السَّفِينَةَ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَأَمَرَ إِذَا فَرَ التَّنُورَ - أَيِ: خَرَجَ الْمَاءُ وَارْتَفَعَ مِنَ التَّنُورِ وَهُوَ مَكَانُ طَبَخِ الْخَبْزِ - أَنْ يَحْمِلَ فِي السَّفِينَةِ مَنْ آمَنَ مَعَهُ، وَمِنْ كُلِّ الدَّوَابِّ زَوْجَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى. ثُمَّ أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ وَجَاءَ الطُّوفَانُ فَأَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ، وَهَلَكَتِ امْرَأَتُهُ وَكَانَتْ تَقُولُ لِلنَّاسِ إِنَّهُ مَجْنُونٌ، وَهَلَكَ ابْنُ لَهُ مَعَ الْكَافِرِينَ وَلَمْ يَرْكَبْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ. ثُمَّ أَذْهَبَ اللَّهُ الطُّوفَانُ، فَتَوَقَّفَ الْمَطَرُ وَابْتَلَعَتِ الْأَرْضُ مَاءَهَا، وَوَقَفَتِ السَّفِينَةُ عَلَى جَبَلٍ الْجُودِي بِالْعِرَاقِ، وَجَعَلَهَا اللَّهُ آيَةً لِلنَّاسِ. وَنَصَرَ اللَّهُ نُوحًا وَبَارَكَهُ وَمَنْ مَعَهُ، وَجَعَلَ نَسْلَهُ هُوَ الْبَاقِي، فَكُلُّ أَهْلِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ مِنْ نَسْلِهِ، وَوَلَدَ نُوحٌ ثَلَاثَةً: سَامٌ، وَحَامٌ، وَيَافِثُ أَبُو الرُّومِ. وَكُلُّ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ أَتَوْا بَعْدَ نُوحٍ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا ﷺ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ، آمُرُكَ

بِاثْنَيْنِ، وَأَنْهَكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ: آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَيْنِ
السَّبْعَ، لَوْ وُضِعْنَ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ، وَلَوْ أَنَّ
السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَيْنِ السَّبْعَ كُنَّ حَلَقَةً مَبْهَمَةً لَقَصَمْتَهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَسُبْحَانَ
اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ^(١)؛ فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ. وَأَنْهَكَ عَنِ الشُّرْكِ وَالْكِبْرِ.



(١) معنى: (سبحان الله) أعظمه وأنزهه عما لا يليق بجلاله، (وبحمده): وأثني عليه بكمال ذاته وصفاته.

إرسال هود عليه السلام إلى عاد

ثم بعث الله هودًا عليه السلام إلى عاد وهي قبيلة إرم أو في مدينة إرم بالأحقاف في جنوب الجزيرة العربية، يدعوهم إلى التوحيد، وكانوا أشد الناس قوة، فذكرهم بالله ونعمه عليهم وأنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وخصَّهم بعظم الأجسام والقوة وشدة البطش وما أعطاهم الله من أنعام وأولاد وبساتين وعيونٍ جارية. ودعاهم إلى توحيد الله وشكره والإخلاص له. وأنكر عليهم أنهم كانوا يبنون بكل مكان مشرف مرتفع بنيانًا علمًا عبثًا دون فائدة تعود عليهم. وأنهم يتخذون حصونًا وقصورًا كأنهم سيخلدون في الدنيا، وأنهم يسطون على غيرهم بالقتل أو الضرب سطوة جبارين من غير رأفة ولا رحمة. فكذبوه واتهموه بالجنون، فحذرهم من سخط الله وعقابه، وتحذاهم جميعًا بآية معجزة وهي أن يكيدوه أو يلحقوا به الضر مع كل قوتهم لأن الله سيحفظه وهو أشد منهم قوة. فلما أصروا على تكذيبهم نجَّى الله هودًا والذين آمنوا معه، وحل العذاب بقومه المكذبين فرأوا سحبًا معترضًا في جهة من السماء متجهًا لأوديتهم فظنوه سحبًا ممطرهم، وإنما كان العذاب الذي استعجلوه، ريحًا شديدة البرد قاسية ذات صوت مزعج، بلغت الغاية في القسوة عليهم. أرسلها الله عليهم مدة سبع ليالٍ وثمانية أيام تفنيهم عن بكرة أبيهم وتدمر كل شيء مرت عليه مما أمرها الله بإهلاكه، فأصبحوا هلكى مصروعين في الأرض كأنهم أصول نخل ساقطة بالية، لا يُرى إلا بيوتهم التي كانوا يسكنونها. ونجى الله هودًا والذين آمنوا معه برحمته^(١).

(١) جاء في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالذَّبُورِ». و (الصَّبَا) هي الريح التي تهب من مشرق الشمس ونصرتة بها ﷺ كانت يوم الخندق إذا أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية فقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم وكان ذلك سبب رجوعهم وانهمامهم. و (الذَّبُور) هي الريح التي تهب من مغرب الشمس وبها كان هلاك قوم عاد كما قص علينا القرآن الكريم.

إرسال صالح عليه السلام إلى ثمود

ثم بعث الله إلى قبيلة ثمود - في مدينة الحِجْر - نبيه صالحًا فدعاهم إلى التوحيد وطاعة الله وذكرهم بنعم الله عليهم من الخيرات والنعم والأمن وعدم الخوف، ومن الرخاء والعيش في بساتين وعيون جارية وزروع ونخل ثمرها لين نضيج. وأن الله جعلهم خلفاء من بعد قوم عاد، ومكنهم أن ينحتوا الجبال فيصنعوا منها بيوتًا، وأن يبنوا في سهول الأرض قصورًا. فكذبوه واتهموه أنه مسحور، واستهزؤوا به وبالمؤمنين المستضعفين معه. وطلبوا منه آيةً معجزةً تدل على صدق نبوته، فأخرج لهم بإذن الله من الصخرة ناقةً لتكون لهم آية على صدق نبوته واختبارًا لهم، وأخبرهم صالحٌ بأمر الله لهم أن يكون ماء بئرهم مقسوم بينهم وبين الناقة؛ يوم لها ويوم لهم، وأن يتركوها ترعى في أرض الله، ولا يتعرضوا لها بأي أذى؛ وإلا فسينالهم عذاب قريب من وقت عقرهم لها. فاتفقوا وحرصوا أشقاهم على قتل الناقة؛ فقتلها^(١). وقالوا مستهزئين مُستبِعِدِينَ لما توعدهم به نبيهم: يا صالح، جئنا بما توعدتنا به من العذاب الأليم إن كنت من رسل الله. فقال لهم: استمتعوا بالحياة في أرضكم مدة ثلاثة أيام من عقركم الناقة، ثم يأتيكم عذاب الله. وكان في مدينة الحِجْر تسعة رجال يفسدون في الأرض بالكفر والمعاصي، ولا يصلحون فيها بالإيمان والعمل الصالح. قال بعضهم لبعض: ليحلف كل واحد منكم بالله لنأتين صالحًا وأهله في بيته ليلاً، فلنقتلنهم، ثم لنقولن لولي دمه: ما حضرنا قتل صالح وأهله، وإنا لصادقون فيما قلنا.

(١) عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ، وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقُّهَا» ﴿١٢﴾ أُنْبِئَتْ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ، مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ».

ودبرّوا مكيدة خفية لإهلاك صالح وأهله. لكن الله أبطل مكرهم وحفظ صالحًا ومن معه. فلما انقضت الأيام الثلاثة؛ أخذتهم الزلزلة الشديدة، وأرسلت عليهم صيحة واحدة - وهي صوت شديد مهلك - فماتوا من شدّته، وأصبحوا ساقطين على وجوههم، قد لصقت وجوههم بالتراب فأهلكتهم، فكانوا كالشجر اليابس الذي يتخذ منه المُحْتَظَر حظيرة لغنمه. ونجّى الله صالحًا ومن آمن معه برحمته وفضله.



بعثة إبراهيم عليه السلام في العراق

وُولِدَ إبراهيم عليه السلام بِبَابِلَ فِي الْعِرَاقِ، ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى الْمَلِكِ نَمْرُودَ بْنِ كَنْعَانَ وَقَوْمِهِ بِالْعِرَاقِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالْكُوكَبَ، فَدَعَاهُمْ وَجَادَلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ.

وَابْتَدَأَ إبراهيم بدعوة أبيه آزر إلى توحيد الله متلطفًا معه حريصًا عليه، لكن أباه رفض تركه دينه الباطل^(١)، وأراد إبراهيم أن يثبت لقومه أن الكواكب والأصنام لا تضر ولا تنفع ولا تصلح للعبادة، فاتخذ طريقة الاستدراج والتنزل في مناظرتهم، فحين أظلم عليه الليل رأى كوكبًا، فقال لقومه على وجه التنزل معهم لاستدراجهم: سأختار أن يكون هذا الكوكب ربِّي. فَلَمَّا غَابَ ذَلِكَ الْكُوكَبُ قَالَ إبراهيم عليه السلام: لَا أَحِبُّ الْمَعْبُودَ الْمُتَغَيَّرَ الْمُسَخَّرَ، الَّذِي يَغِيْبُ وَيَنْصَرِفُ عَمَّنْ عَبَدَهُ، لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ - مَنْ هَذَا حَالُهُ - هُوَ الْقَائِمَ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ، الْمُدَبِّرَ لَشُؤْنِ الْعَالَمِ، الَّذِي بِيَدِهِ النَّفْعُ وَالضَّرُّ، وَعَلَيْهِ؛ فَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكُوكَبُ الَّذِي اخْتَرْتَهُ إِلَهًا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ.

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ فِي أَوَّلِ طُلُوعِهِ قَالَ تَنْزُلًا مَعَهُمْ لاسْتِدْرَاجِهِمْ: هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا غَابَ الْقَمَرُ قَالَ إبراهيم: إِنْ الْقَمَرُ أَيْضًا يَغِيْبُ وَلَا يَصْلُحُ لِلْعِبَادَةِ، وَلَئِنْ لَمْ يُوفِّقْنِي رَبِّي لِلْحَقِّ لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ.

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ فِي أَوَّلِ طُلُوعِهَا قَالَ تَنْزُلًا مَعَ قَوْمِهِ: هَذَا الطَّالِعُ رَبِّي، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْكُوكَبِ وَمِنَ الْقَمَرِ، فَلَمَّا غَابَتِ الشَّمْسُ قَالَ إبراهيم: يَا قَوْمِ إِنِّي أَبْرَأُ مِنْ كُلِّ مَا

(١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا زَالَ إِبْرَاهِيمُ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ حَتَّى مَاتَ، فَلَمَّا مَاتَ؛ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ؛ فَتَبَرَّأَ مِنْهُ.

تعبدونه مع الله، إني أخلصتُ العبادة لله الذي أبدع خلق السموات والأرض وما فيها من شمس وقمر وكواكب على غير مثال سابق، ماثلاً عن الشُّرك، مستقيماً على التَّوحيد، وما أنا من المشركين مع الله تعالى غيره.

وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً إِلَى ظَاهِرِ الْبَلَدِ، فلما حان يوم عيدهم أرادوه أن يخرج معهم، فقال لهم: إني مريض. وأراد في نفسه أن يختلي بالأصنام حين يخرجون ليحطمها. ثم قام بتحطيم الأصنام في يوم عيد قومه وترك كبير الأصنام، فلما رجعوا ووجدوا أصنامهم محطمة أخذوا يبحثون عن الفاعل، فذكر بعضهم أن إبراهيم هو الذي كان يعيب الأصنام ولم يخرج معهم إلى العيد. فلما أحضره وسألوه عما يتهم به من تحطيم الأصنام؛ جادلهم مُتهكِّماً أن كبير الأصنام هو الذي حطم بقية الأصنام، وطلب منهم سؤال الأصنام عن ذلك. فأدركوا ضعف أصنامهم وأنها لا تنطق، ولكنهم لما غلبتهم الحُجَّة؛ استكبروا وقالوا إنك تعلم أنها لا تنطق. فعاب عليهم عبادة ما لا ينطق ولا ينفع ولا يضر ولا يستطيع الدفاع حتى عن نفسه، وأنه لا يخاف من أصنامهم شيئاً ولا يخشى إلا الله. فأرادوا الانتقام لأصنامهم وتحريقه بالنار وشرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يُمَكِّنُهُم مِنَ الْأَمَاكِنِ، فَمَكَّنُوا مُدَّةً يَجْمَعُونَ لَهُ حَتَّى إِنَّ الْمَرْأَةَ مِنْهُمْ كَانَتْ إِذَا مَرَضَتْ تَنْذِرُ لَيْنَ عُوَيْتٍ لَتَحْمِلَنَّ حَطْبًا لِحَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى جُوبَةٍ^(١) عَظِيمَةٍ فَوَضَعُوا فِيهَا ذَلِكَ الْحَطْبَ، وَأَطْلَقُوا فِيهِ النَّارَ فَاضْطَرَمَّتْ وَتَأَجَّجَتْ وَالتَّهَبَّتْ، وَعَلَاهَا شَرَرٌ لَمْ يَرِ مِثْلُهُ قَطُّ، ثُمَّ وَضَعُوا إِبْرَاهِيمَ ۖ فِي كِفَّةٍ مَنَجْنِيْقٍ صَنَعَهُ لَهُمْ رَجُلٌ مِنَ الْأَكْرَادِ يُقَالُ لَهُ هِيزَنُ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَنَعَ الْمَجَانِيْقَ فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ أَخَذُوا يُقَيِّدُونَهُ وَيُكَتِّفُونَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، لَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ

(١) وهي الفجوة بين البيوت، وهي أيضاً: المكان الفارغ المتسع.

الْمُلْكُ لَا شَرِيكَ لَكَ. وَوُضِعَ الْخَلِيلُ ﷺ فِي كِفَّةٍ الْمَنْجَنِيْقِ مُقَيَّدًا مَكْتُوفًا، ثُمَّ أَلْقَوْهُ مِنْهُ إِلَى النَّارِ، وَكَانَ الْوَزْغُ يَنْفُخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ النَّارَ. وَكَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: (حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) فجعلها الله بردًا وسلامًا عليه، وصار إبراهيم ﷺ في مثل الْجُونَةِ^(١) حَوْلَهُ النَّارُ، وَهُوَ فِي رَوْضَةٍ خَضِرَاءَ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ. وكانت آية من آيات الله، فخرج منها سالمًا.

ثم حصلت الْمُنَاطَرَةُ التي كَانَتْ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ النُّمْرُودِ - وَهُوَ مَلِكُ بَابِلَ - يَوْمَ خَرَجَ مِنَ النَّارِ، وَلَمْ يَكُنْ اجْتَمَعَ بِهِ إِلَّا يَوْمَئِذٍ. وناظر إبراهيم في وجود الله وربوبيته وألوهيته، وما حمّله على ذلك وجرّاه عليه إِلَّا الْمُلْكُ الذي أعطاه الله له، فاستكبر وطغى، وأنكر وجود الله ﷻ، فأخبره إبراهيم ﷺ أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي وَيُمِيتُ، مُسْتَدِلًّا بِذَلِكَ عَلَى وجود الربِّ تعالى وربوبيته وأحقّيته وحده بالعبادة، فردّ عليه المَلِكُ - عنادًا - أَنَّهُ أَيْضًا يَمْلِكُ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا الْفِعْلَ؛ فالإحياء باستبقاء مَنْ أَرَادَ قَتْلَهُ، أَوِ الإِمَاتَةَ بِقَتْلِ مَنْ أَرَادَ إِمَاتَتَهُ. فردّ إبراهيم ﷺ عَلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ، فَإِنْ كَانَ إِلَهًا حَقًّا، يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَلْيَجْعَلْهَا تَطْلُعُ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ، فحينها عَلِمَ ذَلِكَ الْمُحَاجِجُ أَنَّهُ عَجَزَ وَانْقَطَعَ عَنِ الْإِدْلَاءِ بِحُجَّةٍ، فَتَحَيَّرَ وَانْدَهَشَ. وَأُرْسِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ أَسَدَانِ مُجَوَّعَانِ، فَلَحَسَاهُ وَسَجَدَا لَهُ.

وآمن لإبراهيم من قومه لوط وهو ابن أخيه، ثم هاجر إبراهيم بزوجه سارة ابنة عمه هاران، وهاجر معهم لوط إلى أرض الشام. وحل العذاب بقوم إبراهيم ﷺ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ فهلك ملكهم النمرود وسلبوا النعم التي كانوا فيها ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿٦٧﴾.

(١) الجونة: سلية (سلة صغيرة) مستديرة مغطاة بالجلد، يحفظ العطار فيها الطيب.

هجرة إبراهيم إلى الشام

وَكُلُّ مَنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَانُوا كُفَّارًا سِوَى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، وَامْرَأَتِهِ، وَابْنِ أَخِيهِ لُوطٍ عليه السلام. وَلَمَّا هَجَرَ قَوْمَهُ فِي اللَّهِ، وَهَاجَرَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، - وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ عَاقِرًا لَا يُوَلِّدُ لَهَا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْوَلَدِ أَحَدٌ، بَلْ مَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ -؛ وَهَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ الْأَوْلَادَ الصَّالِحِينَ، وَجَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، فَكُلُّ نَبِيٍّ بُعِثَ بَعْدَهُ فَهُوَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَكُلُّ كِتَابٍ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ بَعْدِهِ فَعَلَى أَحَدِ نَسْلِهِ وَعَقِبِهِ خِلْعَةً مِنَ اللَّهِ وَكَرَامَةً لَهُ حِينَ تَرَكَ بِلَادَهُ وَأَهْلَهُ وَأَقْرِبَاءَهُ، وَهَاجَرَ إِلَى بَلَدٍ يَتِمَكَّنُ فِيهَا مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ ﷻ وَدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَالْأَرْضُ الَّتِي قَصَدَهَا بِالْهَجْرَةِ أَرْضُ الشَّامِ، وَهِيَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ٧١.



قصة إبراهيم وسارة مع ملك مصر

وَلَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ ﷺ قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ^(١) فِي ذَاتِ اللَّهِ ^(٢) وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ^(٣) وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ^(٤)، وَقَوْلُهُ فِي الْكُوكَبِ: ﴿هَذَا رِثْيٌ﴾، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ. فَإِنَّهُ هَاجَرَ بِسَارَةَ وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ، فَدَخَلَ بِهَا قَرْيَةً ^(٥) فِيهَا مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَّارَةِ، فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُ؛ رَأَاهَا بَعْضُ أَهْلِ الْجَبَّارِ، فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ لَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلَّا لَكَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ مَنْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ؟، فَقَالَ: أُخْتِي، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: يَا سَارَةُ،

(١) قال بعض العلماء: أنها من المعارض التي تُباح عند الحاجة الشرعية، وهي: أن يعنى بكلامه ما يحتمله اللفظ وإن لم يفهمه المخاطب. وَلَمْ يُرْخَصْ فِيمَا يَقُولُ النَّاسُ: إِنَّهُ كَذَبٌ؛ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: فِي الْأَصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ وَفِي الْحَرْبِ؛ وَفِي الرَّجُلِ يُحَدِّثُ امْرَأَتَهُ.

(٢) أي: في الدفع عن ذات الله ما لا يليق بجلاله.

(٣) قال متعللاً عن الخروج مع قومه إلى عيدهم: إني مريض.

(٤) لما سأله قومه هل هو الذي كسر أصنامهم؟، قال - مُتَهَكِّمًا بِهِمْ وَمُظْهِرًا عِجْزَ أَصْنَامِهِمْ عَلَى مَرَأَى مِنَ النَّاسِ -: بل الذي كسر الأصنام هو كبير الأصنام.

(٥) القرية هي: مصر.

وَذَكَرَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ الشَّامَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنِّي جَاعِلٌ هَذِهِ الْأَرْضَ لَخَلْفِكَ مِنْ بَعْدِكَ فَابْتَنَى إِبْرَاهِيمُ مَذْبَحًا لِلَّهِ شُكْرًا عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَضَرَبَ قُبَّتَهُ شَرْقِيَّ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ انْطَلَقَ مُرْتَحِلًا إِلَى الْيَمَنِ، وَأَنَّهُ كَانَ جُوعٌ أَيْ قَحْطٌ وَشِدَّةٌ وَغَلَاءٌ؛ فَارْتَحَلُوا إِلَى مِصْرَ، وَذَكَرُوا قِصَّةَ سَارَةَ مَعَ مَلِكِهَا، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ قَالَ لَهَا قُولِي: أَنَا أُخْتُهُ. وَذَكَرُوا إِخْدَامَ الْمَلِكِ إِيَّاهَا هَاجِرًا، وَأَنَّهُ أَخْرَجَهُمْ فَرَجَعُوا إِلَى بِلَادِ التَّيْمَنِ يَعْنِي أَرْضَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَمَا وَالِاهَا، وَمَعَهُ دَوَابُّ وَعَبِيدٌ وَأَمْوَالٌ.

لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ^(١)، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكَ أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبْنِي، فَإِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ إِنْ يَعْلَمَ أَنَّكَ أَمْرَأَتِي، يَغْلِبْنِي عَلَيْكَ، فَإِنْ سَأَلَكَ، فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكَ أُخْتِي، فَإِنَّكَ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ^(٢)، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ إِلَى الصَّلَاةِ، وَقَامَتْ تَوَضُّأً وَتُصَلِّي، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَى رَوْحِي، فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَتِمَّالِكَ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَقَبِضَتْ يَدَهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ، فَقَالَ لَهَا: ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي، وَلَا أَضْرُكَ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ يُقَالُ: هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأَرْسَلَ، فَعَادَ، فَقَبِضَتْ يَدَهُ أَشَدَّ مِنْ الْقَبْضَةِ الْأُولَى، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَفَعَلَتْ، فَعَادَ، فَقَبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي، فَلَكَ اللَّهُ أَنْ لَا أَضْرُكَ، فَفَعَلَتْ، وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ، فَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ، وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ، فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِي، وَأَعْطِهَا هَاجِرَ^(٣)، فَأَقْبَلَتْ تَمْشِي، فَلَمَّا رَأَاهَا إِبْرَاهِيمُ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، انْصَرَفَ، فَقَالَ لَهَا: مَهَيْمُ؟ قَالَتْ: خَيْرًا، كَفَّ اللَّهُ يَدَ الْفَاجِرِ، وَأَخَذَ خَادِمًا^(٤).

(١) يعني: زوجان مؤمنان، لأنه آمن معه لوط من قومه، وهاجر معه إلى الشام.

(٢) ذكر المنذري في «حاشية السنن»، عن بعض أهل الكتاب أنه كان من رأي الجبار المذكور أن من كانت متزوجة لا يقرها حتى يقتل زوجها، فلذلك قال إبراهيم: «هي أختي»، لأنه إن كان عادلاً خطبها منه ثم يزوجو مدافعتة عنها، وإن كان ظالماً تخلص إبراهيم من القتل.

(٣) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَبَلَغَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ. يَقْصِدُ هَاجِرَ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، وَالْعَرَبَ لَصَفَاءِ نَسَبِهِمْ.

(٤) قال ابن كثير في قصة سارة مع جبار مصر: وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ أَنَّ اللَّهَ ﷻ كَشَفَ الْحِجَابَ فِيمَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَبَيْنَهَا فَلَمْ يَزَلْ يَرَاهَا مُنْذُ خَرَجَتْ مِنْ عِنْدِهِ إِلَى أَنْ رَجَعَتْ إِلَيْهِ، وَكَانَ مُشَاهِدًا لَهَا وَهِيَ عِنْدَ الْمَلِكِ، وَكَيْفَ عَصَمَهَا اللَّهُ مِنْهُ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَطْيَبَ لِقَائِهِ وَأَقْرَبَ لِعَيْنِهِ وَأَشَدَّ لَطْمًا لِنَبْتِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا لِدِينِهَا، وَقَرَابَتِهَا مِنْهُ وَحُسْنِهَا الْبَاهِرِ، فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ امْرَأَةً بَعْدَ حَوَاءَ إِلَى زَمَانِهَا أَحْسَنَ مِنْهَا ﷺ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُؤْنَةُ.

رجوع الخليل من مصر إلى الشام

ثُمَّ إِنَّ الْخَلِيلَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ رَجَعَ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ التَّيْمَنِ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا، وَمَعَهُ أَنْعَامٌ وَعِيْدٌ وَمَالٌ جَزِيلٌ، وَصَحِبَتْهُمْ هَاجِرُ الْقُبْطِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ.



انتقال لوط إلى قرية سدوم

ثُمَّ إِنَّ لُوطًا  نَزَحَ بِمَا لَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ الْجَزِيلَةِ بِأَمْرِ الْخَلِيلِ لَهُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَرْضِ
الْغُورِ، الْمَعْرُوفِ بِغُورِ زُغَرٍ، فَتَزَلَّ بِمَدِينَةِ سَدُومَ، وَهِيَ أُمُّ تِلْكَ الْبِلَادِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ،
وَكَانَ أَهْلُهَا أَشْرَارًا كُفَّارًا فُجَّارًا.



ولادة إسماعيل وقصة زمزم

ولمّا وهب جبار القرية (ملك مصر) هاجر إلى سارة بنت عم الخليل وكانت سارة يئست من الولد؛ وهبت سارة هاجر القبطية المصرية لإبراهيم، فولدت له هاجر إسماعيل، فغارت سارة منها واشتدت غيرة سارة من هاجر، وطلبت من الخليل أن يُغيب وجهها عنها. وإنّ أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل^(١)، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة.

ثم جاء بها إبراهيم ﷺ وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما في وادي جبال فاران، وهي الجبال التي حول مكة عند البيت، عند دوحه^(٢) فوق زمزم، في أعلى المسجد^(٣) وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً. فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟، قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت،

(١) وهي: هاجر. والمنطق: ما يُشدّ به الوسط. فشدت هاجر به وسطها وهربت وجرّت ذيلها لتخفي أثرها على سارة، واستمرت غيرة سارة إلى أن كان إخراج هاجر وولدها إلى مكة، ثم ولدت سارة بعد أربعة عشر عاماً إسحاق.

(٢) الدوحة: الشجرة الكبيرة. وكانت بين موضع البئر وبين الصفا.

(٣) أي: مكان المسجد، لأنه لم يكن بُني حينئذ.

ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ وَدَعَا بِهِؤَلَاءِ الْكَلِمَاتِ، فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (١)، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السَّقَاءِ عَطِشَتْ، وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِي تَنْظُرُ، هَلْ تَرَى أَحَدًا؟، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِي رَفَعَتْ طَرْفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِي، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا، وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا؟، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ، سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ: صَه - تَرِيدُ نَفْسَهَا - ثُمَّ تَسَمَعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثُ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقْبِهِ، أَوْ بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا، وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَمَا تَغْرِفُ (٢). فَشَرِبَتْ

(١) ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». واختلف العلماء في وجود الكعبة قبل إبراهيم عليه السلام وأنها تهدمت وخفي مكانها تحديداً، واستدل بعضهم بقول إبراهيم: (عند بيتك المحرم) بأن الكعبة كانت موجودة ومعروف موطنها قبل أن يبنها إبراهيم، إلا أن مكانها تحديداً قد خفي، كما يروى أنه قد خفي مكان بئر زمزم على قريش بعد أن طمرت، ثم حفرها عبدالمطلب بعد رؤيته مكانها في المنام، والله أعلم.

(٢) جاء في الحديث عن النبي ﷺ: يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ، لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا تَجْرِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. خَيْرُ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، مَاءُ زَمْزَمَ، فِيهِ طَعَامٌ مِنَ الطُّعْمِ، وَشِفَاءٌ مِنَ السُّقْمِ، وَشَرُّ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، مَاءُ بَوَادِي بَرَهَوْتِ، بِقُبَّةِ حَضْرَمَوْتِ، كَرِجَلِ الْجَرَادِ مِنَ الْهُوَامِ، تُصْبِحُ تَدَقُّقُ، وَتُمْسِي لَا بِلَالٍ بِهَا. (أَي: لَا مَاءَ بِهَا).

وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لَا تَخَافُوا الصَّيْعَةَ فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتُ اللَّهِ، يَنْبِيهِ هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ.

وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقٍ كَدَاءٍ فَتَزَلُّوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ فَنَظَرَ، فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَاتَّاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ، فَاتَّوَا إِلَيْهَا، فَقَالُوا: أَتَأْذِينَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكَ؟، قَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ. فَالْفَى ذَلِكَ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ تُحِبُّ الْأَنْسَ، فَتَزَلُّوا، وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَتَزَلُّوا مَعَهُمْ، حَتَّى كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ، وَأَوَّلُ مَنْ فَتَقَ لِسَانُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبِينَةِ إِسْمَاعِيلُ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَنَةً، وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوْجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ.



إرسال لوط

ولوط هو ابنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ، فَالْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ وَهَارَانَ وَنَاحُورَ إِخْوَةٍ. وَلُوطٌ هُوَ ابْنُ هَارَانَ بْنِ (تَارَحَ) - وَهُوَ آزَرَ - .

وَكَانَ لُوطٌ قَدْ نَزَحَ عَنْ مَحَلَّةِ عَمِّهِ الْخَلِيلِ  بِأَمْرِ لَهُ وَإِذْنِهِ، فَنَزَلَ بِمَدِينَةٍ سَدُومَ مِنْ أَرْضِ غُورِ زُغَرٍ، وَكَانَتْ أُمَّ تِلْكَ الْمَحَلَّةِ وَلَهَا أَرْضٌ وَمُعْمَلَاتٌ وَقُرَى مُصَافَةٌ إِلَيْهَا، وَلَهَا أَهْلٌ مِنْ أَفْجَرِ النَّاسِ. فَبَعَثَ فِي تِلْكَ الْقُرَى بِالْأَرْدَنِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَشَكَرِ نِعَمِهِ. وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ فِعْلَ الْفَاحِشَةِ بِالذِّكْرِ لِقَضَاءِ الشَّهْوَةِ بِهِمْ دُونَ النِّسَاءِ اللَّائِي خُلِقْنَ لِقَضَائِهَا، وَأَنَّهَا فَعَلَتْ شَنِيعَةً لَمْ يَسْبِقْهُمْ إِلَى ارْتِكَابِهَا أَحَدٌ! وَأَنَّهُمْ مُتَجَاوِزُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ بِخُرُوجِهِمْ عَنِ الْفِطْرَةِ الْكَرِيمَةِ. فَأَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَصْيَانِهِمْ وَفَاحِشَتِهِمْ، وَقَالُوا مُعْرِضِينَ عَنِ الْحَقِّ: أَخْرَجُوا لُوطًا وَأَهْلَهُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ؛ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ عَمَلِنَا هَذَا، فَلَا يَلِيقُ بِنَا أَنْ يَبْقُوا بَيْنَ ظَهْرَانِنَا.



مجيء إبراهيم إلى مكة لتفقد حال ابنه

وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَأِي سورة البقرة، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرُ عَتَبَةَ^(١) بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ أَنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَّاءٌ وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولَ: غَيْرَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكَ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَفَارِقَكَ، الْحَقِّي بِأَهْلِكَ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنْتُ عَلَى اللَّهِ سبحانه فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: الْمَاءُ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ^(٢)، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَأِي سورة البقرة، وَمُرِّيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنْتُ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ

(١) العتبة: هي الخشبة العليا في موضع الباب. وقيل: هي خشبة الباب التي يُوطَأُ عَلَيْهَا (الأسكفة).

(٢) فحصلت بركة بدعوة إبراهيم عليه السلام في طعام أهل مكة وشرابهم. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حُبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ، فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بَغِيرَ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ». يعني: ليس أحدٌ يخلو؛ أي: يعتمد ويدوم على اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه. أما في مكة المشرفة فلا؛ فإنهما يوافقانه فيها.

فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ. قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟، قَالَتْ: نَعَمْ،
هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكَ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي
أَنْ أُمْسِكَكَ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ.



إبراهيم وإسماعيل بينان الكعبة

ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ ^(١) وَإِسْمَاعِيلُ يُبْرِي نَبْلًا لَهُ ^(٢) تَحْتَ دَوْحَةٍ، قَرِيبًا مِنْ زَمْرَمَ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ، وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأَعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا - وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا - قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ - وَكَانَتْ قَوَاعِدُ الْبَيْتِ قَبْلَ ذَلِكَ ^(٣) - فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي

(١) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عليه السلام، قَالَ: «أَقْبَلَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَرْضِ مِثْنَةَ، مَعَهُ السَّكِينَةُ تَدْلُهُ، حَتَّى تَبَوَّأَ الْبَيْتَ كَمَا تَبَوَّأَتِ الْعَنْكَبُوتُ بَيْتَهَا، فَرَفَعُوا عَنْ أَحْجَارٍ، الْحَجَرِ يُطِيقُهُ أَوْ لَا يُطِيقُهُ ثَلَاثُونَ رَجُلًا».

(٢) عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ عليه السلام، قَالَ: «مَرَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ - يَعْنِي مِنْ قَبِيلَةِ أَسْلَمَ - يَتَضَلُّونَ (مِنْ الْمُنَاصِلَةِ، وَهِيَ الْمُرَامَةُ بِالنَّشَابِ) - وَهِيَ السَّهَامُ - فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا». وَفِيهِ دَلِيلٌ أَنَّ عَرَبَ الْيَمَنِ مِنْ ذُرِّيَةِ إِسْمَاعِيلَ. وَالْعَرَبُ كُلُّهَا مِنْ وَلَدِ سَامِ بْنِ نُوحٍ بِالِاتِّفَاقِ.

قال ابن كثير: قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَأَسْلَمَ بْنُ أَفْصَى بْنِ حَارِثَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ مِنْ خُزَاعَةَ. يَعْنِي: وَخُزَاعَةُ فِرْقَةٌ مِمَّنْ كَانَ تَمَزَّقَ مِنْ قَبَائِلِ سَبَأٍ حِينَ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ.. وَكَانَتْ الْأَوْسُ وَالْخَزَرَجُ مِنْهُمْ. فَأَسْلَمَ قَبِيلَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَالْأَنْصَارُ أَوْسُهَا وَخَزَرَجُهَا مِنْ عَسَّانٍ مِنْ عَرَبِ الْيَمَنِ مِنْ سَبَأٍ، نَزَلُوا بِبَثْرَبَ لَمَّا تَفَرَّقَتْ سَبَأٌ فِي الْبِلَادِ، حِينَ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِالشَّامِ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُمْ: عَسَّانَ بِمَاءٍ نَزَلُوا عَلَيْهِ قِيلَ: بِالْيَمَنِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُشَلَّلِ.

(٣) كما صح عن ابن عباس، يعني: كانت قواعد الكعبة موضوعة قبل عهد إبراهيم عليه السلام، وقيل: إن الكعبة قد بنيت قبل ذلك ثم تهدمت بالطوفان أو غيره، وإنما أخبر إبراهيم عن مكانها ﷺ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﷻ، واختلفوا في أول من بنى الكعبة، فقيل: آدم، وقيل: شيث ابن آدم، وقيل: الملائكة. ومن العلماء من يرى أن إبراهيم هو أول من بنى الكعبة، والله أعلم.

بِالْحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِحَجَرٍ وَهُوَ ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١) فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

ثم إنَّ رِجْلَهُ الْكَرِيمَةَ غَاصَتْ فِي الصَّخْرَةِ فَصَارَتْ عَلَى قَدْرِ قَدَمِهِ حَافِيَةً لَا مُتَّعِلَةً.^(٣)



(١) أَي: الْحَجَرُ الَّذِي كَانَ يَقِفُ عَلَيْهِ قَائِمًا لَمَّا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ عَنْ قَامَتِهِ فَوَضَعَ لَهُ وَلَدُهُ هَذَا الْحَجَرَ الْمَشْهُورَ لِيَرْتَفِعَ عَلَيْهِ لَمَّا تَعَالَى الْبِنَاءُ.

(٢) ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وَقَدْ كَانَ هَذَا الْحَجَرُ مُلَصَّقًا بِحَائِطِ الْكَعْبَةِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ إِلَى أَيَّامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ فَأَخْرَجَهُ عَنِ الْبَيْتِ قَلِيلًا لِيَتَلَّأَّ يَسْغُلَ الْمُصَلُّونَ عَنْدَهُ الطَّائِفِينَ بِالْبَيْتِ، وَكَانَ أَثَرُ الْقَدَمَيْنِ وَاضِحًا، ثُمَّ تَأَثَّرَ مِنْ تَمَسُّحِ النَّاسِ بِهِ.

قصة الذبيح إسماعيل ومناسك الحج

وإِنَّ إِبْرَاهِيمَ   لَمَّا أُمِرَ بِالْمَنَاسِكِ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَسْعَى، فَسَاقَتْهُ، فَسَبَقَهُ إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جَبْرِيلُ إِلَى جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ حَتَّى ذَهَبَ^(١)، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوُسْطَى، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ، وَكَانَ مَعَهُ ابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لَابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنِّي رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ أَنِّي أَذْبَحُكَ - وَرَوِّيَا الْأَنْبِيَاءَ حَقَّ مِنَ الْوَحْيِ - فَانْظُرْ مَا تَرَى فِي ذَلِكَ، فَأَجَابَهُ إِسْمَاعِيلُ: يَا أَبِي، أَفْعَلْ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ مِنْ ذَبْحِي، سَتَجِدُنِي مِنَ الصَّابِرِينَ الرَّاضِينَ بِحُكْمِ اللَّهِ. وَهُنَاكَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ^(٢)، وَعَلَى إِسْمَاعِيلَ قَمِيصٌ أَبْيَضُ، فَقَالَ: يَا أَبَتِ إِنَّهُ لَيْسَ لِي ثَوْبٌ تُكْفِنُنِي فِيهِ غَيْرُهُ، فَأَخْلَعُهُ حَتَّى تُكْفِنَنِي فِيهِ، فَعَالَجَهُ لِيَخْلَعَهُ، فَنُوْدِيَ مِنْ خَلْفِهِ:   أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ   قَدْ صَدَقْتَ الرَّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ   إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ   وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ     فَالْتَفَتَ إِبْرَاهِيمُ، فَإِذَا هُوَ بِكَبْشٍ أَبْيَضٍ، أَقْرَنَ^(٣)، أَعْيَنَ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جَبْرِيلُ إِلَى الْجَمْرَةِ الْقُصْوَى، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ حَتَّى ذَهَبَ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جَبْرِيلُ إِلَى مَنًى، قَالَ: هَذَا مِنِّي، هَذَا مُنَاحُ النَّاسِ، ثُمَّ أَتَى بِهِ

(١) وفي رواية: «حَتَّى سَاخَ فِي الْأَرْضِ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ  : الشَّيْطَانُ تَرَجُمُونُ، وَمِلَّةٌ أَيْكُمُ تَتَّبِعُونَ.

(٢) أي: وضع إبراهيم ابنه على جانب جبهته. وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ جَبِينَانِ بَيْنَهُمَا الْجَبْهَةُ.

(٣) قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعِثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ: «إِنِّي كُنْتُ رَأَيْتُ قَرْنَيْ الْكَبْشِ حِينَ دَخَلْتُ الْبَيْتَ، فَتَسَبَّيْتُ أَنْ أَمُرَّ أَنْ تُخَمَّرَهُمَا فَخَمَّرَهُمَا، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ شَيْءٌ يَشْغُلُ الْمُصَلِّيَّ». أَي: تَغْطِي قَرْنَيْ الْكَبْشِ الَّذِي فَدَى اللَّهُ تَعَالَى بِهِ إِسْمَاعِيلَ   عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ. قَالَ سُفْيَانُ: لَمْ تَزَلْ قَرْنَا الْكَبْشِ فِي الْبَيْتِ حَتَّى احْتَرَقَ الْبَيْتُ فَاحْتَرَقَا.

وَسَيِّدِهِمْ، وَفَخِرَ بَنِي آدَمَ فِي الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ؛ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ الْقُرَشِيِّ الْهَاشِمِيِّ الْمَكِّيِّ ثُمَّ الْمَدَنِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وبقيت شعائر الحج وملة الحنيفية والتوحيد في العرب إلى أن غيرها عمرو بن لُحَيٍّ بْنُ قَمْعَةَ بْنُ خِنْدِفٍ بعبادة الأصنام مع الله، فهو يَجْرُ قُصْبَهُ^(١) فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ عَهْدَ إِبْرَاهِيمَ، وَسَيَّبَ السَّوَائِبَ^(٢)، وَكَانَ قَدْ أَتَى الشَّامَ وَرَأَاهُمْ بِالْبَلْقَاءِ لَهُمْ أَصْنَامٌ يَسْتَجْلِبُونَ بِهَا الْمَنَافِعَ وَيَدْفَعُونَ بِهَا الْمَضَارَّ، فَصَنَعَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي مَكَّةَ لَمَّا كَانَتْ خُرَاعَةٌ وُلَاةَ الْبَيْتِ قَبْلَ قُرَيْشٍ، وَكَانَ هُوَ سَيِّدَ خُرَاعَةٍ^(٣).



(١) أمعاه.

(٢) السَّائِبَةُ: هِيَ النَّاقَةُ الْمَتْرُوكَةُ وَالْمَنْدُورَةُ لِلطَّوَاعِثِ، وَكَانَتِ النَّاقَةُ الْبَكْرُ تَبْكُرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الْإِبِلِ، ثُمَّ تُثْنِي بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْوَلَادَاتِ التَّالِيَةِ بِالْإِنَاثِ، فَإِذَا وَلَدَتِ النَّاقَةُ عَشْرَةَ أَبْطَنَ كُلُّهُنَّ إِنَاثٌ، فَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِطَوَاغِيَّتِهِمْ إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْآخَرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ.

(٣) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِأَكْثَمَ بْنِ الْجَوْنِ الْخَزَاعِيِّ: «يَا أَكْثَمُ رَأَيْتَ عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ بْنُ قَمْعَةَ بْنُ خِنْدِفٍ يَجْرُ قُصْبَهُ فِي النَّارِ فَمَا رَأَيْتَ رَجُلًا أَشْبَهَ بِرَجُلٍ مِنْكَ بِهِ وَلَا بِكَ مِنْهُ». فَقَالَ أَكْثَمُ: عَسَى أَنْ يَضُرَّنِي شَبْهُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ «لَا، إِنَّكَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ كَافِرٌ، إِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ فَنَصَبَ الْأَوْثَانَ وَبَحَرَ الْبَحِيرَةَ وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ وَحَمَى الْحَامِيَّ».

بشارة إبراهيم بإسحاق ﷺ

وَجَاءَتِ الْبَشَارَةُ بِإِسْحَاقَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِإِبْرَاهِيمَ وَسَارَةَ لَمَّا مَرُّوا بِهِمْ مُجْتَازِينَ ذَاهِبِينَ إِلَى مَدَائِنِ قَوْمٍ لُوطٍ لِيُدْمَرُوا عَلَيْهِمْ لِكُفْرِهِمْ وَفُجُورِهِمْ، وَكَانَ الْمَلَائِكَةُ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، وَلَمَّا وَرَدُوا عَلَى الْخَلِيلِ حَسِبَهُمْ أَوَّلًا أَضْيَافًا فَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ الضُّيُوفِ؛ شَوَى لَهُمْ عَجَلًا سَمِينًا مِنْ خِيَارِ بَقَرِهِ، فَلَمَّا قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَرَهُمْ هَمَّةً إِلَى الْأَكْلِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَيْسَ فِيهِمْ قُوَّةُ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّعَامِ، فَكَرَهُهُمْ إِبْرَاهِيمُ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، قَالُوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾ أَيُّ لِنُدْمَرَنَّ عَلَيْهِمْ. فَاسْتَبَشَرَتْ عِنْدَ ذَلِكَ سَارَةُ غَضَبًا لِلَّهِ عَلَيْهِمْ. وَكَانَتْ قَائِمَةً عَلَى رُءُوسِ الْأَضْيَافِ، كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ النَّاسِ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ، فَلَمَّا ضَحِكَتِ اسْتَبْشَارًا بِذَلِكَ؛ بَشَّرَتْهَا الْمَلَائِكَةُ ﴿بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، فَأَقْبَلَتْ ﴿فِي صَرَقٍ﴾ أَيُّ: فِي صَرْخَةٍ، ﴿فَضَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ كَمَا يَفْعَلُ النِّسَاءُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ، وَقَالَتْ: ﴿يَوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا؟﴾، فَأَكَّدُوا لَهَا الْخَبَرَ بِهَذِهِ الْبَشَارَةِ، وَبَشَّرُوهُمَا ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ وَهُوَ إِسْحَاقُ، وَقَدْ وُصِفَ أَخُوهُ إِسْمَاعِيلُ بِأَنَّهُ غُلَامٌ ﴿حَلِيمٌ﴾ لِمَقَامِهِ وَصَبْرِهِ.



إهلاك قوم لوط في قرى سدوم

وجاءت الملائكة لوطاً في هيئة رجال فساءه مجيؤهم، وضاق صدره بسبب الخوف عليهم من قومه الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وقال لوط: هذا يوم شديد؛ لظنه أن قومه سيغالبنه على ضيوفه. وجاء قوم لوط مسرعين قاصدين فعل الفاحشة بضيوفه. وقال لهم لوط مدافعاً قومه ومعدراً لنفسه أمام ضيوفه: هؤلاء بناتي من جملة نسائكم فتزوجوهن؛ فهن أطهر لكم من فعل الفاحشة، فخافوا من الله، ولا تجلبوا لي العار في ضيوفي، أليس منكم رجل ذو عقل سديد ينهاكم عن هذا الفعل القبيح؟! فقالوا له: لقد علمت - يا لوط - أنه ليس لنا حاجة في بناتك ولا نساء قومك، ولا شهوة، وإنك لتعلم ما نريده، فلا نريد إلا الرجال. قال لوط: ليت لي قوة أدفعكم بها، أو عشيرة تمنعني^(١)، فأحول بينكم وبين ضيوفي.

وقالت الملائكة للوط ﷺ: يا لوط، إنا رسلُ أرسلنا الله، لن يصل إليك قومك بسوء، فاخرج بأهلك من هذه القرية في ساعة مظلمة من السحر آخر الليل، وكن خلفهم ولا ينظر أحدكم إلى ما وراءه، وامضوا حيث تؤمرون. فسلمه الله وأهله (وهم ابتاه) بالخروج ليلاً من القرية التي سيقع عليها العذاب، إلا امرأته كانت من الغابرين الباقيين مع قومها^(٢)، وكانت تدلُّ على الضيف، وهي التي دلتهم على ضيف

(١) وذلك لأن لوطاً كان مهاجراً من أهل بابل ولم يكن منهم. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَرَحِمَةُ اللَّهِ عَلَى لُوطٍ إِنْ كَانَ لَيَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، إِذْ قَالَ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكَوْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فَمَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيًّا إِلَّا فِي تَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ». وَالتَّرَوَةُ: الْكَثْرَةُ وَالْمَنْعَةُ.

(٢) وقيل إنها خرجت مع لوط ولما سمعت صوت العذاب التفت فأصابها حجر فقتلها.

لوط. فأصابها ما أصاب قومها من العذاب، وكان موعد إهلاكهم الصبح.

وجاء أمر الله بإهلاك قوم لوط فأخذهم صوت شديد مهلك عند دخولهم في وقت شروق الشمس، ورفعت قراهم ثم قلبت فصار عالي قراهم سافلها، وأمطر الله عليهم مطراً عظيماً بحجارة من طين متصلب معلمة عند الله بعلامة خاصة مصفوف بعضها فوق بعض بتتابع، ونجى الله لوطاً ومن آمن معه برحمته، وبقي خسف مكان قوم لوط في قرى سدوم (منطقة البحر الميت) آية للعظة على طريق المسافرين، حيث إن قرى سدوم على طريق سفر متصل بمدين - وهي قرية أصحاب الأيكة - ذات الشجر الملتف، كما قال ﷺ: ﴿وَأَنَّهُمَا لَبِئَامِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: على طريق واضحة.



إرسال شعيب عليه السلام إلى مدين

وبعث الله إلى مدين^(١) نبيه شعيباً عليه السلام، وكانوا قريبي عهد بلوط وقومه زماناً ومكاناً، فمدين وسدوم كلاهما على طريق واحدة ظاهرة للمسافرين. فذكرهم شعيب بنعم الله عليهم وكيف أن الله منّ عليهم بأن كان عددهم قليلاً فكثّرهم، ودعاهم إلى توحيد الله وأن يتمّوا المكيال والميزان بالعدل، ولا ينقصوا الناس من حقوقهم شيئاً بالتطفيف والغش والخداع أو بغيب سلعهم، والتزهيد فيها، أو المخادعة لأصحابها وألا يفسدوا في الأرض بالمعاصي وألا يقعدوا بكل طريق يهددون من سلكه من الناس ليسلبوا أموالهم، ويصدوا عن دين الله من أراد الاهتداء به. وأن ما يبقيه الله لهم من الحلال بعد إيفاء حقوق الناس بالعدل؛ أكثر نفعاً وبركة من الزيادة الحاصلة بالتطفيف والإفساد في الأرض، وقال لهم: ما أريد أن أنهاكم عن شيء وأخالفكم في فعله، لا أريد إلا إصلاحكم بدعوتكم إلى توحيد ربكم وطاعته قدر استطاعتي، وما توفيقني إلى الحصول على ذلك إلا بالله سبحانه.

فرفضوا ترك عبادة الأصنام التي عبدها آبائهم وأصروا على التصرف بأموالهم كيف يشاؤون بالباطل. وهددوا بقتله لولا عشيرته. وهددوا بإخراجه ومن آمن معه من قريتهم. وزعموا أن الذين اتبعوا شعيباً سيخسرون. فحذرهم أن ينالهم بكفرهم وتكذيبهم من العذاب مثل ما نال قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح، وأن إهلاك

(١) وتقع مدين في المنطقة التي تسمى اليوم: البدع، وهي قريبة من تبوك، شمال غرب الجزيرة العربية. وأهلها هم: أصحاب الأيكة.

قوم لوط ليس منهم ببعيد، لا زمانًا ولا مكانًا، وأنهم يعلمون ما أصابهم. فاستكبروا وأصروا وطلبوا منه مستهزئين أن يسقط العذاب عليهم قطعًا من السماء إن كان صادقًا، فأخذهم عذاب يوم الظلة - وهي السحابة العظيمة - حيث أظلتهم بعد يوم شديد الحر، فرجفت بهم الأرض وتزلزلت زلزلة شديدة وأمطرت السحابة عليهم نارًا فأحرقتهم. ونجى الله شعيبًا ومن آمن معه برحمته.



إسحاق عليه السلام

وقد ذكرنا أنه لما بلغ إبراهيم عليه السلام الكبر - هو وزوجته سارة - بشره الله أنه سيولد له إسحاق^(١) من زوجته سارة، وسيكون نبياً، ويولد من ذرية إسحاق نبي أيضاً وهو يعقوب عليه السلام.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ إِسْحَاقَ بِالشَّأْنِ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَوُلِدَ لَهُ يَعْقُوبُ وَهُوَ إِسْرَآئِيلُ الَّذِي يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ سَائِرُ أَصْبَاطِهِمْ فَكَانَتْ فِيهِمُ النَّبُوَّةُ، وَكَثُرُوا جَدًّا بِحَيْثُ لَا يَعْلَمُ عَدَدُهُمْ إِلَّا الَّذِي بَعَثَهُمْ، وَاخْتَصَّهُمْ بِالرَّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ حَتَّى خَتَمُوا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ.



(١) قال ابن كثير: وقد وُلِدَ إِسْحَاقُ - وَلَآئِيهِ مِائَةُ سَنَةٍ - بَعْدَ أَخِيهِ إِسْمَاعِيلَ بِأَرْبَعِ عَشْرَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ عُمُرُ أُمِّهِ سَارَةَ حِينَ بُشِّرَتْ بِهِ تِسْعِينَ سَنَةً، وَذَكَرَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّ إِسْحَاقَ تَزَوَّجَ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ وَوُلِدَتْ زَوْجَتُهُ غَلَامِينَ تَوَآمَيْنَ: أُولَهُمَا سَمُوهُ عِيسَى، وَهُوَ الَّذِي تَسْمِيهِ الْعَرَبُ الْعِيسَى، وَهُوَ وَالِدُ الرُّومِ. وَالثَّانِي خَرَجَ وَهُوَ أَخَذَ بِعَقْبِ أَخِيهِ؛ فَسَمُوهُ يَعْقُوبُ، وَهُوَ إِسْرَآئِيلُ الَّذِي يَنْسَبُ إِلَيْهِ بَنُو إِسْرَآئِيلَ.

قصة ذي القرنين

وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ ^(١) مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ الْعَادِلِينَ وَكَانَ مُوَحِّدًا مُؤْمِنًا بِاللَّهِ، وَآتَاهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى نَيْلِ مَقْصُودِهِ فِي الْمَمْلَكَةِ وَغَيْرِهَا: فَإِنَّهُ كَانَ يَأْخُذُ مِنْ كُلِّ إِقْلِيمٍ مِنَ الْأُمْتَعَةِ وَالْمَطَاعِمِ وَالزَّادِ مَا يَكْفِيهِ وَيُعِينُهُ عَلَى أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الْآخَرِ. وَقَدْ مُكِّنَ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَقْهَرُ الْجَبَابِرَةِ وَأَذْلَهُمْ وَكَانَ يَغْزُو عِبَادَ الْأَصْنَامِ، وَسَارَ بِالْعَدْلِ فِيمَا آتَاهُ اللَّهُ، وَقَدْ وَصَلَ إِلَى آخِرِ الْعِمَارَةِ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ فَرَأَى الشَّمْسَ عِنْدَ الْغُرُوبِ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ تَغْرُبُ فِي الْبَحْرِ الْمَحِيطِ كَأَنَّمَا تَغْرُبُ فِي عَيْنِ حِمَّةٍ أَيْ: سُودَاءِ، كَمَا أَنَا نَشَاهِدُهَا فِي الْأَرْضِ الْمَلْسَاءِ كَأَنَّمَا تَدْخُلُ فِي الْأَرْضِ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْتَادُ لِمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَفْقِ الشَّمْسِ الْغَرْبِيِّ مَاءٌ، رَأَاهَا تَغْرُبُ فِي نَفْسِ الْمَاءِ وَإِنْ كَانَتْ فِي غَايَةِ الِارْتِفَاعِ. ثُمَّ وَصَلَ ذُو الْقَرْنَيْنِ إِلَى آخِرِ الْعِمَارَةِ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ، وَوَجَدَ الشَّمْسَ تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩﴾، لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ تَطْلُعَ عَلَيْهِمْ، وَلَيْسَ أَنَّهَا تَمَسُّهُمْ وَتَلَاصِقُهُمْ. ثُمَّ ذَهَبَ مَتَوَجِّهًا مِنَ الْمَشْرِقِ، قَاصِدًا لِلشَّمَالِ، فَوَصَلَ إِلَى مَا بَيْنَ السَّدِينِ، وَهُمَا سِلَاسِلُ جِبَالٍ مَعْرُوفِينَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِ

(١) يذكر أنه عاش في عهد إبراهيم عليه السلام أو قريباً منه، وقيل: أنه أسلم على يدي إبراهيم عليه السلام، وأنه حج البيت ماشياً، وأنه كان من العرب. ولا يعلم هل كان نبياً أم لا؟ لقول النبي ﷺ: «وما أدري ذا القرنين نبياً كان أم لا».

قَالَ مُجَاهِدٌ: «مَلِكُ الْأَرْضِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَافِرِينَ؛ فَالْمُؤْمِنَانِ: سُلَيْمَانُ وَذُو الْقَرْنَيْنِ. وَالْكَافِرَانِ: بَخْتَنَصْرُ وَنَمْرُودَ. وَسَيَمْلِكُهَا خَامِسٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ». وقيل: إن هذا الملك اسمه: كورش، وفي بعض المخطوطات يرسمون على رأسه قرنان متقابلان لتمييزه بعظمة المملكة، وعظمة الفتوحات شرقاً وغرباً.

السدين قومًا لا يكادون يفقهون قولاً لعجمة ألسنتهم، واستعجاب أذهانهم وقلوبهم، وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية ما فقه به ألسنة أولئك القوم وفقههم، وراجعهم، وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج - وهما أمتان عظيمتان من بني آدم - فقالوا: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي أجرة ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾، وذلك لعدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، وظنهم باقتدار ذي القرنين عليه، فبذلوا له أجرة، ليفعل ذلك، فلم يكن ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في الدنيا، وكان قصده الإصلاح، فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرة، وشكر ربه على تمكينه واقتداره، فقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: مما تبدلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي: مانعًا من عبورهم عليكم. ﴿إِنِّي زُبُرُ الْحَدِيدِ﴾ أي: قطع الحديد، فأعطوه ذلك فوضعها. ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي: الجبلين اللذين بني بينهما السد ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ النار أي: أوقدوها إيقادًا عظيمًا، واستعملوا لها المنافخ لتشتد، فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس، ﴿قَالَ إِنِّي أَفْرِغُ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي: نحاسًا مذابًا، فأفرغه على الردم الذي بناه من قطع الحديد، فاستحكم السد استحكامًا هائلًا وامتنع به من وراءه من الناس، من ضرر يأجوج ومأجوج. ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أي: فما لهم استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه لارتفاعه، ولا على نقبه لإحكامه وقوته. فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى مولياها وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي﴾ أي: من فضله وإحسانه عليّ وعلى خلقه، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم واعترافهم بنعمة الله. ثم قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بقيام الساعة أو بأن شارف قيامها ﴿جَعَلَهُ﴾ أي: ذلك السد المحكم المتقن ﴿دَكَّا﴾ أي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

فضائل خليل الله إبراهيم ووفاته

وَقَدْ آتَى اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ فِي صِغَرِهِ، وَابْتَعَثَهُ رَسُولًا، وَاتَّخَذَهُ خَلِيلًا فِي كِبَرِهِ. ولم يشاركه في الخلّة إلا محمد ﷺ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ يَعْلَمُ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى عِلْمًا يَقِينًا لَا يَحْتَمِلُ النَّقِیْضَ، وَأَحَبَّ أَنْ يُشَاهِدَ ذَلِكَ عَيْنًا، وَيَتَرَقَّى مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ فَسَأَلَ اللَّهُ ذَلِكَ. فَأَجَابَهُ اللَّهُ إِلَى سُؤَالِهِ، وَأَعْطَاهُ غَايَةَ مَأْمُولِهِ. فَأَمَرَهُ أَنْ يَحْضُرَ أَرْبَعَةَ مِنَ الطَّيْرِ وَأَنْ يُمَزَّقَ لُحُومُهُنَّ وَرِيشُهُنَّ، وَيَخْلَطَ ذَلِكَ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ، ثُمَّ يُقَسِّمُهُ قِسْمًا، وَيَجْعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا فَفَعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يَدْعُوهُنَّ بِإِذْنِ رَبِّهِنَّ، فَلَمَّا دَعَاهُنَّ جَعَلَ كُلُّ غُصْنٍ يَطِيرُ إِلَى صَاحِبِهِ، وَكُلُّ رِيشَةٍ تَأْتِي إِلَى أُخْتِهَا حَتَّى اجْتَمَعَ بَدَنُ كُلِّ طَائِرٍ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى قُدْرَةِ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ؛ فَيَكُونُ. فَاتَيْنَ إِلَيْهِ سَعِيًّا لِيَكُونَ أَبْنَى لَهُ وَأَوْضَحَ لِمُشَاهَدَتِهِ مِنْ أَنْ يَأْتِينَ طَيْرَانًا.

وأجرى الله على يديه بناء الكعبة وهي بيت الله الحرام الذي جعله قيامًا للناس ومثابة وأمنًا وعهد الله إليه ولابنه تبعًا له تطهير البيت للطائفين، والعاكفين، والركع، والسجود. وأمر الله سبحانه المؤمنين بأن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلًى في المسجد الحرام والعبادة في مواقف الحج كلها، وهو ﷺ أول من يكسى يوم القيامة، ولم يأت نبي بعد إبراهيم إلا من ذريته. وأولاد المسلمين^(١) في جبلٍ في الجنة، يكفلهم إبراهيم ﷺ وسارّة، حتّى يردّونهم إلى آبائهم يوم القيامة.

(١) الأطفال الذين يموتون وهم صغار. وكذلك أولاد المشركين الصغار. والأفراط: من مات من الولد قبل البلوغ، وأصله من (فرط)؛ أي: سبق وتقدّم.

وإبراهيم عليه السلام يعترف بفضل جميع الطوائف والملل؛ فالمشركون العرب كانوا معترفين بفضلِهِ، مُقرِّين بأنَّهم من أولاده، واليهود والنصارى والمسلمون كلُّهم مُعظِّمون له، مُعترفون بجلالة قدره. فكلُّ كتاب أنزل من السماء على نبيٍّ من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته^(١).

فنزّه الله ﷻ خليله ﷺ عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً، ويبيّن أنّه إنّما كان حنيفاً مُسليماً ولم يكن من المُشركين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾. يعني الذين كانوا على ملّته من أتباعه في زمانه ومن تمسك بدينه من بعدهم ﴿وهذا النّبيُّ﴾ يعني مُحمّداً ﷺ فإنَّ الله شرع له الدين الحنيف الذي شرعه للخليل وكمله الله تعالى له، وأخبر أن إبراهيم ﴿كان أمة﴾ أي قدوة إماماً مُهتدياً داعياً إلى الخير يُقتدى به فيه^(٢). وقال تعالى: ﴿وإبراهيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ﴿٢٧﴾ أي: وفّى جميع ما أمر به^(٣)،

(١) قال ابن كثير: ففي السفر الأول من التّوراة التي بأيديهم في قصّة إبراهيم الخليل، ﷺ، ما مضمونه وتعبيره: أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم، ﷺ، بعد ما سلّمه من نار النمرود أن قم فاسلك الأرض مشارقها ومغاربها لولدك.. أمّا ولدك إسحاق فإنه يرزق ذريّة عظيمة، وأمّا ولدك إسماعيل فإنّي باركته وعظّمته، وكثرت ذريّته، وجعلت من ذريّته ما ماذ - يعني مُحمّداً ﷺ -.

(٢) عن سلمان، قال: «لما أري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض رأى عبداً على فاحشة فدعا عليه فهلك، ثم رأى آخر فدعا عليه فهلك، فقال الله: أنزلوا عبدي، لا يهلك عبدي».

(٣) عن ابن عباس عليه السلام، في قوله ﷺ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال: «ابتلاه الله بالطهارة، خمس في الرأس وخمس في الجسد؛ في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، وتنف الإبط، وغسل مكان الغائط والبول بالماء».

وقال: «ما ابتلي أحد بهذا الدين فقام به كلّ غير إبراهيم عليه السلام، ابتلي بكلمات فآتمهن، فكتب الله له البراءة، فقال: ﴿وإبراهيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ﴿٢٧﴾».

وَقَامَ بِجَمِيعِ خِصَالِ الْإِيمَانِ وَشُعْبِهِ. وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَيَّفَ الضَّيْفَ، وَهُوَ أَوَّلَ مَنْ اخْتَنَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَاخْتَنَ بِالْقُدُومِ.

وَبَنَى أَشْرَفَ الْمَسَاجِدِ فِي أَشْرَفِ الْبِقَاعِ فِي وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ، وَدَعَا لِأَهْلِهَا بِالْبَرَكَةِ، وَأَنْ يُرْزَقُوا مِنَ الثَّمَرَاتِ مَعَ قَلَّةِ الْمِيَاهِ، وَعَدَمِ الْأَشْجَارِ وَالزُّرُوعِ وَالثَّمَارِ^(١)، وَأَنْ يَجْعَلَهُ حَرَمًا مُحَرَّمًا وَأَمْنًا مُحْتَمًا، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ - وَلَهُ الْحَمْدُ - لَهُ مَسْأَلَتَهُ، وَلَبَّى دَعْوَتَهُ وَأَتَاهُ طَلِبَتَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ؟﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْبَبُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا؟﴾. وَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَيْ مِنْ جِنْسِهِمْ وَعَلَى لُغَتِهِمْ الْفَصِيحَةِ الْبَلِيغَةِ النَّصِيحَةِ لِيَتِمَّ عَلَيْهِمُ النُّعْمَتَانِ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالْدِّينِيَّةُ، بِسَعَادَةِ الْأُولَى وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا، وَأَيُّ رَسُولٍ، خَتَمَ بِهِ أَنْبِيَاءُهُ وَرُسُلُهُ، وَأَكْمَلَ لَهُ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا قَبْلَهُ، وَعَمَّ بِدَعْوَتِهِ أَهْلَ الْأَرْضِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ وَالْأَعْصَارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا اسْتَحَقَّ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ ﷺ إِذْ كَانَ بَانِي كَعْبَةِ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبُهُ وَمَحَلُّهُ وَمَوْضِعُهُ فِي مَنَازِلِ السَّمَاوَاتِ، وَرَفِيعِ الدَّرَجَاتِ عِنْدَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ الَّذِي هُوَ كَعْبَةُ أَهْلِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ^(٢).

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَانَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ اخْتَجَرَهَا دُونَ النَّاسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ وَمَنْ كَفَرَ؟ أَيْضًا فَأَنَا أَرْزُقُهُمْ كَمَا أَرْزُقُ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْلَقَ خَلْقًا لَا أَرْزُقُهُمْ؟! ﴿فَأَمْتَعَهُ، فَلَيْلًا ثَمَّ اضْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾. ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿كَلَّا نَمِدُّ هَهُؤُلَاءِ وَهَهُؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

(٢) جَاءَ فِي حَدِيثِ الرُّوْيَا: إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَةٍ، فِيهَا مِنْ كُلِّ لَوْنِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرِي الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ، لَا أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طَوَّلًا فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وَلَدَانِ

وَلَمَّا كَانَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ أَفْضَلَ الرُّسُلِ وَأُولَى الْعِزِّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ؛ أَمَرَ الْمُصَلِّي أَنْ يَقُولَ فِي تَشَهُدِهِ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

وَقَبْرُهُ وَقَبْرُ وَلَدِهِ إِسْحَاقَ وَقَبْرُ وَلَدِ وَلَدِهِ يَعْقُوبَ فِي الْمَرْبَعَةِ الَّتِي بَنَاهَا سُلَيْمَانُ ابْنُ دَاوُدَ ﷺ بِلَدِ حَبْرُونَ، وَهُوَ الْبَلَدُ الْمَعْرُوفُ بِالْخَلِيلِ الْيَوْمَ. وَهَذَا مُتَلَقًى بِالتَّوَاتُرِ أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ مِنْ زَمَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِلَى زَمَانِنَا هَذَا أَنَّ قَبْرَهُ بِالْمَرْبَعَةِ تَحْقِيقًا. فَأَمَّا تَعْيِينُهُ مِنْهَا فَلَيْسَ فِيهِ خَبَرٌ صَحِيحٌ عَنْ مَعْصُومٍ، فَيَنْبَغِي أَنْ تُرَاعَى تِلْكَ الْمَحَلَّةُ، وَأَنْ تُحْتَرَمَ احْتِرَامَ مِثْلِهَا.



رَأَيْتُهُمْ قَطُّ «قَالَ: «قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا مَا هُوَ لَاءٌ؟ «قَالَ: «قَالَ لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ»... قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مِنْهُ اللَّيْلَةَ عَجَبًا، فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟ «قَالَ: «قَالَ لِي: أَمَّا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ... وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ، فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ وَأَمَّا الْوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ» ثم ذكر أن منهم كذلك: «أَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ».

يعقوب (إسرائيل) ﷺ

واصطفى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بالنبوة، ومما جاء في سيرة يعقوب ﷺ أنه رحل من بيت المقدس إلى خاله لابان بأرض حران؛ وزوجه ابنته: ليا وراحيل. وكان ذلك سائغاً في ملتهم، ثم نسخ في شريعة التوراة وولدت له ليا أولاداً وولدت له راحيل يوسف وبنامين. ورجع إلى فلسطين عند أبيه إسحاق ﷺ. ثم توفي إسحاق واستقر يعقوب هو وأبناؤه الأسباط الاثنا عشر في فلسطين، ومن ذرية الأسباط يتكون نسب بني إسرائيل^(١).



(١) أبناء يعقوب (إسرائيل) ﷺ هم: يوسُف ورؤييل وهو أكبرهم وشمعون ولاوي ويهوذا وداني ونفتالي وكاد وأشير وأيساجر ورايلون وبنامين. وهم الأسباط، وقد اختلف فيهم قليل كانوا أنبياء ويُقال لم يكن فيهم نبي إلا يوسف. وقد يطلق لفظ الأسباط على أنبياء قبائل بني إسرائيل فقد كان فيهم من الأنبياء عدد كثير.

أيوب عليه السلام

وَإِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ وَمَرَضُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ، كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ، كَانَا يَعْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيُرْوَحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ ذَاتَ يَوْمٍ: تَعْلَمُ وَاللَّهِ، لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟، قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ فَيَكْشِفَ مَا بِهِ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَى أَيُّوبَ، لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: مَا أَذْرِي مَا تَقُولَانِ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمْرًا بِالرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ، فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ، فَأَرْجِعْ إِلَى بَيْتِي فَأَكْفُرْ عَنْهُمَا، كَرَاهِيَةً أَنْ يُذْكَرَ اللَّهُ إِلَّا فِي حَقٍّ. وكان أيوب صابراً راضياً محتسباً سليم الصدر، ويذكر أنه لما رأى ما أصاب أخص الناس به وهم امرأته فيما يروى من قص صغيرتيها وبيعتهما للفقير والحاجة، وصاحباه الذان دب إليهما الشك في أمره؛ دعا أيوب ربه أن يكشف ما به من ضر ومن أذى الشيطان، وكان أيوب يخرج لحاجته، فإذا قضى حاجته، أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب أن: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾^(١) فاستبطلت، فبلغته تنظُر، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء واستجاب الله له، فهو أحسن ما كان، فلما رآته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ والله على ذلك، ما رأيت أحداً كان أشبه به منك إذ كان صحيحاً، قال:

(١) يعني: اضرب برجلك الأرض. فضرب برجله الأرض، فنبع له منها ماء يشرب منه ويغتسل، فذهب ما به من الضر والأذى.

فَإِنِّي أَنَا هُوَ، وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ: أَنْدَرُ الْقَمْحِ، وَأَنْدَرُ الشَّعِيرِ^(١)، فَبَعَثَ اللَّهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ، أَفْرَعَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ، وَأَفْرَعَتْ الْأُخْرَى عَلَى أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرَقَ^(٢) حَتَّى فَاضَ، وَبَيْنَمَا أَيُّوبُ ۞ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، خَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ ۞: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنِيكَ عَمَّا تَرَى؟ أَلَمْ يَكْفِكَ مَا أَعْطَيْنَاكَ؟، قَالَ: بَلَى يَارَبِّ، وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَاتِكَ، عَنْ فَضْلِكَ.

وكان أقسم ليضربن زوجته مائة جلدة إذا شفاه الله، لما غضب عليها من أمر أثناء مرضه - قيل أنه بسبب قصها ضفيريها وبيعهما لفقرها وحاجتها - وكانت امرأة صالحة؛ فأوحى الله إليه أن يأخذ بيده حزمة شماريخ^(٣)، ويضرب بها زوجته ضربة واحدة إبراراً بيمينه، فلا يحنث. فخفف الله عنهما، وجمعه بأهله جميعاً، قيل: أنه أحيا له من مات منهم، وقيل: أبدله عنهم بآخرين، وزاده عليهم مثلهم من البنين والحفدة رحمة به، وجزاء له على صبره.



(١) هو المكان الذي يوضع فيه القمح والشعير.

(٢) وهو: الفضة.

(٣) يعني: شماريخ النخل، وهي حزمة من العيدان التي كان عليها البسر. والتي تكون فيها العذوق.

يوسف بن يعقوب ﷺ

وكان يوسف وشقيقه الأصغر بنيامين هما أصغر أبناء يعقوب، وأُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرَ الْحُسَيْنِ^(١). ولما كان يوسف في سن الطفولة أخبر والده يعقوب ﷺ أنه رأى في المنام أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر يسجدون له، ففهم يعقوب تفضيل يوسف على إخوته بالنبوة والعلم، لكنه خشي على يوسف من حسد إخوته وكيدهم له ومن مكر الشيطان، فأمره ألا يقص هذه الرؤيا على إخوته.

وتشاكى إخوة يوسف من أبيه فيما بينهم من محبة أبيهم ليوسف وأخاه الشقيق الأصغر بنيامين، وذكر بعضهم أن أباهم يعقوب يُفَضِّلُهُما عليهم مع أنهم جماعة أكثر عددًا وأكبر سنًا وأنفع في خدمة أبيهم من يوسف وأخيه. فقال بعضهم: اقتلوا يوسف،

(١) أي نصف كمال الجمال البشري، وقيل: نصف جمال آدم ﷺ. وأن المقصود ب(أمه): سارة زوجة إبراهيم ﷺ، وهي أم جده إسحاق ﷺ.

قال ابن قتيبة: وَالَّذِي عِنْدِي فِي ذَلِكَ، أَنَّ اللَّهَ ﷻ، جَعَلَ لِلْحُسَيْنِ غَايَةً وَحَدًّا، وَجَعَلَهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، إِمَّا لِلْمَلَائِكَةِ، أَوْ لِلْحُورِ الْعِينِ؛ فَجَعَلَ لِيُوسُفَ ﷺ نِصْفَ ذَلِكَ الْحُسَيْنِ، وَنِصْفَ ذَلِكَ الْكَمَالِ.

وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَعَلَ لِعَبْرَةِ ثُلُثِهِ، وَلَا خَرَّ رُبْعُهُ، وَلَا خَرَّ عَشْرُهُ، وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَجْعَلَ لِآخِرِ مِنْهُ شَيْئًا.

وَكَذَلِكَ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهُ أُعْطِيَ نِصْفَ الشَّجَاعَةِ، لَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ أُعْطِيَ نِصْفَهَا، وَجُعَلَ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمُ النِّصْفَ الْآخَرَ. وَلَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى؛ لَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ الَّذِي أُعْطِيَ نِصْفَ الشَّجَاعَةِ، يُقَاوِمُ الْعِبَادَ جَمِيعًا وَحْدَهُ.

وَلَكِنْ مَعْنَاهُ: أَنَّ لِلشَّجَاعَةِ حَدًّا يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَيَجْعَلُهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، وَيُعْطِي غَيْرَهُ النِّصْفَ مِنْ ذَلِكَ، وَيُعْطِي لِآخِرِ الثُّلُثِ، أَوْ الرَّبْعِ، أَوْ الْعَشْرِ، وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ.

أو ألقوه في أرض مجهولة، بعيدة عن العمران، حتى يخلص لكم حب أبيكم، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم، ثم تتوبوا من ذنبكم بعد قتل يوسف أو إبعاده^(١).

لكن أحدهم نصحهم ألا يقتلوا يوسف، وأن يكتفوا بإلقائه في جوف البئر حتى يلتقطه بعض المارة من المسافرين فيبعد عنهم ويستريحوا منه.

وبعد اتفاقهم على إبعاده طلب إخوة يوسف من أبيهم أن يأذن في خروج يوسف معهم، وقالوا لأبيهم: يا أبانا ما لك لا تأمننا على يوسف مع أنه أخونا، ونحن نريد له الخير، ونشفق عليه ونرعاه، ونخصه بخالص النصيح؟ أرسله معنا غداً يأكل وينشط ويفرح، ويلعب بالاستباق ونحوه، وإننا لحافظون له من كل ما تخاف عليه.

فقال أبوهم يعقوب: إني لئولم نفسي ذهابكم به، ومفارقته لي، وأخشى أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون، فقال إخوة يوسف لوالدهم: لن أكله الذئب ونحن جماعة قوية، إننا إذا لخاسرون، لا خير فينا، ولا نفع ير جى منا.

فلما أقنعوا أباهم وطمانوه؛ ذهب إخوة يوسف به وأجمعوا على إلقائه في جوف البئر، وفعلوا به ما فعلوا من الأذى، وأخذوا منه قميصه، وذبحوا سخلة (شاة وليدة) فأخذوا دمها فلطخوا به القميص، وأوحى الله إلى يوسف أنه سيخبر إخوته مستقبلاً بفعلهم هذا الذي فعلوه به، وهم لا يعلمون أنه أخوهم يوسف.

ثم رجع إخوة يوسف إلى أبيهم في وقت العشاء يتباكون، وأتوا في وقت الظلمة حتى لا يرى أعينهم ويدرك تحايلهم، وهم يظهرُونَ الأسف والجزع، وقالوا: يا أبانا إننا ذهبنا نتسابق، وتركنا يوسف عند زنادنا وثيابنا فأكله الذئب، ونعلم أنك لن تصدقنا. ثم جاؤوا بقميصه ملطخاً بدماء ليست بدم يوسف؛ لكي يبرهنوا صدقهم، وقيل أنهم: نسوا أن يمزقوا القميص، فكان دليلاً على كذبهم، فكيف يأكل الذئب طفلاً دون تمزيق قميصه؟!

(١) فبيتوا نية التوبة قبل فعل الذنب.

فقال لهم أبوهم يعقوب عليه السلام: ليس الأمر كما تقولون، بل زينت لكم أنفسكم الأثارة بالسوء أمراً قبيحاً في يوسف، فرأيتموه حسناً وفعلتموه، فصبري صبراً جميلاً لا شكوى معه لأحد من الخلق، وأستعين بالله على احتمال ما تصفون من الكذب، لا على حولي وقوتي.

ثم جاءت جماعة من المسافرين فأرسلوا من يطلب لهم الماء، فلما أنزل دلوه في البئر ليحضر الماء؛ تعلق بها يوسف، فقال ذلك الوارد: يا بشرأي هذا غلامٌ. وأخفى أولئك المسافرين أمر يوسف، وجعلوه بضاعةً وعزموا على بيعه، وأخذوه معهم من فلسطين وباعوه في مصر بثمنٍ قليلٍ من الدراهم^(١)، وكانوا زاهدين فيه، راغبين في التخلص منه، واشتراه منهم عزيزها - وهو الوزير - وقال لامرأته: أحسني معاملته، واجعلي مقامه عندنا كريماً؛ لعلنا نستفيد من خدمته أو ننباه.

وبذلك أنجى الله يوسف من الجُبِّ (البئر)، وجعل وزير «مصر» يعطف عليه، وعلمه الله تفسير الرؤى، وسُنن الأنبياء. ولما بلغ يوسف مُنتهى قوته في شبابه أعطاه الله النبوة والعلم، جزاءً على إحسانه وصبره.

ولما كان يوسف بالغ الحسن والجمال تعلق امرأة الوزير بحبه وخططت لإيقاعه في معاشرتها، فتهيات وتزينت ودعته إلى نفسها، وغلقت الأبواب عليها وعلى يوسف، وقالت: هلم إليّ، فقال: معاذ الله! أعتصم به وأستجير من الذي تدعينني إليه من خيانة سيدي الذي أحسن منزلي وأكرمني، فلا أخونه في أهله؛ إنه لا يفلح من ظلم ففعل ما ليس له فعله.

ولما استنفدت خططها وحيلها ولم تحصل على ما تريد منه؛ غضبت من امتناعه وتحفظه، وهمت أن تضربه على تمنعه وعصيانه وأمرها وهي امرأة سيده، وهم

(١) قيل: لَمَّا اسْتَشْعَرَ إِخْوَةُ يُوسُفَ بِأَخْذِ السَّيَّارَةِ لَهُ لِحَقْوِهِمْ، وَقَالُوا: «هَذَا غُلَامُنَا أَبَقَ مِنَّا». فَاشْتَرَوْهُ مِنْهُمْ بِثَمَنٍ بَخْسٍ؛ أَي: قَلِيلٍ نَزْرٍ.

يوسف أن يدفعها أو يضربها لغضبه من شناعة ما بدر منها وإصرارها على السوء وإيقاعه فيه، مع أنه وعظها ونبهها إلى شناعة ما تدعوه إليه، لكنه - بما علمه الله من حسن التدبير - أدرك أن بذل قوته في دفعها عن نفسه قد يُتَّخَذُ عليه حُجَّةً أنه أراد بقوته إجبار المرأة الأضعف على مراد سيء، ورأى أن ترك ضربها وترك دفعها عن نفسه والإعراض عنها والسعي في الخروج من المكان - حتى تكون هي التي تعتدي عليه -؛ فإنه يكون برهاناً - من توفيق ربه - يشهد بنزاهته، فرأى بعد الوعظ أن يكتفي بالإعراض عنها والانصراف عنها أسرع ما يمكن؛ فإن خرج من المكان؛ كان أسلم له، وإن اعتدت عليه كان برهاناً على براءته، وهذا من فضل الله وتعليمه لنيبه، فهو سبحانه يصرف عن نبيه السوء والفاحشة في جميع أموره؛ فيوسف من الأنبياء المُطَهَّرِينَ الْمُصْطَفَيْنَ لِلرَّسَالَةِ، الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللَّهُ مِنَ الشَّرِّ وَالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ.

وأسرع يوسف إلى الباب يريد الخروج، وأسرعت غاضبة تحاول الإمساك به، وجذبت قميصه من خلفه؛ لتحول بينه وبين الخروج فشقت، ووجدت زوجها عند الباب، فبادرت المرأة بمحاولة إبراء نفسها واتهمت يوسف، وقالت لزوجها: ما جزاء من أراد بامرأتك سوءاً إلا أن يسجن أو يُعَذَّبَ العذاب الموضع. وقال يوسف - مدافعاً عن نفسه -: هي التي طلبت وحاولت، وأنا امتنعت منها.

فأرسل الوزير إلى محقق أمين من أهل امرأته ليحقق في هذا الأمر، فحقق في الأمر ولم يجد أثراً للاعتداء على المرأة، مع أن قميص يوسف مشقوق، وبعد التحقيق والنظر قال المحقق في حكمه للوزير: إن كان قميص يوسف شق من الأمام فصَدَقَتْ في اتِّهامِها له؛ حيث يكون أرادها وهي امتنعت وشقت قميصه من الأمام عند الدفاع عن نفسها، وإن كان قميص يوسف شق من الخلف؛ فكذبت في قولها، فتكون هي التي أرادته وهو معرض عنها، وهو من الصادقين. فلما رأى الوزير قميص يوسف شق من خلفه علم براءة يوسف، وقال لزوجته: إنَّ هذا الكذب الذي اتَّهَمْتِ به هذا الشاب هو

من جملة مكرِكُنَّ - أَيُّهَا النِّسَاءُ - إِنَّ مَكْرُكُنَّ عَظِيمٌ، وقال ليوسف: يوسفُ، اتركْ ذِكْرَ ما كان منها، فلا تذكُرْه لأحدٍ، وقال لامرأته: اطلبي - أَيُّهَا المرأةُ - المغفرةَ لذنبِك؛ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْآثِمِينَ فِي مُرَاوَدَةِ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ، وفي افتراءكِ عليه.

ومع هذا التكتّم فقد تسرّب وشاع خبرُ امرأةِ العزيز، وتحدث به نِسوةٌ في المدينةِ واغتنبن امرأةُ العزيز وقلن مُنْكَرَاتٍ عليها: امرأةُ العزيز تُراوِدُ غُلامَهَا عن نَفْسِهِ، وتدعوه إلى نَفْسِهَا، وقد بلغ حُبُّها له مبلغًا عظيمًا، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي هَذَا الْفِعْلِ فِي ضَلَالٍ وَاضِحٍ. وقد مكر النسوة بهذا القول لرغبتهن أن يصل هذا الكلام إلى امرأةِ العزيز فتريهن يوسف وجماله. فلمَّا سَمِعَتْ امرأةُ العزيزِ بَغِيْبَتَهُنَّ إِيَّاهَا، واحتيالهنَّ في ذَمِّهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ تَدْعُوهُنَّ لزيارتها، وهَيَّأتَ لَهُنَّ مَا يَتَكُنَّنَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَسَائِدِ، وما يَأْكُلُهُ مِنَ الطَّعَامِ، وَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا؛ لِيَقْطَعْنَ الطَّعَامَ، ثُمَّ قَالَتْ لِيَوْسُفَ: اخْرُجْ عَلَيْنَّ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَعْظَمْنَهُ وَأَجْلَلْنَهُ، وَأَخَذَهُنَّ حُسْنُهُ وَجَمَالُهُ، فَجَرَحْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَهُنَّ يَقْطَعْنَ الطَّعَامَ؛ مِنْ فَرْطِ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَاللَّهْشَةِ وَالذُّهُولِ، وَقُلْنَ مُتَعَجِّبَاتٍ: مَعَاذَ اللَّهِ، مَا هَذَا مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّ جَمَالَه غَيْرُ مَعْهُودٍ فِي الْبَشَرِ، مَا هُوَ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

عندها أبدت امرأةُ العزيزِ عذرها في مراودة يوسف من شدة جماله، وقالت للنِّسوةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ: فهذا - الذي أَصَابَكُنَّ لِمَجْرَدِ رُؤْيِيكِ إِيَّاهُ - هو الْفَتَى الَّذِي لُمْتُنِّي فِي الْإِفْتِتَانِ بِهِ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَاِمْتَنَعَ وَأَبَى، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ بِهِ لَيُعَاقِبَنَّ بِدُخُولِ السَّجْنِ، وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الْأَذْلَاءِ. وكانت تُسْمِعُ يَوْسُفَ هَذَا الْكَلَامَ مَهْدَدَةً لَهُ أَمَامَهُنَّ، فَكَأَنَّهُنَّ أَشْرَنَ عَلَى يَوْسُفَ أَنْ يَجِيبَهَا لِمَا تَرِيدُ وَلَا يَعْرِضُ نَفْسَهُ لِلْسَّجْنِ وَالْأَذَى.

فقال يوسفُ مُسْتَعِيدًا مِنْ شَرِّهِنَّ وَمَكْرِهِنَّ: رَبِّ، السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ممَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ مِنْ عَمَلِ الْفَاحِشَةِ، وَإِنْ لَمْ تَدْفَعْ عَنِّي مَكْرَهُنَّ أَمِلُ إِلَيْهِنَّ، وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ،

فاستجاب الله ليوسفَ دعاءه، فصرف عنه ما أرادت منه امرأة العزيز وصَوَّاجِبَاتُهَا مِنْ معصية الله، فهو سبحانه سميع عليم.

ثمَّ ظهر للعزيز وأصحابه - من بعد ما رأوا الأدلة على براءة يوسف وعِفَّتِهِ - أن يسجنوا يوسف إلى مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ؛ لينقطع بذلك الخبر، ويتناساه النَّاسُ.

ودخل مع يوسف ﷺ السجنَ فتيان، قال له أحدهما: إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَعْصِرُ عِنَبًا لِيَصِيرَ خَمْرًا، وقال الآخرُ: إِنِّي رَأَيْتُ أَنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ، أَخْبَرْنَا - يَا يَوْسُفَ - بِتَفْسِيرِ مَا رَأَيْنَا، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قال لهما يوسف: لا تريانِ فِي مَنَامِكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا أَخْبَرْتُكُمَا بِتَفْسِيرِهِ فِي الْيَقَظَةِ قَبْلَ أَنْ يَتَحَقَّقَ وَقُوعُ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا، ذَلِكَ التَّعْبِيرُ الَّذِي سَأَعْبُرُهُ لَكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي؛ إِنِّي آمَنْتُ بِهِ، وَأَخْلَصْتُ لَهُ الْعِبَادَةَ، وَابْتَعَدْتُ عَنْ دِينِ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَهُمْ بِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ جَا حِدُونَ، وَاتَّبَعْتُ دِينَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، فَعَبَدْتُ اللَّهَ وَحْدَهُ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَجْعَلَ لِلَّهِ شَرِيكًا فِي عِبَادَتِهِ، ذَلِكَ التَّوْحِيدُ بِإِفْرَادِ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ، مِمَّا تَفَضَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ الَّذِينَ جَعَلْنَا دُعَاءَهُ لَهُمْ إِلَى تَوْحِيدِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ.

وأخذ يوسف يدعوهم إلى توحيد الله وبيِّنَ لهما الدين الحق، وقال لهما: يَا سَاكِنِي السَّجَنِ، أَعِبَادَةُ آلِهَةٍ مَخْلُوقَةٍ شَتَّى خَيْرٌ أَمْ عِبَادَةُ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ؟ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ لَا مَعَانِيَ وَرَاءَهَا، جَعَلْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ أَرْبَابًا، جَهْلًا مِنْكُمْ وَضَلَالًا، مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ حُجَّةٍ أَوْ بَرَهَانٍ عَلَى صِحَّتِهَا، وَمَا الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، هُوَ سَبْحَانَهُ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا أَحَدًا غَيْرَهُ، وَهَذَا هُوَ الدِّينُ الْقَيِّمُ الَّذِي لَا عَوَجَ فِيهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَجْهَلُونَ ذَلِكَ، فَلَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَتَهُ.

ثم فسر لهما رؤياهما بقوله: أَمَّا أَحَدُكُمَا فَإِنَّهُ يُخْرَجُ مِنَ السَّجَنِ، وَيَكُونُ سَاقِي الخَمْرِ لِلْمَلِكِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَإِنَّهُ يُصَلَّبُ وَيُتْرَكُ، فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ، فُرِغَ مِنْ تَأْوِيلِ

رؤيا كما وهو واقع بقضاء الله، وقال يوسفُ للذي علمَ أنَّه ناجٍ من صاحِبِيهِ: اذكرني عند سيِّدِكَ الْمَلِكِ، وأخبره بأنِّي مظلومٌ، قد سُجِنْتُ بِلا ذَنْبٍ، فَأَنْسَى الشَّيْطَانُ ذَلِكَ الرَّجُلَ أَنْ يَذْكُرَ لِلْمَلِكِ حَالَ يَوْسُفَ، فمكثَ يوسفُ بعد ذلك في السَّجْنِ عِدَّةَ سَنَوَاتٍ.

وبعد تلك السنين جمع ملك مصر أهل الشورى والعلم وقال لهم: إنِّي أرى في منامي سبعَ بقراتٍ سَمانٍ، يأْكُلُهُنَّ سَبْعُ بَقَرَاتٍ نَحِيلَاتٍ مِنَ الْهُزَالِ، ورَأَيْتُ سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضِرَ، وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ يَابَسَاتٍ يَلْتَفِفْنَ عَلَى السَّنْبُلَاتِ الْخَضِرِ وَيَسْقُطْنَهُنَّ، يَا أَيُّهَا الْأَشْرَافُ وَالْكِبَرَاءُ أَخْبِرُونِي عَنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا، إِنْ كُنْتُمْ عَلَى عِلْمٍ بِتَفْسِيرِ الرُّؤْيَى. فقالوا له: رؤياك هذه أخلاطٌ من الأحلام لا تأويلَ لها، وما نحن بتفسيرِ الأحلامِ المختلطةِ بعالمين، وهنا تذكر ساقى الملك - وهو الذي نجا من الفَتَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا فِي السَّجْنِ مَعَ يَوْسُفَ - أَنْ يَوْسُفَ ﷺ يتقن تأويل الرؤى، فقال للملك ومن معه: أَنَا أَخْبِرْكُمْ بِتَأْوِيلِ هَذِهِ الرُّؤْيَا، فابْعَثُونِي إِلَى يَوْسُفَ الْمَسْجُونِ؛ لَأَتِيَكُم بِتَفْسِيرِهَا. وعندما وصل الرَّجُلُ إِلَى يَوْسُفَ قَالَ لَهُ: يَا يَوْسُفَ يَا أَيُّهَا الصَّدِيقُ فَسِّرْ لَنَا رُؤْيَا مَنْ رَأَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ بَقَرَاتٍ هَزِيلَاتٍ، وَرَأَى سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضِرَ وَأُخْرَى يَابَسَاتٍ؛ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ فَأَخْبِرُهُمْ؛ لِيَعْلَمُوا تَأْوِيلَ مَا سَأَلْتُكَ عَنْهُ، وَلِيَعْلَمُوا مَكَانَتَكَ وَعِلْمَكَ وَفَضْلَكَ.

فقال يوسفُ لسائِلِهِ عَنْ رُؤْيَا الْمَلِكِ: تَفْسِيرُ هَذِهِ الرُّؤْيَا هُوَ أَنَّكُمْ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ مُتَتَابِعَةً جَادِّينَ لِيَكْثُرَ الْعَطَاءُ، فَمَا حَصَدْتُمْ مِنْهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ فَادَّخِرُوهُ وَاتْرَكُوهُ فِي سُنْبُلِهِ؛ لِئَلَّا يَفْسُدَ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَهُ مِنَ الْحُبُوبِ. ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ هَذِهِ السَّنِينَ الْخِصْبَةِ سَبْعُ سِنِينَ شَدِيدَةُ الْجَدْبِ، يُؤْكَلُ فِيهِنَّ كُلُّ مَا ادَّخَرْتُمْ لِهِنَّ مِنْ قَبْلُ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْفَظُونَهُ وَتَدَّخِرُونَهُ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ هَذِهِ السَّنِينَ الْمُجْدِبَةِ عَامٌ يُمَطِّرُ فِيهِ النَّاسُ مَطَرًا يَغِيثُهُمْ وَيُرْوِي أَرْضِيهِمْ، فِيرْفَعُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ الشَّدَّةَ، وَيَعْصِرُونَ فِيهِ الثَّمَارَ؛ مِنْ كَثَرَةِ الْخِصْبِ وَالنَّمَاءِ.

وَلَمَّا عَلِمَ الْمَلِكُ بِتَأْوِيلَ رُؤْيَاهُ قَالَ لِأَعْوَانِهِ: أَخْرِجُوا هَذَا الرَّجُلَ الْمَعْبَرُ لِلرُّؤْيَا مِنْ السَّجْنِ، وَأَحْضِرُوهُ لِي، فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ الْمَلِكِ يَدْعُوهُ، قَالَ يَوْسُفُ لِلرَّسُولِ: ارْجِعْ إِلَى سَيِّدِكَ الْمَلِكِ، وَاطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يَسْأَلَ النِّسْوَةَ اللَّاتِي جَرَحَنَ أَيْدِيَهُنَّ عَنْ حَقِيقَةِ أَمْرِهِنَّ وَشَأْنَهُنَّ مَعِيَ؛ لِتُظْهَرَ الْحَقِيقَةُ لِلْجَمِيعِ، وَتَتَّضِحَ بَرَاءَتِي، إِنَّ رَبِّي عَلِيمٌ بِصَنَائِعِهِنَّ وَأَفْعَالِهِنَّ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ - سُبْحَانَهُ - شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ. فَدَعَا الْمَلِكُ النِّسْوَةَ اللَّاتِي جَرَحَنَ أَيْدِيَهُنَّ، وَقَالَ لَهُنَّ: مَا شَأْنُكُمْ حِينَ رَاوَدْتَنَّ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ يَوْمَ الصُّيَافَةِ؟ فَهَلْ رَأَيْتُنَّ مِنْهُ مَا يَرِيبُ؟ قُلْنَ: مُعَاذَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ أَدْنَى شَيْءٍ يَشِينُهُ، عِنْدَ ذَلِكَ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ: الْآنَ ظَهَرَ الْحَقُّ بَعْدَ خَفَائِهِ، فَأَنَا الَّتِي حَاوَلْتُ فِتْنَتَهُ بِإِغْرَائِهِ فَامْتَنَعَ، وَإِنَّهُ لِمِنْ الصَّادِقِينَ فِي كُلِّ مَا قَالَهُ، ذَلِكَ الْقَوْلُ الَّذِي قُلْتُهُ فِي تَنْزِيهِهِ وَالْإِقْرَارِ عَلَى نَفْسِي؛ لِيَعْلَمَ يَوْسُفُ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْكَذِبِ عَلَيْهِ حَالَ غَيْبَتِهِ عَنِّي، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُؤَفِّقُ أَهْلَ الْخِيَانَةِ، وَلَا يُرْشِدُهُمْ فِي خِيَانَتِهِمْ، وَمَا أَزْكِي نَفْسِي وَلَا أُبْرِئُهَا؛ إِنَّ النَّفْسَ لَكَثِيرَةَ الْأَمْرِ لَصَاحِبِهَا بِعَمَلِ الْمَعَاصِي؛ طَلَبًا لِمَلَذَّاتِهَا، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لَذُنُوبِ مَنْ تَابَ مِنْ عِبَادِهِ، رَحِيمٌ بِهِمْ.

وَحِينَ عَلِمَ مَلِكُ مِصْرَ بَرَاءَةَ يَوْسُفَ قَالَ: جِئْتُونِي بِهِ أَجْعَلَهُ مِنْ خُلَصَائِي وَأَهْلٍ مَشُورَتِي، فَلَمَّا جَاءَ يَوْسُفُ، وَكَلَّمَهُ الْمَلِكُ، وَعَرَفَ بَرَاءَتَهُ، وَعَظِيمَ أَمَانَتِهِ، وَحُسْنَ خُلُقِهِ وَجَلِيلَ عِلْمِهِ؛ قَالَ لَهُ: إِنَّكَ الْيَوْمَ عِنْدَنَا عَظِيمُ الْمَكَانَةِ، وَمُؤْتَمَنٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَأَرَادَ يَوْسُفُ أَنْ يَنْفَعَ الْعِبَادَ، وَيُقِيمَ الْعَدْلَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: اجْعَلْنِي وَالْيَا عَلَى خَزَائِنِ مِصْرَ؛ فَإِنِّي خَازِنٌ أَمِينٌ، ذُو عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ بِمَا أَتَوَلَّاهُ. وَكَذَلِكَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى يَوْسُفَ بِالْخَلَاصِ مِنَ السَّجْنِ، وَمَكَّنَ لَهُ فِي أَرْضِ مِصْرَ يَنْزِلُ مِنْهَا أَيَّ مَنَزَلٍ شَاءَ، وَجَعَلَهُ عَزِيزَ مِصْرَ وَالْوَالِي عَلَى خَزَائِنِهَا.

ثُمَّ قَدِمَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ إِلَى مِصْرَ بَعْدَ أَنْ حَلَّ بِهِمُ الْجَدْبُ فِي أَرْضِهِمْ؛ لِيَجْلِبُوا مِنْهَا الطَّعَامَ، فَدَخَلُوا عَلَى يَوْسُفَ، فَعَرَفَهُمْ لِأَنَّهُ رَأَاهُمْ كِبَارًا وَلَمْ يَتَغَيَّرُوا كَثِيرًا وَلَمْ يَعْرِفُوهُ

هم لطول المدة حيث فارقهـم طفلاً صغيراً وقد شبَّ وتغيَّرت هيئته. فأمرَ يوسفُ بإكرامهم وحسن ضيافتهم، ثمَّ أعطاهم من الطَّعام ما طلبوا، وسألهم عن أهلهم وأحوالهم وعددهم، فأخبروه أنَّ لهم أخاً من أبيهم لم يحضروه معهم - يُعنون شقيقه - فقال: في المرة القادمة ائتوني بأخيكم من أبيكم، ألم تروا أنَّي أوفيت لكم الكيل، وأكرمتكم في الضيافة، وأنا خيرُ المضيفين لمن نزل بي؟ فإن لم تأتوني به فليس لكم عندي طعامٌ أكيله لكم، ولا تأتوا إليَّ. فقالوا: سنبدلُ جُهدنا لإقناع أبيه أن يرسله معنا، ولن نُقصِّر في ذلك. وقال يوسفُ لِعلمانه: أعيذوا لهم الثمن الذي دفعوه واجعلوه في أمتعتهم سرّاً مع ما أعطيناهم من البضائع؛ رجاء أن يعرفوا إذا انصرفوا إلى أهلهم وفتحوا أمتعتهم هناك؛ أنا أكرمناهم وضيئناهم وأوفينا لهم أفضل الكيل والبضاعة وأعدنا لهم الثمن فلم نأخذ منهم شيئاً مقابل كل ذلك، ليكون ذلك أدعى لهم في الرجوع إلينا مرَّةً أخرى.

فلَمَّا رجَعوا إلى أبيهم قصُّوا عليه ما كان من إكرام الوزير لهم، وقالوا: إنَّه لن يُعطينا مُستقبلاً إلَّا إذا كان معنا أخونا - بنيامين - حيث أخبرناه به، فأرسله معنا نحضِر الطَّعامَ وافيّاً، ونتعهَّد لك بحِفْظه. فقال لهم أبوهم: كيف آمنكم على بنيامين وقد آمنتمكم على أخيه يوسف من قبل، والتزمتُم بحِفْظه فلم تفوا بذلك؟! فلا أثقُ بالتزامكم وحِفْظكم، ولكنِّي أثقُ بحِفْظِ الله؛ خير الحافظين، وأرحم الراحمين.

ولَمَّا فتحوا أوعيتهم وجدوا ثمنَ بضاعتهم الذي دفعوه قد رُدَّ إليهم، قالوا: يا أبانا ماذا نطلبُ أكثر من هذا؟! هذا ثمنُ بضاعتنا رَدَّه العزيزُ إلينا، فكُنْ مُطمئنّاً على أخينا، وأرسله معنا؛ لنجلبَ طعاماً وفيراً لأهلنا، ونحفظَ أخانا، ونزداد حِمْلَ بعيرٍ له؛ فإنَّ العزيزَ يكيل لكلِّ واحدٍ حِمْلَ بعيرٍ، وذلك كيلٌ يسيرٌ عليه. فقال لهم يعقوبُ: لن أتركه يذهبُ معكم حتَّى تتعهَّدوا وتحلفوا لي بالله أن تردُّوه إليَّ، إلَّا أن تغلبوا عليه فلا تستطيعوا تخليصه، فلَمَّا أعطوه عهدَ الله على ما طلبَ، قال يعقوبُ: الله على ما نقولُ وكيلٌ، تكفينا شهادته علينا، وحِفْظه لنا.

ولَمَّا أَرَادُوا الذَّهَابَ إِلَى مِصْرَ خَافَ عَلَيْهِمْ يَعْقُوبُ مِنَ الْعَيْنِ، وَأَمَرَهُمْ بِالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ. وَقَالَ لَهُمْ: يَا أَبْنَائِي إِذَا دَخَلْتُمْ مَدِينَةَ مِصْرَ فَلَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَلَكِنْ ادْخُلُوهَا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَإِنِّي إِذْ أُوصِيكُمْ بِهَذَا لَا أَدْفَعُ عَنْكُمْ شَيْئًا قَضَاهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَمَا الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، عَلَيْهِ اعْتَمَدْتُ وَوَثِقْتُ، وَعَلَيْهِ وَحْدَهُ يَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ.

ولَمَّا دَخَلَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ فِي مَنْزِلِ ضِيَاغَتِهِ وَمَعَهُمْ شَقِيقُهُ، ضَمَّ يَوْسُفُ إِلَيْهِ شَقِيقَهُ، وَقَالَ لَهُ سِرًّا: إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَحْزَنْ، وَلَا تَغْتَمَّ بِمَا صَنَعُوهُ بِي وَبِكَ فِيمَا مَضَى، وَأَمَرَهُ بِكُتْمَانِ ذَلِكَ عَنْهُمْ، فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ يَوْسُفُ، وَحَمَلَ إِلَيْهِمُ بِالطَّعَامِ، جَعَلَ الْإِنَاءَ - الَّذِي يَشْرَبُ فِيهِ الْمَلِكُ وَيَكِيلُ لِلنَّاسِ بِهِ (الصُّوَاعُ) ^(١) - فِي مَتَاعِ أَخِيهِ الشَّقِيقِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ أَحَدٌ، وَلَمَّا رَكِبُوا الْيَسِيرَ وَانَادَى مُنَادٍ قَائِلًا: يَا أَصْحَابَ هَذِهِ الْعِيرِ الْمُحْمَلَةِ بِالطَّعَامِ، إِنَّكُمْ لِسَارِقُونَ، فَقَالَ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ مُقْبِلِينَ عَلَى الْمُنَادِي: مَا الَّذِي تَفْقِدُونَهُ؟ قَالَ الْمُنَادِي وَمَنْ بَحْضَرْتَهُ: نَفَقْدُ الْإِنَاءِ الَّذِي يَشْرَبُ فِيهِ الْمَلِكُ، وَيَكِيلُ بِهِ الطَّعَامَ، وَمُكَافَأَةٌ مَنْ يُحْضِرُهُ مِقْدَارُ حِمْلٍ بَعِيرٍ مِنَ الطَّعَامِ، وَقَالَ الْمُنَادِي: وَأَنَا ضَامِنٌ هَذِهِ الْمُكَافَأَةَ لِمَنْ يَأْتِي بِهِ.

فَقَالَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ: لَقَدْ تَحَقَّقْتُمْ مِمَّا شَاهَدْتُمُوهُ مِنَّا أَنَّنَا مَا جِئْنَا أَرْضَ مِصْرَ مِنْ أَجْلِ الْإِفْسَادِ فِيهَا، وَلَيْسَتْ السَّرِقَةُ مِنْ صِفَاتِنَا، وَ- بِأَمْرِ يَوْسُفَ - قَالَ الْمُنَادِي وَمَنْ مَعَهُ لِإِخْوَةِ يَوْسُفَ: فَمَا عُقُوبَةُ السَّارِقِ عِنْدَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ فِي قَوْلِكُمْ؟ فَقَالَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ: جَزَاءُ السَّارِقِ عِنْدَنَا فِي شَرِيعَتِنَا أَنْ يُسَلَّمَ إِلَى مَنْ سَرَقَ مِنْهُ؛ حَتَّى يَكُونَ عَبْدًا عِنْدَهُ، مِثْلَ هَذَا الْجَزَاءِ - وَهُوَ الْاسْتِرْقَاقُ - نَجْزِي الظَّالِمِينَ بِالسَّرِقَةِ، وَهَذَا دِينُنَا وَسُتْنُنَا فِي أَهْلِ السَّرِقَةِ.

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ﴿صُوعَ الْمَلِكِ﴾ كَانَ كَهَيْئَةِ الْمَكُوكِ، وَكَانَ لِلْعَبَّاسِ مِثْلُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَشْرَبُ فِيهِ. فَالْصُّوَاعُ مَكِيلٌ وَهُوَ: الْمُدُّ. وَيَسْمَى الْمَكُوكُ بِالْفَارِسِيَّةِ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: هُوَ الْمَكُوكُ الْفَارِسِيُّ الَّذِي يَلْتَقِي طَرَفَاهُ، كَانَ يَشْرَبُ فِيهِ الْأَعَاجِمُ. وَسَمِيَ فِي الْقُرْآنِ (السَّقَايَةُ)، وَعَلَى لِسَانِ أَهْلِ مِصْرَ: (الصُّوَاعُ).

فرجع إخوة يوسف إليه، وقام يوسف بنفسه يُفْتِّش أمتعتهم، فبدأ بأمتعتهم قبل متاع شقيقه؛ إحصاءً لما دبره لاستبقاء أخيه معه، ثم انتهى بوعاء أخيه، فاستخرج الإناء (الصواع) منه، كذلك يسر الله ليوسف هذا التدبير الذي توصل به لأخذ أخيه بإقرار إخوته وحسب شريعتهم، وما كان له أن يأخذ أخاه في حكم ملك مصر - لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق -^(١)، لكن الأمر تم ليوسف بمشيئة الله، فقد كاد الله وقدر لمصلحة يوسف، حتى يتمكن من أخذ شقيقه من إخوته، بناءً على شريعتهم، وإقرارهم بأنفسهم.

فالله سبحانه يرفع منازل من يشاء في الدنيا على غيره بالعلم والتدبير، كما رفع منزلة يوسف، وفوق كل ذي علم من هو أعلم منه، حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

ولما استخرج الصواع من رحل أخيه قال إخوة يوسف: إن سرق هذا فقد سرق أخ شقيق له من قبل - يقصدون يوسف ﷺ - فأخفى يوسف في نفسه كلمة حدثت نفسه بها قائلاً: أنتم أسوأ منزلة ممن ذكرتم؛ حيث دبرتم لي ما كان منكم، والله أعلم بما تصفون من الكذب والافتراء.

ثم تذكر إخوة يوسف ميثاقهم مع أبيهم أن يعيدوا بنيامين إليه، فقالوا ليوسف مستعطفين: يا أيها العزيز، إن له والدًا كبيرًا في السن يحبّه، ولا يطيق بعده، فخذ أحدنا بدلاً منه؛ إنّا نراك من المحسنين. فقال يوسف: نستعيذ بالله أن نأخذ أحداً غير الذي وجدنا الصواع عنده؛ فإننا نكون في عداد الظالمين إن فعلنا ما تطلبون. فلمّا يسّسوا من إجابته إليهم لما طلبوه، انفردوا عن الناس، وأخذوا يتشاورون فيما بينهم. فقال كبيرهم: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم العهد المؤكّد؛ لتردّنا أخاكم إلّا أن تغلبوا، ومن قبل هذا كان تقصيركم في يوسف وتضييعكم له؛ لذلك لن أفارق أرض

(١) قيل إن عقوبة السارق في دين ملك مصر: أن يضرب ويضاعف عليه الغرم.

مِصْرَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي فِي مُفَارَقَتِهَا، أَوْ يَقْضِيَ لِي رَبِّي بِالْخُرُوجِ مِنْهَا، وَاللَّهُ خَيْرٌ مَن حَكَمَ، وَأَعْدَلُ مَن فَصَلَ بَيْنَ النَّاسِ.

ثم قال لهم: ارجعوا إلى أبيكم، وأخبروه بما جرى، وقولوا له: إِنَّ ابْنَكَ قد سَرَقَ، وما شَهِدْنَا بذلك إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَيَقَّنَّا؛ فقد رأينا المِكيالَ في رَحْلِهِ، وما كان عِنْدَنَا عِلْمُ الْغَيْبِ أَنَّهُ سَيَسْرِقُ حِينَ عَاهَدْنَاكَ عَلَى رَدِّهِ، واسأل - يا أبانا - أهلَ مِصْرَ، وَمَن كان مَعَنَا فِي الْقَافِلَةِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فيما أَخْبَرْنَاكَ بِهِ.

وَلَمَّا رَجَعُوا وَأَخْبَرُوا آبَاهُمْ، قال لهم: بَلْ زَيْنَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ مَكِيدَةً دَبَّرْتُمُوهَا، كما فَعَلْتُمْ مَن قَبْلُ مَعَ يُوسُفَ، فَصَبْرِي صَبْرٌ جَمِيلٌ، لا جَزَعَ فِيهِ ولا شَكْوَى مَعَهُ؛ عسى اللَّهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيَّ أَبْنَائِي جَمِيعًا - يوسُفَ، وشقيقه، وأخوهم الكبيرُ الَّذي تَخَلَّفَ مِن أَجْلِ أَخِيهِ -؛ إِنَّهُ هو العَليمُ بِحالِي، الحَكِيمُ في تَدْبِيرِهِ. وَأَعْرَضَ يَعْقوبُ عَنْهُمْ، وقد ضاقَ صَدْرُهُ بما قالوه، وقال: يا حَسْرَتِي على يوسُفَ، وَايَضَّتْ عَيْنَاهُ؛ مِن شِدَّةِ الْحُزَنِ، فهو مُمْتَلِئُ الْقَلْبِ حُزْنًا، وَلَكِنَّهُ شَدِيدُ الْكِتْمَانِ لَهُ. فقال بَنُوهُ: تالله، ما تَزَالُ تَتَذَكَّرُ يوسُفَ، وَيَشْتَدُّ حُزْنُكَ عَلَيْهِ، حَتَّى تُشْرِفَ عَلَى الْهَلَاكِ أَوْ تَهْلِكَ فِعْلًا، فَخَفَّفَ عَنْ نَفْسِكَ. فقال يعقوبُ مُجِيبًا لَهُمْ: لا أَظْهَرُ هَمِّي وَحُزْنِي إِلَّا إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ؛ فهو كاشِفُ الضُّرِّ والبَلَاءِ، وَأَعْلَمُ مِن رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَرَجِهِ ما لا تَعْلَمُونَهُ.

وكانَّ يعقوبُ قد تفكر في حال ذلك الرجل الكريم عزيز مصر الذي أكرم أولاده وضيَّفَهُمْ في زمن القحط، وأوفى لهم الكيل، ورد لهم الثمن، وطلب منهم إحصار أخيهام ليكرمه، فكانَّه رأى فيه كرم النبوة وكرم جده إبراهيم ﷺ حيث أنه أول من صَيَّفَ الضيف، كما أنَّ ذاك العزيز حكم بشريعة يعقوب في استرقاق السارق، فاجتمعت فيه خصالٌ من أخلاق الإيمان والنبوة، وكذلك كان ما يَرِجُوهُ يعقوب ليوسف من النبوة حين أخبره عن رؤياه وهو صغير، فقال يعقوب لأبنائه: عودُوا إلى مِصْرَ، فاستَقْصُوا أخبارَ يوسُفَ وأخيه، ولا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ؛ إِنَّهُ لا يَقْنَطُ مِن

رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا الْجَاهِدُونَ لِقُدْرَتِهِ، الْكَافِرُونَ بِهِ.

ثم إِنَّ إِخْوَةَ يَوْسُفَ لما رَجَعُوا إِلَى مِصْرَ، وَدَخَلُوا عَلَى يَوْسُفَ، أَرَادُوا اسْتِرْقَاقَ قَلْبِهِ بِضَعْفِهِمْ وَشِدَّةِ حَاجَتِهِمْ، فَإِنْ رَأَوْا مِنْهُ لِينًا وَشَفَقَةً؛ حَاولُوا مَعَهُ أَنْ يُطْلَقَ لَهُمْ أَخَاهُمْ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا: يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ، أَصَابَنَا وَأَهْلُنَا الْقَحْطُ وَالْجَدْبُ، وَجِئْنَاكَ بِثَمَنِ رَدِيءٍ قَلِيلٍ، فَأَعْطِنَا بِهِ مَا كُنْتَ تُعْطِينَا وَتُكْرِمُنَا مِنْ قَبْلُ بِالثَّمَنِ الْجَيِّدِ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا بِقَبْضِ هَذِهِ الدَّرَاهِمِ الْمُرْجَاةِ وَتَجَوِّزَ فِيهَا؛ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُثِيبُ الْمُتَفَضِّلِينَ بِأَمْوَالِهِمْ عَلَى الْمُحْتَاجِينَ. فَلَمَّا سَمِعَ مَقَالَتَهُمْ رَقَّ لَهُمْ، وَعَرَفَهُمْ بِنَفْسِهِ، وَقَالَ: هَلْ تَذْكُرُونَ الَّذِي فَعَلْتُمُوهُ بِيَوْسُفَ وَأَخِيهِ مِنَ الْأَذَى فِي حَالِ جَهْلِكُمْ بِعَاقِبَةِ مَا تَفْعَلُونَ؟ قَالُوا: أَأَنْتَ لَا تَذْكُرُ يَوْسُفَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَنَا يَوْسُفُ، وَهَذَا شَقِيقِي، قَدْ تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْنَا، فَجَمَعَ بَيْنَنَا بَعْدَ الْفُرْقَةِ؛ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ، وَيَصْبِرْ عَلَى الْمِحْنِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَذْهَبُ ثَوَابَ إِحْسَانِهِ، وَإِنَّمَا يَجْزِيهِ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ. قَالُوا: وَاللَّهِ، لَقَدْ فَضَّلَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا، وَأَعَزَّكَ بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ، وَالْفَضْلِ وَالْكَرَمِ وَالْمَلِكِ وَالْجَمَالِ، وَقَدْ كُنَّا خَاطِئِينَ فِيمَا فَعَلْنَاهُ بِكَ. فَقَالَ لَهُمْ يَوْسُفُ: لَا تَأْنِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ لِمَنْ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَأَنَابَ إِلَى طَاعَتِهِ.

وَلَمَّا سَأَلَهُمْ عَنْ أَبِيهِ أَخْبَرُوهُ بِذَهَابِ بَصَرِهِ مِنَ الْبُكَاءِ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ: عُودُوا إِلَى أَبِييْكُمْ وَمَعَكُمْ قَمِيصِي هَذَا، فَاطْرَحُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي؛ يَعُدُّ إِلَيْهِ بَصَرُهُ، ثُمَّ أَحْضَرُوا إِلَيَّ جَمِيعَ أَهْلِكُمْ.

وَلَمَّا خَرَجَتْ قَافِلَةُ بَنِي يَعْقُوبَ مِنْ مِصْرَ مُتَّجِهَةً إِلَى الشَّامِ، سَارَعَتِ الرِّيحُ بِحِمْلِ رَاحِئَةِ يَوْسُفَ إِلَى يَعْقُوبَ، وَقَالَ يَعْقُوبُ لِمَنْ حَضَرَ عِنْدَهُ فِي فَلَسْطِينَ: إِنِّي لَا أَشُمُّ رَاحِئَةَ يَوْسُفَ، لَوْلَا أَنْ تُكَذِّبُونِي وَتَنْسُبُونِي إِلَى الْهَرَمِ وَالْخَرَفِ، فَقَالَ لَهُ الْحَاضِرُونَ: وَاللَّهِ، إِنَّكَ لَفِي خَطِيئِكَ الَّذِي كُنْتَ عَلَيْهِ قَدِيمًا. فَلَمَّا أُنْجَاءَ يَعْقُوبَ وَلَدُهُ الْمُبَشِّرُ بِرِسَالَةِ يَوْسُفَ، أُلْقِيَ قَمِيصُ يَوْسُفَ عَلَى وَجْهِ أَبِيهِ، فَعَادَ مُبْصِرًا بَعَيْنَيْهِ كَمَا كَانَ. وَقَالَ

يعقوبُ لأولاده: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا تَعْلَمُونَهُ؟ فَقَالُوا لَهُ: يَا أَبَانَا، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا؛ إِنَّا نَعْتَرِفُ بِأَنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

فَلَمَّا دَخَلَ يَعْقُوبُ وَأَهْلُهُ عَلَى يَوْسُفَ ضَمَّ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ، وَقَالَ لَجَمِيعِ أَهْلِهِ: ادْخُلُوا مِصْرَ آمِنِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَأَجْلَسَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ عَلَى الْعَرْشِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ، وَخَرَّ الْجَمِيعُ لَهُ سُجُودًا؛ تَحِيَّةً وَتَعْظِيمًا لِيَوْسُفَ، وَقَالَ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتِ هَذَا السُّجُودُ مِنْكُمْ لِي هُوَ تَفْسِيرُ رُؤْيَايَ الَّتِي رَأَيْتُهَا فِي صِغَرِي، قَدْ حَقَّقَهَا رَبِّي، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ﷺ حِينَ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّجْنِ، وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَادِيَةِ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَفْسَدَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي؛ إِنْ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يُرِيدُهُ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

وَقَالَ يَوْسُفُ دَاعِيًا رَبَّهُ: رَبِّي قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ مُلْكٍ مِصْرَ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَى، وَمِنْ عُلُومِ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ، وَسُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ، يَا خَالِقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنْتَ نَاصِرِي وَمُتَوَلِّي أُمُورِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، تَوَفَّنِي وَأَنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَأَلْحِقْنِي فِي الثَّوَابِ وَالدرجاتِ بِالصَّالِحِينَ^(١).



(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَكْرَمُ النَّاسِ أَنْفَاهُمْ، وَالكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ: يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ خَلِيلِ اللَّهِ. وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: عَجِبْتُ لِصَبْرِ أَخِي يَوْسُفَ وَكَرَمِهِ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، حَيْثُ أُرْسِلَ إِلَيْهِ لِيُسْتَفْتَى فِي الرُّؤْيَا، وَلَوْ كُنْتُ أَنَا، لَمْ أَفْعَلْ حَتَّى أَخْرُجَ، وَعَجِبْتُ لِصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، أَتَيْ لِيُخْرِجَ، فَلَمْ يَخْرُجْ حَتَّى أَخْبَرَهُمْ بِعُذْرِهِ، وَلَوْ كُنْتُ أَنَا لَبَادَرْتُ الْبَابَ، لَوْ لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ طَوْلَ مَا لَبِثَ يَوْسُفُ، ثُمَّ أَتَانِي الدَّاعِي لَأَجَبْتُهُ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ الْأَنْسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَافٍ عَلِيمٌ ٥٠﴾ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَوْ كُنْتُ أَنَا، لَأَسْرَعْتُ الْإِجَابَةَ، وَمَا ابْتَغَيْتُ الْعُذْرَ.

مكوث بني إسرائيل في مصر

وكان بنو إسرائيل قد استقروا في مصر بعد ما حصل التمكين ليوسف فيها؛ وكان يوسف قد دعا والده وإخوته إلى مصر، فنزحوا من فلسطين، ومات يعقوب ودفن عند آبائه في فلسطين، ومكث بنوه في مصر عند أخيهم يوسف الذي أكرمهم وأحسن منقلبهم، ثم حضرت يوسف الوفاة؛ فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر؛ فيدفن عند آبائه، فحنطوه، ووضعوه في تابوت.

وبعد ذلك تناسل الأسباط - وهم ذرية يعقوب (إسرائيل) من أبنائه الإثني عشر - وكثروا.^(١)



(١) قيل إن بني إسرائيل أبوا أن يندمجوا مع المصريين؛ فعزلوا أنفسهم عنهم، وتواصوا فيما بينهم أن يكون لكل سبط نسله المعروف المميز عن بقية الأسباط، وذلك ليضمنوا الاحتفاظ بنسبهم؛ اعتزازاً به، باعتبار أنهم من ذرية الأنبياء. وبعد ثلاثة قرون أو تزيد اضطهدهم الفراعنة حكام مصر واستعبدوهم، حتى بعث الله نبيه موسى ﷺ.

اضطهاد بني إسرائيل من فرعون

وَكَانَ فِرْعَوْنُ الْمَلِكُ، وَهَامَانُ الْوَزِيرُ، وَكَانَ فِرْعَوْنُ قَدْ قَسَمَ رَعِيَّتَهُ إِلَى أَقْسَامٍ وَفَرَّقَ وَأَنْوَعَ ﴿يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ وَهُمْ شَعْبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ هُمْ مِنْ سُلَالَةِ نَبِيِّ اللَّهِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ. وَكَانُوا إِذْ ذَاكَ خِيَارَ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْمَلِكَ الظَّالِمَ الْغَاشِمَ الْكَافِرَ الْفَاجِرَ، يَسْتَعْبِدُهُمْ وَيَسْتَخْدِمُهُمْ فِي أَحْسَنِ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ، وَأَرْدَيْتَهَا، وَأَذْنَاهَا، وَمَعَ هَذَا ﴿يَذْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وَكَانَ الْحَامِلُ لَهُ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الْقَبِيحِ، أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يَتَدَارَسُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ مَا كَانُوا يَأْتُرُونَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، ﷺ، مِنْ أَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ غُلَامٌ يَكُونُ هَلَاكُ مَلِكٍ مِصْرَ عَلَى يَدَيْهِ، وَذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - حِينَ جَرَى عَلَى سَارَةِ امْرَأَةِ الْخَلِيلِ مِنْ مَلِكٍ مِصْرَ، مِنْ إِرَادَتِهِ إِيَّاهَا عَلَى الشُّوءِ، وَعِصْمَةِ اللَّهِ لَهَا.

وَتَذَاكُرَ فِرْعَوْنُ وَجُلَسَاؤُهُ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ وَعَدَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ أَن يَجْعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ أَنْبِيَاءَ وَمُلُوكًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيَنْتَظِرُونَ ذَلِكَ، مَا يَشْكُونَ فِيهِ، وَقَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلَمَّا هَلَكَ، قَالُوا: لَيْسَ هَكَذَا كَانَ وَعْدُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ. قَالَ فِرْعَوْنُ: فَكَيْفَ تَرَوْنَ؟ فَاتَمَرُوا وَاجْتَمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ رِجَالًا بِالسُّفَارِ يَطُوفُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَا يَجِدُونَ مَوْلُودًا ذَكَرًا إِلَّا ذَبَحُوهُ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَلَمَّا أَنَّ رَأَوْا أَنَّ الْكِبَارَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمُوتُونَ بِأَجَالِهِمْ، وَالصَّغَارَ يُذَبِّحُونَ، قَالُوا: تَوْشِكُونَ أَنْ تَفْنُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَتَضَيَّرُوا إِلَى أَنْ تُبَاشِرُوا مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْخِدْمَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُونَكُمْ، فَاقْتُلُوا عَامًا كُلَّ مَوْلُودٍ ذَكَرٍ،

فَقِيلَ نَبَاتُهُمْ، وَدَعُوا عَامًّا، فَلَا تَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَحَدًا، فَيَنْشَأُ الصَّغَارُ مَكَانَ مَنْ يَمُوتُ مِنَ الْكِبَارِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَكْثُرُوا بِمَنْ تَسْتَحْيُوا مِنْهُمْ، فَتَخَافُوا مُكَاثَرَتَهُمْ إِيَّاكُمْ، وَلَنْ يَفْنَوْا بِمَنْ تَقْتُلُونَ، فَتَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

وروي أَنَّ فِرْعَوْنَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ نَارًا قَدْ أَقْبَلَتْ مِنْ نَحْوِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَأَحْرَقَتْ دُورَ مِصْرَ وَجَمِيعَ الْقِبْطِ، وَلَمْ تَضُرَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ هَالَهُ ذَلِكَ فَجَمَعَ الْكَهَنَةَ وَالْحُزَاةَ وَالسَّحَرَةَ وَسَأَلَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ الْكَهَنَةُ: هَذَا غَلَامٌ يُوَلَدُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِ أَهْلِ مِصْرَ عَلَى يَدَيْهِ.



موسى وهارون

وكان موسى بن عمران من نسل يعقوب ومن ذرية إبراهيم عليه السلام، فهو موسى بن عمران بن قاهت بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. وحملت أم موسى بهارون عليه السلام في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة، فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها من الهم والحزن مما يراؤه، فأوحى الله تعالى إليها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١) وأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت، ثم تلقيه في اليم، فلما ولدت فعلت ذلك به، فألقته في اليم، فلما توارى عنها ابنها، أتاه الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت بابني؟ لو ذبح لث عندي، فرأيتُه وكفنتُه، كان أحب إلي من أن ألقيه بيدي إلى دواب البحر وحيتانه. وانتهى الماء به حتى أرفأ به عند فُرْضة (١) مُسْتَقَى جَوَارِي امْرَأَةٍ فِرْعَوْنَ، فلما رأيته أخذته، فهممن أن يفتحن التابوت، فقالت بعضهن: إن في هذا مالا، وإننا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملته بهيئة لم يحركن منه شيئا، حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأت فيه غلاما، فألقي عليه منها محبة لم تلق مثلها على البشر قط، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر كل شيء، إلا من ذكر موسى عليه السلام فلما سمع الذابحون بأمره، أقبلوا بشفاريهم إلى امرأة فرعون ليذبوه، فقالت للذباحين: اتركوه، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل، حتى آتي فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لي، كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه، لم ألكم،

(١) فُرْضة النهر: ثلثته التي يُسْتَقَى منها.

فَأَتَتْ بِهِ فِرْعَوْنَ، فَقَالَتْ: ﴿فُتِرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ: يَكُونُ لَكَ فَأَمَّا لِي، فَلَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ^(١).

فَأَرْسَلَتْ إِلَى مَنْ حَوْلَهَا مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ لَهَا لَبَنٌ تَخْتَارُ لَهَا طِثْرًا^(٢)، فَجَعَلَ كُلُّمَا أَخَذَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ فَتَرْضِعُهُ، لَمْ يَقْبَلْ ثَدْيِهَا، حَتَّى أَشْفَقَتْ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنَ اللَّبَنِ فَيَمُوتَ، فَأَحْزَنَهَا ذَلِكَ فَأَمَرَتْ بِهِ فَأُخْرِجَ إِلَى السُّوقِ، وَتَجَمَعَ النَّاسُ، تَرَجُّو أَنْ تَجِدَ لَهُ طِثْرًا يَأْخُذُ مِنْهَا، فَلَمْ يَقْبَلْ، وَأَصْبَحَتْ أُمُّ مُوسَى وَالْهَيْهَ، فَقَالَتْ لِأُخْتِهَا: قُصِّيهِ - يَعْنِي أَثَرَهُ، وَاطْلُبِيهِ - هَلْ تَسْمَعِينَ لَهُ ذِكْرًا؟، أَحَيَّ ابْنِي؟، أَمْ قَدْ أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ؟، وَنَسِيتَ مَا كَانَ اللَّهُ ﷻ وَعَدَهَا فِيهِ، فَبَصُرَتْ بِهِ أُخْتُهُ عَنْ جَنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَالْجَنْبُ: أَنْ يَسْمُوَ بَصَرُ الْإِنْسَانِ إِلَى الشَّيْءِ الْبَعِيدِ، وَهُوَ إِلَى جَنْبِهِ لَا يَشْعُرُ بِهِ، فَقَالَتْ مِنَ الْفَرَحِ حِينَ أَعْيَاهُمُ الطَّلَبُ: أَنَا أَذُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ، وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، فَأَخَذُوهَا فَقَالُوا: وَمَا يُدْرِيكَ مَا نُنْصِحُهُمْ لَهُ؟ هَلْ يَعْرِفُونَهُ؟ - حَتَّى شَكُّوا فِي ذَلِكَ، فَقَالَتْ: نَصِيحَتُهُمْ لَهُ وَشَفَقَتُهُمْ عَلَيْهِ رَغْبَةٌ فِي صَهْرِ الْمَلِكِ، وَرَجَاءُ مَنَفَعَتِهِ، فَأَرْسَلُوهَا، فَانْطَلَقَتْ إِلَى أُمِّهَا فَأَخْبَرَتْهَا الْخَبَرَ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهَا، نَزَا إِلَى ثَدْيِهَا فَمَصَّهُ، حَتَّى امْتَلَأَ جَنْبَاهُ رِيًّا، وَانْطَلَقَ الْبَشِيرُ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، يُبَشِّرُهَا أَنَّ قَدْ وَجَدْنَا لَابْنِكَ طِثْرًا، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ بِهَا وَبِهِ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا يَصْنَعُ بِهَا، قَالَتْ لَهَا: امْكُثِي عِنْدِي، تَرْضِعِينَ ابْنِي هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أَحِبَّ حُبَّهُ شَيْئًا قَطُّ، فَقَالَتْ أُمُّ مُوسَى: لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدَعَ بَيْتِي وَوَلَدِي فَنَضِيعُ، فَإِنْ طَابَتْ نَفْسُكَ أَنْ تُعْطِيَنِيهِ، فَأَذْهَبَ بِهِ إِلَى بَيْتِي، فَيَكُونَ مَعِي، لَا أَلُوهُ خَيْرًا، وَإِلَّا، فَإِنِّي غَيْرُ تَارِكَةٍ بَيْتِي وَوَلَدِي - وَذَكَرَتْ أُمُّ مُوسَى مَا كَانَ اللَّهُ ﷻ وَعَدَهَا، فَتَعَاسَرَتْ عَلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَآيَقَنْتَ أَنَّ اللَّهَ

(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي أَحْلِفُ بِهِ، لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ بِأَنْ يَكُونَ لَهُ قُرَّةُ عَيْنٍ كَمَا أَقَرَّتْ امْرَأَتُهُ، لَهَدَاهُ اللَّهُ بِهِ، كَمَا هَدَى بِهِ امْرَأَتُهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُ ذَلِكَ».

(٢) مرضعًا.

مُنْجِزٌ وَعْدُهُ - فَرَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا بِابْنِهَا، فَأَصْبَحَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ مُجْتَمِعِينَ، يَمْتَنِعُونَ مِنْ السُّخْرَةِ وَالظُّلْمِ مَا كَانَ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَرَعَرَ عَ قَالَتْ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ لِأُمِّ مُوسَى: أُرِيدُ أَنْ تُرِينِي ابْنِي، فَوَعَدْتُهَا يَوْمًا تُرِيهَا إِيَّاهُ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ لِحُزَانِهَا وَقَهَارِمَتِهَا وَظُئُورَتِهَا: لَا يَبْقَيْنَ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا اسْتَقْبَلَ ابْنِي الْيَوْمَ بِهَدِيَّةٍ وَكَرَامَةٍ، لَا أَرَى ذَلِكَ فِيهِ، وَأَنَا بَاعْتُهُ أَمِينًا يُخْصِي كُلَّ مَا يَصْنَعُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ، فَلَمْ تَزَلِ الْهَدَايَا وَالْكَرَامَةُ وَالنَّحْلُ تَسْتَقْبِلُهُ مِنْ حِينَ خَرَجَ مِنْ بَيْتِ أُمِّهِ إِلَى أَنْ أُدْخِلَ عَلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا بَجَلَّتُهُ وَأَكْرَمَتْهُ، وَفَرِحَتْ بِهِ وَأَعْجَبَتْهَا، وَبَجَلَتْ أُمُّهُ بِحُسْنِ أَثَرِهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا تَيْنَ بِهِ فِرْعَوْنَ، فَلْيَبْجَلْنَهُ وَلْيَكْرِمْهُ، فَلَمَّا دَخَلَتْ بِهِ عَلَيْهِ جَعَلَتْهُ فِي حِجْرِهِ، فَتَنَاولَ مُوسَى لَحِيَةَ فِرْعَوْنَ فَمَدَّهَا إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ الْغَوَاةُ أَعْدَاءُ اللَّهِ لِفِرْعَوْنَ: أَلَا تَرَى إِلَى مَا وَعَدَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ نَبِيَّهُ أَنَّهُ يَرْبُكَ وَيَعْلُوكَ وَيَصْرُعُكَ؟، فَأَرْسَلَ إِلَى الذَّبَّاحِينَ لِيَذْبَحُوهُ، فَجَاءَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ تَسْعَى إِلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَتْ: مَا بَدَأَ لَكَ فِي هَذَا الْغُلَامِ الَّذِي وَهَبْتُهُ لِي؟، قَالَ: تَرَيْنَهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَصْرُعُنِي وَيَعْلُونِي، قَالَتْ: اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَمْرًا تَعْرِفُ الْحَقَّ فِيهِ: أَتِ بِجَمْرَتَيْنِ وَلَوْلُوتَيْنِ، فَقَرَّبْنِي إِلَيْهِ، فَإِنْ بَطَشَ بِاللُّؤْلُوتَيْنِ، وَاجْتَنَبَ الْجَمْرَتَيْنِ، عَرَفْتُ أَنَّهُ يَعْقِلُ، وَإِنْ تَنَاولَ الْجَمْرَتَيْنِ، وَلَمْ يَرِدِ اللَّؤْلُوتَيْنِ، عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا لَا يُؤَثِّرُ الْجَمْرَتَيْنِ عَلَى اللَّؤْلُوتَيْنِ وَهُوَ يَعْقِلُ، فَقَرَّبَ ذَلِكَ، فَتَنَاولَ الْجَمْرَتَيْنِ، فَانْتَرَعُوهُمَا مِنْ يَدِهِ مَخَافَةً أَنْ تَحْرِقَاهُ، فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ: أَلَا تَرَى؟، فَصَرَفَهُ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ مَا كَانَ قَدْ هَمَّ بِهِ، وَكَانَ اللَّهُ ﷻ بِالْغَا فِيهِ أَمْرُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ أَشَدَّهُ وَكَانَ مِنَ الرِّجَالِ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَخْلُصُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ بِظُلْمٍ وَلَا سُخْرَةٍ، حَتَّى امْتَنَعُوا كُلُّ الْامْتِنَاعِ، فَبَيْنَمَا مُوسَى فِي نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ، إِذَا هُوَ بِرَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ، أَحَدُهُمَا فِرْعَوْنِي، وَالْآخَرُ إِسْرَائِيلِي، فَاسْتَعَاثَهُ الْإِسْرَائِيلِي عَلَى الْفِرْعَوْنِي، فَغَضِبَ مُوسَى غَضَبًا شَدِيدًا، لِأَنَّهُ تَنَاولَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ مَنْزِلَةَ مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَحَفَظَهُ لَهُمْ، لَا يَعْلَمُ النَّاسُ إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الرِّضَاعِ - إِلَّا أُمُّ مُوسَى - إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَطْلَعَ مُوسَى مِنْ

ذَلِكَ عَلَى مَا لَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، فَوَكَّرَ مُوسَى الْفِرْعَوْنِيَّ فَقَتَلَهُ - وَلَيْسَ يَرَاهُمَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ وَالْإِسْرَائِيلِيُّ - فَقَالَ مُوسَى حِينَ قَتَلَ الرَّجُلَ: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ١٥، ثُمَّ قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ فَعَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ الْأَخْبَارَ، فَأَتَى فِرْعَوْنَ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَتَلُوا رَجُلًا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، فَخُذْ لَنَا حَقًّا وَلَا تُرْخِصْ لَهُمْ، فَقَالَ: ابْغُونِي قَاتِلَهُ وَمَنْ يَشْهَدُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ وَإِنْ كَانَ صَفْوُهُ مَعَ قَوْمٍ، لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ أَنْ يُقِيدَ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا ثَبَتٍ، فَاطْلُبُوا لِي عِلْمَ ذَلِكَ، أَخُذْ لَكُمْ بِحَقِّكُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَطُوفُونَ لَا يَجِدُونَ ثَبَتًا، إِذَا مُوسَى قَدْ رَأَى مِنَ الْغَدِ ذَلِكَ الْإِسْرَائِيلِيَّ يُقَاتِلُ رَجُلًا آخَرَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، فَاسْتَعَاثَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ عَلَى الْفِرْعَوْنِيِّ، فَصَادَفَ مُوسَى قَدْ نَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَكَرِهَ الَّذِي رَأَى لِعُضْبِ الْإِسْرَائِيلِيِّ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْطِشَ بِالْفِرْعَوْنِيِّ، فَقَالَ لِلْإِسْرَائِيلِيِّ - لِمَا فَعَلَ أَمْسَ وَالْيَوْمَ -: ﴿إِنَّكَ لَعَوُّ مُبِينٌ﴾ ١٨ ﴿فَنَظَرَ الْإِسْرَائِيلِيُّ إِلَى مُوسَى حِينَ قَالَ لَهُ مَا قَالَ، فَإِذَا هُوَ غَضْبَانٌ كَغَضْبِهِ بِالْأَمْسِ، فَخَافَ أَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ أَرَادَ وَمَا أَرَادَ الْفِرْعَوْنِيَّ، - وَلَمْ يَكُنْ أَرَادَهُ، إِنَّمَا أَرَادَ الْفِرْعَوْنِيَّ - فَخَافَ الْإِسْرَائِيلِيُّ، فَحَاجَزَ الْفِرْعَوْنِيَّ، وَقَالَ: ﴿يَكُونُ أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ ١٩ وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ مَخَافَةً أَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ أَرَادَ مُوسَى لِيَقْتُلَهُ، وَأَنْطَلَقَ الْفِرْعَوْنِيُّ إِلَى قَوْمِهِ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا سَمِعَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّ مِنَ الْخَبَرِ حِينَ يَقُولُ: ﴿أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ ٢٠، فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ الذَّبَّاحِينَ لِيَقْتُلُوا مُوسَى، فَأَخَذَ رُسُلُ فِرْعَوْنَ الطَّرِيقَ الْأَعْظَمَ يَمْشُونَ عَلَى هَيْئَتِهِمْ يَطْلُبُونَ مُوسَى، وَهُمْ لَا يَخَافُونَ أَنْ يَفُوتَهُمْ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ شِيعَةِ مُوسَى مِنَ أَقْصَى الْمَدِينَةِ، فَاخْتَصَرَ طَرِيقًا قَرِيبًا حَتَّى يَسْبِقَهُمْ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَخَرَجَ مُوسَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَدِينٍ، لَمْ يَلْقَ بَلَاءً قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ لَهُ بِالطَّرِيقِ عِلْمٌ إِلَّا حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ﷻ فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ٢٢، ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ

نَدُّودَانِ ﴿١﴾ حَابِسَتَيْنِ عَنْهُمَا، فَقَالَ لَهُمَا: مَا خَطْبُكُمَا مُعْتَزِلَتَيْنِ لَا تَسْقِيَانِ مَعَ النَّاسِ؟ قَالَتَا: لَيْسَ لَنَا قُوَّةُ نَزَاحِمِ الْقَوْمِ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ فُضُولَ حِيَاضِهِمْ، فَسَقَى لَهُمَا، فَجَعَلَ يَعْرِفُ فِي الدَّلْوِ مَاءً كَثِيرًا، حَتَّى كَانَ أَوَّلَ الرَّعَاءِ فَرَاغًا، فَأَنْصَرَفَتَا بِغَنَمِهِمَا إِلَى أَبِيهِمَا، وَأَنْصَرَفَ مُوسَى فَاسْتَظَلَ بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ﴿٢﴾ (١) فَاسْتَنْكَرَ أَبُوهُمَا (٢) سُرْعَةَ صُدُورِهِمَا بِغَنَمِهِمَا حُقْلًا بَطَانًا، فَقَالَ: إِنَّ لَكُمَا الْيَوْمَ لَشَأْنًا، فَأَخْبَرَتَاهُ بِمَا صَنَعَ مُوسَى، فَأَمَرَ إِحْدَاهُمَا تَدْعُوهُ لَهُ، ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَعْشَى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ ﴿٣﴾ فَدَعَتْهُ ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤﴾ لَيْسَ لِفِرْعَوْنَ وَلَا لِقَوْمِهِ عَلَيْنَا سُلْطَانٌ، وَلَسْنَا فِي مَمْلَكَتِهِ، فَقَالَتْ إِحْدَاهُمَا: ﴿يَتَأَبَّى اسْتِجْرَاءُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾ ﴿٥﴾، فَاحْتَمَلَتْهُ الْغَيْرَةُ عَلَى أَنْ قَالَ: وَمَا يَذْرِيكَ مَا قُوَّتُهُ وَمَا أَمَانَتُهُ؟ قَالَتْ: أَمَّا قُوَّتُهُ، فَمَا رَأَيْتُ مِنْهُ فِي الدَّلْوِ حِينَ سَقَى لَنَا، لَمْ أَرِ رَجُلًا أَقْوَى فِي ذَلِكَ السَّقْيِ مِنْهُ، وَأَمَّا أَمَانَتُهُ، فَإِنَّهُ نَظَرَ إِلَيَّ حِينَ أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ وَشَخَصْتُ لَهُ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنِّي امْرَأَةٌ صَوَّبَ رَأْسَهُ وَلَمْ يَرْفَعْهُ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَيَّ حَتَّى بَلَغَتْهُ رِسَالَتُكَ، ثُمَّ قَالَ: امْشِي خَلْفِي وَانْعَيْ لِي الطَّرِيقَ، فَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا الْأَمْرَ إِلَّا وَهُوَ آمِينَ. فَسَرَّيَ عَنْ أَبِيهَا، فَصَدَّقَهَا وَظَنَّ بِهِ الَّذِي قَالَتْ. فَقَالَ لَهُ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنِكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَقَدْ قَالَ مُوسَى ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ﴿٢﴾ وَهُوَ أَكْرَمُ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، وَلَقَدْ كَانَ افْتَقَرَ إِلَى شِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَقَدْ أَصَابَهُ الْجُوعُ حَتَّى لَزِقَ بَطْنُهُ بِظَهْرِهِ.

(٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هُوَ يَثْرَى، صَاحِبُ مَدِينٍ. وَقِيلَ: إِنَّهُ شَعِيبٌ ﷺ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٣) أَيُّ: مَشْيِ الْحَرَائِرِ، كَأَنَّ الْحَيَاءَ صَارَ فَرَاشًا تَمْشِي عَلَيْهِ. وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾ أَيُّ أَنَّ الْحَيَاءَ كَانَ فِي قَوْلِهَا أَيْضًا كَمَا كَانَ فِي مَشْيِهَا. وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾، قَالَ: «مُسْتَتِرَةٌ بِدِرْعِهَا أَوْ بِكُمِّ قَمِيصِهَا». وَقَالَ: «جَاءَتْ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، فَائِلَةٌ بِثَوْبِهَا عَلَى وَجْهِهَا، لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ (المرأة الجريئة على الرجال) خَرَّاجَةٌ وَلَا جَهَّةٌ».

عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبْجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾ ^(١) فَفَعَلَ، فَكَانَتْ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ مُوسَى ﷺ ثَمَانُ سِنِينَ وَاجِبَةً، وَكَانَتْ سَتَانِ عِدَّةٍ مِنْهُ، فَقَضَى اللَّهُ عَنْهُ عِدَّتَهُ، فَأَتَمَّهَا عَشْرًا، وَقَضَى أَوْفَى الْأَجَلِينَ ^(٢).



- (١) أي: تعمل أجيرًا ترعى لنا الغنم ثمان سنوات، ويكون ذلك مهر الزواج.
- (٢) عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «لَمَّا دَعَا نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى ﷺ صَاحِبَهُ إِلَى الْأَجَلِ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمَا، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: كُلُّ شَاةٍ وَلَدَتْ عَلَى غَيْرِ لَوْنِهَا فَلَكَ وَلَدُهَا، قَالَ: فَعَمَدَ فَوَضَعَ حَبَالًا عَلَى الْمَاءِ، فَلَمَّا رَأَتْ الْجِبَالَ فَرَعَتْ، فَجَالَتْ جَوْلَةً فَوَلَدْنَ كُلُّهُنَّ بَرْقًا إِلَّا شَاةً وَاحِدَةً، فَذَهَبَ بِأَوْلَادِهَا ذَلِكَ الْعَامَ». وهذا يؤيد أن صاحب موسى ليس هو شعيب ﷺ وإلا لصرح به، والله أعلم.
- وَعَنْ عَبْدِ بْنِ حَزْنٍ قَالَ: تَفَاحَرَ أَهْلُ الْإِبِلِ وَأَهْلُ الشَّاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَعَثَ اللَّهُ مُوسَى وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وَبَعَثَ دَاوُدَ وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وَبَعَثْتُ أَنَا وَأَنَا أَرَعَى غَنَمًا لِأَهْلِي بِأَجْيَادٍ»

بعثة موسى بن عمران

وَكَانَ مُوسَى قَدْ اشْتَاقَ إِلَى بِلَادِهِ وَأَهْلِهِ، فَعَزَمَ عَلَى زِيَارَتِهِمْ فِي خَفِيَّةٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، فَتَحَمَّلَ بِأَهْلِهِ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْغَنَمِ الَّتِي وَهَبَهَا لَهُ صِهْرُهُ، فَسَلَكَ بِهِمْ فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ مُظْلِمَةٍ بَارِدَةٍ، فَنَزَلَ مَنْزِلًا فَجَعَلَ كُلُّمَا أَوْرَى زَنْدَهُ لَا يُضِيءُ شَيْئًا، فَتَعَجَّبَ مِنْ ذَلِكَ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ ﴿١﴾ «لَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا» رَأَاهَا تُضِيءُ لَهُ عَلَى بُعْدٍ، فَأَخْبَرَ أَهْلَهُ بِذَلِكَ وَقَالَ لَهُمْ: ﴿٢﴾ «أَمْكُثُوا إِنِّي أَنَا نَارًا» حَتَّى أَذْهَبَ إِلَيْهَا، ﴿٣﴾ «لَعَلِّي أَتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ» يَدُلُّنَا عَلَى الطَّرِيقِ ﴿٤﴾ «أَوْ جَذَوْقٍ مِّنَ النَّارِ» أَيُّ: قِطْعَةٍ مِنْهَا، ﴿٥﴾ «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» ﴿٦﴾ أَيُّ: تَتَدَفَّؤُونَ بِهَا مِنَ الْبَرْدِ. ﴿٧﴾ «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ» أَيُّ: مِنْ جَانِبِ الْوَادِي مِمَّا يَلِي الْجَبَلَ عَنْ يَمِينِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ، لِأَنَّ مُوسَى قَصَدَ النَّارَ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ، وَالْجَبَلُ الْغَرْبِيُّ عَنْ يَمِينِهِ، وَالنَّارُ وَجَدَهَا تَضْطَرِّمُ فِي شَجَرَةٍ خَضِرَاءَ فِي أَصْلِ الْجَبَلِ مِمَّا يَلِي الْوَادِي، فَوَقَفَ بَاهِتًا فِي أَمْرِهَا، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: ﴿٨﴾ «مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ» ﴿٩﴾ «أَنْ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» ﴿١٠﴾ أَيُّ: الَّذِي يُخَاطِبُكَ وَيُكَلِّمُكَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ مِمَّا ثَلَّةِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ!

وأمره بخلع نعليه^(١)، وَقَالَ لَهُ: ﴿١١﴾ «وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّىٰ» ﴿١٢﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ

(١) قِيلَ: إِنَّمَا أَمَرَهُ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ تَعْظِيمًا لِلْبُقْعَةِ. كَمَا يُؤْمَرُ الرَّجُلُ أَنْ يَخْلَعَ نَعْلَيْهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْكَعْبَةَ. وَقِيلَ: لِيَطَأَ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ بِقَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ مُتَّعِلٍ؛ فَيُنَالُ مِنْ بَرَكَتِهَا. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهْشُوا بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ فَأَمْرُهُ يَقُولُهُ: ﴿أَلَيْ عَصَاكَ﴾ الَّتِي فِي يَدِكَ وَتَعْرِفُهَا جَيْدًا. ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿١٩﴾﴾ فَعَرَفَنَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ الَّذِي يُخَاطِبُهُ وَيُكَلِّمُهُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ، فَيَكُونُ.

﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾ وَتَضْطَرِبُ ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ فِي حَرَكَتِهَا السَّرِيعَةِ مَعَ عِظَمِ خَلْقِ قَوَائِمِهَا وَاتِّسَاعِ فَمِهَا، وَاصْطِكَاكِ أُنْيَابِهَا وَأَضْرَاسِهَا، بِحَيْثُ لَا تَمُرُّ بِصَخْرَةٍ إِلَّا ابْتَلَعَتْهَا، فَتَنَحْدِرُ فِيهَا تَتَقَعَّقُ، كَأَنَّهَا حَادِرَةٌ فِي وَادٍ. فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ وَلَمْ يَلْتَفِتْ؛ لِأَنَّ طَبَعَ الْبَشَرِيَّةِ يَنْفَرُ مِنْ ذَلِكَ. فَلَمَّا قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿يَكْمُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمْنِينَ ﴿٢٠﴾﴾، رَجَعَ فَوَقَّفَ فِي مَقَامِهِ الْأَوَّلِ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿أَسَلُّكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أَيُّ: إِذَا أَدَخَلْتَ يَدَكَ فِي جَيْبِ دِرْعِكَ (ثوبك) ثُمَّ أَخْرَجْتَهَا فَإِنَّهَا تَخْرُجُ تَلَالُأً كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ قَمَرٍ فِي لَمْعَانِ الْبَرْقِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أَيُّ: مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ.

وَأَمَرَ ﷻ، إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ جَنَاحَهُ مِنَ الرَّهْبِ، وَهِيَ يَدُهُ، فَيَضَعُهَا عَلَى صَدْرِهِ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْخَوْفِ ^(١).

وَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي: الْقَاءُ الْعَصَا وَجَعْلُهَا حَيَّةً تَسْعَى، وَإِدْخَالُهُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ فَتَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ؛ هُمَا دَلِيلَانِ قَاطِعَانِ وَاضِحَانِ عَلَى قُدْرَةِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، وَصِحَّةِ بُنْيَانِهِ مِنْ جَوَى هَذَا الْخَارِقِ عَلَى يَدَيْهِ؛ وَصِحَّةِ رِسَالَتِهِ ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ وَهُمْ قَوْمُهُ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْكَبَرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، مُخَالِفِينَ لِدِينِ اللَّهِ.

فَشَكَاَ إِلَى رَبِّهِ ﷻ مَا يَتَخَوَّفُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْقَتْلِ، وَعَقْدِ لِسَانِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي

(١) وَرَبَّمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ أَحَدٌ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِفْتِدَاءِ فَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى فُؤَادِهِ، فَإِنَّهُ يُزُولُ عَنْهُ مَا يَجِدُ أَوْ يَخَفُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَبِهِ الثَّقَةُ.

لِسَانِهِ عُقْدَةً تَمْنَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ^(١)، وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُعِينَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ، يَكُونُ لَهُ رِدْءًا وَيَتَكَلَّمُ عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لَا يُفْصَحُ بِهِ لِسَانُهُ، فَآتَاهُ اللَّهُ سُؤْلَهُ^(٢)، وَحَلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَارُونَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْقَاهُ، فَاذْدَفَعَ مُوسَى بِعَصَاهُ حَتَّى لَقِيَ هَارُونَ، فَاذْطَلَقَا جَمِيعًا إِلَى فِرْعَوْنَ، فَأَقَامَا عَلَى بَابِهِ حِينًا لَا يُؤْذَنُ لَهُمَا، ثُمَّ أَذِنَ لَهُمَا بَعْدَ حِجَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالَا: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ قَالَ: فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى؟، فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: فَمَا تُرِيدُ؟ - وَذَكَرَهُ الْقَتِيلَ - فَاذْتَدَرَّ بِمَا ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ، وَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَتُرْسَلَ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَبَى عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَقَالَ: ائْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ فَاعْرَءَهَا، مُسْرِعَةً إِلَى فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا رَأَاهَا فِرْعَوْنَ قَاصِدَةً إِلَيْهِ خَافَهَا، فَاقْتَحَمَ عَنْ سَرِيرِهِ، وَاسْتَعَاثَ بِمُوسَى أَنْ يَكْفُمَهَا عَنْهُ، فَفَعَلَ، ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ جَيْبِهِ، فَرَأَاهَا بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ - يَعْنِي مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ - ثُمَّ رَدَّهَا فَعَادَتْ إِلَى لَوْنِهَا الْأَوَّلِ، فَاسْتَشَارَ فِرْعَوْنَ الْمَلَأَ حَوْلَهُ فِيمَا رَأَى، فَقَالُوا لَهُ: ﴿إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾^(٣) يَعْنِي مُلْكُهُمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ، وَالْعَيْشَ، فَأَبَوْا أَنْ يُعْطَوْهُ شَيْئًا مِمَّا طَلَبَ، وَقَالُوا لَهُ: اجْمَعْ لَنَا السَّحَرَةَ، فَإِنَّهُمْ بِأَرْضِكَ كَثِيرٌ، حَتَّى يَغْلِبَ سِحْرُهُمْ سِحْرَهُمَا، فَأَرْسَلَ فِي الْمَدِينَةِ فَحْشَرَ لَهُ كُلَّ سَاحِرٍ مُتَعَالِمٍ، فَلَمَّا أَتَوْا فِرْعَوْنَ قَالُوا: بِمَ يَعْمَلُ هَذَا السَّاحِرُ؟، قَالُوا: يَعْمَلُ بِالْحَيَاتِ، قَالُوا: فَلَا وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ فِي الْأَرْضِ يَعْمَلُ السَّحَرَ بِالْحَيَاتِ وَالْعِصِيِّ الَّذِي نَعْمَلُ، فَمَا أَجْرُنَا إِنْ نَحْنُ غَلَبْنَا؟، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّكُمْ

(١) قِيلَ أَنَّ مُوسَى، ﷺ، كَانَ فِي لِسَانِهِ لُغَةٌ فِي طِفْلُوته بِسَبَبِ تَنَاوُلِهِ تِلْكَ الْجَمْرَةَ، حِينَ خَيْرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّمْرَةِ أَوْ الدَّرَّةِ (اللُّوْلُؤَةِ)، فَأَخَذَ الْجَمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ، فَحَصَلَ فِيهِ شِدَّةٌ فِي التَّغْيِيرِ.
(٢) قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ مِنْهُ عَلَى أَخِيهِ، مِنْ مُوسَى عَلَى هَارُونَ، ﷺ، فَإِنَّهُ شَفَعَ فِيهِ حَتَّى جَعَلَهُ اللَّهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا مَعَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّ مُوسَى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾^(٣).

أَقَارِبِي وَخَاصَّتِي، فَأَنَا صَانِعُ إِلَيْكُمْ كُلِّ مَا أَحْبَبْتُمْ، فَتَوَاعَدُوا يَوْمَ الزَّيْنَةِ^(١)، وَأَنْ يُحْشَرَ
النَّاسُ ضُحَى فَلَمَّا اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ، قَالَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْطَلِقُوا فَلْنَحْضُرَ
هَذَا الْأَمْرَ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾^(٢) يَعْنُونَ مُوسَى وَهَارُونَ، اسْتَهْزَأَ
بِهِمَا، فَقَالُوا: يَا مُوسَى ﴿إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾^(٣) ﴿قَالَ بَلْ
أَلْقُوا﴾^(٤) ﴿فَالْقُوا جِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾^(٥) ﴿فَلَمَّا
أَلْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْثَرَهُوهُمْ وَجَاءَ بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾^(٦) ﴿فَإِذَا جِبَالُهُمْ
وَعَصِيَّهُمْ يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾^(٧) ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾^(٨)
أَيُّ؛ خَافَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَفْتِنُوا بِسِحْرِهِمْ وَمِحَالِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَ مَا فِي يَدِهِ، فَإِنَّهُ لَا
يَضَعُ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾^(٩)
وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾^(١٠) فَعِنْدَ
ذَلِكَ أَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ وَقَالَ: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُطْلِعُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ
الْمُفْسِدِينَ﴾^(١١) وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾^(١٢)، فَلَمَّا أَلْقَاهَا صَارَتْ
حَيَّةً عَظِيمَةً ذَاتَ قَوَائِمٍ - فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ - وَعُنُقٍ عَظِيمٍ،
وَشَكْلٍ هَائِلٍ مُزْعَجٍ، بِحَيْثُ إِنَّ النَّاسَ انْحَاذُوا مِنْهَا، وَهَرَبُوا سِرَاعًا، وَتَأَخَّرُوا عَنْ
مَكَانِهَا وَأَقْبَلَتْ هِيَ عَلَى مَا أَلْقَوْهُ مِنَ الْجِبَالِ وَالْعِصِيِّ، فَجَعَلَتْ تَلَقَّفُهُ وَاحِدًا وَاحِدًا،
فِي أَسْرَعِ مَا يَكُونُ مِنَ الْحَرَكَةِ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا، وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا. وَأَمَّا السَّحَرَةُ
فَإِنَّهُمْ رَأَوْا مَا هَالَهُمْ وَخَيَّرَهُمْ فِي أَمْرِهِمْ، وَأَطْلَعُوا عَلَى أَمْرِ لَمْ يَكُنْ فِي خَلْدِهِمْ وَلَا
بَالِهِمْ، وَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ صِنَاعَاتِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ، فَجَعَلَتِ الْعِصْيُ بِدَعْوَةِ مُوسَى تَلْبَسُ

(١) يوم العيد. وعن ابن عباس أنه: يَوْمُ عَاشُورَاءَ.

(٢) قيل: إن السحرة كانوا قد عمدوا إلى جبال وعصي فأودعوها الزُّبْقَ وَغَيْرِهِ لَتَضْطَرِبَ بِسَبَبِهَا
تِلْكَ الْجِبَالُ وَالْعِصْيُ اضْطِرَابًا يَخِيلُ لِلرَّائِي أَنَّهَا تَسْعَى بِاخْتِيَارِهَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ سَحَرُوا أَعْيُنَ
النَّاسِ وَأَسْثَرَهُوهُمْ، وَالْقُوا جِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾.

بِالْحِبَالِ، حَتَّى صَارَتْ جُرْزًا (قِطْعًا) إِلَى الثُّعْبَانِ تَدْخُلُ فِيهِ، حَتَّى مَا أَبْقَتْ عَصًا وَلَا حَبْلًا إِلَّا ابْتَلَعَتْهُ، فَلَمَّا عَرَفَ السَّحَرَةُ ذَلِكَ قَالُوا: لَوْ كَانَ هَذَا سِحْرًا لَمْ يَبْلُغْ مِنْ سِحْرِنَا هَذَا، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﷻ، آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى، وَتَتُوبُ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِمَّا كُنَّا عَلَيْهِ، وَكَسَرَ اللَّهُ ظَهَرَ فِرْعَوْنَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ وَأَشْيَاعِهِ، وَأَظْهَرَ الْحَقَّ ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١٨﴾ فَغَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَمْرًا فِرْعَوْنَ بَارِزَةً مُتَبَدِّلَةً تَدْعُو اللَّهَ بِالنَّصْرِ لِمُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَمَنْ رَأَاهَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، ظَنَّ أَنَّهَا ابْتَدَلَتْ لِلشَّفَقَةِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ حُزْنُهَا وَهَمُّهَا لِمُوسَى.



تكذيب فرعون وقومه بالآيات المعجزات

و طَالَ مُكُثُّ مُوسَى لِمَوَاعِيدِ فِرْعَوْنَ الْكَاذِبَةِ، كُلَّمَا جَاءَهُ بَايَةٌ وَعَدَهُ عِنْدَهَا أَنْ يُرْسَلَ
معه بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا مَضَتْ أَخْلَفَ مَوَاعِيدَهُ وَقَالَ: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَصْنَعَ غَيْرَ
هَذَا؟، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ ﴿الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ
ءَآيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ فابتلاهم بنقص الثمرات بأن تمنع الأرض خيرها، وبالطوفان
الذي يتلف المزراع ويهدم المدن والقرى، وبالجراد الذي لا يدع خضراء ولا يابسة،
وبالقمل، وهي حشرة تؤذي الناس في أجسادهم، وبالضفادع التي نغصت عليهم
عيشتهم لكثرتها، وبالدم الذي يصيب طعامهم وشرابهم. كُلُّ ذَلِكَ يَشْكُو إِلَى مُوسَى،
وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَكْفِهَا عَنْهُ، وَيُؤَافِقُهُ وَيَعِدُّهُ أَنْ يُرْسَلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا كَفَّ ذَلِكَ
عَنْهُ، أَخْلَفَ مَوْعِدَهُ، وَنَكَثَ عَهْدَهُ. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ أَوْتَدَ لِمَرَأَتِهِ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ فِي يَدَيْهَا
وَرِجْلَيْهَا، فَكَانَ إِذَا تَفَرَّقُوا عَنْهَا ظَلَّلَتْهَا الْمَلَائِكَةُ، فَقَالَتْ: ﴿رَبِّ أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا
فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١١﴾ فَكَشَفَ لَهَا عَنْ
بَيْتِهَا فِي الْجَنَّةِ.

وَتَمَادَى قَبْطُ مِصْرَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ، مُتَابِعَةً لِمَلِكِهِمْ فِرْعَوْنَ، وَلَمْ
يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، قِيلَ: هُمُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، الَّذِي سَتَأْتِي حِكَايَةُ
مَوْعِظَتِهِ وَمَشُورَتِهِ وَحُجَّتِهِ عَلَيْهِمْ، وَالرَّجُلُ النَّاصِحُ الَّذِي جَاءَ يَسْعَى مِنْ أَقْصَى
الْمَدِينَةِ، وَالسَّحَرَةُ.

وأوحى الله إلى موسى وأخيه هارون ﴿﴾ أن يختارا واتَّخِذا الْقَوْمَ مَكَمَا فِي «مِصْرَ»
بيوتاً لعبادة الله وحده، تكون مساكن وملاجئ تعتصمون بها، واجعلوا بيوتكم أماكن

تصلُّون فيها عند الخوف، وصيِّروا بيوتكم متجهة إلى جهة القبلة (بيت المقدس)،
وائتوا بالصلاة كاملة في أوقاتها، وأن يبشِّرَ موسى - المؤمنين بما يسرهم من نصر الله
وتأييدهم، وإهلاك عدوهم، واستخلافهم في الأرض.



نصيحة مؤمن آل فرعون

وقال فرعون لجلسائه: اتركوني أقتل موسى عقاباً له، وليدع ربه أن يمنعه مني، إني أخاف أن يغيّر دينكم الذي أنتم عليه، أو أن يظهر في الأرض الفساد بالقتل والتخريب. وقال موسى ﷺ: لَمَّا علم بتهديد فرعون له: إني التجأت واعتصمت بربي وربكم من كل متكبر عن الحق والإيمان به، لا يؤمن بيوم القيامة، وما فيه من حساب وعقاب. وقال رجل مؤمن بالله من آل فرعون يكتُم إيمانه عن قومه منكرًا عليهم عزمهم على قتل موسى: أقتلوا رجلاً دون جرم، غير أنه قال: ربي الله، وقد جاءكم بالحجج والبراهين الدالة على صدقه في دعواه أنه مرسل من ربه؟! وإن قُدِّرَ أنه كاذب فضرر كذبه عائد عليه، وإن يكن صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم به من العذاب عاجلاً، إن الله لا يوفق للحق من هو متجاوز لحدوده، مفتر عليه وعلى رسله.

يا قوم، لكم الملك اليوم غالبين في أرض مصر، فمن ينصرنا من عذاب الله إن جاءنا بسبب قتل موسى؟! قال فرعون: الرأي رأيي والحكم حكمي، وقد رأيت أن أقتل موسى؛ دفعاً للشر والفساد، وما أرشدكم إلا الصواب والسداد.

وقال الذي آمن ناصحاً قومه: إني أخاف عليكم - إن قتلتم موسى ظلماً وعدواناً - عذاباً مثل عذاب الأحزاب الذين تحزّبوا على رسلهم من السابقين فأهلكهم الله. مثل قوم نوح وعاد وثمود والذين جاؤوا من بعدهم، فقد أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم لرسله، وما الله يريد ظلماً للعباد، وإنما يعذبهم بذنوبهم؛ جزاءً وفاقاً. ويا قوم، إني أخاف عليكم يوم القيامة، ذلك اليوم الذي ينادي فيه الناس بعضهم بعضاً بسبب قرابة أو جاه ظناً منهم أن هذا المسلك ينفعهم في هذا الموقف الرهيب. يوم تولون

هاربين خوفاً من النار، ما لكم من مانع يمنعكم من عذاب الله، ومن يخذله الله ولا يوفقه للإيمان فما له من هادٍ يهديه؛ لأن هداية التوفيق بيد الله وحده.

ولقد جاءكم يوسف من قبل موسى بالبراهين الواضحة على توحيد الله، فما زلتم في شك وتكذيب لما جاءكم به، حتى إذا توفيّ ازددتم شكاً وارتياباً، وقلتم: لن يبعث الله من بعده رسولاً. مثل ضلالكم هذا عن الحق يُضِلُّ الله كل من هو متجاوز لحدود الله، شكٌّ في وحدانيته.

وقال فرعون لوزير هامان: يا هامان، ابن لي بناءً عالياً؛ رجاء أن أبلغ طرق السماوات الموصلة إليها، فأُنظر إلى معبود موسى الذي يزعم أنه المعبود بحق، وإني لأظنُّ أن موسى كاذب فيما يدّعيه. وقال الرجل الذي آمن من آل فرعون ناصحاً قومه ومرشداً إياهم إلى طريق الحق: يا قوم، اتبعوني أدلكم وأرشدكم إلى طريق الصواب، والهداية إلى الحق. يا قوم، إنما هذه الحياة الدنيا تمتع بملذات منقطعة، فلا تغرّنكم بما فيها من متاع زائل، وإن الدار الآخرة بما فيها من نعيم دائم لا ينقطع هي دار الاستقرار والإقامة، فاعملوا لها بطاعة الله، واحذروا من الانشغال بحياتكم الدنيا عن العمل للآخرة.

فرفضوا نصحه، فقال: ستذكرون ما قدمت لكم من نصح، وتتحسّرون على عدم قبوله، وأفوض أموري كلها إلى الله وحده، إن الله لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء. فحفظه الله من سوء مكرهم حين أرادوا قتله.



إصرار فرعون على استئصال المؤمنين

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَتَحَقَّقُ وَيَعْلَمُ فِي بَاطِنِهِ وَفِي نَفْسِهِ أَنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا مَحَالَةَ، وَإِنَّمَا كَانَ يُظْهِرُ خِلَافَهُ بَغْيًا وَعُدْوَانًا، وَعُتُوا وَكُفَرَانًا. وقد قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرَعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ ١٢٢. أي: هالكا.

وعزم فرعون على ألا يبقى موسى ومن آمن معه في أرض مصر إما بنفيهم أو قتلهم ليتمكن من استعباد الباقين. فدعا موسى عليه، وقال في دعائه: ربنا إنك أعطيت فرعون والأشراف من قومه من زخرف الدنيا وبهارجها زينة، وأعطيتهم أموالاً في هذه الحياة الدنيا، فلم يشكروك على ما أعطيتهم، بل استعانوا بها على الإضلال عن سبيلك، ربنا أمحُ أموالهم وامحَقها، واجعل قلوبهم قاسية، فلا يؤمنون إلا حين يشاهدون العذاب الموجه حين لا ينفعهم إيمانهم. وأمن هارون على دعائه.

قال الله: قد أجبتُ دعاءكما - يا موسى وهارون - على فرعون وأشراف قومه، فاثبتا على دينكما، ولا تنحرفا عنه إلى اتباع سبيل الجاهل الذين لا يعلمون طريق الحق.

وَأَمَرَ اللَّهُ مُوسَى بِالْخُرُوجِ بِقَوْمِهِ مِنْ مِصْرَ لَيْلًا، فلما كانت ليلة يوم عاشوراء، وكان يوم عيد في مصر وهو يوم الزينة، وكان بعض قوم موسى قد استعار من قوم فرعون الأقباط ذهباً للترزين به يوم العيد، فخرَجَ موسى بقومه لَيْلًا دون أن يشعر فرعون وقومه مع انشغالهم بالعيد، وحمل قوم موسى ما استطاعوا حمله من أموالهم ومتاعهم وأسرعوا بالخروج في الظلام.

خروج موسى ببني إسرائيل من مصر

وَإِنَّ مُوسَى لَمَّا سَارَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟، فَقَالَ
عُلَمَاؤُهُمْ: إِنَّ يُونُسَ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْتًا مِنَ اللَّهِ أَنْ لَا نَخْرُجَ مِنْ
مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ عِظَامَهُ^(١) مَعَنَا، قَالَ: فَمَنْ يَعْلَمُ مَوْضِعَ قَبْرِهِ؟، قَالُوا: عَجُوزٌ مِنْ
بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا، فَاتَتْهُ، فَقَالَ: دُلِّينِي عَلَى قَبْرِ يُونُسَ، قَالَتْ: حَتَّى تُعْطِيَنِي
حُكْمِي، قَالَ: مَا حُكْمُكَ؟ قَالَتْ: أَكُونُ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَكَرِهَ أَنْ يُعْطِيَهَا ذَلِكَ، فَأَوْحَى
اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ أَعْطِيَهَا حُكْمَهَا فَانْطَلَقَتْ بِهِمْ إِلَى بُحَيْرَةٍ - مَوْضِعِ مُسْتَنْقَعِ مَاءٍ - فَقَالَتْ:
أَنْضِبُوا هَذَا الْمَاءَ، فَأَنْضَبُوهُ، قَالَتْ: احْتَفِرُوا، فَاحْتَفَرُوا، فَاسْتَخْرِجُوا عِظَامَ^(٢) يُونُسَ،
فَلَمَّا أَقْلَوْهَا إِلَى الْأَرْضِ، إِذَا الطَّرِيقُ مِثْلُ ضَوْءِ النَّهَارِ.



(١) يعني: جسده وبدنه.

(٢) أي: جسده. وكانوا يطلقون «العظام» ويريدون البدن كله، كما في حديث ابن عمر: أن النبي ﷺ لما بدن قال له تميم الداري: ألا أتخذ لك منبراً يا رسول الله يجمع أو يحمل عظامك؟، قال: بلى. فاتخذ له منبراً مرقأتين.

هلاك فرعون وجنده

فَلَمَّا أَصْبَحَ فِرْعَوْنُ وَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ مَضَوْا، أَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَتَّبِعُهُمْ بَـجُنُودٍ عَظِيمَةٍ كَثِيرَةٍ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْبَحْرِ: أَنْ إِذَا ضَرَبَكَ عَبْدِي مُوسَى بِعَصَاهُ، فَأَنْفِرْ أَتْنِي عَشْرَ فِرْقًا، حَتَّى يَجُوزَ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ التَّقِ عَلَى مَنْ بَقِيَ بَعْدَهُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ﴾ وَتَقَارَبَا، قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ ١١. فَقَالَ مُوسَى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ١٢ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى ﴿أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فَضْرَبَ مُوسَى الْبَحْرَ بِعَصَاهُ حِينَ دَنَا أَوَائِلُ جُنْدِ فِرْعَوْنَ مِنْ أَوَاخِرِ جُنْدِ مُوسَى، فَأَنْفَرَ الْبَحْرُ كَمَا أَمَرَهُ رَبُّهُ، فَلَمَّا أَنْ جَاوَزَ مُوسَى وَأَصْحَابُهُ كُلُّهُمْ؛ أَرَادَ مُوسَى أَنْ يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ الْبَحْرَ حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ، لِيَصِيرَ حَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ، فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ. فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكَهُ عَلَى حَالِهِ سَاكِنًا ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرُ رَهْوًا﴾ ١٣ وَبَشَّرَهُ بِأَنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ فِيهِ، وَأَنَّهُ لَا يَخَافُ دَرَكًا وَلَا يَخْشَى. فَلَمَّا دَخَلَ فِرْعَوْنُ وَأَصْحَابُهُ التَّقَى الْبَحْرَ عَلَيْهِمْ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ. وَلَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ١٤ وَكَانَ جَبْرِيلُ يَأْخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَيَدُسُّهُ فِيهِ، مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ.



بنو إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون

فَلَمَّا أَنْ جَاوَزَ مُوسَى وَقَوْمُهُ الْبَحْرَ قَالَ قَوْمُهُ: إِنَّا نَخَافُ أَنْ لَا يَكُونَ فِرْعَوْنُ غَرِقَ،
فَلَا نُؤْمِنُ بِهَلَاكِهِ، فَدَعَا رَبَّهُ فَأَخْرَجَهُ لَهُ يَبْدَنِهِ، حَتَّى اسْتَيْقَنُوا بِهَلَاكِهِ. ثُمَّ ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ
قَوْمٍ يَعْكُومُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ قَدْ
رَأَيْتُمْ مِنَ الْعِبَرِ، وَسَمِعْتُمْ مَا يَكْفِيكُمْ.



ذهاب موسى لميقات ربه

وَمَضَى مُوسَى فَأَنْزَلَهُمْ مَنْزِلًا، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَطِيعُوا هَارُونَ، فَإِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُكُمْ، وَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي لِمُنَاجَاتِهِ، وَأَجْلَهُمْ ثَلَاثِينَ يَوْمًا أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ. فَلَمَّا أَتَى رَبَّهُ، أَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَهُ فِي ثَلَاثِينَ، وَقَدْ صَامَهُنَّ، لَيْلَهُنَّ وَنَهَارَهُنَّ، كَرِهَ أَنْ يُكَلِّمَ رَبَّهُ وَيَخْرُجَ مِنْ فِيهِ رِيحَ فَمِ الصَّائِمِ، فَتَنَاوَلَ مُوسَى شَيْئًا مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ فَمَضَغَهُ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ حِينَ آتَاهُ: أَفْطَرْتُ؟ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِالَّذِي كَانَ - قَالَ: رَبِّ كَرِهْتُ أَنْ أَكَلِّمَكَ إِلَّا وَفِي طَيْبِ الرِّيحِ، قَالَ: أَوْ مَا عَلِمْتَ يَا مُوسَى أَنَّ رِيحَ فَمِ الصَّائِمِ أَطِيبُ عِنْدِي مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ؟، ارْجِعْ حَتَّى تَصُومَ عَشْرًا، ثُمَّ أَتِنِي، فَفَعَلَ مُوسَى مَا أَمَرَ بِهِ.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَمَرَ بِالْمَجِيءِ فِيهِ، ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، إِلَّا أَنَّهُ أَسْمَعَهُ الْخِطَابَ، فَنَادَاهُ وَنَاجَاهُ، وَقَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ^(١)، فَلَمَّا أُعْطِيَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ الْعُلْيَا وَالْمَرْتَبَةَ السَّنِيَّةَ، وَسَمِعَ الْخِطَابَ، سَأَلَ رَفَعَ الْحِجَابَ، فَقَالَ لِلْعَظِيمِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ: ﴿رَبِّ ارْزُقْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، قَالَ: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى لِمُوسَى أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَثْبُتَ عِنْدَ تَجَلِّيهِ ﷻ؛ لِأَنَّ الْجَبَلَ الَّذِي هُوَ أَقْوَى وَأَكْبَرُ ذَاتًا، وَأَشَدُّ ثَبَاتًا مِنَ الْإِنْسَانِ، لَا يَثْبُتُ عِنْدَ التَّجَلِّي مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ فَإِنَّهُ أَكْبَرُ مِنْكَ وَأَشَدُّ خَلْقًا، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ فَنَظَرَ إِلَى الْجَبَلِ لَا يَتِمَالِكُ، وَأَقْبَلَ الْجَبَلَ فَذُكَّ عَلَى أَوَّلِهِ، وَرَأَى مُوسَى مَا يَصْنَعُ الْجَبَلُ، فَخَرَّ صَعِقًا مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ قَالَ: سُبْحَانَكَ، تَنْزِيَهُ وَعَظِيمُ

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَحْيًا﴾ ﷻ قَالَ: «سَمِعَ صَرِيْفَ الْقَلَمِ حِينَ كَتَبَ فِي اللُّوحِ».

وَإِجْلَالُ اللَّهِ أَنْ يَرَاهُ بِعَظَمَتِهِ أَحَدٌ، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ فَلَسْتُ أَسْأَلُ بَعْدَ هَذَا الرُّؤْيَى، ﴿وَأَنَا
أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤٣﴾ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ حَيًّا إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَابِسُ إِلَّا تَدَهَدَه. ذَاكَ نُورُهُ الَّذِي
هُوَ نُورُهُ إِذَا تَجَلَّى لِشَيْءٍ لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَقَتْ سُبُحَاتُ
وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».



إنزال الله التوراة على موسى

وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ لَيْسَتْ لِيَالٍ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَمَا أَهْلَكَ اللَّهُ قَوْمًا، وَلَا قَرْنًا، وَلَا أُمَّةً، وَلَا أَهْلَ قَرْيَةٍ بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ مُنْذُ أُنْزِلَ التَّوْرَةُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، غَيْرَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي مُسِخَتْ قِرْدَةً، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَالَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾، فبعد نزول التوراة لم يهلك الله مكذبي الأمم بعذاب من السماء يعمهم، وإنما جاء في التوراة أمر المؤمنين بجهاد الكفار؛ كما أمر بني إسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة.

وجاء في التوراة نصوص كثيرة تبين أن الله واحد أحد، منزّه عن الصاحبة والولد، حي لا يموت، قادر يفعل ما يشاء، ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته، وأن عبادة غير الله حرام، وصرحت التوراة بوجوب قتل من دعا إلى عبادة غير الله ولو كان هذا الداعي نبياً ذا معجزات عظيمة، وكذلك صرحت بوجوب رجم كل من عبد غير الله أو رغب في عبادة غير الله، وفيها التنزيه لله تعالى وأنه ليس له شبيه، وأن رؤية الله ممتنعة في الدنيا.

وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرءُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَمِمَّا جَاءَ فِيهَا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾، وَفِيهَا: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، وَفِيهَا: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ ﴿١٨﴾، وَفِيهَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾، وَفِيهَا صِفَةُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَحِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمَتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ، حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ، بَأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا»، وفيها من صفته أيضًا: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْجَبَّاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، وفيها صفة أصحاب محمد ﷺ: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.



قصة السامري والعجل

وَلَمَّا رَأَى قَوْمُ مُوسَى أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ لِلْأَجَلِ، سَاءَهُمْ ذَلِكَ. وَكَانَ هَارُونُ قَدْ خَطَبَهُمْ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ خَرَجْتُمْ مِنْ مِصْرَ، وَلِقَوْتُمْ فِرْعَوْنَ عَوَارٍ وَوَدَائِعٍ، وَلَكُمْ فِيهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ، وَأَنَا أَرَى أَنَّ تَحْتَسِبُوا مَا لَكُمْ عِنْدَهُمْ، وَلَا أُحِلُّ لَكُمْ وَدِيعَةً وَلَا عَارِيَةً، وَلَسْنَا بِرَادِّينَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَا مُمَسِّكِيهِ لَأَنْفُسِنَا، فَحَفَرَ حَفِيرًا، وَأَمَرَ كُلَّ قَوْمٍ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ حِلْيَةٍ أَنْ يَقْدِفُوهُ فِي ذَلِكَ الْحَفِيرِ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهِ النَّارَ فَأَحْرَقَهُ، فَقَالَ: لَا يَكُونُ لَنَا وَلَا لَهُمْ. وَكَانَ السَّامِرِيُّ رَجُلًا مِنْ قَوْمٍ يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ، حِيرَانٍ لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَاحْتَمَلَ مَعَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ احْتَمَلُوا، فَقَضَى لَهُ أَنْ رَأَى أَثَرًا، فَأَخَذَ مِنْهُ قَبْضَةً، فَمَرَّ بِهَارُونُ، فَقَالَ لَهُ هَارُونُ: يَا سَامِرِيُّ، أَلَا تُلْقِي مَا فِي يَدِكَ؟ - وَهُوَ قَابِضٌ عَلَيْهِ، لَا يَرَاهُ أَحَدٌ طَوَالَ ذَلِكَ - قَالَ: هَذِهِ قَبْضَةٌ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ الَّذِي جَاوَزَ بِكُمْ الْبَحْرَ، فَلَا أُلْقِيهَا بِشَيْءٍ، إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ إِذَا أَلْقَيْتَهَا أَنْ يَكُونَ مَا أُرِيدُ، فَأَلْقَاهَا، وَدَعَا لَهُ هَارُونُ، وَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ عِجْلًا، فَاجْتَمَعَ مَا كَانَ فِي الْحُفَرِ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ حِلْيَةٍ أَوْ نُحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ، فَصَارَ عِجْلًا أَجْوَفَ، لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ، وَلَهُ خُورٌ. وَمَا كَانَ لَهُ صَوْتُ قَطُّ؛ إِنَّمَا كَانَتِ الرِّيحُ تَدْخُلُ مِنْ دُبُرِهِ، وَتَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، وَكَانَ ذَلِكَ الصَّوْتُ مِنْ ذَلِكَ. فَتَفَرَّقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِرْقًا، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: يَا سَامِرِيُّ، مَا هَذَا؟، فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ؟، قَالَ: هَذَا رَبُّكُمْ، وَلَكِنَّ مُوسَى أَضَلَّ الطَّرِيقَ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: لَا نُكْذِبُ بِهَذَا حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى، فَإِنْ كَانَ رَبَّنَا؛ لَمْ نَكُنْ ضَيَّعْنَاهُ وَعَجَزْنَا فِيهِ حِينَ رَأَيْنَاهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَبَّنَا؛ فَإِنَّا نَتَّبِعُ قَوْلَ مُوسَى، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هَذَا عَمَلُ الشَّيْطَانِ وَلَيْسَ بِرَبَّنَا وَلَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نُصَدِّقُ. وَأَشْرَبَ فِرْقَةً فِي قُلُوبِهِمُ التَّصَدِيقَ بِمَا قَالَ السَّامِرِيُّ فِي الْعِجْلِ،

فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: ﴿يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ لَيْسَ هَكَذَا، قَالُوا: فَمَا
بِأَلِ مُوسَى وَعَدْنَا ثَلَاثِينَ يَوْمًا ثُمَّ أَخْلَفْنَا؟، هَذِهِ أَرْبَعُونَ قَدْ مَضَتْ، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ:
أَخْطَأَ رَبُّهُ، فَهُوَ يَطْلُبُهُ وَيَتَّبِعُهُ.



رجوع موسى إلى بني إسرائيل

فَلَمَّا كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى وَقَالَ لَهُ مَا قَال، أَخْبَرَهُ بِمَا لَقِيَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ، ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ بِسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَحَ﴾، وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ؛ إِنَّ اللَّهَ خَبَّرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا أَلْقَى الْأَلْوَحَ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ هَارُونُ لِمُوسَى: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥٠)، ثُمَّ إِنَّهُ عَذَرَ أَخَاهُ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ، وَانْصَرَفَ إِلَى السَّامِرِيِّ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: قَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ وَفَطِنْتُ لَهَا، وَعُمِيتَ عَلَيْكُمْ فَقَذَفْتُهَا ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (٩٦)، قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ أَخْلُقَهُ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (٩٧) (١)، وَلَوْ كَانَ إِلَهًا لَمْ نَخْلُصْ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُ، فَاسْتَيْقَنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَاعْتَبَطَ الَّذِينَ كَانَ رَأْيُهُمْ فِيهِ مِثْلَ رَأْيِ هَارُونَ، وَقَالُوا جَمَاعَتُهُمْ لِمُوسَى: سَلْ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَفْتَحَ لَنَا بَابَ تَوْبَةٍ نَصْنَعُهَا، فَتُكْفَرَ مَا عَمَلْنَا. وَأَرَادُوا سَمَاعَ مُنَاجَاةِ مُوسَى لِرَبِّهِ؛ فَاخْتَارَ قَوْمُهُ سَبْعِينَ رَجُلًا، لِإِتْيَانِ الْجَبَلِ، مِمَّنْ يَحْسَبُ أَنَّهُمْ لَمْ يُشْرِكُوا فِي الْعِجْلِ، فَانْطَلَقَ بِهِمْ لِيَسْأَلَ لَهُمُ التَّوْبَةَ، فَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، فَاسْتَحْيَا نَبِيُّ اللَّهِ مِنْ قَوْمِهِ وَوَفَدِهِ حِينَ فَعَلَ بِهِمْ مَا فَعَلَ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ ﴿وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ اللَّهُ أطلعَ عَلَى مَا أَشْرَبَ مِنْ حُبِّ الْعِجْلِ إِيْمَانًا بِهِ، فَلِذَلِكَ رَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، فَقَالَ:

(١) أي أن تكون عقوبتك في الحياة الدنيا أن تعيش منبوءًا تقول لكل أحد: لا أَمْسُ ولا أَمْسُ. قيل: أصيب بمرض في جلده.

﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿فَقَالَ: رَبِّ سَأَلْتُكَ التَّوْبَةَ لِقَوْمِي، فَقُلْتَ: إِنَّ رَحْمَتَكَ كَتَبْتَهَا لِقَوْمٍ غَيْرِ قَوْمِي، فَلَيْتَكَ أَخَّرْتَنِي حَتَّى تُخْرِجَنِي حَيًّا فِي أُمَّةٍ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْمَرْحُومَةِ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ لَهُ: إِنَّ تَوْبَتَهُمْ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ كُلَّ مَنْ لَقِيَ مِنْ وَالِدٍ وَوَلَدٍ، فَيَقْتُلُهُ بِالسَّيْفِ، لَا يُبَالِي مَنْ قَتَلَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ (١)، وَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ، وَفَعَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، فَغَفَرَ اللَّهُ لِلْقَاتِلِ وَالْمَقْتُولِ، وَقَالُوا لِمُوسَى: يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، فَصَعِقُوا وَمَاتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمُ اللَّهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ وَقَعَ مِنْهُمْ بَعْدَ الْعَفْوِ عَنْ عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ، وَقِيلَ أَنَّهُ قَبْلَ ذَلِكَ (٢)، وَسَارَ بِهِمْ مُوسَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَأَخَذَ الْأَلْوَاحَ بَعْدَمَا سَكَتَ عَنْهُ الْغَضَبُ، فَأَمَرَهُمُ بِالَّذِي أُمِرَ بِهِ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ مِنَ الْوِظَائِفِ، فَثَقُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَأَبَوْا أَنْ يُقَرُّوا بِهَا، فَتَقَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَبَلَ ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ وسحابة ودنا منهم، حَتَّى خَافُوا أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ، فَأَخَذُوا الْكِتَابَ بَأَيْمَانِهِمْ، وَهُمْ مُصْغُونَ إِلَى الْجَبَلِ وَالْأَرْضِ، وَالْكِتَابُ بَأَيْدِيهِمْ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْجَبَلِ مَخَافَةَ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ (٣).

(١) قال ابن تيمية: والله لما كلم موسى ﷺ من الشجرة، كان الكلام المسموع مخالفا لما يسمع من كلام الناس، ولهذا لم تطق بنو إسرائيل سماع ذلك الصوت، بل قالوا لموسى: صف لنا ذلك، وهذا عندهم في التوراة.

(٢) في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ بِظُلُمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ قيل إن ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب، وقيل إن ﴿ثُمَّ﴾ هنا لا تفيد الترتيب الزمني وإنما تفيد الترتيب الرتبي وأنها من باب ترتيب الرتب لا ترتيب الأخبار، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَصَّوْا بِالصَّابِرِ وَتَوَصَّوْا بِالْمَرْحَةِ﴾ (٧).

(٣) عن ابن عباس أَنَّهُ قَالَ: وَأَنَا أَعْلَمُ لَمْ سَجَدَتِ الْيَهُودُ عَلَى حَرْفِ وَجْهَهَا، قَوْلَ اللَّهِ: ﴿وَإِذْ تَتَّقِنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾. قَالَ: سَجَدُوا وَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ بِحَرْفِ وَجْهِهِمْ - يَخَافُونَ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ -، كَانَتْ سَجْدَةُ رُضِيهَا اللَّهُ عَنْهُمْ، فَاتَّخَذُوا سَنَةً، فَلَا تَرَى يَهُودِيًّا إِذَا سَجَدَ إِلَّا وَهُوَ يَسْجُدُ عَلَى حَاجِبِهِ.

إهلاك قارون

وكان قارون من قوم موسى ﷺ - وقيل أنه ابن عمه - وكان غنياً منافقاً متكبراً، وأعطاه الله من كنوز الأموال ما إن مفاتيح خزائنه ليشغل حملها على الجماعة القوية، وقال له الناصحون من قومه: لا تفرح فرح البطر، إن الله لا يحب الفرحين فرح البطر. واطلب فيما أعطاك الله من الأموال الثواب في الدار الآخرة، بأن تنفقه في وجوه الخير، ولا تنس نصيبك من الأكل والشرب واللباس وغير ذلك من النعم، في غير إسراف ولا مخيلة، وأحسن التعامل مع ربك ومع عباده كما أحسن سبحانه إليك، ولا تطلب الفساد في الأرض بارتكاب المعاصي وترك الطاعات، إن الله لا يحب المفسدين في الأرض بذلك، بل يبغضهم.

فقال قارون: إنما أُعْطِيت هذه الأموال لعلمي عندي وقدرة، فأنا أستحقها لذلك. فخرج قارون في زينته مظهرًا أَبْهَتْه، قال الذين يطمعون في زينة الحياة الدنيا من أصحاب قارون: يا ليتنا أُعْطِينَا من زينة الدنيا مثل ما أُعْطِيَ قارون، إن قارون لذو نصيب وافر كبير.

وقال الذين أعطوا العلم حين رأوا قارون في زينته وسمعوا ما تمناه أصحابه: ويلكم! ثواب الله في الآخرة، وما أعدّه من النعيم لمن آمن به وعمل عملاً صالحاً، خيرٌ مما أُعْطِيَ قارون من زهرة الدنيا، ولا يوفق لقول هذه الكلمة والعمل بما تقتضيه إلا الصابرون الذين يصبرون على إثارة ما عند الله من ثواب على ما في الدنيا من متاع زائل. وَلَمَّا أَمَرَ مُوسَى قَوْمَهُ بِالزَّكَاةِ؛ جَمَعَ قَارُونُ مَنْ حَوْلَهُ فَقَالَ لَهُمْ مَحْرَضًا عَلَى مُوسَى: «جَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَجَاءَكُمْ بِأَشْيَاءَ فَاحْتَمَلْتُمُوهَا، فَتَحَمَّلُوا أَنَّ تُعْطَوْهُ أَمْوَالُكُمْ».

فَقَالُوا: لَا نَحْتَمِلُ أَنْ نُعْطِيَهُ أَمْوَالَنَا، فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ لَهُمْ: أَرَى أَنْ أُرْسِلَ إِلَى بَغِيِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنُرْسِلَهَا إِلَيْهِ فترميهِ بِأَنَّهُ أَرَادَهَا عَلَى نَفْسِهَا.

فَبَلَغَ ذَلِكَ مُوسَى فَدَعَا عَلَيْهِمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ أَنْ تُطِيعَهُ، فَأَتَاهُمْ وَقَالَ مُوسَى لِلْأَرْضِ: خُذِيهِمْ فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى أَعْقَابِهِمْ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا مُوسَى، ثُمَّ قَالَ لِلْأَرْضِ: «خُذِيهِمْ»، فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى رُكْبِهِمْ. فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا مُوسَى، ثُمَّ قَالَ لِلْأَرْضِ: «خُذِيهِمْ» فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا مُوسَى. فَقَالَ لِلْأَرْضِ: «خُذِيهِمْ». فَأَخَذَتْهُمْ فَعَيَّيَتْهُمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى: يَا مُوسَى سَأَلَكَ عِبَادِي وَتَضَرَّعُوا إِلَيْكَ فَلَمْ تَجِبْهُمْ، وَعَزَّيْتُ لَوْ أَنَّهُمْ دَعَوْنِي لَأَجَبْتُهُمْ.

ولما خسف الله الأرض بقارون وبقاره ومن فيها؛ أصبح الذين تمنوا ما كان فيه قارون من المال والزينة قبل الخسف به يقولون متحسرين معتبرين: ألم نعلم أن الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء منهم؟! لولا أن من الله علينا فلم يعاقبنا بما قلنا؛ لخسف بنا مثل ما خسف بقارون، إنه لا يفلح الكافرون^(١).



(١) وممن اتبع هواه وخالف موسى ﷺ: (بلعام بن باعوراء)، قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ يُقَدِّمُونَهُ فِي السَّدَائِدِ، بَعَثَهُ نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى ﷺ إِلَى مَلِكِ مَدْيَنَ يَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ فَأَقْطَعَهُ وَأَعْطَاهُ، فَتَبَعَ دِينَهُ وَتَرَكَ دِينَ مُوسَى ﷺ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنكَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَالْتَمَحَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثَ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْضِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣٦﴾.

قصة موسى مع الخضر

وَقَامَ مُوسَى ﷺ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، يُذَكِّرُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ - وَأَيَّامِ اللَّهِ نَعْمَاؤُهُ وَبِلَاؤُهُ - فَذَكَرَ النَّاسَ يَوْمًا حَتَّى إِذَا فَاضَتِ الْعُيُونُ وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ؛ وَلَّى، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا. فَأَذْرَكَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ، هَلْ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ؟ قَالَ: لَا. مَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ رَجُلًا خَيْرًا وَأَعْلَمَ مِنِّي. فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرِدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنِّي أَعْلَمُ بِالْخَيْرِ عِنْدَ مَنْ هُوَ، إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ - عَبْدُنَا خَضِرٌ - هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ فَدُلَّنِي عَلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي آتَيْتَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ تُؤْتِنِي حَتَّى أَتَعْلَمَ مِنْهُ، قَالَ: يَذْلُكَ عَلَيْهِ بَعْضُ زَادِكَ. فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً، فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا مَالِحًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ؛ فَارْجِعْ؛ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ حَيْثُ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحُ. فَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوسُفَ بْنَ نُونٍ، وَحَمَلَا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، وَقَالَ لِفَتَاهُ: لَا أَكْلُفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحُوتُ، قَالَ: مَا كَلَّفْتُ كَثِيرًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا، فَرَقَدَ مُوسَى، وَأَصَابَ الْحُوتَ ثَرَى الْبَحْرِ وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ فِي مَكَانٍ ثَرِيانٍ (مَبْلُولٍ) فَتَحَرَّكَ فِي الْمِكْتَلِ فَقَلَبَ الْمِكْتَلُ فَخَرَجَ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ وَانْسَرَبَ^(١)، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحُوتِ جَرِيَةَ الْمَاءِ، فَجَعَلَ لَا يَلْتَمِسُ عَلَيْهِ، حَتَّى كَانَ أَثَرُهُ فِي حَجَرٍ، حَتَّى صَارَ مِثْلَ الْكُوَّةِ^(٢). فَقَالَ فَتَاهُ: لَا

(١) قيل: أصل السرب الذهاب في انحدار. والسرب: المنحدر، وسرب الدمع: سال، وانسربت

الحية إلى جحرها.

(٢) قال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: قَالَ لِي عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ: هَكَذَا، كَانَ أَثَرُهُ فِي حَجَرٍ، وَحَلَقَ بَيْنَ إِنْهَامَيْهِ وَاللَّتَيْنِ تَلِيَانِهِمَا.

أَوْقَظَهُ. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ مُوسَى ﷺ نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتُهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى قَالَ لِفَتَاهُ: ﴿إِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَلَتَّخِذْ سَبِيلَهُ﴾ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٢﴾ فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا ^(١)، وَلِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَقَالَ مُوسَى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا، فَرَجَعَا يَقْضَايَ آثَارَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَوَجَدَا فِي الْبَحْرِ كَالطَّاقِ ^(٢) مَمَرَّ الْحُوتِ، وَأَبْصَرَ مُوسَى ﷺ أَثَرَ الْحُوتِ، فَأَخَذَا إِثْرَ الْحُوتِ يَمْشِيَانِ عَلَى الْمَاءِ حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ فَقَالَ مُوسَى: هَاهُنَا وَصِفَ لِي، فَأَطَافَ بِهَا، فَإِذَا هُوَ بِالْخَضِرِ ^(٣)، مُسْتَلْقِيًا عَلَى الْقَفَا مُسَجِّي بِثُوبٍ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَكَشَفَ الْخَضِرُ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ: هَلْ بِأَرْضِي مِنْ سَلَامٍ؟ مَنْ أَنْتَ؟، فَقَالَ: أَنَا مُوسَى، فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟، قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا؟، قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ، لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكُهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَةَ بِيَدَيْكَ، وَأَنَّ الْوَحْيَ يَأْتِيكَ؟ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ ﴿٦٣﴾، شَيْءٌ أُمِرْتُ بِهِ أَنْ أَفْعَلَهُ، إِذَا رَأَيْتَهُ لَمْ تَصْبِرْ، قَالَ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ ﴿٦٤﴾، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿إِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿٧٠﴾ قَالَ: نَعَمْ. فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا

(١) أَي مَسْلُكًا كَالسَّرَبِ.

(٢) كَالْجِسْرِ الْمَقْوَسِ أَوْ الرِّفِّ الْمَقْوَسِ.

(٣) وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ، لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرَوْةٍ بَيَضَاءٍ، فَاهْتَزَّتْ تَحْتَهُ خَضِرَاءً. وَالْفَرَوْةُ: أَرْضُ بِيضَاءٍ لَيْسَ فِيهَا نَبَاتٌ، أَوْ الْحَشِيشُ الْأَبْيَضُ وَمَا يَشْبَهُهُ.

الْخَضِرُ، فَقَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ الصَّالِحُ خَضِرٌ؟، لَا نَحْمِلُهُ بِأَجْرٍ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ. فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ^(١)، فَفَرَّ نَفْرَةً أَوْ نَفَرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ؛ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ. فَخَرَجَ مَنْ كَانَ فِيهَا وَتَخَلَّفَ لِيُخْرِقَهَا، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنَ الْأَوَاحِ السَّفِينَةِ فَتَزَعَهُ، فَخَرَقَهَا، وَوَتَدَ فِيهَا وَتَدَا، فَقَالَ مُوسَى: ﴿أَخَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟﴾ قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾^(٦١) يعني: مُنْكَرًا. قَالَ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٦٢)، قَالَ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾^(٦٣)، فَلَمَّا خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ، مَرُّوا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الصَّبْيَانِ، فَأَضْجَعَهُ، ثُمَّ ذَبَحَهُ بِالسَّكِّينِ فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَقَلَعَهُ بِيَدِهِ. فذُِعِرَ عِنْدَهَا مُوسَى ﷺ ذِعْرَةً مُنْكَرَةً، فَقَالَ: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا رَكِيَةً﴾ مُسْلِمَةً لَمْ تَعْمَلْ بِالْحِنْثِ^(٢) ﴿يَغْيِرُ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾^(٦٤)، قَالَ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٦٥) ﴿٣﴾.

قَالَ نَبِيْنَا مُحَمَّدٌ ﷺ عِنْدَ هَذَا الْمَوْضِعِ لَمَّا حَكَاهُ لِأَصْحَابِهِ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى^(٤)، لَوْ لَا أَنَّهُ عَجِلَ، لَرَأَى الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذِمَامَةً^(٥)، ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾^(٦٦)، وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَى الْعَجَبَ.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ لِنَامًا، فَطَافَا فِي الْمَجَالِسِ فَ﴿أَسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾، مَائِلٌ ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أَوْ مَأً الْخَضِرُ

(١) حرف السفينة: طرفها، وحرف كل شيء: طرفه.

(٢) يعني لم تكسب إثمًا؛ لأنها لم تبلغ سن التكليف.

(٣) قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى.

(٤) قَالَ أَبُو: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بَدَأَ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى أَخِي كَذَا..

(٥) استحياء لتكرار مخالفته.

بِيَدِهِ هَكَذَا^(١) فَاسْتَقَامَ. فَقَالَ لَهُ مُوسَى مِمَّا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْجَهْدِ: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُصَيِّفُونَا، عَمَدْتَ إِلَى حَائِطِهِمْ؟ ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾^(٢). فَكَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، وَالْوُسْطَى شَرَطًا، وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا. قَالَ الْخَضِرُ: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنِكَ﴾، فَأَخَذَ مُوسَى ﷺ بِطَرْفِ ثَوْبِهِ، فَقَالَ: حَذِّثْنِي، قَالَ: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(٣) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا^(٤) فَأَرَدْتُ إِذَا هِيَ مَرَّتْ بِهِ وَجَدَهَا مُنْخَرِقَةً فِدَعَهَا لِعِيْبَتِهَا، فَإِذَا جَاوَزُوا، أَصْلَحُوهَا فَانْتَفَعُوا بِهَا، ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وَطَبَعَ الْغُلَامُ يَوْمَ طَبَعَ كَافِرًا، وَكَانَ أَبَوَاهُ قَدْ عَطَفَا عَلَيْهِ وَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿بَأَنْ يَحْمِلَهُمَا حُبُّهُ عَلَى أَنْ يَتَابَعَاهُ عَلَى دِينِهِ، فَلَوْ أَنَّهُ أَدْرَكَ؛ لَأَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، فَأَرَدْنَا أَنْ يَبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿هُمَا بِهِ أَرْحَمُ مِنْهُمَا بِالْأَوَّلِ، فَوَقَعَ أَبُوهُ عَلَى أُمِّهِ، فَعَلِقَتْ، فَوَلَدَتْ مِنْهُ خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(٥).



(١) وَأَشَارَ سُفْيَانٌ - رَاوِي الْحَدِيثِ - كَأَنَّهُ يَمَسُّحُ شَيْئًا إِلَى فَوْقِ.

(٢) قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَجْرًا نَأْكُلُهُ.

(٣) قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ يَقْرَأُ: (وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا).

(٤) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: حَفِظَهُمَا بِصَلَاحِ أَبِيهِمَا، وَمَا ذَكَرَ مِنْهُمَا صَالِحًا.

(٥) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَدِدْنَا أَنْ مُوسَى صَبَرَ، حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا.

حياء موسى وإيذاء بني إسرائيل له

وَكَاثَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاءً، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى سَوَاءِ بَعْضٍ، وَكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى ﷺ رَجُلًا حَيًّا سِتِيرًا، مَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءً مِنْهُ، يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ وَيَسْتَتِرُ إِذَا اغْتَسَلَ. فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا يَسْتَتِرُ مُوسَى هَذَا السَّتْرَ، إِلَّا مِنْ عَيْبِ بَجْلِدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ، وَإِمَّا أُذْرَةٌ^(١) وَإِمَّا آفَةٌ. وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا؛ فَذَهَبَ مُوسَى ﷺ يَوْمًا يَغْتَسِلُ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ، أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، فَفَرَ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ فَخَرَجَ فِي إِثْرِهِ يَقُولُ: ثَوْبِي يَا حَجَرُ، ثَوْبِي يَا حَجَرُ. حَتَّى انْتَهَى بِهِ إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَوَسَّطَهُمْ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا، فَإِذَا أَحْسَنُ النَّاسِ خَلْقًا وَأَعَدْلَهُمْ صُورَةً وَأَبْرَاهُ مِمَّا كَانُوا يَقُولُونَ. فَقَالَ الْمَلَأُ: قَاتِلِ اللَّهَ أَفَّاكِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاللَّهِ مَا بِمُوسَى مِنْ بَاسٍ. فَقَامَ الْحَجَرُ^(٢)، وَأَخَذَ نَبِيُّ اللَّهِ ثَوْبَهُ وَلَبَسَهُ، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لُنُدْبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ، ثَلَاثًا، أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا. فَكَانَتْ بَرَاءَتُهُ الَّتِي بَرَّاهُ اللَّهُ ﷻ بِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتْلِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.



(١) عِظْمُ الْخَصِيَّتَيْنِ.

(٢) أي: توقف، وأقام في موضعه. وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي: توقفوا.

قصة البقرة

وَكَانَتْ مَدِينَتَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إِحْدَاهُمَا حَصِينَةٌ وَلَهَا أَبْوَابٌ، وَالْأُخْرَى خَرِبَةٌ. فَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ الْحَصِينَةِ إِذَا أَمْسَوْا أَغْلَقُوا أَبْوَابَهَا وَإِذَا أَصْبَحُوا قَامُوا عَلَى سُورِ الْمَدِينَةِ فَنَظَرُوا، هَلْ حَدَثَ فِيهَا حَوْلُهُ حَدَثٌ؟ فَأَصْبَحُوا يَوْمًا فَإِذَا شَيْخٌ قَتِيلٌ مَطْرُوحٌ بِأُصْلٍ مَدِيَّتِهِمْ، فَأَقْبَلَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ الْخَرِبَةِ فَقَالُوا: أَقْتَلْتُمْ صَاحِبَنَا؟ وَابْنُ أَخٍ لَهُ شَابٌّ يَبْكِي عِنْدَهُ، وَيَقُولُ: قَتَلْتُمْ عَمِّي، قَالُوا: وَاللَّهِ مَا فَتَحْنَا مَدِينَتَنَا مُنْذُ أَغْلَقْنَاَهَا، وَمَا نُدِينَا^(١) مِنْ دَمٍ صَاحِبِكُمْ هَذَا بِشَيْءٍ، فَأَتَوْا مُوسَى عليه السلام، فَأَوْحَى اللَّهُ ﷻ إِلَى مُوسَى عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾، قَالُوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟﴾ نَحْنُ نَسْأَلُكَ عَنْ أَمْرِ هَذَا الْقَتِيلِ، وَأَنْتَ تَقُولُ هَذَا. قَالَ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ٧٧ ﴿فَلَا أَقُولُ عَنْهُ غَيْرَ مَا أَوْحَى إِلَيَّ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَجَابَنِي حِينَ سَأَلْتُهُ عَمَّا سَأَلْتُمُونِي عَنْهُ أَنْ أَسْأَلَهُ فِيهِ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى أَيِّ بَقْرَةٍ فَذَبَحُوهَا لَحَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. قَالُوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، فَسَأَلُوا عَنْ سِنِّهَا وَعَنْ لَوْنِهَا وَعَنْ صِفَتِهَا، فَأَجِيبُوا بِمَا عَزَّ وَجُودُهُ عَلَيْهِمْ؛ حَيْثُ أُمِرُوا بِذَبْحِ بَقْرَةٍ عَوَانٍ - وَهِيَ الْوَسْطُ بَيْنَ الْفَارِضِ وَهِيَ الْكَبِيرَةُ وَالْبَكْرُ وَهِيَ الصَّغِيرَةُ - ثُمَّ شَدَّدُوا، وَضَيَّقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَسَأَلُوا عَنْ لَوْنِهَا، فَأَمَرُوا بِصَفْرَاءَ فَاقَعَ لَوْنُهَا، أَيُّ مُشْرَبٍ بِحُمْرَةٍ، تَسُرُّ النَّاطِرِينَ، وَهَذَا اللَّوْنُ عَزِيزٌ. ثُمَّ شَدَّدُوا أَيْضًا فَقَالُوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ

(١) مِنَ النَّدَى وَالْبَلَلِ.

الْبَقَرِ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧﴾ قَالَ: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ أَصِيقُ مِمَّا تَقَدَّمَ، حَيْثُ أُمِرُوا بِذَبْحِ بَقَرَةٍ، لَيْسَتْ بِالذَّلُولِ، وَهِيَ الْمَذْلَلَةُ بِالْحِرَاثَةِ وَسَقِي الْأَرْضِ بِالسَّانِيَةِ، مُسَلَّمَةٌ مِنَ الْعُيُوبِ ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أَي: لَيْسَ فِيهَا لَوْنٌ يُخَالِفُ لَوْنَهَا. فَلَمَّا حَدَدَهَا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، وَحَصَرَهَا بِهَذِهِ النُّعُوتِ وَالْأَوْصَافِ، وَجَدُوهَا بَعْدَ مَشَقَّةٍ، ثُمَّ قَالُوا: ﴿الْقَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ وَهَذَا مِنْ سُوءِ أَدْبِهِمْ.

وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ غُلَامٌ شَابٌّ يَبِيعُ فِي حَانُوتٍ لَهُ، وَكَانَ لَهُ أَبٌ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ بَلَدٍ آخَرَ يَطْلُبُ سِلْعَةً لَهُ عِنْدَهُ، فَأَعْطَاهُ بِهَا ثَمَنًا، فَاَنْطَلَقَ مَعَهُ لِيَفْتَحَ حَانُوتَهُ فَيُعْطِيَهُ الَّذِي طَلَبَ، وَالْمُفْتَاَحُ مَعَ أَبِيهِ، فَإِذَا أَبُوهُ الشَّيْخُ نَائِمٌ فِي ظِلِّ الْحَانُوتِ يَغِطُّ نَوْمًا، فَقَالَ: أَيَقِظُهُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ أَبِي لَنَائِمٌ كَمَا تَرَى، وَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُرْوِعَهُ مِنْ نَوْمِهِ. فَاَنْصَرَفَا، فَأَعْطَاهُ ضِعْفَ مَا أَعْطَاهُ، فَعَطَفَ عَلَى أَبِيهِ، فَإِذَا هُوَ أَشَدُّ مَا كَانَ نَوْمًا، فَقَالَ: أَيَقِظُهُ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ، لَا أَوْقِظُهُ أَبَدًا وَلَا أُرْوِعُهُ مِنْ نَوْمِهِ. فَلَمَّا اَنْصَرَفَ وَذَهَبَ طَالِبُ السِّلْعَةِ اسْتَقِظَ الشَّيْخُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ: يَا أَبَتَاهُ وَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ هَاهُنَا رَجُلٌ يَطْلُبُ سِلْعَةً كَذَا وَكَذَا، فَكْرِهْتُ أَنْ أُرْوِعَكَ مِنْ نَوْمِكَ، فَلَا مَهَ الشَّيْخُ، فَعَوَضَهُ اللَّهُ مِنْ بَرِّهِ لَوْلَايَدِهِ أَنْ نَتَجَتْ ^(١) بَقَرَةٌ مِنْ بَقَرِهِ تِلْكَ الْبَقَرَةُ الَّتِي يَطْلُبُهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: بَعْنَاهَا، فَقَالَ: لَا أُبِيعُكُمْوهَا، قَالُوا: إِذَنْ نَأْخُذُهَا مِنْكَ، قَالَ: إِنْ غَضِبْتُمُونِي سِلْعَتِي فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ، فَأَتَوْا مُوسَى ﷺ، فَقَالَ: اذْهَبُوا فَأَرْضُوهُ مِنْ سِلْعَتِي، فَقَالُوا: حُكْمُكَ؟ قَالَ: حُكْمِي أَنْ تَضَعُوا الْبَقَرَةَ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَتَضَعُوا ذَهَبًا صَامِتًا فِي الْكِفَّةِ الْآخَرَى، فَإِذَا مَالَ الذَّهَبُ أَخَذْتُهُ، قَالَ: فَفَعَلُوا وَأَقْبَلُوا بِالْبَقَرَةِ حَتَّى أَتَوْا بِهَا إِلَى قَبْرِ الشَّيْخِ وَهُوَ بَيْنَ الْمَدِينَتَيْنِ، وَاجْتَمَعَ أَهْلُ الْمَدِينَتَيْنِ ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٨﴾ وَهُمْ يَتَرَدَّدُونَ

(١) أي: أنتجت وولدت.

فِي أَمْرِهَا. ﴿فَقُلْنَا أَصْرَبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وَابْنُ أَخِيهِ عِنْدَ قَبْرِهِ يَبْكِي، فَضْرَبَ بِبُضْعَةٍ مِنْ لَحْمِهَا الْقَبْرَ، فَقَامَ الشَّيْخُ يَنْقُضُ رَأْسَهُ يَقُولُ: «قَتَلَنِي ابْنُ أَخِي، طَالَ عَلَيْهِ عُمْرِي وَأَرَادَ أَخْذَ مَالِي»، وَمَاتَ.

فجعل الله لهم هذه البقرة آية من آياته ﷺ، بأن تكون البقرة التي تفارق الحياة سبباً لحياة هذا القتل؛ إذ لا رابطة في المعقول بين أن تُذبح البقرة، ويُضرب القتل ببعض أجزائها فيحيا، فلو قيل بضربه بجزءٍ من بقرة حية لربما توهّم متوهمٌ أنه استمدَّ الحياة من حياتها، ولكن أمرهم بضربه بجزءٍ من بقرة ميتة، لتعود له الحياة بإذن الله، ثم ذكرهم الله سبحانه أنه كما أحيا هذا القتل بقدرته، كذلك يُحيي الموتى بعد مماتهم.



رفض بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة

ثُمَّ مَضَوْا حَتَّى أَتَوْا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، فَوَجَدُوا فِيهَا مَدِينَةً فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارُونَ، فَقَالُوا: ﴿يَمُوسَى إِيَّاكَ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ، وَلَا نَدْخُلُهَا مَا دَامُوا فِيهَا، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ.

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ، وَهُمَا يُوشَعُ بْنُ نُونٍ وَكَالِبُ بْنُ يُونَنَ: إِنْ كُنْتُمْ إِنَّمَا تَخَافُونَ مِمَّا تَرَوْنَ مِنْ أَجْسَامِهِمْ وَعِدَّتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا قُلُوبَ لَهُمْ، وَلَا مَنَعَةَ عِنْدَهُمْ، فَادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ، فَكَانَ رَدِّهِمْ أَنَّهُمْ ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ١٤، فَأَغْضَبُوا مُوسَى، فَدَعَا عَلَيْهِمْ، وَسَمَّاهُمْ فَاسِقِينَ - وَلَمْ يَدْعُ عَلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ - لِمَا رَأَى مِنْهُمْ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَإِسَاءَتِهِمْ، حَتَّى كَانَ يَوْمَئِذٍ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ، فَسَمَّاهُمْ كَمَا سَمَّاهُمْ مُوسَى: ﴿فَاسِقِينَ﴾، وَحَرَّمَهَا عَلَيْهِمْ ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يُضْبِحُونَ كُلَّ يَوْمٍ، فَيَسِيرُونَ لَيْسَ لَهُمْ قَرَارٌ.

ثُمَّ ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامُ فِي النَّهَارِ، وَجَعَلَ لَهُمْ ثِيَابًا لَا تَبْلَى وَلَا تَتَسَخَّرُ، وَجَعَلَ بَيْنَ ظُهُورِهِمْ حَجَرًا مَرْبَعًا، وَأَمَرَ مُوسَى فَضْرَبَهُ بِعَصَاهُ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ثَلَاثَةُ أَعْيُنٍ، وَأَعْلَمَ كُلَّ سَبْطٍ عَيْنَهُمُ الَّتِي يَشْرَبُونَ مِنْهَا لَا يَرْتَحِلُونَ مِنْ مَنَقَلَةٍ إِلَّا وَجَدَ ذَلِكَ الْحَجَرُ فِيهِمْ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ بِالْأَمْسِ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى^(١)،

(١) الْمَنَّ: الطَّلُّ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى الشَّجَرِ كَمَثَلِ الصَّمْغِ، أَشَدَّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ. وَقِيلَ: كَانَ يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ سُقُوطُ الثَّلْجِ. وَالسَّلْوَى: نَوْعٌ مِنَ الطَّيْرِ يُشْبِهُ السُّمَانِيَّ. قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ: الْمَنَّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْحَلْوُ فَقَطْ، بَلْ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِهَا

وَلَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْبُثِ الطَّعَامُ، وَلَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ^(١).



من النبات الذي يُوجد عفواً من غير صنعة ولا علاج ولا حرث، فإن المن مصدر بمعنى المفعول أي «ممنون» به فكل ما رزقه الله العبد عفواً بغير كسب منه ولا علاج، فهو مَنْ مُحَضُّ، وإن كانت سائر نعمه مَنّاً منه على عبده، فخصّ منها ما لا كسب له فيه ولا صنّع؛ باسم «المنّ»، فإنه مَنْ بلا واسطة العبد، وجعل سبحانه قُوتَهُم بالتَّيِّه «الكمأة»، وهي تقوم مقام الخبز، وجعل أدمهم «السَّلوى»، وهو يقوم مقام اللحم، وجعل حلواهم «الطَّلّ» الذي ينزل على الأشجار يقوم لهم مقام الحلوى. فكُمّل عيشَهُم. وتأمل قوله ﷺ: «الكمأة من المنّ الذي أنزله الله على بنى إسرائيل» فجعلها من جملته، وفرداً من أفرادها، والترنّجين الذي يسقط على الأشجار نوع من المنّ، ثم غلب استعمال المنّ عليه عُرفاً حادثاً.

(١) قال العلماء: معناه أن بنى إسرائيل لما نزل الله عليهم المن والسّلوى نهوا عن ادخارهما، فادخروا؛ ففسد وأنتن، واستمر من ذلك الوقت.

وفاة موسى ﷺ

وَكَانَ مَلِكُ الْمَوْتِ يَأْتِي النَّاسَ عِيَانًا، فَأُرْسِلَ إِلَى مُوسَى ﷺ فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ، فَلَطَمَهُ مُوسَى ^(١) فَقَالَ عَيْنَ مَلِكِ الْمَوْتِ، فَرَجَعَ الْمَلِكُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَكَ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ، وَقَدْ فَقَا عَيْنِي، وَلَوْلَا كَرَامَتُهُ عَلَيْكَ، لَعَنْفْتُ بِهِ، فَرَدَّ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِ عَيْنَهُ، وَقَالَ: ازْجِعْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: الْحَيَاةُ تُرِيدُ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ؛ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَلَاكَ بِكُلِّ شَعْرَةٍ غَطَّتْهَا يَدُكَ فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً.

(١) قيل: لأنه دخل عليه ولم يستأذن، وقيل: أنه إنما فعل ذلك دفاعاً عن نفسه، ولأنه لم يعرفه كما لم يعرف إبراهيم ضيوفه من الملائكة، وقد جاء الملك إلى مريم فلم تعرفه ولو عرفته لما استعاذت منه، وقد دخل الملكان على داود في شبه آدميين يختصمان عنده فلم يعرفهما وفزع منهما، ولأنه أيضاً لم يخبره؛ والأنبياء تخير. ففقاً عينه امتحاناً لملك الموت، إذ لم يصرح له بالتخير، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم. وقال البغوي: «وَقَدْ كَانَ فِي طَبْعِ مُوسَى ﷺ حَمِيَّةٌ، وَحِدَّةٌ، عَلَى مَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ وَكْزِهِ الْقُبْطِيِّ، وَإِلْقَائِهِ الْأَلْوَاحَ، وَأَخْذِهِ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ». وقال ابن حبان: إن الله ﷻ أرسل ملك الموت إلى موسى رسالة ابتلاء واختبار، وأمره أن يقول له: أَجِبْ رَبَّكَ، أمر اختبار وابتلاء، لا أمراً يريد الله ﷻ إمضاءه، كما أمر خليله ﷺ بذبح ابنه أمر اختبار وابتلاء، دون الأمر الذي أراد الله ﷻ إمضاءه... وَلَمَّا كَانَ مِنْ شَرِيعَتِنَا أَنَّ مَنْ فَقَا عَيْنَ الدَّاحِلِ دَارُهُ بَغِيرَ إِذْنِهِ أَوْ النَّاطِرِ إِلَى بَيْتِهِ بَغِيرَ أَمْرِهِ لَا جُنَاحَ عَلَى فَاعِلِهِ، وَلَا حَرَجَ عَلَى مُرْتَكِبِهِ، لِلْأَخْبَارِ الْجَمَّةِ الْوَارِدَةِ فِيهِ الَّتِي أَمْلَيْنَاهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كُتُبِنَا: كَانَ جَائِزًا اتِّفَاقُ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ بِشَرِيعَةِ مُوسَى، بِإِسْقَاطِ الْحَرَجِ عَمَّنْ فَقَا عَيْنَ الدَّاحِلِ دَارُهُ بَغِيرَ إِذْنِهِ، فَكَانَ اسْتِعْمَالُ مُوسَى هَذَا الْفِعْلَ مُبَاحًا لَهُ وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي فِعْلِهِ. وذكر ابن عقيل أنه يجوز أن يكون موسى أُذِنَ له في ذلك الفعل بالملك، وابتلي الملك بالصبر عليه؛ كما جرى له مع الخضر.

فَقَالَ مُوسَى: فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: الْمَوْتُ، قَالَ: فَالآنَ إِذَا.

فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمِيَّةً بِحَجَرٍ^(١). فَشَمَّهُ مَلَكُ الْمَوْتِ شَمَّةً، فَقَبَضَ رُوحَهُ. وَقَبْرُهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكُثِيبِ الْأَحْمَرِ، وَكَانَ مَلَكُ الْمَوْتِ بَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي النَّاسَ فِي خَفِيَّةٍ.



(١) أَي: قَدَّرَ رَمِيَّةَ حَجَرٍ، وَالْحِكْمَةُ فِي أَنَّهُ لَمْ يَطْلُبْ دُخُولَهَا لِئُعْمِيَ مَوْضِعَ قَبْرِهِ لئَلَّا تَعْبُدَهُ الْجُهَالُ مِنْ مِلَّتِهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ سِرٌّ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا مَنَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ دُخُولِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَتَرَكَهُمْ فِي التِّيهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَى أَنْ أَفْنَاهُمُ الْمَوْتَ فَلَمْ يَدْخُلِ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ مَعَ يُوشَعَ إِلَّا أَوْلَادُهُمْ، وَلَمْ يَدْخُلْهَا مَعَهُ أَحَدٌ مِمَّنْ أَمْتَنَعَ أَوْ لَا أَنْ يَدْخُلَهَا، وَمَاتَ هَارُونَ ثُمَّ مُوسَى ﷺ قَبْلَ فَتْحِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَكَانَ مُوسَى لَمَّا لَمْ يَنْتَهِيَ لَهُ دُخُولُهَا لِغَلَبَةِ الْجَبَّارِينَ عَلَيْهَا، وَلَا يُمَكِّنُ نَبْشُ قَبْرِهِ بَعْدَ ذَلِكَ لِيُنْقَلَ إِلَيْهَا؛ طَلَبَ الْقُرْبَ مِنْهَا، لِأَنَّ مَا قَارَبَ الشَّيْءُ يُعْطَى حُكْمُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

يوشع بن نون ﷺ

ثم صارت النبوة في يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب ﷺ، فغزا وهو نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجلٌ ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يني بها، ولما بين بها. ولا آخر قد بنى بُنياناً، ولما يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خِلَفَاتٍ^(١) وهو مُتَنَظِّرٌ ولا دَها. فغزا، فأذنى للقرية حين صلاة العصر، أو قريباً من ذلك، واتفق ذلك في آخر يوم الجمعة، وكانوا لا يُقَاتِلُونَ يوم السبت، فخشى إن دخلت ليلة السبت أن يسبوا. فقال للشمس: أنت مأمورة، وأنا مأمور، اللهم احبسها عليّ شيئاً، فحُبِسَتْ عليه حتى فتح الله عليه، و(إنَّ الشمسَ لم تُحْبَسْ لبشرٍ، إلا ليوشع، ليالي سار إلى بيت المقدس)، حتى فتح لهم، وقيل لهم: ﴿ادخلوا الباب﴾ أي باب مدينة بيت المقدس، ﴿سجداً﴾ أي: رُكْعاً، ﴿وقولوا حطة﴾ أي: اطلبوا المغفرة، وقولوا: حطة، أي: اخطأ عنا خطايانا، فبدلوا القول والفعل؛ فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حطة، أو قالوا: حبة في شعرة، أو حنطة حمراء فيها شعيرة، أو حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾، فأرسل الله على الظالمين منهم عذاباً من السماء، وقيل: أن الله أرسل عليهم طاعوناً فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً. فجمعوا ما غنموا - وكانت تنزل نار من السماء على الغنائم فتأكلها - فجاءت النار لتأكلها، فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلواً، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه، فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم

(١) الخلفة: الناقة الحامل العشاء.

الْغُلُولُ، فَلْتَبَايَعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَبَايَعَتْهُ فَلَصِقَتْ بِيَدِ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ، أَنْتُمْ غَلَلْتُمْ. فَأَخْرَجُوا لَهُ مِثْلَ رَأْسِ بَقْرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَوَضَعُوهُ فِي الْمَالِ وَهُوَ بِالصَّعِيدِ فَأَقْبَلَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهُ^(١).

كالب بن يوفنا

وكان القيمُّ بأمور بني إسرائيل بعد يوشع، كالب بن يوفنا - أحد أصحاب موسى ﷺ - وهو زوج أخته مريم، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله، وهما يوشع وكالب، وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

حزقيل بن بوذي

ثُمَّ مِنْ بَعْدِ كَالِبَ كَانَ الْقَائِمُ بِأُمُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَزْقِيلُ بْنُ بُوْذَى. وَهُوَ الَّذِي دَعَا اللَّهَ فَأَحْيَا الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرُ الْمَوْتِ، وَكَانُوا قَدْ فَرُّوا مِنَ الْوَبَاءِ، فَتَزَلُّوا بِصَعِيدٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ: مُوتُوا. فَمَاتُوا جَمِيعًا، فَحَظَرُوا عَلَيْهِمْ حَظِيرَةٌ دُونَ السَّبَاعِ، فَمَضَتْ عَلَيْهِمْ دُحُورٌ طَوِيلَةٌ، فَمَرَّ بِهِمْ حَزْقِيلُ ﷺ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ مُتَمَكِّرًا، فَقِيلَ لَهُ: أَتُحِبُّ أَنْ يَبْعَثَهُمُ اللَّهُ وَأَنْتَ تَنْظُرُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَأَحْيَاهُمُ اللَّهُ

(١) قال نبينا عليه الصلاة والسلام: (فَلَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِنَا، ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ ﷻ رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجَزَنَا، فَطَيَّبَهَا لَنَا).

جميعاً وهو ينظر إليهم.

إلياس عليه السلام

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٢﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٣﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٤﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٥﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٦﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِلَٰهٍ يَاسِينَ ﴿١٢٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾﴾ فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، وَأَرَادُوا قَتْلَهُ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ هَرَبَ مِنْهُمْ، وَاخْتَفَى عَنْهُمْ.

اليسع عليه السلام

وَكَانَ الْيَسَعُ بَعْدَ إِلْيَاسَ ﷺ فَمَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمُوتَ؛ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ مُسْتَمْسِكًا بِمِنْهَاجِ إِلْيَاسَ وَشَرِيعَتِهِ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ ﷻ، إِلَيْهِ، ثُمَّ خَلَفَ فِيهِمُ الْخُلُوفُ، وَعَظُمَتْ فِيهِمُ الْأَحْدَاثُ وَالْخَطَايَا، وَكَثُرَتِ الْجَبَابِرَةُ، وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ، وَكَانَ فِيهِمْ مَلِكٌ جَبَّارٌ عَنِيدٌ طَاغٍ.



من الأنبياء والأقوام الذين أشير إليهم

وقد ذكر بعض الأنبياء ولم تذكر أحداث وتفاصيل قصصهم، ومنهم شيث^(١) ابن آدم ﷺ، ومن بعده أخنوخ وهو إدريس عليه السلام. ومنهم ذو الكفل، زعم قوم أنه ابن أيوب عليه السلام. والظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقرؤنا مع السادة الأنبياء أنه نبي عليه من ربه الصلاة والسلام. وهذا هو المشهور، وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً، وإنما كان رجلاً صالحاً وحكماً مفسطاً عادلاً.

وأشير في القرآن إلى أصحاب الرس، والرس بئر رُسوا فيها نبيهم، أي: دفنوه فيها. وقيل: إن عهدهم كان قبل نزول التوراة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾.

وكذلك ذكر أصحاب القرية - وهم الذين جاءت قصتهم في سورة يس - واشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية أنطاكية، وقد أرسل الله إليهم أولاً رسولين ليدعواهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذبوهما، فقواهما الله بإرسال رسول ثالث معهم، وجاء من أقصى القرية رجل مسرع خوفاً على قومه من تكذيب الرسل وتهديدهم بالقتل والإيذاء، ونصح قومه باتباع الرسل، فما كان من قومه إلا أن قتلوه، فأدخله الله الجنة. وقال متمنياً: يا ليت قومي الذين كذبوني وقتلوني يعلمون بما حصل لي من مغفرة الذنوب، وبما أكرمني به ربي؛ ليؤمنوا مثلما آمنت.

(١) ومعنى شيث: هبة الله، وسمياه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قُتل هابيل. ويقال: إن أنساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شيث.

قصة أصحاب الكهف

وكان فتيةٌ من أبناء ملوك الروم وسادتهم، خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم، حيث كان لهم مجتمعٌ في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكان قومهم يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملكٌ جبارٌ عييدٌ يقال له: «دقيانوس»، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه. فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض. فجعل كل واحدٍ منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية. فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحدٌ منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، والأرواح جنودٌ مجتدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

وجعل كل واحدٍ منهم يكتُم ما هو فيه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون - والله يا قوم - إنه ما أخرَجكم من قومكم وأفردكم عنهم، إلا شيءٌ فليظهر كل واحد منكم بأمره. فقال آخر: أما أنا فإنني والله رأيت ما قومي عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيءٌ هو الله الذي خلق كل شيء. وقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق،

فَاتَّخَذُوا لَهُمْ مَعْبَدًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فِيهِ، فَعَرَفَ بِهِمْ قَوْمُهُمْ، فَوَشَّوْا بِأَمْرِهِمْ إِلَى مَلِكِهِمْ، فَاسْتَحْضَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَسَأَلَهُمْ عَنْ أَمْرِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ فَأَجَابُوهُ بِالْحَقِّ، وَدَعَاَهُ إِلَى اللَّهِ ﷻ؛ وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ أَي: لَا يَقَعُ مِنَّا هَذَا أَبَدًا؛ لِأَنَّا لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَكُنَّا بَاطِلًا وَكَذِبًا وَبُهْتَانًا. فَيُقَالُ: إِنَّ مَلِكَهُمْ لَمَّا دَعَاَهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، أَبِي عَلَيْهِمْ، وَتَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ، وَأَمَرَ بِنَزْعِ لِبَاسِهِمْ عَنْهُمْ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ زِينَةِ قَوْمِهِمْ، وَأَجْلَسَهُمْ لِيَنْظُرُوا فِي أَمْرِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يُرَاجِعُونَ دِينَهُمْ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ. وَكَانَ هَذَا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ فِي تِلْكَ النَّظَرَةِ^(١) تَوَصَّلُوا إِلَى الْهَرَبِ مِنْهُ، وَالْفِرَارِ بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ. وَأَخَذَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ وَدَخَلَ الْفِتْيَةُ الْكَهْفَ سَائِلِينَ اللَّهَ تَعَالَى رَحْمَتَهُ وَلُطْفَهُ بِهِمْ، فَصَبَّرَهُمُ اللَّهُ عَلَى مُحَالَفَةِ قَوْمِهِمْ وَمَدِينَتِهِمْ، وَمُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَالسَّعَادَةِ وَالنَّعْمَةِ، وَضَرَبَ عَلَى آذَانِهِمْ فَنَامُوا، فَأَرْسَلَ اللَّهُ مَنْ يُقَلِّبُهُمْ وَحَوْلَ الشَّمْسِ عَنْهُمْ فَلَوْ طَلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَأَحْرَقَتْهُمْ وَلَوْ لَا أَنَّهُمْ يُقَلِّبُونَ لَا كَلَّتُهُمُ الْأَرْضُ، وَرَبَضَ كَلْبُهُمْ عَلَى الْبَابِ كَأَنَّهُ يَحْرُسُهُمْ كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْكِلَابِ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ كَلْبٌ صَيِّدٌ لِأَحَدِهِمْ. وَكَانَ جُلُوسُهُ خَارِجَ الْبَابِ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ. وَشَمَلَتْ كَلْبُهُمْ بَرَكَتُهُمْ، فَأَصَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ النَّوْمِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ. وَهَذَا فَايِدَةُ صُحْبَةِ الْأَخْيَارِ؛ فَإِنَّهُ صَارَ لِهَذَا الْكَلْبِ ذِكْرٌ وَخَيْرٌ وَشَأْنٌ. وَأَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَهَابَةَ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ نَظَرُ أَحَدٍ عَلَيْهِمْ إِلَّا هَابَهُمْ؛ لَمَّا أَلْبَسُوا مِنَ الْمَهَابَةِ وَالذُّعْرِ، لِئَلَّا يَدْنُو مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَا تَمَسَّهُمْ يَدٌ لَا مِسٍّ، حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَتَنْقُضِي رَفْدَتُهُمُ الَّتِي شَاءَ ﷻ فِيهِمْ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحُجَّةِ وَالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ. فَجَاءَ أَهَالِيَهُمْ يَطْلُبُونَهُمْ فَفَقَدُوهُمْ فَأَخْبَرُوا الْمَلِكَ، وَتَطَلَّبَهُمُ الْمَلِكُ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِهِمْ، وَعَمَى اللَّهُ عَلَيْهِ خَبَرُهُمْ. فَأَمَرَ بِكِتَابَةِ أَسْمَائِهِمْ فِي لَوْحٍ مِنْ رِصَاصٍ

- وهو الرقيم - وجعله في خزانته، ثم ذهب ذلك الملك وجاء آخر فكسّر الأوثان وعبد الله وعدل، فبعث الله أصحاب الكهف صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿كَمْ لَيْسْتُمْ؟﴾ أي: كم رقدتم؟، وكان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار؛ فقالوا: ﴿لَيْسْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ثم قالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسْتُمْ﴾، وحصل احتياجهم إلى الطعام والشراب، فأرسلوا واحداً منهم يأتيهم بما يأكلون، فدخل المدينة مستخفياً فرأى هيئة وناساً أنكرهم لطول المدة فدفع درهماً إلى خباز فاستنكر ضربه وهم بأن يرفعه إلى الملك، فقال: أتخوفني بالملك وأبي دهقانه^(١). فقال: من أبوك؟! قال: فلان. فلم يعرفه، واجتمع الناس، فرفعوه إلى الملك، فسأله، فقال: عليّ باللوح، وكان قد سمع به، فسَمَى أصحابه فعرّفهم من اللوح، فكبر الناس وأنطلقوا إلى الكهف، وسبق الفتى لئلا يخافوا من الجيش فلما دخل عليهم؛ عمى الله على الملك ومن معه المكان، فلم يدركوا أين ذهب الفتى، فاتفق رأيهم على أن يبنوا عليهم مسجداً فجعلوا يستغفرون لهم ويدعون لهم.



(١) الدهقان: رئيس القرية وزعيم الفلاحين. والتاجر الكبير، ومن له مال عقار، ومدير الأعمال القوي على التصرف مع شدة خبرته.

قصة أصحاب السبت

و كان أهل أيلة - بين مدين والطور - مُمَسِّكِينَ بِدِينِ التَّوْرَةِ فِي تَحْرِيمِ السَّبْتِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَكَانَتِ الْحِيتَانُ قَدْ أَلْفَتْ مِنْهُمُ السَّكِينَةَ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ ۖ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الْإِصْطِيَادُ فِيهِ وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الصَّنَائِعِ وَالتَّجَارَاتِ وَالْمَكَاسِبِ، فَكَانَتِ الْحِيتَانُ فِي مِثْلِ يَوْمِ السَّبْتِ يَكْثُرُ غَشْيَانُهَا لِمَحِلَّتِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ؛ فَتَأْتِي مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا ظَاهِرَةً آمِنَةً مُسْتَرْسِلَةً فَلَا يَهَيِّجُونَهَا وَلَا يَذْعُرُونَهَا، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَصْطَادُونَهَا فِيمَا عَدَا السَّبْتِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ أَي: نَخْتَبِرُهُمْ بِكَثْرَةِ الْحِيتَانِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أَي: بِسَبَبِ فِسْقِهِمُ الْمُتَقَدِّمِ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ احْتَالُوا عَلَى اصْطِيَادِهَا فِي يَوْمِ السَّبْتِ، بِأَنْ نَصَبُوا الْحِبَالَ وَالشُّبَاكَ وَالشُّصُوصَ، وَحَفَرُوا الْحُفَرَ الَّتِي يَجْرِي مَعَهَا الْمَاءُ إِلَى مَصَانِعَ قَدْ أَعَدُّوَهَا، إِذَا دَخَلَهَا السَّمَكُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا، فَفَعَلُوا ذَلِكَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَإِذَا جَاءَتِ الْحِيتَانُ مُسْتَرْسِلَةً يَوْمَ السَّبْتِ، عَلِقَتْ بِهَذِهِ الْمَصَايِدِ، فَإِذَا خَرَجَ سَبْتُهُمْ أَخَذُوهَا، فَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ۖ لَمَّا احْتَالُوا عَلَى خِلَافِ أَمْرِهِ، وَانْتَهَكُوا مَحَارِمَهُ بِالْحِيلِ الَّتِي هِيَ ظَاهِرَةٌ لِلنَّاطِرِ، وَهِيَ فِي الْبَاطِنِ مُخَالَفَةٌ مُحْضَةٌ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ افْتَرَقَ الَّذِينَ لَمْ يَفْعَلُوا فِرْقَتَيْنِ ۖ فِرْقَةٌ أَنْكَرُوا عَلَيْهِمْ صَنِيعَهُمْ هَذَا وَاحْتِيَالَهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ اللَّهِ وَشَرِّهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَفِرْقَةٌ أُخْرَى لَمْ يَنْصَحُوا وَلَمْ يَنْهَوْا، وَاکْتَفَوْا بِانْكَارِ قُلُوبِهِمْ ذَلِكَ الْفِعْلَ، وَقَالُوا لِلنَّاصِحِينَ: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ مَا الْفَائِدَةُ فِي نَهْيِكُمْ هَؤُلَاءِ وَقَدْ اسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ لَا مَحَالَةَ؟، فَأَجَابَتْهُمْ الطَّائِفَةُ النَّاصِحَةُ بِأَنْ قَالُوا: ﴿مَعْذَرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أَي:

فِيمَا أُمِرْنَا بِهِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَتَقُومُ بِهِ خَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١٦٤) ﴿أَيُّ: وَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ يَتْرُكُونَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الصَّنِيعِ، فَيَقِيهِمْ اللَّهُ عَذَابَهُ وَيَعْفُو عَنْهُمْ إِذَا هُمْ رَجَعُوا وَاسْتَمَعُوا.﴾ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ﴿فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى مَنْ نَهَاهُمْ عَنْ هَذَا الصَّنِيعِ الشَّنِيعِ الْفَظِيعِ أَنْجَى اللَّهُ﴾ ﴿الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْأُسُوءِ﴾ ﴿وَهُمُ الْفِرْقَةُ الْأَمِيرَةُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيَةِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَخَذَ﴾ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ﴿وَهُمُ الْمُرْتَكِبُونَ الْمَعْصِيَةَ الْفَاحِشَةَ﴾ ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ ﴿وَهُوَ الشَّدِيدُ الْمُؤْلِمُ الْمُوجِعُ﴾ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٥) ﴿وَقَالَ لَهُمْ:﴾ ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١٦٥). فَأَهْلَكَ اللَّهُ الظَّالِمِينَ، وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ الْمُنْكَرِينَ^(١).



(١) وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَصِيرِ السَّاكِتِينَ عَلَى قَوْلَيْنِ؛ فَقِيلَ: إِنَّهُمْ مِنَ النَّاجِينَ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ مِنَ الْهَالِكِينَ. وَالصَّحِيحُ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّهُمْ مِنَ النَّاجِينَ. وَهُوَ الَّذِي رَجَعَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ، إِمَامُ الْمُفَسِّرِينَ، وَذَلِكَ عِنْدَ مُنَاطَرَةِ مَوْلَاهُ عِكْرِمَةَ، فَكَسَاهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حُلَّةً سَنِيَّةً؛ تَكْرِمَةً. وَإِنَّمَا لَمْ يُذَكِّرُوا مَعَ النَّاجِينَ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِنْ كَرِهُوا بِبَوَاطِنِهِمْ وَأَنْكَرُوا بِقُلُوبِهِمْ تِلْكَ الْفَاحِشَةَ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَحْمِلُوا ظَوَاهِرَهُمْ بِالْعَمَلِ الْمَأْمُورِ بِهِ مِنَ الْإِنْكَارِ الْقَوْلِيِّ، الَّذِي هُوَ أَوْسَطُ الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ، الَّتِي أَعْلَاهَا الْإِنْكَارُ بِالْيَدِ ذَاتِ الْبَنَانِ، وَبَعْدَهَا الْإِنْكَارُ الْقَوْلِيُّ بِاللِّسَانِ، وَثَالِثُهَا الْإِنْكَارُ بِالْجَنَانِ. فَلَمَّا لَمْ يُذَكِّرُوا، لَمْ يُذَكِّرُوا مَعَ النَّاجِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قصة طالوت وجالوت

ثم إن بني إسرائيل لما أَنهَكَتْهُمْ الحُرُوبُ، وَقَهَرَهُمُ الأَعْدَاءُ، سَأَلُوا نَبِيَّ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ^(١) وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُنْصَبَ لَهُمْ مَلِكًا يَكُونُونَ تَحْتَ طَاعَتِهِ؛ لِيُقَاتِلُوا مِنْ وَرَائِهِ وَمَعَهُ وَيَبَيِّنَ يَدَيْهِ الأَعْدَاءَ.

فخشي عليهم ألا يُفُوا بما وَعَدُوا من القيام بالجهاد، فأصروا وأجابوا بأنه لا شيء يحول بينهم وبين الجهاد في سبيل الله، وخاصة أنهم أخرجوا من ديارهم، وسُبي أبناؤهم. فلمَّا فَرَضَ الله عليهم القتالَ؛ لَمْ يُفُوا بالوعد! بل أَذْبَرُوا ناكِلِينَ عن الجهاد إِلَّا عَدَدًا قَلِيلًا منهم، والله تعالى يعلم مَنْ ظلم منهم، وأخلف وعده، وسيجزيه على ظلمه. ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ نَبِيُّهُمْ أَنَّ الله قد أَجَابَهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا، وَعَيَّنَ لَهُمْ طَالُوتَ مَلِكًا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ طَالُوتَ رَجُلًا مِنْ عَامَّتِهِمْ، لَا يَتَنَمَّى إِلَى سَبْطِ مَلُوكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمْ يُسَلِّمُوا لِمَا اخْتَارَهُ اللهُ لَهُمْ! بل اعترضوا على ذلك فقالوا: كيف يكون ملكًا علينا وهو دُونَنَا فِي الشَّرَفِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ أَصْحَابِ الأَمْوَالِ، كَمَا هُوَ حَالُ المَلُوكِ؟! فَأَخْبَرَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ لَهُمْ، وَاخْتَصَّه مِنْ بَيْنِهِمْ، وَأَعْطَاهُ زِيَادَةً فِي العِلْمِ، وَطَوَّلَ قَامَةً، وَقُوَّةً فِي الجَسَدِ، ثُمَّ إِنَّ المُلْكَ لَهِىَ وَحْدَهُ يَرُؤُتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ وَاسِعُ الفَضْلِ وَالكَرَمِ، لَا يَخْصُ بِكَرْمِهِ شَرِيفًا عَنْ وَضِيعٍ، أَوْ غَنِيًّا عَنْ فَقِيرٍ، عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ ذَلِكَ عِلْمُهُ بِمَنْ يَصْلُحُ لِلْمُلْكِ مِنْ غَيْرِهِ.

وقال لهم نبيهم أيضًا: إِنَّ العَلَامَةَ الدَّالَّةَ عَلَى صِحَّةِ تَنْصِيبِ طَالُوتَ مَلِكًا عَلَيْهِمْ

(١) قيل أنه: شَمُورِيلُ ﷺ.

هي أن يُردَّ إليهم التابوت - الذي سُلِبَ منهم - حاوياً ما يُهدِّئ نفوسهم فتطمئنَّ به قلوبهم، ومما يحويه أشياء تَبَقَّتْ من تَرِكَةِ موسى وهارون عليهما السلام، يحمل هذا التابوت إليهم الملائكة عليهم السلام، وإنَّ في هذا الأمر لعلامةً واضحةً لكم على اختيار الله لطالوت؛ ليكونَ ملكاً عليكم، إنَّ كنتم مؤمنين بالله، ومصدِّقين لما أخبرتكم به. فلمَّا أذعنوا أخيراً لِمُلْكِ طالوت عليهم بعد أن جاءهم التابوت؛ انضمُّوا إليه لقتال عدوِّهم.

فلمَّا جاوزوا موطنهم في طريقهم إلى ملاقاتِ العدوِّ، أعلمهم طالوت أن الله مختبرُهم بنهرٍ؛ ليُظْهِرَ الكاذب من الصادق، ويتميِّزَ الصابر من الجازع، وأعلن طالوتُ براءته مِن كُلِّ مَنْ يَشْرِبُ منه، وأنَّه لن يَصْحَبَهُ مع الجيش إلى القتال، وأنَّ مَنْ لم يَطْعَمْه - إِلَّا أَنْ يَغْتَرَفَ بِكَفِّهِ غُرْفَةً واحدةً - فَإِنَّهُ منه، فَشَرِبَ معظمُهم، ولم يَطْعَمْ الأمر إلا قليلٌ منهم ممَّنَ وفقهم الله تعالى وثبَّتَهم.

فلمَّا تعدَّى طالوت النهر ومَن آمن معه، ممَّن أطاعوه فلم يشربوا من النهر أو شربوا غرفة واحدة - قال بعضهم لَمَّا رَأَوْا من كثرة أعدائهم مقارنة بعددهم القليل: لا قُدْرَةَ لنا هذا اليوم بقتال جالوت وجنوده؛ لكثرة عددهم وعَتَادِهِمْ، فحينها قال لهم الموقنون برُجوعهم إلى الله تعالى: ما أَكْثَرَ ما تغلبُ الجماعةُ القليلةُ الجماعةَ الكثيرة! وذلك بمشيئة الله تعالى؛ فلا تفيد الكثرة مَن خَذَلَهُ الله، ولا تضرُّ القِلَّةُ مَن وفقه الله، والله سبحانه مع الصَّابرين.

ولَمَّا ظَهَرَ المؤمنون - طالوت وجُنوده - لجالوت وجُنوده، دعا أهل الإيمان ربَّهم أن يُلْهِمَهُم الصَّبْرَ، ويثبِّت أقدامَهُمْ، وأن ينصرَهُم على أهل الكفر، فاستجاب الله دُعَاءَهُمْ، وغلب المؤمنون عدوَّهُمْ، وكان داودُ عليه السلام من جنود طالوت، فسَلَّطَهُ اللهُ على جالوت فقتله، وأعطاه الله داودَ المُلْكَ والنبوةَ وآتاه من العِلْمِ ما يشاء سبحانه.



داود ﷺ

وَكَانَ دَاوُدُ عَبْدَ الْبَشَرِ، وَأَحَبُّ الصَّيَامِ إِلَى اللَّهِ؛ صِيَامُ دَاوُدَ ﷺ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ.

وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ عَلَى دَاوُدَ لِيَمَانٍ عَشْرَةَ لَيْلَةٍ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَخَفَفَ عَلَى دَاوُدَ قِرَاءَتَهُ، فَكَانَ مَا بَيْنَ أَنْ يَسْرَجَ دَابَّتَهُ عَلَى أَنْ يَرْكَبَهَا يَقْرَأُ قِرْآنَهُ وَهُوَ الزَّبُورُ.

وَأَتَى اللَّهُ دَاوُدَ نُبُوَّةً وَمُلْكًا، وَقَوَى اللَّهُ مَلِكُ دَاوُدَ بِمَا وَهَبَهُ مِنَ الْهَيْبَةِ وَالنَّصْرِ، وَجَعَلَهُ ذَا قُوَّةٍ عَلَى مَقَارَعَةِ أَعْدَائِهِ وَالصَّبْرَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَأَعْطَاهُ الْحِكْمَةَ وَالْفَصْلَ فِي الْكَلَامِ وَالْحُكْمِ، وَجَعَلَ الْجِبَالَ وَالطَّيْرَ تَرْجِعُ مَعَهُ التَّسْبِيحَ، وَصَيَّرَ لَهُ الْحَدِيدَ لِنِئَانٍ لِيَصْنَعَ مِنْهُ مَا يَشَاءُ مِنْ أَدَوَاتٍ، وَعَلَّمَهُ اللَّهُ أَنْ يَصْنَعَ دُرُوعًا وَاسِعَةً تَقِي مَقَاتِلِيهِ بِأَسْعَدِهِمْ، وَيُصَيِّرُ الْمَسَامِيرَ مَنَاسِبَةً لِلْحِلْقِ فَلَا تَكُونُ دَقِيقَةً بِحَيْثُ لَا تَسْتَقِرُّ فِيهَا، وَلَا غَلِيظَةً بِحَيْثُ لَا تَدْخُلُ فِيهَا. وَإِنَّ لُقْمَانَ كَانَ عِنْدَ دَاوُدَ وَهُوَ يَسْرُدُ الدَّرْعَ فَجَعَلَ يَفْتِلُهُ بِيَدِهِ وَلُقْمَانُ يَتَعَجَّبُ وَيُرِيدُ أَنْ يَسْأَلَهُ وَتَمَنُّعُهُ حِكْمَتُهُ أَنْ يَسْأَلَهُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا صَبَّهَا عَلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: نِعْمَ دِرْعُ الْحَرْبِ هَذِهِ. فَقَالَ لُقْمَانُ: الصَّمْتُ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ، كُنْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَكَ، فَسَكَتُ حَتَّى كَفَيْتَنِي.



سليمان عليه السلام

وَوُهِبَ لِدَاوُدَ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ إِنْعَامًا مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَتَفَضَّلًا لِّتَقَرَّ عَيْنُهُ بِهِ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ كَثِيرَ التَّوْبَةِ وَالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَرُفِعَتْ لِدَاوُدَ وَابْنِهِ سُلَيْمَانُ عليهما السلام قَضِيَّةٌ بِشَأْنِ خَصْمَيْنِ؛ لِأَحَدِهِمَا غَنَمٌ انْتَشَرَتْ لَيْلًا فِي حَرْثِ (زَرْع) الْآخَرِ فَأَفْسَدَتْهُ، وَكَانَ حَرْثُهُمْ عَنَبًا نَفَشَتْ فِيهِ الْغَنَمُ، أَيْ: رَعَتْ لَيْلًا، فَقَضَى دَاوُدُ بِالْغَنَمِ لَهُمْ، فَمَرُّوا عَلَى سُلَيْمَانَ فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: لَا، وَلَكِنْ أَقْضِي بَيْنَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا الْغَنَمَ فَيَكُونَ لَهُمْ لَبْنُهَا وَصُوفُهَا وَمَنْفَعَتُهَا، وَيَقُومُوا هَؤُلَاءِ عَلَى حَرْثِهِمْ حَتَّى إِذَا عَادَ كَمَا كَانَ رَدُّوا عَلَيْهِمْ غَنَمَهُمْ. وَخَرَجَتْ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا صَبِيَّانِ لَهُمَا، فَعَدَا الذَّبُّ عَلَى إِحْدَاهُمَا فَأَخَذَ وَلَدَهَا. فَقَالَتْ هَذِهِ لِصَاحِبَتَيْهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكَ أَنْتِ، وَقَالَتِ الْآخَرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكَ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عليه السلام فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عليهما السلام فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: اتَّوْنِي بِالسَّكِينِ أَفْطَعُهُ بَيْنَكُمَا نِصْفَيْنِ، لِهَذِهِ نِصْفٌ، وَلِهَذِهِ نِصْفٌ، فَقَالَتِ الْكُبْرَى: نَعَمْ، أَقْطَعُوهُ، وَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَقْطَعُهُ يَرَحْمُكَ اللَّهُ، هُوَ ابْنُهَا. فَقَالَ: هُوَ ابْنُكَ. فَقَضَى بِهِ لِلَّتِي أَبَتْ أَنْ يَقْطَعَهُ.

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ أَبَاهُ دَاوُدَ فِي النُّبُوَّةِ وَالْعِلْمِ وَالْمُلْكِ، وَقَالَ مُتَحَدِّثًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَبِيهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَّمَنَا اللَّهُ فَهَمُ أَصْوَاتِ الطَّيْرِ، وَأَعْطَانَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَعْطَاهُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُلُوكُ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ.

وَكَانَ لِنَبِيِّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عليهما السلام مِائَةُ امْرَأَةٍ، فَقَالَ: لَا طُوفَنَّ اللَّيْلَةُ عَلَى نِسَائِي، فَلَتَحْمِلَنَّ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ وَلَتَلِدَنَّ فَارِسًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: قُلْ: إِنْ

شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، جَاءَتْ بِنِصْفِ إِنْسَانٍ^(١). وعرضت عليه عصراً الخيول الأصيلة السريعة، تقف على ثلاث قوائم، وترفع الرابعة، فلم تزل تُعرض عليه تلك الخيول الأصيلة حتى غربت الشمس، فقال سليمان: إني أثرت حب المال - ومنه هذه الخيل - على ذكر ربي حتى غابت الشمس وتأخرتُ عن صلاة العصر، ردوا علي هذه الخيل. فردوها عليه، فبدأ يضرب بالسيف سوقها وأعناقها^(٢).

ولما فرغ سليمان بن داود ﷺ من بناء بيت المقدس سأل الله ﷻ خلافاً لثلاثة: سأل الله حكماً يصادف حكمه؛ فأعطاه الله إياه. وسأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده؛ فأعطاه إياه. وألا يأتي هذا المسجد^(٣) أحد لا يريد إلا الصلاة فيه؛ أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه. قال نبينا محمد ﷺ: وأرجو أن يكون قد أعطي الثالثة.

وطوّع الله لسليمان الريح شديدة الهبوب تجري بأمره إذا أمرها إلى أرض الشام. تسير في الصباح مسافة شهر، وتسير في المساء مسافة شهر، وتنقاد بأمره لينة لا زعزعة فيها مع قوتها وسرعة جريها، تحمله حيث أراد. وسبّل الله له عين النحاس ليصنع من النحاس ما يشاء، وسخر له من الجن من يعمل بين يديه بأمر ربه، وذلك له الشياطين يأترون بأمره، فمنهم البناؤون يعملون له ما أراد من مساجد للصلاة ومن قصور، وما يشاء من صور، وما يشاء من قصاع مثل حياض الماء الكبيرة،

(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ لَحَمَلَتْ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ، فَوَلَدَتْ فَارِسًا، وَلَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَجْمَعُونَ. وعليه حمل بعض المفسرين معني الآية: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

(٢) قيل إنه ذبحها وجعلها صدقة للفقراء، فلا يبقى منها شيء يشغله عن ذكر الله، فتقرب إلى الله بشيء من أحب المال إليه، ليزداد طاعة وقربة، ولا يشغله شيء من المال والدنيا عن طاعة الله وعن الصلاة.

(٣) يعني المسجد الأقصى ببيت المقدس.

وقدور الطبخ الثابتات فلا يُحرَّكَنَّ لِعِظَمِهِنَّ. ومنهم الغواصون الذين يغوصون في البحار، فيستخرجون الدرر منها. والذي يميل من الجن عمَّا أمر به من العمل يناله عذاب أليم. ومن الشياطين أيضًا مرده سُخْرُوا له، فهم بأمره موثقون في الأغلال لا يستطيعون التحرك. وقيل له: يا سليمان، هذا عطاؤنا الذي أعطيناكه استجابة لما طلبت منا، فأعط من شئت، وامنع من شئت، فلن تحاسب في إعطاء أو منع. وقيل: اعملوا - يا آل داود - شكرًا لله على ما أنعم به عليكم، وقليل من عباد الله هم الشكورون على ما أنعم الله عليهم.

وجُمع لسليمان جنوده من البشر والجن والطير، فهم يُساقون بنظام، حتَّى إذا جاؤوا إلى وادي النمل (موضع بالشام) قالت نملة من النمل: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم؛ حتَّى لا يهلككم سليمان وجنوده وهم لا يعلمون بكم، إذ لو علموا بكم لما داسوكم.

فلما سمع سليمان كلامها تبسّم ضاحكًا من قولها هذا، وقال داعيًا ربه سبحانه: ربِّ وفقني وألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وعلى والديّ، ووفقني أن أعمل عملاً صالحًا ترضيه، وأدخلني برحمتك في جملة عبادك الصالحين.

وتعهّد سليمان الطيرَ وتفقدّهم فلم ير الهدهد، فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ أمني من رؤيته مانع؟ أم كان من الغائبين؟، فلما تبين له غيابه قال: لأعذّبته عذابًا شديدًا، أو لأذبحته عقابًا له على غيابه، أو ليأتيني بحجة واضحة تبين عذره في الغياب. فمكث الهدهد في غيابه زمناً غير بعيد، فلما جاء قال لسليمان ﷺ: اطلعت على ما لم تطلع عليه، وجئتك من أهل سبأ بخبر صادق لا شك فيه. إني وجدت امرأة تحكمهم، وأعطيت هذه المرأة من كل شيء من أسباب القوة والملك، ولها سرير عظيم تدير من عليه شؤون قومها، وقد جدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﷻ، وحسّن لهم الشيطان ما هم عليه من أعمال الشرك والمعاصي، فصرّ فهم عن طريق الحق،

فهم لا يهتدون إليه، وأضلهم لئلا يسجدوا لله الذي يُخرج ما ستره في السماء من المطر، وفي الأرض من النبات، ويعلم ما يخفيه الناس من الأعمال وما يظهرونه، لا يخفى عليه من ذلك شيء، الله الذي لا معبود بحق غيره، هو رب العرش العظيم.

فقال سليمان ﷺ للهدد: سننظر أصدقت فيما تدعيه عن مملكة سبأ، أم كنت من الكاذبين. ثم كتب سليمان كتابًا، وسلمه للهدد، وقال له: اذهب بكتابي هذا فارمه إلى أهل سبأ وسلمهم إياه، وتنح عنهم جانبًا بحيث تسمع ما يرددون بشأنه.

واستلمت الملكة الكتاب، وقالت: يا أيها الأشراف إني ألقى إلي كتاب كريم جليل. مضمون هذا الكتاب المرسل من سليمان المفتتح بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»: ألا تتكبروا، وأتوني منقادين مستسلمين لما أدعوكم إليه من توحيد الله وترك ما أنتم عليه من الشرك به، حيث عبدتم الشمس.

ثم قالت الملكة: يا أيها الأشراف والسادة، بينوا لي وجه الصواب في أمري، ما كنت قاضية أمرًا حتى تحضروني، وتظهروا رأيكم فيه.

فقال لها الأشراف من قومها: نحن أصحاب قوة عظيمة، وأصحاب بأس قوي في الحرب، والرأي ما تريته فانظري ماذا تأمريننا به فنحن قادرون على تنفيذه.

قالت الملكة: إن الملوك إذا دخلوا قرية من القرى أفسدوها بما يقومون به من القتل والسلب والنهب، وصيروا ساداتها وأشرافها أذلاء بعد ما كانوا فيه من العزة والمنعة، وكذلك يفعل الملوك دائمًا إذا تغلبوا على أهل قرية؛ ليزرعوا الهيبة والرعب في النفوس، وإني مرسلة إلى صاحب الكتاب وقومه هدية، وأنظر ماذا تأتي به الرسل بعد إرسال هذه الهدية.

فلما جاء رسولها ومن معه يحملون الهدية إلى سليمان أنكر عليهم سليمان إرسال الهدية قائلاً: أتمدونني بالأموال لتثنوني عنكم، فما أعطاني الله من النبوة والملك

والمال خير مما أعطاكم، بل أنتم الذين تفرحون بما يُهدى إليكم من حطام الدنيا.

ثم قال سليمان ﷺ لرسولها: ارجع إليهم بما جئت من هدية، فلنأتينها وقومها بجنود لا طاقة لهم بمواجهتهم، ولنخرجهم من سبأ وهم أدلة مهانون بعد ما كانوا فيه من العزة إن لم يأتوني منقادين.

وقال سليمان ﷺ مخاطبًا أعيان أهل ملكه: يا أيها الملأ، أيكم يأتيني بسرير ملكها قبل أن يأتوني منقادين؟، فأجابه مارد من الجن قائلاً: أنا آتيك بسريرها قبل أن تقوم من مجلسك هذا الذي أنت فيه، وإني لقوي على حمله أمين على ما فيه، فلن أنقص منه شيئاً.

وقال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك بسريرها قبل أن ترمش عينك؛ فلما رأى سليمان سريرها مستقرًا عنده قال: هذا من فضل ربي سبحانه؛ ليختبرني أشكر نعمه أم أكفرها؟ ومن شكر الله فإنما نفع شكره عائد إليه، فالله غني لا يزيده شكر العباد، ومن جحد نعم الله فلم يشكره له فإن ربي غني كريم. ثم قال سليمان ﷺ: غيروا لها سرير ملكها عن هيئته التي كان عليها ننظر: هل تهتدي إلى معرفة أنه سريرها، أم تكون من الذين لا يهتدون إلى معرفة أشياءهم؟

فلما جاءت ملكة سبأ إلى سليمان قيل لها اختبارًا لها: أهذا مثل عرشك؟ فأجابت طبق السؤال: كأنه هو، فقال سليمان: وأعطانا الله العلم من قبلها لقدرته على مثل هذه الأمور، وكنا منقادين لأمر الله مطيعين له، وصرفها عن توحيد الله ما كانت تعبد من دون الله اتباعًا لقومها، وتقليدًا لهم، إنها كانت من قوم كافرين بالله، فكانت كافرة مثلهم.

وكان سليمان قد أمر الشياطين أن يبنوا في القصر صحنًا أو سطحًا من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين

الماشى وبينه، ثم قيل لها: ادخلي الصرح، فلما رآته ظنته ماءً فكشفت عن ساقها لتخوضه، قال سليمان ﷺ: إنه صرح مُملَّس من زجاج، ودعاها سليمان إلى الإسلام، فأجابته إلى ما دعاها إليه قائلة: رب إني ظلمت نفسي بعبادة غيرك معك، وانقذت الآن مع سليمان لله رب العالمين، وقيل أن سليمان تزوجها بعد إسلامها.

ولما مات سليمان ﷺ مَكَثَ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصَاهُ - وَهِيَ مِنْسَأَتُهُ - مُدَّةً طَوِيلَةً لَمْ تَحْدُدْ^(١)، فَلَمَّا أَكَلَتْهَا دَابَّةُ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْأَرْضُ^(٢)، ضَعُفَتْ وَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ؛ فَتَبَيَّنَتِ الْجِنُّ - وَالْإِنْسُ أَيْضًا - أَنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، كَمَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ وَيُوْهَمُونَ النَّاسَ ذَلِكَ؛ إِذْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَهُ لَمَا مَكَثُوا فِي الْعَذَابِ الْمَذَلِّ لَهُمْ، وَهُوَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا لِسُلَيْمَانَ ﷺ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُ حَيٌّ يَرِاقِبُهُمْ أَوْ أَنَّهُ فِي غَفْوَةٍ أَوْ فِي سِنَةٍ مِنَ النُّومِ. وَ إِنْ الْيَهُودَ لَمَا نَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى، وَانْحَرَفُوا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، ابْتَلَوْا بِعِبَادَةِ الشَّيَاطِينِ وَالتَّقَرَّبَ إِلَيْهِمْ بِالْكَفْرِ وَتَعَلَّمَ السَّحَرُ مِنْهُمْ. وَاتَّبَعُوا مَا تَدْعِيهِ الشَّيَاطِينُ الَّتِي كَفَرَتْ وَعَلَّمَتِ النَّاسَ السَّحَرَ وَادَّعَتْ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ سَاحِرًا، وَأَنَّ مَلِكَهُ قَامَ عَلَى السَّحَرِ.

والحقيقة أن سليمان ﷺ لم يكن ساحرًا ولم يكفر، بل كان نبيًا صالحًا آتاه الله

(١) قيل أنها: سنة. وأنهم لَمْ يَعْلَمُوا مُنْذُ كَمْ مَاتَ؟ فَوَضَعُوا الْأَرْضَ عَلَى الْعَصَا، فَأَكَلَتْ مِنْهَا يَوْمًا وَلَيْلَةً، ثُمَّ حَسِبُوا عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ، فَوَجَدُوهُ قَدْ مَاتَ مُنْذُ سَنَةٍ. وَيُرْوَى أَنَّ سُلَيْمَانَ ﷺ: قَالَ اللَّهُمَّ عَمَّ عَلَى الْجِنِّ مَوْتِي حَتَّى يَعْلَمَ الْإِنْسُ أَنَّ الْجِنِّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، وَكَانَتِ الْجِنُّ تَخْبِرُ الْإِنْسَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مِنَ الْغَيْبِ أَشْيَاءَ وَيَعْلَمُونَ مَا فِي غَدٍ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَحْرَابَ فَقَامَ يَصَلِّي مُتَكَيِّئًا عَلَى عَصَاهُ فَمَاتَ قَائِمًا، وَكَانَ لِلْمَحْرَابِ كُرْسِيٌّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَخَلْفَهُ، وَكَانَتِ الْجِنُّ يَعْمَلُونَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي حَيَاتِهِ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ حَيٌّ وَلَا يَنْكُرُونَ احْتِبَاسَهُ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى النَّاسِ لَطَوَّلَ صَلَاتُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَمَكَثُوا يَدَّابُونُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ حَوْلًا كَامِلًا حَتَّى أَكَلَتِ الْأَرْضُ عَصَا سُلَيْمَانَ.

(٢) الأرضة هي: النمل الأبيض، الذي يأكل الخشب والورق.

ملكاً عظيماً، ولكن الشياطين هم الذين كفروا بتعلّم وتعليم الناس السحر^(١). كما ادعى اليهود كذلك أن سليمان بنى هيكلًا مزعومًا، وإنما الذي بناه سليمان هو مسجد بيت المقدس كما تقدم.



(١) قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ﴾. وقيل عن (هاروت وماروت): إنهما ملكان أنزلهما الله، تشكلاً للناس؛ ليتعلموا منهما السحر حتى تكشف أسرار السحر التي كان يعملها السحرة، فأراد الله تكذيبهم بواسطتهما، وحتى يعلم الناس أن معجزات الأنبياء هي آيات من الله لا يستطيع الناس الإتيان بمثلها، أما السحر فهو تخيل وعلم يتعلم بعد أن يكفر صاحبه ويتعلمه من الشياطين. وقيل: إن هاروت وماروت رجلان تظاهرا بالصلاح ببابل، كانا يعلمان الناس السحر، وظن الناس أنهما ملكان نزلا من السماء؛ لما رآوه فيهما من التقوى، وبلغ مكر هذين الرجلين حين رأيا حسن اعتقاد الناس بهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما: «إنما نحن فتنة فلا تكفر»، يقولان ذلك لإيهام الناس أن علمهما إلهي، وأنهما لا يقصدان إلا الخير، كما يفعل ذلك كثير من الدجالين في سائر الأزمان، وسميا ملكين (بفتح اللام) لتلقيب الناس لهما بذلك، وفي أول الآية بيان أن الذين يعلمون الناس السحر إنما هم الشياطين، والله أعلم.

يونس

وَبَعَثَ اللَّهُ يُونُسَ عليه السلام ^(١)، إِلَى أَهْلِ نِينَوَى؛ مِنْ أَرْضِ الْمَوْصِلِ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَكَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ وَزِيَادَةً، فَكَذَّبُوهُ وَتَمَرَّدُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِمْ، خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَخَوَّفَهُمْ حُلُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِيَّتِهِمْ وَتَحَقَّقُوا نُزُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ، قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ، وَنَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَى نَبِيِّهِمْ، فَلَبَسُوا الْمُسُوحَ وَهِيَ ثِيَابٌ مِنْ شَعْرِ أَسُودَ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ كُلِّ بَهِيمَةٍ وَوَلَدِهَا، ثُمَّ عَجَّوْا إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَصَرَّخُوا وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ، وَتَمَسَّكُوا لِدَيْهِ، وَبَكَى الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَالْبُنُونَ وَالْبَنَاتُ، وَالْأُمّهَاتُ، وَجَارَتِ الْأَنْعَامُ وَالِدَوَابُّ وَالْمَوَاشِي، وَرَغَتِ الْإِبِلُ وَفُضِّلَانُهَا، وَخَارَتِ الْبَقَرُ وَأَوْلَادُهَا، وَثَعَتِ الْغَنَمُ وَحُمَلَانُهَا، وَكَانَتْ سَاعَةً عَظِيمَةً هَائِلَةً، فَكَشَفَ اللَّهُ الْعَظِيمَ، بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَرَأَفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، عَنْهُمْ الْعَذَابَ الَّذِي كَانَ قَدْ اتَّصَلَ بِهِمْ بِسَبَبِهِ، وَلَمَّا ذَهَبَ ﷻ مُغَاضِبًا بِسَبَبِ قَوْمِهِ ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أَيُّ؛ نُضِيقَ ^(٢). رَكِبَ سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ، فَلَجَّتْ بِهِمْ وَاضْطَرَبَتْ، وَمَاجَتْ بِهِمْ وَثَقُلَتْ بِمَا فِيهَا، وَكَادُوا يَغْرُقُونَ، فَاشْتَوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ يَقْتَرِعُوا، فَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ أَلْقَوْهُ مِنَ السَّفِينَةِ؛ لِيَتَخَفَّفُوا مِنْهُ، فَلَمَّا اقْتَرَعُوا وَقَعَتْ الْقُرْعَةُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ يُونُسَ، فَلَمْ يَسْمَحُوا بِهِ، فَأَعَادُوهَا ثَانِيَةً فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا، فَشَمَرَ لِيَخْلَعَ ثِيَابَهُ وَيُلْقِيَ بِنَفْسِهِ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ ذَلِكَ، ثُمَّ أَعَادُوا الْقُرْعَةَ ثَالِثَةً فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا؛ لِمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، وَلَمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ، أُلْقِيَ فِي الْبَحْرِ،

(١) هو يُونُسُ بْنُ مَتَى، وَمتى أبوه، وَيُقَالُ إِنَّهُ مِنْ نَسْلِ بَنِيَامِينَ بْنِ يَعْقُوبَ.

(٢) وَقِيلَ: مَعْنَاهُ نَقْدَرُ، مِنْ التَّقْدِيرِ.

وَبَعَثَ اللَّهُ ﷻ، حُوتًا عَظِيمًا مِنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ فَالْتَقَمَهُ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ - ظُلْمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ، وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ، وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ -: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فَلَوْلَا أَنَّهُ سَبَّحَ اللَّهُ هُنَالِكَ، وَقَالَ مَا قَالَ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ، وَالْإِعْتِرَافِ لِلَّهِ بِالْخُضُوعِ، وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ، لَلَبِثَ هُنَالِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَبِثَ مِنْ جَوْفِ ذَلِكَ الْحُوتِ. وَكَانَ مِنْ قَبْلِ أَخْذِ الْحُوتِ لَهُ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ أَيُّ الْمُطِيعِينَ الْمُصْلِينَ الدَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا. فَأَلْقَاهُ الْحُوتُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ الْمَكَانُ الْقَفْرُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْجَارِ، بَلْ هُوَ عَارٍ مِنْهَا ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ١٤٥ ﴿صَعِيفُ الْبَدَنِ. كَهَيْئَةِ الصَّبِيِّ حِينَ يُولَدُ، وَهُوَ الْمَنْفُوسُ، لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿وَهِيَ شَجَرَةُ الْقَرْعِ (الدُّبَاءِ). وَفِي إِنْبَاتِ الْقَرْعِ عَلَيْهِ حَكْمٌ جَمَّةٌ مِنْهَا أَنْ وَرَقُهُ فِي غَايَةِ النُّعْمَةِ، وَكَثِيرٌ وَظَلِيلٌ، وَلَا يَقْرُبُهُ ذُبَابٌ، وَيُؤْكَلُ ثَمَرُهُ مِنْ أَوَّلِ طُلُوعِهِ إِلَى آخِرِهِ، نَبَاتًا وَمَطْبُوحًا، وَيَقْشَرُهُ وَيَبْزُرُهُ أَيْضًا، وَفِيهِ نَفْعٌ كَثِيرٌ، وَتَقْوِيَةٌ لِلدِّمَاغِ. وَلَمَّا طَرَحَ يُونُسُ بِالْعَرَاءِ؛ هَيَّا اللَّهُ تَعَالَى لَهُ أَرْوِيَّةً^(١) وَحَشِيَّةً تَأْكُلُ مِنْ حَشِيشِ الْأَرْضِ، فَتَجِيءُ، فَتَفْشِجُ لَهُ^(٢)، وَتَرْوِيهِ مِنْ لَبْنِهَا كُلَّ عَشِيَّةٍ وَبُكْرَةٍ، حَتَّى نَبَتْ^(٣). وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِهِ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهِ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أَيُّ الْكَرْبِ وَالضِّيقِ الَّذِي كَانَ فِيهِ ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وَمَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى؛ أَصَابَ ذَنْبًا، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ.

وَنِعَمَ دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ١٤٧ ﴿فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ.

(١) الأنتى من الوعول.

(٢) تفرج بين رجلها.

(٣) يَعْنِي تَعَاثُرَ وَنَبْتَ لَحْمِهِ وَقَوِي.

قصة النبي شُعْيَا بْنُ أَمْصِيَا

وكان شُعْيَا بْنُ أَمْصِيَا من أنبياء بني إسرائيل قَبْلَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى، وَهُوَ مِمَّنْ بَشَّرَ بَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ ﷺ، وَكَانَ فِي زَمَانِهِ مَلِكُ اسْمُهُ (صَدِيقَةُ)^(١) عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِلَادِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَانَ سَامِعًا مُطِيعًا لِشُعْيَا فِيمَا يَأْمُرُهُ بِهِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ مِنَ الْمَصَالِحِ، وَكَانَتْ الْأَحْدَاثُ قَدْ عَظُمَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَمَرَضَ الْمَلِكُ وَخَرَجَتْ فِي رِجْلِهِ قُرْحَةٌ وَقَصَدَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ مَلِكُ بَابِلَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَهُوَ سَنْحَارِيْبٌ، بِجَيْشٍ عَظِيمٍ. وَفَزَعَ النَّاسُ فَزَعًا عَظِيمًا شَدِيدًا، وَقَالَ الْمَلِكُ لِلنَّبِيِّ شُعْيَا: مَاذَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْكَ فِي أَمْرِ سَنْحَارِيْبٍ وَجُنُودِهِ؟ فَقَالَ: لَمْ يُوحَ إِلَيَّ فِيهِمْ شَيْئًا بَعْدُ. ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ بِالْأَمْرِ لِلْمَلِكِ صَدِيقَةُ بِأَنْ يُوصِيَ وَيَسْتَخْلِفَ عَلَى مُلْكِهِ مَنْ يَشَاءُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ أَقْبَلَ الْمَلِكُ عَلَى الْقِبْلَةِ فَصَلَّى وَسَبَّحَ وَدَعَا وَبَكَى، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ وَرَحِمَهُ، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى شُعْيَا أَنْ يُبَشِّرَهُ بِأَنَّهُ قَدْ رَحِمَ بُكَاءُهُ، وَقَدْ آخَرَ فِي أَجَلِهِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَأَنْجَاهُ مِنْ عَدُوِّهِ سَنْحَارِيْبٍ. فَلَمَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ ذَهَبَ مِنْهُ الْوَجَعُ وَانْقَطَعَ عَنْهُ الشَّرُّ وَالْحُزْنُ، وَخَرَّ سَاجِدًا. فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى شُعْيَا أَنْ يَأْمُرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَاءَ التَّيْنِ فَيَجْعَلُهُ عَلَى قُرْحَتِهِ، فَيَشْفَى وَيُصْبِحَ قَدِيرًا. فَفَعَلَ ذَلِكَ؛ فَشَفِيَ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى جَيْشِ سَنْحَارِيْبِ الْمَوْتَ فَأَصْبَحُوا وَقَدْ هَلَكُوا كُلُّهُمْ سِوَى سَنْحَارِيْبٍ وَخَمْسَةِ مِنْ أَصْحَابِهِ، مِنْهُمْ بُخْتُ نَصْرَ فَأَرْسَلَ مَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَجَاءَ بِهِمْ، فَجَعَلَهُمْ فِي الْأَغْلَالِ وَطَافَ بِهِمْ فِي الْبِلَادِ عَلَى وَجْهِ التَّنْكِيلِ بِهِمْ وَالْإِهَانَةِ لَهُمْ

(١) في رواية الطبري: حزقيا بن أحاز. وعن ابن إسحاق أنه كان يدعى: صَدِيقَةُ. وفي بعض الكتب: صَدِيقَةُ أَوْ صَدِيقَا.

سَبْعِينَ يَوْمًا، وَيُطْعِمُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ رَغِيفَيْنِ مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أَوْدَعَهُمُ السَّجْنَ، وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى شِيعِيَا أَنْ يَأْمُرَ الْمَلِكَ بِإِرْسَالِهِمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ مَا قَدْ حَلَّ بِهِمْ، فَلَمَّا رَجَعُوا جَمَعَ سَنَحَارِيبُ قَوْمَهُ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ، فَقَالَ لَهُ السَّحَرَةُ وَالْكَهَنَةُ: إِنَّا أَخْبَرْنَاكَ عَنْ شَأْنِ رَبِّهِمْ وَأَنْبِيَائِهِمْ فَلَمْ تُطِيعْنَا، وَهِيَ أُمَّةٌ لَا يَسْتَطِيعُهَا أَحَدٌ مِنْ رَبِّهِمْ، فَكَانَ أَمْرُ سَنَحَارِيبَ مِمَّا خَوَّفَهُمُ اللَّهُ بِهِ، ثُمَّ مَاتَ سَنَحَارِيبُ بَعْدَ سَبْعِ سِنِينَ، ثُمَّ لَمَّا مَاتَ صَدِيقَةُ مَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ مَرَجَ أَمْرُهُمْ وَاخْتَلَطَتْ أَحْدَانُهُمْ، وَكَثُرَ شَرُّهُمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى شِيعِيَا، فَقَامَ فِيهِمْ فَوْعَظُهُمْ وَذَكَرَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ عَنِ اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ وَأَنْذَرَهُمْ بِأَسْهَ وَعِقَابِهِ إِنْ خَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ مَقَالَتِهِ عَدَوْا عَلَيْهِ وَطَلَبُوهُ لِيَقْتُلُوهُ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ، فَمَرَّ بِشَجَرَةٍ فَانْفَلَقَتْ لَهُ فَدَخَلَ فِيهَا، وَأَدْرَكَهُ الشَّيْطَانُ فَأَخَذَ بِهُدْبَةِ ثَوْبِهِ فَأَبْرَزَهَا، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ جَاءُوا بِالْمِنْشَارِ فَوَضَعُوهُ عَلَى الشَّجَرَةِ، فَنَشَرُوهَا وَنَشَرُوهُ مَعَهَا.



الخراب الأول لبيت المقدس

وقد كَانَ الْيَهُودُ مَعَ مُوسَى عِزَّةً وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ عَلَيْهِمْ يَدٌ، وَاسْتَمَرُّوا مَعَ مُوسَى ﷺ، طَالِبِينَ إِلَى بِلَادِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَهِيَ بِلَادُ الْخَلِيلِ ﷺ وَكَانَ فِيهَا قَوْمٌ مِنَ الْعَمَالِقَةِ، فَكَلَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ قِتَالِ الْعَمَالِقَةِ فَشَرَّدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي التَّيِّهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَمَاتَ فِيهِ هَارُونَ، ثُمَّ مُوسَى، ﷺ، ثُمَّ خَرَجُوا بَعْدَهُمَا مَعَ يُوْشَعَ بْنِ نُونٍ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَاسْتَقَرَّتْ أَيْدِيهِمْ عَلَيْهَا بَعْدَهُ إِلَى زَمَنِ دَاوُدَ، وَمَلِكِ سُلَيْمَانَ الَّذِي لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ مِثْلَ مُلْكِهِ، ثُمَّ تَمَرَدُوا عَلَى شَرِيعَتِهِمْ وَعَبَدُوا الْأَصْنَامَ مَرَّاتٍ، وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ، وَكَانَ فِيهِمْ مِنَ التَّنْقِصِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي سَبِّهِمْ وَذِكْرِ عُيُوبٍ - نَزَّهَهُمُ اللَّهُ عَنْهَا - مَا هُوَ مَعْرُوفٌ، حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ سَاحِرًا، وَأَنَّ دَاوُدَ كَانَ مُنْجَمًا لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ. وَالْأَنْبِيَاءُ أَخْبَرُوا أَهْلَ الْكِتَابِ بِمَا سَيَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الْإِحْدَاثِ، وَمَا يُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَهُمْ وَيُخَرَّبُونَ بِلَادَهُمْ وَيَسْبُونَهُمْ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلَنَ أَعْلُوًا كَبِيرًا ۖ﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَهُمْ أَحْسَنُكُمْ لَأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴿٨﴾

فحصل الخرابُ الأوَّلُ لبيت المقدسَ لَمَّا جَاءَ بُخْتَنْصَرُ في عهد إرميا النبي، ودانيال، وحنانيا، وعزاريّا، وميشائيل، بعد أن قتل بنو إسرائيل نبيهم شَعْيَا في الشَّجَرَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ ملكهم (صِدِّيقُهُ) مرج أمرهم وَتَنَافَسُوا عَلَى الْمُلْكِ وَكَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ مِنْ نَبِيِّهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ قُمْ فِي قَوْمِكَ أَوْحِ عَلَى لِسَانِكَ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِمَّا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ عَدَوْا عَلَيْهِ لِيَقْتُلُوهُ فَهَرَبَ فَانْفَلَقَتْ لَهُ شَجَرَةٌ فَدَخَلَ فِيهَا، وَأَدْرَكَهُ الشَّيْطَانُ فَأَخَذَ هُدْبَهُ مِنْ ثَوْبِهِ فَأَرَاهُمْ إِيَّاهَا، فَوَضَعُوا الْمِنْشَارَ فِي وَسْطِهَا فَشَرُّوَهَا حَتَّى قَطَعُوهَا وَقَطَعُوهُ فِي وَسْطِهَا، وَكَذَبُوا إرميا وَجَرَّحُوهُ وَحَبَسُوهُ. فغزاهم بُخْتَنْصَرُ وَخَرَبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَأَمَرَ بِهِ أَنْ تُطْرَحَ فِيهِ الْجِيفُ، وَأَتْبَعَهُمْ إِلَى مِصْرَ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا وَسَبَّاهُمْ إِلَى بَابِلَ، وَكَانَ مِنْ أَوْلِيكَ دَانِيَالُ النَّبِيُّ، وَحَنَانِيَا، وَعَزَارِيَا، وَمِيشَائِيلُ، وَبَقِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ خَرَابًا سَبْعِينَ سَنَةً.



قصة بختنصر مع دانيال

ثُمَّ إِنَّ بُخْتَنْصَرَ عَادَ إِلَى بَابِلَ وَأَقَامَ فِي سُلْطَانِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُقِيمَ، ثُمَّ رَأَى رُؤْيَا، فَبَيْنَمَا هُوَ قَدْ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى إِذْ رَأَى شَيْئًا أَنْسَاهُ مَا رَأَى، فَدَعَا دَانِيَالَ، وَحَنَانِيَا، وَعَزَارِيَا، وَمِيشَائِيلَ، وَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ رُؤْيَا رَأَيْتُهَا فَأَنْسَيْتُهَا، وَلَكِنْ لَمْ تُخْبِرُونِي بِهَا وَبِتَأْوِيلِهَا لِأَنْزَعَنَّ أَكْتَفَاكُمْ! فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ وَدَعَوْا اللَّهَ وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ وَسَلَّوْهُ أَنْ يُعْلِمَهُمْ إِيَّاهَا، فَأَعْلَمَهُمُ الَّذِي سَأَلَهُمْ عَنْهُ، فَجَاءُوا إِلَى بُخْتَنْصَرَ فَقَالُوا رَأَيْتَ تِمَثَلًا. قَالَ: صَدَقْتُمْ. وَقَالَ دَانِيَالُ: «رَأَيْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ صَنَمًا عَظِيمًا، قَائِمًا بَيْنَ يَدَيْكَ، رَأْسُهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَسَاعِدَاهُ مِنَ الْفِضَّةِ، وَبَطْنُهُ وَفَخْدَاهُ مِنَ النُّحَاسِ، وَسَاقَاهُ مِنَ الْحَدِيدِ، وَرِجْلَاهُ مِنَ الْخَزَفِ، وَرَأَيْتَ حَجْرًا لَمْ تَقْطَعْهُ يَدُ إِنْسَانٍ، قَدْ جَاءَ وَصَكَ ذَلِكَ الصَّنَمَ فَتَفَتَّتَ وَتَلَاشَى وَعَادَ رُفَاتًا، ثُمَّ نَسَفَتْهُ الرِّيَّاحُ، فَذَهَبَ وَتَحَوَّلَ ذَلِكَ الْحَجَرُ فَصَارَ جَبَلًا عَظِيمًا حَتَّى مَلَأَ الْأَرْضَ كُلَّهَا، فَهَذَا مَا رَأَيْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ؟» فَقَالَ بُخْتُ نَصْرُ: صَدَقَ؛ فَمَا تَأْوِيلُهَا؟، قَالَ دَانِيَالُ: «أَنْتَ الرَّأْسُ الَّذِي رَأَيْتَهُ مِنَ الذَّهَبِ، وَيَقُومُ بَعْدَكَ وَلَدَاكَ اللَّذَانِ رَأَيْتَ مِنَ الْفِضَّةِ، وَهُمَا دُونُكَ، وَيَقُومُ بَعْدَهُمَا مَمْلَكَةٌ أُخْرَى هِيَ دُونَهُمَا، وَهِيَ شَبْهُ النُّحَاسِ، وَالْمَمْلَكَةُ الرَّابِعَةُ تَكُونُ قُوَّةً مِثْلَ الْحَدِيدِ الَّذِي يَدُقُّ كُلَّ شَيْءٍ، فَأَمَّا الرَّجُلَانِ اللَّتَيْنِ رَأَيْتَ مِنْ خَزَفٍ فَمَمْلَكَةٌ ضَعِيفَةٌ وَكَلِمَتُهَا مُشْتَتَةٌ، وَأَمَّا الْحَجَرُ الَّذِي رَأَيْتَ قَدْ صَكَ ذَلِكَ الصَّنَمَ الْعَظِيمَ فَتَفَتَّتَ فَهُوَ نَبِيُّ يُقِيمُهُ اللَّهُ إِلَهُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ قَبِيلَةٍ بَشَرِيَّةٍ قُوَّةً، فَيَدُقُّ جَمِيعَ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَأُمَمِهَا، حَتَّى تَمْتَلِئَ مِنْهُ الْأَرْضُ

وَمِنْ أُمَّتِهِ، وَيَدُومُ سُلْطَانُ ذَلِكَ النَّبِيِّ إِلَى انْقِضَاءِ الدُّنْيَا^(١)، فَهَذَا تَعْبِيرٌ عَنْ رُؤْيَاكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ». فَقَالَ بُخْتُ نَصْرُ: صَدَقَ. وَقَالَ: دَانِيَالُ ﷺ، لَمَّا ذَكَرَ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِاسْمِهِ: «سَتَنْزِعُ فِي قَسِيكَ إِغْرَاقًا، وَتَرْتَوِي السَّهَامُ بِأَمْرِكَ يَا مُحَمَّدُ ارْتِوَاءً».

فَلَمَّا عَبَرَ دَانِيَالُ وَمَنْ مَعَهُ رُؤْيَا بُخْتَنْصَرَ قَرَبَهُمْ وَأَذْنَاهُمْ وَاسْتَشَارَهُمْ فِي أَمْرِهِ، فَحَسَدَهُمْ أَصْحَابُهُ، وَسَعَوْا بِهِمْ إِلَيْهِ، وَقَالُوا عَنْهُمْ مَا أَوْحَشَهُ مِنْهُمْ فَأَمَرَ، فَخَفِرَ لَهُمْ أُخْدُودٌ، وَأَلْقَاهُمْ فِيهِ، وَهُمْ سِتَّةُ رِجَالٍ، وَأَلْقَى مَعَهُمْ سَبْعًا ضَارِيًّا لِيَأْكُلَهُمْ، فَلَمْ يَخْدَشْ مِنْهُمْ أَحَدًا.

وَقِيلَ فِي سَبَبِ مَوْتِ بُخْتَنْصَرَ إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ عَلَيْهِ بُعُوضَةً فَدَخَلَتْ فِي مَنْخَرِهِ وَصَعِدَتْ إِلَى رَأْسِهِ، فَكَانَ لَا يَقَرُّ وَلَا يَسْكُنُ حَتَّى يَدُقَّ رَأْسُهُ، إِلَى أَنْ مَاتَ. وَأَمَّا دَانِيَالُ فَإِنَّهُ أَقَامَ بِأَرْضِ بَابِلَ، وَانْتَقَلَ عَنْهَا، وَمَاتَ وَدُفِنَ بِالسُّوسِ مِنْ أَعْمَالِ خُورِزْسْتَانَ.

وروي عن دَانِيَالِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «سَأَلْتُ اللَّهَ وَنَصَرَعْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُبَيِّنَ لِي مَا يَكُونُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهَلْ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَيُرْدُّ إِلَيْهِمْ مُلْكَهُمْ وَيُبْعَثُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، أَوْ يَجْعَلُ ذَلِكَ فِي غَيْرِهِمْ» قَالَ: دَانِيَالُ: «فَظَهَرَ لِي الْمَلِكُ فِي صُورَةِ شَابٍّ حَسَنِ الْوَجْهِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا دَانِيَالُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَغْضَبُونِي وَتَمَرَّدُوا عَلَيَّ وَعَبَدُوا مِنْ دُونِي آلِهَةً أُخْرَى، وَصَارُوا مِنْ بَعْدِ الْعِلْمِ إِلَى الْجَهْلِ، وَمِنْ بَعْدِ الصِّدْقِ إِلَى الْكَذِبِ، فَسَلَّطْتُ عَلَيْهِمْ بُخْتَ نَصْرَ فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ وَسَبَى ذُرَارِيَهُمْ، وَهَدَمَ بَيْتَ مَقْدِسِهِمْ، وَحَرَقَ كُتُبَهُمْ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ مَنْ بَعْدَهُ بِهِمْ، وَأَنَا غَيْرُ رَاضٍ عَنْهُمْ

(١) وَقَالَ: دَانِيَالُ ﷺ، لَمَّا ذَكَرَ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِاسْمِهِ، فَقَالَ: «سَتَنْزِعُ فِي قَسِيكَ إِغْرَاقًا، وَتَرْتَوِي السَّهَامُ بِأَمْرِكَ يَا مُحَمَّدُ ارْتِوَاءً».

وَلَا مُقِيلُهُمْ عَثَرَاتِهِمْ، فَلَا يَزَالُونَ مِنْ سُخْطِي حَتَّى أُبْعَثَ مَسِيحِي ابْنَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ
فَأَخْتُمَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ بِاللَّعْنِ وَالسُّخْطِ، فَلَا يَزَالُونَ مُلْعُونِينَ، عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ
حَتَّى أُبْعَثَ نَبِيَّ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، الَّذِي بَشَّرْتُ بِهِ هَاجَرَ، وَأَرْسَلْتُ إِلَيْهَا مَلَائِكِي فَبَشَّرَهَا،
فَأَوْحِي إِلَيَّ ذَلِكَ النَّبِيِّ، وَأُعَلِّمُهُ الْأَسْمَاءَ، وَأُزَيِّنُهُ بِالتَّقْوَى، وَأَجْعَلَ الْبِرَّ شِعَارَهُ،
وَالْتَّقْوَى ضَمِيرَهُ، وَالصَّدْقَ قَوْلَهُ، وَالْوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ، وَالْقَصْدَ سِيرَتَهُ، وَالرُّشْدَ سُنَّتَهُ،
أَخْصُهُ بِكِتَابٍ مُصَدِّقٍ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ، وَنَاسِخٍ لِبَعْضِ مَا فِيهَا، أُسْرِي بِهِ إِلَيَّ
وَأُزِقِيهِ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ حَتَّى يَعْلُو، فَأُذَيِّبَهُ وَأُسَلِّمَ عَلَيْهِ وَأُوحِي إِلَيْهِ، ثُمَّ أَرُدُّهُ إِلَى
عِبَادِي بِالسُّرُورِ وَالْغِبْطَةِ، حَافِظًا لِمَا اسْتُودِعَ، صَادِعًا بِمَا أُمِرَ، يَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِي
بِاللِّينِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْمَوْعِظَةِ، لَا فَظًّا وَلَا غَلِيظًا وَلَا صَخَّابَ فِي الْأَسْوَاقِ، رَعُوفٌ بِمَنْ
وَالَاهُ، رَحِيمٌ بِمَنْ آمَنَ بِهِ، خَشِنٌ عَلَى مَنْ عَادَاهُ، فَيَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى تَوْحِيدِي وَعِبَادَتِي،
وَيُخْبِرُهُمْ بِمَا رَأَى مِنْ آيَاتِي، فَيَكْذِبُونَهُ وَيُؤْذُونَهُ.

ثُمَّ سَرَدَ دَانِيَالُ قِصَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَرْفًا حَرْفًا مِمَّا أَمْلَاهُ عَلَيْهِ الْمَلِكُ، حَتَّى وَصَلَ
آخِرَ أَيَّامِ أُمَّتِهِ بِالنَّفْخَةِ وَانْقِضَاءِ الدُّنْيَا^(١).

(١) فَهَذِهِ بُنُوَّةُ دَانِيَالٍ فِي أَيَّامِ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ يَقْرَأُ فِيهَا الْبِشَارَةَ بِالْمَسِيحِ، وَالْبِشَارَةَ بِمُحَمَّدٍ
ﷺ، وَفِيهَا مِنْ وَصْفِ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ بِالتَّفْصِيلِ مَا يَطُولُ وَصْفُهُ، وَقَدْ قَرَأَهَا الْمُسْلِمُونَ لَمَّا فَتَحُوا
الْعِرَاقَ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ، مِنْهُمْ أَبُو الْعَالِيَةِ: ذَكَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا فَتَحُوا (تُسْتَرَى) وَجَدُوا دَانِيَالَ
مَيِّتًا، وَوَجَدُوا عِنْدَهُ مُصْحَفًا. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: أَنَا قَرَأْتُ ذَلِكَ الْمُصْحَفَ، وَفِيهِ صِفَتُكُمْ وَلُحُونُ
كَلَامِكُمْ، وَكَانَ أَهْلُ النَّاحِيَةِ إِذَا أَجْدَبُوا كَشَفُوا عَنْ قَبْرِهِ فَيُسْقُونَ، فَكَتَبَ أَبُو مُوسَى فِي ذَلِكَ
إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: «أَنْ أَحْفَرُ بِالنَّهَارِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَبْرًا، وَادْفِنَهُ بِاللَّيْلِ فِي
وَاحِدٍ مِنْهَا؛ لِئَلَّا يُفْتَنَ النَّاسُ بِهِ». وَعَنْ خَالِدِ بْنِ عَرْفَةَ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِذْ
أَتَى بِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ مَسْكَنُهُ بِالسُّوسِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ فَلَانُ بْنُ فَلَانِ الْعَبْدِي؟ قَالَ:
نَعَمْ. قَالَ: وَأَنْتَ النَّازِلُ بِالسُّوسِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضْرَبَهُ بِقَنَآةٍ مَعَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا ذَنْبِي؟ قَالَ فَقَرَأَ عَلَيْهِ
﴿الرَّءُفُ﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿وَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا

ثُمَّ فِي عَهْدِ «كِيرش بن أخشويرش» مَلِكِ بَابِلَ عَادَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ
وَكَانَتْ عِمَارَتُهُ آنَ ذَاكَ.

ثُمَّ مِنْ بَعْدِ عِمَارَتِهِ إِلَى ظُهُورِ الإسْكَندَرِ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثَمَانِيَّةٌ وَثَمَانِينَ سَنَةً،
ثُمَّ مِنْ بَعْدِ مَمْلَكَةِ الإسْكَندَرِ إِلَى مَوْلِدِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثًا وَسِتِّينَ سَنَةً.



إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَضَرَبَهُ ثَلَاثَ
ضَرْبَاتٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ عَمْرُ: أَنْتَ الَّذِي انْتَسَخْتَ كِتَابَ دَانِيَالَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: اذْهَبْ فَاْمُحْهُ
بِالْحَمِيمِ وَالصُّوفِ الْأَبْيَضِ وَلَا تَقْرَأْهُ وَلَا تُقْرِئْهُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ عُمَرُ هَذِهِ الْآيَةَ
لِيُبَيِّنَ لَهُ أَنَّ الْقُرْآنَ أَحْسَنُ الْقَصَصِ فَلَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى غَيْرِهِ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَصَصَ عَامٌّ
لَا يَخْتَصُّ بِسُورَةِ يُوسُفَ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ أَفْضَلُ مِنْ كِتَابِ دَانِيَالَ
وَنَحْوِهِ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ.

قصة عُزَيْر

وإنَّ عُزَيْرًا كَانَ عَبْدًا صَالِحًا حَكِيمًا خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ يَتَعَاهَدُهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ انْتَهَى إِلَى خَرِبَةٍ^(١) حِينَ قَامَتِ الظَّهِيرَةُ وَأَصَابَهُ الْحَرُّ، وَدَخَلَ الْخَرِبَةَ وَهُوَ عَلَى حِمَارِهِ، فَتَزَلَّ عَنْ حِمَارِهِ وَمَعَهُ سَلَّةٌ فِيهَا تَيْنٌ، وَسَلَّةٌ فِيهَا عِنَبٌ، فَتَزَلَّ فِي ظِلِّ تِلْكَ الْخَرِبَةِ وَأَخْرَجَ قِصْعَةً مَعَهُ، فَاعْتَصَرَ مِنَ الْعِنَبِ الَّذِي كَانَ مَعَهُ فِي الْقِصْعَةِ، ثُمَّ أَخْرَجَ خُبْزًا يَابِسًا مَعَهُ، فَأَلْقَاهُ فِي تِلْكَ الْقِصْعَةِ فِي الْعَصِيرِ؛ لِيَتَلَّ لِيَأْكُلَهُ، ثُمَّ اسْتَلْقَى عَلَى قَفَاهُ وَأَسْنَدَ رِجْلَيْهِ إِلَى الْحَائِطِ فَنَظَرَ سَقْفَ تِلْكَ الْبُيُوتِ وَرَأَى مَا فِيهَا وَهِيَ قَائِمَةٌ عَلَى عُروشِهَا وَقَدْ بَادَ أَهْلُهَا، وَرَأَى عِظَامًا بَالِيَةً فَقَالَ: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟﴾ فَلَمْ يَشَكَّ أَنَّ اللَّهَ يُحْيِيهَا وَلَكِنْ قَالَهَا تَعَجُّبًا، فَبَعَثَ اللَّهُ مَلَكَ الْمَوْتِ، فَقَبَضَ رُوحَهُ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ، فَلَمَّا أَتَتْ عَلَيْهِ مِائَةُ عَامٍ، وَكَانَتْ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أُمُورٌ وَأَحْدَاثٌ. قَالَ: فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَى عُزَيْرٍ مَلَكًا فَخَلَقَ قَلْبَهُ لِيَعْقِلَ بِهِ، وَعَيْنَيْهِ لِيَنْظُرَ بِهِمَا؛ فَيَعْقِلَ كَيْفَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى، ثُمَّ رَكَّبَ خَلْقَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ، ثُمَّ كَسَى عِظَامَهُ اللَّحْمَ، وَالشَّعْرَ، وَالْجِلْدَ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، كُلُّ ذَلِكَ وَهُوَ يَرَى وَيَعْقِلُ، فَاسْتَوَى جَالِسًا، فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: ﴿كَمْ لَبِثْتَ؟﴾، قَالَ: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ نَامَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ الظَّهِيرَةِ، وَبُعِثَ فِي آخِرِ النَّهَارِ وَالشَّمْسُ لَمْ تَغِبْ، فَقَالَ: أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، وَلَمْ يَتِمَّ لِي يَوْمٌ. فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ يَعْنِي الطَّعَامَ؛ الْخُبْزَ الْيَابِسَ، وَشَرَابَهُ؛ الْعَصِيرَ الَّذِي كَانَ اعْتَصَرَ فِي الْقِصْعَةِ، فَإِذَا هُمَا عَلَى حَالِهِمَا

(١) قيل إنها بيت المقدس بعد أن خربها بختنصر. وقيل إنَّ صاحب هذه القصة أرميا النبي .

لَمْ يَتَغَيَّرِ الْعَصِيرُ وَالْخُبْزُ يَابَسَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَسِنَّةٌ﴾ يَعْنِي لَمْ يَتَغَيَّرْ، وَكَذَلِكَ التَّيْنُ وَالْعِنَبُ غَضُّ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَنْ شَيْءٍ مِنْ حَالِهِمَا، فَكَأَنَّهُ أَنْكَرَ فِي قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَنْكَرْتَ مَا قُلْتُ لَكَ؟ انْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ. فَنَظَرَ فَإِذَا حِمَارُهُ قَدْ بَلَيْتَ عِظَامُهُ وَصَارَتْ نَخْرَةً، فَنَادَى الْمَلِكُ عِظَامَ الْحِمَارِ، فَأَجَابَتْ وَأَقْبَلَتْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ حَتَّى رَكَبَهُ الْمَلِكُ، وَعُزَيْرٌ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، ثُمَّ أَلْبَسَهَا الْعُرُوقَ وَالْعَصَبَ، ثُمَّ كَسَاهَا اللَّحْمَ، ثُمَّ أَنْبَتَ عَلَيْهَا الْجِلْدَ وَالشَّعْرَ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الْمَلِكُ، فَقَامَ الْحِمَارُ رَافِعًا رَأْسَهُ وَأُذُنَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، نَاهِقًا يَظُنُّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَامَتْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾؛ يَعْنِي انْظُرْ إِلَى عِظَامِ حِمَارِكَ كَيْفَ نُرَكِّبُ بَعْضَهَا بَعْضًا فِي أَوْصَالِهَا، حَتَّى إِذَا صَارَتْ عِظَامًا مُصَوَّرًا حِمَارًا بِلَا لَحْمٍ، ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ نَكْسُوهَا لَحْمًا، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ قَالَ أَعْلَمْتُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَغَيْرِهِ. فَرَكِبَ حِمَارَهُ حَتَّى أَتَى مَحَلَّتَهُ فَأَنْكَرَهُ النَّاسُ، وَأَنْكَرَ النَّاسُ، وَأَنْكَرَ مَنَازِلَهُمْ، فَانْطَلَقَ عَلَى وَهْمٍ مِنْهُ، حَتَّى أَتَى مَنْزِلَهُ، فَإِذَا هُوَ بِعَجُوزٍ عَمِيَاءَ مُتَعَدَّةٍ قَدْ أَتَى عَلَيْهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، كَانَتْ أُمَةً لَهُمْ، فَخَرَجَ عَنْهُمْ عُزَيْرٌ وَهِيَ بِنْتُ عَشْرِينَ سَنَةً، كَانَتْ عَرَفَتْهُ وَعَقَلَتْهُ، فَلَمَّا أَصَابَهَا الْكِبَرُ أَصَابَهَا الزَّمَانَةُ فَقَالَ لَهَا عُزَيْرٌ: يَا هَذِهِ أَهَذَا مَنْزِلُ عُزَيْرٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ هَذَا مَنْزِلُ عُزَيْرٍ. فَبَكَتْ وَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْ كَذَا وَكَذَا سَنَةٍ يَذْكُرُ عُزَيْرًا وَقَدْ نَسِيَهُ النَّاسُ. قَالَ: فَإِنِّي أَنَا عُزَيْرٌ، كَانَ اللَّهُ أَمَاتَنِي مِائَةَ سَنَةٍ ثُمَّ بَعَثَنِي. قَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ! فَإِنَّ عُزَيْرًا قَدْ فَقَدْنَاهُ مُنْذُ مِائَةِ سَنَةٍ، فَلَمْ نَسْمَعْ لَهُ بِذِكْرِ. قَالَ: فَإِنِّي أَنَا عُزَيْرٌ. قَالَتْ: فَإِنَّ عُزَيْرًا رَجُلٌ مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ، يَدْعُو لِلْمَرِيضِ وَلِصَاحِبِ الْبَلَاءِ بِالْعَافِيَةِ وَالشِّفَاءِ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ بَصْرِي حَتَّى أَرَكَ، فَإِنْ كُنْتُ عُزَيْرًا عَرَفْتُكَ. قَالَ: فَدَعَا رَبَّهُ وَمَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى عَيْنَيْهَا فَصَحَّتَا وَأَخَذَ بِيَدِهَا وَقَالَ: قَوْمِي بِإِذْنِ اللَّهِ. فَأَطْلَقَ اللَّهُ رَجُلَيْهَا، فَقَامَتْ صَحِيحَةً كَأَنَّمَا نَشِطَتْ مِنْ عِقَالٍ، فَنَظَرَتْ فَقَالَتْ: أَشْهَدُ أَنَّكَ عُزَيْرٌ وَأَنْطَلَقْتُ إِلَى مَحَلَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُمْ فِي أُنْدِيَّتِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ، وَابْنُ لِعُزَيْرٍ شَيْخُ ابْنِ مِائَةِ سَنَةٍ وَثَمَانِي عَشَرَ سَنَةً وَبَنُو

بَنِيهِ شَيْوُخٌ فِي الْمَجْلِسِ، فَنَادَتْهُمْ فَقَالَتْ: هَذَا عَزِيرٌ قَدْ جَاءَكُمْ. فَكَذَّبُوهَا، فَقَالَتْ: أَنَا
فُلَانَةٌ مَوْلَاتُكُمْ دَعَا لِي رَبُّهُ، فَرَدَّ عَلَيَّ بَصْرِي وَأَطْلُقَ رِجْلَيَّ، وَزَعَمَ أَنَّ اللَّهَ أَمَاتَهُ مِائَةَ
سَنَةٍ ثُمَّ بَعَثَهُ. فَنَهَضَ النَّاسُ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فَقَالَ ابْنُهُ: كَانَ لِأَبِي شَامَةٌ سَوْدَاءُ
بَيْنَ كَتِفَيْهِ. فَكَشَفَ عَنْ كَتِفَيْهِ، فَإِذَا هُوَ عَزِيرٌ، فَقَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِينَا أَحَدٌ
حَفِظَ التَّوْرَةَ فِيمَا حَدَّثَنَا غَيْرُ عَزِيرٍ، وَقَدْ حَرَّقَ بُخْتُ نَصْرَ التَّوْرَةَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ
إِلَّا مَا حَفِظَتِ الرِّجَالُ؛ فَاكْتَبَهَا لَنَا. وَكَانَ أَبُوهُ سَرُوحًا قَدْ دَفَنَ التَّوْرَةَ أَيَّامَ بُخْتُ نَصْرَ
فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ غَيْرُ عَزِيرٍ، فَاَنْطَلَقَ بِهِمْ إِلَى ذَلِكَ الْمَوْضِعِ فَحَفَرَهُ فَاسْتَخْرَجَ
التَّوْرَةَ، وَكَانَ قَدْ عَفِنَ الْوَرَقُ، وَدَرَسَ الْكِتَابُ. فَجَلَسَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ
حَوْلَهُ، فَجَدَّدَ لَهُمُ التَّوْرَةَ، وَنَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ شُهَابَانِ، حَتَّى دَخَلَا جَوْفَهُ، فَتَذَكَّرَ التَّوْرَةَ،
فَجَدَّدَهَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. فَمَنْ ثُمَّ قَالَتِ الْيَهُودُ: عَزِيرُ ابْنُ اللَّهِ - جَلَّ اللَّهُ وَعَزَّ - لِلَّذِي
كَانَ مِنْ أَمْرِ الشُّهَابَيْنِ وَتَجْدِيدِهِ التَّوْرَةَ وَقِيَامِهِ بِأَمْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: لَمْ
يَسْتَطِعْ مُوسَى أَنْ يَأْتِينَا بِالتَّوْرَةِ إِلَّا فِي كِتَابٍ، وَإِنَّ عَزِيرًا قَدْ جَاءَنَا بِهَا مِنْ غَيْرِ كِتَابٍ.
فَرَمَاهُ طَوَائِفُ مِنْهُمْ، وَقَالُوا: عَزِيرُ ابْنُ اللَّهِ. وَكَانَ جَدَّدَ لَهُمُ التَّوْرَةَ بِأَرْضِ السَّوَادِ
بَدِيرٍ حَزَقِيلَ. وَالْفَرِيَّةُ الَّتِي مَاتَ فِيهَا يُقَالُ لَهَا: سَايِرَابَادَ. فَكَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَجْلِسُ مَعَ بَنِيهِ وَهُمْ
شَيْوُخٌ وَهُوَ شَابٌّ؛ لِأَنَّهُ مَاتَ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَبَعَثَهُ اللَّهُ شَابًّا، كَهَيْئَةِ يَوْمٍ مَاتَ^(١).
وَالْمَشْهُورُ أَنَّ عَزِيرًا نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّهُ كَانَ فِيمَا بَيْنَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ، وَبَيْنَ
زَكَرِيَّا وَيَحْيَى.



(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بُعِثَ بَعْدَ بُخْتُ نَصْرَ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ.

اختلاف بني إسرائيل

ثم إن بني إسرائيل اختلفوا وتفرقوا في اتباع الحق بعد أن هداهم الله وبيّن لهم الحق بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم، وفضلهم على أهل زمانهم من الأمم المعاصرة لهم وبعد ما قامت عليهم الحجة وأخذ عليهم الميثاق، ولم يكن اختلافهم لعدم العلم؛ بل علموا الحق ولكن بغى بعضهم على بعض كما ينبغي الحاسد على المحسود. وكان اختلافهم لتحاسدهم وتباغضهم وتدابريهم، إذ كل فرقة تريد الرئاسة والسلطة الدينية والدينية لها دون غيرها، وحملهم البغي والعناد لغيرهم على مخالفته في أقواله وأفعاله وإن كانت حقا، فيتبع بعضهم هواه ويخالف أمر الله وهو يعرف الحق ويزيغ عنه.



تحريف اليهود التوراة

وَكَانَ كَثُرَ الْيَهُودِ بِتَبْدِيلِهِمْ أَحْكَامَ التَّوْرَةِ قَبْلَ مَبْعَثِ الْمَسِيحِ، وَتَصَرَّفُوا فِي بَعْضِ أَلْفَافِهَا بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ كَمَا تَصَرَّفُوا فِي مَعَانِيهَا^(١). وكما في قِصَّةِ الذِّبِيحِ: (اذْبَحْ ابْنَكَ وَحِيدَكَ)؛ أَضَافُوا فِي نُسْخَةٍ: (بِكُرِّكَ إِسْحَاقُ)، وَلَفْظَةُ «إِسْحَاقُ» مُحَرَفَةٌ بِلا شَكٍّ؛ لِأَنَّ الْوَحِيدَ وَهُوَ الْبِكْرُ إِسْمَاعِيلُ لِأَنَّهُ وَلَدَ قَبْلَ إِسْحَاقَ بِأَرْبَعِ عَشْرِ سَنَةً فَكَيْفَ يَكُونُ الْوَحِيدُ الْبِكْرُ إِسْحَاقُ. وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ حَسَدُ الْعَرَبِ أَنْ يَكُونَ أَبُوهُمْ إِسْمَاعِيلُ هُوَ الذِّبِيحُ، فَأَرَادُوا أَنْ يَذْهَبُوا بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ لَهُمْ فَزَادُوا ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ ﷺ.

واليهود بأيديهم نسخة من التوراة تغاير نسخة السامرة - وهم فرقة من اليهود -، والسامرة يخالفونهم في ألفاظ كثيرة ومعانٍ أيضاً، وَهَكَذَا فِي تَوْرَةِ السَّامِرَةِ فِي الْعَشْرِ الْكَلِمَاتِ زِيَادَةُ الْأَمْرِ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الطُّورِ فِي الصَّلَاةِ وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ نُسَخِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَلَيْسَ فِي تَوْرَةِ السَّامِرَةِ حَرْفُ الْهَمْزَةِ وَلَا حَرْفُ الْيَاءِ، وَالنَّصَارَى أَيْضاً بِأَيْدِيهِمْ تَوْرَةٌ يَسْمُونَهَا الْعَتِيقَةَ، وَهِيَ مُخَالَفَةٌ لِنُسَخَتِي الْيَهُودِ وَالسَّامِرَةِ، وَأَمَّا التَّوْرَةُ الْمُعَرَّبَةُ فَلَا يَشْكُ عَاقِلٌ فِي تَبْدِيلِهَا وَتَحْرِيفِ كَثِيرٍ مِنْ أَلْفَافِهَا وَتَغْيِيرِ الْقَصَصِ وَالْأَلْفَافِ وَالزِّيَادَاتِ وَالنَّقْصِ الْبَيِّنِ

(١) وفي بيت المدراس بالمدينة وهو الْبَيْتُ الَّذِي يَقْرَأُ فِيهِ الْيَهُودُ التَّوْرَةَ ويتدارسونها؛ اعترف اليهود للنبي محمد ﷺ بتبديلهم حكم الرجم، وكتماهم آية الرجم في التوراة. وكان ذلك بحضور أعلمهم وهو ابن صوريا، وعبدالله بن سلام ﷺ، وكان قد أسلم وهو من أحبارهم.

الْوَاضِحِ وَفِيهَا مِنَ الْكَذِبِ الْبَيِّنِ وَالْخَطَأِ الْفَاحِشِ شَيْءٌ كَثِيرٌ جَدًّا^(١).
وإنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا مَاتَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، يُقِيمُ أَمْرَهُمْ
وَيُزِيلُ مَا غَيَّرُوا مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ.



(١) ومن الآثار التي لا يزال عليها المتدينون اليهود حتى اليوم أنهم لا يأكلون الحائض ولا يشاربونها ولا يسكنونها، ويوم السبت لا يعملون فيه شيئاً حتى ركوب السيارة أو الطائرة، وفي السنة السابعة لا يزرعون فيها ويسمون سنة التبوير، وإحدى فرق اليهود المعروفة اليوم ضمن طائفة (الحسيديم أو السيديم) تحرق الزانية ولا تفرق بين أن تكون بكرًا أو محصنة.

زكريا ويحيى وآل عمران

وَكَانَ عِمْرَانُ بْنُ مَائِثَانَ مِنْ وَلَدِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، وَكَانَ آلُ مَائِثَانَ رُءُوسَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَحْبَارَهُمْ، وَكَانَ مُتَزَوِّجًا بِحَنَّةَ بِنْتِ فَاقُودَ، وَكَانَ زَكَرِيَاءُ بْنُ بَرَخِيَّاءَ ۖ نَجَارًا^(١)، مُتَزَوِّجًا مِنْ إِيشَاعَ بِنْتِ عِمْرَانَ^(٢) أخت مريم، وَكَانَتْ حَنَّةُ - امرأة عمران - قَدْ كَبِرَتْ وَاشْتَهَتْ الْوَلَدَ، فَدَعَتْ اللَّهَ أَنْ يَهَبَ لَهَا وَلَدًا وَنَذَرَتْ أَنْ يَرْزُقَهَا وَلَدًا أَنْ تَجْعَلَهُ مِنْ سِدَنَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَخَدَمِهِ، فَحَرَّرَتْ مَا فِي بَطْنِهَا، وَلَمْ تَعْلَمْ مَا هُوَ، وَكَانَ النَّذِيرُ الْمُحَرَّرُ عِنْدَهُمْ أَنْ يُجْعَلَ لِلْكَنِيسَةِ يَقُومُ بِخِدْمَتِهَا وَلَا يَبْرُحُ مِنْهَا حَتَّى يَبْلُغَ الْحُلُمَ، فَإِذَا بَلَغَ خَيْرٌ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يُقِيمَ فِيهَا أَقَامَ، وَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَذْهَبَ ذَهَبَ حَيْثُ شَاءَ. وَلَمْ يَكُنْ يُحَرَّرُ إِلَّا الْعِلْمَانُ، لِأَنَّ الْإِنَاثَ لَا يَصْلُحْنَ لِذَلِكَ لِمَا يُصِيبُهُنَّ مِنَ الْحَيْضِ وَالْأَذَى.

ثُمَّ مَاتَ عِمْرَانُ وَحَنَّةٌ حَامِلٌ بِمَرِيَمَ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا إِذَا هِيَ أَنْثَى، فَقَالَتْ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أَنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ۖ﴾ فِي خِدْمَةِ الْكَنِيسَةِ وَالْعِبَادِ الَّذِينَ فِيهَا، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، وَهِيَ بِلُغَتِهِمُ الْعِبَادَةُ.

ثُمَّ لَفَّتْهَا فِي خُرْقَةٍ وَحَمَلَتْهَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَوَضَعَتْهَا عِنْدَ الْأَحْبَارِ أَبْنَاءِ هَارُونَ، وَهُمْ يَلُونُ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مَا يَلِي بَنُو شَيْبَةَ مِنَ الْكُعْبَةِ. فَقَالَتْ: دُونَكُمْ هَذِهِ الْمُنْذُورَةُ، فَتَنَافَسُوا فِيهَا لِأَنَّهَا بِنْتُ إِمَامِهِمْ وَصَاحِبِ قُرْبَانِهِمْ. فَقَالَ زَكَرِيَاءُ: أَنَا أَحَقُّ بِهَا، فَقَالُوا: لَكِنَّا نَقْتَرِعُ عَلَيْهَا. فَأَلْقُوا أَقْلَامَهُمْ فِي نَهْرٍ جَارٍ، قِيلَ هُوَ نَهْرُ الْأَرْدُنِّ، فَأَلْقَوْا فِيهِ أَقْلَامَهُمْ

(١) وهذا من فضائله، وفي الحديث: (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده).

(٢) وقيل: إنها إيشاع بنت فاقود وأنها خالة مريم، وقيل اسمها: أشباع.

الَّتِي كَانُوا يَكْتُبُونَ بِهَا التَّوْرَةَ، فَارْتَفَعَ قَلَمُ زَكَرِيَّا فَوْقَ الْمَاءِ وَرَسَبَتْ أَقْلَامُهُمْ، فَأَخَذَهَا وَكَفَّلَهَا وَضَمَّهَا إِلَى أَخْتِهَا (إِشَاع) أُمُّ يَحْيَى وَاسْتَرْضَعَ لَهَا حَتَّى كَبُرَتْ، فَبَنَى لَهَا غُرْفَةً فِي الْمَسْجِدِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا إِلَّا بِسُلَّمٍ وَلَا يَصْعَدُ إِلَيْهَا غَيْرُهُ، وَكَانَ يَجِدُ عِنْدَهَا فَاكِهَةً الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَفَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، فَيَقُولُ: أَنَّى لَكَ هَذَا؟ فَتَقُولُ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. فَلَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا ذَلِكَ مِنْهَا؛ دَعَا اللَّهَ تَعَالَى وَرَجَا الْوَلَدَ حَيْثُ رَأَى فَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وَفَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي فَعَلَ هَذَا بِمَرْيَمَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُصْلِحَ زَوْجَتِي حَتَّى تَلِدَ. ف ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٢١) فَبَيْنَمَا هُوَ يُصَلِّي فِي الْمَذْبَحِ الَّذِي لَهُمْ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ شَابٍّ، وَهُوَ جَبْرَائِيلُ، فَفَزِعَ زَكَرِيَّا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ: ﴿أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرَكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾. (١)

وَسَمَاهُ اللَّهُ تَعَالَى (يَحْيَى) وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ مَنْ تَسَمَّى هَذَا الْإِسْمَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (٧). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٥) (٢)، وَكَانَ لَا يَأْتِي النِّسَاءَ، وَلَا يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ.

قَالَ زَكَرِيَّا: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ؟﴾ فَقِيلَ لَهُ: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤٠). وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ اسْتِخْبَارًا هَلْ يُرَزَقُ الْوَلَدَ مِنْ أَمْرَاتِهِ الْعَاقِرِ أَمْ غَيْرَهَا، لَا إِنْكَارًا لِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ قَالَ ءَايَتُكَ

(١) يَعْنِي أَنْ يَحْيَى يَكُونُ مِمَّنْ يُؤْمِنُ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَيَحْيَى أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِعِيسَى وَصَدَّقَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ حَامِلًا بِهِ فَاسْتَقْبَلَتْ مَرْيَمَ وَهِيَ حَامِلٌ بِعِيسَى فَقَالَتْ لَهَا: يَا مَرْيَمُ أَحَامِلٌ أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: لِمَاذَا تَسْأَلِينِي؟ فَقَالَتْ إِنِّي أَرَى مَا فِي بَطْنِي يَسْجُدُ لِمَا فِي بَطْنِكَ، فَذَلِكَ تَصْدِيقُهُ.

وَقِيلَ: صَدَّقَ الْمَسِيحَ ﷺ وَلَهُ ثَلَاثُ سِنِينَ.

(٢) قِيلَ: أَوْحَشُ مَا يَكُونُ ابْنُ آدَمَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ، فَسَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ وَحْشَتِهَا.

أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا^(١). فَأَمْسَكَ اللَّهُ لِسَانَهُ عَنِ الْكَلَامِ مَعَ النَّاسِ.
 فَلَمَّا وُلِدَ رَأَاهُ أَبُوهُ حَسَنَ الصُّورَةِ، قَلِيلَ الشَّعْرِ، قَصِيرَ الْأَصَابِعِ، مَقْرُونِ الْحَاجِبَيْنِ،
 دَقِيقَ الصَّوْتِ، قَوِيًّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ مُذْ كَانَ صَبِيًّا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ
 صَبِيًّا﴾^(٢). قِيلَ: إِنَّهُ قَالَ لَهُ يَوْمًا الصَّبِيَّانُ أَمْثَالُهُ: يَا يَحْيَى اذْهَبْ بِنَا نَلْعَبْ. فَقَالَ لَهُمْ:
 مَا لِللَّعِبِ خُلِقْتُ.
 وَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا قَدْ أَخْطَأَ، أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ، لَيْسَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا.



(١) الرَّمَزُ: الْإِشَارَةُ.
 (٢) وَاخْتُلِفَ فِي تَفْسِيرِهِ، فَقِيلَ: نُبِيُّءٌ وَهُوَ ابْنُ تِسْعِ سِنِينَ. وَقِيلَ أَقْلٌ مِنْ ذَلِكَ. وَالْمُرَادُ بِالْحُكْمِ:
 الْفَهْمُ فِي الدِّينِ.

المسيح عيسى بن مريم ﷺ

وُولِدَ المسيح عيسى ابن مريم الصديقة بمعجزة إلهية؛ فقد خلق بكلمة من الله، من غير أب، حيث تنحّت مريم ﷺ عن أهلها^(١)، وانفردت بمكان على جهة الشرق منهم^(٢)، فاتخذت لنفسها من دون قومها ساتراً يسترها حتى لا يروها حال عبادتها لربها، فبعث الله إليها جبريل ﷺ، فتمثل لها في صورة إنسان سويّ الخلق، فخافت أنه يريد بها بسوء. فلما رآته في صورة إنسان سويّ الخلق يتجه إليها قالت: إني أستجير بالرحمن منك أن ينالني منك سوء - يا هذا - إن كنت تقيّاً تخاف الله. فقال لها: أنا لست بشراً، إنما أنا رسول من ربك أرسلني إليك لأهب لك ولداً طيباً طاهراً. قالت مريم متعجبة: كيف يكون لي ولد ولم يقربني زوج ولا غيره، ولست زانية حتى يكون لي ولد؟! فقال لها جبريل: الأمر كما ذكرت من أنك لم يمسسك زوج ولا غيره ولم تكوني زانية، لكن ربك سبحانه قال أن الخلق من غير أب هيّن عليه، وليكون الولد الموهوب لك علامة للناس على قدرة الله، ورحمة منه لك ولمن آمن به، وكان خلق ولدك هذا قضاء من الله مقدراً، مكتوباً في اللوح المحفوظ. فأخذ بكمّها فنفخ في جيب درعها وكان مشقوقاً من قدامها فدخلت النفخة صدرها فحملت به بعد نفخ الملك.

(١) روي أنها خرجت إلى جانب المخراب بحيض أصابها فلما طهرت إذ هي برجلٍ معها ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، وهو جبريل ﷺ.

(٢) عن ابن عباس أنه قال: «أنا أعلم الناس بم اتخذ النصارى المشرق قبلة، قوّل الله: انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، واتخذوا ميلاد عيسى قبلة». ولا يعارض هذا ما ذكره غيره: أن الملك قسطنطين أمر النصارى بجعل القبلة لمشرق الشمس والكواكب لما أفسد على النصارى دينهم.

فَاتَّهَتْهَا أُخْتُهَا امْرَأَةٌ زَكَرِيَّا^(١) لَيْلَةً تَزُورُهَا فَلَمَّا فَتَحَتْ لَهَا الْبَابَ التَزَمَتْهَا فَقَالَتْ امْرَأَةٌ زَكَرِيَّا: يَا مَرْيَمُ أَشَعَرْتَ أَنِّي حُبْلَى؟ فَقَالَتْ مَرْيَمُ أَيُّضًا: أَشَعَرْتَ أَنِّي حُبْلَى؟، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ زَكَرِيَّا: فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا فِي بَطْنِي يَسْجُدُ لِلَّذِي فِي بَطْنِكَ^(٢).

فَوَلَدَتْ امْرَأَةٌ زَكَرِيَّا يَحْيَى^(٣)، وَلَمَّا بَلَغَ أَنْ تَضَعَ مَرْيَمُ خَرَجَتْ إِلَى جَانِبِ الْمَحْرَابِ فَتَنَحَّتْ بِحَمْلِهَا إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنِ النَّاسِ. فَأَلْجَأَهَا الْمَخَاضُ إِلَى سَاقِ نَخْلَةٍ، فَقَالَتْ - اسْتَحْيَاءً مِنَ النَّاسِ - : يَا لَيْتَنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ، وَكُنْتُ شَيْئًا لَا يُذَكَّرُ حَتَّى لَا يُظَنَّ بِي السُّوءُ. فَنَادَاهَا جَبْرِيلُ^(٤) مِنْ تَحْتِهَا فِي أَسْفَلِ الْوَادِي: لَا تَحْزَنِي، قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ جَدُولَ مَاءٍ تَشْرِبِينَ مِنْهُ. وَأَمْسَكِي بِجَذَعِ النَخْلَةِ وَهْزِيهِ تَسَاقُطَ عَلَيْكَ رَطْبًا طَرِيًّا يُجْنِي مِنْ سَاعَتِهِ. فَكَلِمَةً مِنَ الرُّطْبِ، وَاشْرَبِي مِنَ الْمَاءِ، وَطَيَّبِي نَفْسًا بِمَوْلُودِكَ^(٥) وَلَا تَحْزَنِي، فَإِنْ رَأَيْتَ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا فَسَأَلْكَ عَنْ خَبَرِ الْمَوْلُودِ؛ فَقَوْلِي لَهُ: إِنِّي أَوْجِبْتُ عَلَى نَفْسِي لِرَبِّي صَمْتًا عَنِ الْكَلَامِ، فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ.

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: جَاءَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ: «فَمَرَزْتُ بَابَنِي الْخَالَةَ: يَحْيَى وَعِيسَى» وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ «إِنَّ أُمَّ يَحْيَى أَشْيَاعُ بِنْتُ عِمْرَانَ أُخْتُ مَرْيَمَ بِنْتُ عِمْرَانَ.

وَأَيُّضًا جَاءَ التَّصْرِيحُ أَنَّهَا (أُخْتُهَا) فِيمَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحِينَ: (فَاتَّهَتْهَا أُخْتُهَا امْرَأَةٌ زَكَرِيَّا) وَقَالَ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجْهُ، وَقَالَ الذَّهَبِيُّ: عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

خِلَافًا لِقَوْلِ بَعْضِ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّ أَشْيَاعَ هِيَ خَالَةُ مَرْيَمَ وَلَيْسَتْ خَالَةَ عِيسَى.

(٢) قَالَ مَالِكٌ: أَرَاهُ لِفَضْلِ عِيسَى عَلَى يَحْيَى.

(٣) قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: وَلِدَ يَحْيَى قَبْلَ عِيسَى بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ.

(٤) وَقِيلَ إِنَّ الَّذِي نَادَاهَا ابْنُهَا عِيسَى مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهَا، وَعَلِمَتْ بِذَلِكَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِإِشَارَتِهَا إِلَيْهِ حِينَ سَأَلَهَا قَوْمُهَا عَنْ سَبَبِ حَمْلِهَا.

(٥) وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ أَنَّهُ لَمَّا وَلِدَ عِيسَى لَمْ يَبْقَ فِي الْأَرْضِ صَنْمٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا وَقَعَ سَاجِدًا لَوَجْهِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فجاءت مريم بابنها إلى قومها تحمله، فقال لها قومها مستنكرين: يا مريم، لقد جئت أمراً عظيماً مفترى، حيث جئت بولد من غير أب. يا شبيهة هارون^(١) في العبادة، ما كان أبوك زانياً، ولا كانت أهلك زانية، فأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح، فكيف تأتين بولد من غير أب؟! فأشارت إلى ابنها عيسى ﷺ وهو في المهد، فقال لها قومها متعجبين: كيف نكلّم صبيّاً وهو في المهد؟! فقال عيسى ﷺ: إني عبد الله، قد قضى أن ينزل عليّ كتابه الإنجيل، وجعلني نبياً من أنبيائه. وجعلني مباركاً كثير النفع للعباد أينما كنت، وأمرني بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة طيلة حياتي. وجعلني باراً بأمي، ولم يجعلني متكبراً عن طاعة ربي، ولا عاصياً له. والسلام عليّ والأمان من الشيطان وأعوانه يوم ميلادي ويوم موتي ويوم أُبعثُ حياً يوم القيامة، فلا يتخبطني الشيطان ولا يضرني.

وقد بعثه الله نبياً ورسولاً إلى بني إسرائيل، يدعو إلى توحيد الله، ويبشر بمقدم خاتم النبيين، وأيده بالمعجزات العظيمة، فكان يصنع من الطين ما يشبه الطيور ثم ينفخ فيها فتصبح طيوراً بإذن الله وقدرته، ويمسح الأكمه - وهو من وُلد أعمى - فيبرأ بإذن الله، ويمسح الأبرص فيذهب الله عنه برصه، ويمرُّ على الموتى فيناديهم فيحييهم الله تعالى، واستجاب الله له بإنزال المائدة من السماء عندما طلب الحواريون^(٢) من عيسى إنزالها، وكانت على الحال التي طلبها عيسى عيداً لأولهم وآخرهم، وكان يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم من طعام. ورأى عيسى ابنُ مريم ﷺ رجلاً يسرق، فقال له: أَسَرَقْتَ؟، قَالَ: كَلَّا، وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، مَا سَرَقْتُ. فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَكَذَّبْتُ بِصَرِي.

(١) وهو رجل صالح، وكانوا يسمّون بأسماء أنبيائهم.

(٢) الحواري: الناصر أو الوزير، وهو بمعناه، وهو اسم لكل من نصر نبياً، وبه سمي أصحاب عيسى بذلك فإنه لما قال لقومه: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.

نزل الإنجيل على المسيح ابن مريم

وقد أنزل الإنجيل على المسيح عيسى ابن مريم ﷺ لثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان، مصداقاً وتماماً لما في التوراة وناسخاً لبعض شرائعها، وجاء فيه البشارة برسول الله محمد ﷺ ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ وجاء فيه صفة محمد ﷺ وأصحابه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.



ميثاق الأنبياء بالإيمان بمحمد ونصرته

وَمَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لئن بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لئن بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءُ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ، وَلَا تَكْتَفُوا بِمَا عِنْدَكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ مَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ عَلَى أَنْ تَتْرَكُوا مُتَابَعَتَهُ؛ بَلْ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ وَتَنْصُرُوهُ، وَإِنْ كَانَ مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ؛ فَلَا يُغْنِيكُمْ مَا آتَيْتُكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ^(١).



(١) كان اليهود والنصارى ينتظرون بعثته ويعرفون اسمه وأوصافه تماماً كما يعرفون أبناءهم، فلما بُعث محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة المتممة لجميع الرسالات قبله وجاء أهل الكتاب العلم ببعثته؛ نقض كثير منهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ عليهم باتباعه؛ بغياً وحسداً للعرب أولاد إسماعيل ﷺ أن تكون النبوة فيهم.

كفر اليهود بالمسيح ابن مريم ﷺ

ثُمَّ أَنَّ الْيَهُودَ كَذَّبُوا الْمَسِيحَ ﷺ، وَرَفَضُوا أَنْ يَنْسَخَ شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ، وَكَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ الْمَسِيحَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، بَلْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ وَلَدُ غَيَّةٍ^(١)، وَقَالُوا عَلَى أُمِّهِ بَهْتَانًا عَظِيمًا، وَحَرَّضُوا عَلَيْهِ وَسْعُوا فِي قَتْلِهِ، ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وقالوا: إِنْ النِّصَارَى لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ الصَّحِيحِ. ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ﴾ ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾، وَزَعَمُوا مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَجَبُّهُ﴾ وَأَنَّ عَزِيرًا ابْنُ اللَّهِ، وَأَنَّ يَدَ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.



(١) زنية.

قتل يحيى بن زكريا

وإن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يُطغى بها، فقال عيسى عليه السلام: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أن أمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلاً المسجداً، وتعدوا على الشرف^(١)، فقال: «إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وأمركم أن تعملوا بهن، أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وإن مثل من أشرك بالله كمثّل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق^(٢)، فقال: هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأد إليّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأتيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟، وإن الله ﷻ خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثّل رجل في عصابة^(٣) معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثّل رجل أسر العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟، فجعل

(١) جمع شرفة.

(٢) الورق: الفضة.

(٣) العصابة: الجماعة من الرجال.

يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ حَتَّى فَكَ نَفْسَهُ، وَأَمْرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا، فَإِنْ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا^(١) فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا^(٢) فَتَحَصَّنَ فِيهِ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ^(٣)، وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ.

وَبُعِثَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْحَوَارِيِّينَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ. وَكَانَ فِيْمَا يَنْهَوْنَهُمْ عَنْهُ نِكَاحُ ابْنَةِ الْأَخِ. وَكَانَتْ لِمَلِكِهِمْ ابْنَةٌ أَخٌ تُعْجِبُهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فَكَانَتْ لَهَا كُلُّ يَوْمٍ حَاجَةٌ يَقْضِيهَا. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ أُمُّهَا؛ قَالَتْ لَهَا: إِذَا دَخَلْتَ عَلَى الْمَلِكِ فَسَأَلِكِ حَاجَتِكَ؛ فَقُولِي حَاجَتِي أَنْ تَذْبَحَ لِي يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا. فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ سَأَلَهَا حَاجَتَهَا فَقَالَتْ: حَاجَتِي أَنْ تَذْبَحَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا فَقَالَ: سَلِينِي غَيْرَ هَذَا، فَقَالَتْ: مَا أَسْأَلُكَ إِلَّا هَذَا. فَلَمَّا أَبَتْ عَلَيْهِ؛ دَعَا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا، وَدَّعَى بِطَشَتْ فَذَبَحَهُ^(٤).



(١) مسرعين.

(٢) الحصن: كل مكان محمي منيع لا يوصل إلى جوفه. والحصين من الأماكن: المنيع، يقال: درع حصين: أي: محكمة، وحصن حصين: للمبالغة.

(٣) أي: حفظها منهم.

(٤) وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ عِيسَى ﷺ، وَكَانَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا مِنْ ذُرِّيَةِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ ﷺ.

وقيل: أن زكريا قُتل أيضًا بعد ابنه يحيى ﷺ. وقيل: أن زكريا مات موتًا ولم يقتل. وأن الذي

نشر بالمنشأ هو شعيا بن أمصيا ﷺ.

قصة رفع المسيح عيسى ابن مريم ﷺ إلى السماء

واستمر المسيح ﷺ في دعوته مراغمًا لليهود الذين أرادوا قتله، جريًا على عاداتهم في قتل الأنبياء. واستعانت اليهود - قَبَحَهُمُ اللَّهُ - على مُعَادَاةِ عِيسَى، ﷺ، بِمُلُوكِ الْيُونَانِ، وَوَشَّوْا عَنْدهُمْ، وَأَوْحَوْا إِلَيْهِمْ أَنَّ هَذَا يُفْسِدُ عَلَيْكُمْ الرَّعَايَا فَبَعَثُوا مَنْ يَقْبِضُ عَلَيْهِ. وَلَمَّا أَرَادَ الْيَهُودُ قَتْلَ الْمَسِيحِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ، خَرَجَ الْمَسِيحُ إِلَى أَصْحَابِهِ - وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا - مِنْ عَيْنِ^(١) فِي الْبَيْتِ، وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً، فَقَالَ لَهُمْ: أَمَّا إِنْ مِنْكُمْ مَنْ سَيَكْفُرُ بِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ سَيُلْقِي عَلَيْهِ شَبْهِي فَيَقْتُلُ مَكَانِي، وَيَكُونُ مَعِيَ فِي دَرَجَتِي؟، فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحَدِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ عِيسَى: اجْلِسْ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: نَعَمْ، أَنْتَ ذَاكَ. فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبْهُ عِيسَى، وَرُفِعَ عِيسَى ﷺ مِنْ رُوزَنَةٍ^(٢) كَانَتْ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ. وَسَيَعُودُ ﷺ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ قَبِيلَ قِيَامِ السَّاعَةِ حَاكِمًا بِالْإِسْلَامِ^(٣).



(١) يعني: عين الماء، مكان الاغتسال.

(٢) الروزنة: الطاق في أعلى الجدار. أي: النافذة الصغيرة القريبة إلى السقف في أعلى الجدار.

(٣) كما سيأتي بيان ذلك بمشيئة الله في فصول هذا الكتاب.

زعم اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه

وبعد رفع عيسى ﷺ إلى السماء جاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشَّيْءَ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ صَلَّبُوهُ، ثم زعم اليهود أنهم قتلوا عيسى وصلبوه وقالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾، وحقيقة الأمر أنهم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَّبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ.



الخراب الثاني لبيت المقدس

ثم كان الخراب الثاني بعد زكريّا ويحيى والمسيح بنحو سبعين سنة، كما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى بن زكريّا الذي يسميه أهل الكتاب يوحنا المعمدان. بعث الله إليهم ملكًا من ملوك بابل يُقال له: خردوس^(١)، فسار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشّام، وقد قيل: هذا تأويل قوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

وبعد الخراب الثاني تفرّقوا في الأرض، ومن حينئذ زال ملكهم وقطعهم الله في الأرض أممًا، وكانوا تحت حكم الروم والفرس ولم يبق لهم ملك.

والمسيح جاء بالحق فكان نسخ شرع التّوراة، ومن اتّبع المسيح كان على الحق، وهذا ممّا لا يُنازع فيه المسلمون؛ فإنّهم متفقون على أنّ من كان متمسكًا بما أمر به المسيح فإنّه من عباد الله الصّالحين، ولكن من جاء بشرع لم يأت به المسيح أو أراد اتّباع شرعه بعد النسخ؛ فهو بمنزلة اليهود الذين نسخ الله ما نسخهم وأزال دولتهم^(٢).

(١) وفي بعض الكتب اسمه: (جودرس). وكثير من المذكورين بالعلم يظنّ أنّ (بُخْت نصر) هو الذي قدّم الشّام لما قُتل يحيى بن زكريّا، وهذا عند أهل العلم من أهل الكتاب، وعند من له خبرة من علماء المسلمين باطل، والمتواتر أنّ (بُخْت نصر) هو الذي قدّم في المرّة الأولى بعد مقتل شعيا ﷺ. ويحتمل أن الملك الذي دمر بيت المقدس بعد زمن يحيى ﷺ كان يلقب بـ «بختنصر»، لمشابهته لبختنصر الأول في القسوة والشدة والتخريب.

(٢) وكذلك فعّل بالنصارى لما بعث الله محمّدًا ﷺ ولم يتبعوه؛ فأزال دولتهم عن وسط الأرض وخيارها.

شاؤول اليهودي (بولس) يحرف دين النصارى

ثم جاء بولس (شاؤول اليهودي) وهو أول من حرف الديانة النصرانية، ولم يكن من تلاميذ المسيح، ولم تثبت له رؤية المسيح ﷺ في حياته، وكان بولس عارفاً بالفلسفة الإغريقية ومدرسة الإسكندرية متأثراً بالفلسفة الأفلاطونية والرواقية التي تنبذ المادة والجسم وتعتبرهما شراً وخبثاً، وبالطقوس الوثنية في التضحية الفدائية للتكفير عن خطايا الناس، حسب عقيدة بلاد اليونان التي تؤمن بالآلهة التي ماتت لتفتدي بموتها بني الإنسان.

وكان بولس من أشدّ الناس اضطهاداً وتعذيباً لأتباع المسيح ﷺ، ثم تظاهر بالنصرانية وادعى أنه التقى مع المسيح وأن المسيح ظهر له فجأة في الطريق، وتحول بولس من عدو لأتباع المسيح إلى مغير لرسالة المسيح، واختلق عقيدة التثليث للنصارى، ودعا إلى تأليه المسيح وأنه ابن الله، وزعم أن المسيح صلب تكفيراً عن خطيئة آدم وفداء عن البشرية وإثمه الذي تحملته بعد ذلك، لكي يجد مبرراً لصلب المسيح حسب ما توهمه، وكتب كتاباً يحوي أربع عشرة رسالة ادعى أتباعه أنه كتبها بالإلهام، وهي التي تشكلت منها الديانة النصرانية المحرفة، وأضيفت إلى ما يسمونه بـ (العهد الجديد) في الكتاب المقدس، وكذلك نَسَخَ الختان، واستبدل السبت بالأحد، وغير ذلك من تحريفاته، كما زعم بولس أن المسيح سيحاسب الناس يوم القيامة.

وعقيدة التثليث التي ابتدعها بولس لم يأت بها نبي من الأنبياء، ولا نزلت في كتاب من الكتب السماوية، ولم ترد في التوراة، وعلماء اليهود من عهد موسى ﷺ إلى هذا الزمان لا يعترفون بعقيدة التثليث، ولا يرضون بنسبتها إلى كتبهم.

إنجيل برنابا ينقض تحريفات بولس

وأدت انحرافات بولس إلى افتراق برنابا^(١) الحوارية عنه في رحلاته وكتابته لإنجيل برنابا والذي صرح فيه بتوحيد الله تعالى وبالبشارة بالنبي محمد ﷺ وقال ببشرية عيسى ﷺ وأنكر صلبه، وذكر أنه ألقى الشبه على يهوذا الإسخريوطي؛ كما ذكر أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق^(٢).

(١) برنابا هو أحد الحواريين تلامذة عيسى ﷺ.

(٢) وأقدم خبر عن (إنجيل برنابا) كان قريباً من عام (٤٩٢) م، حين أصدر البابا (جلاسيوس) الأول أمراً يحرم فيه مطالعة عدد من الكتب، كان منها كتاب يسمّى (إنجيل برنابا) وهذا كان قبل مبعث النبي محمد ﷺ، ثم لم يظهر له خبر بعد ذلك إلا في أواخر القرن السادس عشر الميلادي حيث عثر الراهب اللاتيني (فرامينو) على رسائل (إريانوس) يندد فيها ببولس، وأسند (إريانوس) تنديده هذا إلى إنجيل برنابا، فحرص هذا الراهب على الاطلاع على هذا الإنجيل وبحث عنه إلى أن وجده في مكتبة البابا (سكتس) الخامس، وطالعه بشغف شديد ثم أسلم.

كما عثر (كريم) أحد مستشاري ملك بروسيا على نسخة لإنجيل برنابا باللغة الإيطالية عند أحد وجهاء مدينة أمستردام، وأهداها (كريم) إلى الأمير (إيوجين سافوي) ثم انتقلت إلى مكتبة البلاط الملكي في فينا، حيث هي موجودة الآن، وقد ترجمت إلى الإنجليزية وغيرها. وقد كان في الأصل الأول للإنجيل التعبير في البشارات عن اسم النبي بكلمة «البارقليط» واللفظ الأصلي «بيركلي طوس»، ولكنه لما ترجم إلى العربية فسرهما بعضهم (بالمخلص)، وفسرها آخرون (بالمعزي)، وأصل معنى البارقليط في اليونانية القديمة: الذي له حمد كثير، قال الألوسي: إنه لفظ يؤذن بالحمد.

تحريف الإنجيل واختلاف نُسَخه

وكان الإنجيل كتاباً موجوداً ومعروفاً لدى النصارى الأوائل بأنه (إنجيل الله) أو (إنجيل المسيح)، وقد ذكره بولس في رسائله، لكن النصارى لا يعرفون شيئاً عن مصير ذلك الإنجيل، ولا أين ذهب، وقد صار عند النصارى - بدل ذلك الإنجيل الواحد - أناجيل كثيرة مختلفة ومتناقضة، أشهرها أربعة أناجيل من طريق مرقس ولوقا ومتى ويوحنا، وليس لها سند متصل، وهي أشدُّ اختلافاً وتحريفًا وأكثرَ زيادةً ونقصًا وأفحشُ تفاوتًا من التوراة المحرفة^(١).



(١) والأناجيل الأربعة الموجودة اليوم لا توجد فيها أحكام شرعية وقد اضطر النصارى المتأخرون ليأخذوا بعض أحكام الميراث الإسلامية من شرح مجلة الأحكام العدلية.

بنو إسرائيل كتبوا كتاباً وتركوا التوراة

ثم إن بني إسرائيل كتبوا كتاباً، فاتبعوه، وتركوا التوراة التي أنزلت على موسى، والكتاب المقدس عند اليهود والنصارى (البابيل) يتكون من قسمين:

القسم الأول: العهد القديم، وهو التوراة التي لم تسلم من التحريف والتبديل والتي يؤمن بها اليهود والنصارى وتتكون من الأسفار الخمسة المنسوبة لموسى، وأضيف معها الأسفار التاريخية المنسوبة لعدد من الأنبياء، وأسفار الشعر والحكمة وتنسب في غالبيتها إلى داود وسليمان، ومن المزامير ما ينسب إلى آخرين مجهولين، والأسفار النبوية وتتكون من سبع عشرة سفرًا، وأسفار الأبوكريفا السبعة وبعض الكنائس المسيحية تزيد أسفارًا أخرى.

والقسم الثاني: العهد الجديد، هو مجموعة الأناجيل الأربعة والرسائل الملحقة بها، وينسب إلى ثمانية من المحررين ينتمون إلى الجيل الأول والثاني من النصرانية، وهم متى ومرقس ولوقا ويوحنا أصحاب الأناجيل، ثم بولس صاحب الأربع عشرة رسالة، ثم بطرس ويعقوب ويهوذا، تلاميذ المسيح الذين تنسب إليهم القليل من الرسائل^(١).

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ

(١) ومما كتبه اليهود أيضًا كتاب التلمود، ومنه تلمود بابل وتلمود القدس.

ثَمَنًا قَلِيلًا ﴿٢٢٦﴾، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾، وَيَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

ودل على تحريف كتبهم التي بين أيديهم: انقطاع سندها، والتناقض الواضح بين نصوصها، واختلاف نُسُخها وعدد أسفارها، وشهادة بعض علماء اليهود والنصارى على وقوع التحريف في كتبهم؛ وخاصة من رجع منهم إلى الحق واتبع شريعة محمد ﷺ.



تحريف النصارى دينهم وتفرقهم

ثم إنَّ النَّصَارَى - بعد فتنة بولس وتحريفه لدين المسيح ﷺ - تفرقوا واختلفوا ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فَتَفَرَّقُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِيْنَا اللَّهُ مَا شَاءَ، ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَهُؤُلَاءِ الْيَعْقُوبِيَّةُ أَصْحَابُ يَعْقُوبَ الْبَرَادِئِيِّ (الأرثوذكس)، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِيْنَا ابْنُ اللَّهِ مَا شَاءَ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهُؤُلَاءِ النَّسْطُورِيَّةُ أَصْحَابُ نَسْطُورَسَ (الكاثوليك)، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِيْنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهُؤُلَاءِ هُمُ الْمُسْلِمُونَ الْمُتَّبِعُونَ لِلْمَسِيحِ ﷺ، وَمِنْهُمْ الْأَرِيُوسِيَّةُ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَرِيُوسَ.

فَأَمَّا النَّسْطُورِيَّةُ وَالْعَقُوبِيَّةُ وَمَا تَفَرَّعَ عَنْهُمْ مِنْ فِرَقٍ كَافِرَةٍ؛ فَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ تُكْفِّرُ الْأُخْرَى وَتَعْتَقِدُ تَخْلِيدَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَلَا تَرَى مُجَامَعَتَهُمْ فِي الْمَعَابِدِ وَالْكَنَائِسِ، وَكُلُّهُمْ يَقُولُ بِالثَّلَاثِ، وَلَكِنْ بَيْنَهُمْ اخْتِلَافٌ فِي الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ فِيمَا بَيْنَ اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ هَلْ تَدْرَعُهُ؟ أَوْ حَلَّ فِيهِ؟ أَوْ اتَّحَدَ بِهِ؟، وَاخْتِلَافُهُمْ فِي ذَلِكَ شَدِيدٌ وَكُفْرُهُمْ بِسَبَبِهِ غَلِيظٌ.



تغيير الملك قسطنطين دين النصارى

وَالنَّصَارَى كَانُوا مَقْهُورِينَ مَغْلُوبِينَ مُبَدَّدِينَ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى ظَهَرَ قُسْطَنْطِينُ -
 وَهُوَ أَحَدُ مُلُوكِ الْيُونَانِ - بَعْدَ رَفْعِ الْمَسِيحِ ﷺ بِنَحْوِ مِنْ ثَلَاثِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ فِيلَسُوفًا
 قَبْلَ ذَلِكَ. فَدَخَلَ فِي دِينِ النَّصَارَى قِيلَ: تَقِيَّةً، وَقِيلَ: حِيلَةً لِيُفْسِدَهُ. وَلَمَّا اخْتَلَفَ
 الْبَتَارِكَةُ الْأَرْبَعَةُ وَجَمِيعُ الْأَسَاقِفَةِ وَالْقَسَاوِسَةِ وَالشَّامِسَةِ وَالرَّهَابِينَ فِي الْمَسِيحِ
 عَلَى أَقْوَالٍ مُتَعَدِّدَةٍ لَا تَنْحَصِرُ وَلَا تَنْضِبُ؛ اجْتَمَعُوا وَتَحَاكَمُوا إِلَى الْمَلِكِ قُسْطَنْطِينِ
 - بَانِي الْقُسْطَنْطِينَةِ - فَلَجَّؤُوا لِلتَّصْوِيتِ وَقَرَرُوا عَقِيدَةَ الثَّلَاثِ فِي مَجْمَعِ نِيقِيَّةِ سَنَةِ
 ٣٢٥ م وَصَارَ الْمَلِكُ إِلَى قَوْلِ أَكْثَرِ فِرْقَةٍ اتَّفَقَتْ عَلَى قَوْلٍ مِنْ تِلْكَ الْمَقَالَاتِ، فَسَمُّوا:
 الْمَلَائِكَةَ، وَسَمُّوا أَيْضًا: الْمَلَكِيَّةَ نِسْبَةً إِلَى الْمَلِكِ، فَوَضَعَتْ لَهُ الْأَسَاقِفَةُ مِنْهُمْ قَوَانِينَ
 وَشَرِيعَةً وَبِدْعًا أَحَدَثُوهَا، فَصَرَّهْمُ وَبَنَى لَهُمُ الْكَنَائِسَ ذَاتَ التَّصَاوِيرِ وَالتَّمَاثِيلِ،
 وَالْبَيْعِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ، وَالصَّوَامِعَ وَالْهَيَاكِلَ، وَالْمَعَابِدَ، وَالْقَلَايَاتِ. وَبَنَى هَذَا الْمَلِكُ
 الْمَذْكُورُ مَدِينَةَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَالْقُمَامَةَ، وَبَنَى لَحْمًا، وَكَنَائِسَ بِلَادِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَمُدُنَ
 حُورَانَ كُبَصْرَى وَغَيْرَهَا مِنَ الْبُلْدَانِ بِنَاءَاتٍ هَائِلَةً مَحْكَمَةً، وَاسْتَحْوَذَتْ يَدُ النَّصَارَى
 عَلَى مَمْلَكَةِ الشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ وَبِلَادِ الرُّومِ، وَأَقَامَ دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ بِالسَّيْفِ، وَدَحْضَ مَنْ
 عَدَاهُمْ. وَقَتَلَ مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ. لَكِنْ أَظْهَرَ دِينًا مُبَدَّلًا مُعْغِرًا لَيْسَ
 هُوَ دِينَ الْمَسِيحِ ﷺ، فَعَبَدُوا الصَّلِيبَ مِنْ حِينَتِهِ، وَانْتَشَرَ دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ الْمَحْرَفِ
 فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَاشْتَهَرَ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ تَبْدِيلٍ وَتَغْيِيرٍ وَتَحْرِيفٍ، وَوَضَعَ وَكَذَّبَ،
 وَمُخَالَفَةً لِدِينِ الْمَسِيحِ.

كما خالف أغلب النصارى أحكام التَّوراة والإنجيل في أشياء كثيرة شرعوها لأنفسهم، فمن ذلك صلاتهم إلى الشرق وليست منصوباً عليها ولا مأموراً بها في شيء من الأناجيل الأربعة، وعمدوا في بناء كنائسهم إلى ما كان من بناء اليونان وحولوا محاربتها إلى الشرق لأنها مطلع الكواكب النيرة وقد كانت تلك الأبنية إلى الشمال إلى الجدي، وصلوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس، وهكذا تصويرهم الصور والأصنام في كنائسهم ولم تكن مصورة قبل ذلك، وتركهم الختان، ونقلهم صيامهم إلى زمن الربيع، وزيادته إلى خمسين يوماً، وأحلوا أشياء هي حرام بنص التَّوراة ومن ذلك أكل الخنزير، ووضعهم عقيدة التثليث المتناقضة التي يحفظها أطفالهم ونسائهم ورجالهم التي يسمونها بـ (الأمانة) ويختلفون في تفسيرها وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة، وابتدعوا (الرهبانية) وهي ترك التزويج لمن أراد التعبّد وتحريمه عليه، وكتبوا القوانين التي وضعتها لهم الأساقفة الثلاثة والثمانمائة عشر، فكل هذه الأشياء ابتدعوها ووضعوها في أيام قسطنطين بن قسطنطينيَّة باتفاق معه، ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ يُحرّمون لهم ما أحلَّ الله، ويحلّون لهم ما حرّم الله فيتبعونهم^(١).

(١) ويدعي البابوات منذ العصور الوسطى وحتى اليوم: أنهم يملكون حق التحليل والتحرير ولو خالف ذلك شريعة التَّوراة؛ اتباعاً لما ادعاه بولس وما ينسبونه إلى بطرس. ثم إنهم في المجمع المسكوني الذي عقده البابوات في الستينيات من القرن العشرين أعلنوا براءة اليهود من دم المسيح!! فخالفوا بذلك حتى أناجيلهم ودينهم. ومن أفضل وأوسع ما كتب في بيان ضلال النصارى وانحرافهم: كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقد اختصرته في إيجاز لطيف ميسر - نافع بإذن الله - في كتابي: (الزبد المليح من كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) وفيه ملخص بيان عقيدة النصارى وأسباب ضلالهم، وانحرافاتهم وتناقضاتهم، وبيان أن الإسلام هو الدين الحق، ووسطية شريعة الإسلام بين غلو اليهود وتبديل النصارى، وقد أضفت إليه فوائد ونقولاً نافعة إن شاء الله.

اضطهاد الأريوسيين الموحدين

ثُمَّ تَظَاهَرَتِ الْفِرْقُ الْكَافِرَةُ (الْمَلَكِيَّةُ وَالنَّسْطُورِيَّةُ وَالْيَعْقُوبِيَّةُ) عَلَى الْمُسْلِمَةِ (الْأَرِيُوسِيَّةِ)، فَقَاتَلُوهَا وَحَرَضُوا عَلَيْهَا الْمَلِكَ.

وَكَانَ فِي الْأَرِيُوسِيِّينَ النَّصَارَى مُؤْمِنُونَ مُحَدِّثُونَ يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ، فَقِيلَ لِلْمَلِكِ قُسْطَنْطِينَ: مَا نَجِدُ شَيْئًا أَشَدَّ مِنْ شَيْءٍ هَؤُلَاءِ، إِنَّهُمْ يَقْرَءُونَ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ^(١) وَهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ يَعْبُدُونَ بِهَا أَعْمَالَنَا فِي قِرَاءَتِهِمْ، فَادْعُهُمْ فَلْيَقْرَءُوا كَمَا نَقْرَأُ، وَلْيُؤْمِنُوا كَمَا آمَنَّا، فَدَعَاهُمْ فَجَمَعَهُمْ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ، أَوْ يَتْرَكُوا قِرَاءَةَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ إِلَّا مَا بَدَّلُوا مِنْهَا، فَقَالُوا: مَا تَرِيدُونَ إِلَيْنَا؟ دَعُونَا. فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا أَسْطُوَانَةً، ثُمَّ ارْزُقُونَا إِلَيْهَا، ثُمَّ آعْطُونَا شَيْئًا نَرْفَعُ بِهِ طَعَامَنَا وَشَرَابَنَا، فَلَا تَرُدُّ عَلَيْنَا. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: دَعُونَا نَسِيحُ فِي الْأَرْضِ وَنَهْنِيهِمْ، وَنَشْرَبُ كَمَا يَشْرَبُ الْوَحْشُ، فَإِنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْنَا فِي أَرْضِكُمْ فَاقْتُلُونَا. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: مِنْهُمْ ابْنُوا لَنَا دُورًا فِي الْفِيَا فِي وَنَحْتَفِرُ الْآبَارَ، وَنَحْتَرِثُ الْبُقُولَ، فَلَا تَرُدُّ عَلَيْنَا وَلَا نَمُرُّ بِكُمْ، - وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْقَبَائِلِ إِلَّا وَلَهُ حَمِيمٌ فِيهِمْ - فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَتَفَرَّقَ أَصْحَابُهَا، وَلَمْ يَبْقَ عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الرُّهْبَانِ، فَسَكَنُوا الْبَرَارِي وَالْبَوَادِي وَبَنَوْا الصَّوَامِعَ وَالِدِّيَارَاتِ وَالْقَلَايَاتِ وَقَبِعُوا بِالْعَيْشِ الزَّهِيدِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ ^(٢) وَالْآخَرُونَ ^(٣) قَالُوا: نَتَعَبَّدُ كَمَا تَعَبَّدَ فُلَانٌ،

(١) يعني: قلدهم آخرون - من النصارى المشركين - في الرهينة دون أن يأخذوا منهم عقيدة التوحيد.

وَنَسِيحُ كَمَا سَاحَ فُلَانٌ، وَتَتَّخِذُ دُورًا كَمَا اتَّخَذَ فُلَانٌ، وَهُمْ عَلَى شَرِكِهِمْ، لَا عِلْمَ لَهُمْ بِإِيمَانِ الَّذِينَ اقْتَدَوْا بِهِ. فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ؛ انْحَطَّ رَجُلٌ مِنْ صُومَعَتِهِ، وَجَاءَ سَائِحٌ مِنْ سِيَاحَتِهِ، وَصَاحِبُ الدَّيْرِ مِنْ دَيْرِهِ، فَاْمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿فَأَمَنْتَ طَائِفَةً مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يَعْنِي: الطَّائِفَةُ الَّتِي آمَنَتْ فِي زَمَنِ عِيسَى ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ يَعْنِي: الطَّائِفَةُ الَّتِي كَفَرَتْ فِي زَمَنِ عِيسَى ﴿فَأَبَدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَهُمْ الْمَوْحِدُونَ مِنَ النَّصَارَى ﴿عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ بِإِظْهَارِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِدِينِ التَّوْحِيدِ عَلَى دِينِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ ١٤١.

وَكَانَتْ أَرْضُ الْعِرَاقِ وَفَارِسَ كُفَّارًا مَجُوسًا وَمُشْرِكِينَ. وَكَانُوا فِي بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ يَقْهَرُونَ النَّصَارَى عَلَى بِلَادِهِمْ، وَأَمَّا أَرْضُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَنِيْهِمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمُشْرِكِينَ أُمَمٌ، وَكَانَ الشِّرْكَ وَالْكُفْرُ ظَاهِرًا فِي أَرْضِ الْيَمَنِ وَالْحِجَازِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ. فَأَهْلُ الْكِتَابِ وَإِنْ كَانُوا خَيْرًا مِنْ غَيْرِهِمْ فَلَمْ يَكُونُوا قَائِمِينَ بِمَا يَجِبُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا شَرَائِعِ دِينِهِ، وَلَا كَانُوا قَاهِرِينَ لِأَكْثَرِ الْكُفَّارِ، وَلَا كَانُوا مَنْصُورِينَ عَلَيْهِمْ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا؛ الَّذِي دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ حَيْثُ قَالَا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ١٢٩، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَظْهَرَ بِهِ تَوْحِيدَ اللَّهِ وَعِبَادَتَهُ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ظُهُورًا لَمْ يُعْرِفْ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَلَمْ يَحْصُلْ مِثْلُهُ لِنَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَظْهَرَ بِهِ مِنْ تَصْدِيقِ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ وَالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، وَمُوسَى وَعِيسَى وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الرُّسُلِ مَا لَمْ يَكُنْ ظَاهِرًا لَا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا غَيْرِهِمْ. وَصَارَ يَدُ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ فَوْقَ الْجَمِيعِ، فَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ سُلْطَانٌ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِهِمْ، وَقَهَرُوا فَارِسَ وَالرُّومَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَقَهَرُوا

الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالْمُسْرِكِينَ وَالصَّابِئِينَ - الذين لا يتدينون بدين - .
فَظَهَرَ بِذَلِكَ تَحْقِيقُ قَوْلِهِ فِي التَّوْرَةِ «وَتَكُونُ يَدُهُ فَوْقَ الْجَمِيعِ وَيَدُ الْكُلِّ بِهِ». وَقَوْلُ:
دَانِيَالُ ﷺ، لَمَّا ذَكَرَ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِاسْمِهِ، فَقَالَ: «سَتَنْزِعُ فِي قَسِيكَ إِغْرَاقًا،
وَتَرْتَوِي السَّهَامُ بِأَمْرِكَ يَا مُحَمَّدُ ارْتِوَاءً». وَكَمَا وَصَفَهُ - أَيْضًا - حِينَ سَأَلَهُ بُخْتُ نَصْرُ
عَنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَا رَأَاهَا كَمَا تَقْدَمُ بَيَانُهُ. فَهَذَا نَعْتُ مُحَمَّدٍ ﷺ، الَّذِي بُعِثَ بِشَرِيعَةٍ قَوِيَّةٍ،
وَدَقَّ جَمِيعَ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَأُمَمِهَا، حَتَّى امْتَلَأَتِ الْأَرْضُ مِنْهُ وَمِنْ أُمَّتِهِ فِي مَشَارِقِ
الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَسُلْطَانُهُ دَائِمٌ، لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يُزِيلَهُ كَمَا زَالَ مَلِكُ الْيَهُودِ وَزَالَ
مَلِكُ النَّصَارَى وَدَوْلَتُهُمْ عَنْ خِيَارِ الْأَرْضِ وَأَوْسَطِهَا وَحَيْثُ بُعِثَ الْأَنْبِيَاءُ كَأَرْضِ
الشَّامِ وَمِصْرَ، فَانْتَزَعَهَا مِنْهُمْ الصَّحَابَةُ، ﷺ، وَكَانَ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ عَلَى يَدَيْ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، ﷺ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.



قصة سبأ وسد مأرب

وكانت مملكة سبأ - في اليمن - في غبطة عظيمة وأرزاق دارّة وثمار وزروع كثيرة، وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد فلما بدّلوا نعمة الله كُفراً؛ أحلّوا قومهم دار البوار لما عدّلوا عن الهدى إلى الضلال، وأرسل الله عليهم سيل العرم.

وذلك أن سد مأرب كان صنعته؛ أن المياه تجري من بين جبلين فعمدوا في قديم الزمان فسدّوا ما بينهما ببناءً مُحْكَمٍ جداً حتّى ارتفع الماء فحكّم على أعالي الجبلين، وغرسوا فيهما البساتين والأشجار المثمرة الأنيقة، وزرعوا الزروع الكثيرة. وكانوا في غبطة عظيمة وعيش رغيد وآيام طيبة حتّى ذكر أن المرأة كانت تمرّ بالمكتل على رأسها فيمتلئ من الثمار ما يتساقط فيه من نضجه وكثرتيه، وأنّه لم يكن في بلادهم شيء من البراغيث ولا الدوابّ المؤذية لصحة هوائهم وطيب فرائهم.

فلما عبدوا غير الله، وبطروا نعمته، وسألوا - بعد تقارب ما بين قرائهم، وطيب ما بينها من البساتين، وأمن الطرقات - سألوا أن يباعدا بين أسفارهم، وأن يكون سفرهم في مشاقّ وتعب، وطلبوا أن يبدّلوا بالخير شراً، كما سأل بنو إسرائيل بدّل المَن والسُّلوى البقول والقنّاء والفوم والعدس والبصل؛ فسلّوا تلك النعمة العظيمة والحسنة العظيمة بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد، وأرسل الله على أصل السدّ الفار وهو الجرذ، ويُقال: الخلد. فلما فطنوا لذلك أصدوا عندها السننير (القطط) فلم تغن شيئاً إذ قد حُمّ القدر، ولم ينفع الحذر كلاً ولا وزر، فلما تحكّم في أصله الفساد سقط وأنهار، فسلك الماء القرار، فقطعت تلك الجداول والأنهار،

وَانْقَطَعَتْ تِلْكَ الثَّمَارُ، وَبَادَتْ تِلْكَ الزُّرُوعُ وَالْأَشْجَارُ، وَتَبَدَّلُوا بَعْدَهَا بِرَدِيءِ
الْأَشْجَارِ وَالْأَثْمَارِ.

وَلَمَّا هَلَكَتْ أَمْوَالُهُمْ، وَخَرِبَتْ بِلَادُهُمْ احْتَاجُوا أَنْ يَرْتَحِلُوا مِنْهَا، وَيَنْتَقِلُوا عَنْهَا،
فَتَفَرَّقُوا فِي غُورِ الْبِلَادِ وَنَجَدِهَا أَيْدِي سَبَأٍ شَذَرَ مَذَرَ، فَنَزَلَتْ طَوَائِفُ مِنْهُمْ الْحِجَازَ،
وَهُمْ خُزَاعَةُ نَزَلُوا ظَاهِرَ مَكَّةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَزَلَ الْمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ وَهُمْ الْأَوْسُ وَالخَزْرَجُ
فَكَانُوا أَوَّلَ مَنْ سَكَنَهَا، ثُمَّ نَزَلَتْ عَنْدهُمْ ثَلَاثُ قَبَائِلَ مِنَ الْيَهُودِ؛ بَنُو قَيْنُقَاعَ، وَبَنُو
قُرَيْظَةَ، وَبَنُو النَّضِيرِ، فَحَالَفُوا الْأَوْسَ وَالخَزْرَجَ وَأَقَامُوا عَنْدهُمْ، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى
مِنْهُمْ الشَّامَ، وَهُمْ الَّذِينَ تَنَصَّرُوا فِيمَا بَعْدَ، وَهُمْ غَسَّانُ وَعَامِلَةُ وَبَهْرَاءُ وَلَحْمٌ وَجَذَامٌ
وَتَنُوحٌ وَتَغْلِبٌ وَغَيْرُهُمْ.

وَلَيْسَ جَمِيعُ سَبَأٍ خَرَجُوا مِنَ الْيَمَنِ لَمَّا أُصِيبُوا بِسَيْلِ الْعَرَمِ؛ بَلْ أَقَامَ أَكْثَرُهُمْ بِهَا،
وَذَهَبَ أَهْلُ مَأْرِبٍ الَّذِينَ كَانَ لَهُمُ السُّدُ فَتَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ، وَبَقِيَ بِالْيَمَنِ مَذْحِجٌ وَكِنْدَةُ
وَأَنْمَارٌ وَالْأَشْعَرِيُّونَ، وَأَنْمَارٌ هُوَ أَبُو خَثْعَمٍ وَبَجِيلَةَ وَحِمِيرٌ. فَهَؤُلَاءِ سِتُّ قَبَائِلَ مِنْ سَبَأٍ
أَقَامُوا بِالْيَمَنِ، وَاسْتَمَرَّ فِيهِمُ الْمُلْكُ وَالتَّبَاعَةُ.



قِصَّةُ تَبَعِ أَبِي كَرْبٍ

ثم كانت قِصَّةُ تَبَعِ أَبِي كَرْبٍ، وهو تَبَّانٍ أَسْعَدَ، مَلِكِ الْيَمَنِ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ مَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ مَعَ الشَّحْرِ وَحَضَرَ مَوْتَ تَبَعًا، كَمَا يُسَمُّونَ مَنْ مَلَكَ الشَّامَ مَعَ الْجَزِيرَةِ قَيْصَرَ، وَمَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ كِسْرَى، وَمَنْ مَلَكَ مِصْرَ فِرْعَوْنَ، وَمَنْ مَلَكَ الْحَبْشَةَ النَّجَاشِيَّ، وَمَنْ مَلَكَ الْهِنْدَ بَطْلَيْمُوسَ، وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ مُلُوكِ حِمْيَرَ بِأَرْضِ الْيَمَنِ بَلْقَيْسُ، وَقَدْ قَدَّمْنَا قِصَّتَهَا مَعَ سُلَيْمَانَ عليه السلام.

ومر تَبَعُ أَبِي كَرْبٍ بجيشه على المدينة وقاتل أهلها، فبينما هو على ذَلِكَ مِنْ قِتَالِهِمْ إِذْ جَاءَهُ حَبْرَانِ مِنَ أَحْبَارِ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ عَالِمَانِ رَاسِحَانِ حِينَ سَمِعَا بِمَا يُرِيدُ مِنْ إِهْلَاكِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِهَا فَقَالُوا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ إِنْ أَبَيْتَ إِلَّا مَا تُرِيدُ حِيلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا، وَلَمْ نَأْمَنْ عَلَيْكَ عَاجِلَ الْعُقُوبَةِ فَقَالَ لَهُمَا: وَلِمَ ذَلِكَ؟ قَالَا: هِيَ مُهَاجِرٌ نَبِيٌّ يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْحَرَمِ مِنْ قُرَيْشٍ فِي آخِرِ الزَّمَانِ تَكُونُ دَارُهُ وَقَرَارُهُ فَتَنَاهَى وَرَأَى أَنْ لَهُمَا عِلْمًا، وَأَعْجَبَهُ مَا سَمِعَ مِنْهُمَا فَانْصَرَفَ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَاتَّبَعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا. وَقَدْ كَانَ تَبَعٌ وَقَوْمُهُ أَصْحَابَ أَوْثَانٍ يَعْبُدُونَهَا فَتَوَجَّهَ إِلَى مَكَّةَ، وَهِيَ طَرِيقُهُ إِلَى الْيَمَنِ حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَأَمَجٍ، أَتَاهُ نَفَرٌ مِنْ هُذَيْلِ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِيَّاسَ بْنِ مُضَرِّ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ فَقَالُوا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ أَلَا نَذُوكُكَ عَلَى بَيْتِ مَالٍ دَاثِرٍ أَغْفَلْتَهُ الْمُلُوكُ قَبْلَكَ فِيهِ اللَّؤْلُؤُ وَالزَّبَرْجَدُ وَالْيَاقُوتُ وَالذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ؟ قَالَ: بَلَى قَالُوا بَيْتٌ بِمَكَّةَ؛ يَعْبُدُهُ أَهْلُهُ وَيُصَلُّونَ عِنْدَهُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ الْهُذَلِيُّونَ هَلَكَهَ بِذَلِكَ لِمَا عَرَفُوا مِنْ هَلَاقِهِ مَنْ أَرَادَهُ مِنَ الْمُلُوكِ وَبَعَا عِنْدَهُ فَلَمَّا أَجْمَعَ لِمَا قَالُوا أَرْسَلَ إِلَى الْحَبْرَيْنِ فَسَأَلَهُمَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَا لَهُ مَا أَرَادَ الْقَوْمُ إِلَّا هَلَاقَكَ، وَهَلَكَ جُنْدُكَ مَا نَعْلَمُ

بَيْتًا لِلَّهِ ﷻ اتَّخَذَهُ فِي الْأَرْضِ لِنَفْسِهِ غَيْرُهُ، وَلَئِنْ فَعَلْتَ مَا دَعَوَكَ إِلَيْهِ لَتَهْلِكَ، وَلِيَهْلِكَ مَنْ مَعَكَ جَمِيعًا، قَالَ: فَمَاذَا تَأْمُرَانِي أَنْ أَصْنَعَ إِذَا أَنَا قَدِمْتُ عَلَيْهِ؟ قَالَا: تَصْنَعُ عِنْدَهُ مَا يَصْنَعُ أَهْلُهُ تَطُوفُ بِهِ وَتُعْظِمُهُ وَتُكْرِمُهُ، وَتَحْلِقُ رَأْسَكَ عِنْدَهُ، وَتَذِلُّ لَهُ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ: فَمَا يَمْنَعُكُمَا أَنْتُمَا مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَا: أَمَا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَبَيْتُ أَبِيْنَا إِبْرَاهِيمَ ﷺ، وَإِنَّهُ لَكَمَا أَخْبَرْنَاكَ، وَلَكِنَّ أَهْلَهُ حَالُوا بَيْنَنَا، وَبَيْنَهُ بِالْأَوْثَانِ الَّتِي نَصُبُوهَا حَوْلَهُ، وَبِالدَّمَاءِ الَّتِي يُهْرِيقُونَ عِنْدَهُ، وَهُمْ نَجَسُ أَهْلِ شَرْكِ أَوْ كَمَا قَالَا لَهُ فَعَرَفَ نُصْحَهُمَا وَصَدَقَ حَدِيثَهُمَا، وَقَرَّبَ النَّفَرَ مِنْ هُذَيْلٍ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَطَافَ بِالْبَيْتِ، وَنَحَرَ عِنْدَهُ وَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَأَقَامَ بِمَكَّةَ سِتَّةَ أَيَّامٍ فِيمَا يَذْكُرُونَ يَنْحَرُ بِهَا لِلنَّاسِ، وَيُطْعِمُ أَهْلَهَا، وَيَسْقِيهِمُ الْعَسَلَ.

وَكَانَ تَبِعٌ فِيمَا يَزْعُمُونَ أَوَّلَ مَنْ كَسَا الْبَيْتَ، وَأَوْصَى بِهِ وُلَاتُهُ مِنْ جُرْهُمٍ وَأَمَرَهُمْ بِتَطْهِيرِهِ، وَأَنْ لَا يُقَرَّبُوهُ دَمًا وَلَا مَيْتَةً وَلَا مِثْلَةً وَهِيَ الْمَحَايِضُ، وَجَعَلَ لَهُ أَبًا، وَمِفْتَاحًا، ثُمَّ خَرَجَ تَبِعٌ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْيَمَنِ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ جُنُودِهِ، وَبِالْحَبَرَيْنِ حَتَّى إِذَا دَخَلَ الْيَمَنَ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى الدُّخُولِ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ فَأَبَوْا عَلَيْهِ.

وَقَدْ قَالَ تَبِعٌ حِينَ أَخْبَرَهُ الْحَبْرَانِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شِعْرًا:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ	رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي النَّسَمِ
فَلَوْ مَدَّ عُمْرِي إِلَى عُمْرِهِ	لَكُنْتُ وَزِيرًا لَهُ وَابْنَ عَمِ
وَجَاهَدْتُ بِالسَّيْفِ أَعْدَاءَهُ	وَفَرَجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ هَمِ

وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الشَّعْرُ تَوَارَثَهُ الْأَنْصَارُ وَيَحْفَظُونَهُ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ عِنْدَ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ وَأَرْضَاهُ.



قِصَّةُ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ بَنِجْرَانِ

ثم كان المُلْكُ لذي نواس ابن تَبَعِ المذكور ولم يكن مؤمناً^(١)، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبُرَ السَّاحِرُ، قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتَ سِنِّي وَحَضَرَ أَجْلِي فَادْفَعْ إِلَيَّ غُلَامًا فَلَا عِلْمَهُ السَّحَرُ. فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلَامًا فَكَانَ يُعَلِّمُهُ السَّحَرَ وَكَانَ بَيْنَ الْمَلِكِ وَبَيْنَ السَّاحِرِ رَاهِبٌ فَأَتَى الْغُلَامُ عَلَى الرَّاهِبِ فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِ فَأَعْجَبَهُ نَحْوُهُ وَكَلَامُهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرْبُهُ وَقَالَ: مَا حَبَسَكَ، وَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرْبُهُ وَقَالُوا: مَا حَبَسَكَ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا أَرَادَ السَّاحِرُ أَنْ يَضْرِبَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا أَرَادَ أَهْلُكَ أَنْ يَضْرِبُوكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.

قَالَ: فَبَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ فَطِيعَةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجُوزُوا فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرَ السَّاحِرِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ أَمْ أَمْرَ الرَّاهِبِ قَالَ: فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ وَأَرْضَى مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَجُوزَ النَّاسُ، وَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى فَأَخْبَرَ الرَّاهِبَ بِذَلِكَ فَقَالَ: أَيُّ بُنَيَّ أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ. فَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَسَائِرَ الْأَدْوَاءِ وَيَشْفِيهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ حِينَ يَدْعُو اللَّهَ لَهُمْ.

وَكَانَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ فَعَمِيَ فَسَمِعَ بِهِ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: اشْفِنِي وَلَكَ مَا هَاهُنَا أَجْمَعُ. فَقَالَ: مَا أَنَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ ﷻ فَإِنْ آمَنْتَ بِهِ، وَدَعَوْتُ اللَّهَ؛ شَفَاكَ.

(١) ذُو نَوَاسٍ، وَاسْمُهُ: زُرْعَةُ، وَيُسَمَّى فِي زَمَانِ مَمْلَكَتِهِ بِيُوسُفَ، وَهُوَ ابْنُ (تَبَعٍ) تَبَانَ أَسْعَدُ أَبِي كَرَبَ الَّذِي غَزَا الْمَدِينَةَ وَكَسَى الْكَعْبَةَ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ جَبْرَيْنِ مِنَ يَهُودِ الْمَدِينَةِ.

فَأَمَّنَ فَدَعَا اللَّهَ فَشَفَّاهُ، ثُمَّ أَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ مِنْهُ نَحْوَ مَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا فُلَانُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ فَقَالَ: رَبِّي قَالَ: أَنَا قَالَ: لَا. رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ، حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَأَتَيْ بِهِ فَقَالَ: أَيُّ بَنِي بَلْعٍ مِنْ سِحْرِكَ أَنْ تُبْرِئَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَهَذِهِ الْأَدْوَاءُ، قَالَ: مَا أَشْفِي أَنَا أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ ﷻ، قَالَ: أَنَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَوْلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ قَالَ: فَأَخَذَهُ أَيْضًا بِالْعَذَابِ، وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَأَتَيْ بِالرَّاهِبِ فَقَالَ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤه، وَقَالَ لِلْأَعْمَى: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤه. وَقَالَ لِلْغُلَامِ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا، وَقَالَ: إِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَذْهَبُوا بِهِ فَكَلَّمَا عَلَوَا الْجَبَلَ قَالَ: «اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ»؛ فَارْجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَذْهَبُوا أَجْمَعُونَ. وَجَاءَ الْغُلَامُ يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ فِي قُرُقُورٍ فَقَالَ: إِذَا لَجَجْتُمُ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَأَغْرِقُوهُ فِي الْبَحْرِ، فَلَجَجُوا بِهِ الْبَحْرَ فَقَالَ الْغُلَامُ: «اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ»؛ فَغَرِقُوا أَجْمَعُونَ، وَجَاءَ الْغُلَامُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.

ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمْرُكَ بِهِ فَإِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ مَا أَمْرُكَ بِهِ قَتَلْتَنِي، وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ قَتْلِي. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ تَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، وَتَأْخُذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ قُلْ: «بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ»، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَفَعَلَ وَوَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ رَمَاهُ وَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ»؛ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ الْغُلَامُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ السَّهْمِ وَمَاتَ. فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَقِيلَ لِلْمَلِكِ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ فَقَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ! فَأَمَرَ بِأَفْوَاهِ السِّكِّ فَحَفَرَ فِيهَا الْأَخَادِيدَ،

وَأُضْرِمَتْ فِيهَا النَّيِّرَانُ، وَقَالَ: مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ فَدَعُوهُ، وَإِلَّا فَأَقْحِمُوهُ فِيهَا. فَكَانُوا يَتَعَادُونَ فِيهَا، وَيَتَدَا فَعُونَ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ بَابِنٍ لَهَا تُرْضِعُهُ فَكَانَتْهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النَّارِ، فَقَالَ الصَّبِيُّ: اضْبِرِّي يَا أُمَّاهُ فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ. ^(١)



(١) وأيضاً ثبت في الصحيح كلام ثلاثة آخرين في المهد غير هذا الرضيع، وهم: المسيح عيسى بن مريم ﷺ وورد ذكره في القرآن، ومبرئ الراهب جريج حين اتهم بالزنا فتكلم الرضيع وأخبر أن أباه هو الراعي، والرابع الصبي الذي كان يرضع من أمه، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارَاهُةً وَشَارَةً حَسَنَةً فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مَثَلْ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. هذا ما ثبت وصح إسناده.

ورويت أقوال أخرى في: شاهد يوسف، وابن مَاشِطَةَ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ ويحيى ﷺ، ومُبَارَكُ الْيَمَامَةِ، والخليان عليهما الصلاة والسلام.

تسلط الأحباش النصارى على اليمن

ولما قتل ذو نواس أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً، فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام - وكان نصرانياً - فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة؛ لكونه أقرب إليهم، فبعث معه أميرين: أرياط وأبرهة بن الصباح أباً يكسوم في جيش كثيف، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار، واستلبوا الملك من حمير، وذهب ذو نواس هارباً فلجج في البحر، فغرق. واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران: أرياط وأبرهة، فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا، فقال أحدهما للآخر: إنه لا حاجة بنا إلى اضطدام الجيشين بيننا، ولكن ابزُر إليّ وأبزر إليك، فأينا قتل الآخر، استقل بعده بالملك. فأجابهُ إلى ذلك فتبارزا، وخلف كل واحد منهما فتاه، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف، فشرم أنفه وفمه وشق وجهه، وحمل عتودة مؤلى أبرهة على أرياط فقتله، ورجع أبرهة جريحاً، فداوى جرحه فبرأ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن. فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزئ ناصيته. فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانه، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف، وبجراب فيها من تراب اليمن، وجزئ ناصيته فأرسلها معه، ويقول في كتابه: ليطأ الملك على هذا الجراب فيبرق سمه، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك. فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه، ورضي عنه، وأقره على عمله. وأرسل أبرهة يقول للنجاشي: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يبن قبلها مثلها. فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء، ربيعة البناء، عالية الفناء، مخرقة الأرجاء. سمّتها العرب القليس؛

لَا رُفْعَ لَهَا؛ لِأَنَّ النَّازِلَ إِلَيْهَا تَكَادُ تَسْقُطُ قُلُوبُهُ عَنْ رَأْسِهِ مِنْ اِرْتِفَاعِ بِنَائِهَا. وَعَزَمَ
 أَبْرَهَةَ الْأَشْرَمُ عَلَى أَنْ يَصْرِفَ حَجَّ الْعَرَبِ إِلَيْهَا كَمَا يُحْجِ إِلَى الْكَعْبَةِ بِمَكَّةَ، وَنَادَى
 بِذَلِكَ فِي مَمْلَكَتِهِ، فَكَرِهَتِ الْعَرَبُ الْعَدْنَانِيَّةَ وَالْفَحْطَانِيَّةَ ذَلِكَ، وَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ لِذَلِكَ
 غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى قَصَدَهَا بَعْضُهُمْ، وَتَوَصَّلَ إِلَى أَنْ دَخَلَهَا لَيْلًا. فَأَحْدَثَ فِيهَا وَكْرًا
 رَاجِعًا. فَلَمَّا رَأَى السَّدَنَةُ ذَلِكَ الْوَحْدَ، رَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى مَلِكِهِمْ أَبْرَهَةَ، وَقَالُوا لَهُ:
 إِنَّمَا صَنَعَ هَذَا بَعْضُ قُرَيْشٍ غَضَبًا لِبَيْتِهِمُ الَّذِي ضَاهَيْتَ هَذَا بِهِ، فَأَقْسَمَ أَبْرَهَةُ لِيَسِيرَنَّ
 إِلَى بَيْتِ مَكَّةَ، وَلِيُخَرِّبَنَّهُ حَجْرًا حَجْرًا.



قصة أصحاب الفيل

وتأهب أبرهة لهدم الكعبة وصار في جيش كثيف عرمرم؛ لئلا يصدّه أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله، يُقال له: محمود، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك. - ويُقال: كان معه أيضاً أفيال أخرى - ليهدم الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان، وتوضع في عنق الفيل، ثم يزجر ليلقي الحائط جُملةً واحدةً. فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً، ورأوا أن حقاً عليهم المحاربة دون البيت، ورد من أرادته بكيد. فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن ومُلوكهم، يُقال له «ذو نفر» فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله، وما يريد من هدمه وخرابه. فأجابوه وقاتلوا أبرهة، فهزمهم لما يريد الله ﷻ من كرامة البيت وتعظيمه، وأسر «ذو نفر» فاستصحبه معه. ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم، عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه: شهران وناهس، فقاتلوه، فهزمهم أبرهة، وأسر نفيل بن حبيب، فأراد قتله ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليذله في بلاد الحجاز. فلما اقترب من أرض الطائف، خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم، الذي عندهم، الذي يسمونه اللات. فأكرمهم وبعثوا معه «أبا رغال» دليلاً. فلما انتهى أبرهة إلى المعمس - وهو قريب من مكة - نزل به وأغار جيشه على أهل مكة من الإبل وغيرها، فأخذوه. وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب. وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقتدمة، وكان يُقال له: «الأسود بن مفضو» فهجاه بعض العرب، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قریش، وأن

يُخْبِرُهُ أَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَجِئْ لِقِتَالِكُمْ إِلَّا أَنْ تَصُدُّوه عَنِ الْبَيْتِ. فَجَاءَ حُنَاطَةُ فُدُلَ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ وَبَلَغَهُ عَنْ أَبْرَهَةَ مَا قَالَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: وَاللَّهِ مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيْتُ اللَّهِ الْحَرَامُ، وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنْ يَمْنَعُهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْتُهُ وَحَرَمُهُ، وَإِنْ يُخْلِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَوَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعُ عَنْهُ. فَقَالَ لَهُ حُنَاطَةُ: فَاذْهَبْ مَعِيَ إِلَيْهِ. فَذَهَبَ مَعَهُ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَبْرَهَةُ أَجَلَّهُ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ رَجُلًا جَمِيلًا حَسَنَ الْمَنْظَرِ، وَنَزَلَ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ، وَجَلَسَ مَعَهُ عَلَى الْبَسَاطِ، وَقَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: حَاجَتُكَ؟ فَقَالَ لِتَرْجُمَانٍ: إِنَّ حَاجَتِي أَنْ يُرَدَّ عَلَيَّ الْمَلِكُ مَاتِي بِعِيرٍ أَصَابَهَا لِي. فَقَالَ أَبْرَهَةُ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: لَقَدْ كُنْتُ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهَدْتَ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي، أَتَكَلَّمُنِي فِي مَاتِي بِعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ، وَتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ قَدْ جِئْتُ لِهَدْمِهِ، لَا تَكَلَّمُنِي فِيهِ؟! فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنْ لَلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ. قَالَ: مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنِّي! قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ.

وَرَدَّ أَبْرَهَةُ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِبِلَهُ، فَلَمَّا قَبَضَهَا قَلَدَهَا النَّعَالَ وَأَشْعَرَهَا وَجَعَلَهَا هَدِيًّا، وَبَثَّهَا فِي الْحَرَمِ كَيْ يُصَابَ مِنْهَا شَيْءٌ فَيَغْضَبَ رَبُّ الْحَرَمِ، وَرَجَعَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ، وَالتَّحَصُّنِ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ، تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ. ثُمَّ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللَّهَ وَيَسْتَنْصِرُونَهُ عَلَى أَبْرَهَةَ وَجُنْدِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبْرَهَةُ تَهَيَّأَ لِدُخُولِ مَكَّةَ، وَهَيَّأَ فِيلَهُ - وَكَانَ اسْمُهُ مَحْمُودًا - وَعَبَّأَ جَيْشَهُ، فَلَمَّا وَجَّهُوا الْفِيلَ نَحْوَ مَكَّةَ أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حَتَّى قَامَ إِلَى جَنْبِهِ ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ وَقَالَ: ابْرُكْ مَحْمُودُ وَارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْتَ، فَإِنَّكَ فِي بِلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ. ثُمَّ أَرْسَلَ أُذُنَهُ، فَبَرَكَ الْفِيلُ. وَخَرَجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَشْتَدُّ حَتَّى أَصْعَدَ فِي الْجَبَلِ. وَضَرَبُوا الْفِيلَ لِيَقُومَ فَأَبَى. فَوَجَّهُوهُ رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَامَ يَهْرُولُ. وَوَجَّهُوهُ إِلَى الشَّامِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ. وَوَجَّهُوهُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ وَوَجَّهُوهُ إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ. وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنَ الْبَحْرِ

جَمَاعَاتٍ يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا: حَجَرٌ فِي مِيقَاتِهِ، وَحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ، أَمْثَالُ الْحُمْصِ وَالْعَدَسِ، لَا تُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ. وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَتَدَرُونَ الطَّرِيقَ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلٍ لِيَدْلَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ. هَذَا وَنُفَيْلٌ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ مَعَ قُرَيْشٍ وَعَرَبِ الْحِجَازِ، يَنْظُرُونَ مَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ مِنَ النِّقْمَةِ، وَجَعَلَ نُفَيْلٌ يَقُولُ:

أَيْنَ الْمَفَرُّ وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ وَالْأَشْرُمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرَ الْغَالِبِ

وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَهُ الْعَذَابُ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ سَرِيعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ يَتَسَاقَطُ عُضْوًا عُضْوًا وَهُمْ هَارِبُونَ، وَكَانَ أَبْرَهَةُ مِمَّنْ يَتَسَاقَطُ عُضْوًا عُضْوًا، حَتَّى مَاتَ وَأَصَابَتْ قُرَيْشٌ مَالًا جَزِيلًا مِنْ أَسْلَابِهِمْ، وَمَا كَانَ مَعَهُمْ، وَأَعْظَمَتِ الْعَرَبُ قُرَيْشًا، وَقَالُوا: هُمْ أَهْلُ اللَّهِ، قَاتَلَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَكَفَّاهُمُ الْعَدُوَّ، وَازْدَادُوا تَعْظِيمًا لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَإِيمَانًا بِمَكَانِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى. وَأَرْخُوا بِهِ، وَقَالُوا: وَقَعَ هَذَا فِي عَامِ الْفِيلِ، وَوُلِدَ فُلَانٌ فِي عَامِ الْفِيلِ. فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ فِيَمَا يُعَدُّ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ وَفَضْلِهِ، مَا رَدَّ عَنْهُمْ مِنْ أَمْرِ الْحَبَشَةِ، لِبَقَاءِ أَمْرِهِمْ وَمُدَّتِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۖ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۖ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۖ فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ أَلْكُولِ ۚ﴾ ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۚ إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ۚ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّن جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ۚ﴾ ﴿أَيُّ: لَيْلًا يُعَيِّرُ شَيْئًا مِّنْ خَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، لِمَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ لَوْ قَبِلُوهُ.﴾^(١)

(١) وَمَلَكَ بَعْدَ أَبْرَهَةَ فِي الْيَمَنِ ابْنُهُ يَكْسُومُ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ أَخُوهُ مَسْرُوقُ بْنُ أَبْرَهَةَ، حَتَّى خَرَجَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنَ الْحِمَيْرِيُّ إِلَى كِسْرَى فَاسْتَعَاثَهُ عَلَى الْحَبَشَةِ، فَأَنْفَذَ مَعَهُ مِنْ جُيُوشِهِ فَقَاتَلُوا مَعَهُ، فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مُلْكَهُمْ، وَمَا كَانَ فِي آبَائِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ، وَجَاءَهُمْ وَفُودُ الْعَرَبِ لِلتَّهْنِئَةِ بَعْدَ مَلَكَ الْيَمَنِ إِلَى حِمِيرٍ. وَكَانَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنَ قَدْ اصْطَفَى جَمَاعَةً مِنَ الْأَحْبَاشِ، وَجَعَلَهُمْ مِنْ

وَفَضَّلَ اللَّهُ قُرَيْشًا بَسْبَعِ خِصَالٍ: فَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُمْ عَبَدُوا اللَّهَ عَشْرَ سِنِينَ، لَا يَعْبُدُهُ إِلَّا قُرَيْشِي، وَفَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُ نَصَرَهُمْ يَوْمَ الْفِيلِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ، وَفَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِمْ سُورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ، لَمْ يَدْخُلْ فِيهِمْ غَيْرُهُمْ - لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ - وَفَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُ فِيهِمُ النَّبُوءَةُ، وَالْخِلَافَةُ، وَالْحِجَابَةُ وَهِيَ سِدَانَةُ الْكَعْبَةِ، وَحِفْظُهَا وَمِفْتَاحُهَا، وَالسَّقَايَةُ وَهِيَ جَمْعُ الْمَاءِ مِنْ آبَارِ مَكَّةَ الْمُخْتَلِفَةِ، وَوَضْعُهَا قُرْبَ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ تَحَلَّى بِشْيَاءٍ مِنَ التَّمَرِ أَوْ الزَّبِيبِ فَيَشْرَبُ الْحَجِيجُ مِنْهَا. وَالرَّفَادَةُ: هُوَ طَعَامٌ يُوَضَّعُ لِلْحُجَّاجِ عَلَى سَبِيلِ الضِّيَافَةِ.

وَكَانَتْ إِلَى قُصَيِّ سَقَايَةُ الْحَجِيجِ فَلَا يَشْرَبُونَ إِلَّا مِنْ مَاءِ حِيَاضِهِ، ثُمَّ كَانَتْ إِلَى هَاشِمَ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ - وَاسْمُهُ عَمْرُو - وَكَانَ رَجُلًا مُوسِرًا ذَا شَرَفٍ كَبِيرٍ، فَتَوَلَّى هَاشِمُ السَّقَايَةَ وَالرَّفَادَةَ، وَوُلِدَ ابْنُهُ شَيْبَةُ فِي الْمَدِينَةِ، وَأَوْصَى هَاشِمٌ عِنْدَ وَفَاتِهِ إِلَى أَخِيهِ الْمُطَّلِبِ فَصَارَتِ السَّقَايَةُ وَالرَّفَادَةُ إِلَيْهِ. وَلَمَّا صَارَ شَيْبَةُ بْنُ هَاشِمٍ غُلَامًا رَحَلَ الْمُطَّلِبُ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي طَلَبِهِ، فَاحْتَمَلَهُ وَعَادَ بِهِ فَدَخَلَ بِهِ مَكَّةَ مُرْدِفُهُ عَلَى بَعِيرِهِ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: هَذَا الْمُطَّلِبُ اشْتَرَى عَبْدًا فَسُمِّيَ شَيْبَةُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ. فَقَالَ الْمُطَّلِبُ: وَيَحْكُمُ! إِنَّمَا هُوَ ابْنُ أَخِي هَاشِمٍ قَدِمْتُ بِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ. وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ جَسِيمًا أَبْيَضَ، وَسِيمًا طَوَالًا فَصِيحًا، مَا رَأَاهُ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا أَحَبَّهُ، وَشَرُفَ فِي قَوْمِهِ شَرَفًا لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ آبَائِهِ، وَأَحَبَّهُ قَوْمُهُ، حَتَّى عُرِفَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ: «بِشَيْبَةِ الْحَمْدِ» لِكَثْرَةِ حَمْدِ النَّاسِ إِيَّاهُ. ثُمَّ وَلِيَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ السَّقَايَةَ وَالرَّفَادَةَ بَعْدَ عَمِّهِ الْمُطَّلِبِ فَأَقَامَهَا لِلنَّاسِ. وَكَانَتْ زَمْزَمُ إِذْ ذَاكَ مَطْمُوسَةً مِنْ زَمَنِ جُرْهُمٍ قَدْ تَنَاسَوْا أَمْرَهَا مِنْ تَقَادُمِ عَهْدِهَا وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى مَوْضِعِهَا. حَيْثُ إِنَّ جُرْهُمَ عَفَّتْ أَثَرُ بَثْرِ زَمْزَمَ وَطَمَّتْهَا لَمَّا أَخْرَجَتْ مِنْ مَكَّةَ، فَلَمْ تَزَلْ دَارِسَةً إِلَى أَيَّامِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

خاصته، فاغتالوه وقتلوه، فأرسل كسرى حاكمًا له على اليمن، واستمر حكام كسرى على اليمن إلى أن كان آخرهم باذان الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، وأسلم، ثم صارت اليمن للإسلام.

ثم إنَّ عبدالمطلب أري في المنام مكان زمزم فجدد حفرها، فنازعتة قريش فيها، فنذر عبدالمطلب لئن رزق بعشر من البنين يمنعونه من الناس ليذبحن أحدهم قرباناً، فخرج القدح على عبدالله، ففداه عبدالمطلب بمائة من الإبل. وزوجه أمنة بنت وهب بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب، بن مرة، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، وأبوها سيّد بني زهرة نسباً وشرافاً.



ولادة النبي محمد ﷺ ونشأته

وُلد محمد ﷺ في عام الفيل^(١)، وهو مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ، بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ، بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكٍ، بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ، بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِيَّاسَ، بْنِ مُضَرَ، بْنِ نَزَارٍ، بْنِ مَعَدٍّ، بْنِ عَدْنَانَ.

وهو مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَالْمَاحِي، الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ، وَالْحَاشِرُ، الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِهِ، وَالْمُقَقِّي وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلَا حِمٍ وَالنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ.

وقد ولد عليه الصلاة والسلام في مكة يوم الاثنين من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بثلاث وخمسين سنة (٥٣ ق هـ - ٥٧١ م تقريباً) في مكة^(٢)، وَحَبَسَ اللَّهُ

(١) وذكر بعض المحققين أن ولادته ﷺ كانت يوم الاثنين الموافق ٩ ربيع الأول سنة ٥٣ قبل الهجرة، ويوافق ٢٠ نيسان إبريل سنة ٥٧١ هـ عام الفيل، وأن وفاته ﷺ كانت في ١٣ ربيع الأول سنة ١١ من الهجرة وأنه يوافق ٨ حزيران سنة ٦٣٢ م نقلاً وحساباً.

(٢) في جزيرة العرب - وهي أكبر جزيرة في العالم - ولد ﷺ وبعث فيها وهاجر فيها وغزا فيها ومات فيها، لتكون إسلامية صرفة لا يجتمع فيها دينان ولا قبلتان ولا يجوز بناء الكنائس فيها ولا بيوتاً للنار، وفيها مركز الدنيا الذي هو مكة المكرمة وقبله المسلمين، وفيها الحرمان اللذان لا يجوز تنفير الطير منها، ولا يعضد شوكتهما، ولا يختلي خلاهما، وهما أسبق بيئة في العالم لحماية الحياة الفطرية، وسكانها هم أفصح الناس لساناً ومنطقاً، والقرآن الكريم نزل فيها وبلغت ساكنيها، وحدد الخليفة الراشد العادل عمر بن الخطاب مدة بقاء المشركين فيها بثلاثة أيام فقط لكي يشتري منهم المسلمون حاجتهم، وهي موطن الأمم القوية مثل عاد وثمود وسبأ، وهي مهد اللغة العربية القديمة (السامية)، وهي موطن قريش أشرف قبائل

عَنْ مَكَّةَ الْفِيلِ عام مولده ﷺ، ومات أبوه عبدالله وهو حمل^(١)، وَخَتَنَ يَوْمَ سَابِعِهِ عَلَى يَدِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَتْ هَذِهِ عَادَةُ الْعَرَبِ، وَعَقَّ عَنْهُ بِكَبْشٍ، وَجَعَلَ لَهُ مَادُبَةً، وَسَمَّاهُ مُحَمَّدًا^(٢). وَأَرْضَعَتْهُ أُمُّهُ آمِنَةُ، ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ ثَوِيَّةُ مَوْلَاةُ أَبِي لَهَبٍ^(٣)، ثُمَّ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةِ وَرَأَتْ بَرَكَتَهُ عَلَيْهَا وَعَلَى أَهْلِهَا، حَتَّى بَلَغَ ﷺ سِتِّينَ، فَكَانَ يَشَبُّ شَبَابًا لَا يَشَبُّهُ الْغُلَمَانُ، وَلَمَّا بَلَغَ أَرْبَعَ سِنِينَ كَانَ يَغْدُو مَعَ أَخِيهِ وَأُخْتِهِ فِي الْبَهْمِ، وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ سِتِّ سِنِينَ تُوِفِّيَتْ وَالِدَتُهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ بِالْأَبْوَاءِ، وَهِيَ رَاجِعَةٌ بِهِ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ زِيَارَةٍ قَامَتْ بِهَا مَعَهُ ﷺ إِلَى أَحْوَالِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ. فَكَفَلَهُ جَدُّهُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ حَتَّى كَانَ عُمُرُ النَّبِيِّ ﷺ ثَمَانِ سِنِينَ، ثُمَّ مَاتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَوْصَى عِنْدَ مَوْتِهِ وَلَدَهُ أَبَا طَالِبٍ^(٤) بِكَفَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَحَفْظِهِ، وَحَيَاتِهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ وَالِدَ الرَّسُولِ ﷺ وَأَبَا طَالِبٍ أَخَوَانِ لِأَبٍ وَأُمٍّ، أُمُّهُمَا فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَائِذٍ،

الدنيا والتي هي الأولى بالخلافة ما بقي من الناس اثنين، فالأئمة من قُرَيْشٍ، واختار الله لأمة الإسلام أفضل الرسل وأفضل الكتب، وأفضل اللغات والمواقع الجغرافية، وأفضل الكنوز والثروات والألوان وأفضل المقاييس والمعايير.

(١) خَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَى الشَّامِ فِي عِيرٍ فَفَرَّغُوا مِنْ تِجَارَاتِهِمْ ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَمَرُّوا بِالْمَدِينَةِ وَعَبْدُ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ مَرِيضٌ، فَمَكَثَ عِنْدَ أَحْوَالِ أَبِيهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهُمْ بَنُو عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ، فَأَقَامَ عِنْدَهُمْ مَرِيضًا شَهْرًا ثُمَّ تُوِفِّيَ عَنْ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَمَلًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ، ابْنُ شَهْرَيْنِ. وَجَمِيعُ مَا خَلَفَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَمْسَةٌ مِنَ الْإِبِلِ، وَقِطْعَةٌ غَنَمٍ، وَجَارِيَةٌ حَبَشِيَّةٌ اسْمُهَا: «بَرَكَةٌ» وَهِيَ أُمُّ أَيْمَنَ ﷺ.

(٢) وَالْهَمْزُ لِلَّهِ ﷻ أَنْ سَمَّوْهُ مُحَمَّدًا؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ؛ لِيَلْتَقِيَ الْاسْمُ وَالْفِعْلُ، وَيَتَّبَقَ الْاسْمُ وَالْمُسَمَّى فِي الصُّورَةِ وَالْمَعْنَى، كَمَا قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ:

وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُحِلَّهُ فُذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ

(٣) فَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ، وَعَمُّهُ حَمْزَةٌ، وَأَبُو سَلَمَةَ إِخْوَةٌ مِنَ الرَّضَاعَةِ.

(٤) وَاسْمُهُ: عَبْدُ مَنْفٍ.

فكفله عمه أبو طالب^(١)، وَقَدْ اشْتَغَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي صِبَاهُ بِرَعْيِ الْغَنَمِ، وَرَعَاهَا لِبَعْضِ أَهْلِ مَكَّةَ.

يقول عن نفسه عليه الصلاة والسلام: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ، وَمَكْتُوبٌ فِي أُمِّ الْكِتَابِ: ﴿وَحَاتَمَ النَّدِيِّنَ﴾ - وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجِدِلٌ^(٢) فِي طَيْبَتِهِ -، أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةِ عِيسَى، خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي فَلَمْ يُصْنَبِي مِنْ سِفَاحِ الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ. إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وَرَأَتْ أُمِّي حِمْلَتِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَ لَهَا قُصُورَ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ^(٣)، وَاسْتَرْضِعْتُ فَكَأَنْتُ حَاضِنَتِي مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ^(٤)، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَابْنُ لَهَا فِي بَهْمٍ لَنَا^(٥)، وَلَمْ نَأْخُذْ مَعَنَا زَادًا^(٦)، فَقُلْتُ: يَا أَخِي، أَذْهَبُ فَأَتِنَا بِزَادٍ مِنْ عِنْدِ أُمَّنَا، فَانْطَلَقَ أَخِي وَمَكَّثْتُ عِنْدَ الْبَهْمِ، فَأَتَانِي رَجُلَانِ - عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيْضُ - بَطَسَتْ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ ثَلَجًا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَهْوُ هُو؟ فَقَالَ الْآخَرُ: نَعَمْ، فَأَخَذَانِي فَبَطَحَانِي لِلْقَفَا، فَشَقَّ بَطْنِي، ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي فَشَقَّاهُ، فَاسْتَخْرَجَا مِنْهُ عِلْقَةً سَوْدَاءَ فَطَرَحَاهَا ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: ائْتِنِي بِمَاءٍ ثَلَجٍ، فَعَسَلَ بِهِ جَوْفِي، ثُمَّ قَالَ:

(١) ويروى أنه أخذه في تجارة إلى الشام وهو صغير فرآه بحيرا الراهب وعرفه بأوصافه وإِظلال الغمامة له وميل أغصان الشجرة لإِظلاله حتى نظر إلى خاتم النبوة بين كتفيه وقبّل موضعه، وصححها بعض المحققين وأنكرها الإمام الذهبي.

(٢) يعني طريقًا ملقى على الأرض قبل نفخ الروح فيه.

(٣) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَتَخْصِيصُ الشَّامِ بِظُهُورِ نُورِهِ ﷺ إِشَارَةً إِلَى اسْتِقْرَارِ دِينِهِ وَثُبُوتِهِ بِبِلَادِ الشَّامِ، وَلِهَذَا تَكُونُ الشَّامُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مَعْقَلًا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَبِهَا يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ؑ.

(٤) وهي حليلة السعدية.

(٥) يعني خرج في رعاية الغنم.

(٦) طعامًا.

اِثْنَيْنِي بِمَاءٍ بَرْدٍ، فَغَسَلَ بِهِ قَلْبِي، ثُمَّ قَالَ: اِثْنِنِي بِالسَّكِينَةِ، فَذَرَّهَا فِي قَلْبِي، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: حُضِّهِ، فَحَاصَهُ^(١)، وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ^(٢)، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اجْعَلْهُ فِي كِفَّةٍ، وَاجْعَلْ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِهِ فِي كِفَّةٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا أَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْأَلْفِ فَوْقِي أَشْفِقُ أَنْ يَخَرَّ عَلَيَّ بَعْضُهُمْ، فَقَالَ: لَوْ أَنَّ أُمَّتَهُ وُزِنَتْ بِهِ لَمَالَ بِهِمْ. ثُمَّ انْطَلَقَا وَتَرَكَانِي، إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ.

ولما وقع حلف الفضول في ذي القعدة - وهو من الأشهر الحرم عام (٣٣) هـ - تداعت إليه قبائل من قريش: بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فاجتمعوا في دار عبدالله بن جُدعان التيمي؛ لسنه وشرفه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ، وعمره سبعة عشر عاماً، وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جُدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمْر النَّعَمِ، ولو أَدْعَى به في الإسلام لأُجِبت»^(٣).



(١) حاصه: خاطه. يعني يخط الجرح.

(٢) خَاتَمُ النُّبُوَّةِ: هُوَ قِطْعَةٌ لَحْمٍ نَاتِيَةٍ، عَلَيْهَا شَعْرٌ عِنْدَ كِتْفِهِ الْأَيْسَرِ ﷺ، حَجَمُهَا قَدْرُ بَيْضَةِ الْحَمَامَةِ.

(٣) وروى أنه لَمَّا بَلَغَ الرَّسُولُ ﷺ عِشْرِينَ سَنَةً، هَاجَتْ حَرْبُ الْفَجَارِ وَشَهِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْضَ أَيَّامِهِمْ، أَخْرَجَهُ أَعْمَامُهُ مَعَهُمْ، وَأَنَّهُ قَالَ ﷺ: «كُنْتُ أَتَبَلُّ عَلَى أَعْمَامِي»، أَي: أَرَدَ عَنْهُمْ، نَبَلٌ عَدُوَّهُمْ، إِذَا رَمَوْهُمْ بِهَا. وكان حلف الفضول بعد الفجار، وذلك أن حرب الفجار كانت في

شعبان، وكان حلف الفضول في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة.

زواج النبي ﷺ من خديجة بنت خويلد

وفي الخامسة والعشرين من عمره خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ تاجِرًا إِلَى الشَّامِ فِي مَالِ خَدِيجَةَ ۖ، وسمعت خديجة ۓ بالنبي ﷺ وبأمانته وأخلاقه الكريمة، وإن أخت خديجة قد استكرت (استأجرت) إبلاً من رسول الله ﷺ، وشريكه، فلما قضاوا السفر بقي لهما عليها شيء، فجعل شريكه يأتيهم ويتقاضاهم، ويقول لمحمد ﷺ: انطلق. فيقول: اذهب أنت، فإني أستحيي. فقالت مرة - وقد أتاهم شريكه -: أين محمد لا يجيء معك؟ قال: قد قلت له، فزعم أنه يستحيي، فذكرت ذلك لأختها خديجة، فقالت: ما رأيت رجلاً قط أشد حياء ولا أعف من محمد، فوقع في نفس أختها خديجة، فبعثت إليه ^(١)، فقالت: انت أبي فاخطب إليه، فقال: أبوك ^(٢) رجل كثير المال وهو لا يفعل، قالت: انطلق فالفقه وكلمه، ثم أنا أكفيك. وقد تزوجها النبي ﷺ وهي ثيب في سنة ٢٨ ق هـ. وكان عمرُ النَّبِيِّ ﷺ حينَ تَزَوَّجَ خَدِيجَةَ ۓ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَذَلِكَ بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنَ الشَّامِ بِشَهْرَيْنِ، وَكَانَ عُمُرُهَا ۓ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً ^(٣)، وَوَلَدَتْ لَهُ الْقَاسِمَ ثُمَّ زَيْنَبَ، ثُمَّ رُقَيْيَةَ، ثُمَّ أُمَّ كُلْثُومٍ، ثُمَّ فَاطِمَةَ، ثُمَّ وَلِدَ لَهُ فِي

(١) قيل إنها بعثت صديقتها نفيسة بنت منية، فذهبت إلى النبي ﷺ وعرضت عليه أن يتزوج خديجةَ فَرَضِي ۓ بِذَلِكَ.

(٢) قول الجمهور: أن ولي خديجة ۓ في زواجها من رسول الله ﷺ هو: عمُّها عمرو بن أسد. وذكر بعضهم: أن أباهَا خُوَيْلِدٌ كَانَ قَدْ هَلَكَ قَبْلَ حَرْبِ الْفِجَارِ. وقد تطلق العرب على العم أبا، فيكون المراد بالأب في الروايتين عم خديجة، إذا ثبت أن أباهَا كَانَ مِتُوفًى وَقَدْ ذَاكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٣) هذا المشهور، واختلفوا في سنّها، ومما يؤيد كبر سن خديجة ۓ ما جاء في الصحيح من قول عائشة عن خديجة ۓ: فَعِزْتُ، فَسَأَلْتُه: أَيَّ شَيْءٍ تَذْكُرُ مِنْ عَجَوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ حَمَرَاءِ

الإِسْلَام عَبْدُ اللَّهِ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُلقَّبُ بالطَّيِّبِ والطَّاهِرِ؛ لِأَنَّهُ وُلِدَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ. وَقَدْ مَاتَ بَنُوهُ ﷺ مِنْ خَدِيجَةَ وَهُمْ صِغَارٌ، فَمَاتَ الْقَاسِمُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ سِنًا تُمَكِّنُهُ مِنَ الْمَشْيِ، وَقِيلَ سِنًا تُمَكِّنُهُ مِنْ رُكُوبِ الدَّابَّةِ، ثُمَّ مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ، وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ.

وَأَمَّا بَنَاتُ الرَّسُولِ ﷺ فَكُلُّهُنَّ مِنْ خَدِيجَةَ وَقَدْ أَدْرَكَنَ الْإِسْلَامَ، وَأَسْلَمْنَ، وَعِشْنَ حَتَّى تَزَوَّجْنَ، وَكُلُّهُنَّ مِتْنَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، مَا عدا فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَدْ تُوُفِّيَتْ بَعْدَهُ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ.



«الشَّدَقَيْنِ»؟! وَالشَّدَقُ جَانِبُ الْفَمِ، وَتَقْصِدُ: سُقُوطَ الْأَسْنَانِ مِنَ الْكِبَرِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ بِشَدَقَيْهَا بَيَاضٌ إِلَّا حُمْرَةُ اللَّثَاتِ. قَالَ الزَّيْبِرُ بْنُ بَكَارٍ (ت ٢٥٦ هـ): «هَنْدُ بِنْتُ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ زَمْعَةَ حَمَلَتْ بِمُوسَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ حَسَنِ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً، وَسَمِعْتُ عُلَمَاءَنَا يَقُولُونَ: لَا تَحْمِلُ امْرَأَةٌ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً إِلَّا مِنْ قَرِيشٍ، وَلَا بَعْدَ خَمْسِينَ إِلَّا عَرَبِيَّةٌ».

وضع الحجر الأسود في مكانه

وفي عام (١٨ ق هـ) أعادت قريش بناء الكعبة في الجاهلية بعد أن تهدم جزء منها من سَيْلِ عَرِمٍ انْحَدَرَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَأَوْشَكَتِ الْكَعْبَةُ مِنْهُ عَلَى الْإِنْهِيَارِ، وَكَانَ قَدْ أَصَابَهَا مِنْ قَبْلِ حَرِيقٍ بِسَبَبِ امْرَأَةٍ كَانَتْ تُجَمِّرُهَا، فَهَدَمَتْهَا قُرَيْشٌ وَقَدْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ لَا يُدْخِلُوا فِي بِنَاءِ الْكَعْبَةِ مَنْ كَسِبَهُمْ إِلَّا طَيِّبًا، فَلَا يُدْخِلُوا فِيهَا مَهْرَ بَغِيٍّ وَلَا بَيْعَ رَبًّا، وَلَا مَظْلَمَةً أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَجَعَلُوا يَبْنُونَهَا بِحِجَارَةِ الْوَادِي، وَقَدْ شَارَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَعْمَامِهِ فِي الْبِنَاءِ، وَنَقَلَ الْحِجَارَةَ، وَكَانَ عُمَرُ ﷺ إِذْ ذَاكَ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَبَلَّغُوا مَوْضِعَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ وَمَا يَرَى الْحَجَرِ أَحَدٌ، فَإِذَا هُوَ وَسْطَ حِجَارَتِهِمْ مِثْلَ رَأْسِ الرَّجُلِ يَكَادُ يَتَرَاوِي مِنْهُ وَجْهَ الرَّجُلِ، فَقَالَ بَطْنُ مِنْ قُرَيْشٍ: نَحْنُ نَضْعُهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: نَحْنُ نَضْعُهُ. فَقَالُوا: اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ حَكَمًا. قَالُوا: أَوَّلُ رَجُلٍ يَطْلُعُ مِنَ الْفَجِّ^(١)، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ. فَقَالُوا: أَتَاكُمُ الْأَمِينُ. وَكَانُوا يَسْمُونَهُ الْأَمِينُ، وَلَمْ يَجْرِبُوا عَلَيْهِ كَذِبَةَ قُط. فَقَالُوا لَهُ، فَوَضَعَهُ فِي ثَوْبٍ ثُمَّ دَعَا بِطَوْنِهِمْ^(٢) فَأَخَذُوا بِنَوَاحِيهِ مَعَهُ، فَوَضَعَهُ هُوَ ﷺ بِيَدَيْهِ.

لكنهم لما قَصَرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ وَالْخَشَبُ؛ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ فَلَمْ يَصِلُوا بِرَكْنَيْنِ إِلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ، وَأَنْشَأُوا الْحِجْرَ^(٣) مَكَانَ تَمَةِ الْبِنْيَانِ، وَجَعَلُوا بَابَ

(١) وفي رواية: أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ. ويسمى اليوم: باب السلام. والفج: الطريق الواسع.

(٢) البطن: الجماعة من الأقارب، والبطن دون القبيلة، والفخذ دون البطن.

(٣) وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ حُجْرٌ، أَيْ اقْتُطِعَ مِنَ الْكَعْبَةِ. وَلَا يَصِحُّ الطَّوَّافُ إِلَّا مِنْ وَرَائِهِ.

الكعبة مُرْتَفِعًا لَا يُصْعَدُ إِلَيْهِ إِلَّا بِسُلَّمٍ لِيَدْخُلُوا مِنْ شَأْوَ وَيَمْنَعُوا مِنْ شَأْوَ، تَعَزُّزًا أَنْ لَا يَدْخُلَهَا إِلَّا مَنْ أَرَادُوا، فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا هُوَ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا يَدْعُوهُ يَرْتَقِي، حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ^(١).



(١) قالت عائشة رضي الله عنها: كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه، فقلت للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا أدخل البيت؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فأدخلني الحجر، فقال: إذا أردت دخول البيت، فصلي هاهنا، فإنما هو قطعة من البيت، فقلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن قومك لما بنوا الكعبة، قَصَّرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ وَالْخَشَبُ، فَاقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، فَأَخْرَجُوهُ مِنَ الْبَيْتِ. فقلت: فما شأن بابه مرتفعًا، لا يصعد إليه إلا بسلم؟، قال: «فعل ذلك قومك لِيَدْخُلُوا مِنْ شَأْوَ وَيَمْنَعُوا مِنْ شَأْوَ، فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا هُوَ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا يَدْعُوهُ يَرْتَقِي، حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ. فقلت: يا رسول الله، ألا تردها على قواعد إبراهيم؟، فقال: «لولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية بالشُّركِ بِالْكَفْرِ لَفَعَلْتُ، فَأَخَافُ أَنْ تَنْكَرَ (تَنْفِرَ) قُلُوبُهُمْ أَنْ أَدْخَلَ الْجَدْرَ فِي الْبَيْتِ، وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالْأَرْضِ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَقْوِي عَلَى بِنَائِهِ؛ لَأَمُرْتُ بِالْبَيْتِ فَهَدَمَ، ثُمَّ لَبِنْتُهُ عَلَى أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ رضي الله عنه وَأَعَدْتُ مَا تَرَكُوا مِنْهُ فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أَخْرَجَ مِنْهُ، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ (وفي رواية خَمْسَ أَذْرُعٍ) مِنَ الْحِجْرِ فَبَلَّغْتُ بِهِ أُسَاسَ إِبْرَاهِيمَ. وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ مَوْضُوعَيْنِ فِي الْأَرْضِ: بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ وَبَابٌ خَلْفًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ، وَلَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنْ بَدَأَ لِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ فَهَلُمِّي لِأَرِيكَ مَا تَرَكُوا مِنْهُ»، فَأَرَاهَا قَرِيبًا مِنْ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ. وقال لها: إِذَا أَرَدْتَ دُخُولَ الْبَيْتِ فَصَلِّيْ هَاهُنَا، صَلِّيْ فِي الْحِجْرِ، فَإِنَّمَا هُوَ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَيْتِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍ: لَيْتَنِي كَانَتْ عَائِشَةُ سَمِعَتْ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، مَا أَرَى رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تَرَكَ اسْتِئْثَارَ الرُّكْنَيْنِ اللَّذَيْنِ يَلِيَانِ الْحِجْرَ، إِلَّا أَنَّ الْبَيْتَ لَمْ يُتِمَّمْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ. وَابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، لَمْ يُرِدْ بِقَوْلِهِ الْحِجْرُ مِنَ الْبَيْتِ جَمِيعَ الْحِجْرِ وَإِنَّمَا أَرَادَ بَعْضَهُ عَلَى مَا خَبَرَتْ عَائِشَةُ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّ بَعْضَ الْحِجْرِ مِنَ الْبَيْتِ لَا جَمِيعُهُ. قَالَ يَزِيدُ: وَشَهِدْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ حِينَ هَدَمَهُ، وَبَنَاهُ، وَأَدْخَلَ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ، وَقَدْ رَأَيْتُ أُسَاسَ إِبْرَاهِيمَ حِجَارَةً، كَأَسْنِمَةِ الْإِيلِ مُتَلَا حِكَةً.

حال الأرض قبل بعثته ﷺ

وكان العربُ على أمور باقية من الحنيفية ملة إبراهيم ودين إسماعيل عليه السلام. وكانوا على أمور من الفطرة كنصرة المظلوم والشجاعة والكرم والضيافة، وكانوا أفصح الناس، واعتادوا القول السديد دون فلسفات فكرية، وبمعزل عن أدواء المدنية والترف. إلا أنه دخل فيهم الشرك بالله وعبادة الأصنام التي أحضرها عمرو بن لحي الخزاعي من الشام، وتبع ذلك عبادات شركية قولية وفعلية كالذبح للأصنام وغيرها، وظهرت فيهم العصبية القبلية، وشرب الخمر والقمار وتعاطي الربا وأكل أموال الناس بالباطل وزنى البغايا والإماء، وقتل الأولاد خشية الفقر، ووأذ البنات خشية العار، والطواف بالبيت عراة، وغير ذلك من الأمور المنكرة. إلا أنه كان عند العرب في الجاهلية من الأخلاق ما هو أنبل من أخلاق أهل الحضارة الغربية اليوم، فكان عندهم الكرم والنصرة والشجاعة، ولم يكن عند مشركي العرب نكاح المحارم الذي يفعله المجوس، ولا نظام الطبقات كما عند الهنود، ولا ادعاء أن المسيح ابن مريم خلق السماوات والأرض كما يقول النصارى، ولم يكن عندهم زنا المرأة الحرة.

وإن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وهم بقايا الموحدين منهم، المستمسكين بالدين الحق. وكان في تلك الفترة أقليات يهودية مشتتة في الشام والعراق والحجاز وقد تحرفت تعاليم موسى عليه السلام، ودخل فيها آراء كتبها الأخبار ونسبوها إلى الدين، فجعلوا الله - سبحانه - إلها قومياً خاصاً باليهود وافتروا على أنبيائهم ما يشوه سمعتهم، وأحلوا التعامل مع غيرهم من الأميين بالربا والغش وحرموه بينهم، وأبوا دعوة الناس إلى دينهم لئلا يحظوا - في

زعمهم - بشرف الانتماء إلى شعب الله المختار. وفي بلاد الروم وحُكم النصارى كان الربا والاحتكار هما أساسا النظام، وفرض هرقل ضرائب جديدة على أهالي الولايات المستأين من الحكم الروماني لتسديد الدين الكبير لحروبه مع فارس، وكانت طبقات المجتمع البيزنطي جميعاً تؤمن بالتنجيم، والتنبؤ بالغيب، والعرافة، والاتصال بالشياطين، والتمايم. وكان الامبراطور وقادة الجيش وكبار رجال الكنيسة يعيشون في أعلى السلم الاجتماعي، في حين يقبع آلاف العبيد في المزارع الضخمة حيث يعانون من سوء التغذية وتدني مستوى المعيشة. ويقرب من مستواهم المعيشي: الأحرار الذين يشتغلون في الصناعات، وهذه الطبقات من الفقراء كانوا يحسون بسوء حالهم وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا فيها. وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يؤلفون من بينهم طبقة وسطى كبيرة العدد. وكانت البوذية تنتشر في الصين، فكانت التماثيل الخزفية المزججة التي تمثل الخدم والذل والجمال تدفن مع الأموات في القبور، ثم تحولت هذه العادة إلى ذبح العبيد والخيول الحية ودفنها مع الملوك والرؤساء لخدمتهم في عالم ما بعد الموت. وكانت تماثيل بوذا (٥٦٣ - ٤٨٣ ق. م) تنتشر في الهند أيضاً، وتعتقد بخلود الحياة المستمرة في دورة لانهاية من تناسخ الأرواح. وفي الهند سادت البرهمية بعد أن زاحمت الديانة البوذية، والبرهمية تقوم على نظام الطبقات، وزعامة البراهمة، وتقديس البقرة، وتناسخ الأرواح، وعبادات وحشية مثل التضحية بأفراد من الإنسان، وإحراق الأرملة عند وفاة زوجها. وكان اليابانيون قبل البوذية يعبدون إلهاً يدعونه كاممي، ويتمثل في عبادة ظواهر من الطبيعة كالشمس أو الأجداد الأسطوريين الذين هم ظواهر من الطبيعة حسب معتقدهم وتعرف ديانتهم باسم (الشتو) أي الطريق إلى الآلهة، وعند ظهور الإسلام كانت البوذية قد انتصرت على الشنتو.

وكان نفر من قريش على مخالفة للمشركين في عبادة الأصنام، ففي تلك الفترة خَرَجَ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ الْقُرَشِيُّ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ وَيَتَّبِعُهُ. فَلَقِيَ

عَالِمًا مِنَ الْيَهُودِ، فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ، فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ، فَأَخْبَرَنِي، فَقَالَ: لَا تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيصِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، فَقَالَ زَيْدٌ: مَا أَفْرُ إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنْتَى أَسْتَطِيعُهُ؟ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَنِيفًا، فَقَالَ زَيْدٌ: وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينَ إِبْرَاهِيمَ، لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ. ^(١) فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيصِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، قَالَ: مَا أَفْرُ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَلَا مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنْتَى أَسْتَطِيعُ؟ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ: وَمَا الْحَنِيفُ، قَالَ: دِينَ إِبْرَاهِيمَ، لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ ﷺ خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ. وَكَانَ يُحْيِي الْمَوْتُودَةَ، يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ: لَا تَقْتُلْهَا، أَنَا أَكْفِيكَ مَوْتَنَهَا، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا تَرَعَرَعَتْ قَالَ لِأَيِّهَا: إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ، وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَوْتَنَهَا، وَقَدْ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلَدِ حِمْيَرَ ^(٢) قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْوَحْيُ، فَقَدَّمَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ سَفْرَةً ^(٣)، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، وَقَدَّمَهَا إِلَى زَيْدٍ، فَأَبَى زَيْدٌ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زَيْدٌ ^(٤) لِقَرِيشٍ: «إِنِّي لَسْتُ أَكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ، وَلَا

(١) وذكر أهل السير أنَّ أخبار اليهود كانوا يذكرون صفة النبي ﷺ فَلَمَّا طَلَعَ الْكَوْكَبُ الْأَحْمَرُ أَخْبَرُوا أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَاسْمُهُ أَحْمَدُ، يُخْرَجُ مِنَ الْحَرَمِ، وَمُهَاجِرُهُ إِلَى يَثْرِبَ. وَقَالَ أَحَدُهُمْ لَزَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ نُفَيْلٍ لَمَّا رَحَلَ إِلَى الشَّامِ يَبْحَثُ عَنِ الدِّينِ الْحَقِّ: قَدْ خَرَجَ فِي بَلَدِكَ نَبِيٌّ أَوْ هُوَ خَارِجٌ، قَدْ خَرَجَ نَجْمُهُ، فَارْجِعْ فَصَدِّقْهُ، وَاتَّبِعْهُ.

(٢) واد في طريق التنعيم إلى مكة.

(٣) (سفرة) طعام يتخذه المسافرين وأكثر ما يحمل في جلد مستدير ولذلك أصبح يطلق لفظ سفرة على ما يوضع فيه الطعام أو عليه.

(٤) وجه كلامه لقريش الذين قدموا السفرة إلى النبي ﷺ.

أَكُلْ إِلَّا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ». وَكَانَ زَيْدٌ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ، وَيَقُولُ: «الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ؟!» إِنْكَارًا لِلذِّلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ. وَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ، وَلَهُ فِي الْجَنَّةِ دَرَجَتَانِ.

وكان محمد ﷺ قبل مبعثه لا يقدس الأصنام ويبغض ذلك، وكان يقول لِحَدِيجَةَ: «أَيُّ حَدِيجَةٍ، وَاللَّهِ لَا أَعْبُدُ اللَّاتَ، وَاللَّهِ لَا أَعْبُدُ الْعُزَّى أَبَدًا». قَالَ: فَتَقُولُ حَدِيجَةُ ﷺ: خَلَّ اللَّاتُ، خَلَّ الْعُزَّى. وَلَمْ يَشْرَبْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمْرًا، وَلَا قَرَبَ مِنْ فَاحِشَةٍ. وَلَمْ يَكُنْ يَطُوفُ عُريَانًا، وَكَانَ يَقِفُ مَعَ النَّاسِ بِعَرَافَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ، وَلَا يَصْنَعُ مَا تَصْنَعُ قُرَيْشٌ مِنْ عَدَمِ وَقُوفِهَا مَعَ النَّاسِ بِعَرَافَاتٍ، وَقُوفِهَا بِالْمَزْدَلِفَةِ. وَكَانَ يَسْمَعُ صَوْتَ هَاتِفٍ بِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَيَرَى ضَوْءًا مِنْ نُورِ الْمَلَائِكَةِ. وَيَسْمَعُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ. ثُمَّ صَارَ يَهْجُرُ مَكَّةَ كُلَّ عَامٍ لِيَقْضِيَ شَهْرَ رَمَضَانَ فِي غَارِ حِرَاءٍ - وَهُوَ مَطْلٌ عَلَى الْكَعْبَةِ -، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا تَحَنَّنَ بِهِ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَظَلَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ ثَلَاثَ سِنَوَاتٍ إِلَى أَنْ جَاءَهُ الْوَحْيُ وَهُوَ فِي إِحْدَى خَلَوَاتِهِ تِلْكَ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».



بعثة محمد ﷺ

وَكَانَ أَوَّلَ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ ^(١)؛ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمُكِّثَ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلْوَةُ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ ^(٢)، فَيَتَحَنَّنُ ^(٣) فِيهِ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ. ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ ^(٤) فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا،

(١) ثم بعد البعثة تنوعت صور الوحي إما بالرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، أو بِمَا كَانَ يُلْقِيهِ الْمَلَكُ فِي رُوعِهِ وَقَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ، أَوْ يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ رَجُلًا، فَيُخَاطِبُهُ حَتَّى يَعْيِي عَنْهُ مَا يَقُولُ لَهُ، أَوْ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ فِي مِثْلِ صَلَاسَةِ الْجَرَسِ، وَكَانَ أَشَدُّ عَلَيْهِ، فَيَتَلَبَّسُ بِهِ الْمَلَكُ حَتَّى إِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، وَحَتَّى إِنَّ نَاقَتَهُ لَتَبْرُكُ بِهِ إِلَى الْأَرْضِ إِذَا كَانَ رَاكِبَهَا، وَلَقَدْ جَاءَهُ ﷺ الْوَحْيُ كَذَلِكَ، وَفَخِذَهُ عَلَى فَخِذِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ فَتَقَلَّتْ عَلَيْهِ حَتَّى كَادَتْ تَرْضَاهَا. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخَافُ مِنْ نَسْيَانِ الْوَحْيِ، وَكَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ.. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُخْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ^(١) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ^(٢) أَي: جَمْعَهُ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ... ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْ وَقْرَأَهُ﴾ ^(٣)... أَي: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ، ﴿ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا بِآيَاتِهِ﴾ ^(٤)، بِأَنْ تَقْرَأَهُ.

(٢) وفيه كان يُمكنُهُ رُؤْيُ الكعبةِ، فيجتمعُ لِمَنْ يَخْلُو فِيهِ ثَلَاثُ عِبَادَاتٍ: الْخَلْوَةُ، وَالتَّعَبُّدُ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْبَيْتِ.

(٣) أَي يَفْعَلُ فَعَلًا يَطْرَحُ عَنْهُ الْحَنْثَ أَي الْإِثْمَ. فَإِذَا قَضَى شَهْرَهُ ذَلِكَ (رمضان) انصرف إلى الكعبة فطاف بها سبعا ثم عاد إلى بيته.

(٤) فِي بَعْضِ مَرْوِيَّاتِ السَّيْرِ أَنَّ خَدِيجَةَ ﷺ خَرَجَتْ مَعَهُ إِلَى الْغَارِ فِي السَّنَةِ الَّتِي بَعَثَ فِيهَا: (حَتَّى إِذَا كَانَ الشَّهْرُ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِيهِ مَا أَرَادَ مِنْ كَرَامَتِهِ، مِنْ السَّنَةِ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا، وَذَلِكَ الشَّهْرُ شَهْرُ رَمَضَانَ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى حِرَاءٍ، كَمَا كَانَ يَخْرُجُ لِجَوَارِهِ وَمَعَهُ أَهْلُهُ).

حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ ^(١) وَهُوَ فِي غَارٍ حَرَاءٍ، وَعُمُرُهُ آنَ ذَاكَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ ^(٢) فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي ^(٣) حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ»، فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي ^(٤) الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ»، فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي ^(٥) الثَّلَاثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ ﴿فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجِفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» ^(٦)، فَرَمَلُوهُ، حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ. ^(٧) قَالَ لِخَدِيجَةَ: «أَيُّ خَدِيجَةُ، مَا لِي؟، لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبْشُرْ، فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ^(٨) وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ^(٩) وَتَقْرِي ^(١٠) الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ^(١١)، فَاَنْطَلَقَتْ

(١) أَي: الْأَمْرُ الْحَقُّ، وَسُمِّيَ حَقًّا لِأَنَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ مِنْ رَمَضَانَ، لَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وَلَأنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ؟ فَقَالَ: «فِيهِ وُلِدْتُ، وَفِيهِ أُنْزِلَ عَلَيَّ».

(٢) جَاءَتْ رَوَايَةٌ مَرْسَلَةٌ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي مَنَامِهِ: «جَاءَنِي جِبْرِيلُ، وَأَنَا نَائِمٌ، بِنَمَطٍ مِنْ دِيْبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ، فَقَالَ: اقْرَأْ...».

(٣) أَي: ضَمَّنِي وَعَصَرَنِي، وَالْعَطُّ: حَبْسُ النَّفْسِ.

(٤) عَطُونِي بِالثِّيَابِ وَلُقُونِي بِهَا.

(٥) الْخَوْفُ.

(٦) الْكَلُّ: الثَّقِيلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْمَوْؤُونَةِ وَالْجِسْمِ. وَالْيَتِيمُ، وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْعَمَلِ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيلُ بِأَمْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَحَدُهُمَا أَتَيْكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾.

(٧) تَكْسِبُ الْفَقِيرَ مَا لَا.

(٨) تَكْرُمُ.

(٩) تَعِينُ النَّاسَ فِي حَاجَاتِهِمْ وَمَصَائِبِهِمْ.

بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ - وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنْصَرَفَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ ^(١) الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى ^(٢) يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْمُخِرْ جِيَّ هُمْ؟»، فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ، أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوْفِيَ. وَفَتَرَ الْوَحْيَ فِتْرَةً، لِيَذْهَبَ مَا كَانَ ﷺ وَجَدَهُ مِنَ الرُّوحِ، وَلِيَحْصَلَ لَهُ التَّشَوُّفُ إِلَى الْعُودِ، فَلَمَّا حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ، وَأَخَذَ يَرْتَقِبُ مَجِيءَ الْوَحْيِ؛ أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِالْوَحْيِ مَرَّةً ثَانِيَةً.



(١) النَّامُوسُ فِي اللُّغَةِ: صَاحِبُ سِرِّ الْخَيْرِ، وَأَرَادَ بِهِ جِبْرِيلُ ﷺ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّهُ بِالْوَحْيِ وَالْغَيْبِ اللَّذِينَ لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِمَا غَيْرُهُ.

(٢) قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَقَوْلُهُ عَلَى مُوسَى وَلَمْ يَقُلْ عَلَى عِيسَى مَعَ كَوْنِهِ نَصْرَانِيًّا لِأَنَّ كِتَابَ مُوسَى ﷺ مُسْتَمِلٌ عَلَى أَكْثَرِ الْأَحْكَامِ.. أَوْ لِأَنَّ مُوسَى بُعِثَ بِالنِّقْمَةِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ.. أَوْ قَالَهُ تَحْقِيقًا لِلرِّسَالَةِ لِأَنَّ نَزُولَ جِبْرِيلَ عَلَى مُوسَى مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِخِلَافِ عِيسَى فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْيَهُودِ يُنْكِرُونَ نُبُوَّتَهُ... نَعَمْ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ إِلَى هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّ خَدِيجَةَ أَوْ لَا أَتَتْ ابْنَ عَمِّهَا وَرَقَةَ فَأَخْبَرَتْهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «لَيْتَنِي كُنْتُ صَدَقْتَنِي إِنَّهُ لَيَأْتِيهِ نَامُوسُ عِيسَى الَّذِي لَا يُعَلِّمُهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَبْنَاءَهُمْ». فَعَلَى هَذَا فَكَانَ وَرَقَةُ يَقُولُ تَارَةً نَامُوسُ عِيسَى وَتَارَةً نَامُوسُ مُوسَى، فَعِنْدَ إِخْبَارِ خَدِيجَةَ لَهُ بِالْقِصَةِ قَالَ لَهَا نَامُوسُ عِيسَى بِحَسَبِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَعِنْدَ إِخْبَارِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ قَالَ لَهُ نَامُوسُ مُوسَى لِلْمُنَاسَبَةِ الَّتِي قَدْ مَنَّاها، وَكُلُّ صَحِيحٍ وَاللَّهُ ﷻ أَعْلَمُ.

إرسال النبي ﷺ للناس كافة

وأمر الله نبيه أن يدعو الناس كافة - ومنهم أهل الكتاب اليهود والنصارى - إلى الهدى فقال ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وأخبر الله نبيه أن من النصارى قوم هم أقرب مودة للذين آمنوا لأن منهم علماء وعبادًا متواضعون غير متكبرين كالنجاشي وأصحابه - قلوبهم ليّنة، سيكون خشوعًا عند سماع ما أنزل من القرآن لَمَّا عرفوا أنه من الحق؛ لمعرفتهم بما جاء به عيسى ﷺ، يقولون: يا ربنا آمنا بما أنزلت على رسلك محمد وعيسى ﷺ، فاكتبنا يا ربنا مع أمة محمد ﷺ التي تكون حجة على الناس يوم القيامة.

وَأَنَّ مِنْ أَحْبَابِ أَهْلِ الْكِتَابِ كَعْبِدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَسَدُ بْنُ عُبَيْدٍ وَثَعْلَبَةُ بْنُ سَعْيَةَ وَأُسَيْدُ بْنُ سَعْيَةَ وَغَيْرُهُمْ ﴿لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ

فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾.

وبين الله ﷻ في كتابه أن كثيراً من الأحرار والرهبان من اليهود والنصارى هم من
المستكبرين على التحريف والكفر والكذب على الله وعلى الرسل وعلى الناس،
وأكل أموال الناس بالباطل ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ
لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.



نزل وحي القرآن عليه ﷺ

وقال عليه الصلاة والسلام: مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ^(١)؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وهذه الخصوصية جعلت القرآن أعظم الأدلة على صدق النبي ﷺ في رسالته، والحجة الباقية على الناس إلى أن تقوم الساعة. وقد قال الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾.

فقد كان الله ﷻ يجري على أيدي رسله وأنبيائه ويسوق لهم من البراهين ما يدل على صدقهم أنهم مبعوثون من عند الله، مما لا يقع مثله في العادة لغيرهم من البشر، وهو معجزاتهم، كعصا موسى، وإحياء عيسى للموتى، والإسراء والمعراج لنبينا ﷺ، لكن تلك المعجزات كانت أدلة لمن شهدها، ونصيب من لم يشهدا إنما هو الخبر الواجب التصديق، بخلاف القرآن، فإنه المعجزة الباقية، التي لم تزل حية بين الناس، لم يتبدل ولم يتغير، ولن يكون ذلك في يوم من الدهر.

وتحدى الله ﷻ أرباب الفصاحة والبيان، بل جميع بني الإنسان، بل حتى لو ظاهرهم عليه الجان، ولم يزل يتحدى: أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بمثل بعضه، فما فعلوا، ولن يفعلوا.

(١) يعني: (القرآن)، وهو المعجزة الباقية؛ لإثباته عجز البشر عن الإتيان بمثله أو بمثل بعضه، في ألفاظه ومعانيه.

كما قال ﷺ: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٤).

وتحدّاهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة في النظم والتأليف والإحكام، وفي المعاني والدلالات والأحكام، فعجزوا عن معارضته في كل ذلك، وعن مماثلته بعباراتهم، أو مجاراته ببيانهم، أو مسابقته بقوانينهم وشرائعهم. ذلك؛ لأنّه كلام ربّ العالمين ﷻ، وكلامه سبحانه من صفاته، وهو الذي لا مثل له في ذاته ولا في صفاته، كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فكما لا مثل له سبحانه في سمعه، ولا مثل له في بصره، ولا مثل له في سائر صفاته، فكذلك لا مثل له في كلامه. ولذلك فارق كلامه سائر الكلام، وعجز لأجله الخلق عن معارضته، فليس كشعرهم ولا كثرهم، ولا كقوانينهم وشرائعهم، مع أن حروفه من حروف كلامهم، ومفرداته من مفردات قاموسهم، فلم يجدوا له في ألسنتهم مع الفصاحة، ولا في عقولهم مع الرّجاحة، ما يمكنهم به أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، فقد أبت قوانين الشعر وأساليب النثر ولوائح الأنظمة أن يقياس بها ويجري عليها.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ.﴾

ويعسر أن تحدّ وجوه الإعجاز في القرآن العظيم، فكل شيء منه لا نظير له، فهو باهر في ألفاظه وأسلوبه، في تأليفه ونظمه، في بيانه وبلاغته، في تشريعه وحكمه التي حيّرت الألباب، في أنبائه وأخباره، في تاريخه وحفظه، في علومه التي لا تنقطع ولا

تقف عند غاية. وقد أجمل وصفه وأحسنه من قال: «فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذّكر الحكيم، وهو الصّراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة؛ فإنّهُ تتلوهُ ألسنة لم تفتق بالعربيّة، بل ربّما تعسّر عليها قراءة سواه من الكلام العربيّ، أمّا هو فتنتلق به الألسنة مع عجمتها، فهو مُيسّر للذّكر، ولا يشبع منه العلماء، ولا تذهب لذّته بكثرة التكرار، بل هو في كل مرّة جديد، مهما تكرّرت تلاوته، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجنّ إذ سمعته حتّى قالوا: «إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ»، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم».

ومن الإعجاز القرآني: الإعجاز اللّغويّ: وهو أبرز ما تحدّى به القرآن العرب في حياة النّبيّ ﷺ، وهو التّحدّي في أبرز خصائصهم، فمع أنّه بلسانهم، وأتى بما لا يخرج عن وجوه فصاحتهم وأساليب بيانهم، وهم يومئذ في الدّروة في ذلك نشرًا ونظمًا^(١).

ومن الإعجاز الإخباريّ فيما تضمّنه القرآن من الأنباء؛ كالإخبار عن الغيب المطلق، كالخبر عن الله ﷻ وأسمائه وصفاته، والملائكة، وصفة الجنّة وصفة النّار. والإخبار عن الأمور السّابقة، كالخبر عن بدء الخلق، وعن الأمم السّالفة. والإخبار عمّا يكون في مستقبل الزّمان، كالإخبار عن الشّيء قبل وقوعه في عهد النّبيّ ﷺ، أو

(١) وفي كلام الله ما هو محكم واضح معناه والمراد منه، ومنه ما هو متشابه لا يعلمه إلا الله، وقد يعلمه الراسخون في العلم بما فتح الله عليهم من العلم، فالمؤمن فموقفه من المتشابه هو أن: يُسلّم بأنّه من عند الله، ثم يُحيل المتشابه من كلام الله إلى المحكم. فالشيء الذي لم يتضح معناه أو التبس على بعض الناس أو جهلوا المراد منه؛ فإنّه يفسر بالواضح المحكم من كلام الله، فإن كلام الله ﷻ لا يتناقض ولا يتعارض.

عمّا سيكون بعد ذلك. والإخبار عمّا تكنّه النفوس وتخفيه الصّمائِر، ممّا لا يمكن أن يعلمه إلّا الله، ولا يصل إلى علم النّبي ﷺ إلّا بوحي الله.

ومنه الإعجاز التّشريعيّ: فيما أودع الله في كتابه من القوانين التي تشهد في استقامتها وعدلها وصلاحتها لكلّ زمان أنّها من عند الله، وأن لا طاقة للخلق أن يوجدوا لها نظيرًا، مهما بلغت العقول. ذلك أنّ التّشريع مبنيّ على تحقيق مصالح العباد في الدّارين، ولا يحيط بتلك المصالح أحد من خلق الله؛ لقصور العلم، والنّقص بالطّبع، لكنّ الله سبحانه هو الخالق، فهو أعلم بخلقه وحاجتهم وما يكون به صلاحهم وفسادهم، ألا يعلم مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

ومنه الإعجاز العلميّ: وذلك فيما بيّن الله في هذا الكتاب ودلّ عليه من الآيات في السّماوات والأرض والأنفس، ممّا لم يكن ليحيط به علم بشر في عهد النّبي ﷺ من تلقاء نفسه، ثمّ يبقى النّاس يكتشفون أسرارَه في الكون، والقرآن قد سبق به منذ دهر بعيد تصرّيحًا وتلويحًا، كان يتلوه على النّاس نبيّ أمّيّ، لم يدرس علوم الهيئة والأفلاك ولا البيئَة ولا البحار ولا طبقات الأرض ولا الأجنّة، لينبئ العالم أنّه رسول ربّ العالمين، وأنّ هذا القرآن من علم الله الذي أحاط بكلّ شيء. وهو أكثر ما يدخل النّاس في الإسلام. وسَمّى الله تعالى القرآن العظيم بأسماء، ونعته بنعوت، منها: الكتاب، وكلام الله، والفرقان، والذّكر. (١)

وأما ما ذكر الله ﷻ من نعوت وأوصاف كلامه المنزل على محمّد ﷺ فكثير، فهو: هدى، وشفاء، ورحمة، وموعظة، وذكرى، وبشرى، ونذير، وبيان، وروح، ونور، ومبين، ومفصّل، ومبارك، وبصائر، وكريم، وعليّ، وحكيم، وعزيز، ومجيد، وقيّم،

(١) أما تسمية القرآن بالمصحف، فهي تسمية ظهرت بعد أن جُمع القرآن مكتوبًا بين الدّفتين. وجاءت من الصّحف التي جمع بعضها إلى بعض فأصبحت على هيئة الكتاب.

وأحسن الحديث، وغير ذلك من الصفات الدالة على عظمته ومنزلته ورفيع قدره.
والصحابه الذين كان ينزل الوحي على رسول الله ﷺ بعلمهم ومشاهدتهم،
كان لهم الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ بالإسراع إلى حفظ القرآن واستظهار آياته،
وقد ساعدتهم نزول القرآن منجماً على الحفظ. وعلموا ما كان من وقوع النسخ في
القرآن، قال تعالى: ﴿مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ وقال:
﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (١).

وعلم قراء الصحابة أوجه القراءات التي نزل بها القرآن، وقال فيها عليه الصلاة
والسلام: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، على أي حرف قرأتم فقد أصبتم».
وفي حديث أبي بكرة: «أن جبريل قال: يا محمد، اقرأ القرآن على حرف، فقال
ميكائيل: استزده، فقال: على حرفين، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف، فقال: كلها
شاف كاف، ما لم يختم آية عذاب بآية رحمة، أو آية رحمة بآية عذاب. كقولك: هلم
وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعجل».

وقد لقي رسول الله ﷺ جبريل فقال: يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميين، منهم
العجوز والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط.
قال: فمرهم فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف» (٢).

(١) النسخ في القرآن ثلاثة أنواع: أحدها: ما نسخ حكمه وتلاوته، كعشر رضعات. والثاني:
ما نسخت تلاوته دون حكمه، كخمس رضعات، والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما.
والثالث: ما نسخ حكمه، وبقيت تلاوته، وهذا هو الأكثر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ
يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ والله أعلم.

(٢) وليست هي القراءات السبعة التي اشتهرت في القرن الرابع الهجري والتي جمعها الإمام ابن
مجاهد صاحب كتاب القراءات والتي هي روايات واختيارات القراء السبعة في القراءة مما

وقد قتل يوم اليمامة سبعون من القرّاء، وقتل في عهد النبي ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد من القرّاء الذين عرضوه على النبي ﷺ، واتّصلت بنا أسانيدهم، وأما من جمعه منهم ولم يتصل بنا سندهم فكثير.

وإن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على خط المصاحف - الكتب - أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة. وقد ورد في صفة هذه الأمة: أناجيلهم صدورهم، بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتاب، ولا يقرءونه كلّهم إلا نظرًا لا عن ظهر قلب.

أما قصة جمع القرآن وتدوينه في الصحف؛ فقد بدأت في عهد أبي بكر رضي الله عنه حيث أرسل إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه بعد مقتل أهل اليمامة - وعنده عمر رضي الله عنه فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقرّاء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن، قال أبو بكر: فقلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟

رووه بالإسناد عن شيوخهم. وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات (لهجات) العرب في المعنى الواحد، على معنى أنه حيث تختلف لغات (لهجات) العرب في التعبير عن معنى من المعاني يأتي القرآن مُنَزَّلًا بألفاظ على قدر هذه اللغات لهذا المعنى الواحد، وحيث لا يكون هناك اختلاف فإنه يأتي بلفظ واحد أو أكثر. نحو: أقبل وتعال، وهلم، وعجل، وأسرع، فهي ألفاظ مختلفة لمعنى واحد، وإليه ذهب أكثر العلماء. ومن حكم نزول القرآن على سبعة أحرف: تيسير القراءة والحفظ على قوم أميين، لكل قبيل منهم لسان. وإعجاز القرآن للفترة اللغوية عند العرب، حتى يستطيع كل عربي أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطري، وأنه لا يمكن مضاهاته بأي لسان. وإعجاز القرآن في معانيه وأحكامه - فإن تقلب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات يتهيأ معه استنباط الأحكام التي تجعل القرآن ملائمًا لكل عصر - ولذا احتج الفقهاء في الاستنباط والاجتهاد بقراءات الأحرف السبعة.

فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر - قال زيد بن ثابت: وعمر عنده جالس لا يتكلم - فقال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، ولا تنتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه، قال زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، فقلت لهما: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجع حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب (وهو جريد من النخل) وصدور الرجال، ففقدت آية من سورة الأحزاب، كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، وهي قوله: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ فلم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه «الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين». وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها.

ثم كان في عهد عثمان رضي الله عنه تدوين المصحف واعتماد النسخة المدونة وإحراق ما سواها من النسخ.

فقد قدم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق - فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان.

واستشار عثمان واستفتى الصحابة، وقال: ما تقولون في هذه القراءة، فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفرًا؟

قلنا: فما ترى؟

قال: نرى أن نجتمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة، ولا يكون اختلاف.
قلنا: فنعلم ما رأيت.

قال - يعني علي عليه السلام -: فقيل: أي الناس أفصح؟ وأي الناس أقرأ؟

قالوا: أفصح الناس سعيد بن العاص، وأقرأهم زيد بن ثابت.

فقال: ليكتب أحدهما، ويملي الآخر. ففعلا، وجمع الناس على مصحف، قال علي: والله لو وُلِّيتُ لفعلتُ مثل الذي فعل.

وقد عهد عثمان اعتماد النسخة الموحدة من المصحف إلى أربعة من الصحابة هم: زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وقال لهم: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم». ففعلوا، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق. منعًا لاختلاف القراءات والزيادة والنقص في كتاب الله تعالى.

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيرًا في المصاحف وإحراق المصاحف، فوالله ما فعل الذي فعل إلا عن ملأ منا جميعًا.

أما عن ترتيب الآيات والصور فإن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في صلاته في الليل بسورة النساء قبل آل عمران، فقال جمهور العلماء: إن ترتيب السور ليس بواجب في التلاوة ولا في الصلاة ولا في الدرس.

وأما ما جاء عن السلف من النهي عن قراءة القرآن منكوسًا، فالمراد به أن يقرأ من آخر السورة إلى أولها، وكان جماعة يصنعون ذلك في القصيدة من الشعر مبالغة في حفظها، وتذليلًا للسانه في سردها، فمنع السلف ذلك في القرآن، فهو حرام فيه.

أما عن سبب نزول بعض الآيات والسور قبل بعض؛ فقد أشارت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إلى شيء من الحكمة الإلهية في أسبقية النزول، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة وللkāfir والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك، أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: «ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندعها»، وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف.

وأما عن ترتيب الآيات في كل سورة؛ فلا خلاف أن ترتيب آيات كل سورة على ما هي عليه الآن في المصحف توقيف من الله تعالى، وعلى ذلك نقلته الأمة عن نبيها صلوات الله عليه.

وكان حفظ القرآن وتدوينه في مصحف واحد بالرسم العثماني مما اتفق عليه كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٢٣).



من معجزات النبي ﷺ وخصاله

يقول عن نفسه عليه الصلاة والسلام: أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ عَلَى الْعَدُوِّ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِي، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيْنَمَا أَدْرَكْتَنِي الصَّلَاةُ تَمَسَّحْتُ وَصَلَّيْتُ، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي يُعْظَمُونَ ذَلِكَ، إِنَّمَا كَانُوا يُصَلُّونَ فِي كَنَائِسِهِمْ وَيَبْعِعُهُمْ^(١)، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ، وَالْخَامِسَةُ هِيَ مَا هِيَ، قِيلَ لِي: سَلْ، فَإِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ قَدْ سَأَلَ، فَأَخْرَجْتُ مَسْأَلَتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ شَفَاعَةً لِأُمَّتِي^(٢)، وَهِيَ نَائِلَةٌ مِنْكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ ﷻ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ الْبَارِحَةَ، أَتَيْتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ.

وكان جميل الوجه حتى وصفوه بالبدر، وعرقه من أطيب الطيب، تنام عيناه ولا ينام قلبه، ويأخذ الهدية ولا يأكل الصدقة، ويرى المؤمنين في الصلاة خلفه، ويواصل الصيام يبيت يطعمه ربه ويسقيه، عرفه أهل الكتاب في كتبهم باسمه ووصفه

(١) الْمَسْجِدُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَالْكَنِيسَةُ لِلْيَهُودِ وَيَطْلُقُ أَحْيَانًا لِلنَّصَارَى، وَالْبَيْعَةُ لِلنَّصَارَى، وَالصَّوْمَعَةُ وَالْقَلَايَةُ لِلرُّهْبَانِ، وَبَيْتُ النَّارِ لِلْمَجُوسِ. وَ(صَلَوَاتُ) - جمع صلاة - هي كنائس لليهود في أيام شريعة موسى ﷺ، سميت بالصلوات لأنها يصلى فيها، قال الراغب: يسمى موضع العبادة بالصلاة، ولذلك سميت الكنائس (صلوات)، وقال بعضهم: هي كلمة معربة، وهي بالعبرية: «صلوئا» بالثاء المثلثة، وهي في لغتهم بمعنى (المصلى).

(٢) وفي الحديث: لَكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فِي أُمَّتِهِ، فَاسْتُجِيبَ لَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. أَسْعَدُ النَّاسَ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ.

ومخرجه ومبعثه، وحاجتهم مراراً ونكسوا عن مباهلته، وصارع ركانة فصرعه، وأمر جبل أحد أن يثبت لما اهتز، وخنق إبليس حتى أحس بررد لعباه بين إصبعيه، وأعانه الله على شيطانه فأسلم، ومن رآه في المنام فقد رآه حقاً فإن الشيطان لا يتمثل به.

وشهد الله له أنه على خلق عظيم، وكان خلقه القرآن، وما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما لعن رسول الله ﷺ من لعنة تذكّر، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء يؤتى إليه، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله ﷻ فينتقم الله، وما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وسابق رسول الله ﷺ بنفسه على الأقدام، وخصف نعله بيده، ورقع ثوبه بيده، ورقع دلوّه، وحلب شاته، وفلى ثوبه، وخدم أهله ونفسه، وحمل معهم اللبن في بناء المسجد، وربط على بطنه الحجر من الجوع تارة وشبع تارة، وأضاف وأضيف، واحتجم في وسط رأسه وعلى ظهر قدميه، واحتجم في الأذنين^(١) والكاهل، وتداوى وكوى^(٢) ولم يكتو، ورفى ولم يسترق، وحمل المريض مما يؤذيه.

وجعل الله بعثته رحمة للعالمين، وما خاطبه في كتابه إلا بالكناية التي هي النبوة والرسالة التي لا أجل منها فخراً، ونهى الناس أن يخاطبوه باسمه، وندبهم إلى تكنيته، ودافع الله عنه فبرأه في كتابه من كل ما رماه به الكفار من السحر والكهانة والجنون، وزكاه بأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأمر الناس بالتأسي به، وفرض طاعته، وجعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وجعل أزواجه أمهات للمؤمنين؛ لا ينكحهن أحد بعده، وقرن الله اسمه باسمه تعالى

(١) الأخدعان: هما عرقان في جانبي العنق. والكاهل: هو ما بين الكتفين.

(٢) كوى سعد بن معاذ بيده بمشقص - أي: بحديدة حادة - في أكحل مرتين من الرمية التي أصابته بسهم يوم الخندق في أكحل فقطعه.

عند ذكر طاعته وأحكامه، وأقسم الله بحياته، وأفرده بسيادة ولد آدم في القيامة، وحفظه من التدين بدين الجاهلية، ومن تعريضهم، ومن لهوهم، وحرس السماء من استراق السمع لثبوت بعثته وعلو دعوته^(١)، وأسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى السماء، ورأى من آيات ربه الكبرى، وما زاغ بصره وما طغى، وعاد متواضعاً حريصاً على أمته مشفقاً عليها، بالمؤمنين رؤوف رحيم.

وانشق القمَرُ بدُعائه فِلَقَتَيْنِ، وصبر على أذى المشركين وعنادهم بعدما رآوا الآيات والمعجزات، واستمع له نفر من الجن فآمنوا به، وعرض نفسه على القبائل ليلبغ دين الله، وأخبر بالمعجزات الغيبية وانتصار الروم على الفرس في بضع سنين، ولما تأمر الكفار على قتله حجه الله عنهم فلم يروه وأنجاه الله، وهاجر إلى المدينة، فبوركت غنم مر بها في طريقه، ونصره الله في الغار وحماه من المشركين وأنزل عليه سكينته وأيده بجنود من عنده، وصد عنه لحاق سراقه بن مالك، وصبر على مشقة الدعوة وجاهد المشركين، وشكت إليه بعض البهائم فنصرها وأوصى بها أصحابها، وتسابقت إليه الإبل يوم النحر أيها ينحر أولاً بيده الشريفة، وسلم عليه الحجر والشجر قبيل بعثته، وحن إليه الجذع الذي كان يستند إليه في مسجده قبل أن يصنعوا

(١) كَانَ الْجَنُّ يَسْتَمِعُونَ الْوَحْيَ فَيَسْتَمِعُونَ الْكَلِمَةَ فَيَزِيدُونَ فِيهَا عَشْرًا، فَيَكُونُ مَا سَمِعُوا حَقًّا، وَمَا زَادُوهُ بَاطِلًا، وَكَانَتِ النُّجُومُ لَا يُرْمَى بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ أَحَدُهُمْ لَا يَأْتِي مَقْعَدَهُ إِلَّا رُمِيَ بِشِهَابٍ يُحْرِقُ مَا أَصَابَ، فَشَكُّوا ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ، فَقَالَ: مَا هَذَا إِلَّا مِنْ أَمْرِ قَدْ حَدَثَ. فَبَثَّ جُنُودَهُ، فَإِذَا هُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْنِ نَخْلَةٍ، فَاتَوْهُ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: هَذَا الْحَدَثُ الَّذِي حَدَثَ فِي الْأَرْضِ. وَعَنِ ابْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذَا الرَّمْيِ بِالنُّجُومِ: أَكَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِنَّهُ إِذْ جَاءَ الْإِسْلَامَ غَلِظَ وَشَدَّدَ. وَتَبَتَ تَعَدُّدُ وَفُودِ الْجَنِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا أَوَّلًا كَانَ سَبَبَ مَجِيئِهِمْ مَا ذُكِرَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ إِرْسَالِ الشُّهْبِ، وَسَبَبَ مَجِيئِهِ الَّذِينَ فِي قِصَّةِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُمْ جَاءُوا لِقَصْدِ الْإِسْلَامِ، وَسَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَالسُّؤَالِ عَنْ أَحْكَامِ الدِّينِ.

له المنبر، وتبارك الطعام والماء بدعائه وبيده أو نفثه أو مجّه، وأهدت له يهودية بخير شاة مصلية (مشوية) سمّتها فأخبرته الشاة أنها مسمومة، وتكلم الذئب شاهداً بنوته، وسبح الحصى في يده، وقدم الشجر إليه إذ دعاه، ونبع الماء من بين أصابعه، وشفى الله على يده جراحاً وأعيناً ومرضى، وأخبر بأشراط الساعة وما يكون إلى قيامها.

وما ترك خيراً إلا دل أمته عليه، ولا شراً إلا حذرهما منه، وجعلها الله خير الأمم، معصومة لا تجتمع على ضلالة، ولن تضل ما تمسكت بستته وهديه، وشريعتها ناسخة لما قبلها، أمة شاهدة على الأمم يوم القيامة بتبليغ الرسل، وصفوفها كصفوف الملائكة، ونبيها هو أول شافع ومشفع، وصاحب الشفاعة العظمى، وأول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة، وأول من يقرع باب الجنة، وأول من يدخلها، وأكثر الأنبياء أتباعاً، أوتي جوامع الكلم، وأنزل عليه القرآن معجزة خالدة إلى قيام الساعة محفوظاً من التحريف والتبديل، تحدى الناس أن يأتوا بسورة من مثله، وهو صاحب المقام المحمود والحوض المورود.



الدَّعْوَةُ السَّرِيَّةُ فِي مَكَّةَ

وَبَدَأَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ سِرًّا لِيَتَلَّاهُ أَهْلُ مَكَّةَ بِمَا يَهَيِّجُهُمْ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ يَغْرِضُ الْإِسْلَامَ عَلَى أَصْحَابِ النَّاسِ بِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَأَصْدِقَائِهِ. وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ زَوْجُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ؓ، ثُمَّ أَسْلَمَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؓ، ابْنُ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ حِينَ أَسْلَمَ، وَكَانَ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ، ثُمَّ أَسْلَمَ مَوْلَاهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ الْكَلْبِيُّ ؓ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمَوَالِي.

وَسَارَعَ إِلَى الْإِسْلَامِ بَنَاتُ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ خَارِجِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ.

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مُؤَلَّفًا لِقَوْمِهِ، مُحَبَّبًا سَهْلًا، وَكَانَ أَنْسَبَ قُرَيْشٍ لِقُرَيْشٍ، وَأَعْلَمَ قُرَيْشٍ بِهَا وَبِمَا كَانَ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَكَانَ رَجُلًا تَاجِرًا، ذَا خُلُقٍ وَمَعْرُوفٍ، وَكَانَ رَجُلًا قَوْمِهِ يَأْتُونَهُ، وَيَأْلِفُونَهُ لِعَيْزٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأُمْرِ، لِعِلْمِهِ، وَتِجَارَتِهِ، وَحُسْنِ مُجَالَسَتِهِ، فَجَعَلَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَى الْإِسْلَامِ مَنْ وَثِقَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ، مِمَّنْ يَغْشَاهُ، وَيَجْلِسُ إِلَيْهِ. فَأَسْلَمَ بِدُعَائِهِ ؓ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ. فَكَانَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ الَّذِينَ سَبَقُوا النَّاسَ هُمْ الرَّعِيلُ الْأَوَّلُ، وَطَلِيعَةُ الْإِسْلَامِ. ثُمَّ بَدَأَ النَّاسُ يَتَسَامَعُونَ بِرِسَالَةِ الْإِسْلَامِ، وَسَارَعَ الْفُقَرَاءُ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ.

وَكَانَتْ الصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ قَبْلَ الْإِسْرَاءِ ثِنْتَيْنِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فِي وَقْتِ الْفَجْرِ، وَقَبْلَ الْغُرُوبِ فِي وَقْتِ الْعَصْرِ، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾،

وَقِيَامُ اللَّيْلِ كَانَ وَاجِبًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَى أُمَّتِهِ حَوْلًا، ثُمَّ نُسِخَ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ وَجُوبُهُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ كُلَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ. فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا الصَّلَاةَ خَرَجُوا إِلَى الشُّعَابِ، فَاسْتَخَفُوا فِيهَا بِصَلَاتِهِمْ عَنْ أَنْظَارِ قُرَيْشٍ.

وَبَيْنَمَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شُعْبٍ مِنْ شُعَابِ مَكَّةَ، إِذَا بِجَمَاعَةٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَطْهَرُونَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، فَاسْتَنْكَرُوا عَمَلَهُمْ، وَعَابُوا عَلَيْهِمْ مَا يَصْنَعُونَ، فَلَمْ يَتْرُكْهُمْ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى قَاتَلُوهُمْ، وَاضْطَرَّ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يُدَافِعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَضَرَبَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحَدَ الْمُشْرِكِينَ بِلَحْيٍ بَعِيرٍ فَشَجَّهَهُ، فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ دَمٍ أُهْرِيقَ فِي الْإِسْلَامِ.

وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ دَارَ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ الْمَخْزُومِيِّ عَلَى الصَّفَا، وَكَانَتْ بِمَعْزِلٍ عَنْ أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ وَمَجَالِسِهِمْ، فَاتَّخَذَهَا مَرْكَزًا لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقِيلَ أَنْ ذَلِكَ اسْتَمَرَ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ، وَالدَّعْوَةُ لَمْ تَزَلْ سِرِّيَّةً فَرْدِيَّةً، وَخِلَالِ هَذِهِ الْفِتْرَةِ تَكُونَتْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَقُومُ عَلَى الْأُخُوَّةِ وَالتَّعَاوُنِ.



إعلان الدعوة الجهرية

ثم أمر بالجهر بالدعوة لما نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ٣١٢ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٣١٣ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ٣١٤.

فَصَعِدَ ﷺ جَبَلَ الصَّفَا فَقَالَ: «يَا صَبَاحَاهُ»، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ؟، قَالُوا: مُحَمَّدٌ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرَأَيْتُكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ أَكُتُبَ مُصَدِّقِي؟»، قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبَا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ! أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟، فَزَلْتُ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ ١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ٢﴾.

وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا، فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ! يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مَا شِئْتَ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَابُلَهَا بَيْلًا لَهَا».

إيذاء المسلمين وتعذيب ضعفائهم

وَوَثَبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَجَعَلُوا يَحْبِسُونَهُمْ، وَيُعَذِّبُونَهُمْ بِالضَّرْبِ، وَالْجُوعِ، وَالْعَطَشِ، وَبِرْمَاضِ مَكَّةَ إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ. وَكَانَ أَبُو جَهْلٍ إِذَا سَمِعَ بِالرَّجُلِ قَدْ أَسْلَمَ وَلَهُ شَرَفٌ وَمَنْعَةٌ؛ أَنْبَهُ وَأَخْزَاهُ، وَقَالَ: تَرَكْتَ دِينَ أَبِيكَ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، لِنَسْفِهِنَّ حِلْمَكَ، وَلِنُقِيلَنَّ رَأْيِكَ، وَلِنَضَعَنَّ شَرَفَكَ. وَإِنْ كَانَ تَاجِرًا قَالَ: وَاللَّهِ لَنَكْسِدَنَّ تِجَارَتَكَ، وَلَنُهْلِكَنَّ مَالَكَ. وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا ضَرَبَهُ وَأَغْرَى بِهِ.

وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ؓ فَآذَوْهُ وَضَرَبُوهُ. وَأَنْفَقَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ؓ جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ مَالِهِ فِي شِرَاءِ الْعَبِيدِ، وَعِتْقِهِمْ لِلَّهِ. وَحَمَى اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ شَرِيفًا مُعَظَّمًا فِي قُرَيْشٍ، مُطَاعًا فِي أَهْلِهِ، وَأَهْلُ مَكَّةَ لَا يَتَجَاسَرُونَ عَلَى مُكَاشَفَتِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَذَى، وَكَانَ اسْتِمْرَارُهُ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِمَّا صَنَعَهُ لِرَسُولِهِ مِنَ الْحِمَايَةِ إِذْ لَوْ كَانَ أَسْلَمَ أَبُو طَالِبٍ لَمَا كَانَ لَهُ عِنْدَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَجَاهَةٌ وَلَا كَلِمَةٌ. وَشَكَّى الْمُسْتَضْعِفُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقَالُوا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ ﷺ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَجْعَلُ فِيهَا، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشَقُّ بِأَثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتَمَنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّائِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضَرَمَوْتٍ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذُّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(١).

(١) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُوَالِيَ الْمُكْرَهُ عَلَى الْكُفْرِ، إِنْ بَقِيَ لِمُهْجَتِهِ،



وَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَسْتَقْتِلَ، وَالْأَفْضَلُ وَالْأَوْلَى أَنْ يَثْبُتَ الْمُسْلِمُ عَلَى دِينِهِ، وَلَوْ أَفْضَى إِلَى قَتْلِهِ. وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦ - ١٠٧] لم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان. ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على الكلام أو الفعل. وأما عقيدة القلب فلا يكره عليها أحد.

استهزاء المشركين ومجادلتهم للنبي ﷺ

وَكَانَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ إِذَا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَمَزَهُ وَلَمَزَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ سُورَةَ الْهُمَزَةِ، أَمَّا أَخُوهُ أُبَيُّ بْنُ خَلْفٍ فَجَاءَ يَوْمًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِعَظْمٍ بَالٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمَ، ثُمَّ فَتَهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ نَفَخَهُ نَحْوَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ أَنَا أَقُولُ ذَلِكَ، يَبْعَثُهُ اللَّهُ وَإِيَّاكَ بَعْدَ مَا تَكُونَانِ هَكَذَا، ثُمَّ يَدْخُلُكَ النَّارُ. ^(١) فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۖ﴾ (٧٨) الْآيَاتِ.

وَكَانَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ يَقُولُ: أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَأُتْرِكَ وَأَنَا كَبِيرُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا؟ وَيُتْرَكَ أَبُو مَسْعُودٍ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ سَيِّدُ ثَقِيفٍ، فَنَحْنُ عَظِيمَا الْقُرَيْتَيْنِ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ۚ﴾ (٢١) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ.

وَقَالَ الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ: دَعُوهُ، فَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ أَبْتَرُ لَا عَقِبَ لَهُ، لَوْ قَدْ مَاتَ لَا نَنْقُطَعَ ذِكْرُهُ وَاسْتَرْحَتُمْ مِنْهُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۖ﴾ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۚ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۖ﴾ (٢).

وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ - لَعَنَهُ اللَّهُ - يَوْمًا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُومِ، يَزْعُمُ أَنَّهَا شَجَرَةٌ فِي النَّارِ يُقَالُ لَهَا شَجَرَةُ الزَّقُومِ، وَالنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ، إِنَّمَا الزَّقُومُ

(١) وقد قتل الرسول ﷺ يوم أُحُدٍ، وهو الوحيد الذي قتلته الرسول ﷺ، فلمّا قتلته: قال ﷺ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ قَتَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ».

التَّمْرَ والزُّبْدَ، هَاتُوا تَمْرًا وَزُبْدًا وَتَزَقَّمُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: قَدْ نَعَلِمَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ تَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَلَا نَكْذِبُكَ، وَلَكِنْ نَكْذِبُ الَّذِي جِئْتَ بِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿قَدْ نَعَلِمَ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَدَّلُوا بَيِّنَاتٍ لِيَبْجَحُدُوا اللَّهَ ﴿٢٣﴾﴾.

وَجَاءَ رُكَانُهُ بْنُ عَبْدِ يَزِيدٍ يُصَارِعُ الرَّسُولَ ﷺ، فَصَرَعه النَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ مَرَّةٍ عَلَى مِائَةِ مِنَ الْغَنَمِ، فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَةِ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَا وَضَعَ ظَهْرِي عَلَى الْأَرْضِ أَحَدٌ قَبْلَكَ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْكَ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَامَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَرَدَّ عَلَيْهِ غَنَمَهُ.

وَكَانَ أَبُو لَهَبٍ يَتَّبِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْأَسْوَاقِ، وَالْمَجَامِعِ، وَمَوَاسِمِ الْحَجِّ، وَيَكْذِبُهُ.

وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَنْعَتُونَهُ بِ (مُذَمَّمٍ)، فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتُمُونَ مُذَمَّمًا، وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا، وَأَنَا مُحَمَّدٌ».

وَكَانَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ سَيِّدًا مُطَاعًا فِي قَوْمِهِ، وَكَانَ قَدْ جَاوَزَ الثَّمَانِينَ مِنْ عُمُرِهِ، فَقَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمُهُ وَأَعْرِضُ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضُهَا، فَنُعْطِيَهُ أَيَّهَا شَاءَ، وَيَكْفَ عَنَّا؟ فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمُهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السُّطَةِ فِي الْعَشِيرَةِ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرِ عَظِيمٍ، فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلَامَهُمْ، وَعَبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفَرْتَ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ،

فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا، قَالَ: قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ»، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَدْنَاكَ عَلَيْنَا، حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَكَكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رِيًّا تَرَاهُ، لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الطَّبَّ، وَبَدَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نُبْرِتَكَ مِنْهُ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ قَوْلِهِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقَدْ فَرَّغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاسْتَمِعْ مِنِّي»، قَالَ: أَفْعَلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حَمْدٌ تَزِيدُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ وَفُرِئَ عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ .. الْآيَاتِ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا يَقْرَأُهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعَهَا مِنْهُ عَثَبَهُ، أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهَا يَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَلِكَ!». فَرَجَعَ عَثَبُهُ عَلَى قُرَيْشٍ وَقَالَ لَهُمْ: خَلُوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ، فَاعْتَزِلُوهُ، فَوَاللَّهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ بَأً عَظِيمٌ، فَإِنْ تَصَبَّهَ الْعَرَبُ فَقَدْ كَفَيْتُمُوهُ بَغْيَكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرُ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُتْمُكُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ، قَالُوا: سَحَرَكَ وَاللَّهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ، قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ.

وَكَانَ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ يَسْتَشْعِرُونَ حَلَاوَةَ الْقُرْآنِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يُكَابِرُونَ. قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ: وَمَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمُ بِرَجْزِهِ، وَلَا بِقَصِيدِهِ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجَنِّ، وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللَّهِ إِنْ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنْ عَلَيْهِ لَطَاوَةٌ، وَإِنَّهُ لَمْثُمِرٌ أَعْلَاهُ، مُعْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعَلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: لَا يَرْضَى عَنْكَ

قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ. قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أَفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ. وَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! فَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ مِنَّا شَيْئًا مِمَّا عَرَضْنَاهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَضْيَقُ بَلَدًا، وَلَا أَقَلُّ مَاءً، وَلَا أَشَدَّ عَيْشًا مِنَّا، فَسَلْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي بَعَثَكَ بِمَا بَعَثَكَ بِهِ، فَلْيُسِّرْ عَنَّا هَذِهِ الْجِبَالَ الَّتِي قَدْ ضَيَّقَتْ عَلَيْنَا، وَلْيُسِّطْ لَنَا بِلَادَنَا، وَلْيَجْعَرْ لَنَا فِيهَا أَنْهَارًا كَأَنْهَارِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، وَلْيَبْعَثْ لَنَا مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِنَا، وَلْيَكُنْ فِيهِ مَنْ يَبْعَثُ لَنَا مِنْهُمْ: قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ، فَإِنَّهُ كَانَ شَيْخَ صَدِيقٍ، فَسَأَلَهُمْ عَمَّا تَقُولُ: أَحَقُّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ، فَإِنْ صَدَقَكَ وَصَنَعْتَ مَا سَأَلْنَاكَ صَدَقْنَاكَ، وَعَرَفْنَا بِهِ مَنَزِلَتَكَ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ بَعَثَكَ رَسُولًا كَمَا تَقُولُ، فَقَالَ لَهُمُ ﷺ: «مَا بِهِذَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ، إِنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنَ اللَّهِ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ، وَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلُوهُ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ»، قَالُوا: فَإِذَا لَمْ تَفْعَلْ هَذَا لَنَا، فَخُذْ لِنَفْسِكَ، سَلْ رَبَّكَ أَنْ يَبْعَثَ مَعَكَ مَلَكًا يُصَدِّقُكَ بِمَا تَقُولُ، وَيُرَاجِعُنَا عَنْكَ، وَسَلْهُ فَلْيَجْعَلْ لَكَ جَنَانًا وَقُصُورًا وَكُنُوزًا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، يُعِينِكَ بِهَا عَمَّا تَرَكَ تَبْتَغِي، فَإِنَّكَ تَقُومُ بِالْأَسْوَاقِ كَمَا نَقُومُ، وَتَلْتَمِسُ الْمَعَاشَ كَمَا نَلْتَمِسُ، حَتَّى نَعْرِفَ فَضْلَكَ وَمَنَزِلَتَكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ كُنْتَ رَسُولًا كَمَا تَزْعُمُ، فَقَالَ لَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، وَمَا أَنَا بِالَّذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا، وَمَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ بِهِذَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بِشِيرٍ وَنَذِيرٍ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ».

قَالُوا: فَأَسْقِطِ السَّمَاءَ عَلَيْنَا كِسْفًا كَمَا زَعَمْتَ أَنْ رَبَّكَ إِنْ شَاءَ فَعَلْ، فَإِنَّا لَا نُؤْمِنُ لَكَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَهُ بِكُمْ فَعَلْ». قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَفَمَا عَلِمَ رَبُّكَ أَنَّا سَنَجْلِسُ مَعَكَ، وَنَسْأَلُكَ عَمَّا سَأَلْنَاكَ عَنْهُ، وَنَطْلُبُ مِنْكَ مَا نَطْلُبُ، فَيَتَقَدَّمَ إِلَيْكَ فَيُعَلِّمَكَ مَا تَرَا جَعَلْنَا بِهِ، وَيُخْبِرَكَ مَا هُوَ صَانِعٌ فِي ذَلِكَ بِنَا، إِذَا لَمْ نَقْبَلْ مِنْكَ مَا جِئْتَنَا بِهِ؟، إِنَّهُ قَدْ بَلَّغَنَا أَنَّكَ إِنَّمَا يُعَلِّمُكَ هَذَا رَجُلٌ بِالْيَمَامَةِ، يُقَالُ لَهُ:

الرَّحْمَنُ، وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِالرَّحْمَنِ أَبَدًا، فَقَدْ أَعَذَرْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ! وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا تَتْرُكَ وَمَا بَلَغْتَ مِنَّا، حَتَّى نُهْلِكَ أَوْ تُهْلِكَنَا. وَقَالَ قَائِلُهُمْ: نَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَهِيَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَقَالَ آخَرُ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا.

فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَامَ عَنْهُمْ، وَقَامَ مَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمُخْزُومِيُّ - وَهُوَ ابْنُ عَمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ عَاتِكَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، عَرَضَ عَلَيْكَ قَوْمُكَ مَا عَرَضُوا فَلَمْ يَقْبَلْهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ لَأَنْفُسِهِمْ أُمُورًا لَيَعْرِفُوا بِهَا مَنَزِلَتَكَ مِنَ اللَّهِ فَلَمْ تَفْعَلْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أَنْ تَأْخُذَ لِنَفْسِكَ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ فَضْلَكَ عَلَيْهِمْ، وَمَنَزِلَتَكَ مِنَ اللَّهِ، فَلَمْ تَفْعَلْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أَنْ تُعَجِّلَ لَهُمْ بَعْضَ مَا تُخَوِّفُهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، فَلَمْ تَفْعَلْ، فَوَاللَّهِ لَا أَوْ مِنْ بَكَ أَبَدًا حَتَّى تَتَّخِذَ إِلَى السَّمَاءِ سُلْمًا، ثُمَّ تَرْقَى فِيهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْكَ حَتَّى تَأْتِيَهَا، وَتَأْتِي مَعَكَ بِنُسْخَةٍ مَنُشُورَةٍ، ثُمَّ تَأْتِي مَعَكَ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَشْهَدُونَ لَكَ أَنَّكَ كَمَا تَقُولُ، وَأَيُّمُ اللَّهِ، لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ مَا ظَنَنْتُ أَنِّي أَصَدِّقُكَ، ثُمَّ انْصَرَفَ.

وَسَأَلَ أَهْلَ مَكَّةَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا، وَأَنْ يُنَحِّيَ الْجِبَالَ عَنْهُمْ، فَيَزِرْعُوا، فَقِيلَ لَهُ - أَيُّ النَّبِيِّ ﷺ: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَسْتَأْنِي بِهِمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ نُؤْتِيَهُمُ الَّذِي سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا أَهْلِكُوا كَمَا أَهْلَكْتَ مَنْ قَبْلَهُمْ، فَقَالَ ﷺ: «لَا، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾^(١).



(١) وَلِهَذَا افْتَضَتِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ، وَالرَّحْمَةُ الرَّبَّانِيَّةُ، الْأَيُّجَابُوا إِلَى مَا سَأَلُوا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ فَيُعَاجِلُهُم بِالْعَذَابِ.

الهجرة الأولى إلى الحبشة

وفي رجب في السنة الخامسة من البعثة النبوية (٨ ق هـ) خرج بعض الصحابة إلى الحبشة حيث أُذِنَ لَهُمْ فِي الْهَجْرَةِ، فَهَاجَرَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا وَأَرْبَعُ نِسْوَةٍ مِنْهُمْ عُمَثَانُ بْنُ عَفَّانَ - وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَرَجَ - وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ رُقِيَّةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَكَانَ أَمِيرًا عَلَيْهِمْ عُمَثَانُ بْنُ مَطْعُونٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَقَامَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْحَبَشَةِ بِخَيْرِ دَارٍ عِنْدَ خَيْرِ جَارٍ بَقِيَّةَ رَجَبٍ، وَشَعْبَانَ إِلَى رَمَضَانَ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى مَكَّةَ. وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحَرَمِ، وَكَانَ هُنَاكَ جَمْعٌ كَبِيرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، كَانَ فِيهِ سَادَاتُهَا وَكُبَرَاؤُهَا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتْلُو سُورَةَ النَّجْمِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّجْدَةَ سَجَدَ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْقَوْمُ جَمِيعًا، الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ، إِلَّا رَجُلَانِ، هُمَا: أُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، وَالْمُطَّلِبُ بْنُ أَبِي وَدَاعَةَ. فَبَلَغَ أَهْلَ الْحَبَشَةِ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ أَسْلَمُوا، وَقَدْ سَجَدُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: عَاشِرُنَا أَحَبُّ إِلَيْنَا، فَخَرَجُوا مِنَ الْحَبَشَةِ رَاجِعِينَ إِلَى مَكَّةَ، وَهَذَا فِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الْخَامِسَةِ لِلْبُعْثَةِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا دُونَ مَكَّةَ بِسَاعَةٍ تَبَيَّنَتْ لَهُمُ الْحَقِيقَةُ، وَعَرَفُوا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ خُصُومًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ، فَهَمُّوا بِالرُّجُوعِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَقَالُوا: قَدْ بَلَغْنَا مَكَّةَ، فَدَخَلُوا مَكَّةَ، وَلَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا مُسْتَخْفِيًا، أَوْ فِي جَوَارِ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَعَادَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْحَبَشَةِ.



الهجرة الثانية إلى الحبشة

ثُمَّ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْهَجْرَةِ ثَانِيًا إِلَى الْحَبَشَةِ فَهَاجَرَ اثْنَانِ وَثَمَانُونَ رَجُلًا وَثَمَانِي عَشْرَةَ امْرَأَةً، وَكَانَ أَمِيرُهُمْ فِي هَذِهِ الْهَجْرَةِ الثَّانِيَةِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةُ، وَأُوذِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَفُتِنُوا، وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَمِنْ عَمِّهِ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ مِمَّا يَنَالُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ بَارِضَ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، فَالْحَقُّوا بِبِلَادِهِ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ»، فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالًا حَتَّى اجْتَمَعْنَا، فَزَلْنَا بِخَيْرِ دَارٍ، وَإِلَى خَيْرِ جَارٍ - النَّجَاشِيِّ - فَأَمَنَّا عَلَى دِينِنَا، وَلَمْ نَخْشَ مِنْهُ ظُلْمًا وَعَبْدْنَا اللَّهَ، لَا نُؤْذِي وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَا قَدْ أَصَبْنَا دَارًا وَأَمْنَا اتَّخَذُوا أَنَّا نَبْعُثُ إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ فَيُخْرِجُنَا مِنْ بِلَادِهِ، وَيَرُدُّنَا عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُ يَهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطَرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبَ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الْأَدَمُ ^(١) فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرَكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقًا إِلَّا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَيْعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بْنِ وَاثِلِ السَّهْمِيِّ، وَأَمْرُوهُمَا أَمْرُهُمْ، وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعُوا إِلَى كُلِّ بَطَرِيقٍ ^(٢) هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ

(١) الْأَدَمُ: الجلد المدبوغ.

(٢) البَطَرِيقُ أو البَطَرِيكُ: رئيس رؤساء الأساقفة عند النصارى، وهو فوق القس، والقس غالبًا هو المتفرغ للعبادة وخدمة الكنيسة. ويطلق البَطَرِيقُ على العظيم من الروم، والْحَاذِقُ بِالْحَرْبِ

قَدُّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلُوهُ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ، فَخَرَجَا فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقٍ إِلَّا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ، ثُمَّ قَالَا لِكُلِّ بِطَرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدْ صَبَأَ إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مَنَّا غُلْمَانُ سَفَهَاءَ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاءُوا بِدَيْنٍ مُبْتَدَعٍ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِيُرَدِّدَهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ، فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يُكَلِّمَهُمْ، فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ، ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمَا إِلَى النَّجَاشِيِّ، فَقَبِلَهُمَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ صَبَأَ إِلَى بَلَدِكَ مَنَّا غُلْمَانُ سَفَهَاءَ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدَيْنٍ مُبْتَدَعٍ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ، مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِيُرَدِّدَهُمْ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبَوْهُمْ فِيهِ فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ: صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَإِنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ فَتَمْنَعُهُمْ بِذَلِكَ فَأَسَلِّمَهُمْ إِلَيْهِمَا، فَلِيُرَدِّدَاهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ، فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ ثُمَّ قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أُسَلِّمُ قَوْمًا لَجُّوا إِلَى بِلَادِي، وَاخْتَارُوا جَوَارِي عَلَى جَوَارِ غَيْرِي حَتَّى أَدْعُوهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ مَاذَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا تَقُولُونَ؛ أَسَلِّمُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ؛ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَلَمْ أُحِلَّ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَأَحْسَنْتُ جَوَارَهُمْ مَا جَاوَزُونِي. قَالَتْ: وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَنْبَغُصَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَيْعَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيُّ كَلَامَنَا، فَأَرْسَلَ النَّجَاشِيُّ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُ النَّجَاشِيِّ اجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا

وَأُمُورَهَا بِلُغَةِ الرُّومِ. والبطارقة بفتح الباء قواد الملك وخواص دولته وأهل الرأي والشورى منهم، والوزراء، وواحدهم: بطريق - بكسر الباء - .

جِئْتُمُوهُ؟، قَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ مَا عَلَّمْنَا وَمَا أَمَرْنَا بِهِ نَبِينَا ﷺ كَإِنَّ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنْ،
فَلَمَّا جَاءُوهُ دَخَلُوا عَلَيْهِ وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ^(١) فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ، وَكَانَ
الَّذِي يَكَلِّمُهُ مِنْهُمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، فَسَأَلَهُ النَّجَاشِيُّ، فَقَالَ لَهُ: مَا هَذَا الدِّينُ
الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي يَهُودِيَّةٍ وَلَا نَصْرَانِيَّةٍ وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ
الْأُمَمِ؟، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا عَلَى الشِّرْكِ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ
وَنَسْتَحِلُّ الْمَحَارِمَ بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ، فِي سَفْكِ الدَّمَاءِ وَغَيْرِهَا، لَا نُحِلُّ شَيْئًا وَلَا
نُحَرِّمُهُ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجَوَارِ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَ الضَّعِيفِ،
فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ،
فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ
وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ،
وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدَّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ،
وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ،
وَالصِّيَامِ - قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ - فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ
بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا،
فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَدَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ،
وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا فَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا
بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جَوَارِكَ،
وَرَجَوْنَا أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللَّهِ
مِنْ شَيْءٍ؟، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: اقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ
﴿كَهَيْعَصَ ۝﴾، قَالَتْ: فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ
حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا

(١) جمع أَسْقَفٌ: وهو رئيس دين في النصارى، فوق القسيس ودون المطران.

- وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيَخْرُجَ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَيَخْرُجُ مِنْ الْمِشْكَاةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا عِيسَى، انْطَلَقَا، فَوَاللَّهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللَّهِ لَا تَبْنِيَنَّ غَدًّا وَلَا تُبْنِيَنَّ بَعِيهِمْ عِنْدَهُ وَلَا تُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ إِلَهَهُ الَّذِي يَعْبُدُ - عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ - عَبْدٌ، ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضِرَاءَهُمْ، قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَيْعَةَ - وَكَانَ أَتَقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا -: لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا، فَقَالَ عَمْرُو: وَاللَّهِ لَا تُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ، قَالَتْ: فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، دَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ، قَالَتْ: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْنَا يَسْأَلُنَا عَنْهُ - وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلَهُ - فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمُ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِينًا كَانَتْ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ بَطَارِقَتُهُ، فَقَالَ لَنَا: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِينًا، هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ^(١)، وَكَلِمَتُهُ^(٢) أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبُتُولِ، قَالَتْ: فَذَلَّى النَّجَاشِيُّ يَدُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتُ هَذَا الْعُودَ، فَتَنَاحَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ، فَقَالَ: وَإِنْ نَحَرْتُمْ وَاللَّهِ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي - وَالسُّيُومُ: الْآمِنُونَ - مَنْ سَبَّكُمْ غُرْمٌ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرْمٌ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرْمٌ، فَمَا أَحَبُّ أَنْ لِي ذَبْرًا ذَهَبًا، وَأَنْتِي أَذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ - وَالذَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ: الْجَبَلُ -، رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا، فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، فَأَخَذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النَّاسُ فِيَّ، فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ^(٣).

(١) (رُوحُهُ): إضافة تشريف كبيت الله ونحوه.

(٢) (كَلِمَتُهُ): أي قال له كما قال لآدم حين خلقه من تراب: كُنْ، فَيَكُونُ.

(٣) قَالَ عَمْرُو: فَإِنَّ عَائِشَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ حَدَّثَتْنِي أَنَّ أَبَاهُ كَانَ مَلِكًا قَوْمِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ إِلَّا

فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مُقْبُو حَيْنٍ، مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَ بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرٍ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ، فَوَاللهُ إِنَّا عَلَى ذَلِكَ، إِذْ نَزَلَ بِالنَّجَاشِيِّ مَنْ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ، فَوَاللهُ مَا عَلِمْنَا حُزْنَ قَطُّ كَانَ أَشَدَّ مِنْ حُزْنِ حَزْنَاهُ عِنْدَ ذَلِكَ، تَخَوُّفًا أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ عَلَى النَّجَاشِيِّ،

النَّجَاشِيِّ، وَكَانَ لِلنَّجَاشِيِّ عَمٌّ، لَهُ مِنْ صُلْبِهِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، وَكَانُوا أَهْلَ بَيْتِ مَمْلَكَةِ الْحَبْشَةِ، فَقَالَتِ الْحَبْشَةُ بَيْنَهَا: لَوْ أَنَا قَتَلْنَا أَبَا النَّجَاشِيِّ، وَمَلَكْنَا أَخَاهُ فَإِنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ غَيْرَ هَذَا الْغُلَامِ، وَإِنْ لِأَخِيهِ مِنْ صُلْبِهِ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَتَوَارَثُوا مُلْكَهُ مِنْ بَعْدِهِ، بَقِيَتِ الْحَبْشَةُ بَعْدَهُ دَهْرًا، فَعَدُّوا عَلَى أَبِي النَّجَاشِيِّ فَقَتَلُوهُ، وَمَلَكُوا أَخَاهُ، فَمَكَثُوا عَلَى ذَلِكَ حِينًا. وَنَشَأَ النَّجَاشِيُّ، مَعَ عَمِّهِ - وَكَانَ لَبِيبًا حَازِمًا مِنَ الرِّجَالِ - فَعَلَبَ عَلَى أَمْرِ عَمِّهِ، وَنَزَلَ مِنْهُ بِكُلِّ مَنْزِلَةٍ، فَلَمَّا رَأَتْ الْحَبْشَةُ مَكَانَهُ مِنْهُ، قَالَتْ بَيْنَهَا: وَاللهُ لَقَدْ غَلَبَ هَذَا الْفَتَى عَلَى أَمْرِ عَمِّهِ، وَإِنَّا لَنَتَخَوَّفُ أَنْ يُمْلِكَهُ عَلَيْنَا، وَإِنْ مَلَكَهُ عَلَيْنَا لَيَقْتُلَنَا أَجْمَعِينَ، لَقَدْ عَرَفَ أَنَّا نَحْنُ قَتَلْنَا أَبَاهُ. فَمَشُوا إِلَى عَمِّهِ، فَقَالُوا: إِمَّا أَنْ تَقْتُلَ هَذَا الْفَتَى، وَإِمَّا أَنْ تُخْرِجَهُ مِنْ بَيْنِ أَطْهَرِنَا، فَإِنَّا قَدْ خِفْنَاهُ عَلَى أَنْفُسِنَا، قَالَ: وَيَلَكُمْ! قَتَلْتُ أَبَاهُ بِالْأَمْسِ، وَأَقْتُلُهُ الْيَوْمَ! بَلْ أُخْرِجُهُ مِنْ بِلَادِكُمْ. قَالَتْ: فَخَرَجُوا بِهِ إِلَى السُّوقِ، فَبَاعُوهُ مِنْ رَجُلٍ مِنَ التَّجَارِ بِسِتْمِائَةِ دَرَاهِمٍ، فَقَذَفَهُ فِي سَفِينَةٍ فَأَنْطَلَقَ بِهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْعِشِيِّ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، هَاجَتْ سَحَابَةٌ مِنْ سَحَابِ الْخَرِيفِ، فَخَرَجَ عَمُّهُ يَسْتَمْطِرُ تَحْتَهَا، فَأَصَابَتْهُ صَاعِقَةٌ، فَقَتَلَتْهُ. قَالَتْ: فَفَزَعَتِ الْحَبْشَةُ إِلَى وَلَدِهِ، فَإِذَا هُوَ مُحَقَّقٌ، لَيْسَ فِي وَلَدِهِ خَيْرٌ، فَمَرَجَ عَلَى الْحَبْشَةِ أَمْرَهُمْ. فَلَمَّا ضَاقَ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: تَعْلَمُوا وَاللهُ أَنَّ مَلِكَكُمْ الَّذِي لَا يُقِيمُ أَمْرَكُمْ غَيْرُهُ لَلَّذِي بَعْتُمْ غَدَوَهُ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ بِأَمْرِ الْحَبْشَةِ حَاجَةٌ، فَأَذْرِكُوهُ الْآنَ. فَخَرَجُوا فِي طَلْبِهِ وَطَلَبَ الرَّجُلُ الَّذِي بَاعُوهُ مِنْهُ حَتَّى أَذْرِكُوهُ، فَأَخَذُوهُ مِنْهُ، ثُمَّ جَاءُوا بِهِ، فَعَقَدُوا عَلَيْهِ النَّاجِ، وَأَقَعَدُوهُ عَلَى سَرِيرِ الْمَلِكِ، فَمَلَكُوهُ. فَجَاءَهُمُ التَّاجِرُ الَّذِي كَانُوا بَاعُوهُ مِنْهُ، فَقَالَ: إِمَّا أَنْ تُعْطُونِي مَالِي، وَإِمَّا أَنْ أَكَلِمَهُ فِي ذَلِكَ؟ قَالُوا: لَا نُعْطِيكَ شَيْئًا، قَالَ: إِذَنْ وَاللهُ أَكَلِمَهُ، قَالُوا: فَدُونِكَ وَإِيَّاهُ. قَالَتْ: فَجَاءَهُ فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، ابْتَعْتَ غُلَامًا مِنْ قَوْمٍ بِالسُّوقِ بِسِتْمِائَةِ دَرَاهِمٍ، فَأَسْلَمُوا إِلَيَّ غُلَامِي، وَأَخَذُوا دَرَاهِمِي، حَتَّى إِذَا سِرْتُ بِغُلَامِي، أَذْرِكُونِي، فَأَخَذُوا غُلَامِي، وَمَنْعُونِي دَرَاهِمِي. فَقَالَ لَهُمُ النَّجَاشِيُّ: لَتُعْطَنَّهُ دَرَاهِمَهُ، أَوْ لَيَضَعَنَّ غُلَامُهُ يَدَهُ فِي يَدِهِ، فَلْيَذْهَبَنَّ بِهِ حَيْثُ شَاءَ، قَالُوا: بَلْ نُعْطِيهِ دَرَاهِمَهُ. قَالَتْ: فَلِذَلِكَ يَقُولُ: مَا أَخَذَ اللهُ مِنِّي رِشْوَةً حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، فَأَخَذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِي، فَأُطِيعَ النَّاسَ فِيهِ. قَالَتْ: وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا خُبِرَ مِنْ صَلَابَتِهِ فِي دِينِهِ، وَعَدَلِهِ فِي حُكْمِهِ.

فَيَأْتِي رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ. وَسَارَ النَّجَاشِيُّ، وَبَيْنَهُمَا
عُرْضُ النِّيلِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّى يَحْضُرَ وَقْعَةَ الْقَوْمِ،
ثُمَّ يَأْتِينَا بِالْخَبَرِ؟، فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ﷺ: أَنَا، - وَكَانَ مِنْ أَحَدِثِ الْقَوْمِ سِنًا -
فَنَفَخُوا لَهُ قِرْبَةً فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ سَبَحَ عَلَيْهَا، حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النِّيلِ الَّتِي
بِهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ، قَالَتْ: وَدَعَوْنَا اللَّهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى
عَدُوِّهِ، وَالتَّمْكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ، فَاسْتَوْتَقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ، فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ،
حَتَّى خَرَجَ مِنْ خَرَجٍ مِنَّا رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ، وَأَقَامَ مِنْ أَقَامَ.



قريش تسامو أبا طالب لتسليم النبي ﷺ

وَرَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ نَزَلُوا بَلَدًا، وَأَصَابُوا بِهِ أَمْنًا وَقَرَارًا، وَأَنَّ النَّجَاشِيَّ قَدْ مَنَعَ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ، وَأَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قَدْ أَسْلَمَ، فَكَانَ هُوَ وَحَمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَجَعَلَ الْإِسْلَامُ يَفْشُو فِي الْقَبَائِلِ، وَرَوَى فِي الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ أَنَّ قُرَيْشًا لَجَأَتْ إِلَى مَسَاوِمَةِ أَبِي طَالِبٍ بِأَنْ يَعْطُوهُ عُمَارَةَ بْنَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، مُقَابِلَ أَنْ يَسْلُمَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ لِيَقْتُلُوهُ، حَتَّى لَا يَتَفَرَّقَ شَمْلُ قُرَيْشٍ فِي زَعَمِهِمْ. فَقَالَ: أُتْعِطُونِي ابْنَكُمْ أَكْفُلُهُ لَكُمْ، وَأُعْطِيَكُمْ ابْنِي تَقْتُلُونَهُ؟! فَرَفُضَ، وَأَصْرَ عَلَى حِمَايَةِ ابْنِ أَخِيهِ.



دعوة وشعر أبي طالب لحماية النبي ﷺ

وَقَامَ أَبُو طَالِبٍ فِي بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ مَنَعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْقِيَامِ دُونَهُ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، وَقَامُوا مَعَهُ، وَأَجَابُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي لَهَبٍ عَمِّ الرَّسُولِ ﷺ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي ذَلِكَ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُمْ، وَيُحَرِّضُهُمْ عَلَى مَا وافقوه عَلَيْهِ مِنَ الْحَدَبِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالنُّصْرَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ مِنْهَا:

إِذَا اجْتَمَعَتْ يَوْمًا قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ	فَعَبْدُ مَنْافٍ سِرُّهَا وَصَمِيمُهَا
وَإِنْ حُصِّلَتْ أَشْرَافُ عَيْدٍ مَنَافِهَا	فَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُهَا وَقَدِيمُهَا
وَإِنْ فَخَرْتُ يَوْمًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا	هُوَ الْمُصْطَفَى مِنْ سِرِّهَا وَكَرِيمِهَا
تَدَاعَتْ قُرَيْشٌ غُثًّا وَسَمِينُهَا	عَلَيْنَا فَلَمْ تَظْفَرْ، وَطَاشَ حُلُومُهَا

وَصَدَحَ أَبُو طَالِبٍ بِأَبْيَاتِهِ الْمَشْهُورَةِ فِي نُصْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَقَالَ:

وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ	حَتَّى أَوْسَدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا
فَإَمْضِي لِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ	أَبْشِرْ وَقَرِّ بِذَلِكَ مِنْكَ عُيُونَا
وَدَعَوْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ نَاصِحِي	فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ قَدَمَ أَمِينَا
وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّهُ	مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْ لَا الْمَلَأَةُ أَوْ حَذَارِي سُبَّةٌ	لَوْ جَدْتَنِي سَمَحًا بِذَلِكَ مُبِينَا

وقال قصيدته اللامية المشهورة ومنها:

أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ	عَلَيْنَا بِسُوءٍ أَوْ مُلِحٍّ بِبَاطِلٍ

وَتُورٍ وَمَنْ أَرْسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ
وَبِالْبَيْتِ حَقُّ الْبَيْتِ مِنْ بَطْنِ مَكَّةَ
وَبِالْحَجَرِ الْمُسَوَّدِ إِذْ يَمْسَحُونَهُ
وَمَوْطِيءِ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةً
وَمِنْ كَاشِحٍ يَسْعَى لَنَا بِمَعِيَّةٍ
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذِّبَ
فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُؤْمِلٍ
حَلِيمٍ رَشِيدٍ عَادِلٍ غَيْرُ طَائِشٍ
وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْعَمَامُ بِوَجْهِهِ
فَأَصْبَحَ فِينَا أَحْمَدُ فِي أَرْوَمَةٍ
يُلُودُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
بِكَفِّي فَتَى مِثْلَ الشَّهَابِ سَمِيدٍ
لَعَمْرِي لَقَدْ كَلَّفْتُ وَجَدًا بِأَحْمَدٍ
فَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا جَمَالًا لِأَهْلِهَا
وَلَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ لَا وُدَّ فِيهِمْ
وَكَانَ لَنَا حَوْضُ السَّقَايَةِ فِيهِمْ
وَقَدْ صَارَحُونَا بِالْعَدَاوَةِ وَالْأَذَى
وَقَدْ حَالَفُوا قَوْمًا عَلَيْنَا أَظَنَّةَ
صَبَرْتُ لَهُمْ نَفْسِي بِسَمَرَاءَ سَمْحَةٍ
وَأَحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وَإِخْوَتِي
شَبَابٌ مِنَ الْمُطَيِّينَ وَهَاشِمٍ
كَذَبْتُمْ وَيَيْتَ اللَّهِ تَتْرُكُ مَكَّةَ

وَرَاقٍ لِيَرْقَى فِي حِرَاءٍ وَنَازِلٍ
وَبِاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِغَافِلٍ
إِذَا اكْتَتَفُوهُ بِالضُّحَى وَالْأَصَائِلِ
عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلٍ
وَمِنْ مُلْحِقٍ فِي الدِّينِ مَا لَمْ تُحَاوِلِ
لَدَيْنَا وَلَا يَعْنِي بِقَوْلِ الْآبَاطِلِ
إِذَا قَاسَهُ الْحُكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضُلِ
يُؤَالِي إِلَهًا لَيْسَ عَنْهُ بِغَافِلٍ
ثَمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرْمِلِ
تَقْصُرُ عَنْهُ سُورَةُ الْمُتَطَاوِلِ
فَهُمْ عِنْدَهُ فِي رَحْمَةٍ وَفَوَاضِلِ
أَخِي ثِقَةٍ حَامِي الْحَقِيقَةِ بَاسِلِ
وَإِخْوَتِهِ دَأْبَ الْمُحِبِّ الْمُوَاصِلِ
وَزَيْنًا لِمَنْ وَاللَّهُ رَبُّ الْمَشَاكِلِ
وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ الْعُرَى وَالْوَسَائِلِ
وَنَحْنُ الْكَدَى مِنْ غَالِبٍ وَالْكَوَاهِلِ
وَقَدْ طَاوَعُوا أَمْرَ الْعَدُوِّ الْمُزَايِلِ
يَعْضُونَ غَيْظًا خَلَفْنَا بِالْأَنَامِلِ
وَأَبْيَضَ عَضْبٍ مِنْ تُرَاثِ الْمَقَاوِلِ
وَأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بِالْوَصَائِلِ
كَيْبُضِ السُّيُوفِ بَيْنَ أَيْدِي الصَّيَاقِلِ
وَنَظْعَنُ إِلَّا أَمْرُكُمْ فِي بَلَابِلِ

كَذَبْتُمْ وَيَبِيتُ اللَّهُ بُنْزِي مُحَمَّداً
وَنُسْلِمُهُ حَتَّى نُصْرَعَ حَوْلَهُ
وَيَنْهَضُ قَوْمٌ فِي الْحَدِيدِ إِلَيْكُمْ
وَأَنَا لَعَمْرُ اللَّهِ إِنْ جَدَّ مَا أَرَى
وَحَتَّى تَرَى ذَا الضُّغْنِ يَرْكَبُ رَدْعَهُ
وَلَمَّا نَطَاعِنُ دُونَهُ وَنُنَاضِلُ
وَنُذْهِلُ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ
نُهَوِّضُ الرِّوَايَا تَحْتَ ذَاتِ الصَّلَاصِلِ
لَتَلْتَبَسْنَ أَسْيَافُنَا بِالْأَمَائِلِ
مِنْ الطَّعْنِ فَعَلَ الْأَنْكَبِ الْمُتَحَامِلِ^(١)



(١) قَالَ فِيهَا الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَذِهِ قَصِيدَةٌ عَظِيمَةٌ فَصِيحَةٌ بَلِيغَةٌ جَدًّا؛ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَهَا إِلَّا مَنْ نُسِبَتْ إِلَيْهِ، وَهِيَ أَفْحَلُ مِنَ الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ، وَأَبْلَغُ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى مِنْهَا جَمِيعًا.

حصار الشعب على المسلمين وبني هاشم وبني المطلب

ثم اجتمع صناديد قريش واتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب: على أن لا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، وأن يصيقتوا عليهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل. فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتوثقوا على ذلك، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم. ولبت رسول الله ﷺ والمسلمون في الشعب ثلاث سنين^(١)، وقطعت عنهم قريش الميرة والمادة، وقطعت عليهم الأسواق، فكانوا لا يتركون طعاماً يدنو من مكة ولا يبعاً إلا بادروا إليه فاشتروه دونهم ليقتلهم الجوع، واشتدّ عليهم فيهنّ البلاء والجهد في شعب أبي طالب ثلاث سنين.

حتى نفقت الصحيفة وفك الحصار؛ وذلك أن قريشاً كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له، فسعى في نقض الصحيفة من كان كارهاً لها، فاجتمعوا عند الحجون، وتعاهدوا على القيام بنقض الصحيفة، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله ﷺ على أمر الصحيفة، وأنه أرسل عليها الأرضة، فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر الله ﷻ، فأخبر بذلك عمه، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم)، وما كان فيها

(١) وفي فترة المقاطعة في الشعب ولد حبر الأمة، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس ؓ.

من اسم الله فإنها لم تأكله. ثم نَقَضَ الصحيفة، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشَّعْب، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته بإخباره عن حال الصحيفة، ولكنهم - كما أخبر الله عنهم: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾.



وفاة أبي طالب وخديجة في عام واحد

وبدأ مرض الموت بأبي طالب، فلما بلغ قُرَيْشًا ثِقْلَهُ، خَشُوا أَنْ تُعَيِّرَهُمُ الْعَرَبُ إِنْ أَتَوْا بَعْدَ وَفَاتِهِ بِمُنْكَرٍ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ، فَيَقُولُونَ: تَرَكَوْهُ حَتَّى إِذَا مَاتَ عَمَّهُ تَنَاوَلُوهُ. فَمَشَى إِلَيْهِ أَشْرَافُهُمْ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ، قَالُوا: يَا أَبَا طَالِبٍ! إِنَّكَ كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا، فَأَنْصِفْنَا مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَمَرُّهُ فَلْيَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا وَنَدْعُهُ وَإِلَهَهُ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَبُو طَالِبٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ الْبَيْتَ، وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَبِي طَالِبٍ قَدْرُ مَجْلِسِ رَجُلٍ، فَخَشِيَ أَبُو جَهْلٍ إِنْ جَلَسَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى جَنْبِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَكُونَ أَرْقَ لَهُ عَلَيْهِ، فَوَثَبَ فَجَلَسَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، وَلَمْ يَجِدِ النَّبِيَّ ﷺ مَجْلِسًا قُرْبَ عَمِّهِ فَجَلَسَ عِنْدَ الْبَابِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ: يَا ابْنَ أَخِي! هَؤُلَاءِ أَشْرَافُ قَوْمِكَ، قَدْ اجْتَمَعُوا لَكَ، لِيُعْطُوكَ وَلِيَأْخُذُوا مِنْكَ، وَقَدْ سَأَلُوكَ أَنْ تَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِهِمْ، وَيَدْعُوكَ وَإِلَهَكَ، فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ فَقَدْ أَنْصَفُوكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ هَذِهِ، هَلْ أَنْتُمْ مُعْطِيَّ كَلِمَةٍ إِنْ أَنْتُمْ تَكَلَّمْتُمْ بِهَا مَلَكَتُمْ بِهَا الْعَرَبَ، وَدَانَتْ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ؟»، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: يَا ابْنَ أَخِي! مَا تَرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ الْعَجَمُ الْجَزِيَّةَ»، قَالَ أَبُو طَالِبٍ: كَلِمَةً وَاحِدَةً؟ قَالَ ﷺ: «كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ»، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ: نَعَمْ وَأَيُّكَ، وَعَشْرَ كَلِمَاتٍ، إِنَّ هَذِهِ لَكَلِمَةٌ مُرَبِّحَةٌ، لَنُعْطِيَنَّكَهَا وَعَشْرًا مَعَهَا فَمَا هِيَ؟ قَالَ ﷺ: «تَقُولُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَتَخْلَعُونَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ».

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: «وَاللَّهِ يَا ابْنَ أَخِي مَا رَأَيْتُكَ سَأَلْتَهُمْ شَطَطًا». أَمَّا زُعَمَاءُ الْمُشْرِكِينَ فَصَفَّقُوا بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ قَالُوا: أَتُرِيدُ يَا مُحَمَّدُ أَنْ تَجْعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ إِنَّ أَمْرَكَ

لَعَجَبٌ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا هَذَا الرَّجُلُ بِمُعْطِيكُمْ شَيْئًا مِمَّا تَرِيدُونَ، فَانْطَلِقُوا وَامْضُوا عَلَى دِينِ آبَائِكُمْ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، ثُمَّ قَامُوا مِنْ عِنْدِهِ وَهُمْ يَقُولُونَ: «وَاللَّهِ لَنَشْتَمَنَّكَ، وَإِلَهَكَ الَّذِي يَأْمُرُكَ بِهَذَا»، ثُمَّ تَفَرَّقُوا، وَفِي هَؤُلَاءِ نَزْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صَ وَالْفُرْعَانِ ذِي الذِّكْرِ ١﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ ٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ٣﴾ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ٤﴾ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ٥﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ٦﴾ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصِبُوا عَلَىٰ هَٰلِهِتِهِمْ ٧﴾ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ٨﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خَيْالٌ ٩﴾.

وبعد أن ألح المرض على أبي طالب عم النبي ﷺ وهو الذي كفله صغيراً، وآزره كبيراً، وناصره على دعوته، وحماه من عوادي المشركين، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: «أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزلوا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبدالمطلب. فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنه». فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١١٣﴾، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ١١٤﴾. وكانت وفاته بعد خروجه من المدينة في آخر السنة العاشرة من المبعث، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين وهو يومئذ ابن سبع وثمانين سنة.

وتوفيت بعده بقليل زوج النبي ﷺ، خديجة التي آمنت به إذ كفر به الناس، وآوته إذ رفضه الناس، وصدقته إذ كذبه الناس، ورزقه الله منها الولد، تُوِّفِيَتْ قَبْلَ مَخْرَجِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ، وَدُفِنَتْ ﷺ بِالْحَجُّونِ فِي مَقَابِرِ أَهْلِ مَكَّةَ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حُفْرَتِهَا، وَلَمْ تَكُنْ صَلَاةُ الْجَنَازَةِ شُرِعَتْ، وَكَانَتْ مُدَّةُ إِقَامَةٍ

النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، فَقَدْ تُوِّفِيَتْ ﷺ وَلَهَا مِنَ الْعُمْرِ خَمْسٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذْ ذَاكَ فِي الْخَمْسِينَ مِنْ عُمرِهِ ^(١).



(١) فَلَبِثَ النَّبِيُّ ﷺ سَتَتَيْنِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ وَعَقِدَ النِّكَاحَ عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ وَلَمْ يَبْنَ بِهَا. ثُمَّ تَزَوَّجَ سُودَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ الْقُرَشِيَّةَ، بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ.

اشتداد أذى قريش على رسول الله ﷺ

وَدَخَلَتْ فَاطِمَةُ ٱ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَتْ: هَؤُلَاءِ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ لَوْ قَدْ رَأَوْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا بِنْتِي، ابْتِئِنِّي بِوَضُوءٍ»، فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْمَسْجِدَ.

وَبَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ - لَعَنَهُ اللَّهُ - فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ ٱ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟﴾.

وَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ عُتَيْبَةُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ بِالْأَذَى، وَشَقَّ قَمِيصَهُ، فَدَعَا عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ»، فَخَرَجَ عُتَيْبَةُ فِي قَافِلَةٍ إِلَى الشَّامِ، فَزَلَّ مَنْزِلًا فَجَاءَ الْأَسَدُ وَهَجَمَ عَلَيْهِ، فَقَتَلَهُ.

وَجَاءَ جَبْرِيلُ ٱ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، وَهُوَ جَالِسٌ حَزِينًا قَدْ خُضِبَ بِالْدَّمَاءِ، ضَرْبُهُ بَعْضُ أَهْلِ مَكَّةَ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ؟، فَقَالَ لَهُ: «فَعَلَ بِي هَؤُلَاءِ وَفَعَلُوا»، فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ ٱ: أَتُحِبُّ أَنْ أَرِيكَ آيَةً قَالَ: «نَعَمْ». فَنَظَرَ إِلَى شَجَرَةٍ مِنْ وَرَاءِ الْوَادِي، فَقَالَ: ادْعُ بِتِلْكَ الشَّجَرَةِ، فَدَعَاهَا فَجَاءَتْ تَمْشِي، حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: مَرِّهَا فَلْتَرْجِعْ، فَأَمَرَهَا فَرَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَسْبِي».

وَكَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُ لَهُ جُلُوسٌ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فَلَانٍ، فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ، فَانْبَعَثَ أَشَقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ بِهِ، وَهُوَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَنَظَرَ حَتَّى إِذَا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى

ظَهَرَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ، وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ. وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ. ثُمَّ سَمَى ﷺ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلْفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ»^(١). وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعْفَرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَعَنَهُ اللَّهُ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى! لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَّانَ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعْفَرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَّأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، فَمَا فَجَّهَتْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا، وَأَجْنَحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَا خَطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا». فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿٦﴾ إِنَّ رَءَاهُ اسْتَعْجَلَ ۚ﴾ ﴿٧﴾ الْآيَات.



(١) قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَرَعى فِي الْقَلْبِ، قَلْبِ بَدْرٍ.

خروجه ﷺ إلى الطائف ورفضهم دعوته

وفي شوال سنة (٣ ق هـ) خرج النبي ﷺ إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً، سارها ماشياً على قدميه جيئةً وذهاباً، ومعه مولاة زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها، فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى رؤسائها فدعاهم فلم يستجيبوا له، فأقام بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشrafهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا. وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سِماطينَ [أي صفيين] وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه، ورجموا عراقبيه، حتى اختضب نعلاه بالدماء. وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف.



لقيا جبريل وملك الجبال في قرن المنازل

ورجع رسول الله ﷺ في طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيهاً محزوناً كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشين على أهل مكة، فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله ﷻ من أصلاهم من يعبد الله ﷻ وحده لا يشرك به شيئاً»، وفي هذا الجواب الذي أدلى به الرسول ﷺ تتجلى رحمته وحرصه على أمته، وما كان عليه من خلق عظيم.



مرور الجن به ﷺ في منطقة نخلة

ولما انصرف النبي ﷺ من الطائف راجعاً إلى مكة، حتى إذا كان بنخلة^(١)، قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تعالى، وكانوا سبعة نفر من جن أهل نصيبين^(٢)، فاستمعوا لتلاوة الرسول ﷺ، فلما فرغ من صلاته، ولَّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، وبعد عدة أشهر من لقاء الوفد الأول من الجن برسول الله ﷺ، جاء الوفد الثاني متشوقاً لرؤية الحبيب المصطفى ﷺ، والاستماع إلى كلام رب العالمين.



(١) نَخْلَة: مَوْضِعٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، على مسيرة ليلة من مكة.

(٢) نَصِيبِينَ: مدينة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام بينها وبين الموصل سِتَّةُ أَيَّامٍ.

مكوثه ﷺ في غار حراء وطلبه الجوار

ورجع الرَّسُولُ ﷺ وَصَارَ إِلَى حِرَاءٍ، ثُمَّ دَخَلَ مَكَّةَ فِي جَوَارِ الْمُطْعَمِ بْنِ عَدِيٍّ بعدما رفض الأخنس بن شريق وسهيل بن عمرو إجارته.

العودة لمكة وبيعة العقبة الأولى

وكان عليه الصلاة والسلام يعرض نفسه على القبائل، فلقي في الموسم رهطاً من الخزرج ستة عند العقبة التي بمنى وهي التي تنسب إليها جمرة العقبة. فقال: «ألا تجلسون أكلمكم؟»، فعرض عليهم الإسلام، وكانت يهود أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأوثان، وكانوا قد غزوهم في بلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً يبعث الآن قد أطل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر قال بعضهم لبعض: تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه وصدقوه. فلما كان العام المقبل قدم مكة من الأنصار اثنا عشر رجلاً منهم خمسة من الستة السابقين، فبايعوه في العقبة بمنى في أيام التشريق في الحج عام (٢ ق هـ)، وقال رسول الله ﷺ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ اثني عشر رجلاً مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي

الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ».

وفي شوال من نفس العام تزوج رسول الله ﷺ عائشة الصديقة رضي الله عنها وهي بنت ست سنين.^(١)



(١) أي عقد نكاحه عليها، لكنه عليه الصلاة والسلام بنى بها بالمدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين، وكانت أحظى أزواجه عنده وأحبهم إليه، ولم يتزوج بكرة غيرها.

انشقاق القمر

وسأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يريهم آية؛ فأراهم انشقاق القمر بمكة فلقطين، حتى رأوا حراء بينهما، فستر الجبل فلقة، وكانت فلقة فوق الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا، اشهدوا». فقال كفار أهل مكة: سحرنا محمد، هذا سحر سحرهم به ابن أبي كبشة! وقال بعضهم: لئن كان سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس. انظروا السُّفَارَ^(١) فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا ما رأيتم؛ فهو سحر سحرهم به. فَقَدِمُوا فَسَأَلُوهُمْ فَقَالُوا قَدْ رَأَيْنَا قَدْ انْشَقَّ. فنزلت: ﴿اَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَالْأَنشَقُّ الْقَمَرُ ۚ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۚ﴾^(٢).

(١) يعني المسافرين خارج مكة.

(٢) أشارت مقالات غربية معاصرة إلى أن الصور الحديثة للقمر أظهرت وجود حزام أحودوي يقطع القمر، افترض علماء الفلك أنه نتيجة لانفلاقه قديمًا ثم عودته الى الالتحام ويطلق عليه اسم Lunar Rille، وذكرت مخطوطات قديمة من حضارة المايا في أمريكا الجنوبية وقوع انشقاق للقمر بالفعل - في نفس وقت وجود النبي محمد ﷺ في مكة - وأن أغلب الأمم الموجودة حين ذاك قد رأته، بل إن بعض الشعوب قد غيرت تقويمها الفلكي بسببه، وأن ذلك كان في القرن السابع (من ٦٠٠ إلى ٧٠٠م) حيث حدث تغيير شامل في التقويم في كل من الصين وبابل وكوبان التي توافق حسابات جانيس (وكوبان هي إحدى أشهر مدن حضارة المايا في العصر الحديث من ٣٠٠ إلى ٩٠٠م)، وأن الانشقاق وافق العام ٦٢٣م، وهو يوافق مكوث النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة مباشرة. وبعض هذه المقالات تم حذفها لإثارها ضجة كبيرة بأن ما فيها يوافق كلام المسلمين.

ونحن وإن حذفنا هذه المقالات والحقائق أو حرفت أو لم تكن؛ فلن تنقص من إيماننا شيئًا، فيكفينا يقيننا بكلام الله وسنة نبيه ﷺ.

رحلة الإسراء والمعراج (1 ق هـ)

وكانت في هذه الفترة رحلة الإسراء والمعراج، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾.

وقال رسول الله ﷺ: فرج سقف بيتي وأنا بمكة ليلة أسري بي من مسجد الكعبة فنزل جبريل ﷺ ففرج صدري،^(١) ثم غسله بماء زمزم حتى أنقى جوفه، ثم جاء بطست من ذهب، ممتلئ حكمة وإيماناً وعلمًا فأفرغها في صدري، ثم أطبقه. ثم أتيت بالبراق مسرجًا، ملجمًا، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته، فاستصعب علي، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ أبعلمك تفعل هذا؟ فوالله ما ركبك أحد أكرم على الله ﷻ منه. فافرض البراق عرقًا، فمررت على موسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكتيب الأحمر، فلما انتهينا إلى بيت المقدس، قال جبريل بإصبعه، فخرق به الحجر، وشد به البراق، فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء، ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فقال: اشرب أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربته. فقال جبريل: الحمد لله الذي هداك للفطرة، لو أخذت الخمر، غوت أمتك.

وقد رأيته في جماعة من الأنبياء، فحانت الصلاة، فأممتهم فلما فرغت من

(١) وفي رواية: (فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة، حتى فرغ من صدره وجوفه).

الصلاة، قال قائل: يا محمد، هذا مالك صاحب النار فسلم عليه، فالتفت إليه، فبدأني بالسلام، ثم وضعت قدمي حيث توضع أقدام الأنبياء من بيت المقدس، ثم أخذ جبريل بيدي، فخرج بي إلى السماء، فلما جاء إلى السماء الدنيا، قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا؟، قال: هذا جبريل، قال: معك أحد؟، قال: معي محمد، قال: أرسل إليه؟ - لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم - قال: نعم، فافتح. قال: مرحبا به وأهلا، فنعم المجيء جاء. واستبشر بي أهل السماء، فلما علونا السماء الدنيا، إذا رجل عن يمينه أسودة^(١)، وعن يساره أسودة، وإذا نظر قبل يمينه تبسم، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم. وهذه نسمة بني^(٢)، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبا بالابن الصالح، والنبي الصالح. فإذا أنا في السماء الدنيا بنهرين يطردان،^(٣) فقلت: ما هذان النهران يا جبريل؟، قال: هذا النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى بي في السماء، فإذا أنا بنهر آخر، عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد^(٤) حافّاه^(٥)، قباب الدر المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟، قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فضربت بيدي، فإذا طينه هو مسك أذفر^(٦)، ثم عرج بي إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: من هذا؟، قال: جبريل، قالوا: ومن

(١) أسودة: أشخاص، والجمع من الناس، وكل شخص من إنسان وغيره يسمّى سوادًا، وجمعه أسودة.

(٢) أي: أرواح ذريته.

(٣) يطرد: يجري، ويتبع بعضه بعضا.

(٤) الزبرجد: حجر كريم من الجواهر، وهو الزمرد.

(٥) أي على حافتيه.

(٦) الأذفر: الجيد إلى الغاية، رائحته شديدة.

معك؟ قال: محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحبًا به وأهلاً ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة، عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكرياء، صلوات الله عليهما، فقال جبريل: هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما، فسلمت، فردا، ثم قالوا: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح، ودعوا لي بخير، وإذا عيسى رجل مربوع الخلق، وفي رواية: (مبطن الخلق حديد البصر، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس^(١))، كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام -، أقرب الناس به شبهة عروة بن مسعود الثقفي، ثم عرج بي جبريل إلى السماء الثالثة، فاستفتح فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، قيل: مرحبًا به، ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطي شطر الحسن. فقال جبريل: هذا يوسف، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح، ودعا لي بخير، ثم عرج بنا جبريل إلى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس عليه السلام فرحب ودعا لي بخير، قال الله ﷻ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾. ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون عليه السلام فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى عليه السلام، فقال: مرحبًا بالنبي الصالح، والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، وإذا هو رجل ضرب^(٢) أسحم، آدم، كثير الشعر، رجل

(١) وفي رواية: (جعد الرأس).

(٢) وفي رواية: (مضطرب). ومعنى «مضطرب»: ضرب، وهو النحيف الجسم.

الرأس، جعد شديد الخلق كأنه من رجال شنوءة^(١)، ثم عرج بي إلى السماء السابعة، فلما جاوزت موسى بكى، فقيل: ما أبكاك؟، قال: يا رب، هذا الغلام الذي بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر وأفضل مما يدخل من أمتي؟ رب لم أظن أن يرفع علي أحد، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟، قال: محمد ﷺ قيل: وقد بعث إليه؟، قال: نعم، قال: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم، أشبه الناس به صاحبكم - يعني نفسه - قلت: من هذا؟ فقال جبريل: هذا أبوك، فسلم عليه، قال: فسلمت عليه، فرد السلام وقال: مرحبا بالابن الصالح، والنبي الصالح، قال: ومررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس^(٢) ويقعون في أعراضهم ومررت على قوم تقرض شفاههم بمقاريض^(٣) من نار، كلما قرضت وفّت، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟، من هؤلاء؟، قال: هؤلاء خطباء أمتك، الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟، قال: ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ^(٤) اللؤلؤ، وإذا تراها المسك. ثم انطلق بي جبريل إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كأنه قلال هجر، يخرج من ساقها أربعة أنهار: نهران ظاهران، ونهران باطنان، فسألت جبريل، فقال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما

(١) وهي قبيلة يمنية سكنت منطقة الباحة، وتفرعت منها قبائل عديدة.

(٢) أي: يغتابون المسلمين.

(٣) المقاريض: جمع المقراض وهو المقص.

(٤) جمع جنبذة، وهو ما ارتفع من البناء.

الظاهران، فالليل والفراة، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشيها، تحولت يا قوتًا، أو زمردًا، أو نحو ذلك، وغشيها ألوان لا أدري ما هي، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسننها. ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض على أمتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة. فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: يا محمد، ماذا فرض ربك على أمتك؟، قلت: فرض عليهم خمسين صلاة كل يوم وليلة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كأنه يستشير في ذلك، فأشار إليه جبريل: أن نعم إن شئت، فعلا به إلى الجبار، فقال وهو مكانه: يا رب، خفف عنا، فإن أمتي لا تستطيع هذا، فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، فقلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته، فوضع شطرها، فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك يا محمد، والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا، فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجسادا، وقلوبا، وأبدانا وأبصارا، وأسماعا، فارجع فليخفف عنك ربك - كل ذلك يلتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريل - فرفعه عند الخامسة، فقال: يا رب، إن أمتي ضعفاء أجسادهم، وقلوبهم وأسماعهم، وأبصارهم، وأبدانهم، فخفف عنا، فقال الجبار: يا محمد، قلت: لبيك وسعديك، قال: إنه لا يبدل القول لدي كما فرضته عليك في أم الكتاب، إني قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي، وأجزى الحسنه عشرًا، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك، ومن هم بحسنة فلم يعملها، كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن هم بسيئة فلم يعملها، لم تكتب شيئًا، فإن عملها، كتبت سيئة واحدة، قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فقال: كيف فعلت؟، قلت: خفف الله عنا، أعطانا بكل حسنة

عشر أمثالها، فقال موسى: قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضًا، فقلت: يا موسى، قد والله استحيت من ربي مما اختلفت إليه، قال: فاهبط باسم الله. فاستيقظ وهو في مسجد الحرام.

قال ﷺ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِي بِي، وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، فَطَعْتُ بِأَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِي فَقَعَدْتُ فِي الْحِجْرِ مُعْتَزِلًا حَزِينًا، فَمَرَّ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: «إِنَّهُ أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ» قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: «إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟» قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتُ بَيْنَ ظَهْرَانِنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: فَلَمْ يَرِ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ، مَخَافَةً أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِنْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ». فَقَالَ: هَيَّا مَعَشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ حَتَّى قَالَ: فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ، وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ، قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتُ بَيْنَ ظَهْرَانِنَا؟» قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّيٍّ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعِ يَدِهِ عَلَى رَأْسِهِ، مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ زَعَمَ قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ، وَرَأَى الْمَسْجِدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَذَهَبْتُ أَنْعْتُ، فَمَا زِلْتُ أَنْعْتُ حَتَّى سَأَلْتَنِي قَرِيشَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أَثْبَتَهَا، فَكُرِبَتْ كُرْبَةً مَا كُرِبَتْ مِثْلَهُ قَط. فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ فَنَعْتُهُ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَثْبَتْتُهُمْ بِهِ». فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ. ثُمَّ إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «آيَةُ ذَلِكَ أَنِّي مَرَرْتُ بِعِيرٍ لَكُمْ بِمَكَانٍ كَذَا وَكَذَا، فَأَنْفَرَهُمْ حِسَّ الدَّابَّةِ - أَيِ الْبُرَاقِ - فَدَلَّ لَهُمْ بَعِيرٌ، فَدَلَّلْتُهُمْ عَلَيْهِ، وَلَهُمْ إِنَاءٌ فِيهِ مَاءٌ قَدْ غَطَّوْا عَلَيْهِ بِشَيْءٍ، فَكَشَفْتُ غِطَاءَهُ وَشَرِبْتُ مَا فِيهِ، ثُمَّ غَطَيْتُ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ، وَعَلَى عَيْرِهِمْ جَمَلٌ أَوْرَقٌ عَلَيْهِ غَرَارَتَانِ، إِحْدَاهُمَا سَوْدَاءُ،

وَالْأُخْرَى بَرَقَاءً». ^(١) وَصَدَّقَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «وَأَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقُ».

وَجَاءَهُ جِبْرِيلُ ﷺ حِينَ زَاغَتِ الشَّمْسُ، فَبَيَّنَ لَهُ كَيْفِيَّةَ الصَّلَاةِ، وَأَوْقَاتَهَا، وَفُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ. ^(٢)



(١) فَلَمَّا جَاءَتِ الْعِيرُ، إِذَا عَلَيْهَا ذَلِكَ الْجَمَلُ الَّذِي وَصَفَهُ الرَّسُولُ ﷺ، وَسَأَلُوهُمْ عَنِ الْإِنَاءِ، فَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّهُمْ وَضَعُوهُ مَمْلُوءًا مَاءً، ثُمَّ غَطَّوْهُ، وَأَنَّهُمْ ذَهَبُوا فَوَجَدُوهُ مُغَطًى كَمَا غَطَّوْهُ، وَلَمْ يَجِدُوا فِيهِ مَاءً، وَسَأَلُوهُمْ: هَلْ ضَلَّ لَكُمْ بَعِيرٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، نَدَلْنَا بَعِيرٌ فَسَمِعْنَا صَوْتَ رَجُلٍ يَدْعُونَا إِلَيْهِ حَتَّى أَخَذْنَاهُ. فَعَجِبَ الْكُفَّارُ لَمَّا عَرَفُوا صِدْقَ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا نُفُورًا وَطُغْيَانًا كَبِيرًا.

(٢) ثُمَّ هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَفُرِضَتِ أَرْبَعًا، وَتَرِكَتِ صَلَاةُ السَّفَرِ عَلَى الْأُولَى إِلَّا الْمَغْرِبَ، فَإِنَّهَا كَانَتْ ثَلَاثًا. وَأَتَمَّ اللَّهُ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْعِشَاءَ الْآخِرَةَ أَرْبَعًا فِي الْحَضَرِ، وَأَقَرَّ الصَّلَاةَ عَلَى فَرَسِهَا الْأَوَّلِ فِي السَّفَرِ.

بيعة العقبة الثانية قبيل الهجرة

وكانت بيعة العقبة الثانية في الموسم التالي سنة (١ ق هـ)، قال البراء بن عازب رضي الله عنه:
 أول من قدم علينا^(١) من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم رضي الله عنه
 فجعلوا يقرئان الناس القرآن، ثم قدم علينا بلال وسعد وعمار بن ياسر رضي الله عنه، ثم قدم
 عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عشرين من أصحاب النبي ﷺ.

قال جابر رضي الله عنه: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم
 بعكاظ ومجنة^(٢) وفي المواسم بمنى يقول: «من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة
 ربي وله الجنة». حتى أن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر، فيأتيه قومه فيقولون:
 احذر غلام قريش لا يفتنك. ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع،
 حتى بعثنا الله إليه من يثرب فأويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه
 القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا
 وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعاً فقلنا حتى متى نترك
 رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف؟! فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا
 عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى
 توافينا، فقلنا: يا رسول الله نبايعك. قال: تباعوني على السمع والطاعة في النشاط
 والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن
 تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت

(١) يعني إلى المدينة.

(٢) كَانَتْ عُكَاظُ وَمَجَنَّةٌ وَدُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا (موسمية) فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة. قال فقمنا إليه فبايعناه. وأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو من أصغرهم - فقال: رويدًا يا أهل يثرب فإننا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وأن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإذا أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبنًا، فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله. قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا ولا نسلبها أبدًا. فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة.



اتفاق مشركي قريش على قتل النبي ﷺ

واستمرت الفترة المكيّة منذ بعثة النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة تقريباً. ولما رأى المشركون أن أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا وخرجوا، وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج، أصابتهم الكآبة والحزن، وساورهم القلق والههم، وروي أنه اجتمع طواغيت مكة في دار الندوة ليتخذوا قراراً حاسماً في هذا الأمر، وكان اجتماعهم في شهر صفر بعد شهرين ونصف تقريباً من بيعة العقبة، وتوافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية؛ ليتدارسوا خطة حاسمة، تكفل القضاء سريعاً على النبي ﷺ ودعوته، ولما جاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد، اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، ووقف على الباب، فقالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأياً ونصحاً. قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم. وبعد أن تكامل الاجتماع، ودار النقاش طويلاً. قال أبو الأسود: نخرجه من بين أظهرنا ونففيه من بلادنا، ولا نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، فقد أصلحنا أمرنا، وألفتنا كما كانت. قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمتتم أن يحل على حي من العرب، ثم يسير بهم إليكم - بعد أن يتبعوه - حتى يطأكم بهم في بلادكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأياً غير هذا. قال أبو البختری: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله - زهيراً والنابعة - ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم. قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي،

والله لئن حبستموه - كما تقولون - ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتن دونه إلى أصحابه، فلاؤشكوا أن يشبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره. بعد ذلك تقدم كبير مجرمي مكة أبو جهل بن هشام باقتراح آثم وافق عليه جميع من حضر، قال أبو جهل: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم. قال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره. واتفقوا على ذلك.



قصة الهجرة

ثم أذن للنبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ۖ﴾ وقال رسول الله ﷺ: رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ^(١) مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي^(٢) إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجْرٌ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ، أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى^(٣)، يَقُولُونَ: يَثْرِبُ، وَهِيَ الْمَدِينَةُ^(٤)، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ^(٥) خَبَثَ الْحَدِيدِ.

قالت عائشة رضي الله عنها: لَمْ أَعْقِلْ أَبُويَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرْفِي النَّهَارِ، بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتَلَى الْمُسْلِمُونَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ الْحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرَكَ الْغَمَادِ^(٦)، لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغْنَةِ، وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تَرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ

(١) أي: أمرني ربي بالهجرة.

(٢) أي: ظني واعتقادي.

(٣) أي: تغلبهم، وكنى بالأكل عن الغلبة، لأن الأكل غالب على المأكول. أي: يفتح أهلها القرى، فيأكلون أموالهم، ويسبون ذراريهم.

(٤) أي: أن بعض المنافقين يسميها يثرب، واسمها الذي يليق بها المدينة، وفهم بعض العلماء من هذا كراهة تسمية المدينة يثرب، وقالوا: ما وقع في القرآن إنما هو حكاية عن قول غير المؤمنين.

(٥) الكير: قرية من جلد أو نحوه يستخدمها الحداد وغيره للنفخ في النار لإذكائها.

(٦) (برك الغماد) - بكسر الباء وفتحها وإسكان الراء - مَدِينَةٌ قَدِيمَةٌ كَانَتْ طَرِيقًا لِلْحِجَابِ الْقَادِمِينَ مِنَ الْجَنُوبِ، تَقَعُ جَنُوبَ مَكَّةَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَالْغَمَادُ بَضْمُ الْغَيْنِ وَكُسْرُهَا.

فِي الْأَرْضِ، فَأَعْبَدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: إِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَارْجِعْ فَأَعْبُدْ رَبَّكَ بِيَدِكَ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ، فَارْجِعْ، وَارْتَحِلْ مَعَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَطَافَ ابْنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلَهُ، وَلَا يُخْرَجُ، أَتَخْرِجُونَ رَجُلًا يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكُلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ؟، فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بِجَوَارِ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَقَالُوا لِابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيَصِلْ فِيهَا وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلَا يُؤْذِنَا بِذَلِكَ، وَلَا يَسْتَعْلِنَ بِهِ، فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ، فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِصَلَاتِهِ، وَلَا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَأَ لِأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفَنَاءِ دَارِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَقِفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ - وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَاءً، لَا يَمْلِكُ عَيْنِيهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ - فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا أَجْرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجَوَارِكَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفَنَاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَانْهَهُ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلْ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِكَ، فَسَلِّهِ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقَرَّبِينَ لِأَبِي بَكْرٍ إِلَّا سِتْعْلَانًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَاتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِنَّمَا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَنْ تُرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أَخْفَرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جَوَارِكَ، وَأَرْضَى بِجَوَارِ اللَّهِ ﷻ وَالنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ: «إِنِّي أَرَيْتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَا بَتَيْنِ» - وَهُمَا الْحَرَّتَانِ -، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قَبْلَ الْمَدِينَةِ، حِينَ ذَكَرَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَرَجَعَ

بَعْضُ مَنْ كَانَ هَاجِرًا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قَبْلَ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْخُرُوجِ حِينَ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْأَذَى، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ، لَا تَعْجَلْ، لَعَلَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لَكَ صَاحِبًا، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟، قَالَ: «نَعَمْ، إِنِّي لَأَرْجُو ذَلِكَ»، فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُصَحِّبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ - وَهُوَ الْخَبْطُ -، قَالَتْ: فَلَمَّا أُذِنَ لَهُ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ أَتَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ ظَهْرًا، فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَقَنَّعًا، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ جَاءَ ظَهْرًا قَالَ: فِدَاءُ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، مَا جَاءَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا لِأَمْرِ حَدَثٍ، فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ عَلَيْكَ عَيْنٌ، إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ - يَعْنِي عَائِشَةَ وَأَسْمَاءَ -، إِنَّمَا هُمَا أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الصُّحْبَةُ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، الصُّحْبَةُ»، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عِنْدِي نَاقَتَانِ قَدْ كُنْتُ أَعِدُّنَهُمَا لِلْخُرُوجِ فَخُذْ إِحْدَاهُمَا. قَالَ: «قَدْ أَخَذْتُهَا بِالثَّمَنِ». فَأَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ إِحْدَاهُمَا - وَهِيَ الْجَدْعَاءُ - . قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحْتَّ الْجِهَازِ - يَعْنِي: أَحْسَنَ الْجِهَازِ - وَضَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا، فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ - فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ - ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بَغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرِ فَتَوَارَيَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ، ثَقِفٌ، لَقِنٌ، فَيَرَحُلُ مِنْ عِنْدِهِمَا سَحْرًا، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرَعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فَهَيْرَةَ، مَوْلَى

أَبِي بَكْرٍ، مَنَحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ، فَيَسْتَانِ فِي رُسُلِهِمَا وَهُوَ لَبَنٌ مَنَحْتَهُمَا وَرَضِيفُهُمَا^(١)، حَتَّى يَنْعَقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، ثُمَّ يَسْرَحُ بِهَا بَغْلَسٍ، فَلَا يَفْطَنُ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الرِّعَاءِ يَفْعَلُ ذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ.

قال أبو بكر رضي الله عنه: نظرت إلى أقدام المشركين على رءوسنا ونحن في الغار، فقلت يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه؛ أبصرنا، تحت قدميه، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين، الله ثالثهما؟»، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدَّيْلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ، هَادِيًا خَرِيَّتًا^(٢) - وَالْخَرِيتُ الْمَاهِرُ بِالْهَدَايَةِ - قَدْ غَمَسَ يَمِينَ حِلْفٍ فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاِحِلَتَيْهِمَا، وَوَعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، فَأَتَاهُمَا بِرَاِحِلَتَيْهِمَا صَبِيحَةَ لَيَالٍ ثَلَاثٍ، فَارْتَحَلَا وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَالِدَّيْلُ الدَّيْلِيُّ، فَأَخَذَ بِهِمْ أَسْفَلَ مَكَّةَ، وَهُوَ طَرِيقُ السَّاحِلِ. وَأَقَامَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه ثَلَاثَ لَيَالٍ وَأَيَّامَهَا بِمَكَّةَ؛ حَتَّى آدَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْوَدَائِعَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ لِلنَّاسِ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهَا لَحِقَ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم.

قال أبو بكر: أخذ علينا بالرصد، فخرجنا ليلاً، فأسرنا ليلتنا ويومنا، حتى أظهرنا وقام قائم الظهر، فعطش رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل، لم تأت

(١) (الرسل): اللَّبَنُ الطَّرِيُّ. وَقَوْلُهُ (رَضِيفُهُمَا) - بَوَزْنِ رَغِيفٍ - أَي: اللَّبَنُ الْمَرْصُوفُ وَهُوَ الَّذِي وُضِعَتْ فِيهِ الْحِجَارَةُ الْمُحْمَاةُ بِالشَّمْسِ أَوْ النَّارِ لِيَنْعَقِدَ وَتَزُولَ رَحَاوَتُهُ.

(٢) الخريت: الماهر في معرفة الطرق. واسمه: عبدالله بن أريقط.

عليه الشمس بعد، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرة، فسويت بيدي مكاناً ينام فيه النبي ﷺ في ظلها، ثم بسطت عليه فروة، ثم قلت له: اضطجع يا رسول الله، فاضطجع النبي ﷺ، ثم انطلقت أنظر ما حولي، هل أرى من الطلب أحداً، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردنا، فسألته: لمن أنت يا غلام؟، فقال: لرجل من قريش سماه، فعرفته، فقلت له: هل في غنمك من لبن؟، قال: نعم، قلت له: فهل أنت حالب لنا؟، قال: نعم. فأخذ شاة من غنمه، فقلت له: انفضض الضرع من التراب والشعر والقذى، فحلب في قعب كثبة من لبن، ومعني إداوة من ماء عليها خرقة حملتها للنبي ﷺ يرتوي منها، يشرب ويتوضأ، فصبيت على اللبن، حتى برد أسفله، ثم أتيت به النبي ﷺ فكرهت أن أوقظه، فقلت له حين استيقظ: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت. ثم ارتحلنا بعدما مالت الشمس، والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقه بن مالك بن جعشم على فرس له. فقلت: أتيينا يا رسول الله. فقال: «لا تحزن، إن الله معنا».

فلما دنا؛ التفت نبي الله ﷺ ودعا عليه فقال: اللهم اصصره»، فصصره الفرس، فساخ في الأرض إلى بطنه ثم قامت تحمحم.

وحكى سراقه بن مالك ﷺ تلك الواقعة وكان مشركاً، قال: جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارٍ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسْرَهُ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدَلِجٍ، أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَتَحَنُّ جُلُوسٌ، فَقَالَ: يَا سُرَاقَةَ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْفًا أَسْوَدَةً بِالسَّاحِلِ، أَرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، قَالَ سُرَاقَةُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فَلَانًا وَفُلَانًا، انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا، ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ، فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكْمَةِ، فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ رُمْحِي، فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ فَحَطَطْتُ بِزُجْجِهِ الْأَرْضَ، وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ، حَتَّى أَتَيْتُ

فَرَسِي فَرَكْبُهَا، فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي ^(١)، حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ، فَعَثَرْتُ بِي فَرَسِي فَخَرَزْتُ عَنْهَا، ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَهَضَّتْ، فَلَمْ تَكُدْ تُخْرِجْ يَدَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً، إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ ^(٢) سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلَ الدُّخَانِ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ ^(٣)، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ، فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي، فَاسْتَخَرَجْتُ مِنْهَا الْأَزْلَامَ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا، أَضْرَهُمْ أَمْ لَا؟، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ - أَنْ لَا أَضْرَهُمْ - فَعَصَيْتُ الْأَزْلَامَ، وَرَكِبْتُ فَرَسِي تُقَرِّبُ بِي، حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ، وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الْإِلْتِفَاتَ - سَاحَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الْأَرْضِ، حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ فَخَرَزْتُ عَنْهَا، فَنادَيْتُهُمْ بِالْأَمَانِ فَوَقَفُوا.

ووثب سراقه عن فرسه، وقال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن يخلصني مما أنا فيه، ولك علي لأعين على من ورائي، وهذه كنانتي، فخذ سهمًا منها، فإنك ستمر على إبلي وغلماي بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك، قال: «لا حاجة لي في إبلك»، ودعا له رسول الله ﷺ فنجا.

قال سراقه: فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الْحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَّةَ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ، فَلَمْ يَرَزَانِي وَلَمْ

(١) الزج: الحديد الذي في أسفل الرمح و(رفعتها) أي أسرع بها السير و(التقريب) السير دون العدو وفوق العادة. وهو أن ترفع الفرس يديها وتضعهما معا.

(٢) العثان: هو الدخان من غير نار.

(٣) الاستقسام: استخارة جاهلية محرمة لطلب قسمة الحظ والخير المقدر، والأزلام: هي ثلاثة سهام ليس لها نصل، توضع في كنانة، ومكتوب على أحدها: (افعل) وعلى الثاني: (لا تفعل)، والثالث لا يكتب عليه شيء، ثم يسحب أحدها دون تحديد، فإذا خرج السهم الأول؛ مضى المستقسم في أمره وفعله، وإذا خرج الثاني؛ توقف ولم يفعل، وإذا خرج الثالث؛ أعاد الاستقسام.

يَسْأَلَانِي شَيْئًا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَرِنِي بِمَا شِئْتُ، قَالَ: «فَقِفْ مَكَانَكَ، لَا تَتْرُكْ أَحَدًا يَلْحَقُ بِنَا، أَخْفِ عَنَّا»، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ مُوَادَعَةٍ آمِنٍ بِهِ، فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فَهَيْرَةَ فَكَتَبَ لِي فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ.

فَجَعَلَ سَرَاقَةً لَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا قَالَ: قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هُنَا، فَلَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا رَدَّهُ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَفَى لَنَا. فَكَانَ أَوَّلَ النَّهَارِ جَاهِدًا عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ آخِرَ النَّهَارِ مُسَلِّحَةً لَهُ.

وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ مُرْدِفٌ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَخْتَلِفُ إِلَى الشَّامِ، وَكَانَ يَعْرِفُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَعْرِفُ. فَيَلْقَى الرَّجُلَ أَبَا بَكْرٍ فيَقُولُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ؟، فيَقُولُ: هَذَا الرَّجُلُ يَهْدِينِي السَّبِيلَ، قَالَ: فَيَحْسِبُ الْحَاسِبُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْنِي الطَّرِيقَ، وَإِنَّمَا يَعْنِي سَبِيلَ الْخَيْرِ.

وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَقِيَ الزَّبِيرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّامِ، فَكَسَا الزَّبِيرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بِيَاضٍ. وَقَدَمَا الْمَدِينَةَ لَيْلًا^(١)، فَلَمَّا دَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ؛ نَزَلَا الْحَرَةَ، ثُمَّ بَعَثَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لِيُؤْذِنَ بِهِمَا الْأَنْصَارَ.

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ سَمِعُوا مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَكَانُوا يَغْدُونَ^(٢) كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ، حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُ الظَّهِيرَةِ، فَيَنْقَلِبُوا يَوْمًا بَعْدَمَا أَطَالُوا أَنْتَظَارَهُمْ، فَلَمَّا أَوْوَا إِلَى بَيُوتِهِمْ، أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودٍ عَلَى أَطْمٍ^(٣) مِنْ آطَامِهِمْ لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَبَصَرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مَبِضِّينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكْ

(١) يَعْنِي: أَنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَيْهَا لَيْلًا، إِلَّا أَنَّهُمْ أَقَامُوا خَارِجًا مِنْهَا، ثُمَّ دَخَلُوهَا نَهَارًا، وَهَذَا مَبِينٌ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وَقَدْ أَطْبَقَ أَهْلُ السِّيَرِ عَلَى: أَنَّهُ دَخَلَ الْمَدِينَةَ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ، وَأَكْثَرُهُمْ يَقُولُ: لَثْنِي عَشْرَةَ لَيْلَةٍ خَلَّتْ مِنْ رِيْعِ الْأَوَّلِ ضَحَى ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَقِيلَ: عِنْدَ اسْتِوَاءِ الشَّمْسِ مِنْهُ.

(٢) الْغَدُو: السَّيْرُ وَالذَّهَابُ أَوَّلَ النَّهَارِ.

(٣) الْأَطْمُ: الْبِنَاءُ الْمَرْتَفِعُ.

اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ وصاحبه بظهر الحرة، واستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما فجاءوا إلى نبي الله ﷺ وأبي بكر فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب رسول الله ﷺ وأبو بكر، وحفوا حولهما بالسلاح، ف قيل في المدينة: جاء نبي الله، جاء نبي الله ﷺ فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله، جاء نبي الله.

فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك.



السنة الأولى من الهجرة (اهـ) بناء مسجد قباء والمسجد النبوي

فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس المسجد الذي أسس على التقوى (مسجد قباء)، وصلى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس، فتنازعوا أيهم ينزل عليه رسول الله ﷺ فقال: «أنزل على بني النجار، أخوال عبد المطلب، أكرمهم بذلك» ثم أرسل إلى بني النجار؛ فجاءوا متقلدي السيوف، والنبى ﷺ على راحلته، وأبو بكر ردفه، وملاً بني النجار حوله، فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرق، ينادون: يا محمد، يا رسول الله، يا محمد، يا رسول الله.

حتى بركت عند مسجد الرسول بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مِرْبَدًا^(١) لِلتَّمْرِ، لسهيل وسهل، غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل»، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرايض الغنم، وإنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملا من بني النجار، فقال: يا بني النجار، ثامنوني^(٢) بحائطكم^(٣) هذا، قالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى

(١) الموضع الذي يجعل فيه التمر لينشف.

(٢) أي: اذكروا لي ثمنه، لأذكر لكم الثمن الذي أختره، قال ذلك على سبيل المساومة، فكأنه قال: ساوموني في الثمن.

(٣) الحائط: البستان من النخل، إذا كان عليه حائط، وهو الجدار.

الله، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين، فساومهما بالمربد ليتخذة مسجداً، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، فكان فيه قبور المشركين، وفيه خرب، وفيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، ثم بالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه^(١) الحجارة، فكان رسول الله ﷺ يبينه، وهم ينقلون الصخر، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويناولونه ورسول الله ﷺ يقول: «هذا الحمال لا حمال خير، هذا أبر ربنا وأطهر، اللهم إن الأجر أجر الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرة، ألا إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة». فتمثل بشعر رجل من المسلمين^(٢)، وهم يرتجزون^(٣) ويقولون: «اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فانصر الأنصار والمهاجرة». ثم بناه مسجداً باللبن^(٤) وسقفه مظلّل بجريد النخل، وعمده من خشب النخل.



(١) عضادتا الباب: الخشبتان المنصوبتان عن يمين الداخل منه وشماله.

(٢) وهو من قول عبدالله بن رَوَاحَةَ رضي الله عنه.

(٣) أي: يتعاطون الرجز، وهو ضرب من الشعر.

(٤) اللبن: ما يعمل من الطين، يعني الطوب والآجر.

فرح أهل المدينة

وما فرح أهل المدينة بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإمام والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، ولعبت الحبشة لقدمه بحراهم فرحاً بذلك، وكانت الحبشة يزفنون^(١) بين يدي رسول الله ﷺ ويرقصون، ويتكلمون بكلام لا يفهمه، فقال رسول الله ﷺ: «ما يقولون؟» قالوا: يقولون: محمد عبد صالح. وما عدوا^(٢) من مبعث النبي ﷺ ولا من وفاته، ما عدوا إلا من مقدمه المدينة.



(١) أي: يرقصون. من زفن يزفن: رقص.

(٢) يعني: ما أَرَّخ الصحابة ببعثته عليه الصلاة والسلام ولا بوفاته، وإنما أَرَّخوا بهجرته.

دعوة يهود المدينة للإسلام

وكان يهود بني قَيْنِقَاعَ حُلَفَاءَ الْخَزَرَجِ، وَكَانَتْ دِيَارُهُمْ دَاخِلَ الْمَدِينَةِ، وَيَهُودُ بَنِي النَّضِيرِ، وَبَنِي قُرَيْظَةَ كَانُوا حُلَفَاءَ الْأَوْسِ، وَكَانَتْ دِيَارُهُمْ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ. فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب، فإنه ليحدث أهلها؛ إذ سمع به عبد الله بن سلام ﷺ وهو في نخل لأهله يخترف لهم، فعجل أن يضع الذي يخترف لهم فيها، فجاء وهي معه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فإن أخبرتني بها آمنت بك، وإن لم تعلمهن عرفت أنك لست بنبي. قال: «سل»، قال: ما أول أشرط الساعة؟ أول شيء يحشر الناس؟ وما أول ما يأكل منه أهل الجنة؟ ومن أين يشبه الولد أباه وأمه؟ من أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ قال: «أخبرني بهن جبريل آنفاً»، فقال عبد الله: جبريل؟ قال: «نعم»، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أما أول أشرط الساعة؛ فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، تخرج من قبل المشرق، فتحشرهم إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة؛ فزيادة كبد حوت، رأس ثور وكبد حوت. وأما الشبه في الولد؛ فإن الرجل إذا غشي المرأة، فسبقها ماؤه، كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها، كان الشبه لها». قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وأنت جئت بحق. ثم قال: يا رسول الله، قد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم؛ فأخبئني عندك وابعث إليهم واسألهم عني: أي رجل عبد الله بن سلام فيكم، قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإن اليهود قوم بهت، إن علموا بإسلامي قبل أن

تسألهم، بهتوني عندك وقالوا في ما ليس في. فأرسل إليهم نبي الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه، ودخل عبد الله البيت. فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود، ويلكم، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق، فأسلموا»، فقالوا للنبي ﷺ: ما نعلمه. فقال لهم رسول الله ﷺ: «فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟»، قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وعالمنا وابن عالمنا، وأفقهنا وابن أفقهنا وسيدنا وابن سيدنا. قال: «أفرايتم إن أسلم؟»، قالوا: حاشى الله، ما كان ليسلم، قال: «أفرايتم إن أسلم؟»، قالوا: حاشى الله، ما كان ليسلم، قال: «أفرايتم إن أسلم؟»، قالوا: حاشى الله، ما كان ليسلم، قال: «يا ابن سلام، اخرج عليهم»، فخرج عبد الله إليهم، فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت. فقال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقالوا: هو شرنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا. وانتقصوه ووقعوا فيه. فأخرجهم رسول الله ﷺ. فقال ابن سلام: هذا الذي كنت أتخوف منه يا رسول الله، قد أخبرتك يا رسول الله أن اليهود قوم بهت. ثم قال نبي الله ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب؟»، فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي، قال: «فانطلق فهمي لنا مقيلاً»، فقال أبو أيوب: قوما على بركة الله. فنزل عنده رسول الله ﷺ إلى أن بنى مسجده ومساكنه. وأمر الله ﷺ نبيه بالصبر والعفو، قال تعالى: ﴿وَلْتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١).

(١) قَالَ ﷺ: «لَوْ آمَنَ بِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ لَأَمَنَ بِي الْيَهُودُ»، أي: لتابعهم الكل، أو أن المراد عَشْرَةٌ مَعْيِنِينَ مِنَ الْأَحْبَارِ كَانُوا رُؤَسَاءَهُمْ وَرُعَمَاءَهُمْ، وإلا فقد آمَنَ من اليهود عَشْرَةٌ وَأَكْثَرُ بِأَضْعَافٍ، وفيه أَنَّهُمْ سَالِكُونَ لِلتَّقْلِيدِ لِأَحْبَارِهِمْ، لَا مُتَّبِعُونَ لِلْحَقِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾.

الدعاء للمدينة بالصحة

وقالت عائشة رضي الله عنها: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة؛ اشتكى أصحابه فوعك^(١) أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم، فأذن لي. قالت: فدخلت عليهم، فقلت: يا أبت، كيف تجدك؟ فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله
وسألت عامراً، فقال:

إني وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه
قالت: وسألت بلالاً كيف تجدك؟، فكان بلال إذا أقلع عنه الحمى، يرفع عقيرته^(٢) يقول:

ألا ليت شعري هل أبين ليلة بوادٍ^(٣) وحولي إذخر وجيل^(٤)
وهل أردن يوماً مياه مجنة^(٥) وهل يبدون لي شامة وطفيل^(٦)

(١) أي: أصابهم الوعك وهي الحمى.

(٢) قال الأصمعي: أصله أن رجلاً انعقرت رجله، فرفعها على الأخرى وجعل يصيح، فصار كل من رفع صوته يقال: رفع عقيرته، وإن لم يرفع رجله.

(٣) أي: بوادي مكة.

(٤) الجليل: نبت ضعيف، يحشى به خصائص البيوت وغيرها.

(٥) موضع على أميال من مكة، وكان به سوق.

(٦) جبلان بقرب مكة.

ثم قال: اللهم العن شيبه بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأميه بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء. قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة، أو أشد. اللهم بارك لنا في صاعنا، وفي مدنا، وصححها لنا، وانقل حماها إلى الجحفة.»^(١)



(١) قالت عائشة رضي الله عنها: فكان المولود يولد بالجحفة، فما يبلغ الحلم حتى تصرعه الحمى، وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، وكان بطحان يجري نجلاً، تعني: ماء آجنا (أي: متغيراً).

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

وفي السنة الأولى من الهجرة آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ﷺ. حتى كان يرث بعضهم بعضاً في أول الأمر. وأتاه المهاجرون فقالوا: يا رسول الله ما رأينا قومًا أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال النبي ﷺ: لا ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم.



كتابة الصحيفة

ومما روي أن النبي ﷺ نظم العلاقات بين سكان المدينة، وكتب في ذلك صحيفة توضح التزامات جميع ساكني المدينة (المهاجرين والأنصار واليهود)، وتحدد الحقوق والواجبات، وأرأسى بها قواعِدَ مُجْتَمَعٍ جَدِيدٍ منظم يحكم بالحق والعدل، وتسمى بالكتاب والصحيفة والوثيقة.^(١)

ومما جاء فيها: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ ﷺ، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْمَدِينَةِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلِحَقِّ بِهِمْ، وَجَاهَدَ مَعَهُمْ: أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ. الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رَبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقِلُونَ بَيْنَهُمْ، وَهُمْ يَقْدُونَ عَانِيَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى

(١) وقد وصفت بأنها أول دستور مكتوب في العالم، وقد استفاد منها كثيرًا الدستور الأمريكي الحديث. وجاء الإسلام بالعدالة الكاملة التي أدخلت كثيرًا من الناس في دين الله. وأقر بعدالته حتى من عادى هذا الدين الحنيف. وقال المستشرقون عن كتاب «السير» لمحمد ابن الحسن تلميذ أبي حنيفة: «إنه أول كتاب في القانون الدولي». وكتب نابليون قوانينه بعد الثورة الفرنسية واقتبس أكثرها من أحكام الفقه المالكي خصوصًا مختصر خليل. وبعد معاناة تشريعية طويلة اعترف القانوني الفرنسي الشهير «دوجي» بأفضلية الإسلام وأنه: «لا يشرع للخلق إلا من خلقهم». وبيّن الإسلام الحقوق والحدود، وجعل الحرية الصحيحة في طلب الحقوق وتحصيلها والوقوف عند الحدود الشرعية، فلا ديموقراطية ولا ديكتاتورية ولا علمانية ولا ليبرالية. ومن وسطية الإسلام أنه ليس فيه رهبانية مبتدعة ولا إلحاد، ولا رأسمالية ولا شيوعية، ولا إباحية للفواحش ولا تعدد مطلق للزوجات ولا إلزام بالاقتصار على زوجة واحدة يحرم غيرها. وأهم واجبات الدولة الإسلامية إقامة الدين وعموده الصلاة، ولا يصح تقسيم الإسلام إلى إسلام سياسي وإسلام غير سياسي؛ لأن الإسلام دين مرتبط بالحياة.

رَبَعَتِهِمْ يَتَعَاقِلُونَ مَعَاظِلَهُمْ الْأُولَى. أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطَوْهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ. أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَعَى مِنْهُمْ، أَوْ ابْتَعَى دَسِيعَةً ظَلَمٍ أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُذْوَانٍ أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدًا أَحَدِهِمْ. أَنَّ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةً، يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَذْنَاهُمْ. الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ. مَنْ تَبَعَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ يَهُودٍ، فَإِنَّهُ لَهُ النَّصْرُ وَالْأُسُوءَةُ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرِينَ عَلَيْهِمْ. أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَبِئُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. مَنْ اعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قَتْلًا عَنْ بَيْنَةٍ، فَإِنَّهُ قَوْدٌ بِهِ، إِلَّا أَنْ يَرْضَى وَلِيُّ الْمَقْتُولِ. أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةٌ، وَلَا يَحِلُّ لَهُمْ إِلَّا قِيَامٌ عَلَيْهِ. لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقَرِيشٍ، وَلَا نَفْسًا، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ. لَا تُجَارُ قُرَيْشٌ وَلَا مَنْ نَصَرَهَا. لِقَرِيشٍ وَحُلَفَائِهَا حَقُّ الصُّلْحِ إِذَا طَلَبُوهُ، إِلَّا مَنْ حَارَبَ مِنْهُمْ الْإِسْلَامَ. يُنْفِقُ الْيَهُودُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ. يَهُودُ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يَهْلِكُ إِلَّا نَفْسَهُ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ. لِبَقِيَّةِ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، وَبَنِي الْحَارِثِ، وَبَنِي سَاعِدَةَ، وَبَنِي جُشَمٍ، وَبَنِي الْأَوْسِ، وَبَنِي نَعْلَبَةَ، وَجَفْنَةَ، وَبَنِي الشُّطَيْبَةِ، مِثْلُ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَأَنْ بَطَانَةَ يَهُودٍ كَانَتْهُمْ. لَا يَخْرُجُ مِنْ يَهُودٍ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ. عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتُهُمْ، وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتُهُمْ، وَإِنْ بَيْنَهُمُ النَّصْرُ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَأَنْ بَيْنَهُمُ النَّصْحُ وَالنَّصِيحَةُ، وَالْبِرُّ دُونَ الْإِثْمِ. الْمَدِينَةُ حَرَامٌ جَوْفُهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَإِنْ الْجَارُ كَالنَّفْسِ، غَيْرُ مُضَارٍّ، وَلَا أَثِمٍ، وَإِنَّهُ لَا تُجَارُ حُرْمَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا. مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اسْتِجَارٍ يُخَافُ فُسَادَهُ، فَإِنْ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. أَنَّ بَيْنَهُمْ - أَيُّ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ - النَّصْرُ عَلَى مَنْ دَهَمَ الْمَدِينَةَ. مَنْ خَرَجَ آمِنٌ، وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ، وَإِنْ اللَّهُ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ وَاتَّقَى، وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ

قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه

وكان من الناس من يبحث عن الحق والهدى في تلك الفترة، ومنهم سلمان الفارسي حيث قال: كُنْتُ رَجُلًا فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ، مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا: جَيْ، وَكَانَ أَبِي دِهْقَانَ قَرْبَتِهِ^(١)، وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إِيَّايَ حَتَّى حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ، أَلَزِمَ النَّارَ، كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ، وَأَجْهَدْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ، حَتَّى كُنْتُ قَطَنَ النَّارِ الَّذِي يُوقَدُهَا، لَا يَتْرُكُهَا تَخْبُو سَاعَةً، وَكَانَتْ لِأَبِي ضَيْعَةٌ عَظِيمَةٌ، فَشُغِلَ فِي بُيَانٍ لَهُ يَوْمًا، فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ فِي بُيَانٍ هَذَا الْيَوْمَ عَنْ ضَيْعَتِي، فَادْهَبْ فَاطْلَعْهَا، وَأَمَرَنِي فِيهَا بِبَعْضِ مَا يُرِيدُ فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ضَيْعَتَهُ، فَمَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَى، فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا وَهُمْ يُصَلُّونَ - وَكُنْتُ لَا أَذْرِي مَا أَمُرُ النَّاسَ لِحَبْسِ أَبِي إِيَّايَ فِي بَيْتِهِ - فَلَمَّا مَرَرْتُ بِهِمْ وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ، دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُونَ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ، أَعْجَبَنِي صَلَاتُهُمْ وَرَغَبْتُ فِي أَمْرِهِمْ، فَقُلْتُ: هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدِّينِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا تَرَكْتُهُمْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَتَرَكْتُ ضَيْعَةَ أَبِي وَلَمْ أَتَهَا، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَيْنَ أَصْلُ هَذَا الدِّينِ؟، فَقَالُوا: بِالشَّامِ، قَالَ: فَارْجِعْتُ إِلَى أَبِي - وَقَدْ بَعَثَ فِي طَلْبِي، وَشَغَلْتُهُ عَنْ عَمَلِهِ كُلِّهِ - فَلَمَّا جِئْتُهُ قَالَ: أَيُّ بُنَيَّ، أَيْنَ كُنْتَ؟، أَلَمْ أَكُنْ عَهْدْتُ إِلَيْكَ مَا عَهْدْتُ؟، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ، مَرَرْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ فِي كَنِيسَةٍ لَهُمْ، فَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ، فَوَاللَّهِ مَا زِلْتُ عَنْدَهُمْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ: أَيُّ بُنَيَّ، لَيْسَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ، فَقُلْتُ: كَلَّا

(١) رئيس القرية أو رئيس الفلاحين بالقرية.

وَاللَّهُ، إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ دِينِنَا، فَخَافَنِي، فَجَعَلَ فِي رَجُلِي قَيْدًا ثُمَّ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ، وَبَعَثْتُ إِلَى النَّصَارَى فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ مِنْ تَجَارِ النَّصَارَى فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ مِنْ تَجَارِ النَّصَارَى أَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَضَوْا حَوَائِجَهُمْ وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ فَأَذِّنُونِي بِهِمْ، فَلَمَّا أَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ أَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَأَلْقَيْتُ الْحَدِيدَ مِنْ رَجُلِي، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ، فَلَمَّا قَدِمْتُهَا قُلْتُ: مَنْ أَفْضَلُ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ؟، فَقَالُوا: الْأَسْقُفُّ^(١) فِي الْكَنِيسَةِ، فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ رَغَبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ أَخْدُمُكَ فِي كَنِيسَتِكَ، وَاتَّعَلَّمُ مِنْكَ، وَأُصَلِّيَ مَعَكَ، قَالَ: فَادْخُلْ، فَدَخَلْتُ مَعَهُ، فَكَانَ رَجُلٌ سَوْءٍ، يَأْمُرُهُم بِالصَّدَقَةِ وَيُرْغِبُهُمْ فِيهَا، فَإِذَا جَمَعُوا إِلَيْهِ مِنْهَا أَشْيَاءَ، اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِهِ الْمَسَاكِينَ، حَتَّى جَمَعَ سَبْعَ قِلَالٍ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرَقٍ، فَأَبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ، ثُمَّ مَاتَ، فَاجْتَمَعْتُ إِلَيْهِ النَّصَارَى لِيَدْفِنُوهُ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلٌ سَوْءٍ، يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرْغِبُكُمْ فِيهَا فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا، اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا، فَقَالُوا: وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ؟، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَنَا أَذْلكُمْ عَلَى كَنْزِهِ، فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ، فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرَقًا، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا: وَاللَّهِ لَا نَدْفِنُهُ أَبَدًا، فَصَلَبُوهُ، ثُمَّ رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ ثُمَّ جَاءُوا بِرَجُلٍ آخَرَ، فَجَعَلُوهُ بِمَكَانِهِ، قَالَ سَلْمَانُ: فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا يُصَلِّيَ الْخَمْسَ أَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ، وَلَا أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا، وَلَا أَرْغَبُ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا أَذْأَبُ لَيْلًا وَنَهَارًا مِنْهُ، قَالَ: فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ مِنْ قَبْلَهُ، وَأَقَمْتُ مَعَهُ زَمَانًا، ثُمَّ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنِّي كُنْتُ مَعَكَ، وَأَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ مِنْ قَبْلِكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مَا تَرَى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟، وَمَا تَأْمُرُنِي؟، فَقَالَ: أَيُّ بَنِيَّ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا الْيَوْمَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، لَقَدْ هَلَكَ النَّاسُ، وَبَدَّلُوا وَتَرَكُوا أَكْثَرَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، إِلَّا فُلَانًا بِالْمَوْصِلِ، فَهُوَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَالْحَقُّ

(١) الْأَسْقُفُّ: رئيس دين في النصارى، فوق القسيس ودون المطران.

بِهِ، فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ، لَحِقْتُ بِصَاحِبِ الْمَوْصِلِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا أَوْصَانِي
عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ عَلَى أَمْرِهِ، فَقَالَ لِي: أَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ،
فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ، عَلَى أَمْرِ صَاحِبِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ:
يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا أَوْصَى بِي إِلَيْكَ، وَأَمَرَنِي بِاللُّحُوقِ بِكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مِنَ اللَّهِ ﷻ مَا
تَرَى، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟، فَقَالَ: أَيُّ بُنْيٍّ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ رَجُلًا عَلَى مِثْلِ
مَا كُنَّا عَلَيْهِ إِلَّا فُلَانًا بَنَصِيبِينَ، فَالْحَقْ بِهِ، فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ، لَحِقْتُ بِصَاحِبِ نَصِيبِينَ،
فَجِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبْرِي وَمَا أَمَرَنِي بِهِ صَاحِبِي، فَقَالَ لِي: أَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ،
فَوَجَدْتُهُ عَلَى أَمْرِ صَاحِبِيهِ، فَأَقَمْتُ مَعَ خَيْرِ رَجُلٍ، فَوَاللَّهِ مَا لَبِثْتُ أَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ،
فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا كَانَ أَوْصَى بِي إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ
إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟، فَقَالَ: أَيُّ بُنْيٍّ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا بَقِيَ عَلَى
أَمْرِنَا أَمْرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ إِلَّا رَجُلًا بَعْمُورِيَّةَ، فَإِنَّهُ بِمِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَأْتِهِ، فَإِنَّهُ
عَلَى أَمْرِنَا، قَالَ: فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ، لَحِقْتُ بِصَاحِبِ بَعْمُورِيَّةَ، وَأَخْبَرْتُهُ خَبْرِي، فَقَالَ
لِي: أَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ مَعَ رَجُلٍ عَلَى هَدْيِ أَصْحَابِهِ وَأَمْرِهِمْ، وَاکْتَسَبْتُ حَتَّى كَانَ لِي
بَقَرَاتٌ وَغَنِيمَةٌ، ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللَّهِ، فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنِّي كُنْتُ مَعَ فُلَانٍ،
فَأَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ، وَأَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ،
فَأِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟، فَقَالَ: أَيُّ بُنْيٍّ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُهُ أَصْبَحَ عَلَى مَا كُنَّا
عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَمْرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظْلَلَكَ زَمَانُ نَبِيِّ هُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ
إِبْرَاهِيمَ، يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ، مُهَاجِرًا إِلَى أَرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ بَيْنَهُمَا نَخْلٌ، بِهِ عَلَامَاتٌ
لَا تَخْفَى: يَأْكُلُ الْهَدْيَةَ، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ
تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ فَافْعَلْ، قَالَ: فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ، مَكَثْتُ بِبَعْمُورِيَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ
أَمُكْتُ، ثُمَّ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ كَلْبٍ تُجَارًا، فَقُلْتُ لَهُمْ: تَحْمِلُونِي إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ
وَأَعْطِيكُمْ بَقَرَاتِي هَذِهِ وَغَنِيمَتِي هَذِهِ؟، فَقَالُوا: نَعَمْ، فَأَعْطَيْتُهُمْوَهَا وَحَمَلُونِي، حَتَّى

إِذَا قَدِمُوا بِي وَادِي الْقَرْيَ، ظَلَمُونِي، فَبَاعُونِي مِنْ رَجُلٍ مِنْ يَهُودَ عَبْدًا، فَكُنْتُ عِنْدَهُ، وَرَأَيْتُ النَّخْلَ، فَرجَوْتُ أَنْ تَكُونَ الْبَلَدَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي، فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُ، قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمٍّ لَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَابْتَاعَنِي مِنْهُ، فَاحْتَمَلَنِي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا، فَعَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي، فَأَقَمْتُ بِهَا، وَبَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ، لَا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرٍ، مَعَ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرِّقِّ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذْقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ، وَسَيِّدِي جَالِسٌ، إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: يَا فَلَانُ، قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي قَيْلَةَ، وَاللَّهِ إِنَّهُمْ الْآنَ لَمُجْتَمِعُونَ بَقْبَاءَ عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، قَالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُهُ أَخَذَنِي الْعُرْوَاءُ^(١)، حَتَّى ظَنَنْتُ سَأَسْقُطُ عَلَى سَيِّدِي، فَتَزَلْتُ عَنِ النَّخْلَةِ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ لِابْنِ عَمِّهِ: مَاذَا تَقُولُ؟، مَاذَا تَقُولُ؟، فَعَضِبَ سَيِّدِي، فَلَكَمَنِي لَكَمَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ: مَا لَكَ وَلِهَذَا؟، أَقْبَلَ عَلَى عَمَلِكَ، فَقُلْتُ: لَا شَيْءَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أُسْتَشِيتَ عَمَّا قَالَ، فَاسْتَأْذَنْتُ مَوْلَاتِي فَقُلْتُ لَهَا: هَبِي لِي يَوْمًا، فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَانْطَلَقْتُ فَاحْتَطَبْتُ حَطْبًا فَبِعْتُهُ، فَاشْتَرَيْتُ طَعَامًا، فَلَمَّا أُمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ بِقَبَاءَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ، وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لَكَ غُرَبَاءُ ذُووُ حَاجَةٍ، وَهَذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ، فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ، فَفَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «كُلُوا»، وَأَمْسَكَ هُوَ يَدَهُ فَلَمْ يَأْكُلْ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذِهِ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ أَنْصَرَفْتُ عَنْهُ فَجَمَعْتُ شَيْئًا، وَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ جِئْتُ بِهِ فَقُلْتُ: إِنِّي رَأَيْتُكَ لَا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، وَهَذِهِ هَدِيَّةُ أَكْرَمَتِكَ بِهَا، فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا مَعَهُ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَاتَانِ اثْنَتَانِ، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِبَيْتِ الْعَرْفَدِ، وَقَدْ تَبَعَ جَنَازَةً مِنْ أَصْحَابِهِ، عَلَيْهِ شِمْلَتَانِ لَهُ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَدْرْتُ أَنْظُرُ إِلَى ظَهْرِهِ، هَلْ أَرَى الْخَاتَمَ الَّذِي وَصَفَ لِي

(١) أَي: الرُّعْدَةُ.

صَاحِبِي، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَدْرَجَتْهُ؛ عَرَفَ أَنِّي اسْتَبْتُ فِي شَيْءٍ وَصِفَ لِي، فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْخَاتَمِ فَعَرَفْتُهُ، فَاِنْكَبْتُ عَلَيْهِ أُقْبِلُهُ وَأُبْكِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَحَوَّلْ»^(١)، فَتَحَوَّلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ حَدِيثِي، فَأَعْجَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ.



(١) أي: تعال وانتقل لجهة الأمام.

مشروعية الأذان

وفي السنة الأولى من الهجرة شرع الأذان، فقد كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحيّنون الصلاة ليس ينادى لها فتكلموا يوماً في ذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى وقال بعضهم بل بوقاً مثل قرن اليهود. قال عبد الله بن زيد: لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يعمل ليضرب به للناس لجمع الصلاة طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوساً في يده فقلت يا عبد الله أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ فقلت له: بلى. فقال: تقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله. ثم استأخر عني غير بعيد، ثم قال: وتقول إذا أقمت الصلاة: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله. فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت فقال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فآلق عليه ما رأيت، فليؤذن به، فإنه أندى صوتاً منك». فقامت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به. فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج يجر رداءه ويقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ما رأي. فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد». وزيد في صلاة الحضر ركعتان ركعتان، عدا صلاة الفجر لطول القراءة، وصلاة المغرب لأنها وتر النهار. واشترى عثمان رضي الله عنه بئر رومة وجعلها للمسلمين.

السنة الثانية من الهجرة صيام عاشوراء

وكانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه في مكة، فلما هاجر إلى المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فرض شهر رمضان قال: «من شاء صامه، ومن شاء تركه». وكانت اليهود تصومه أيضًا فسأل النبي ﷺ اليهود ليستكشف السبب الحامل لهم على صوم يوم عاشوراء، فقالوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَصَامَهُ مُوسَى. فلما عَلِمَ ذلك قال لهم كلمة حق تقتضي تأنيسهم واستجلابهم، وهي: «نحن أحق وأولى بموسى منكم»^(١).



(١) ثم لما كان قبيل وفاته ﷺ صار يهود خيبر يتخذون يوم عاشوراء عيدًا، ويلبسون نساءهم فيه حُلِيِّهم وشارتهم؛ فقال الصحابة له عليه الصلاة والسلام: إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى. قال: «فصوموه أنتم». قالوا: يا رسول الله إنه يوم تُعظَّمه اليهود والنصارى. فأمر بمخالفتهم بضم يوم آخر إليه وعزم على فعل ذلك، وقال: «فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع» - يعني مع العاشر - . فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ.

إعلان قريش الحرب على المدينة

ثم إنَّ قريشاً في مكة أعلنت الحرب على المسلمين في المدينة ومنعت المهاجرين والأنصار من بيت الله الحرام، وأخذت أموال المهاجرين وبيوتهم، وهددت الأنصار بمقاتلتهم والسير إلى المدينة لقتلهم واستباحة نسائهم إن لم يطردوا المهاجرين من المدينة ويتخلوا عن نصرتهم. وقد تجرأت على المدينة بعض القبائل المجاورة بالإغارة على بعض سروح ومواشي أهل المدينة ونهبها. ونزل الإذن من الله تعالى بالقتال.

فعقد النبي ﷺ ألوية السرايا وبعثها لإعزاز الإسلام وحماية عاصمته ومنع وتعقب المعتدين، وقد يكون في تلك البعوث والسرايا قتال، وقد لا يكون، ومنها ما يكون لرصد أخبار العدو وغيره، ومنها ما يكون لإشغال ومناوشة العدو وإخافته وإرباكه. وقد نكلت بعض تلك السرايا بقوافل تجارة قريش المحاربة والمحرضة على المسلمين والناهبة أموال المهاجرين. وعرفت هذه السرايا المسلمين بالدروب والطرق حول المدينة المنورة، ودرّبت الصحابة على فنون القتال وركوب الخيل والحرب على الإبل، وأشعرت القبائل المحيطة بقوة المسلمين، وأدبت المغيرين على سروح المدينة، ومكنت من عقد بعض المعاهدات مع بعض قبائل المنطقة بحسن الجوار والدفاع المشترك وضمنان حيدتهم في حالة وقوع صدام مسلح بين المدينة وأهل مكة.



بدء الغزوات

وكانت أول آية نزلت في القتال: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلُمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٢٩). وابتدأت الغزوات في السنة الثانية من الهجرة، فأول ما غزا النبي ﷺ الأبواء في شهر صفر، والأبواء بينها وبين الجحفة من جهة المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً. وكان ذلك على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة يعترض عيراً القریش، فودع بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة من كنانة وادعه رئيسهم مجدي بن عمرو الضمري ورجع بغير قتال. وكان قد استعمل على المدينة سعد بن عباد. ولما وصل إلى الأبواء بعث عبيدة بن الحارث في ستين رجلاً فلقوا جمعاً من قریش فقاموا بالنبل فرمى سعد بن أبي وقاص بسهم وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله.

ثم كانت غزوة بواط في ربيع الثاني حيث سار الصحابة مع رسول الله ﷺ في غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدي بن عمرو الجهني. وبواط: جبل من جبال جهينة، بقرب ينبع.

ثم غزا غزوة العشيرة يعترضون عيراً القریش ذاهبة إلى الشام، وكان قد جاءه الخبر بخروجها من مكة فيها أموال قریش، فبلغ ذا العشيرة، فوجد العير قد مضت قبل ذلك بأيام. (١) فنزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة، وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع إلى المدينة

(١) وهذه العير هي التي خرج لها رسول الله ﷺ أيضاً يريدُها حين رجعت من الشام، فكان بسببها حدثت غزوة بدر الكبرى.

ولم يلق كيداً. وأرسل سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه إلى نخلة يترصد أخبار قريش، فمرت به غير فيها تجارة لقريش، فأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فكان في هذه السرية أول خمس في الإسلام، وأول قتل من الكفار في الإسلام، وأول أسيرين في الإسلام.



تحويل القبلة إلى الكعبة

ثم كان تحويل القبلة في النصف من رجب أو في شعبان، فإنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر، أو سبعة عشر شهراً، وكان يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ فوجه نحو الكعبة. وصلى معه رجل العصر ثم خرج فمر على قوم من الأنصار فقال هو يشهد أنه صلى مع النبي ﷺ وأنه قد وجه إلى الكعبة. فأنحرفوا وهم ركوع في صلاة العصر. وقال عليه الصلاة والسلام عن أهل الكتاب: «إنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وصلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وصلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين».



فرض الصيام وزكاة الفطر

ويذكر أنه فرض في شهر شعبان صيام رمضان، وفي رمضان فرضت زكاة الفطر. فهي واجبة على كل مسلم حُر أو عبد، ذكر أو أنثى، صغير أو كبير من المسلمين قادر عليها. والحكمة منها تطهير الصائم مما عسى أن يكون قد وقع فيه أثناء الصيام من لغو أو رفث، وإعانة للفقراء على إدخال السرور عليهم في يوم العيد.



غزوة بدر الكبرى

ووقعت في رمضان منها غزوة بدر (الكبرى) حيث ندب رسول الله ﷺ نفرًا من المسلمين لاعتراض قافلة قريش القادمة من الشام التي كان يرأسها أبو سفيان الذي علم بعد ذلك بخروج المسلمين، فأرسل إلى قريش يستنفرها لاستنقاذ تجارتهم كما غير طريقه لإنقاذ التجارة، ثم التقى المسلمون والمشركون عند ماء بدر وهي مكان بين مكة والمدينة وهو أقرب إليها من مكة وكان عدد المشركين يقارب الألف وعدد المسلمين أكثر من ثلاثمائة وبدأت المعركة بالمبارزة المشهورة ثم بدأ القتال وكان شديدًا. وقتل فيها صناديد قريش كأبي جهل، وأمية بن خلف وغيرهما حتى بلغ قتلهم سبعون رجلاً ومثلهم من الأسرى وقتل أربعة عشر من المسلمين، وقيل ستة عشر. فكان النصر الكبير لحليف المسلمين. حيث نصرهم الله تعالى وأرسل ملائكة تقاتل معهم، أما الأسرى فأشار عمر بقتلهم وأشار أبو بكر بفدائهم فأخذ النبي ﷺ برأي أبي بكر ولكن الوحي نزل موافقًا لرأي عمر، أما الغنائم فنزلت فيها سورة الأنفال.



وفاة رقية بنت محمد ﷺ

وفيه توفيت رقية بنت سيد البشر ﷺ، وهي زوج عثمان بن عفان. وكانت رقية أولاً عند عتبة بن أبي لهب فلما بعث النبي ﷺ أمر أبو لهب ابنه بطلاقها فتزوجها عثمان وهاجر بها إلى الحبشة. ولما ندب رسول الله الناس للخروج لاعتراض قافلة أبي سفيان أمر عثماناً أن يبقى عند رقية يمرضها ويعتني بها وكان سبب تخلفه هو أمر النبي ﷺ له بالبقاء وقد أسهم له النبي ﷺ كما أسهم لمن حضر بدرًا ثم ما لبثت رقية في مرضها حتى توفيت ﷺ. وتزوج علي بن أبي طالب ﷺ، فاطمة ﷺ، بعد غزوة بدر الكبرى.



إجلاء يهود بني قينقاع

ثم وقعت غزوة بني قينقاع في منتصف شوال، وكانوا حلفاء عبد الله بن أبي ابن سلول وكانوا أشجع اليهود وكانوا صاغة، فلما أظهروا صريح العداء والبغضاء وخالفوا عهد الصحيفة، وخاف النبي ﷺ خيانتهم، استخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، وعقد لواء أبيضاً حملة حمزة بن عبد المطلب، وحاصرهم خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة، فاشتد عليهم الحصار ونزلوا على حكم الرسول ﷺ، فأمر بهم فكتفوا، وأراد قتلهم، ثم كلمه فيهم حليفهم عبد الله بن أبي بن سلول، فوهبهم له، وأمر بهم أن يجلوا عن المدينة بلا سلاح، على أن لهم من المال ما تحمله دوابهم، وأن لهم النساء والذرية، فخرّبوا بيوتهم وحملوا ما استطاعوا من أبوابها وخشبها، وتولى أمر جلائهم عبادة بن الصامت، فلحقوا بأذرعَات^(١)، وتولى قبض أموالهم محمد بن مسلمة الأنصاري حيث تم تقسيمها بين الصحابة بعد إخراج الخمس للرسول ﷺ.



(١) «أذرعَات»: بالفتح، ثم بالسكون، وكسر الراء، وعين مهملة، وألف وتاء. كأنه جمع أذرعة، جمع ذراع جمع قلّة، وهو بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمّان، ينسب إليه الخمر. وهي الآن في (سوريا) على حدود الأردن الشمالية.

غزوة السوق

وفي ذي الحجة وقعت غزوة السوق (قرقرة الكدر) وكان أبو سفيان حين رجع إلى مكة، ورجع فل قريش من بدر؛ نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة، حتى يغزو محمداً، فخرج في مائتي راكب من قريش لتبر يمينه فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له: نيب، من المدينة على بريد أو نحوه. ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل، فأتى حيي بن أخطب فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له وخافه، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه وبطن له من خبر الناس، ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً من قريش فأتوا ناحية منها يقال لها العريض، فحرقوا في أصوار من نخل بها، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما، وانصرفوا راجعين. فنذر بهم الناس، فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم. فبلغ قرقرة الكدر، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، ووجد أصحاب رسول الله ﷺ أزواداً كثيرة قد ألقاها المشركون يتخفون منها وعامتها سوق، فسميت غزوة السوق.



السنة الثالثة من الهجرة مقتل كعب بن الأشرف

وفي ربيع الأول من السنة الثالثة من الهجرة كان مقتل كعب بن الأشرف، حيث نقض عهد صحيفة المدينة والتي نصت على: ألا تُجار قريش ولا تُنصر على المسلمين. فساند قريشاً في حربها على المسلمين وحرّضها على قتال المسلمين، وأفتاها أنها أهدى سبيلاً من رسول الله ﷺ، وأنشد الأشعار في هجاء الصحابة وتحدث بالفاحشة في أشعاره عن نساء الصحابة. فنقض الميثاق وأعلن حربه على المسلمين، وكان من أشدّ اليهود عداوةً للرسول وأصحابه، وكان أبوه عربياً من قبيلة طيء، من بني نبهان، وكان أصاب دماً في الجاهلية، فأتى المدينة فحالف بني النضير، فشرّف فيهم، وتزوج عقيقة بنت أبي الحقيق، فولدت له كعباً، وكان طويلاً جسيماً، وكان شاعراً مجيداً، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله، فكان يعطي أخبار يهود ويصلّهم، وكان حصنه شرقي جنوب المدينة في خليات ديار بني النضير.

وكان من عداوته أنه لما بلغه خبر انتصار المسلمين، وقتل صناديد قريش في بدر، قال: أحقّ هذا؟ هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير لي من ظهرها.

فلما تأكد لديه الخبر، انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين، ويمدح عدوهم، ويحرّض عليهم، ولم يرّض بهذا القدر حتّى ركب إلى قريش، فبكى قتلاهم في بدر، وحرّضهم على قتال المسلمين، فنزل بمكة على المطلب بن أبي وداعة السهمي، فأنزله وأكرمه، وجعل ينشد الأشعار، ويحرّض على رسول الله ﷺ والمسلمين.

وَلَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ أَتَوْهُ، فَقَالُوا: نَحْنُ أَهْلُ السَّقَايَةِ ^(١) وَالسَّدَانَةِ ^(٢)، وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ يَثْرِبَ، فَنَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هَذَا الصُّنَيِيرُ ^(٣) الْمُنْبِتَرُ ^(٤) مِنْ قَوْمِهِ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا؟

فَقَالَ: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ، فَنَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ^(٥)، وَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبَتِ وَالْطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ ^(٦).

ثُمَّ رَجَعَ كَعْبٌ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، وَأَخَذَ يُشَبِّبُ ^(٧) فِي أَشْعَارِهِ بِنِسَاءِ الصَّحَابَةِ، وَيُؤْذِيهِمْ بِسُلَاطَةِ لِسَانِهِ أَشَدَّ الْإِيذَاءِ.

فَحِينَئِذٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ؟» ^(٨) فَإِنَّهُ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَانْتَدَبَ لَهُ: مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَعَبَادُ بْنُ يَشْرٍ، وَأَبُو نَائِلَةَ سَلْكَانُ بْنُ سَلَامَةَ، وَهُوَ أَخُو كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ مِنَ الرِّضَاعَةِ، وَالْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ، وَأَبُو عَبْسٍ بْنُ جَبْرِ، وَكَانَ قَائِدَ

(١) السَّقَايَةُ: هِيَ مَا كَانَتْ قَرِيشُ تَسْقِيهِ الْحُجَّاجَ مِنَ الرَّيِّبِ الْمَنْبُودِ فِي الْمَاءِ.

(٢) سَدَانَةُ الْكَعْبَةِ: هِيَ خِدْمَتُهَا وَتَوَلَّى أَمْرَهَا.

(٣) الصُّنَيِيرُ: تَصْغِيرُ الصُّنْبُورِ، وَهُوَ الْأَبْتَرُ، لَا عَقِبَ لَهُ، وَأَصْلُ الصُّنْبُورِ: سَعْفَةٌ تَنْبُتُ فِي جَذَعِ النَّخْلَةِ لَا فِي الْأَرْضِ، وَقِيلَ: هِيَ النَّخْلَةُ الْمَنْفُودَةُ الَّتِي يَدُقُّ أَسْفَلُهَا، أَرَادَ أَنَّهُ إِذَا قُلِعَ انْقَطَعَ ذَكَرُهُ، كَمَا يَذْهَبُ أَثَرُ الصُّنْبُورِ؛ لِأَنَّهُ لَا عَقِبَ لَهُ.

(٤) الْمُنْبِتَرُ: الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ، أَرَادُوا أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَعِشُ لَهُ وَلَدٌ.

(٥) فَتَوَهَّمُوا - أَيِ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ - لَجَهْلِهِمْ أَنَّهُ ﷺ إِذَا مَاتَ بَنُوهُ يَنْقَطِعُ ذِكْرُهُ، وَحَاشَا وَكَلَّا، بَلْ قَدْ أَبْقَى اللَّهُ ذِكْرَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَأَوْجِبَ شَرْعُهُ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ، مُسْتَمِرًّا عَلَى دَوَامِ الْأَبَادِ، إِلَى يَوْمِ الْحَشْرِ وَالْمَعَادِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ.

(٦) قَالَ عُمَرُ: «الْجِبَتِ السَّحَرِ، وَالطَّاغُوتِ الشَّيْطَانِ». وَقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاعِيتُ كَهَانَ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٍ». وَالطَّاغُوتُ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْجِنِّ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ.

(٧) شَبَّبَ بِالْمَرَأَةِ: قَالَ فِيهَا الْغَزَلَ.

(٨) أَيِ؛ مَنْ الَّذِي يَنْتَدِبُ إِلَى قَتْلِهِ.

هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ».

فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَأَذِّنْ لِي أَنْ أَقُولَ ^(١) شَيْئًا، قَالَ: «قُلْ». فَذَهَبَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ - أَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ سَأَلَنَا صَدَقَةً، وَإِنَّهُ قَدْ عَنَّا ^(٢) وَإِنِّي قَدْ أَتَيْتُكَ أَسْتَسْلِفُكَ، قَالَ: وَأَيْضًا وَاللَّهِ لَتَمْلَنَّهُ ^(٣).
فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: إِنَّا قَدْ اتَّبَعْنَاهُ، فَلَا نُحِبُّ أَنْ نَدْعَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَصِيرُ شَأْنُهُ، وَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ تُسَلِفَنَا وَسَقَا أَوْ وَسَقَيْنَ ^(٤).

قَالَ كَعْبٌ: نَعَمْ أَرَهْنُونِي ^(٥).

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: أَيُّ شَيْءٍ تُرِيدُ؟

قَالَ كَعْبٌ: أَرَهْنُونِي نِسَاءً كُمْ؟

فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: كَيْفَ نَرْهَنُكَ نِسَاءَنَا وَأَنْتَ أَجْمَلُ الْعَرَبِ؟

قَالَ كَعْبٌ: فَأَرَهْنُونِي أَبْنَاءَ كُمْ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: كَيْفَ نَرْهَنُكَ أَبْنَاءَنَا، فَيَسْبُ أَحَدُهُمْ؟ فَيَقَالُ: رَهْنٌ بِوَسْقٍ أَوْ وَسْقَيْنِ هَذَا عَارٌّ عَلَيْنَا، وَلَكِنَّا نَرْهَنُكَ اللَّأَمَةَ، يَعْنِي السَّلَاحَ.

فَوَاعَدَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ أَنْ يَأْتِيَهُ بِالسَّلَاحِ.

وَصَنَعَ أَبُو نَائِلَةَ مِثْلَ مَا صَنَعَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، فَقَدْ جَاءَ كَعْبًا فَتَنَاشَدَ مَعَهُ أَطْرَافَ

(١) كأنه استأذنه أن يفتعل شيئاً يَحْتَالُ به، ومن ثمَّ بوب عليه البخاري في صحيحه: باب الكذب في الحرب، كأنهم استأذنوا أن يشكوا منه ويعيَّبوا رأيه.

(٢) عَنَّا: بتشديد النون الأولى: من العَنَاءِ وهو التَّعَبُ. يعنينا: أتعبنا.

(٣) أي: يتضجَّرون منه أكثر من هذا الضَّجَرِ.

(٤) الوَسْقُ: بفتح الواو وسكون السين: سِتُون صَاعًا.

(٥) أَرَهْنُونِي: أي ادفعوا لي شيئاً يكون رَهْنًا على التَّمَرِ الذي تريدونه.

الْأَشْعَارِ سُويَعَةً، ثُمَّ قَالَ لَهُ: وَيَحَكَ يَا ابْنَ الْأَشْرَفِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكَ لِحَاجَةٍ أُرِيدُ ذِكْرَهَا لَكَ، فَاتُّمَّ عَنِّي. قَالَ كَعْبٌ: أَفْعَلُ.

قَالَ أَبُو نَائِلَةَ: كَانَ قَدْوُمُ هَذَا الرَّجُلِ - أَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِلَاءً، عَادَتَنَا الْعَرَبُ، وَرَمَتْنَا عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَقَطَعَتْ عَنَّا السَّبِيلَ، حَتَّى ضَاعَ الْعِيَالُ، وَجَهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَأَصْبَحْنَا قَدْ جَهِدْنَا وَجَهِدَ عِيَالُنَا.

ثُمَّ قَالَ أَبُو نَائِلَةَ: إِنَّ مَعِيَ أَصْحَابًا لِي عَلَى مِثْلِ رَأْيِي، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَتِيكَ بِهِمْ، فَتَبِيعَهُمْ وَتُحْسِنَ فِي ذَلِكَ.

وَهَكَذَا نَجَحَ مُحَمَّدٌ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَأَبُو نَائِلَةَ فِي هَذَا الْحِوَارِ إِلَى مَا قَصَدَا، فَإِنَّ كَعْبًا لَنْ يُنْكَرَ مَعَهُمَا السَّلَاحَ، وَالْأَصْحَابَ بَعْدَ هَذَا الْحِوَارِ.

وَفِي لَيْلَةٍ مُقَمَّرَةٍ - لَيْلَةِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ لِلْهِجْرَةِ - اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَشَى مَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَقِيعِ الْعَرْقَدِ، ثُمَّ وَجَّهَهُمْ قَائِلًا: «انْطَلِقُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ أَعْنِهِمْ».

ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَيْتِهِ، وَطَفِقَ يُصَلِّي، وَيَدْعُو رَبَّهُ.

وَأَقْبَلُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى حِصْنِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، فَهَتَفَ بِهِ أَبُو نَائِلَةَ، فَقَامَ لِيَنْزِلَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ - وَكَانَ حَدِيثَ عَهْدٍ بِعُزْسٍ - أَيْنَ تَخْرُجُ هَذِهِ السَّاعَةَ؟

فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ أَخِي مُحَمَّدٌ بْنُ مَسْلَمَةَ وَرَضِيعِي أَبُو نَائِلَةَ، قَالَتْ: أَسْمَعُ صَوْتًا كَأَنَّهُ يَقَطُرُ مِنْهُ الدَّمُ.

قَالَ: إِنَّمَا هُوَ أَخِي مُحَمَّدٌ بْنُ مَسْلَمَةَ وَرَضِيعِي أَبُو نَائِلَةَ، إِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ دُعِيَ إِلَى طَعْنَةٍ بَلِيلٍ لَأَجَابَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ مُتَطَيِّبٌ يَنْفُحُ رَأْسَهُ.

وَكَانَ أَبُو نَائِلَةَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِذَا مَا جَاءَنِي فَإِنِّي أَخْذُ بِشَعْرِهِ فَأَشْمُهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمُونِي اسْتَمَكَنْتُ مِنْ رَأْسِهِ، فَدُونَكُمْ فَاضْرِبُوهُ.

فَلَمَّا نَزَلَ كَعْبٌ إِلَيْهِمْ تَحَدَّثَ مَعَهُمْ سَاعَةً، وَتَحَدَّثُوا مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ أَبُو نَائِلَةَ: هَلْ لَكَ يَا ابْنَ الْأَشْرَفِ أَنْ نَتَمَاشَى إِلَى شُعْبِ الْعُجُوزِ، فَتَتَحَدَّثَ بَقِيَّةَ لَيْلَتِنَا؟

قَالَ: إِنْ شِئْتُمْ، فَخَرَجُوا يَتَمَاشُونَ، فَقَالَ أَبُو نَائِلَةَ وَهُوَ فِي الطَّرِيقِ: مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ طَبِيبًا أَعْطَرَ قَطُّ.

فَقَالَ كَعْبٌ: عِنْدِي أَعْطَرُ نِسَاءِ الْعَرَبِ، فَقَالَ أَبُو نَائِلَةَ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَشُمَّ رَأْسَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي رَأْسِهِ فَشَمَّهُ.

ثُمَّ مَشَى سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ أَبُو نَائِلَةَ: أَعُودُ - أَيُّ لِسَمِّ رَأْسِهِ - قَالَ كَعْبٌ: نَعَمْ، فَعَادَ لِمِثْلِهَا حَتَّى اطْمَأَنَّ: ثُمَّ مَشَى سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ أَبُو نَائِلَةَ: أَعُودُ - أَيُّ لِسَمِّ رَأْسِهِ - قَالَ كَعْبٌ: نَعَمْ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي رَأْسِهِ، فَلَمَّا اسْتَمَكَّنَ مِنْهُ، قَالَ أَبُو نَائِلَةَ لِأَصْحَابِهِ: دُونَكُمْ عَدُوَّ اللَّهِ، فَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَسْيَافُهُمْ، لَكِنَّهَا لَمْ تُغْنِ شَيْئًا، فَأَخَذَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مِعْوَلًا، فَوَضَعَهُ فِي ثَنَّتِهِ^(١)، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ حَتَّى بَلَغَ عَاتَتَهُ، فَوَقَعَ عَدُوُّ اللَّهِ قَتِيلًا، وَكَانَ قَدْ صَاحَ صَيْحَةً شَدِيدَةً أَفْزَعَتْ مَنْ حَوْلَهُ، فَلَمْ يَبْقَ حِصْنٌ إِلَّا أُوقِدَتْ عَلَيْهِ النَّيرانُ.

وَرَجَعَتْ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ، وَقَدْ أُصِيبَ الْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ بِذُبَابٍ^(٢) بَعْضِ سُيُوفِ أَصْحَابِهِ، فَجُرِحَ وَنَزَفَ الدَّمَ، فَلَمَّا بَلَغَتْ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ حَرَّةَ الْعَرِيضِ، رَأَتْ أَنَّ الْحَارِثَ لَيْسَ مَعَهُمْ، فَوَقَفُوا سَاعَةً حَتَّى أَتَاهُمْ يَتَبَعُ آثَارَهُمْ، فَاحْتَمَلُوهُ، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بَقِيعَ الْغَرَقِدِ كَبَرُوا، فَسَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَكْبِيرَهُمْ، فَعَرَفَ أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوهُ، فَكَبَّرَ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَلِكَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ ﷺ: «أَفْلَحَتِ الْوُجُوهُ»، قَالُوا: وَوَجْهُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَحَمِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى قَتْلِهِ، وَنَفَلَ عَلَى جُرْحِ الْحَارِثِ فَبَرَّئَ.

(١) الثَّنَةُ: بضم الثاء وتشديد النون: ما بين السرة والعانة من أسفل البطن.

(٢) ذُبَابُ السيف: طرفه الذي يضرب به.

وفي جمادى الأولى كانت سرية زيد بن حارثة، حيث كان مشركو مكة بعد هزيمتهم في غزوة بدر، يبحثون عن طريق أخرى لتجاريتهم للشام، فأشار بعضهم إلى طريق نجد العراق، وقد سلكوها بالفعل، وخرج منهم تجّار، فيهم أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبدالعزى، ومعهم فضة وبضائع كثيرة، بما قيمته مائة ألف درهم؛ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ بواسطة سليط بن النعمان رضي الله عنه، فبعث زيد بن حارثة في مائة راكب لاعتراض القافلة، فلقيها زيد عند ماء يقال له: القرّة، وهو ماء من مياه نجد، ففرّ رجالها مذعورين، وأصاب المسلمون العير وما عليها، وأسروا دليلها فُرات بن حيّان الذي أسلم بين يدي النبي ﷺ، وعادوا إلى المدينة، فخمّسها رسول الله ﷺ ووزع الباقي بين أفراد السرية.



غزوة أحد

وكانت غزوة أحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة، وكان سببها أن المشركين حين قُتل من قتل من أشرافهم يوم بدر، وسَلَمَت العيرُ بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سُفيان، فلما رجع قفلُهم إلى مكة قال أبناء من قُتل، ورؤساء من بقي لأبي سفيان: «ارصد هذه الأموال لقتال محمد»، فأنفقوها في ذلك، وجمعوا الجموع والأحاييش وأقبلوا في قريب من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريباً من أحدٍ تَلَقَاء المدينة، فصلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة، فلما فرغ منها صلى على رجل من بني النجار، يقال له: مالك بن عَمْرٍو، واستشار الناس: أخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبد الله ابن أبيّ بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بِشَرِّ مَحْبَس وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لأمتَه وخرج عليهم، فسار في ألف من أصحابه، فلما كان بالشُّوط رجع عبد الله بن أبيّ في ثلث الجيش مُغْضَبًا؛ لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالًا لا تبعناكم، ولكننا لا نراكم تقاتلون اليوم. واستمر رسول الله ﷺ سائرًا حتى نزل الشَّعْب من أُحُد في عَدْوَةِ الوادي. وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وتهياً رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه، والرماة يومئذ خمسون رجلاً، فجعلهم على جبل عيين عَن يَسَارِهِ، وأمرهم ألا يغادروا أماكنهم مهما يكن، وأمر عليهم عبد الله بن جُبَيْر أَخا بني عَمْرٍو بن عوف، وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين^(١)، وأعطى

(١) ظاهر: لبسهما فوق بعضهما. لبس درعاً فوق درع.

اللواء مُصْعَب بن عُمَيْر أَخا بني عبد الدار. وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ وأرجأ آخرين، حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين. وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فرس قد جَنَبوها فجعلوا على مَيْمَنَةِ الخيل خالد ابن الوليد، وعلى الميسرة عِكْرِمَةُ بن أَبِي جَهْل، ودفعوا إلى بني عبد الدار اللواء. ثم كان بين الفريقين ما كان، وكانت بوادٍ النصر تلوح لصالح المسلمين فلما رأى المسلمون تقهقر المشركين؛ أهمل الرماة وصية نبيهم لهم ونزلوا يحصدون الغنائم؛ فانتهز خالد بن الوليد الفرصة فالتف خلفهم وأعمل الحرب فيهم، مما أدى لقلب الموازين، وانجلت المعركة عن استشهاد سبعين رجلاً من المسلمين منهم سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، ومُصْعَب بن عُمَيْر، وحنظلة بن أبي عامر ؓ، فكان يوم أحد يوم ابتلاء وتمحيص للمؤمنين في طاعتهم لله ورسوله، وبيان أثر معصية أمر الله ورسوله، وفضح للمنافقين.



غزوة حمراء الأسد

وكانت بعدها مباشرة غزوة حمراء الأسد، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين يوم أحد؛ كَرُّوا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم تَنَدَّمُوا أنهم لم يغيروا على المدينة ويجعلوها الفيصلة. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم؛ لِيُرْعِبَهُمْ وَيُرِيَهُمْ هم وأعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والأعراب حول المدينة أن بالمسلمين قُوَّةً وَجَلَدًا، ولم يأذن لأحد سوى من حضر وقعة أُحُد، سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ. ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ هذا كان يوم حمراء الأسد وهو موضع على ثمانية أميال من المدينة باتجاه مكة، فرجع المشركون إلى مكة قبل وصول جيش المسلمين.



السنة الرابعة من الهجرة يوم الرجيع واستشهاد خبيب

وفي صفر من السنة الرابعة وقع يوم الرجيع، حيث بعث رسول الله ﷺ عشرة رهطٍ سريةً عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري - جد عاصم بن عمر - فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة وهو بين عسفان ومكة؛ ذكروا الحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فنفروا لهم قريبا من مئتي رجل كلهم رام، فافتصوا آثارهم حتى وجدوا ماكلهم تمرًا تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فافتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدfid^(١) وأحاط بهم القوم فقالوا لهم: انزلوا وأعطونا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق، ولا نقتل منكم أحدا. قال عاصم بن ثابت أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك. فرمواهم بالنبل، فقتلوا عاصمًا في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهطٍ بالعهد والميثاق، منهم خبيب الأنصاري، وابن دثنة، ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم؛ أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم، إن في هؤلاء لأسوة - يريد القتلى - . فجرروهم وعالجوه على أن يصحبهم، فأبى؛ فقتلوه. فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خبيب بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيرًا. وقالت بنت الحارث: أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستجد بها فأعارتها، قالت: فأخذ ابنا لي وأنا غافلة حين آتاه، فوجدته مجلسه على

(١) هو الموضع المرتفع من الأرض.

فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ، فَفَزِعَتْ فَرْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: تَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ، مَا كُنْتُ لَأَفْعَلَ ذَلِكَ. وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ فِي يَدِهِ، وَإِنَّهُ لَمَوْثُقٌ فِي الْحَدِيدِ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرٍ، إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِنَ اللَّهِ رَزَقَهُ خُبَيْبًا. فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ؛ قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ: ذَرُونِي أَرْكَعَ رَكَعَتَيْنِ، فَتَرَكُوهُ فَرَكَعَ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: لَوْلَا أَنْ تَظُنُّوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ؛ لَطَوَّلْتُهَا، اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَقَالَ:

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ شَقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوِ مُمَزَّعٍ

فَقَتَلَهُ ابْنُ الْحَارِثِ، فَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَ الرِّكَعَتَيْنِ لِكُلِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا. وَاسْتَجَابَ اللَّهُ لِعَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ يَوْمَ أُصِيبَ، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ خَبْرَهُمْ وَمَا أُصِيبُوا، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمٍ حِينَ حَدَّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ؛ لِيُؤْتُوا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرِفُ، وَكَانَ قَدْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ عِظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَبُعِثَ عَلَى عَاصِمٍ مِثْلُ الظِّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ^(١) فَحَمَتُهُ مِنْ رَسُولِهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يُقْطَعَ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ.



(١) أي: مثل السحابة من الدبابير.

حادثة بئر معونة

وفي صفر أيضاً وقعت حادثة بئر معونة، وفيها جاء ناسٌ إلى النبي ﷺ فقالوا: أُنِ ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ - فِيهِمْ حَرَامُ بْنُ مِلْحَانَ - يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِئُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ وَيَحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لِأَهْلِ الصُّفَّةِ وَلِلْفُقَرَاءِ فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فَعَرَضُوا لَهُمْ فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ. فَقَالُوا: «اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا»، وَآتَى رَجُلٌ حَرَامًا خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلْفِهِ فَطَعَنَهُ بِرُمَحٍ حَتَّى أَنْفَذَهُ. فَقَالَ حَرَامٌ: فُزْتُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا وَإِنَّهُمْ قَالُوا اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا». وفي رواية: أَنَّ رِعْلًا وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لَحْيَانَ اسْتَمَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى عَدُوٍّ فَأَمَدَّهُمْ بِسَبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ كُنَّا نُسَمِّيهِمُ الْقُرَّاءَ فِي زَمَانِهِمْ كَانُوا يَحْتَطِبُونَ بِالنَّهَارِ وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْرِ مَعُونَةٍ قَتَلُوهُمْ وَعَدَرُوا بِهِمْ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو فِي الصُّبْحِ عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لَحْيَانَ، وَأَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِمْ آيَاتٌ ثُمَّ رَفَعَتْ: (بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِي عَنَّا وَأَرْضَانَا).



إجلاء يهود بني النضير

ثم كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول، وكان من أسبابها أن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أبي وغيره ممن يعبد الأوثان قبل بدر يهددونهم بإيوائهم النبي ﷺ وأصحابه ويتوعدونهم أن يغزوهم بجميع العرب، فهم ابن أبي ومن معه بقتال المسلمين، فأتاهم النبي ﷺ فقال: «ما كادكم أحد بمثل ما كادتكم قريش، يريدون أن تلقوا بأسكم بينكم» فلما سمعوا ذلك عرفوا الحق فتفرقوا، فلما كانت وقعة بدر كتب كفار قريش بعدها إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، يتهددونهم، فأجمع بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: أخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك، ففعل، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار مسلم تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع، وصبحهم بالكتائب فحصرهم يومه، ثم عدا على بني قريظة فحاصرهم فعاهدوه، فانصرف عنهم إلى بني النضير، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا السلاح، فاحتملوا حتى أبواب بيوتهم، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم فيهدمونها، ويحملون ما يوافقهم من خشبها. وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام. وروي في سببها أنه لما قُتل أصحاب بئر معونة، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري، فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ. فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك الرجلين، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد

لهما. وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها. فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - فمَن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش ابن كعب أحدُهم، فقال: أنا لذلك، فصعدَ ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، رضي الله عنهم. فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقامَ مُظْهِراً أَنَّهُ يَقْضِي حَاجَةً وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ لَا تَبْرَحُوا وَرَجَعَ مُسْرِعاً إِلَى الْمَدِينَةِ، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسأله عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسولُ الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم. ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسولُ الله ﷺ بقطع النخل والتَّحْرِيق فيها. فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعييه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟ وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج، منهم عبد الله ابن أبي بن سلول، ووديعه، ومالك بن أبي قوقل، وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتَمَنَّعُوا فَإِنَّا لَن نَسْلَمْكُمْ، إِن قُوتِلْتُمْ قَاتِلْنَا مَعَكُمْ، وَإِن أَخْرَجْتُمْ خَرَجْنَا مَعَكُمْ فترَبَّصُوا ذَلِكَ مِنْ نَصْرِهِمْ، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم، فأجلاهم، وفيهم نزلت سورة الحشر.



السنة الخامسة من الهجرة غزوة دومة الجندل

ووقعت غزوة دومة الجندل في ربيع الأول سنة خمس من الهجرة، لخمس ليال بقين من ربيع الأول. ودومة الجندل: تقع شمالي نجد وهي طرف من أفواه الشام بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة. وأراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى أداني الشام، وقيل له أن ذلك مما يفرع قيصر، وذكر له أن بدومة الجندل جمعًا كبيرًا وأنهم يظلمون من مر بهم، وكان لها سوق عظيم وهم يريدون أن يدنوا من المدينة، فندب رسول الله ﷺ الناس فخرج في ألف من المسلمين، فكان يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل له من بني عذرة، يقال له: مذكور، هاد خريت. فلما دنا من دومة الجندل، أخبره دليله بسوائم بني تميم، فسار حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم فأصاب من أصاب وهرب من هرب في كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا، فنزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد فيها أحدًا، فأقام بها أيامًا، وبث السرايا ثم رجعوا وأخذ محمد بن سلمة رجالًا منهم فأتى به رسول الله ﷺ، فسأله عن أصحابه فقال: هربوا أمس، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فأسلم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة.



غزوة المريسيع (بني المصطلق)

ثم في شعبان من السنة الخامسة الهجرية وقعت غزوة المريسيع (بني المصطلق) من ناحية قديد، وفيها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُونَ وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَهُمْ وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُويريةَ. وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث زوج رسول الله ﷺ فلما سمع رسول الله ﷺ بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع من ناحية قديد الى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق وقتل من قتل منهم ونفل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه. وقد كان من بين السبي جويرية بنت الحارث سيد القوم فأسلمت وتزوجها النبي ﷺ. وأُعتِقَ بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فكانت من أعظم الناس بركة على قومها.



حادثة الإفك

وفيها وقعت حادثة الإفك، وذلك أنه لما خرج النبي ﷺ إلى بني المصطلق لغزوهم أقرع بين نسائه من يخرج معه فكانت القرعة على عائشة الطاهرة ﷺ وأرضاهما وفي طريق العودة كانت تحمل على هودج، فقدر الله في ذلك اليوم أن تكون خارج هودجها لتبحث عن عقد سقط منها فلما أرادوا الرحيل لم يشعروا بعدم وجودها ورحلوا؛ فقد كانت صغيرة خفيفة الوزن، فلما رجعت لم ترهم. قالت عائشة ﷺ: «فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَقْدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السَّلْمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ قَدْ عَرَسَ^(١) مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَادْلَجَ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَيْتِي وَقَدْ كَانَ يَرَانِي قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ عَلَيَّ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي فَخَمَزْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي وَوَاللَّهِ مَا يُكَلِّمُنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ حَتَّى أَنَاخَ رَا حِلَّتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَرَكِبْتُهَا فَأَنْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُوْغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ». فاتهموها مع صفوان وبدأ هذا الإفك المبين ينتشر في المدينة وبقيت عائشة شهراً لا تعلم شيئاً عن ذلك، حتى علمت بذلك صراحة من أم مسطح، وكل ذلك ولم تتبين الحقيقة. ثم نزلت آيات تتلى إلى يوم القيامة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ آيات تبرئ الطاهرة المطهرة مما افتراه المفترون.

(١) التعريس: نزول المسافرين آخر الليل نزلة للنوم والاستراحة.

غزوة الخندق (الأحزاب)

ثم في شوال وقعت غزوة الخندق (الأحزاب)، وسبب هذه الغزوة هو إجلاء يهود بني النضير من المدينة حيث أن الحسد والحقد قد تمكنا من قلوبهم مما جعلهم يضمرون العداة ويتحينون الفرص للتشفي ممن طردهم من المدينة وما حولها. ولما لم يستطع يهود خيبر وخاصة بني النضير مجابهة المسلمين لجأوا إلى أسلوب المكر والتحريش. فالذين حزبوا الأحزاب نفر من اليهود، وكان منهم سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن أبي الحقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير، فلما قدموا على قريش، دعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه، قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه!!! وكانت في سنة خمس، فقام النبي ﷺ وأصحابه ﷺ بحفر خندق في المنطقة المكشوفة أمام الغزاة، واستغرق حفر الخندق قريباً من عشرين ليلة، وخرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلم رأى ما بهم من النصب والجوع قال: اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة. فقالوا مبيجين له: نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً. وكان رسول الله ﷺ ينقل من تراب الخندق ويرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول: اللهم لو لا أنت ما اهتدينا، ولا تصدقنا، ولا صلينا، فأنزلن سكينتنا علينا وثبت الأقدام إن لاقينا، إن الألى قد بعوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا. قال:

ثُمَّ يَمُدُّ صَوْتَهُ بِأَخْرِهَا. وفيها نزلت: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ رَأَيْتِ الْأَبْصُرُ﴾ فَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ. ووصلت الأحزاب المدينة ففوجئوا بوجود الخندق، فقاموا بعدة محاولات لاقتحامه، ولكنهم فشلوا. واستمر الحصار أربعاً وعشرين ليلة. وثقل الأمر على قريش بسبب الريح التي أكفأت قدورهم وخيامهم، كما قام المسلمون بالتخذييل بين اليهود والمشركين فأرغموا على الرحيل وهزمهم الله تعالى وكف شرهم عن المدينة، وبعد رجوعهم قال عليه الصلاة والسلام حين أجلى الله الأحزاب عنه: «الآن نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ».^(١)



(١) هذا إخبار منه عليه أفضل الصلاة والسلام أن قريشاً بعد ذلك لا تغزوه، وهذا علم من أعلام نبوته ﷺ. فخرج إليهم عام الحديبية على أنهم إن صدوهم عن البيت قاتلوهم، فصدوهم فبركت الناقة. فعلم أنه أمر من الله بإيقافهم على أن يعتمر العام المقبل.

نزول آية الحجاب

وفي ذي القعدة نزلت آية الحجاب، وكان سبب نزولها أن عمر رضي الله عنه كان يقول لرسول الله ﷺ: لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ؛ فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ؛ فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.



غزوة بني قريظة

ثم وقعت غزوة يهود بني قريظة بعد غزوة الأحزاب مباشرة، في آخر ذي القعدة، وأول ذي الحجة من السنة الخامسة الهجرية. وكان سبب الغزوة نقض بني قريظة العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ بتحريض من حيي بن أخطب النضري. وكان النبي ﷺ قد أرسل الزبير لمعرفة نيتهم، ثم أتبعه بالسعدين وابن رواحة وخوات لذات الهدف ليتأكد من غدرهم. وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ، بقتالهم بعد عودته من الخندق ووضع السلاح، فأوصى عليه الصلاة والسلام أصحابه أن يتوجهوا إلى بني قريظة، وقال لهم: (لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة). فضرب الرسول ﷺ الحصار على بني قريظة لمدة خمس وعشرين ليلة على الأرجح، حتى نزلوا على حكم الرسول ﷺ، فأحب أن يكل الحكم عليهم إلى واحد من رؤساء الأوس؛ لأنهم كانوا حلفاء بني قريظة، فجعل الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ، فلما دنا من المسلمين قال الرسول ﷺ للأنصار: قوموا إلى سيدكم أو خيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك. قال - أي سعد بن معاذ -: تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتقسم أموالهم. فقال له النبي ﷺ: قضيت بحكم الله تعالى. ونفذ الرسول ﷺ هذا الحكم فيهم، وكانوا أربعمائة على الأرجح. ولم ينج إلا بعضهم، ثم قسم الرسول ﷺ أموالهم وذراريهم بين المسلمين.



السنة السادسة من الهجرة غزوة ذي قرد وقصة سلمة بن الأكوع

وفي المحرم منها وقعت غزوة ذي قرد، وفيها أغار عيينة بن حصن الفزاري في بني عبد الله بن غطفان على لقاح النبي ﷺ التي بالغابة، فاستاقها، وقتل راعيها - وهو ابن أبي ذر الغفاري -، واحتملوا امرأته. ونودي: يا خيل الله اركبي، وكان أول ما نودي بها، وركب رسول الله ﷺ مُقَنَّعًا في الحديد، فكان أول من قدم إليه المقداد بن عمرو في الدرع والمغفر، فعقد له رسول الله ﷺ اللواء في رُمحه، وقال: «امض حتى تلحقك الخيول، إنا على أثرك». وأدرك سلمة بن الأكوع القوم، وهو على رجليه، فجعل يرميهم بالنبل ويقول: «خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع»، حتى انتهى إلى ذي قرد، وقد استنقذ منهم جميع اللقاح، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين رُمحًا، وأكثر من ثلاثين بُرْدَةً يستخفون منها. قال سلمة: فلاحقنا رسول الله ﷺ والخيل عشاءً، فمَضَتِ الخيلُ حتى لحقوا بالقوم، فقتل أبو قتادة أخو بني سلمة حبيب بن قتيبة، وأدرك عكاشة بن محصن بن عمرو أوبارًا وأباه وهما مترادفان على بعير، فانتظمهما جميعًا بالرُمح فقتلهما. وأقبلت امرأة ابن أبي ذر الغفاري على ناقة من إبل رسول الله ﷺ، حتى قدمت عليه فأخبرته الخبر، وقالت: يا رسول الله إني قد نذرت لله نذرًا أن أنحرها إن نجاني الله عليها، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «بسمًا جزئتها أن حملك الله عليها ونجاك بها، إنه لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا تملكين، إنما هي ناقة من إيلي، ارجعي إلى أهلك». قال سلمة: فقلت: يا رسول الله، إن القوم عطاش، فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما في أيديهم من السرح، وأخذت بأعناق القوم، فقال

رسولُ الله ﷺ: «مَلَكْتَ فَأَسْجِجُ»^(١)، ثم قال: إِنَّهُمْ الآنَ يُقْرَوْنَ فِي عَطْفَانٍ، وذهب الصريخُ بالمدينة إلى بني عَمْرٍو بن عوف، فجاءت الأمدادُ ولم تزل الخيلُ تأتي، والرجالُ على أقدامهم وعلى الإبل، حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ بذي قَرَدٍ.



(١) أسجج: أي: أحسن وارفق.

سرية الخطب (سيف البحر)

وبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح على رأس ثلاثمائة رجل إلى سيف البحر، وكان الغرض من هذه السرية رصد عير لقريش ومحاربة حي من جهينة، وزودهم جراباً من تمر، فجعل أبو عبيدة يقوتهم إياه، حتى صار إلى أن يعده لهم عدداً، حتى كان يعطي كل رجل منهم كل يوم ثمرة، فقسّمها يوماً فنقصت ثمرة عن رجل، فوجد فقدها ذلك اليوم، فلما نفذ ما كان معهم من الزاد أكلوا الخطب وهو ورق السلم، فسمي الجيش لذلك «جيش الخطب»، وأصابهم جوع شديد، فنحرقيس ابن سعد بن عباد وكان أحد جنود هذه السرية ثلاث جزائر، ثم نحّر ثلاث جزائر، ثم نحّر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه، فألقى إليهم البحر دابة يقال لها: العنبر، فأكلوا منها عشرين ليلة، وادّهنوا منه، حتى ثابت منه أجسامهم، وصلحت، وأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه، فنظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جمل، فحُمّل عليه، ومر تحته، وتزودوا من لحمه وشائق، فلما قدموا المدينة، أتوا رسول الله ﷺ فذكروا له ذلك، فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا؟»، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ منه. ^(١)



(١) الأقرب أن من جعل تأريخ سرية الخطب في رجب من سنة ثمان من الهجرة قد أخطأ؛ حيث لم يُغز ولم تُبعث سرية في الشهر الحرام. ثم إن صلح الحديبية يمنع اعتراض المسلمين لقافلة قريش؛ فلا بد أن تكون سرية الخطب قبل الصلح، ثم إن حال المسلمين فيها هو قلة الزاد والتمر؛ فلا بد أن تكون قبل خير؛ لأن المسلمين استغنوا بتمر خيبر، والله أعلم.

خروج عمرو بن العاص إلى الحبشة

قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ - قبل إسلامه -: لَمَّا انْصَرَفْنَا مِنَ الْأَحْزَابِ عَنِ الْخَنْدَقِ، جَمَعْتُ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا يَرُونَ مَكَانِي، وَيَسْمَعُونَ مِنِّي، فَقُلْتُ لَهُمْ: تَعْلَمُونَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَى أَمْرَ مُحَمَّدٍ يَعْلُو الْأُمُورَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا، فَمَا تَرَوْنَ فِيهِ؟ قَالُوا: وَمَا رَأَيْتُ؟ قَالَ: رَأَيْتُ أَنَّ نَلْحَقَ بِالنَّجَاشِيِّ فَنَكُونُ عِنْدَهُ، فَإِنْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَى قَوْمِنَا، كُنَّا عِنْدَ النَّجَاشِيِّ، فَإِنَّا أَنْ نَكُونُ تَحْتَ يَدَيْهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ نَكُونُ تَحْتَ يَدَيْ مُحَمَّدٍ، وَإِنْ ظَهَرَ قَوْمُنَا فَنَحْنُ مَنْ قَدْ عُرِفُوا، فَلَنْ يَأْتِيَنَا مِنْهُمْ إِلَّا خَيْرٌ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الرَّأْيَ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُمْ: فَاجْمَعُوا لَهُ مَا نُهْدِي لَهُ، وَكَانَ أَحَبَّ مَا يُهْدَى إِلَيْهِ مِنْ أَرْضِنَا الْأَدَمِ، فَجَمَعْنَا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا، فَخَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ.



قصة صلح الحديبية

ولما أراد النبي ﷺ أن يعتمر سنة ست من الهجرة في ذي القعدة قبل أن يحج؛ أرسل إلى أهل مكة يستأذنهم ليدخل مكة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة. ورؤي أن رسول الله ﷺ رأى في منامه قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم. واستنفر من حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذي صنعوا، أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب وظنوا بنبي الله ﷺ وأصحابه أنهم لن يرجعوا وأنهم سيهلكون. وخرج رسول الله ﷺ عام الحديبية^(١) في بضع عشرة مائة من أصحابه يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً^(٢)، وساق معه الهدى^(٣) سبعين بدنة، فلما أتى ذا الحليفة؛ قلد الهدى وأشعره^(٤) وأحرم منها بعمره، وأهدى رسول الله ﷺ عام الحديبية في بُدْنِه جملاً كان لأبي جهل في رأسه برة^(٥) فضة يغيظ بذلك المشركين.

(١) الحديبية: اسم بئر تقع على بعد اثنين وعشرين كيلاً إلى الشمال الغربي من مكة، وتعرف الآن بالشميسي، وفيها حدائق الحديبية، ومسجد الرضوان، وأطرافها تدخل في حدود الحرم المكي، ومعظمها من الحل خارجه.

(٢) وكانوا على استعداد لقتال من اعترض سيلهم، كما سيأتي في استشارة النبي عليه الصلاة والسلام للصحابه - وهم في الطريق - في الإغارة على ديار من تحالف من القبائل مع قريش الذين خرجوا لقتالهم وصدّهم عن دخول مكة، وكما في لبس المغيرة المغفر.

(٣) الهدى: ما يهدى إلى الحرم من النعم والذبائح.

(٤) الإشعار: شق أحد جنبي البدنة، حتى يسيل دمها، وجعل ذلك لها علامة تعرف بها أنها هدى.

(٥) البرة: حلقة تجعل في أنف البعير.

وبعث عينا له من خزاعة بين يديه يخبره عن قريش، وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط - قريب من عسفان -؛ أتاه عينه الخزاعي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجت معها العُودُ المَطَافِيلُ^(١)، قد لبسوا جلود النمر، وجمعوا لك الأحابيش^(٢)، يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم، قدموا إلى كُرَاعِ الغَمِيمِ^(٣) وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت، ومانعوك. فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم، دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا، قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟، والله إني لا أزال أجاهدكم على الذي بعثني الله له، حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة^(٤)»، ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا علي أيها الناس، أترون أن أميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم أن يصدونا عن البيت فنصيبيهم؟، فإن قعدوا، قعدوا موتورين^(٥) محروبين^(٦)، وإن يجيئوا^(٧)، تكن عنقاً قطعها الله، أو ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا

(١) جمع عائذ، وهي الناقة التي معها ولدها. يريد أنهم خرجوا بذوات الألبان ليزودوا بألبانها ولا يرجعوا حتى يناجزوك في زعمهم.

(٢) الأحابيش: هم أحياء من قبيلة القارة، انضموا إلى بني ليث في محاربتهم قريشاً، والتجشش: التجمع، وقيل: حالفوا قريشاً تحت جبل يسمى حُبشياً فُسُموا بذلك.

(٣) كُرَاعِ الغَمِيمِ: اسم وادٍ أمَامَ عُسْفَانَ.

(٤) السالفة: صفقة العنق، وهما سالفتان من جانبيه، أراد: حتى يفرق بين رأسي وجسدي.

(٥) الموتور: المقتطوع، أي: الذي قطع حقه ولم يدركه، وقد تطلق على صاحب الدم الذي لم يأخذ بثأره.

(٦) المحروب: المهزوم المهموم.

(٧) في بعض النسخ: نَجَوْا. وفي بعضها: يحنون، وفي بعضها: يجيئون، من المجيء. وفي بعضها: جَاؤُوا.

تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. فقال رسول الله ﷺ: «امضوا على اسم الله».

قال جابر بن عبد الله ﷺ: حضرت العصر^(١) يوم الحديبية وليس معنا ماء غير فضلة، فجهدش^(٢) الناس نحو رسول الله ﷺ، فقال: «ما لكم؟»، قالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب. فقال رسول الله ﷺ: «هل في القوم من ماء؟»، فجاء رجل بإداة^(٣) فيها شيء من ماء، «فصبه رسول الله ﷺ في قدح^(٤) ووضع كفه في الماء والقدح، ثم قال: بسم الله، ثم قال: أسبغوا الوضوء»، قال جابر: فوالذي ابتلاني ببصري، لقد رأيت العيون عيون الماء يومئذ تخرج من بين أصابع رسول الله ﷺ، فتوضأ الناس وشربوا أجمعون، لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا ألفاً وأربع مائة. ثم جاء بعد ذلك ثمانية فقالوا: هل من طهور؟، فقال رسول الله ﷺ: «فرغ الوضوء».

حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال رسول الله ﷺ: إن خالد بن الوليد بالغميم^(٥) في خيل لقريش طليعة^(٦)؛ فخذوا ذات اليمين». فسلكوا ذات اليمين، بين ظهري الحمض^(٧)، على طريق تخرجه على ثنية المرار^(٨) والحديبية، من أسفل مكة، فوالله ما شعر بهم خالد، فلما رأت خيل قريش فترة الجيش^(٩) قد خالفوا عن طريقهم،

(١) أي: وقت صلاتها.

(٢) الجهدش: أن يفزع الإنسان إلى الإنسان ويلجأ إليه.

(٣) الإداة: إناء صغير من جلد يحمل فيه الماء وغيره.

(٤) القدح: من الآنية، يروي الرجلين.

(٥) الغميم: موضع قريب من مكة بين رابغ والجحفة.

(٦) الطليعة: مقدمة الجيش، أو الذي ينظر للقوم، لئلا يدهمهم عدو.

(٧) الحمض: ما ملح وأمر من النبات، وهي كالفاكهة للإبل.

(٨) الثنية: هو الطريق العالي في الجبل. والمرار: بكسر الميم، وبضمها: موضع بين مكة والمدينة من طريق الحديبية.

(٩) الفترة: الغبار أو شبه الدخان.

نكسوا راجعين إلى قريش نذيراً للقريش، وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها؛ بركت به راحلته، فقال رسول الله ﷺ: حل حل. ^(١) فقال الناس: خلأت القصواء، خلأت القصواء. ^(٢) فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما خلأت لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، ثم قال: والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة ^(٣) يعظمون بها حرمت الله ^(٤) إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم، حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد ^(٥) قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبثه الناس أن نزحوه.

قال البراء بن عازب رضي الله عنه: كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة - والحديبية بئر - فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة فشكى إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع رسول الله ﷺ سهماً من كنانته ^(٦) ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل في قليب ^(٧) من تلك القلب فغرز فيه، فجلس رسول الله ﷺ على شفير ^(٨) البئر، ثم قال: «أتوني بدلو من مائها»، فأتي به، فتمضمض رسول الله ﷺ منه، ثم مجه في البئر ودعا. ثم قال: «دعوها ساعة». فتركناها غير بعيد، ثم استقيناً فجاش الماء

(١) حل: صوت تزجر به الدابة لتحمل على السير.

(٢) خلأت: بركت من غير علة. وخلاً: إذا برَكَ فلم يَقم. والقصواء: الناقة المقطوعة الأذن، وكان ذلك لقباً لنانة النبي ﷺ وقيل إنها لم تكن مقطوعة الأذن، وقال بعضهم بل مقطوعة.

(٣) أي: خصلة.

(٤) أي: من ترك القتال في الحرم.

(٥) أي: حفيرة فيها ماء قليل، يقال: ماء مثمود: أي قليل، فيكون لفظ قليل بعد ذلك تأكيداً، لدفع توهم أن يراد لغة من يقول: إن الثمد الماء الكثير.

وقيل: الثمد: ما يظهر من الماء في الشتاء، ويذهب في الصيف.

(٦) الكنانة: جعبة صغيرة من جلد، تحمل فيها السهام.

(٧) القليب: البئر التي لم تطو.

(٨) الشفير: الجانب والناحية.

بالرواء، حتى ضرب الناس عنه بعطن^(١)، حتى روينا وروت ركائبنا حتى ارتحلنا.

قال عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنه: هبط ثمانون رجلاً من أهل مكة على رسول الله ﷺ وأصحابه يوم الحديبية من جبل التنعيم متسلحين عند صلاة الفجر يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه ليقتلوهم، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله ﷻ بأبصارهم، فقدمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد، أو هل جعل لكم أحد أماناً؟»، قالوا: لا، فخلى رسول الله ﷺ سبيلهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝﴾.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة - وكانوا عيبة نصح^(٢) لرسول الله ﷺ من أهل تهامة - فقال: إني تركت كعب بن لؤي^(٣)، وعامر بن لؤي نزلوا أعداد^(٤) مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل^(٥) وهم

(١) العطن: مبرك الإبل، يقول: حتى رويت الإبل فأنأخت.

(٢) العيبة: ما توضع فيه الثياب لحفظها، أي أنهم موضع النصح له، والأمانة على سره، كأنه شبه الصدر الذي هو مستودع السر، بالعبية التي هي مستودع الثياب.

(٣) إنما اقتصر على ذكر هذين، لكون قريش الذين كانوا بمكة أجمع، ترجع أنسابهم إليهما.

(٤) الأعداد: جمع عد، وهو الماء الذي لا انقطاع له، وقول بديل هذا يشعر بأنه كان بالحديبية مياه كثيرة، وأن قريشا سبقوا إلى النزول عليها، فلهذا عطش المسلمون حيث نزلوا على الشمد المذكور.

(٥) العوذ: جمع عاذ، وهي الناقة ذات اللبن، والمطافيل: الأمهات اللاتي معها أطفالها، يريد أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل، ليتزودوا بألبانها، ولا يرجعوا حتى يمنعه، أو كنى بذلك عن النساء معهن الأطفال، والمراد أنهم خرجوا منهم بنسائهم وأولادهم، لإرادة طول المقام، وليكون أدعى إلى عدم الفرار، ويحتمل إرادة المعنى الأعم، وسميت كل أنثى بذلك وإن كان الولد هو الذي يعوذ بها، لأنها تعطف عليه بالشفقة والحنو، كما قالوا: تجارة رابحة، وإن كانت مربوحاً فيها.

مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم»^(١) الحرب فأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة^(٢)، ويخلوا بيني وبين الناس^(٣) فإن أظهر، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا^(٤) وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره^(٥)، فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. فرجعوا إلى قريش، فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمدا لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت، معظما لحقه، فاتهموهم - وكانت خزاعة في عيبة رسول الله ﷺ مسلمها ومشرکہا، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئا كان بمكة - قالوا: وإن كان إنما جاء لذلك، فلا والله لا يدخلها أبداً علينا عنوة، ولا نتحدث بذلك العرب، ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف، أحد بني عامر بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر»، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ فبعثوا إليه الحلس بن علقمة الكناني - وهو يومئذ سيد الأحابيش - فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يعظمون الهدى؛ فابعثوا الهدى في وجهه»، فبعثوا الهدى، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، واستقبله الناس يلبنون، قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء

(١) (نهكتهم) بكسر الهاء أي: أبلغت فيهم حتى أضعفتهم، إما أضعفت قوتهم وإما أضعفت أموالهم.

(٢) أي: جعلت بيني وبينهم مدة يترك الحرب بيننا وبينهم فيها.

(٣) أي: من كفار العرب وغيرهم.

(٤) أي: إن أظهر أنا على غيرهم، فإن شاءوا أطاعوني، وإلا فلا تنقضي مدة الصلح إلا وقد جموا، أي: استراحوا وقوا.

(٥) أي: في نصر دينه.

أن يصدوا عن البيت. فرجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صده الهدي في قلائده، قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، فقالوا: اجلس: إنما أنت أعرابي لا علم لك، فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفي، فقال: يا معشر قريش، إني قد رأيت ما يلقي منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد. (١) وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئت حتى آسيتكم بنفسي، قالوا: صدقت. قال: فهل تتهموني؟، قالوا: لا، فقال: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آته، قالوا: آتته. فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، فجعل يكلم النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ نحواً من قوله لبديل (٢)، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أ رأيت إن استأصلت قومك؟، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله (٣) قبلك؟، وإن تكن الأخرى (٤) فوالله إني لأرى وجوهاً، وأرى أوباشاً (٥) من الناس لكأني بهم قد انكشفوا عنك غداً. وأبو بكر الصديق رضي الله عنه خلف رسول الله ﷺ قاعد فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات (٦)، أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من

(١) أم عروة هي سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف، فأراد بقوله: «ألستم بالوالد»: أنكم حي قد ولدوني في الجملة، لكون أُمي منكم.

(٢) أي: أخبره أنه لم يأت يريد حرباً.

(٣) أي: أهلك أهله بالكلية.

(٤) قال: «وإن تكن الأخرى» تأدباً مع النبي ﷺ والمعنى: وإن تكن الغلبة لقريش لا آمنهم عليك.

(٥) الأوباش: الأخلاط من السفلة.

(٦) البظر: قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة، واللات: اسم أحد الأصنام التي كانت قريش وثيف يعبدونها، وكانت عادة العرب الشتم بذلك، لكن بلفظ الأم، فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة، بإقامة من كان يعبد مقام أمه، وحمله على ذلك ما أغضبه به من نسبة المسلمين إلى الفرار.

هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبي قحافة»، قال: والله لولا يد^(١) كانت لك عندي لم أجرك بها لأجبتك، ولكن هذه بها^(٢)، ثم تناول لحية رسول الله ﷺ والمغيرة بن شعبة قائم على رأس رسول الله ﷺ ومعه السيف^(٣) وعليه المغفر^(٤) - فضرب يده بنصل السيف، وقال: أخرج يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل والله أن لا ترجع إليك. فرفع عروة رأسه، فقال: ويحك ما أفضك وأغلظك. فتبسم رسول الله ﷺ، فقال: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك، المغيرة بن شعبة، فقال: أي غدر!!^(٥) أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ؟ هل غسلت سواك إلا بالأمس؟^(٦). وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم^(٧)، ثم جاء فأسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «أما الإسلام فقد قبلنا، وأما المال، فإنه مال غدر، لا حاجة لنا فيه»^(٨). فكلمه رسول الله ﷺ

(١) أي: نعمة ومعروف.

(٢) أي: جازاه بعدم إجابته عن شتمه، بيده التي كان أحسن إليه بها، وبين الزهري في هذا الحديث أن اليد المذكورة، أن عروة كان تحمل بديعة، فأعانه أبو بكر فيها بعون حسن.

(٣) فيه جواز القيام على رأس الأمير بالسيف بقصد الحراسة ونحوها من ترويب العدو، ولا يعارضه النهي عن القيام على رأس الجالس، لأن محله ما إذا كان على وجه العظمة والكبر.

(٤) في رواية أبي الأسود عن عروة بن الزبير: «أن المغيرة لما رأى عروة مقبلاً لبس لأمته وجعل على رأسه المغفر ليستخفي من عروة عمه».

(٥) (غدر) مبالغة في وصفه بالغدر.

(٦) يعني أنه سعى وأنهى لتوه دفع دية من قتلهم ابن أخيه المغيرة غدرًا.

(٧) وهم ثلاثة عشرة من ثقيف من بني مالك خرجوا للمقوقس بمصر بهدايا، فأحسن إليهم وأعطاهم وقصر بالمغيرة، لأنه ليس من القوم، بل من أحلافهم فغار منهم، ولم يواسه أحد منهم فلما كانوا ببعض الطريق شربوا الخمر وناموا فوثب المغيرة فقتلهم كلهم، وأخذ أموالهم ثم جاء إلى المدينة فأسلم. فقال أبو بكر: ما فعل المالكيون الذين كانوا معك؟ قال: قتلهم وجئت بأسلأهم إلى رسول الله ﷺ. فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء». أي لا أتعرض له لكونه أخذ غدرًا.

(٨) يستفاد منه أنه لا يحل أخذ أموال الكفار في حال الأمن غدرًا، لأن الرفقة يصطحبون على

بمثل ما كلم به أصحابه، فأخبره أنه لم يأت يريد حرباً، فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه؛ إذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، ولا يبصق بصاقه إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإذا أمرهم؛ ابتدروا أمره، وإذا تكلموا، خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر^(١) تعظيماً له. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى، والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا، خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له فلقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبداً، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: «الثعلب»، فلما دخل مكة، عقرت به قريش وأرادوا قتل خراش، فمنعهم الأحابيش، حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ عمر ليعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بني عدي أحد يمينني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني، عثمان بن عفان رضي الله عنه، فدعاه رسول الله ﷺ فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمة، فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه.

الأمانة، والأمانة تؤدي إلى أهلها، مسلماً كان أو كافراً، وأن أموال الكفار إنما تحل بالمحاربة والمغالبة، ولعل النبي ﷺ ترك المال في يده لا مكان أن يسلم قومه، فيرد إليهم أموالهم، ويستفاد من القصة أن الحربي إذا أتلّف مال الحربي، لم يكن عليه ضمان.

(١) أحد البصر: نظر بإمعان وتدقيق.

فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقى به أبا بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته، وحمله بين يديه وردف خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، قال: فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قُتل.

وكانتبيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده.

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾. قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربع مائة، فبايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة وهي سمرة - . بايعناه على أن لا نفر، ولم نبايعه على الموت. فبايعناه كلنا إلا الجد بن قيس، اختبأ تحت بطن بعير، ونحرننا يومئذ سبعين من البدن، لكل سبعة جزور. فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم خير أهل الأرض». قال جابر: لو كنت أبصر، لأريتكم موضع الشجرة. قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل النار رجل شهد بدرًا والحديبية، لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة».

ثم إن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو - أحد بني عامر بن لؤي - فقالوا: ائت محمداً فصالحه، ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا نتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً، فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «سهل الله أمركم، لقد سهل من أمركم، قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل»، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلما وأطالا الكلام، وتراجعا، حتى جرى بينهما الصلح،

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أوليس برسول الله ﷺ؟، أولسنا بالمسلمين؟، أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟، فقال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه^(١) حيث كان، فإني أشهد أنه رسول الله، فقال عمر: وأنا أشهد، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أولسنا بالمسلمين؟ أوليسوا بالمشركين؟، قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟، فقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره وهو ناصري»، فقال له عمر: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟، قال: «بلى، أفأخبرت أنك تأتية العام؟»، قال: لا، قال: «فإنك آتية، ومتطوف به»، ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له رسول الله ﷺ: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل بن عمرو: أما «بسم الله الرحمن الرحيم»، فما ندري ما «بسم الله الرحمن الرحيم»، أما «الرحمن»، فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم، كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال رسول الله ﷺ: «اكتب باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيل ابن عمرو». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله، لا تبعناك وما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك، محمد بن عبد الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتُموني، اكتب: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أن بيننا عيبة مكفوفة»^(٢) وأنه لا إسلال

(١) المراد بـ «إلزم غرزه»: التمسك بأمره وترك المخالفة له كالذي يمسك بركاب الفارس فلا يفارقه. والغرزه هو: ركاب كور الجمل، وقيل: هو الكور مطلقاً مثل الركاب للسرّج.

(٢) أي: أمراً مطوّياً في صدور سليمة، وهو إشارة إلى ترك المؤاخذه بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها، والمحافظة على العهد الذي وقع بينهم.

ولا إغلال^(١)، وعلى أنه من أتى رسول الله ﷺ من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه. فقالوا: يا رسول الله، أنكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم، سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً».

وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب، أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه - فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن مع عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم - فقال رسول الله ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا نتحدث العرب أننا أخذنا ضغطة، ولكن ترجع عنا عامنا هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك، فتدخلها بأصحابك، وأقمت فيهم ثلاثاً، معك سلاح الراكب، لا تدخلها بغير السيوف في القرب^(٢) فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب؛ إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده^(٣) - وقد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله ﷺ على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا - فلما رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه، ثم قال: يا محمد، قد لجت^(٤) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال:

(١) أي: لا سرقة، ولا خيانة، فالإسلا من السلة، وهي: السرقة.

والإغلال: الخيانة، تقول: أغل الرجل، أي: خان، أما في الغنيمة، فيقال: غل، بغير ألف. والمراد: أن يأمن بعضهم من بعض في نفوسهم وأموالهم، سرا وجهراً.

(٢) جمع قراب، وهو غمد السيف.

(٣) أي: يمشي مشياً بطيئاً بسبب القيد.

(٤) أي: وجبت.

«صدقت». فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، قال: فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبداً، فقال رسول الله ﷺ: «فأجزه لي»، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل. فقام إليه فأخذ بتليبيه،^(١) فصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معاشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني في ديني وقد جئت مسلماً؟، ألا ترون ما قد لقيت؟ - وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله - فزاد الناس شراً إلى ما بهم، وقالوا: سبحان الله، كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله ﷻ جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، فأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عليه عهداً، وإنا لن نغدر بهم»، فوثب عمر بن الخطاب إلى أبي جندل، فجعل يمشي إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويديني قائم السيف منه، قال عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضن الرجل بأبيه. ونفذت القضية.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب؛ قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل، ثم عاد بمثلها، فما قام رجل، ثم عاد بمثلها، فما قام رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات. فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة رضي الله عنها فقال: يا أم سلمة، ما شأن الناس؟، قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما قد رأيت، فلا تكلمن منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان، فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً، حتى أتى هديه فنحره بالحديبية قبل أن يحلق، ثم دعا حالقه فحلق. فلما رأوا ذلك، قاموا

(١) أخذ بتليبيه، وتلايبيه: إذا جمعت ثيابه عند صدره ونحره، ثم جررته. وكذلك إذا جعلت في عنقه حبلاً أو ثوباً ثم أمسكته به، واللبة: موضع الذبح، والتاء في التليب زائدة.

فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا. حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا. فخلق رجال يوم الحديبية، وقصر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر للمحلقين»، قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟ قال: «اللهم اغفر للمحلقين»، قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟ قال: «اللهم اغفر للمحلقين»، قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟ قال: «وللمقصرين». قالوا: فما بال المحلقين يا رسول الله ظاهرت لهم الرحمة ثلاثاً^(١) وللمقصرين واحدة؟ قال: «إنهم لم يشكّوا»^(٢).



(١) أي: أعتهم وأيدتهم بالدعاء لهم ثلاث مرات.

(٢) أي: ما عاملوا معاملة من يشك في أن الاتباع أحسن، وأما من قصر فقد عامل معاملة الشاك في ذلك، حيث ترك فعله ﷺ.

نزول سورة الفتح

قال سهل بن حنيف رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، ولقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أستطيع أن أرد أمر النبي ﷺ لرددته، والله ورسوله أعلم، فجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟، قال: «بلى»، فقال: أليس قتلنا في الجنة وقتلاهم في النار؟، قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟، أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟، فقال رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً». فرجع عمر متغيظاً، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟، قال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبداً.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كنا نسير مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ليلاً فسألت رسول الله ﷺ عن شيء «فلم يجبني»، ثم سألته، «فلم يجبني»، ثم سألته «فلم يجبني». فقلت لنفسي: ثكلتك أمك ^(١) يا ابن الخطاب؛ نزلت ^(٢) رسول الله ﷺ ثلاث مرات، «كل ذلك لا يجيبك؟»، قال عمر: فحركت بعيري، ثم تقدمت أمام المسلمين، وخشيت أن ينزل في قرآن.

قال أنس رضي الله عنه: «نزلت على النبي ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا

(١) أي: فقدتك، وأصله الدعاء بالموت، ثم استعمل في التعجب.

(٢) أي: ألححت.

عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴿١﴾ مرجعه من الحديدية وأصحابه يخالطهم الحزن والكآبة، قد حيل بينهم وبين مناسكهم، ونحروا الهدي بالحديدية، فقال رسول الله ﷺ: «لقد نزلت علي آيتان، هما أحب إلي من الدنيا جميعًا، فلما تلاهما قال رجل: هنيئًا مريئًا يا رسول الله، قد بين الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟»، فأنزل الله ﷻ الآية التي بعدها: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُوزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴿٢﴾.

حتى إذا كان رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة في وسط الطريق، نزلت سورة الفتح^(١) قال عمر: فما نشبت أن سمعت مناديا ينادي: يا عمر، أين عمر؟، قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء. فجئت إلى رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال: «يا ابن الخطاب، لقد أنزل علي هذه الليلة سورة، لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٣﴾. فقرأها رسول

(١) فما فُتِحَ في الإسلام فَتَحَ قبله كان أعظم من فتح الحديدية، إنما كان القتال حيث التقى الناس، ولما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس، كلم بعضهم بعضًا، والتقوا، وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك الستين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. وكان مقدمة الفتح الأعظم الذي دخل الناس عقبه في دين الله أفواجًا، وكانت الهدنة مفتاحًا لذلك، ولما كانت قصة الحديدية مقدمة للفتح، سميت فتحًا، فإن الفتح في اللغة: فتح المغلق، والصلح كان مغلقًا حتى فتحه الله، وكان من أسباب فتحه صد المسلمين عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيمًا للمسلمين، وفي الصورة الباطنة، عزًا لهم، فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم، اختلط بعضهم ببعض من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية، وظهر من كان يخفي إسلامه، فذل المشركون من حيث أرادوا العزة، وأقهروا من حيث أرادوا الغلبة.

الله ﷺ على عمر إلى آخرها. فقال عمر: يا رسول الله، أَوْ فَتَحَ هُوَ؟، قال: «نعم». فطابت نفسه ورجع.

وأنزل الله ﷻ فيها: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجَلَّةُهُ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ ﴿١٦﴾﴾^(١) وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه نبي الله، ولم يقرؤا بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وحالوا بينهم وبين البيت.



(١) المعرة: الأمر القبيح المكروه، والأذى.

(٢) أي: لو تميزوا.

قدوم المهاجرات من مكة

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجاءه نسوة مؤمنات مهاجرات - وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ وهي عاتق^(١) - فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم، فلم يرجعها إليهم، لما أنزل الله فيهن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنَفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ﴾، فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية. ﴿وَسَأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا﴾ فنهاهم الله أن يردوهم، وأمرهم أن يردوا الصداق. فلما أبى الكفار أن يقرؤا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم، أنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ﴾ والعقب: ما يؤدي المسلمون إلى من هاجرت امرأته من الكفار ﴿فَعَاوُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنَفَقُوا﴾ فأمر الله أن يعطى من ذهب له زوج من المسلمين، ما أنفق من صداق نساء الكفار اللاتي هاجرن.^(٢)

(١) العاتق: الشابة أول ما تدرك، وقيل: هي التي لم تبين من والديها، ولم تزوج وقد أدركت وشبت، وتجمع على عواتق.

(٢) أي: وإن فرض خروج بعض نسائكم إلى الكفار مُرْتَدَّاتٍ وطلبتن مهورهن من الكفار ولم يعطوها، فغنمتم من الكفار فأعطوا الأزواج الذين خرجت زوجاتهم مُرْتَدَّاتٍ مثل ما بذلوا من المهور.

قصة أبي بصير

ثم جاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا. فدفعه رسول الله ﷺ إلى الرجلين، فخرجا به، حتى بلغا ذا الحليفة، نزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل قد جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه؟، فأمكنه منه، فضربه حتى برد^(١) وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتِلَ والله صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، فقال رسول الله ﷺ: «ويل أمه، مسعر^(٢) حرب لو كان له أحد^(٣)»، فلما سمع ذلك، عرف أنه سيرده إليهم. ولم يأت رسول الله ﷺ أحد من الرجال، إلا رده في تلك المدة، وإن كان مسلماً. فخرج حتى أتى سيف البحر^(٤) وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم، إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بغير^(٥) خرجت لقريش إلى الشام، إلا

(١) أي: مات.

(٢) أي: يسعها، والمسعر: هو العود الذي يحرك به النار.

(٣) أي: ينصره ويعاضده ويناصره. كأنه يصفه بالإقدام في الحرب.

(٤) أي: ساحله. في العيص بكسر العين، وهي طريق أهل مكة إذا قصدوا الشام ويحاذي المدينة إلى جهة الساحل.

(٥) أي: قافلة.

اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فلما رأى ذلك كفار قريش، ركب نفر منهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنها لا تغني مدتك شيئاً ونحن نقتل وتنهب أموالنا، وإنا نسألك أن تدخل هؤلاء الذين أسلموا منا في صلحك، وتمنعهم وتحجز عنا قتالهم. فأرسل رسول الله ﷺ إليهم.

وقيل إن الحج فرض هذا العام، وقيل غير ذلك. وقد كان الحج معروفاً قبل الإسلام فإبراهيم أذن في الناس بالحج وحج موسى وغيره من الأنبياء وبقي الحج معروفاً ولكن بدل فيه المشركون ما بدلوا وأول من بدل عمرو بن لحي ثم فرض الله تعالى الحج على المسلمين لمن استطاع إليه سبيلاً ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وبين الرسول ﷺ مناسكه بتمامها في حجة الوداع سنة ١٠هـ.



السنة السابعة من الهجرة دعوة الملوك إلى الإسلام

وَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ سِتٍّ، أَرْسَلَ الرَّسُلَ إِلَى الْمُلُوكِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ إِلَيْهِمْ كُتُبًا، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْمُلُوكَ لَا يَقْرَأُونَ كِتَابًا إِلَّا مَخْتُومًا، «فَاتَّخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ، فَضَّهَ مِنْهُ، نَقَشَهُ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَتَمَ بِهِ الْكُتُبَ، فَخَرَجَ سِتَّةَ نَفَرٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ فِي الْمُحَرَّمِ سَنَةِ سَبْعٍ، وَأَصْبَحَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الْقَوْمِ الَّذِينَ بَعَثَهُ إِلَيْهِمْ» (١)(٢).

(١) قال بعض العلماء أن ذلك كان معجزة من معجزاته عليه الصلاة والسلام.
(٢) وقد هدفت دعوة الإسلام إلى تخفيف معاناة الإنسان في الحياة، وتحريره من الأوهام والأساطير والخرافات والشعوذة التي يقوم بها منتفعون يزعمون أنهم وسطاء بين الله والناس. وفتحت بصيرة المؤمن على عاقبة ظلم الإنسان لترسي أساساً للعدل السياسي والاجتماعي، وبناء مجتمع العدل والقوة ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٥٥﴾ فالكتاب والميزان لإقامة العدل، والحديد لإيجاد القوة التي تحمي العدل وتكفل استمراره على مبدأ المساواة بين البشر دون اعتبار للثروة والجاه ولا اللون أو العرق. وجعلت الشورى أساساً للنظام السياسي والاجتماعي. كما توازن الدعوة الإسلامية بين المطالب الروحية والدينية، وتنظر إلى عمران الأرض وزينة الحياة وطيباتها نظرة متفائلة، فلا تطالب البشر بالتبتل والحرمان والنأي عن استثمار الطاقات المتنوعة لمصلحتهم، وتربي الأتباع على الإتقان، والإتقان يقابل بمصطلحات العصر (التكنولوجيا)، والإحسان مرتبة عليا فوق الإسلام والإيمان.



وكان من مقاصد الدعوة الاسلامية حفظ النوع الانساني واستمراره في الوجود، بتشريع الزواج وتحصين الأسرة وتحريم اتلاف النفس البشرية بالقتل أو الانتحار، وهي تفتح أبواب التوبة أمام العالمين مهما بلغت معاصيهم دون الحاجة إلى الاعتراف أمام وسيط أو كشف مستور للآخرين. وتؤكد على التكافل والتعاون بين الناس ابتداءً بصلة الأرحام وانتهاءً ببقية المجتمع، من خلال الحث على السخاء والكرم والإيثار ومراعاة حقوق الجيران، وحماية الملكية الفردية، وحثت على دوام تداول الأموال بالاستثمار، ومنعت تبديدها حتى من قبل صاحبها فحجرت عليه إذا كان سفيهاً لا يدرك عواقب إتلاف الثروة، وحرمت الربا والاحتكار منعاً لانحصار المال بأيدي قليلة. وكانت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر تحفز روح المغامرة الجهادية والعلمية والتجارية، وتدفع للبذل والتضحية لبناء الأمة وكيانها الحضاري. واهتمت الدعوة الاسلامية بالعلم فهو فريضة على كل مسلم، ووعدت بالأجر العظيم على طلبه.

دعوة ملك الحبشة وإسلامه

وكان أول رسول بعثه رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمريؓ إلى النجاشيؓ، وكتب إليه كتابين، يدعوهُ في أحدهما إلى الإسلام، ويَتْلُو عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَأَخَذَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَضَعَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَنَزَلَ مِنْ سَرِيرِهِ فَجَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ تَوَاضِعًا، ثُمَّ أَسْلَمَ وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، وَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ آتِيَهُ لِأَتِيَهُ، وَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِإِجَابَتِهِ وَتَصَدِيقِهِ وَإِسْلَامِهِ عَلَى يَدَيِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍؓ ﷺ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَفِي الْكِتَابِ الْآخِرِ يَأْمُرُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُزَوِّجَهُ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْكِتَابِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِمَنْ قَبْلَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَيَحْمِلَهُمْ، فَفَعَلَ، فَزَوَّجَهُ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَصْدَقَ عَنْهُ أَرْبَعُمِائَةِ دِينَارٍ، وَأَمَرَ بِجِهَازِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا يُصْلِحُهُمْ، وَحَمَلَهُمْ فِي سَفِينَتَيْنِ مَعَ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ، وَدَعَا بِحَقٍّ مِنْ عَاجٍ، فَجَعَلَ فِيهِ كِتَابِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: لَنْ تَزَالَ الْحَبَشَةُ بِخَيْرٍ، مَا كَانَ هَذَانِ الْكِتَابَانِ بَيْنَ أَظْهُرِهَا.

وكان عمرو بن العاص في وفد من أصحابه الكفار من قريش ينتظرون الدخول على النجاشي ورأوا عمرو بن أمية الضمري وهو يخرج من مجلس النجاشي، فقال عمرو بن العاص لأصحابه: هذا عمرو بن أمية الضمري، لو قد دخلت على النجاشي فسألتُهُ إِيَّاهُ فَأَعْطَانِيهِ فَضَرَبْتُ عَنْقَهُ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ، رَأَتْ قُرَيْشُ أَنِّي قَدْ أَجَزَأْتُ عَنْهَا حِينَ قَتَلْتُ رَسُولَ مُحَمَّدٍ، قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَسَجَدْتُ لَهُ كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَقَالَ: مَرَحَبًا بِصَدِيقِي، أَهْدَيْتَ لِي مِنْ بِلَادِكَ شَيْئًا؟، فَقُلْتُ: نَعَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَدْ أَهْدَيْتُ لَكَ أَدَمًا كَثِيرًا، ثُمَّ قَدَّمْتُهُ إِلَيْهِ، فَأَعْجَبَهُ وَاشْتَهَاهُ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ

رَجُلًا خَرَجَ مِنْ عِنْدِكَ، وَهُوَ رَسُولُ رَجُلٍ عَدُوٍّ لَنَا، فَأَعْطَيْنِيهِ لِأَقْتُلَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ أَصَابَ مِنْ أَشْرَافِنَا وَخِيَارِنَا، فَغَضِبَ ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ فَضْرَبَ بِهَا أَنْفَهُ ضَرْبَةً ظَنَنْتُ أَنْ قَدْ كَسَرَهُ، فَلَوْ انْشَقَّتْ لِي الْأَرْضُ، لَدَخَلْتُ فِيهَا فَرَقًا مِنْهُ، ثُمَّ قُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَاللَّهِ لَوْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَكْرَهُ هَذَا مَا سَأَلْتُكَ، فَقَالَ لِي: أَتَسْأَلُنِي أَنْ أُعْطِيَكَ رَسُولَ رَجُلٍ يَأْتِيهِ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى لِيَقْتُلَهُ؟، فَقُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، أَكْذَاكَ هُوَ؟، فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا عَمْرُو أَطِيعْنِي وَاتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَعَلَى الْحَقِّ، وَلِيُظْهِرَنَّ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ كَمَا ظَهَرَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، فَقُلْتُ: فَبَايَعْنِي لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: نَعَمْ، فَبَسَطَ يَدَهُ، وَبَايَعْتُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى أَصْحَابِي وَقَدْ حَالَ رَأْيِي عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، وَكَتَمْتُ أَصْحَابِي إِسْلَامِي، ثُمَّ خَرَجْتُ عَامِدًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأُسَلِّمَ.



دعوة ملك الفساسة في الشام

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شُجَاعَ بْنَ وَهَبِ الْأَسَدِيِّ ﷺ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شِمْرٍ الْغَسَانِيِّ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا، قَالَ شُجَاعُ: فَاتَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ بَغُوطَةٌ دِمَشْقَ، وَهُوَ مَشْغُولٌ بِتَهْيِئَةِ الْإِنْزَالِ وَالْإِلْطَافِ لِقَيْصَرَ وَهُوَ جَاءَ مِنْ حِمَصَ إِلَى إِبِلِيَاءَ، فَأَقَمْتُ عَلَى بَابِهِ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، فَقُلْتُ لِحَاجِبِهِ: إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ، فَقَالَ: لَا تَصِلْ إِلَيْهِ حَتَّى يَخْرُجَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَجَعَلَ حَاجِبُهُ - وَكَانَ رُومِيًّا - يَسْأَلُنِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكُنْتُ أَحَدُّهُ عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ فِيرِقَ حَتَّى يَغْلِبَهُ الْبُكَاءُ، وَيَقُولُ: إِنِّي قَدْ قَرَأْتُ الْإِنْجِيلَ، فَأَجِدُ صِفَةَ هَذَا النَّبِيِّ بَعِينَهُ، فَأَنَا أَوْ مِنْ بِهِ وَأُصَدِّقُهُ، وَأَخَافُ مِنَ الْحَارِثِ أَنْ يَقْتُلَنِي، قَالَ شُجَاعُ: وَكَانَ يُكْرِمُنِي وَيُحْسِنُ ضِيَافَتِي، وَخَرَجَ الْحَارِثُ يَوْمًا، فَجَلَسَ وَوَضَعَ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ، فَأَذِنَ لِي عَلَيْهِ، فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَهُ ثُمَّ رَمَى بِهِ وَقَالَ: مَنْ يُنْتَزِعُ مِنِّي مُلْكِي؟، أَنَا سَائِرُ إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ بِالْيَمَنِ جِئْتُهِ، عَلَيَّ بِالنَّاسِ، فَلَمْ يَزَلْ يَفْرِضُ حَتَّى قَامَ، وَأَمَرَ بِالْخِيُولِ تُنْعَلُ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْ صَاحِبَكَ مَا تَرَى، وَكَتَبَ إِلَيَّ قَيْصَرٌ يُخْبِرُهُ خَبْرِي وَمَا عَزَمَ عَلَيْهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ قَيْصَرٌ: أَلَّا تَسِيرُ إِلَيْهِ، وَالْهَ عَنَّهُ، وَوَأَفْنِي بِإِبِلِيَاءَ، فَلَمَّا جَاءَهُ جَوَابُ كِتَابِهِ دَعَانِي فَقَالَ: مَتَى تُرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ إِلَى صَاحِبِكَ؟، فَقُلْتُ: غَدًا، فَأَمَرَ لِي بِمِائَةِ مِثْقَالٍ ذَهَبٍ، وَوَصَّلَنِي حَاجِبُهُ، وَأَمَرَ لِي بِنَفَقَةٍ وَكِسْوَةٍ، وَقَالَ لِي: أَقْرِئْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنِّي السَّلَامَ، فَقَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «بَادَ مُلْكُهُ» وَأَقْرَأْتُهُ مِنْ حَاجِبِهِ السَّلَامَ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَ».

دعوة قيصر ملك الروم

وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى قَيْصَرَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَبَعَثَ بِكِتَابِهِ إِلَيْهِ مَعَ دَحِيَّةِ الْكَلْبِيِّ وَأَمْرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمٍ بُصْرَى لِيَدْفَعَهُ إِلَى قَيْصَرَ، وَكَانَ قَيْصَرٌ لَمَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ جُنُودَ فَارِسَ، مَشَى مِنْ حِمَصَ إِلَى إِيلِيَاءَ عَلَى الزَّرَّابِيِّ تَبَسُّطُ لَهُ شُكْرًا لِمَا أَبْلَاهُ اللَّهُ، وَكَانَ ابْنُ النَّاطُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهَرَقُلُ سُفْقًا عَلَى نَصَارَى الشَّامِ، فَأَصْبَحَ هَرَقُلُ يَوْمًا حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ حَيْثُ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدْ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ. قَالَ ابْنُ النَّاطُورِ: وَكَانَ هَرَقُلُ حَزَاءً - يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ - فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ فَمَنْ يَخْتِنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ فَقَالُوا: لَيْسَ يَخْتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ، فَلَا يُهَمِّنُكَ شَأْنُهُمْ، وَاکْتُبْ إِلَى مَدَائِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ، فَلَمَّا جَاءَ قَيْصَرَ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ حِينَ قَرَأَهُ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمْخَتَيْنِ هُوَ أَمْ لَا، فَانْظُرُوا إِلَيْهِ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُحْتَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ فَقَالَ: هُمْ يَخْتِنُونَ، فَقَالَ هَرَقُلُ: هَذَا مَلِكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ، التَّمَسُّوا لِي هَاهُنَا أَحَدًا مِنْ قَوْمِهِ لِأَسْأَلَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ بِالشَّامِ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدِمُوا تِجَارًا فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَوَجَدْنَا رَسُولَ قَيْصَرَ بِبَعْضِ الشَّامِ فَاذْطَلَقَ بِي وَبِأَصْحَابِي، حَتَّى قَدِمْنَا إِيلِيَاءَ، فَأَدْخَلْنَا عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مُلْكِهِ وَعَلَيْهِ التَّاجُ، وَإِذَا حَوْلَهُ عِظَمَاءُ الرُّومِ، فَقَالَ لِرَجُلَيْنِهِ: سَلُّهُمُ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ نَسَبًا، قَالَ: مَا قَرَابَةُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؟ فَقُلْتُ: هُوَ ابْنُ عَمِّي - وَلَيْسَ فِي الرُّكْبِ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ غَيْرِي - فَقَالَ قَيْصَرُ: أَذْنُوهُ،

وَأَمَرَ بِأَصْحَابِي فَجُعِلُوا خَلْفَ ظَهْرِي عِنْدَ كَيْفِي ثُمَّ قَالَ لِرَجْمَانِهِ: قُلْ لِأَصْحَابِي: إِنِّي سَأَلْتُ هَذَا الرَّجُلَ عَنِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَوَاللَّهِ لَوْ لَا الْحَيَاءُ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَنْ يَأْثُرَ أَصْحَابِي عَنِّي الْكَذِبَ، لَكَذَّبْتُهُ حِينَ سَأَلَنِي عَنْهُ، وَلَكِنِّي اسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَأْثُرُوا الْكَذِبَ عَنِّي فَصَدَقْتُهُ، ثُمَّ قَالَ لِرَجْمَانِهِ: قُلْ لَهُ: كَيْفَ نَسَبُ هَذَا الرَّجُلِ فِيكُمْ؟، قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا، فَقَالَ: كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ عَلَى الْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟، قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟، قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَأَشْرَفُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضِعْفَاؤُهُمْ؟، قُلْتُ: بَلْ ضِعْفَاؤُهُمْ، قَالَ: فَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟، قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟، قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟، قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ الْآنَ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ، وَنَحْنُ نَخَافُ أَنْ يَغْدِرَ. - قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَلَمْ تُمْكِنِي كَلِمَةً أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا أَنْتَفِصَهُ بِهِ - لَا أَخَافُ أَنْ تُؤْثِرَ عَنِّي - غَيْرَهَا، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ أَوْ قَاتَلَكُمْ؟، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَتْ حَرْبُهُ وَحَرْبُكُمْ؟، قُلْتُ: كَانَتْ دُولًا وَسِجَالًا، يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةُ، وَنُدَالُ عَلَيْهِ الْأُخْرَى، قَالَ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟، قُلْتُ: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَنَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالْعَفَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَادِّاءِ الْأَمَانَةِ، فَقَالَ لِرَجْمَانِهِ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ لَهُ: قُلْ لَهُ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فِيكُمْ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ ذُو نَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ، تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ؟، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتُمُّ بِقَوْلٍ قَدْ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ، لَقُلْتُ: يَطْلُبُ مَلِكُ آبَائِهِ، وَسَأَلْتُكَ: أَشْرَفُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضِعْفَاؤُهُمْ؟، فَزَعَمْتَ أَنْ ضِعْفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ،

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟، فَرَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَنْتَهِي، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَزِيدُ أَحَدٌ سَخَطَهُ لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَرَعَمْتَ أَنْ لَا، فَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ لَا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟، فَرَعَمْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا يَغْدِرُونَ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ وَقَاتَلَكُمْ؟، فَرَعَمْتَ أَنْ قَدْ فَعَلَ، وَأَنَّ حَرْبَكُمْ وَحَرْبُهُ تَكُونُ دُورًا، وَيَدَالُ عَلَيْكُمْ الْمَرَّةَ، وَتُدَالُونَ عَلَيْهِ الْأُخْرَى، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ، تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ، وَسَأَلْتُكَ: بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟، فَرَعَمْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَأَكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَكِنْ لَمْ أَظُنَّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقًّا، فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَلَوْ أَرَجُو أَنْ أَخْلَصَ إِلَيْهِ، لَتَجَشَّعْتُ لِقَائِهِ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ، لَعَسَلْتُ قَدَمَيْهِ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: ثُمَّ دَعَا هِرْقُلَ بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ فِيهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرْقُلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمَ تَسْلِمًا، أَسْلِمَ يُؤْتِيكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ، فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ^(١)، وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٢٠﴾». قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا أَنْ قَضَى مَقَالَتَهُ، عَلَتْ أَصْوَاتُ الَّذِينَ حَوْلَهُ مِنْ عُظَمَاءِ الرُّومِ، وَكَثُرَ لَغَطُهُمْ، فَلَا أَدْرِي مَاذَا قَالُوا، وَأَمَرَ بَنًا فَأَخْرَجَنَا، فَلَمَّا أَنْ خَرَجْتُ مَعَ أَصْحَابِي وَخَلَوْتُ بِهِمْ، قُلْتُ لَهُمْ: لَقَدْ أَمَرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، هَذَا مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ يَخَافُهُ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَوَاللَّهِ مَا زِلْتُ

(١) الأريسيون قيل: هم الفلاحون. وقيل: الأتباع عمومًا. والمعنى: أن عليك إثم رعاياك الذين

يتبعونك وينقادون بانقيادك. وقيل الأريسيون هم: الموحدون من النصارى والمنتسبون إلى

عبدالله بن آريوس.

مُسْتَيْقِنًا بِأَنَّهُ أَمْرُهُ سَيُظْهِرُ، حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ وَأَنَا كَارِهٌ.

ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبِ لَهُ بِرُومِيَّةٍ - وَكَانَ نَظِيرُهُ فِي الْعِلْمِ - وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمَصَ، فَلَمْ يَرَمْ حِمَصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ، يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسَكْرَةِ^(١) لَهُ بِحِمَصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَعُلِّقَتْ، ثُمَّ أَطْلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ؟ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ؟ فَنَبَّيْعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟، فَحَاصُوا حِيصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفَرَتَهُمْ وَأَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ؛ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، فَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي أَنَا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ.

ولما كان من قيصر ما كان أجاز دحية بن خليفة الكلبي بمال وكسوة، ولما كان دحية بحسَمي في الطريق لقيه ناس من جذام، فقطعوها عليه، فلم يتركوا معه شيئاً، فجاء دحية إلى رسول الله ﷺ قبل أن يدخل بيته فأخبره، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حَسَمي، وهي وراء وادي القرى، في خمسمائة رجل، فشن زيد الغارة على جذام، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً، واستاق نَعَمَهُمْ ونساءهم، فأخذ من النعم ألف بعير، ومن الشاة خمسة آلاف، والسبي مائة من النساء والصبيان. وكان بين النبي ﷺ وبين قبيلة جذام مودعة، فأسرع زيد بن رِفَاعَةَ الجذامي أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبي ﷺ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه، ونصروا دحية حين قطع عليه الطريق فقبل النبي ﷺ احتجاجه، وأمر برد الغنائم والسبي.

(١) الدَّسَكْرَةُ: الْقَصْرُ الَّذِي حَوْلَهُ بُيُوتٌ، وَكَأَنَّهُ دَخَلَ الْقَصْرَ ثُمَّ أَغْلَقَهُ، وَفَتَحَ أَبْوَابَ الْبُيُوتِ الَّتِي حَوْلَهُ، وَأَذِنَ لِلرُّومِ فِي دُخُولِهَا، ثُمَّ أَغْلَقَهَا، ثُمَّ أَطْلَعَ عَلَيْهِمْ فَخَاطَبَهُمْ، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ خَشْيَةً أَنْ يَثْبُوهَا بِهِ فَيَقْتُلُوهُ، كَمَا وَثَّقُوا بِضَغَاطِهِ وَهُوَ الْأَسْقَفُ الرُّومِيُّ نَظِيرُ هِرَقْلَ فِي الْعِلْمِ وَالَّذِي اسْتَشَارَهُ فَأَقْرَبَ بَعِثَةَ النَّبِيِّ وَأَسْلَمَ ثُمَّ خَرَجَ عَلَى الرُّومِ وَأَظْهَرَ لَهُمْ إِسْلَامَهُ فَقَتَلُوهُ.

دعوة كسرى ملك الفرس

وأهل فارس لما مات نبيهم، كتب لهم إبليس المجوسية، وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُذَافَةَ السَّهْمِيَّ إِلَى كِسْرَى يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَرِئَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَخَذَهُ فَمَزَّقَهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ مَزِّقْ مُلْكَهُ»، وَكَتَبَ كِسْرَى إِلَى بَاذَانَ عَامِلِهِ عَلَى الْيَمَنِ أَنْ أِبْعَثْ مِنْ عِنْدِكَ رَجُلَيْنِ جَلِدَيْنِ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بِالْحِجَازِ فَلْيَأْتِيَانِي بِخَبَرِهِ، فَبَعَثَ بَاذَانَ قَهْرْمَانَهُ وَرَجُلًا آخَرَ، وَكَتَبَ مَعَهُمَا كِتَابًا، فَقَدِمَا الْمَدِينَةَ وَفَرَّائِصُهُمَا تَزَعَدُ، فَدَفَعَا كِتَابَ بَاذَانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدَعَاهُمَا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَقَالَ: ارْجِعَا عَنِّي يَوْمَكُمْ هَذَا حَتَّى تَأْتِيَانِي الْغَدَ فَأُخْبِرَكُمَا بِمَا أُرِيدُ، فَجَاءَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَقَالَ لَهُمَا: «أَبْلِغَا صَاحِبَكُمَا أَنَّ رَبِّي قَدْ قَتَلَ رَبَّهُ كِسْرَى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لِسَبْعِ سَاعَاتٍ مَضَتْ مِنْهَا - وَهِيَ لَيْلَةُ الثَّلَاثَاءِ لِعَشْرِ لَيَالٍ مَضَيْنَ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ سَبْعٍ - وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ سَلَطَ عَلَيْهِ ابْنَهُ شِيرَوِيهَ فَقَتَلَهُ». فَارْجِعَا إِلَى بَاذَانَ بِذَلِكَ، فَأَسْلَمَ هُوَ وَالْأَبْنَاءُ^(١) الَّذِينَ بِالْيَمَنِ.



(١) يُقَالُ لِأَوْلَادِ فَارِسَ: الْأَبْنَاءُ، وَهُمْ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ كِسْرَى مَعَ سَيْفِ بْنِ ذِي يَزَنَ لَمَّا جَاءَ يَسْتَنْجِدُهُ عَلَى الْحَبَشَةِ، فَنَصَرُوهُ وَمَلَكَوْا الْيَمَنِ، وَتَدَيَّرُوْهَا وَتَزَوَّجُوا فِي الْعَرَبِ، فَقِيلَ لِأَوْلَادِهِمُ الْأَبْنَاءُ، وَغَلِبَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْاسْمُ؛ لِأَنَّ أُمَهَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ جِنْسِ آبَائِهِمْ.

دعوة المقوقس ملك القبط في مصر

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ اللَّخْمِيِّ ﷺ إِلَى الْمُقَوْقَسِ صَاحِبِ
الإِسْكَندَرِيَّةِ، عَظِيمِ الْقِبْطِ، يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا، فَأَوْصَلَ إِلَيْهِ كِتَابَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَهُ وَقَالَ لَهُ خَيْرًا، وَأَخَذَ الْكِتَابَ فَجَعَلَهُ فِي حُقٍّ مِنْ عَاجٍ، وَخَتَمَ عَلَيْهِ،
وَدَفَعَهُ إِلَى جَارِيَتِهِ، وَكَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: «قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ نَبِيًّا قَدْ بَقِيَ، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ
يَخْرُجُ بِالسَّامِ، وَقَدْ أَكْرَمْتُ رَسُولَكَ، وَبَعَثْتُ إِلَيْكَ بِجَارِيَتَيْنِ لَهُمَا مَكَانٌ عَظِيمٌ فِي
الْقِبْطِ، وَقَدْ أَهْدَيْتُ لَكَ كِسْوَةً، وَبَغْلَةً تَرْكَبُهَا». وَلَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا، وَلَمْ يُسَلِّمْ، فَقَبِلَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَدِيَّتَهُ، وَأَخَذَ الْجَارِيَتَيْنِ؛ مَارِيَةَ^(١) أُمَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأُخْتَهَا
سِيرِينَ، وَبَغْلَةً بَيْضَاءَ، لَمْ يَكُنْ فِي الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ غَيْرَهَا، وَهِيَ: ذُلْدُلٌ. قَالَ حَاطِبٌ:
كَانَ لِي مُكْرَمًا فِي الصِّيَافَةِ، وَقَلَّةَ اللَّبْثِ بِيَابِهِ، مَا أَقَمْتُ عِنْدَهُ إِلَّا خَمْسَةَ أَيَّامٍ، وَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَنَّ الْخَبِيثُ بِمُلْكِهِ، وَلَا بَقَاءَ لِمُلْكِهِ».



(١) هِيَ مَارِيَةُ بِنْتُ شَمْعُونِ أَهْدَاهَا الْمُقَوْقَسُ صَاحِبُ الإِسْكَندَرِيَّةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَنَةِ سَبْعٍ
مِنَ الْهَجْرَةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَطُورُهَا بِمُلْكِ الْيَمِينِ، وَضَرَبَ عَلَيْهَا مَعَ ذَلِكَ الْحِجَابَ،
فَحَمَلَتْ مِنْهُ، وَوَضَعَتْ ابْنَهُ ﷺ إِبْرَاهِيمَ، وَتُوفِّيَتْ ﷺ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ، وَذَلِكَ
فِي الْمَحْرَمِ سَنَةِ ١٦ هـ.

دعوة هُوذة الحنفي ملك اليمامة بنجد

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَلِيطَ بْنَ عَمْرِو الْعَامِرِيِّ ﷺ إِلَى هُوذَةَ بْنِ عَلِيٍّ الْحَنْفِيِّ
يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا، فَقَدِمَ عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَهُ وَحَبَاهُ، وَقَرَأَ كِتَابَ النَّبِيِّ ﷺ
وَرَدَّ رَدًّا دُونَ رَدٍّ، وَكَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: «مَا أَحْسَنَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ وَأَجْمَلُهُ، وَأَنَا شَاعِرُ
قَوْمِي وَخَطِيبُهُمْ، وَالْعَرَبُ تَهَابُ مَكَانِي، فَاجْعَلْ لِي بَعْضَ الْأَمْرِ، أَتَبِعُكَ»، وَأَجَازَ
سَلِيطَ بْنَ عَمْرِو بِجَائِزَةٍ، وَكَسَاهُ أَثَوَابًا مِنْ نَسِجِ هَجَرَ، فَقَدِمَ بِذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ
وَأَخْبَرَهُ عَنْهُ بِمَا قَالَ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِتَابَهُ، وَقَالَ: «لَوْ سَأَلَنِي سَيَابَةُ^(١) مِنْ الْأَرْضِ
مَا فَعَلْتُ، بَادَ وَبَادَ مَا فِي يَدَيْهِ». فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنْ عَامِ الْفَتْحِ، جَاءَهُ جَبْرِيلُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ
قَدْ مَاتَ.



(١) أي: ناحية، أو: قطعة من الأرض. هكذا فسّره ابن حديدة، وأما البرهان ففسّره بالبلح، أو
البسر تبعًا للقاموس، وهو أبلغ، لكن بتقدير مضاف، أي: قدر بلحة، أو بسرة من الأرض أو
المراد نفسه: البلحة، أو البسرة.

غزوة خيبر

ولما كانت خيبر معقل خيانة وعداوة من اليهود الذين تم إجلاؤهم من المدينة فقاموا بدعم قريش والأحزاب وتحريضهم على غزو المدينة وحرصوا بقية يهود المدينة، واستمروا في إعلان العداء والتأليب على المسلمين بكل ما استطاعوا؛ خَرَجَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ السَّابِعَةِ بِجَيْشٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَسَارَ إِلَى خَيْبَرَ فَجَاءَهَا لَيْلًا، وَكَانَ اللَّهُ ﷻ، قَدْ وَعَدَ رَسُولُهُ ﷺ عِنْدَ انْصِرَافِهِ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ بِفَتْحِهَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي طَلْحَةَ ﷺ: «الْتِمِسْ لَنَا غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي»، فَخَرَجَ بِي أَبُو طَلْحَةَ يُرْدِفُنِي وَرَاءَهُ وَأَنَا غُلَامٌ رَاهِقْتُ الْحُلْمَ، فَكُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ، يَقُولُ دَعَوَاتٍ لَا يَدْعُهُنَّ: كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْهَرَمِ، وَأَرْذِلِ الْعُمُرَ وَسُوءَ الْكِبَرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدِّينِ، وَغَلَبَةِ الْعُدُوِّ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ وَشِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ. قَالَ: ثُمَّ سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ، فَانْتَهَى إِلَيْهَا لَيْلًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَاءَ قَوْمًا بَلِيلًا، لَا يُغَيِّرُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ وَيَنْظُرَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا، أَغَارَ عَلَيْهِمْ بَعْدَمَا يُصْبِحُ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحَ قَرِيبًا مِنْ خَيْبَرَ بَغْلَسٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ وَلَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا؛ رَكِبَ وَرَكِبَ الْمُسْلِمُونَ، وَرَكِبْتُ خَلْفَ أَبِي طَلْحَةَ، فَأَتَيْنَاهُمْ حِينَ بَزَغَتِ الشَّمْسُ، فَأَجْرَى نَبِيُّ

اللَّهُ ﷻ فِي رُقَاقٍ خَيْرَ، وَإِنْ رُكِبَتِي لَتَمَسَّ فَخِذَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷻ وَانْحَسَرَ الْإِزَارُ عَنْ فَخِذِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷻ حَتَّى إِنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ فَخِذِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷻ فَخَرَجَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ بِمُؤَوِّسِهِمْ وَمَكَاتِلِهِمْ وَمُرُورِهِمْ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ إِلَى زُرُوعِهِمْ وَأَرَاضِيهِمْ وَأَخْرَجُوا مَوَاشِيَهُمْ، فَلَمَّا رَأَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷻ وَالْمُسْلِمِينَ؛ نَكَصُوا فَارْجَعُوا إِلَى حِصْنِهِمْ هَرَابًا يَسْعَوْنَ فِي السَّكَاكِ وَيَقُولُونَ: مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ، مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْدَرِينَ - قَالَهَا ثَلَاثًا - . قَالَ أَنَسُ: وَأَصَبْنَا حُمْرًا خَارِجًا مِنَ الْقَرْيَةِ، فَطَبَخْنَا مِنْهَا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلْتَ الْحُمْرُ، فَسَكَتَ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكَلْتَ الْحُمْرُ، فَسَكَتَ، ثُمَّ أَنَاهُ الثَّالِثَةُ فَقَالَ: أُفْنِيتِ الْحُمْرُ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ مُنَادِيًا فَنَادَى فِي النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمْرِ الْأَهْلِيَّةِ فَإِنَّهَا رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، فَأُكْفِفَتْ الْقُدُورُ، وَإِنَّهَا لَتَقُورُ بِاللَّحْمِ، قَالَ: فَأَصَبْنَا خَيْبَرَ عَنُوءً، وَهَزَمَهُمُ اللَّهُ ﷻ، وَظَهَرَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْحِصْنَ^(١)، فَقَتَلَ الْمُقَاتِلَةَ، وَسَبَى الدَّرَارِي، وَكَانَ فِي السَّبْيِ صَفِيَّةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَجَاءَ دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَعْطِنِي جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ، قَالَ: اذْهَبْ فَخُذْ جَارِيَةً، فَأَخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حَيٍّ، فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷻ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حَيٍّ بِنِ أَخْطَبٍ، سَيِّدَةَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَكَ، وَجَعَلُوا يَمْدَحُونَهَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷻ وَيَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا فِي السَّبْيِ مِثْلَهَا، وَذَكَرَ لَهُ جَمَالَهَا، وَكَانَ قَدْ قُتِلَ زَوْجُهَا وَكَانَتْ عَرُوسًا، فَقَالَ: «ادْعُوهُ بِهَا»، فَجَاءَ بِهَا، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷻ قَالَ: خُذْ جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ غَيْرَهَا، فَاصْطَفَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷻ لِنَفْسِهِ، فَاشْتَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷻ بِسَبْعَةِ أَرْوَاسٍ، ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَى أُمِّ سَلِيمٍ تُصَنِّعُهَا لَهُ وَتَهَيِّئُهَا، وَتَعْتَدُ فِي بَيْتِهَا.

(١) وكانت حصوناً عديدة، آخرها فتحت صلحاً.

وقد جعل الله تعالى فتح الحصون الأولى من خير عنوة على يد علي بن أبي طالب عليه السلام، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَاتِلَ أَهْلِ خَيْبَرَ، حَتَّى أَلْجَأَهُمْ إِلَى قَصْرِهِمْ، وَغَلَبَ عَلَى النَّخْلِ وَالْأَرْضِ؛ وَفَتَحَتِ الْحِصُونَ الْبَاقِيَةَ مِنْ خَيْرِ صُلْحًا، فَصَالَحُوهُ عَلَى أَنْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّفْرَاءَ (الذَّهَبَ) وَالْبَيْضَاءَ (الْفِضَّةَ) وَالْحَلَقَةَ (السَّلَاحَ وَالدَّرُوعَ) وَلَهُمْ مَا حَمَلَتْ رِكَابُهُمْ، وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا، فَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَكْتُمُوا وَلَا يُغَيِّبُوا شَيْئًا، فَإِنْ فَعَلُوا، فَلَا ذِمَّةَ لَهُمْ وَلَا عِصْمَةَ، فَعَبَّيُوا مَسْكَاً لِحَيِّ بْنِ أَخْطَبَ (جِلْدٌ فِيهِ ذَخِيرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَحُلِيِّ كَانَتْ تُدْعَى مَسْكَ الْجَمَلِ) - وَقَدْ كَانَ قُتِلَ بَعْدَ دُخُولِهِ حِصْنَ بَنِي قَرِيظَةَ بَعْدَ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ - كَانَ اخْتِمَلَهُ مَعَهُ إِلَى خَيْبَرَ حِينَ أُجْلِيَتِ النَّصِيرُ - فِيهِ حُلِيُّهُمْ -، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِسُغَيَّةَ (عَمِّ حَيٍّ): أَيْنَ مَسْكَ حَيٍّ بْنِ أَخْطَبَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنَ النَّصِيرِ؟ قَالَ: أَذْهَبَتْهُ الْحُرُوبُ وَالنَّفَقَاتُ، فَقَالَ ﷺ: «الْعَهْدُ قَرِيبٌ، وَالْمَالُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ»، فَدَفَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رضي الله عنه، فَمَسَّهُ بِعَذَابٍ - وَقَدْ كَانَ حَيٌّ قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ دَخَلَ خَرْبَةً - فَقَالَ: قَدْ رَأَيْتُ حَيًّا يَطُوفُ فِي خَرْبَةِ هَاهُنَا، فَذَهَبُوا فَطَافُوا، فَوَجَدُوا الْمَسْكَ، فَقَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ابْنَيْ أَبِي الْحَقِيقِ لِنَقْضِهِمَا الْعَهْدَ إِذْ غَيَّبَا الْمَسْكَ، وَأَحَدُهُمَا زَوْجُ صَفِيَّةَ بِنْتِ حَيٍّ بْنِ أَخْطَبَ، وَسَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُمْ وَذَرَارِيَهُمْ، وَقَسَمَ أَمْوَالَهُمْ، لِلنَّكَثِ الَّذِي نَكثُوهُ، وَأَرَادَ أَنْ يُجْلِيَهُمْ مِنْهَا، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، دَعْنَا نَكُونَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، نُصَلِّحُهَا وَنَقُومُ عَلَيْهَا، فَخَنُّ أَعْلَمُ بِالْأَرْضِ مِنْكُمْ، فَسَأَلَ الْيَهُودَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقْرَهُمْ بِهَا عَلَى أَنْ يَعْمَلُوهَا وَيَزْرَعُوهَا، وَلَهُمْ شَطْرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ - وَلَمْ يَكُنْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا لِأَصْحَابِهِ غِلْمَانُ يَقُومُونَ عَلَيْهَا، فَكَانُوا لَا يَتَفَرَّغُونَ أَنْ يَقُومُوا -؛ فَأَعْطَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ، عَلَى أَنْ لَهُمُ الشَّطْرُ مِنْ كُلِّ زَرْعٍ وَنَخْلٍ وَشَيْءٍ، وَقَالَ

لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نُفَرِّقْكُمْ بِهَا عَلَى ذَلِكَ مَا شِئْنَا، فَأَقْرُوهُ، فَأَقْرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(١)،
وَقَالَ لِأَحَدِ بَنِي أَبِي الْحَقِيقِ: «كَيْفَ بِكَ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْ خَيْبَرٍ، تَعْدُو بِكَ قُلُوبُكَ لَيْلَةً
بَعْدَ لَيْلَةٍ نَحْوَ الشَّامِ؟».



(١) وَأَهْلُ فَدَكٍ لَمَّا سَمِعُوا بِمَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَيْبَرٍ؛ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ أَنْ
يُسَيِّرَهُمْ وَيَحْقِنَ لَهُمْ دِمَاءَهُمْ، وَيُخْلُوا لَهُ الْأَمْوَالَ؛ فَفَعَلَ، فَصَالَحَهُ أَهْلُ فَدَكٍ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ،
فَكَانَتْ خَيْبَرُ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَتْ فَدَكُ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَأَنَّهُمْ لَمْ يَجْلِبُوا عَلَيْهَا بِخَيْلٍ
وَلَا رِكَابٍ. فَقَرَّرَ الْيَهُودُ بِخَيْبَرٍ حَتَّى أَجْلَاهُمْ عُمَرُ فِي إِمَارَتِهِ إِلَى تَيْمَاءَ وَأَرِيحَا لَمَّا غَدَرُوا بَابَنَهُ
عَبْدَ اللَّهِ، وَأَعْطَاهُمْ قِيمَةَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الثَّمَرِ مَالًا وَإِبِلًا وَعُرُوضًا مِنْ أَقْتَابٍ وَحِبَالٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ،
وَقَسَمَهَا عُمَرُ بَيْنَ مَنْ كَانَ شَهِدَ خَيْبَرَ مِنْ أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ. وَأَجْلَى كَذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه
فِي خِلَافَتِهِ يَهُودَ فَدَكٍ وَنَصَارَى نَجْرَانَ أَيْضًا مِنَ الْحِجَازِ، وَقِيلَ أَنَّهُ لَمْ يُخْرِجْ أَهْلَ تَيْمَاءَ وَوَادِي
الْقُرَى؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ أَرْضِ الشَّامِ لَا مِنَ الْحِجَازِ.

تسميم اليهود طعام النبي ﷺ في خيبر

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بخيبر بعد فتحها أهدت زَيْنَبُ بِنْتُ الْحَارِثِ اليهودية - امرأةً سَلامَ بْنِ مِشْكِمٍ - شاةً مَصْلِيَّةً (مشوية) للنبي ﷺ، وكانت قد سألت: أَيُّ عَضْوٍ مِنَ الشَّاةِ أَحَبُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقِيلَ لَهَا: الذَّرَاعُ، فَأَكْثَرَتْ فِيهَا مِنَ السُّمِّ، وَسَمَّمَتْ سَائِرَ الشَّاةِ، ثُمَّ جَاءَتْ بِهَا، - وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ - فَلَمَّا وَضَعَتْهَا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَنَاوَلَ الذَّرَاعَ فَلَاكَ مِنْهَا مُضْغَةً، فَلَمْ يُسْغَهَا (لم يتلعه)، وَمَعَهُ بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ، وَقَدْ أَخَذَ مِنْهَا كَمَا أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَمَّا بَشْرٌ فَأَسَاغَهَا، وَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَفَظَهَا، ثُمَّ قَالَ: «ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ، فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ». فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، فَاعْتَرَفَتْ، فَقَالَ: «مَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟»، فَقَالَتْ: بَلَغْتَ مِنْ قَوْمِي مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: إِنْ كُنْتُ نَبِيًّا، لَمْ يَضُرَّكَ الَّذِي صَنَعْتُ، وَإِنْ كُنْتُ مَلِكًا، أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَسْلُطَكَ عَلَيَّ»، فَقَالُوا: أَلَا نَقْتُلُهَا؟، قَالَ: «لَا»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنَ الْيَهُودِ»، فَجَمَعُوا لَهُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي سَأِلْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْهُ؟»، قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟»، قَالُوا: أَبُونَا فَلَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فَلَانٌ»، قَالُوا: صَدَقْتَ وَبَرَرْتَ، قَالَ: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟»، قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَاكَ عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي آبِنَا، فَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخَلَّفُونَا فِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اُخْسَتُوا فِيهَا، وَاللَّهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ

إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟»، قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا أَنْ نَسْتَرِيحَ مِنْكَ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ. فَمَاتَ بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه مِنْ أَكْلَتِهِ الَّتِي أَكَلَ. فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْيَهُودِيَّةِ فَقَتِلَتْ. قَالَ أَنَسٌ: فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ ^(١) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا احْتَجَمَ، فَسَافَرَ مَرَّةً، فَلَمَّا أَحْرَمَ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَاحْتَجَمَ ^(٢).



(١) لهوات: جمع لهاء، وهي سقف الفم، أو اللحمية المشرفة على الحلق، أو ما يبدو من الفم عند التبسم. كأنه بقي للسم علامة وأثر من سواد أو غيره.

(٢) احْتَجَمَ ﷺ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، وَهُوَ مُحْرِمٌ، فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ.

الرجوع من خيبر

قال أنس: ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ خَيْبَرَ وَجَعَلَهَا فِي ظَهْرِهِ، حَتَّى إِذَا بَلَّغْنَا سَدَّ الصَّهْبَاءِ حَلَّتْ، فَجَهَّزَتْ لَهُ أُمُّ سُلَيْمٍ صَفِيَّةً، فَأَهْدَتْهَا لَهُ مِنَ اللَّيْلِ، فَضْرَبَ عَلَيْهَا الْقُبَّةَ، فَبَنَى بِهَا، وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعِيْنِي صَفِيَّةَ خُضْرَةً، فَقَالَ: «يَا صَفِيَّةُ، مَا هَذِهِ الْخُضْرَةُ؟»، فَقَالَتْ: كَانَ رَأْسِي فِي حِجْرِ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ وَأَنَا نَائِمَةٌ فَرَأَيْتُ كَأَنَّ قَمَرًا وَقَعَ فِي حِجْرِي، فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَلَطَمَنِي وَقَالَ: تَمَنَّيْنِ مَلِكًا يَشْرِبُ؟، قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَبْغَضِ النَّاسِ إِلَيَّ، قَتَلَ زَوْجِي، وَأَبِي، وَأَخِي، فَمَا زَالَ يَعْتَذِرُ إِلَيَّ وَيَقُولُ: إِنَّ أَبَاكَ أَلْبَ عَلَيَّ الْعَرَبَ، وَفَعَلَ وَفَعَلَ، حَتَّى ذَهَبَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي، فَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلٌ زَادَ فُلْيَأْتِنَا بِهِ، وَبَسَطَ نِطْعًا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالتَّمْرِ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالسَّمْنِ وَالسَّوْبِقِ، قَالَ أَنَسُ: فَدَعَوْتُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى وَلِيمَتِهِ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ خُبْزٍ وَلَا لَحْمٍ، وَمَا كَانَ فِيهَا إِلَّا أَنْ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَنْطَاعِ فَبَسَطْتُ، فَأَلْقَى عَلَيْهَا التَّمْرَ وَالْأَقِطَ وَالسَّمْنَ، فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ ذَلِكَ الْحَيْسِ، وَيَشْرَبُونَ مِنْ حِيَاضٍ إِلَى جَنْبِهِمْ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ، فَكَانَتْ تِلْكَ وَلِيمَةً رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى صَفِيَّةَ، وَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى صَفِيَّةَ بِطَرِيقِ خَيْبَرَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حِينَ عَرَسَ بِهَا، وَكَانَتْ ثِيْبًا، فَقَالَ ثَابِتٌ لِأَنَسٍ: مَا أَصْدَقَهَا؟، قَالَ: أَصْدَقَهَا نَفْسَهَا فَأَعْتَقَهَا، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ؟، أَوْ مِمَّا مَلَكَتْ يَمِينُهُ؟، فَقَالُوا: إِنْ حَجَبَهَا فَهِيَ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ لَمْ يَحْجُبْهَا فَهِيَ مِمَّا مَلَكَتْ يَمِينُهُ، فَلَمَّا ارْتَحَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَطَأَّ لَهَا خَلْفَهُ، وَمَدَّ الْحِجَابَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّاسِ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَوِّي لَهَا وَرَاءَهُ بَعَاءَةً، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ، فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ، فَتَضَعُ صَفِيَّةُ

رَجَلَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ حَتَّى تَرَكَبَ، فَقَعَدَتْ عَلَى عَجْزِ الْبَعِيرِ، فَعَرَفُوا أَنَّهُ قَدْ تَزَوَّجَهَا، فَانْطَلَقْنَا، حَتَّى إِذَا رَأَيْنَا جُدْرَ الْمَدِينَةِ، هَشَشْنَا إِلَيْهَا فَرَفَعْنَا مَطِينًا، وَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَطِينَتَهُ، فَعَثَرَتْ نَاقَتُهُ، الْعُضْبَاءُ، فَضَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمَرْأَةُ، قَالَ ثَابِتٌ: قُلْتُ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، أَوْقَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟، قَالَ: إِي وَاللَّهِ لَقَدْ وَقَعَ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَلَا إِلَيْهَا، فَاقْتَحَمَ أَبُو طَلْحَةَ عَنْ نَاقَتِهِ، فَاتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، هَلْ أَصَابَكَ مِنْ شَيْءٍ؟، قَالَ: لَا، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْمَرْأَةِ، إِنَّهَا أُمُّكُمْ، فَأَلْقَى أَبُو طَلْحَةَ ثَوْبَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَقَصَدَ قَصْدَهَا، فَأَلْقَى ثَوْبَهُ عَلَيْهَا، فَسَرَهَا، فَقَامَتِ الْمَرْأَةُ، وَاکْتَفَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاتَيْنَاهُ، فَقَالَ: «لَمْ نُضَرَّ»، قَالَ أَنَسٌ: وَأَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ يَنْظُرْنَ، فَقُلْنَا: أَبْعَدَ اللَّهُ الْيَهُودِيَّةَ، وَفَعَلَ بِهَا وَفَعَلَ، وَخَرَجَ جَوَارِي نِسَائِهِ يَتَرَاءَيْنَهَا، وَيَشْمَتْنَ بِصُرْعَتِهَا، قَالَ: فَأَصْلَحَ لَهُمَا أَبُو طَلْحَةَ مَرْكَبَهُمَا، وَشَدَّ لَهُمَا عَلَى رَاِحَتَيْهِمَا فَرَكَبَا، فَمَسَرْنَا حَتَّى إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ، نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَحَدٍ، فَقَالَ: إِنَّ أَحَدًا هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ، ثُمَّ أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْرَمُ مَا بَيْنَ لَا بَتَيْهَا^(١)، مَا بَيْنَ جَبَلَيْنِهَا، بِمِثْلِ مَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، أَنْ يُقَطَعَ عِضَاهُمَا، أَوْ يُقْتَلَ صَيْدُهَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَكِيلِهِمْ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي مُدِّهِمْ - يَعْنِي أَهْلَ الْمَدِينَةِ - اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفِي مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ. قَالَ أَنَسٌ: حَتَّى إِذَا كُنَّا بِظَهْرِ الْمَدِينَةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «آيُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمْ أَزَلْ أَخْدُمُهُ حَتَّى أَقْبَلْنَا مِنْ خَيْبَرَ.



عودة المهاجرين من الحبشة

ثم كانت عودة المهاجرين من الحبشة، قال أَبُو مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلَّغَنَا مَخْرُجُ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ فَخَرَجْنَا مُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ أَنَا وَأَخْوَانِي لِي أَنَا أَصْغَرُهُمْ أَحَدُهُمَا أَبُو بُرْدَةَ وَالْآخَرُ أَبُو رُحْمٍ - إِمَّا قَالَ فِي بَضْعٍ وَإِمَّا قَالَ فِي ثَلَاثَةِ وَخَمْسِينَ، أَوْ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِي - فَرَكِبْنَا سَفِينَةً فَأَلْقَيْنَا سَفِينَتَنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ بِالْحَبَشَةِ وَوَأَفَقْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابَهُ عِنْدَهُ فَقَالَ جَعْفَرٌ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَنَا هَاهُنَا وَأَمَرَنَا بِالْإِقَامَةِ فَأَقِيمُوا مَعَنَا فَأَقَمْنَا مَعَهُ حَتَّى قَدِمْنَا جَمِيعًا فَوَأَفَقْنَا النَّبِيَّ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ فَأَسْهَمَ لَنَا، فَأَعْطَانَا مِنْهَا، وَمَا قَسَمَ لِأَحَدٍ غَابَ عَنْ فَتْحِ خَيْبَرَ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا لِمَنْ شَهِدَ مَعَهُ، إِلَّا أَصْحَابَ سَفِينَتِنَا مَعَ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ؛ قَسَمَ لَهُمْ مَعَهُمْ.



غزوة ذات الرقاع جهة نجد

ثم كانت غزوة ذات الرقاع بعد خيبر لأنَّ أبا موسى جاء بعد خيبر وكان من المهاجرين في الحبشة وشهدها. فخرج النبي ﷺ إلى ذات الرقاع من نخل قبل نجد، فلقى جمعا من غطفان فلم يكن قتال وأخاف الناس بعضهم بعضا فصلَّى النبي ﷺ ركعتي الخوف. قال أبو موسى رضي الله عنه: خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بغير نعتبه فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي وسقطت أظفاري وكنا نلف على أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا. وقال ابن عباس صلى النبي ﷺ الخوف بذي قرد. وأن طائفة صفت معه وطائفة وجاء العدو، فصلَّى بالتي معه ركعة ثم ثبَّت قائما وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصَفُّوا وجاء العدو. وجاءت الطائفة الأخرى فصلَّى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ثم ثبَّت جالسا وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم.



إرسال السرايا إلى عَجَز وفدك والميفعة وغطفان والغابة

وفي شعبان بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ثلاثين رجلاً إلى عَجَز محل بينه وبين مكة أربع ليال بطريق صنعاء يقال له تربة وأرسل ﷺ دليلاً من بني هلال فكان يسير الليل ويكمن النهار فأتى الخبر لهوازن فهربوا فجاء عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه محالهم فلم يجد منهم أحداً فانصرف راجعاً إلى المدينة فلما كان بمحل بينه وبين المدينة ستة أميال قال له الدليل: هل لك في جمع آخر من خثعم؟ فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: لم يأمرني رسول الله ﷺ بهم إنما أمرني بقتال هوازن.

وفي شعبان أيضاً بعث رسول الله ﷺ سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بناحية فدك، في ثلاثين رجلاً. وخرج إليهم واستاق الشاء والنعم، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل، فرموهم بالنبل حتى فني نبل بشير وأصحابه، فقتلوا جميعاً إلا بشير، فإنه ارتث^(١) إلى فدك، فأقام عند يهود حتى برأت جراحه، فرجع إلى المدينة.

وفي رمضان بعث رسول الله ﷺ سرية غالب بن عبد الله الليثي، إلى بني عُوَال وبني عبد بن ثعلبة بالميفعة، وقيل إلى الحرقات من جهينة في مائة وثلاثين رجلاً؛ فهجموا عليهم جميعاً، وقتلوا من أشرف لهم، واستاقوا نعماً وشاءً، وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد نهيك بن مرداس بعد أن قال: لا إله إلا الله، فلما قدموا وأخبر النبي ﷺ، كبر عليه وقال: (أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟) فقال: إنما قالها متعوذاً قال: (فهلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟).

(١) ارتث: حمل من المعركة بعد إصابته وبه رمق.

وفي شوال بعث رسول الله ﷺ سرية عبدالله بن رواحة إلى خيبر، في ثلاثين راكباً. وذلك أن أسير أو بشير بن زارم كان يجمع غطفان لغزو المسلمين، فأخرجوا أسيراً في ثلاثين من أصحابه، وأطمعوه أن الرسول ﷺ يستعمله على خيبر، فلما كانوا بقرقرة نيار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين.

وفي ذي القعدة بعث رسول الله ﷺ سرية أبي حذرّد الأسلمي إلى الغابة وسبب ذلك أن رجلاً من جُشم بن معاوية أقبل في عدد كبير إلى الغابة، يريد أن يجمع قيساً على محاربة المسلمين. فبعث رسول الله ﷺ أبا حذرّد مع رجلين ليأتوا منه بخبر وعلم، فوصلوا إلى القوم مع غروب الشمس، فكمن أبو حذرّد في ناحية، وصاحبه في ناحية أخرى، وأبطأ على القوم راعيهم حتى ذهب فحمة العشاء، فقام رئيس القوم وحده، فلما مر بأبي حذرّد رماه بسهم في فؤاده فسقط ولم يتكلم، فاحتز أبو حذرّد رأسه، وشد في ناحية العسكر وكبر، وكبر صاحبه وشدا، فما كان من القوم إلا الفرار، واستاق المسلمون الثلاثة الكثير من الإبل والغنم.



عمرة القضاء

وكانت عمرة القضية (عمرة القضاء) في ذي القعدة سنة سبع، وقدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يثرب. قال المشركون إنه يقدم عليكم غدا قوم قد وهنتهم الحمى ولقوا منها شدة. فجلسوا مما يلي الحجر وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواط ويمشوا ما بين الركنين ليرى المشركون جلدهم فقال المشركون هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا. قال ابن عباس ولم يمنع أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم. وعندما أحل من هذه العمرة تزوج النبي ﷺ بميمونة رضي الله عنها.

وفي ذي الحجة بعث رسول الله ﷺ إلى بني سليم سرية ابن أبي العوجاء، في خمسين رجلاً، وذلك ليدعوهم إلى الإسلام؛ فقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا، ثم قاتلوا قتالاً شديداً. جرح فيه أبو العوجاء، وأسر رجلان من العدو.



السنة الثامنة من الهجرة

وفاة زينب بنت محمد ﷺ

وَتُوفِّيَتْ فِي أَوَّلِ سَنَةِ ثَمَانٍ زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَكْبَرُ أَخَوَاتِهَا، مِنْ الْمُهَاجِرَاتِ السَّيِّدَاتِ. تَزَوَّجَهَا فِي حَيَاةِ أُمِّهَا - أَيْ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - ابْنُ خَالَتِهَا أَبُو الْعَاصِ؛ فَوَلَدَتْ لَهُ أُمَامَةً^(١)، وَوَلَدَتْ لَهُ: عَلِيَّ بْنَ أَبِي الْعَاصِ. وَقَدْ أَسْلَمَتْ زَيْنَبُ، وَهَاجَرَتْ قَبْلَ إِسْلَامِ زَوْجِهَا بِسِتِّ سِنِينَ. قَالَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ: لَمَّا مَاتَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اغْسِلْنَهَا وَتَرَا ثَلَاثًا أَوْ خَمْسًا وَاجْعَلْنَ فِي الْخَامِسَةِ كَافُورًا أَوْ شَيْئًا مِنْ كَافُورٍ فَإِذَا غَسَلْتُنَّهَا فَأَعْلِمْنِي». قَالَتْ: فَأَعْلَمْنَاهُ، فَأَعْطَانَا حِقْوَهُ وَقَالَ «أَشْعِرْنَهَا إِيَّاهُ»^(٢).

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص

وفي شهر صفر أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، وروي بإسناد مرسل أنهم لما حضروا عند النبي ﷺ قال: «إِنْ مَكَّةَ قَدْ أَلَقْتَ إِلَيْنَا أَفْلَازَ كِبْدَهَا».

(١) أُمَامَةُ هِيَ الَّتِي تَزَوَّجَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَ فَاطِمَةَ بَوْصِيَّةٍ مِنْ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَاتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ وَأَهْلُ السَّيَرِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَقِبٌ اسْتَمَرَ إِلَّا مِنْ فَاطِمَةَ.

(٢) (حِقْوَهُ) تَعْنِي: إِزَارَهُ. وَ«أَشْعِرْنَهَا» أَيْ: اجْعَلْنَاهُ شَعَارًا لَهَا، وَالشَّعَارُ: مَا يَلْبَسُهُ الْجَسَدُ مِنَ الثِّيَابِ، وَالذِّثَارُ مَا فَوْقَهُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «الْأَنْصَارُ شَعَارُ النَّاسِ وَالدِّثَارُ».

إرسال السرايا إلى بني الملوح وقضاة وهوازن

وفيه بعث رسول الله ﷺ سرية غالب بن عبد الله الليثي في بضعة عشر رجلاً إلى بني الملوح بالكُذَيْد. وكان بنو الملوح قد قتلوا أصحاب بشير بن سُويْد، فبعثت هذه السرية لأخذ الثَّار، فشَنُوا الغارة في الليل؛ فأصابوا من العدو نعمًا، وقتلوا منهم قتلى، وساقوا النعم، وطاردتهم جيش كبير من العدو، حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين، ونجح المسلمون في بقية الانسحاب.

وَلَمَّا رَجَعَ غَالِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْكُذَيْدِ مُؤَيَّدًا بِنَصْرِ اللَّهِ لَهُ، بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي صَفَرٍ إِلَى حَيْثُ أَصِيبَ أَصْحَابُ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ، وَذَلِكَ فِي بَنِي مُرَّةَ نَاحِيَةٍ فَذَكَ، فَأَصَابُوا مِنْهُمْ نَعْمًا، وَقَتَلُوا مِنْهُمْ قَتْلَى.

وفي ربيع الأول بعث رسول الله ﷺ سرية ذات أطلح بقيادة كعب بن عمير الأنصاري في خمسة عشر رجلاً إلى بني قُضَاعَة حيث كانت قد حشدت جموعاً كبيرة للإغارة على المسلمين، فلقوا العدو جمعاً كثيراً، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، وأرشقوهم بالنبل حتى قتلوا كلهم إلا رجلاً واحداً، فقد ارتُث من بين القتلى وعاد للمدينة.

وكانت بنو هوازن قد مدت يد المعونة لأعداء المسلمين مراراً، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ شُجَاعُ بْنُ وَهَبِ الْأَسَدِيِّ في خمسة وعشرين رجلاً، وهم بالسَّيِّ^(١)،

(١) السَّيِّ: بكسر السين وتشديد الياء: ماء بين ذات عِرْق ووجرة على ثلاث مراحل من مكة إلى البصرة.

ناحية ركبة، من وراء المعدن، وهي من المدينة على خمس ليال، وأمره أن يغير عليهم، فكان يسير الليل ويكمن النهار، حتى أصبحهم وهم غارون، وقد أوعز إلى أصحابه ألا يمعنوا في الطلب، فأصابوا نعمًا كثيرًا وشاء، ولم يلقوا كيدًا، واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة، واقتسموا الغنيمة، فكانت سهمانهم خمسة عشر بعيرًا لكل رجل، وعدلوا البعير بعشر من الغنم، وكان مغيبهم خمس عشرة ليلة.



غزوة مؤتة

وفي جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة أرسل النبي ﷺ سرية إلى مؤتة. وكان عدة هذه السرية ثلاثة آلاف مقاتل، بينما روي أن عدة الروم كانت مائة ألف مقاتل. وقد أمر ﷺ على الجيش زيد بن حارثة، ثم قال عليه الصلاة والسلام: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة. وقد قتل الثلاثة كلهم في أرض المعركة التي دارت بينهم وبين الروم، فأخذ الراية ثابت بن أقرم، فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فلما أخذ الراية دافع القوم، وحاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه، حتى انصرف بالناس، فتمكن من الانسحاب بمن معه من المسلمين. ونعى النبي ﷺ زيدا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ - وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ - حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ». قال خالد بن الوليد ﷺ: «لَقَدْ انْقَطَعَتْ فِي يَدِي يَوْمَ مُؤَتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ فَمَا بَقِيَ فِي يَدِي إِلَّا صَفِيحَةٌ يَمَانِيَّةٌ». وهذا يقتضي أنهم أئخنوا في العدو قتلاً، ولو لم يكن كذلك لما قدروا على التخلص منهم، ولهذا السبب ولغيره ذهب بعض المحققين إلى أن المسلمين قد انتصروا في هذه المعركة، ولم يهزموا.



غزوة ذات السلاسل

وفي جمادى الآخرة وقعت غزوة ذات السلاسل. قيل سميت ذات السلاسل؛ لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا، وقيل لأن بها ماء يقال له السلسل، وكانت بعد غزوة مؤتة. وفيها أن جمعاً من قضاة تجمعا وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة فدعا النبي ﷺ عمرو بن العاص فعقد له لواء أبيضاً وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار. قال عمرو بن العاص ﷺ: بعث إليّ رسول الله ﷺ فقال: «خذ عليك ثيابك، وسلاحك، ثم اتني»، فأتيته، وهو يتوضأ، فصعد في النظر، ثم طأطأ، فقال: «إني أريد أن أبعثك على جيش، فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة»، قال: قلت: يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال، ولكنني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ، فقال: «يا عمرو، نعم المال الصالح للمرء الصالح». ولما بعثه في ذات السلاسل سأله أصحابه أن يوقدوا ناراً فمنعهم فكلموا أبا بكر، فكلمه في ذلك فقال: لا يؤقّد أحد منهم ناراً إلا قذفه فيها. قال: فلقوا العدو فهزموهم، فأرادوا أن يتبعوهم فمنعهم، فلما انصرف ذلك الجيش ذكروا للنبي ﷺ وشكوه إليه، فقال: يا رسول الله إني كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قتلهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم. فحمد رسول الله ﷺ أمره.

وفي شعبان بعث رسول الله ﷺ أبا قتادة بن ربعي ﷺ في سرية إلى خِصْرَة؛ وذلك لأن بني غطفان كانوا يحتشدون في خِصْرَة - وهي أرض مُحَارِب بنَجْد - فبعثه ﷺ في خمسة عشر رجلاً، فقتل منهم، وسبى وغنم، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

فتح مكة وهدم الأصنام

ثم كانت غزوة فتح مكة في رمضان، وكان سببها أن المشركين قد نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأغاروا مع بني بكر في شهر شعبان من السنة الثامنة للهجرة على إحدى القبائل المحالفة للرسول عليه الصلاة والسلام - وهي قبيلة خزاعة -، ولما علم النبي ﷺ بالأمر واستنصرته خزاعة؛ أمر الناس بالتجهز دون أن يخبرهم بوجهته. وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها»، وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال، تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي، إلى بطن إضم، فيما بين ذي خشب وذو المروة، على ثلاثة بُرد من المدينة، في أول هذا الشهر الكريم؛ ليظن الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار، وواصلت هذه السرية سيرها، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة، فسارت إليه حتى لحقته. ولَمَّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسِيرَ إِلَى مَكَّةَ، كَتَبَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ ﷺ كِتَابًا إِلَى قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ بِمَسِيرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَعْطَاهُ امْرَأَةً مِنْ مُزَيْنَةَ، وَجَعَلَ لَهَا جُعْلًا عَلَى أَنْ تُبَلِّغَهُ قُرَيْشًا، وجاء الوحي فأرسل رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ وَأَبَا مَرْثِدَ الْغَنَوِيِّ إِلَى رَوْضَةِ خَاخٍ لِيَحْضُرُوا الصَّحِيفَةَ فَأَتَوْا بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ ﷺ لِحَاطِبٍ: «يَا حَاطِبُ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟».

قال: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي كُنْتُ امْرَأًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، - أَيَّ كَانَ حَلِيفًا لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا -، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عَنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ

بِهَا قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ كُفْرًا، وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ». فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي أَضْرِبْ عَنْقَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَحْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَعْمَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١﴾. وَقد خَرَجَ ﷺ فِي عَاشِرِ رَمَضَانَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ عَشْرَةُ آلَافٍ، وَذَلِكَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِ سِنِينَ وَنُصْفٍ مِنْ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ فَسَارَ هُوَ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَكَّةَ يَصُومُ وَيَصُومُونَ حَتَّى بَلَغَ الْكَدِيدَ، وَهُوَ مَاءٌ بَيْنَ عُسْفَانَ وَقُدَيْدٍ - فَأَفْطَرُ وَأَفْطَرُوا. وَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْجُحْفَةَ لَقِيَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مُهَاجِرًا بِأَهْلِهِ وَعِيَالِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَمَا كَانَ يَعْلَمُ عَنْ أَمْرِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، فَدَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَفَرِحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِ فَرَحًا عَظِيمًا. ثُمَّ مَضَى حَتَّى نَزَلَ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ وَهُوَ وَادٍ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ (١)، وَأَخَذَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَهُمْ فِي مَرِّ الظَّهْرَانِ - يَجْنُونَ ثَمَرَ الْكَبَاثِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالْأَسْوَدِ مِنْهُ، فَإِنَّهُ أَطْيَبُهُ»، قَالَ: فَقُلْنَا: أَكُنْتَ تَرَعَى الْغَنَمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَهَلْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَاهَا». وَكَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى دِقَّةِ سَاقِي ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ يَرْقَى فِي الشَّجَرَةِ، فَيَصْحَكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِمَّ تَصْحَكُونَ؟» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مِنْ دِقَّةِ سَاقِيهِ، فَقَالَ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ». وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِإِقَادِ النَّيْرَانِ لَيْلًا، فَأَوْقَدُوا النَّيْرَانَ، فَكَانَ مَنْظَرًا مَهِيْبًا، وَاسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْحَرَسِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَخَرَجَ

(١) ويسمى اليوم: وادي فاطمة.

أَبُو سُفْيَانَ - وَمَعَهُ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ - يَلْتَمِسُونَ الْأَخْبَارَ فَرَأَى جَيْشَ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ دُخُولِهِ مَكَّةَ، فَهَالَهُ مَا رَأَى. ثُمَّ أَسْلَمَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ. ثُمَّ جَاءَ إِلَى قَوْمِهِ وَصَرَخَ فِيهِمْ مُحَذِّرًا لَهُمْ بِأَنْ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِجَيْشِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَالَ لَهُمْ مَا قَالَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ». فَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى دُورِهِمْ وَإِلَى الْمَسْجِدِ. وَنَزَلَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ بِذِي طُوًى، وَأَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَنْظِيمَ وَتَرْتِيبَ جَيْشِهِ، وَعَهَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَمْرَائِهِ: «لَا تُقَاتِلُوا إِلَّا مَنْ قَاتَلَكُمْ، وَنَهَاهُمْ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، وَأَنْ لَا يُجْهَزُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلَا يُتَبْعُوا مُدْبِرًا»، وَاسْتَشْنَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشْرَةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْأَمَانِ وَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ وَإِنْ وُجِدُوا مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ. وَوَبَّشَتْ قُرَيْشٌ أَوْبَاشًا لَهَا، وَأَتْبَاعًا مِنْ بَنِي بَكْرٍ وَبَنِي الْحَارِثِ ابْنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَهَذِيلَ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يَكُونُوا بِأَسْفَلِ مَكَّةَ، وَقَالُوا: نُقَدِّمُ هَؤُلَاءِ، فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ كُنَّا مَعَهُمْ، وَإِنْ أُصِيبُوا أَعْطَيْنَا الَّذِي سُئِلْنَا، فَلَمَّا عَلِمَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَعَى الْأَنْصَارَ وَقَالَ: «تَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشٍ قُرَيْشٍ وَأَتْبَاعِهِمْ، اخْصُدُوهُمْ خَصْدًا، حَتَّى تُؤَافِقُونِي بِالصَّفَا». وَقَدْ أَهْدَرَ النَّبِيُّ ﷺ دَمَ بَعْضِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْفَتْحِ. وَدَخَلَ خَالِدٌ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَلَقِيَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، وَعَكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْخَنْدَمَةِ، فِي جَمْعٍ مِنْ أَوْبَاشٍ قُرَيْشٍ وَأَتْبَاعِهَا، فَمَنَعُوهُ مِنَ الدُّخُولِ، وَشَهَرُوا السَّلَاحَ، وَرَمَوْهُ بِالنَّبْلِ، فَقَاتَلَهُمْ خَالِدٌ ﷺ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ قَرِيبًا مِنْ عَشْرِينَ رَجُلًا، وَأَنْهَزَمُوا، وَاسْتَمَرَّ خَالِدٌ ﷺ يَدْفَعُهُمْ حَتَّى انْتَهَى بِهِمُ الْقَتْلُ إِلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، صَاحَ بِهِمْ: مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ وَكَفَّ يَدَهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَجَعَلُوا يَفْتَحُونَ الدُّورَ، وَيُغْلِقُونَ أَبْوَابَهَا عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى خَالِدٍ ﷺ: يَا مُرُّهُ أَنْ يَرْفَعَ يَدَهُ عَنِ الْقَتْلِ، فَلَمَّا قَدِمَ خَالِدٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَامَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ لَهُ: «لِمَ قَاتَلْتَ، وَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنِ الْقِتَالِ؟». فَقَالَ: هُمْ بَدَّؤُونَا بِالْقِتَالِ، وَوَضَعُوا فِينَا السَّلَاحَ، وَأَشْعَرُونَا بِالنَّبْلِ، وَقَدْ

كَفَفْتُ يَدَيَّ مَا اسْتَطَعْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَضَاءُ اللَّهِ خَيْرٌ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُفُّوا عَنِ السَّلَاحِ إِلَّا خِرَاعَةً مِنْ بَنِي بَكْرِ»، فَأُذِّنَ لَهُمْ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ صَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُفُّوا السَّلَاحَ». ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ مِنْ أَعْلَاهَا مِنْ كَدَاءٍ فِي كَتِيبَتِهِ الْخَضْرَاءِ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ﷺ، وَذَلِكَ بُكْرَةَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ لِعَشْرِ لَيَالٍ بَقِيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَهُوَ رَاكِبٌ نَاقَتَهُ الْقَصْوَاءَ مُرْدِفًا أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ﷺ خَلْفَهُ، عَلَى رَأْسِهِ الْمَغْفَرُ، وَاضِعًا رَأْسَهُ الشَّرِيفَ عَلَى رَاِحِلَتِهِ تَوَاضَعًا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ رَأَى مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ، حَتَّى إِنَّ لِحْيَتَهُ لَتَكَادُ تَمَسُّ وَسْطَ رَحْلِهِ ﷺ، وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ يُرْجِعُ بِهَا صَوْتَهُ، وَسَمِيَ عَامَ الْفَتْحِ. وَاغْتَسَلَ فِي دَارِ أُمِّ هَانِيٍّ ﷺ، ثُمَّ صَلَّى ثَمَانِي رَكَعَاتٍ فِي بَيْتِهَا، وَذَلِكَ ضُحَى. ثُمَّ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَالْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَخَلْفَهُ وَحَوْلَهُ، يُهَلِّلُونَ وَيُكَبِّرُونَ، فَأَقْبَلَ إِلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فَاسْتَلَمَهُ بِمِخْجَنِ فِي يَدِهِ، وَوَجَدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ حَوْلَ الْبَيْتِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتِينَ نَصَبًا، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بَعُودَ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يَعِيدُ». وَأَحْضَرَ لَهُ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ، وَطَهَرَتِ الْكَعْبَةُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالصُّوَرِ، ثُمَّ أَغْلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَابَ الْكَعْبَةِ، وَمَا كَانَ مَعَهُ فِيهَا إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَبِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ، وَصَلَّى فِيهَا رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ. وَخَطَبَ فِي أَهْلِ مَكَّةَ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟». قَالُوا: خَيْرًا، أَخُ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾»، فَعَفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمْ جَمِيعًا، وَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ.

ثُمَّ دَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ، وَنَزَلَ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ

تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعْظُمُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ . وَيَوْمَ الْفَتْحِ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَمِيعَ الصَّلَوَاتِ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ، وَحَرَّمَ ﷺ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخَنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ، وَحَرَّمَ نِكَاحَ الْمُتَعَةِ تَحْرِيمًا نَهَائِيًّا. وَأَسْلَمَ أَبُو قُحَافَةَ وَالِدُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ ﷺ. وَتَخَوَّفَ الْأَنْصَارُ مِنْ بَقَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، فَقَالَ ﷺ: «كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ، وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ».

وَاجْتَمَعَ النَّاسُ بِمَكَّةَ لِبَيْعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَلَسَ لَهُمْ عَلَى الصِّفَاءِ، ثُمَّ بَايَعَ النِّسَاءَ، وَفِيهِنَّ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ. وَأَقَامَ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ بِمَكَّةَ تِسْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا عَلَى الْأَرْحِجِ.

وَفِي رَمَضَانَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ إِلَى سِوَاعٍ لِيَهْدِمَهُ، وَسِوَاعٌ صَنْمٌ لِقَوْمِ نُوْحٍ ؑ، ثُمَّ صَارَ بَعْدَ ذَلِكَ لِقَبِيلَةِ هَذِيلِ الْمَضَرِيَّةِ، وَظَلَّ هَذَا الْوُثْنُ مَنْصُوبًا تَعْبُدُهُ هَذِيلٌ وَتَعْظُمُهُ، حَتَّى إِذَا كَانُوا يَحْجُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى فَتَحَتْ مَكَّةَ وَدَخَلَتْ هَذِيلَ فَيَمْنُ دَخَلَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَكَانَ مَوْضِعُهُ بَرْهَاطَ عَلَى قَرَابَةِ ١٥٠ كِيلُو مِتْرًا شَمَالَ شَرْقِي مَكَّةَ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ عَمْرُو قَالَ لَهُ السَّادَنُ: مَا تَرِيدُ؟ قَالَ: أَمْرُنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَهْدِمَهُ قَالَ: لَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ قَالَ: لَمْ؟ قَالَ: تُمْنَعُ. قَالَ: حَتَّى الْآنَ أَنْتَ عَلَى الْبَاطِلِ؟ وَيَحْكُ فَهَلْ يَسْمَعُ أَوْ يَبْصُرُ؟ ثُمَّ دَنَا فَكَسَرَهُ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَهَدَمُوا بَيْتَ خَزَانَتِهِ فَلَمْ يَجِدُوا فِيهِ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ لِلْسَّادَنُ: كَيْفَ رَأَيْتَ؟ قَالَ: أَسْلَمْتُ لِلَّهِ.

وَلَمَّا أَطْمَأَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ الْفَتْحِ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى الْعِزْيِ لِحُمْسِ لَيَالٍ بَقِيْنَ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ الْكَرِيمِ لِيَهْدِمَهَا وَكَانَتْ بَنَخْلَةً، وَكَانَتْ لِقُرَيْشٍ وَجَمِيعِ بَنِي كِنَانَةَ، وَهِيَ أَعْظَمُ أَصْنَامِهِمْ. وَكَانَ سَدَنْتَهَا بَنِي شَيْبَانَ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهَا خَالِدٌ فِي ثَلَاثِينَ فَارَسًا حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهَا، فَهَدَمَهَا. وَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْهَا سَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ رَأَيْتَ شَيْئًا؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ لَمْ تَهْدِمَهَا فَارْجِعْ إِلَيْهَا فَاهْدِمَهَا». فَارْجَعَ خَالِدٌ مُتَغَيِّظًا قَدْ جَرَدَ سَيْفَهُ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ عَرِيَانَةٌ سُودَاءُ نَاشِرَةٌ الرَّأْسَ، فَجَعَلَ السَّادَنُ يَصِيحُ بِهَا،

فضربها خالد فجزلها باثنتين، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «نعم، تلك العزى، وقد أيسست أن تعبد في بلادكم أبداً».

وفي سؤال لما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله ﷺ إلى بني جذيمة داعياً إلى الإسلام لا مقاتلاً، فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم، فأنتهى إليهم، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صباناً، صباناً. وظن أنهم يعيبون الإسلام. فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم، ودفع إلى كل رجل ممن كان معه أسيراً، فأمر يوماً أن يقتل كل رجل أسيره، فأبى ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبي ﷺ، فذكروا له، فرفع ﷺ يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» مرتين. وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين والأنصار، وبعث رسول الله ﷺ علياً، فودى لهم قتلاهم وما ذهب منهم.



غزوة حنين

وخرج رسول الله ﷺ إلى حنين لخمس خلت من شوال. وحنين: واد إلى جنب ذي المجاز، قريب من الطائف، وبينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات. وكان النبي ﷺ قد أقام بمكة ١٩ يوماً، حتى جاءت هوازن وثقيف، فنزلوا بحنين يريدون قتال النبي ﷺ، وكانوا قد جمعوا قبل ذلك حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من المدينة، وهم يظنون أنه إنما يريدهم، فلما أتاهم أنه قد نزل مكة، أخذوا في الاستعداد لمواجهته. وقد أرادوها موقعة حاسمة، فحشدوا الأموال والنساء والأبناء حتى لا يفر أحدهم ويترك أهله وماله. وكان يقودهم مالك بن عوف النضري، واستنفروا معهم غطفان وغيرها. فاستعد الرسول ﷺ لمواجهتهم، فاستعار من يعلى بن أمية ثلاثين بعيراً وثلاثين درعاً، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع. واستعمل عتّاب بن أسيد بن أبي العاص أميراً على مكة. وخرج الطلقاء معه إلى حنين. واستقبل الرسول ﷺ بجيشه وادي حنين في عماية الصبح، وانحدروا فيه، وعند دخولهم إلى الوادي حملوا على هوازن فانكشفوا، فأكب المسلمون على ما تركوه من غنائم، وبينما هم على هذه الحال استقبلتهم هوازن، وأمطرتهم بوابل من السهام. ولم يكن المسلمون يتوقعون هذا فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فولوا مدبرين لا يلوي أحد على أحد. وانحاز الرسول ﷺ ذات اليمين وهو يقول: «أين الناس؟ هلموا إلي أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله». وأمر الرسول ﷺ عمه العباس - وكان قوي الصوت - أن ينادي الناس بالثبات، وخص منهم أصحاب بيعة الرضوان، فأسرعوا إليه، ثم خص الأنصار بالنداء، ثم بني الحارث بن

الخزرج، فطاروا إليه قائلين: لبيك، لبيك. ودارت المعركة قوية ضد هوازن. وعندما رأى الرسول ﷺ المعركة تشتد أخذ حصيات أو تراباً فرمى به وجوه الكفار وهو يقول: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله تعالى منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين، والرسول ﷺ يقول: «انهزموا ورب محمد»، وقال: «انهزموا ورب الكعبة» مرتين.



تتبع الفارين في أوطاس ونخلة وثقيف

وَلَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ حُنَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ، فَلَقِيَ دُرَيْدَ
بَنَ الصَّمَّةِ فَقَتَلَ دُرَيْدًا، وَهَزَمَ اللَّهُ أَصْحَابَهُ.

وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْغَنَائِمِ، فَجُمِعَتْ، وَكَانَ السَّبْيُ سِتَّةَ آلَافٍ مِنَ النِّسَاءِ
وَالْأَطْفَالِ، وَالْإِبِلُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، وَالْغَنَمُ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفِ شَاةٍ، وَأَرْبَعَةُ
آلَافٍ أَوْقِيَّةٍ فِضَّةٍ، فَجَعَلَ عَلَيْهَا مَسْعُودَ بْنَ عَمْرِو الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُبِسَتْ
بِالْجِعْرَانَةِ، وَلَمْ يَقْسِمَهَا.

ثم توجه المسلمون للقضاء على ثقيف التي فرت من حنين وأوطاس، وتحصنت
بحصونها المنيعة في الطائف. وحاصروا المشركين في الطائف أربعين ليلة. وكان
رسول الله ﷺ يقول: «من بلغ بسهم فله درجة في الجنة»^(١). ونادى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ
ﷺ: أَيُّمَا عَبْدٍ نَزَلَ مِنَ الْحِصْنِ وَخَرَجَ إِلَيْنَا فَهُوَ حُرٌّ! فَنَزَلَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ رَجُلًا،
فِيهِمْ: نَفِيعُ بْنُ مَسْرُوحٍ، تَسَوَّرَ حِصْنَ الطَّائِفِ وَتَدَلَّى بِبِكْرَةٍ مُسْتَدِيرَةٍ، يُسْتَقَى عَلَيْهَا
الْمَاءُ، فَكَنَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرَةَ، فَأَسْلَمَ هَؤُلَاءِ الْعَبِيدُ، فَأَعْتَقَهُمْ. وَلَمَّا حَاصَرَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الطَّائِفَ فَلَمْ يَنْلُ مِنْهُمْ شَيْئًا قَالَ: «إِنَّا قَافِلُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ
وَقَالُوا: نَذْهَبُ، وَلَا نَفْتَحُهُ؟!، فَقَالَ: «اغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ». فَغَدَوْا؛ فَأَصَابَهُمْ جِرَاحٌ.
فَقَالَ: «إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فَأَعْجَبَهُمْ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ.

(١) المعنى من رمى بسهم بنية جهاد الكفار.

قسمة الغنائم في الجعرانة

وَعَادَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الطَّائِفَ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْجِعْرَانَةِ، وَفِي الطَّرِيقِ لَقِيَهُ سَرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ الْجُعْشُمِيُّ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْجِعْرَانَةَ لَيْلَةَ الْخَمِيسِ لِخَمْسِ لَيَالٍ خَلَوْنَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، فَنَزَلَ بِهَا، وَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لَا يَقْسِمُ الْغَنَائِمَ، يَنْتَغِي أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ وَفْدُ هَوَازِنَ مُسْلِمِينَ، فَيَحْرِزُوا مَا أُصِيبَ مِنْهُمْ، فَلَمَّا لَمْ يَجِئْهُ أَحَدٌ أَمَرَ بِتَقْسِيمِ الْغَنَائِمِ. وَأَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَهُمْ سَادَاتُ الْعَرَبِ، وَصَبَرَ عَلَى اعْتِرَاضِ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيِّ فِي قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ وَنَهَى عَمْرًا أَنْ يَقْتُلَهُ، وَأَكْرَمَ حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةَ وَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ، وَعَاتَبَ الْأَنْصَارَ فِي فِيمَا وَجَدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ، وَمَدَحَهُمْ وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: «لَوْ لَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ».

وَبَعْدَ أَنْ قُسِمَتِ الْغَنَائِمُ قَدِمَ وَفْدُ هَوَازِنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانُوا أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَرَأْسُهُمْ: زُهَيْرُ بْنُ صُرْدٍ، فَبَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ سَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبَبَهُمْ. فَقَالَ لَهُمْ: «اخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ: إِمَّا السَّبْيَ، وَإِمَّا الْمَالَ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِكُمْ». قَالُوا: فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا. فَרَدَّ النَّاسُ عَلَى هَوَازِنَ جَمِيعَ السَّبْيِ. ثُمَّ قَدِمَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ رَئِيسُ هَوَازِنَ فَأَسْلَمَ.



الإحرام بالعمرة من الجعرانة

وفي ذي القعدة اعتمر النبي ﷺ من الجعرانة عام حنين وهي العمرة الثالثة بعد
عمرة الحديبية وعمرة القضاء. ^(١)

دعوة ملك البحرين (الأحساء)

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُنْصَرَفَهُ مِنَ الْجِعْرَانَةِ ^(٢) الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضَرَمِيِّ ﷺ إِلَى الْمُنْدِرِ
بْنِ سَاوَى الْعَبْدِيِّ، وَهُوَ بِالْبَحْرَيْنِ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا، فَكَتَبَ إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِإِسْلَامِهِ وَتَصَدِيقِهِ: «وَإِنِّي قَدْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ عَلَى أَهْلِ هَجَرَ، فَمِنْهُمْ
مَنْ أَحَبَّ الْإِسْلَامَ وَأَعْجَبَهُ وَدَخَلَ فِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَرِهَهُ، وَبَارِضِي مَجُوسٌ وَيَهُودٌ،
فَأَحْدِثْ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ أَمْرَكَ». فَكَتَبَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكَ مَهْمَا تُصْلِحْ، فَلَنْ
نَعْزِلَكَ عَنْ عَمَلِكَ، وَمَنْ أَقَامَ عَلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ مَجُوسِيَّةٍ، فَعَلَيْهِ الْجَزْيَةُ». وَكَتَبَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ إِلَى مَجُوسِ هَجَرَ يَعْزِضُ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ، فَإِنْ أَبَوْا؛ أَخَذَتْ مِنْهُمْ الْجَزْيَةُ،
وَبِأَنْ لَا تُنْكَحَ نِسَاؤُهُمْ، وَلَا تُؤْكَلَ ذَبَائِحُهُمْ.

(١) ولم يعلم ابن عمر رضي الله عنهما بوقوعها فأنكروها.

(٢) قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين بالجعرانة وهي موضع بين مكة والطائف، وهي إلى مكة أقرب.

دعوة ملك عُمان

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ ثَمَانٍ إِلَى جَيْفَرٍ، وَعَبْدٍ، ابْنَيْ الْجُلَنْدِيِّ - وَهُمَا مِنَ الْأَزْدِ، وَالْمَلِكُ مِنْهُمَا جَيْفَرٌ - يَدْعُوهُمَا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ مَعَهُ إِلَيْهِمَا كِتَابًا، وَخَتَمَ الْكِتَابَ، فَأَجَابَا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَصَدَقَا بِالنَّبِيِّ ﷺ.



السنة التاسعة من الهجرة (عام الوفود)

ورجع النبي ﷺ إلى المدينة، وسميت السنة التاسعة من الهجرة: عام الوفود، حيث كان من أبرز نتائج فتح مكة أن أخذت قبائل العرب وأفرادها يبادرون بإسلامهم؛ لأنهم كانوا ينتظرون نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش، وفيها هجر رسول الله ﷺ أزواجه، وآلى منهن شهراً، فأعترل عنهن في مشربة له، وكان رسول الله ﷺ أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهراً من شدة موجدته عليهن، حين عاتبه الله ﷻ^(١).

وفاة النجاشي أصحمة

وفي رجب منها توفي أصحمة بن أبجر ملك الحبشة. والنجاشي لقب له ولملوك الحبشة. وقد أسلم في عهد النبي ﷺ، وأحسن إلى المسلمين الذين هاجروا إلى أرضه. ونعى رسول الله ﷺ لهم النجاشي صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه وصلى عليه النبي ﷺ بالمدينة صلاة الغائب. وقال: «قد توفّي اليوم رجل صالح مات بغير أرضكم»، فقالوا: من هو يا رسول الله؟، قال: «النجاشي، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة، استغفروا لأخيكم». فخرج رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المصلى وصلى عليه كما يصلي على الجنائز، وكبر عليه أربع تكبيرات.

(١) قيل أن سبب غضبه - عليه الصلاة والسلام - على أزواجه بسبب حديث أفشته حفصة إلى عائشة وفسره بعضهم بشربه العسل عند زينب بنت جحش، وفسره آخرون بإتيانه جاريته مارية القبطية في بيت حفصة، وقيل بسبب مطالبتهم إياه بزيادة النفقة، وقيل غير ذلك من أسباب، ويحتمل أن يكون اجتماعها كلها هو السبب، والله أعلم.

غزوة تبوك

وفي رجب أيضاً من سنة تسع وقعت غزوة تبوك وسميت بغزوة جيش العسرة. وسببها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَلَغَهُ أَنَّ هِرَقْلَ مَلِكَ الرُّومِ جَمَعَ جُمُوعًا كَثِيرَةً مِنَ الرُّومِ وَالْغَسَّاسِنَةِ وَقِبَائِلِ الْعَرَبِ الْمُؤَالِيَةِ لَهُ، فَعَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، وَلَا نَبَّهُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَأَوَّلَى النَّاسِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْحَقِّ لِقُرْبِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣). وحث الصحابة على الإنفاق لتجهيز الجيش فأنفق عمر نصف ماله، وأبو بكر ماله كله، وجهاز عثمان الجيش بنفقة عظيمة، وأنفق عبدالرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة، ولمزهم المنافقون، وتَخَلَّفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنُ سُلُولٍ، رَئِيسُ الْمُنَافِقِينَ مع مجموعة منهم وقالوا: لا تنفروا في الحر. وقال أبو موسى الأشعري ﷺ: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك. وفيه دلالة على ما كان عليه الصحابة من العسر الشديد في المال والزاد والركائب، وما وقع للمسلمين في طريق هذه الغزوة من نقص في الزاد حتى مصوا النوى وشربوا عليه الماء، واستأذنوا الرسول ﷺ في نحر مطاياهم ليأكلوا. وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾. وقد بين ﷺ وجهة هذه الغزوة.



المرور بمساكن ثمود في الحجر

وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ فِي ذَهَابِهِ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ عَلَى الْحِجْرِ عِنْدَ بَيْوتِ ثَمُودَ، فَاسْتَسْقَى النَّاسُ مِنَ الْأَبَارِ الَّتِي كَانَ يَشْرَبُ مِنْهَا ثَمُودُ، فَعَجَنُوا مِنْهَا، وَنَصَبُوا الْقُدُورَ بِاللَّحْمِ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا يَشْرَبُوا مِنْ بَيْتِهَا وَلَا يَسْتَقُوا مِنْهَا، وَقَالَ: «مَنْ عَمِلَ مِنْ هَذَا الْمَاءِ طَعَامًا؛ فَلْيَلِقِهِ». فَمِنْهُمْ مَنْ عَجَنَ الْعَجِينَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَاسَ الْحِيسَ فَالْقَوْهَ. فَقَالُوا: قَدْ عَجَنَّا مِنْهَا وَاسْتَقَيْنَا. فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَهْرِيقُوا مَا اسْتَقَوْا مِنْ بَيْتِهَا، وَقَالَ: «اكْفُوا الْقُدُورَ، وَاعْلِفُوا الْعَجِينَ الْإِبِلَ»، ثُمَّ ارْتَحَلَ حَتَّى نَزَلَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهُ النَّاقَةُ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنَ الْبَيْتِ الَّتِي كَانَتْ تَرُدُّهَا النَّاقَةُ. وَتَسَارَعَ النَّاسُ إِلَى أَهْلِ الْحِجْرِ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَنَادَى فِي النَّاسِ الصَّلَاةَ جَامِعَةً، فَقَالَ لَهُمْ وَهُوَ مُمَسِّكٌ بَعِيرَهُ: «مَا تَدْخُلُونَ عَلَى قَوْمٍ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؟»، فَنَادَاهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ: نَعَجَبُ مِنْهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «أَفَلَا أَنْبَيْتُكُمْ بِأَعَجَبَ مِنْ ذَلِكَ؟ رَجُلٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَمَا هُوَ كَائِنْ بَعْدَكُمْ، فَاسْتَقِيمُوا وَسَدُّدُوا، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يَعْبَأُ بِعَذَابِكُمْ شَيْئًا، وَسَيَأْتِي قَوْمٌ لَا يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِشَيْءٍ، لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ عَذَّبُوا، لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ». ثُمَّ قَنَعَ رَأْسَهُ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ، وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِي وَخَلَّفَهَا.



من الأحداث في تبوك

وفي طريقهم إلى تبوك كان أئتمام رسول الله ﷺ بعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في الركعة الثانية من صلاة الفجر حيث تأخر عليه الصلاة والسلام لقضاء الحاجة.

وقال: «ستأتون غداً إن شاء الله عین تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي»، قال معاذ: فحجناها وقد سبقنا إليها رجلان - والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء - فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مسستما من مائها شيئاً؟»، فقالا: نعم. فسبهما رسول الله ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم عرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس، ثم قال رسول الله ﷺ: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة، أن ترى ما ههنا قد ملئ جناناً».

وكان رسول الله ﷺ وهو في تبوك إذا توضأ غسل كل عضو من أعضائه مرة واحدة، وأخبر أنها ستهب ريح شديدة، فلا يقوم أحد، ومن كان معه بعير فليعقله، وهبت ريح شديدة، فقام رجل فآلقته بجبل طيء. وأتى النبي ﷺ بجبنة في تبوك، فدعا بسكين فسمى وقطع.

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه، في أربع مائة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل، وكان رجلاً من كندة قد ملكهم، وكان نصرانياً، وقال له رسول الله ﷺ: «إنك ستجده يصيد البقر». فأسره خالد وأجاره من القتل ففتح

له دومة الجندل، ثُمَّ قَدِمَ خَالِدٌ بِأَكِيدَرٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَصَالَحَهُ عَلَى الْعِزَّةِ،
وَكَذَلِكَ صَالَحَ أَهْلَ أَيْلَةٍ، وَيَهُودُ جَرْبَاءَ عَلَى الْعِزَّةِ.

وَكَانَ جَيْشُ تَبُوكَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا، وَلَكِنِ الرَّسُولُ ﷺ لَمْ يَلِقْ حَرْبًا مِنَ الْأَعْدَاءِ، فَرَجَعَ
إِلَى الْمَدِينَةِ مُنْتَصِرًا بَعْدَ أَنْ أَقَامَ بِتَبُوكَ عَشْرِينَ لَيْلَةً. وَرَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ
فِيهَا دَحِيَّةَ الْكَلْبِيِّ ﷺ بِرِسَالَةٍ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ. وَكَانَ خُرُوجُهُ ﷺ إِلَى تَبُوكَ فِي
رَجَبٍ، وَعَوْدَتُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي رَمَضَانَ.



العودة ومحاولة المنافقين قتل النبي ﷺ

ولما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك؛ أمر منادياً فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة، ويسوق به عمار ﷺ، إذ أقبل رهط مثلثمون على الرواحل فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قد، قد»، حتى هبط رسول الله ﷺ فلما هبط رسول الله ﷺ نزل، ورجع عمار، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمار، هل عرفت القوم؟»، فقال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم مثلثمون، قال: «هل تدري ما أرادوا؟»، قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه»، فسأل عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: نشدتك بالله، كم تعلم كان أصحاب العقبة؟، فقال: أربعة عشر، فقال: إن كنت فيهم، فقد كانوا خمسة عشر. فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقيين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

وَنَزَلَتْ آيَاتُ كَثِيرَةٍ مِنْ سُورَةِ بَرَاءَةِ اشْتَمَلَتْ عَلَى ذِكْرِ ظُرُوفِ الْغَزْوَةِ، وَفَضْلِ الْمُجَاهِدِينَ الْمُخْلِصِينَ، وَقَبُولِ التَّوْبَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، وَفَضْلِ الْمُنَافِقِينَ، وَكَانَتْ سُورَةُ التَّوْبَةِ مِنْ أَشَدِّ مَا نَزَلَ فِي الْمُنَافِقِينَ حَتَّى كَانَتْ تُسَمَّى: «الْفَاضِحَةَ»، وَتُسَمَّى: «الْمُبْعَثَةَ» لِمَا كَشَفَتْ مِنْ سَرَائِرِ الْمُنَافِقِينَ. وَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ فَهَدَمَ مَسْجِدَ الضَّرَارِ الَّذِي بَنَاهُ الْمُنَافِقُونَ كَيْدًا لِلْإِسْلَامِ.

قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا

قال كعب بن مالك رضي الله عنه: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك - وهو يريد الروم ونصارى العرب بالشام - غير أنني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير^(١) قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواتقنا^(٢) على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر^(٣) في الناس منها، كان من خبري أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان^(٤) قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى^(٥) بغيرها، وكان يقول: «الحرب خدعة»، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد حين طابت الثمار والظلال، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً^(٦) وعدواً كثيراً، فجلى^(٧) للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبة^(٨) غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ

(١) العير: كل ما جلب عليه المتاع والتجارة، من قوافل الإبل والبغال والحمير.

(٢) تواتقنا: تعاهدنا.

(٣) أي: أعظم ذكراً.

(٤) الراحلة: البعير القوي على الأسفار والأحمال، ويقع على الذكر والأنثى.

(٥) ورى: أخفى مراده، وستر غايته، وأوهمهم بأمر آخر.

(٦) المفازة: البرية القفر، سميت مفازة تفاؤلاً.

(٧) جلى: أظهر وأبان.

(٨) التأهب والأهبة: التجهز والاستعداد.

كثير يزيدون على عشرة آلاف، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فما رجل يريد أن يتغيب، إلا ظن أن سيخفى له - ما لم ينزل فيه وحي الله -، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت^(١) أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي، حتى اشتد بالناس الجد، فخرج رسول الله ﷺ والمسلمون معه يوم الخميس - ولقلما كان رسول الله ﷺ يخرج إذا خرج في سفر، إلا خرج يوم الخميس - وأنا لم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت^(٢) بعد أن فصلوا^(٣) لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط^(٤) الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم - وليتني فعلت - فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى لي أسوة، إلا رجلاً مغموصاً^(٥) عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟، فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُرداه^(٦) ونظره في عطفيه^(٧)، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو على ذلك، رأى رجلاً مبيضاً يزول به السراب،

(١) طفق يفعل الشيء: أخذ في فعله واستمر فيه.

(٢) الغدو: السير أول النهار.

(٣) (فصلوا) أي: خرجوا من المدينة. كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْغَيْرُ﴾ أي: خرجت منطلقاً من مصر إلى الشام.

(٤) أي: فات وسبق، والفرط: السبق.

(٥) مغموصاً: مطعوناً في دينه، متهماً بالنفاق.

(٦) البرد والبردة: الشملة المخططة، وقيل: كساء أسود مربع فيه صور.

(٧) عطف الإنسان (بالكسر): جانبه، من رأسه إلى وركه أو قدمه، ومنه: هم ألين عطفًا.

فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري رضي الله عنه - وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون - قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً^(١) من تبوك حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادمًا، زاح عني الباطل، وعرفت أنني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان قلما يقدم من سفره إلا ضحىً، وكان يبدأ بالمسجد فيركع ركعتين ثم يجلس فيه للناس، فلما فعل ذلك؛ جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلاً - فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجنّته، فلما سلمت عليه، تبسّم تبسّم المغضب، ثم قال: «تعال»، فجنّت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك؟»، ألم تكن قد ابتعت^(٢) ظهرك^(٣)؟»، فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكنني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ^(٤) فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك»، فقممت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى

(١) أي: راجعاً.

(٢) ابتاع: اشترى.

(٣) الظهر: الإبل تعد للركوب وحمل الأثقال.

(٤) تجد علي: تغضب مني.

رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يؤنبوني، حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟، قالوا: نعم، رجلا ن قال ما مثل ما قلت، فقليل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟، قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدرا فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامي وكلام صاحبي، ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي، فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبيكان، وأما أنا، فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟، ثم أصلي قريبا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي، أقبل إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني فلبثت كذلك، حتى طالت عليّ جفوة الناس وما من شيء أهم إليّ من أن أموت، فلا يصلي عليّ رسول الله ﷺ أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد منهم، ولا يصلي ولا يسلم عليّ، فمشيت حتى تسورت^(١) جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي - فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمني أحب الله ورسوله؟، فسكت، فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له إليّ، حتى جاءني، دفع إلي كتابا من

(١) تسوّر: تسلق وصعد السور أو الحائط.

ملك غسان - وكنت كاتبًا - فقرأته، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة، فالحق بنا نؤاسك. فقلت حين قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتممت بها التنور فسجرتة^(١) بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمر أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟، قال: لا، بل اعتزلها ولا تقر بها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لا مرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله ﷻ في هذا الأمر. قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟، قال: «لا، ولكن لا يقربك»، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لا امرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟، فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، وبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت؛ سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج، وأذن^(٢) رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرسًا، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى نزعته له

(١) التنور: ما يخبز فيه. وسجرتة، أي: أوقدته.

(٢) أذن: أخبر وأعلم.

ثوبّي، فكسوته إياهما ببشراه - والله ما أملك غيرهما يومئذ - واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقاني الناس فوجاً فوجاً، يهنوني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس، حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صافحني وهنّاني، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور - وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك»، فقلت: أمن عندك يا رسول الله؟، أم من عند الله؟، قال: «لا، بل من عند الله»، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي، صدقةً إلى الله وإلى رسوله^(١)، فقال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك»، فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخير، فقال رسول الله ﷺ: «يجزئ عنك الثلث»، وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٧٧ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٧٨ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ١٧٩﴾

(١) وفي رواية: قال كعب: إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي كله صدقة.

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبتة، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا رسول الله ﷺ من المتخلفين واعتذروا بالباطل حين أنزل الوحي، شر ما قال لأحد، فقال ﷺ: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِنَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾﴾، قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه.



وفاة أم كلثوم بنت محمد ﷺ

وفي شَعْبَانَ من السنة التاسعة توفيت أُمُّ كُلْثُومٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.



وفاة كبير المنافقين ابن سلول

وفي ذي القعدة توفي رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول، حيث مرض في ليالٍ بَقِيْنَ من شوال.



قدوم الوفود ومنهم نصارى نجران

وجاء وفد الداريين بعد الانصراف من تبوك، وفيهم: تميم بن أوس الداري وأخوه نعيم. وجاء وفد ثقيف وفد بني عامر بن صعصعة ووفد بني حنيفة. وبقيت الوفود تتابع إلى رسول الله، وجاء وفد نصارى نجران، وقد كان رسول الله ﷺ كتب إليهم كتاباً يدعوهم فيه إلى الإسلام، أو الجزية، وإلا أذنهم بحرب، فذعر أهل نجران ذعراً شديداً، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ وفدهم، وكانوا ستين رجلاً، فيهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم، فدعاهم للإسلام وحاججهم، وجاء رهباً نجران إلى النبي ﷺ، فقال لهما رسول الله ﷺ: «أسلما تسلما». فقالا: قد أسلمنا قبلك. فقال النبي ﷺ: «كذبتما، منعكما من الإسلام ثلاث: سجدكما للصليب، وقولكما: اتخذ الله ولداً، وشربكما الخمر»، فقالوا: ما تقول في عيسى؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو روح الله، وكلمته، وعبد الله ورسوله». ونزلت بضع وثمانون آية من سورة آل عمران قرأها عليهم، فلم يقبلوا، وباهلهم فنكصوا عن المباهلة، ثم رغبوا في الصلح والجزية فجعل لهم ذمة، فلما قبض أهل نجران كتابهم من رسول الله ﷺ، وأرادوا الانصراف إلى نجران، طلبوا من رسول الله ﷺ أن يبعث معهم رجلاً أميناً، ليقبض ماله الصلح، وليحكم بينهم في أشياء اختلفوا فيها في أموالهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين»، ثم قال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح»، فلما قام، قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة»^(١).

(١) وقد استعمل النبي ﷺ عليهم عمرو بن حزم، وكتب له الكتاب المشهور الذي فيه الفرائض والسنن، وقد رواه النسائي بطوله، وروى الناس بعضه مرفقاً. ومما ينبغي أن يعلم أن أهل



نجران كان منهم نصارى أهل ذمة، وكان منهم مسلمون وهم الأكثرون، والنبي ﷺ بعث أبا عبيدة لهؤلاء وهؤلاء، واستعمل عمرو بن حزم على هؤلاء وهؤلاء. وقد أقام أهل نجران على ما كتب لهم به النبي ﷺ ثم أصابوا ربا، فأخرجهم عمر بن الخطاب من أرضهم، وكتب لهم: هذا ما كتب عمر أمير المؤمنين لنجران: أنه من سار منهم أنه آمن بأمان الله، لا يضرهم أحد من المسلمين، ووفى لهم بما كتب لهم رسول الله ﷺ وأبو بكر، وفيه: أما بعد: فمن وقعوا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من جريب الأرض، فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة، وعقبة لهم مكان أرضهم، لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم، أما بعد: فمن حضرهم من رجل مسلم، فلينصرهم على من ظلمهم، فإنهم أقوام لهم الذمة، وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهرا بعد أن يقدموا، ولا يكلفوا إلا من ضيعتهم التي اعتملوا غير مظلومين، ولا معنوف عليهم. شهد عثمان بن عفان، ومعيقب بن أبي فاطمة، فوقع ناس منهم العراق، فنزلوا النجرانية التي بناحية الكوفة.

حج أبي بكر بالناس والبراءة من المشركين

وفي ذي القعدة خرج أبو بكر للحج بالناس، فإن النبي ﷺ أقام بعد أن رجع من تبوك رمضان وشوالاً وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع ليقم للمسلمين حجهم - والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم - فخرج أبو بكر ﷺ ومن معه من المسلمين. وقد بعث عليه الصلاة والسلام علياً ﷺ بعد أبي بكر الصديق ﷺ ليكون معه، ويتولى علي بن نفسه إبلاغ البراءة إلى المشركين نيابة عن رسول الله ﷺ لكونه ابن عمه، من عصبته. وبعث أبو بكر أبا هريرة في تلك الحجة في مؤذنين يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ولما أُرْدِفَ رسولُ الله ﷺ علياً وأمره أن يؤذن بالبراءة؛ أذن معهم علي في أهل منى يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.



السنة العاشرة من الهجرة

وفاة إبراهيم ابن النبي ﷺ

وفي السنة العاشرة كانت وفاة إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام حيث مات طفلاً قبل الفطام، وكان قد وُلِدَ في ذي القعدة سنة ثمان للهجرة بالعالية حيث أنزل رسول الله ﷺ أمه مارية القبطية. قال أنس بن مالك: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيَدَّخِنُ وَكَانَ ظُهُرُهُ قَيْنًا فَيَأْخُذُهُ فَيَقْبَلُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ. ولما كانت وفاة إبراهيم في السنة العاشرة من الهجرة جاء رسول الله ﷺ فدعا بالصبي فضمه إليه وقبله وهو يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذر فان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟، فقال: «يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الشَّذِيِّ وَإِنَّ لَهُ لَطَطْرَيْنِ تَكْمَلَانِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ، إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ، وَلَوْلَا أَنَّهُ وَعْدُ صَادِقٍ، وَمَوْعُودُ جَامِعٍ، وَأَنَّ الْآخِرَ تَابِعٌ لِلْأَوَّلِ، لَوْ جَدْنَا عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمَ أَفْضَلَ مِمَّا وَجَدْنَا»^(١).

(١) وقد وُلِدَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ مِنْ سُرَّتِيَّةِ مَارِيَةِ الْقُبْطِيَّةِ سَنَةَ ثَمَانٍ مِنَ الْهَجْرَةِ. وكان لما ولد إبراهيم قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ غُلَامٌ، فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ» ثم دفعه إلى أم سيف - امرأة حداد يقال له: أبو سيف - في عوالي المدينة - فكان إبراهيم مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ. وجميع أولاد النبي ﷺ هم من خديجة رضي الله عنها، ما عدا إبراهيم.

كسوف الشمس وصلاة وخبطة عظيمة

وركب رسول الله ﷺ مركبًا في يوم شديد الحر، فانكسفت الشمس وكان ذلك اليوم الذي مات فيه إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، فقال الناس: إنما انكسفت الشمس لموت إبراهيم. فرجع رسول الله ﷺ ضحى فخرجَ فَرَعًا يَجُرُّ رِذَاءَهُ مِنَ الْعَجَلَةِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَسْجِدِ وَثَابَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَبَعَثَ مُنَادِيًا: أَنْ الصَّلَاةَ جَامِعَةٌ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ فَصَفَّهِمْ وَرَاءَهُ وَتَقَدَّمَ فَكَبَّرَ وَجْهَرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْقِرَاءَةِ فِيهَا فَاقْتَرَأَ قِرَاءَةً طَوِيلَةً حَتَّى إِنْ رَجَا لَا يَوْمُئِذٍ لِيَغْشَى عَلَيْهِمْ مِمَّا قَامَ بِهِمْ، حَتَّى إِنْ سَجَالَ الْمَاءُ لَتَصْبَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ رَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رُكُوعًا طَوِيلًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ، وَقَامَ كَمَا هُوَ وَلَمْ يَسْجُدْ، وَقَرَأَ قِرَاءَةً طَوِيلَةً هِيَ أَدْنَى مِنَ الْقِرَاءَةِ الْأُولَى، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، وَهُوَ أَدْنَى مِنَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، كُلَّمَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ فَأُطَالَ السُّجُودَ، ثُمَّ فَعَلَ فِي الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْأُولَى فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ قَامَ قِيَامًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، فَأُطَالَ الْقِيَامَ، حَتَّى قِيلَ: لَا يَسْجُدُ، ثُمَّ تَأَخَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَأَخَّرَتِ الصُّفُوفُ خَلْفَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى النِّسَاءِ، ثُمَّ تَقَدَّمَ وَتَقَدَّمَ النَّاسُ مَعَهُ، حَتَّى قَامَ فِي مَقَامِهِ، ثُمَّ كَبَّرَ فَسَجَدَ، فَجَعَلَ ﷺ يَبْكِي فِي آخِرِ سُجُودِهِ، وَيَنْفُخُ: أُفْ أُفْ، وَيَقُولُ: رَبِّ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ رَبِّ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟ وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُكَ؟، فَاسْتَكْمَلَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فِي أَرْبَعِ سَجَدَاتٍ ثُمَّ جَلَسَ فَفَرَّغَ مِنْ صَلَاتِهِ وَقَدَّ

انجلت الشمس فقعد على المنبر فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما كذلك فافزعوا إلى المساجد، فافزعوا إلى الصلاة، فادعوا الله، وكبروا، وصلوا، وتصدقوا، حتى ينجليا، حَتَّى يَكْشِفَ مَا بِكُمْ أَوْ يُحْدِثَ اللَّهُ أَمْرًا. ثم قال وهو ينادي بأعلى صوته محمرة عيناه: أيها الناس يا أمة محمد، والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده، أو تزني أمته، أظلتكم الفتن كقطع الليل المظلم، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. فقالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك، ثم رأيناك تكعكت، فقال رسول الله ﷺ: «ما من شيء توعدونه إلا قد رأيته في صلاتي هذه فعرضت علي الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء، فتناولت منها عنقوداً حين رأيتموني جعلت أتقدم، فقصرت يدي عنه، ولو أصبته لأكلت منه ما بقيت الدنيا. ثم عرضت علي جهنم يحطم بعضها بعضاً، وذلك حين رأيتموني تأخرت، حتى لقد جعلت أتقيها مخافة أن يصيبني من لفحها، ورأيت أكثر أهلها النساء، قالوا: لم يا رسول الله؟ قال: بكفرن. قيل: يكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً؛ قالت: ما رأيته منك خيراً قط. ورأيت فيها عمرو بن لحي يجر قُصْبَهُ^(١) - وهو الذي سيب السوائب - ورأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تعذب في هرة لها ربطتها، فلم تطعمها ولم تسقها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعاً فهي إذا أقبلت تنهشها، وإذا أدبرت تنهشها. ورأيت فيها صاحب المحجن متكئاً على محجنه في النار، يقول: أنا سارق المحجن - وكان يسرق الحجيج بمحجنه، فإن فُطِنَ له؛ قال: لست أنا أسرقكم، إنما تعلق بمحجني. وإن غُفِلَ عنه ذهب به -، والذي سرق

(١) يَجْرُ قُصْبُهُ (أمعاءه) فِي النَّارِ لِأَنَّهُ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ فَنَصَبَ الْأَوْثَانَ وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ وَبَحَرَ الْبَحِيرَةَ وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ وَحَمَى الْحَامِيَ.

بدنتي رسول الله ﷺ فلم أر منظرًا كالיום قط أفضع. ولقد أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور قريبًا من فتنة الدجال، يُؤتى أحدكم فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟، فأما المؤمن فيقول: هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا - ثلاث مرار - فيقال: قد كنا نعلم إنك لتؤمن به، فثم صالحًا، وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته. فاستعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق. والذي نفسي بيده إن الموتى ليعذبون في قبورهم عذابًا تسمعه البهائم كلها. قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد ذلك صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر.



حجة الوداع

وكانت حجة الوداع في سنة عشر، وسميت حجة الوداع لأنه عليه الصلاة والسلام ودع الناس فيها ولم يحج بعدها. وسميت حجة الإسلام لأنه ﷺ لم يحج من المدينة غيرها، ولكن حج قبل الهجرة مرات، قبل النبوة وبعدها.

وعندما أعلن الرسول ﷺ عزمه على الحج في هذا العام، قدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتبس أن يأتي برسول الله ﷺ، ويعمل مثل عمله. وخرج من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة. وقد وقعت للنبي ﷺ في مسيره هذا ورجوعه أحداث كثيرة.

وسميت حجة البلاغ لأنه ﷺ بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وفعلاً.

اكتمال إبلاغ الدين

ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه عليه الصلاة والسلام، فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله ﷻ عليه وهو واقف بعرفة:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «وَدِدْتُ أَنِّي لَقِيتُ إِخْوَانِي»، فَقَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ: أَوَلَيْسَ نَحْنُ إِخْوَانُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَلَكِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرَوْني».

السنة الحادية عشرة من الهجرة

وفاة النبي ﷺ

واشتكى رسول الله ﷺ بعد عودته من حجة الوداع، حتى اشتد وجعه وهو في بيت ميمونة ؓ، فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة ؓ. وكان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْرٍ فَهَذَا أَوْ أَنْ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي»^(١) مِنْ ذَلِكَ السَّمِّ. واستغرق مرضه عشرة أيام. حَتَّى دَخَلَتْ أُمُّ بَشِيرٍ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَعُوذُهُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوفِّي فِيهِ، فَقَالَ: «يَا أُمَّ بَشِيرٍ، مَا زِلْتُ أَجِدُ أَلَمَ الْأَكْلَةِ الَّتِي أَكَلْتُ مَعَ ابْنِكَ بِخَيْرٍ، تُعَاوِذْنِي كُلَّ عَامٍ، حَتَّى كَانَ هَذَا أَوْ أَنْ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السَّمِّ»^(٢).

(١) قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: (الْأَبْهَرُ) عَرْقٌ مُسْتَبِطٌ بِالظَّهْرِ مُتَّصِلٌ بِالْقَلْبِ إِذَا انْقَطَعَ مَاتَ صَاحِبُهُ.
(٢) فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَرَوْنَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَاتَ شَهِيدًا، مَعَ مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ مِنَ النَّبُوَّةِ. وَلَكَمَا اخْتَجَمَ النَّبِيُّ ﷺ اخْتَجَمَ فِي الْكَاهِلِ، وَهُوَ أَقْرَبُ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يُمَكِّنُ فِيهَا الْحِجَامَةُ إِلَى الْقَلْبِ، فَخَرَجَتِ الْمَادَّةُ السُّمِّيَّةُ مَعَ الدَّمِ لَا خُرُوجًا كُلِّيًّا، بَلْ بَقِيَ أَثَرُهَا مَعَ ضَعْفِهِ لِمَا يُرِيدُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ تَكْمِيلِ مَرَاتِبِ الْفَضْلِ كُلِّهَا لَهُ، فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ إِكْرَامَهُ بِالشَّهَادَةِ، ظَهَرَ تَأْثِيرُ ذَلِكَ الْأَثَرِ الْكَامِنِ مِنَ السَّمِّ الَّذِي وَضَعَهُ لَهُ يَهُودُ خَيْرٍ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَقْغُولًا، وَظَهَرَ سِرُّ قَوْلِهِ تَعَالَى لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْيَهُودِ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ فَجَاءَ بِلَفْظِ كَذَّبْتُمْ بِالْمَاضِي الَّذِي قَدْ وَقَعَ مِنْهُ وَتَحَقَّقَ، وَجَاءَ بِلَفْظِ «تَقْتُلُونَ» بِالْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي يَتَوَقَّعُونَهُ وَيَنْتَظِرُونَهُ. وَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَبْلُغُهُ سَلَامُ النَّاسِ عَلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهِ صَلَاةً وَاحِدَةً؛ صَلَّى اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِ عَشْرًا، فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا، وَرَزَقْنَا شِفَاعَتَهُ وَوَرُودَ حَوْضِهِ وَالشَّرْبَ مِنْ يَدِهِ، وَحَشَرْنَا فِي زَمَرَتِهِ.

وأنفق ما عنده من مال^(١)، وخلا بعثمان وأوصاه وضرب منكبه وهو يوصيه. وهم أن يكتب كتاباً، وأوصى بإخراج المشركين من جزيرة العرب وحذر من اتخاذ قبره وثناً يعبد، وأمر أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يؤم الناس في الصلاة. وأمرهم أن يصبوا عليه الماء من آبار شتى، ثم تحامل وصعد المنبر وخطب آخر خطبة وأثنى على أبي بكر، وأوصى بالأنصار خيراً، وبين أن أسامة بن زيد أهل للإمارة على الجيش الذي جهزه. ولما دنا أجله وهو في حجرة عائشة رضي الله عنها جعل يتغشاه الكرب الشديد، حتى تأذت ابنته فاطمة رضي الله عنها، من شدة ما يلقي، فقالت: واكرب أبتاه، فقال رسول الله ﷺ: «لا كرب على أبيك بعد اليوم، إنه قد حضر من أبيك ما ليس بتارك منه أحداً، الموفاة يوم القيامة». وأخبر ابنته فاطمة رضي الله عنها أنها أول أهل بيته لحوقاً به ﷺ، وكان آخر وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت وهو يعزغر بها في صدره، وما كان يفيض بها لسانه: «الصلاة وما ملكت أيمانكم، الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم». وبين يديه ﷺ ركوة فيها ماء، فجعل رسول الله ﷺ يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»، ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» وقال رسول الله ﷺ وقد أخذته بحة: «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً» اللهم اغفر لي،

(١) وكانت تأتي على النبي ﷺ أيام في المدينة يشد فيها الحجر على بطنه من شدة الجوع. وكانت تأتي النبي ﷺ الأموال من الزكوات والغنائم ونحوها، وكان ينفقها في سبيل الله أولاً بأول، وخرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير. قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين؛ وما أوقدت في آيات رسول الله ﷺ ناراً»، والمعنى: أنهم كانوا يظلون شهرين متتابعين لا يطبخ في بيتهم شيء، فقال لها عروة بن الزبير: يا خالته، ما كان يعيشكم؟ قالت: «الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من البانهم، فيسقين».

وَأَجْعَلْنِي مَعَ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى» حَتَّى قُبِضَ، وَمَالَتْ يَدُهُ. وتوفاه الله تعالى يوم الإثنين في الثاني عشر من ربيع الأول. وقد تمَّ له من العمر ٦٣ سنة. وكفن عليه الصلاة والسلام في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف، ليس فيها قميص ولا عمامة، وصلى الناس عليه أرسالاً، ودفن في مكان موته في حجرة عائشة رضي الله عنها. فجزاه الله تعالى عن المسلمين خير ما جزى نبياً عن أمته، وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله.



من جوامع ما أخبر به النبي ﷺ أصحابه

قال ﷺ: «مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَمَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ، وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ الْجَنَّةِ، إِلَّا وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي».

وقال عمرو بن أخطب رضي الله عنه: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَجْرَ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهُرُ، فَزَلَّ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمْنَا أَحْفَظْنَا».

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةً مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ، فَمَا مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَدْ سَأَلْتُهُ عَنْهُ، إِلَّا أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ: مَا يُخْرِجُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيْتُهُ، فَأَرَاهُ، فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، ثُمَّ إِذَا رَأَاهُ عَرَفَهُ».

حتى قَالَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ لِسَلْمَانَ رضي الله عنه وَهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةِ. فَقَالَ: أَجَلٌ «لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِعَاثِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ».

وقال أبو ذر رضي الله عنه: تَرَكْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ، إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا.

وكان من جملة ما أخبر به ﷺ أن الغاية من خلق الناس إنما هي عبادة الله وتوحيده، وأخبر ﷺ عن صفات الله وأسمائه الحسنى، وعن بدء الخلق، وكتابة المقادير في اللوح المحفوظ، وعن العرش، والكرسي، والسموات والأرض والنجوم، وعن الملائكة والجن، وعن خلق أول البشر آدم ﷺ، وقصته مع إبليس، وخروجه من الجنة إلى الأرض، وجملة من قصص الأنبياء والأمم السابقة، وعن الإنسان الذي يولد على الفطرة، وأطوار خلق الإنسان، وأوضح ﷺ أركان دين الإسلام ومعالمه وشرائعه، وحذر من المعاصي والكبائر وأشنعها الشرك بالله، وحذر من ترك الصلاة، وأن تركها كفر، وأخبر أنه سيموت ﷺ، وأنه لن يضل من تمسك بكتاب الله وبسنته ﷺ من بعده، وأن لكل نبي حواريون وأصحاب يتمسكون بسنته وينشرونها ويدافعون عنها، وسيخلفهم مبدلون، وأن المسلمين سيتفرقون في دينهم، كما تفرق الذين من قبلهم من أهل الكتاب (اليهود والنصارى)، وسينجو من كان على مثل هدي النبي ﷺ وأصحابه، وأن الإسلام محفوظ بعلماء مجتدين، يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة، وأمر ﷺ بالتمسك بالسنة والجماعة، ونهى عن الابتداع في الدين، وأكد على أهمية إصلاح القلب والنية، وأن مدار قبول الأعمال وصلاحتها على صلاح النية، وأن مع الإيمان بالقضاء والقدر؛ يجب السعي والأخذ بالأسباب المشروعة وبذلها، وأخبر ﷺ أن رؤى المنام أنواع، وأن الرؤيا الصادقة هي جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة، وأنه ﷺ بعث متمماً لمحاسن الأخلاق، وأن الأخلاق الحسنة من أرفع الأعمال لدرجات المؤمن وأثقلها في الميزان، وميز النبي ﷺ أخلاق المؤمن عن أخلاق المنافق، وحث على حسن العشرة بين الزوجين، والرفق بالنساء، وعلى حجاب النساء وقرارهن في البيوت، وبين ﷺ عظم الأمانة في تربية الأولاد، وأوضح المشروع من الممنوع في الزينة واللباس، وبين سنن الفطرة، وحث على طهارة الروح والجسد، وأمر بالستر وغض الأبصار وحفظ الفروج، وحذر من خطر الفواحش

والمعاصي والمحرمات، وأخبر ﷺ أن الجنة حُفَّت بالمكاره، وأن النار حُفَّت بالشهوات، وأن عماد الدين هو النصيحة، وأكد ﷺ على عدل الله وغناه عن خلقه، وأن الحساب على الأعمال يكون يوم القيامة، فمن الناس من تعرض أعماله عليه ويستره الله ويغفر له، ومنهم من يناقش الحساب ويهلك، وأن الأعمال بالخواتيم، وحث ﷺ على الاستكثار من الحسنات وأبواب الخير، وبيّن فضائل ذكر الله على كل حال، وبيّن آداب الطعام، وحث على التداوي وحفظ الصحة، وعلى علاج العين والسحر، والاستشفاء بالقرآن والرقى والعلاجات المباحة، ووضح أسباب إجابة الدعاء وموانعه، وأوجب قتال الفئة التي ترد عن دينها بترك الصلاة أو الزكاة، وأمر ﷺ بدعوة الكفار إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن أبوا؛ فيدعون لدفع الجزية، فإن رفضوا؛ فالواجب قتالهم لإقامة العدل ودين الحق، وأمر ﷺ بالجهاد في سبيل الله والإحسان فيه.

وأخبر ﷺ بما سيقع من الفتن وأشرط الساعة (أحداث تكون قبل يوم القيامة)؛ كظهور الكذابين مدعي النبوة، وظهور الخوارج وقتالهم، والفتوحات الإسلامية، وأنه سيحدث زمن أمن ورخاء في بلاد الإسلام، وأخبر ﷺ عن بركان عظيم يظهر في الحجاز، وعن قتال الترك التتار الذين جاءت أوصافهم كأوصاف يأجوج ومأجوج، وأن الأمم الكافرة ستتداعى على المسلمين مع كثرتهم، وأنه ستبقى طائفة من أمته منصوره على الحق والجهاد لا يضرها من خذلها.

وأخبر ﷺ أنه سيكثر المال والترف والتجارة، وتنتشر الكتابة، ويكثر الجهل والفساد والفتن، وأنه سيأتي من يطلب الدنيا بقراءة وتعلم القرآن، ويقدم أئمة المساجد لجمال أصواتهم، وليس لفقههم وعلمهم، وتتغير أحوال المساجد، وتزخرف ويباهى بها، وتضيع الأمانة، ويسند الأمر (الولاية والمناصب) إلى غير أهله، وتتغير موازين الصدق والأمانة، ويكثر التعلق بالدنيا.

وأخبر ﷺ عن انتفاخ الأهلة، وصدق رؤيا المؤمن، وفناء قريش وزوال ملكها، وفتنة قبيلة مضر للصالحين، وأنه ستقلب سيادة الناس؛ فتلد الأمة ربتها، ويسود الحفاة العرة من العرب ويتطاولون في البنيان، ويخرج من عدن أبن اثنا عشر ألفاً ينصرون الله ورسوله، ويحاصر العراق والشام ومصر والمدينة، ويكثر القتل، وموت الفجأة، ويقتل الناس على معادن ثمينة تخرجها الأرض، وأنه سيقبل الرجال، ويكثر النساء.

وأخبر ﷺ عن تسارع الزمان، وعن تكلم السباع والأشياء، وأمطار لا تنبت شيئاً، وعودة جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً، وكثرة الصواعق، وعودة قبائل عربية إلى الشرك وعبادة الأوثان، وعن تناكر الناس، وتسليم الخاصة، وظهور الدخان العظيم، والخسوفات الثلاث: في المشرق، والمغرب، وفي جزيرة العرب. وخراب المدينة، وإخراج أهلها منها، وظهور مهدي من آل البيت، وإقامته الخلافة في بيت المقدس، ومصالحة الروم، والغزو معهم، ثم غدرهم، ووقوع الملحمة الكبرى بين المسلمين والروم في الغوطة، ثم يكون نصر للمسلمين، وفتح القسطنطينية دون قتال، ومن بعده خروج المسيح الدجال، يتبعه يهود وشياطين في فتنة عظيمة للناس تعم أغلب الأرض، ويحاصر المسلمون في الشام، ثم ينزل المسيح عيسى ابن مريم ﷺ من السماء عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، ويقتل الدجال، وينهزم اليهود ويُقتلون، ثم يكون خروج أمم يأجوج ومأجوج؛ فيفسدون في الأرض، وينحاز المسلمون منهم إلى الطور، ثم يقتل الله يأجوج ومأجوج جميعاً، ويُنزّل مطراً يغسل الأرض، ويعيد بركتها كما في عهد آدم، ويحكم المسيح عيسى ابن مريم الأرض بالإسلام، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويعم الإسلام والأمن والبركة والرخاء الأرض في زمن المسيح، ثم يموت المسيح عيسى ابن مريم ﷺ، وتطلع الشمس من مغربها، وتخرج الدابة التي تكلم الناس وتسمهم على خراطيمهم، أو تجلو وجوههم، ثم تأتي ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين، ويختفي أثر الإسلام عن

الأرض، ويرفع القرآن من السطور ومن الصدور، فلا يبقى على الأرض منه آية، ويبقى شرار الناس على الأرض، فتخرج نار من اليمن تحشر الناس للشام، وتكون نفخة الصعق، والحياة البرزخية في القبر.

وأخبر ﷺ أنه سينزل ماء الحياة من السماء، وتنمو منه الأجساد وتنبت من عَجَبِ الذَّنْبِ (العظم الصغير في أسفل الصلب)، وينفخ إسرافيل نفخة البعث، وتعاد الأرواح إلى الأجساد، وتكون أحوال وأهوال عظيمة في يوم القيامة، تخفف على المؤمنين، وتطول على الكافرين، وأول من تنشق عنه الأرض هو محمد ﷺ، ويرد عليه أتباعه حوضه الشريف، وينتظر الناس فصل القضاء في موقف طويل مهيب، وتكون شفاعة النبي ﷺ العظمى في الخلاص من كرب المحشر، ويؤمر آدم بإخراج بعث النار في هول ذلك الموقف، وتشهد أمة محمد ﷺ للأنبيا بالبلاغ، وتعرض الأعمال على العباد، وتسد النوافل نقص الفرائض، ويوضع الميزان.

وأخبر ﷺ عن الحساب والسؤال عن النعيم يوم القيامة، وتيسير حساب فقراء المسلمين، ومناقشة حساب المنافقين والمرائين، وشهادة الجسد على صاحبه، وحسن موقف وجزاء من تجاوز عن المعسرين في الدنيا، وأنه سيكون قصاص بين الخلق يوم القيامة، وقضاء بين الخصوم، وأول ما يُقضى في الدماء والقتل.

وأخبر ﷺ عن مواقف وأحوال ستكون يوم القيامة لجملة من العصاة الذين لم يتوبوا في الدنيا؛ كحال من خان المجاهد في أهله، ومن آذى المسلمين وغشهم، وحال القاذف بالزنا، ومانع الزكاة، والغال والمختلس، ومغتصب الأرض، والغادر، وكاتم العلم، والنائحة، والمتكبرين، والمتسول لغير حاجة.

وأخبر ﷺ أن كل أمة ستؤمر أن تتبع ما كانت تعبد في الدنيا؛ فيُقاد من كان يعبد غير الله إلى النار، ويتساقطون فيها. وبين النبي ﷺ صفة النار، وأهلها، وعظيم عذابهم وحسرتهم واستغاثتهم، ووصف أهونهم عذابًا.

وأخبر ﷺ أنه ستبقى أمة التوحيد يقودهم ربهم إلى الجنة، ويعطى المؤمن والمنافق نوراً قبل الصراط، ويوضع الصراط على جهنم، وحوله الكلايب العظيمة، وتبدل الأرض والسموات، وتطوى السماوات والأرض، ويؤمر الناس بالمرور على الصراط، ويطفأ نور المنافق، ومن الناس من يسقط من الصراط إلى النار، أو تخطفه الكلايب أو تخدشه، وتكون سرعة اجتياز الناس الصراط حسب أعمالهم، حتى يصلوا إلى القنطرة وهي جسر صغير بعد الصراط، ويشفع المؤمنون في إخوانهم ممن سقط في النار، وتكون شفاعته للنبي ﷺ فيمن دخل النار من أمته، ويعتق الله من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من توحيد؛ فيخرجهم من النار، ويدخلهم الجنة.

وأخبر ﷺ عن أبواب الجنة الثمانية، وأن أول من يدخل الجنة هو محمد ﷺ، وعن دخول الفقراء الجنة قبل الأغنياء، وعن عظم نعيم الجنة، وصفة أهل الجنة وأزواجهم، ودرجات الجنة وأنهارها، ومنازلها، وغرفها، وأشجار الجنة، ويوم الجمعة في الجنة الذي يسمى يوم المزيد، وعظم فرحة أهل الجنة بإحلال رضا الله الأبدي عليهم، وأخبر ﷺ عن قصة آخر أهل النار دخولاً الجنة، وعن امتلاء الجنة والنار، وذبح الموت بينهما، وحصول الخلود الأبدي الذي يشقى فيه أهل النار، وينعم فيه أهل الجنة إلى الأبد.

وفيما يلي جملة من أهم ما جاء في ذلك من الأحاديث والآثار، وشيئاً من التعليق والبيان اليسير عليها.



فطرة الإنسان

قال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد إلا يولد على الفطرة^(١) على هذه الملة (الإسلام)، حتى يبين عنه لسانه، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه أو يشركانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء^(٢) هل تحسون فيها من جدعاء؟^(٣)، فإن كانا مسلمين؛ فمسلم. ﴿فَطَرَتْ أَلَلَهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾. قال الله: (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم^(٤) وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً)^(٥).

«وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ أَنْ يَخْلُقَ النَّسَمَةَ فَجَامَعَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ؛ طَارَ مَاؤُهُ فِي كُلِّ عَرْقٍ وَعَصَبٍ مِنْهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ السَّابِعِ أَحْضَرَ اللَّهُ لَهُ كُلَّ عَرْقٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾»^(٦)، «إِنَّ النُّطْفَةَ تَقَعُ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَإِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً؛ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذْكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَسْوِيٌّ أَوْ غَيْرُ سْوِيٍّ؟، فَيَجْعَلُهُ اللَّهُ سَوِيًّا أَوْ غَيْرَ سْوِيٍّ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا

(١) وهي الإسلام لله والإقرار بربوبيته وحده.

(٢) سليمة مجتمعة الأعضاء.

(٣) مقطوعة الأذن.

(٤) أي: أزالوهم عما كانوا عليه.

(٥) حديث قدسي.

(٦) وظهر مؤخرًا من العلوم البشرية علم الحمض النووي DNA والجينات التي تحمل الصفات الوراثية.

رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، فَيَكْتُبُ مَا هُوَ لَاقٍ، حَتَّى النُّكْبَةِ يُنْكِبُهَا، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ، «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَمَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا يَطْعَنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبِهِ بِإِصْبَعِهِ حِينَ يُوَلَّدُ فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ إِلَّا مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ وَابْنَهَا عِيسَى ﷺ؛ ذَهَبَ يَطْعَنُ، فَطَعَنَ فِي الْحِجَابِ^(١)، إِنَّ أُمَّهَا حِينَ وَضَعَتْهَا قَالَتْ: ﴿وَلَايَ أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٢)». «مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ^(٣) وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ^(٤)».



(١) الْمُرَادُ بِالْحِجَابِ: الْجِلْدَةُ الَّتِي فِيهَا الْجَنِينُ، أَيْ: فِي الْمَشِيمَةِ الَّتِي فِيهَا الْوَلَدُ أَوْ التَّوْبُ الْمَلْفُوفُ عَلَى الطِّفْلِ. قَالَ الْفَرَطِيُّ: هَذَا الطَّعْنُ مِنَ الشَّيْطَانِ هُوَ ابْتِدَاءُ التَّسْلِيطِ، فَحَفِظَ اللَّهُ مَرْيَمَ وَابْنَهَا مِنْهُ بِبَرَكَةِ دَعْوَةِ أُمِّهَا حَيْثُ قَالَتْ: ﴿وَلَايَ أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لِمَرْيَمَ ذُرِّيَّةٌ غَيْرُ عِيسَى.

(٢) وَهُوَ شَيْطَانُ يَغْوِيهِ وَيَسْأَلُ لَهُ وَيَشْكِكُهُ فِي الدِّينِ. وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الشَّيْطَانَ جَاءَهُمْ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسُوسَ، وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَسَسَ. وَإِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ وَلَّى وَلَهُ حُصَاصٌ (ضُرَاطٌ).

(٣) يَسُدُّهُ وَيُرْشِدُهُ.

خطر الشرك الأكبر والأصغر

«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاءً دَخَلَ النَّارَ»^(١). «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ». قال ﷺ: «يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة». «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ»، «قَالَ اللَّهُ ﷻ: [وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً]. كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا؛ فَتَعَذَّبُهُ فِي جَهَنَّمَ»^(٢). «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»^(٣)، «مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا»، «أَلَا

(١) قال الله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾، ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَارَهُمْ وَرَهَبَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾. «وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُجُونُهُمْ كَحَبِّ اللَّهِ» فانظر كيف ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله؛ فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ولم يدخلهم في الإسلام. فكيف بمن أحب الند الأكبر من حب الله؟! فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟!.

(٢) قال ابن عباس: إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَاصْنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لَا نَفْسَ لَهُ.

(٣) الحلف بغير الله ليس شركاً محضاً؛ فالحلف بغير الله من الشرك الأصغر وهو من أكبر الكبائر بعد الشرك الأكبر، وإذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس؛ وقد نهى عنه الشرع لأنه ذريعة إلى الشرك الأكبر وسيلة للوقوع فيه، بخلاف من تعمد الحلف بغير ذات الله، وكان حالفاً بما يشرك به؛ مثل الحلف بالنصرانية وغيرها، فهذا كفرٌ محضٌ، وكذلك إذا ظهر بالقرائن أن الحالف يعظم ما حلف به كتعظيم الله تعالى أو أشد؛ فحينئذ يكون من الشرك الأكبر. ومن الفروق بين الشرك الأكبر والأصغر: أن الشرك الأكبر يخرج من الإسلام والأصغر لا يخرج من الإسلام، والشرك الأكبر يخلد صاحبه في النار، والأصغر لا يخلد

إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ»، «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١). «مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً»^(٢) فَقَدْ أَشْرَكَ.

«مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً»^(٣) فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ»^(٤)، «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكَلَّ إِلَيْهِ»^(٥).

صاحبه في النار إن دخلها، والشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال، والشرك الأصغر يحبط العمل الذي خالطه، والشرك الأكبر يبيح الدم والمال، والأصغر ليس كذلك، والشرك الأكبر يوجب العداوة بين صاحبه وبين المؤمنين، فلا يجوز للمؤمنين موالاته، ولو كان أقرب قريب، وأما الشرك الأصغر فإنه لا يمنع الموالاة مطلقاً، بل صاحبه يحب ويؤالى بقدر ما معه من التوحيد، ويبغض ويعدى بقدر ما فيه من الشرك الأصغر.

(١) وفي رواية: مَنْ حَلَفَ، فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

(٢) التَّمِيمَةُ هِيَ التَّعْوِيزَةُ الَّتِي تَعْلَقُ، وَسَمِيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا تَمَامُ الدَّوَاءِ وَالشِّفَاءِ. وَقَدْ تَكُونُ عَلَى هَيْئَةِ أَحْجَارٍ أَوْ خَرَزَاتٍ أَوْ أَصْدَافٍ أَوْ أَسَاوِرٍ أَوْ أَرْبُطَةٍ أَوْ عِظَامٍ وَنَحْوِهَا، تَحْمَلُ أَوْ تَرْتَبُطُ أَوْ تَلْبَسُ أَوْ تَعْلَقُ أَوْ يَكْتَبُ شَيْءٌ عَلَيْهَا، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهَا حُرُوزٌ تَوْثِّرُ بِذَاتِهَا فِي جَلْبِ خَيْرٍ أَوْ دَفْعِ شَرٍّ.

(٣) الْوَدَعَةُ: شَيْءٌ يُخْرَجُ مِنَ الْبَحْرِ يَشْبَهُ الصَّدْفَ يَتَقَوَّنَ بِهِ الْعَيْنُ.

(٤) أَي: لَا جَعْلَهُ فِي دَعَةٍ وَسَكُونٍ.

(٥) وكذلك من تعلق بالاستغاثة الشركية المحرمة وهي استغاثة العبادات التي تفعل عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله. وأما استغاثة الناس بالأنبياء يوم القيامة فإنهم يريدون منهم أن يدعوا الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف. وهذا جائز في الدنيا والآخرة، وذلك أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك فتقول له: ادع الله لي كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه ذلك في حياته. وأما بعد موته، فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبره. وأما الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه؛ فجائزة. كما قال الله تعالى في قصة موسى: ﴿فَاسْتَعِذْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥] وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب أو غيره في أشياء يقدر عليها المخلوق.

«إِنَّ الرُّقَى (١) وَالتَّمَائِمَ (٢) وَالتَّوَلَّةَ (٣) شِرْكٌ».

«الطَّيْرَةُ (٤) شِرْكٌ»، «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ مِنْ حَاجَةٍ

(١) أي: الرقى التي لا يفهم معناها، والمشتملة على الشرك بالله.

(٢) إن اعتقد في التميمة النفع والضرر من دون الله ﷻ، فهذا شرك أكبر، وإن اعتقد أنها سبب للسلامة من العين أو الجن أو الشر، فهذا شرك أصغر، لأنه جعل ما ليس سبباً للسلامة سبباً تعلق قلبه به مما يصرفه عن التوكل على الله وعن الأخذ بالأسباب المشروعة، ومن خرافات التمايم التي يروجها الدجالون: الضفدع ذو الأرجل الثلاث؛ لعلاج الفقر وجلب الثروة. وزوج البط الخشبي؛ لجلب الحظ والحب، سوار الطاقة، وقلادة الطاقة، وقرص الطاقة الحيوي، وقلم الطاقة، وسلسلة الطاقة؛ لرفع مستوى الطاقة الإيجابية في المكان، والبندول (الكرة المتأرجحة بخيط) والأشكال الهرمية؛ لزيادة الصحة، والأحجار الكريمة، والعلاج بالألوان، ثم تحديد اللون المناسب لإيهايم زيادة الصحة، وبيع الحجر الكريم ذي اللون الأنسب للمغفل. وإذا كانت التميمة من القرآن، فقد اختلف أهل العلم في جواز تعليقها، والصحيح - والله أعلم - أنه لا يجوز، وبه قال ابن مسعود وابن عباس ؓ وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن عامر وابن عكيم، لعموم النهي، وسدًا لذريعة تعليق ما ليس من القرآن، ولأنه إذا علق فلا بد أن يمتنه المعلق عليه، فيحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك.

(٣) التَّوَلَّةُ: هي نوعٌ من السَّحَرِ أو خِيطٌ يُقْرَأُ فِيهِ مِنَ السَّحَرِ لِلْمَحَبَّةِ أو غيرها.

(٤) وهي التشاؤم من أشياء باعتقادها سبباً مؤثراً في حُصُولِ الْمَكْرُوهِ، قال ابن مسعود: «وَمَا مِنَّا إِلَّا (أي: إلا ويقع في نفسه شيء من ذلك) وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». وفي حديث الفضل بن عباس ؓ: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك». وفي الحديث: «لَا عُدْوَى، وَلَا طَيْرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ، وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ، وَيَعْجِبُنِي الْقَالَ، قَالُوا وَمَا الْقَالَ؟ قَالَ: «كَلِمَةُ طَيِّبَةٌ»». والهامة: طير من طير الليل قيل: هو البومة، كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم. وصَفَرَ: هو الشهر المعروف بعد محرّم، كانوا يتشاءمون منه، وقيل: الصَفَرُ: دودة تصيب بطن الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب. والنَّوْءُ: جمعها أنواء وهي طوالع النجوم في منازل القمر، فكانت العرب تزعم أنها سبب للمطر وغيره. والغُول: من الجن والشياطين، تزعم العرب أنه يخرج في الطريق فيضلهم ويهلكهم. فنهى الإسلام عن التشاؤم واعتقاد أن هذه الأمور تحدث الخير والشر بذاتها. فإن الله خالق الخير والشر، يصيب بهما من يشاء،

فَقَدْ أَشْرَكَ»^(١)، «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطَيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكْهَنَ أَوْ تُكْهَنَ لَهُ»، «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا»^(٢) فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً».

«قال الله ﷻ: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشْرَكَهُ»^(٣). «مَنْ سَمِعَ سَمَعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهَ بِهِ»^(٤)، «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لِلشُّرْكِ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟ قُلْ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ».

ويصرفهما عن يشاء، ويبتلي بهما عباده، ولا يكون إلا ما يريد الله. وقد أمرنا بدعائه وطلب الخير والحفظ منه، مع الأخذ بالأسباب، وأن نستعيذه من كل شر.

(١) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ».

(٢) قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة، ونحو ذلك. وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يخبر عما في الضمير. وقال أبو العباس بن تيمية: العراف: اسم الكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

(٣) الرياء والشرك يحبط العمل، تخيل إنساناً قام أهله بتربيته والإنفاق عليه حتى صار شاباً قوياً، ثم ذهب لغيرهم لخدمهم، هل يحقُّ له أن يعود لأهله ليقول لهم: أعطوني أجره خدمتي لغيركم؟! فليذهب لمن كان يخدمهم وليحصل على أجرته منهم. وهكذا من يقوم بالرياء بالعبادة طلباً لمدح الناس أو رضاهم، ليس له أجر عند الله الذي خلقه وأنعم عليه وأمره بالإخلاص له في العبادة.

(٤) أي: مَنْ طَلَبَ بِعَمَلِهِ وَطَاعَتِهِ الثَّنَاءَ والمدحَ مِنَ النَّاسِ وَطَلَبَ السُّمْعَةَ والشُّهْرَةَ؛ يَفْضَحْهُ اللَّهُ ﷻ فِي الدُّنْيَا أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَامَ الْخَلَائِقِ، وَالسُّمْعَةُ تَتَعَلَّقُ بِحَاسَةِ السَّمْعِ، وَتَكُونُ غَالِبًا بَعْدَ عَمَلِ الطَّاعَةِ، وَالرِّيَاءُ يَتَعَلَّقُ بِحَاسَةِ الْبَصَرِ، وَيَكُونُ غَالِبًا أَثْنَاءَ الطَّاعَةِ، وَفِي هَذِهِ الْأَزْمَنَةِ وَجَدَ الْبَثَ الْمَبَاشِرَ لِلوقائع والأعمال، والتسجيل الصوتي والمرئي للطاعات، فقد يجمع بينهما، وعلى المؤمن أن يصلح نيته ليفلح وينال رضا ربه وثوابه.

ركائز دين الإسلام ومعالمه

ومن أقوال النبي ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنْ تُتِمَّ الْوُضُوءَ»^(١).

وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلَاةَ^(٢).....

(١) سئل عثمان بن عفان رضي الله عنه عن الوضوء، فدعا بماء، فأقي بميضة، فسكب على يمينه فغسلها، ثم أدخل يمينه في الإناء، فغسل كفيه إلى الكوعين ثلاثاً، ثم أدخل يمينه في الإناء فتمضمض ثلاثاً واستنشق واستنثر ثلاثاً، ثم غسل وجهه ثلاث مرات، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاث مرات، ثم غسل يده اليسرى مثل ذلك، ثم أدخل يده فأخذ ماء، فمسح برأسه وأذنيه، فغسل بطونهما وظهورهما مرة واحدة، ثم غسل رجله اليمنى إلى الكعبين ثلاث مرات، ثم غسل اليسرى مثل ذلك. ثم قال: أين السائلون عن الوضوء؟، هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ. وقال عليه الصلاة والسلام: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ». قيل المراد بالإيمان هنا: الصلاة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾، والطهارة شرط في صحة الصلاة، فصارت كالشطر، وليس يلزم في الشطر أن يكون نصفاً حقيقياً، وهذا القول أقرب الأقوال. ويحتمل أن يكون معناه أن الإيمان تصديق بالقلب، وانقياد بالظاهر، وهما شطران للإيمان، والطهارة متضمنة الصلاة، فهي انقياد في الظاهر.

(٢) قال عليه الصلاة والسلام: إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الْوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا. أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته؛ لا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا، لَا يُقِيمُ صَلَاتَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، إِنَّمَا مِثْلُ الَّذِي يَرَكُّعُ وَيَنْقُرُ فِي سُجُودِهِ كَالْجَائِعِ لَا يَأْكُلُ إِلَّا التَّمْرَةَ وَالتَّمْرَتَيْنِ، فَمَاذَا تُغْنِيَانِ عَنْهُ، أَمَا يَخْشَى الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمَامِ، أَنْ يُحوَّلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ؟، لَا تُجْزِي صَلَاةَ الرَّجُلِ حَتَّى

الْمَكْتُوبَةِ^(١)، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ^(٢)، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَتَعْتَمِرَ وَتَغْتَسِلَ مِنَ الْجَنَابَةِ»، «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَبِلِقَائِهِ وَبِالْبَعْثِ الْآخِرِ (بَعْدَ الْمَوْتِ) وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». «الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ»، «أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ»، «أَنْ تَخْشَى اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٣). «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار»، «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى».

«إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ، فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ، فَلَا تَنْتَهَكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ، فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا»، «مَا نَهَيْتُكُمْ

يُقِيمَ ظَهْرُهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ. وينبغي للمسلم أن يتعلم ويتدبر معاني الأذكار ليخضع في الصلاة، ففي التكبير تعظيم الرب بأنه أكبر وأعظم من كل شيء، كبير وعظيم في ذاته وأوصافه وأفعاله. ومعنى: (سبحان الله) أعظمه وأنزهه عما لا يليق بجلاله. ومعنى (التحيات لله): وهي جميع التعظيمات له ملكًا واستحقاقًا مثل الانحناء والركوع والسجود والبقاء والدوام وجميع ما يعظم به رب العالمين فهو الله، وصرفها لغيره شرك، والصلوات: معناها جميع الدعوات. وقيل: الصلوات الخمس، و(الطيبات) لله: فإن الله طيب ولا يقبل من الأقوال والأعمال إلا طيبها. وسيأتي معنى الصلاة على النبي ﷺ في (فضائل ذكر الله).

(١) المكتوبة هي الصلوات المفروضة.

(٢) أمر الإسلام بالزكاة وحث على الصدقة، وشرع الوقف الذي هو من أحكام الشريعة الإسلامية التي لم تشرع في غيره، وحرّم الإسلام الضرائب التي تؤخذ من الفقراء وتعطى للأغنياء، وحرّم الربا والميسر وأكل أموال الناس بالباطل، وليس في الإسلام شح يهودي ولا تقشف بوذي ولا احتكار وقرصنة كما عند الغرب، والمسلمون لا يعبدون المال، ولا يلغون الملكية الفردية.

(٣) تعبده كأنك تشاهده، فإن كان الحال أنك لا تشاهده فتوقن أنه يراك ويعلم ما في نفسك فتخشاه وتتقيه وتخلص له في كل أمورك.

عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، فَاتُّوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^(١)، «فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ». «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ»^(٢)، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»^(٣)، «وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ، مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي رَبِّي بِمَغْفِرَةٍ مِنْهُ وَرَحْمَةٍ وَفَضْلٍ، فَسَدُّوا»^(٤)، وَقَارِبُوا»^(٥)، وَأَبْشَرُوا»^(٦)، وَيَسِّرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ»^(٧)، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ»^(٨) «تَبْلُغُوا»^(٩)، «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصُهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ».

(١) وَعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوباتِ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ، وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ، وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ، وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا، أَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «نَعَمْ».

(٢) أي: دين الإسلام ذو يسر بالنسبة إلى الأديان قبله؛ لأن الله رفع عن هذه الأمة الإصر الذي كان على من قبلهم.

(٣) المشادة: المغالبة، والمعنى: لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق؛ إلا عجز وانقطع؛ فيُغلب.

(٤) أي: الزموا السداد، وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط. وقال أهل اللغة: السداد: التوسط في العمل.

(٥) أي: إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل، فاعملوا بما يقرب منه.

(٦) أي: أبشروا بالثواب على العمل الدائم وإن قلَّ. والمراد: تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صنيعه، لا يستلزم نقص أجره.

(٧) أي: استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المنشطة، وكأنه ﷺ خاطب مسافرًا إلى مقصد، فنبهه على أوقات نشاطه؛ لأن المسافر إذا سافر الليل والنهار جميعًا؛ عجز وانقطع، وإذا تحرى السير في هذه الأوقات المنشطة؛ أمكنته المداومة من غير مشقة. وحسن هذه الاستعارة أن الدنيا في الحقيقة دار نقلة إلى الآخرة، وأن هذه الأوقات بخصوصها أروح ما يكون فيها البدن للعبادة.

(٨) يعني: الوَسَطَ الْمُعْتَدِلَ، لا إفراط ولا تفريط.

(٩) قال البيهقي رحمه الله: ففي هذا دلالة على أنه لا ينبغي أن يكون خوفه بحيث يؤيسه ويقنطه من رحمة الله، كما لا ينبغي أن يكون رجاؤه بحيث يأمن مكر الله، أو يجترئه على معصية الله ﷻ.

«إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ»^(١)، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ^(٢)، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ^(٣) وَعِرْضِهِ^(٤)، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى^(٥)، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ»، «دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ»^(٦).



وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله».

(١) قال الله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

(٢) قال الله تعالى: ﴿فَتَعْلَمُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ.

(٣) سعى لتنزيه نفسه وصحائف أعماله من الحرام والاقتراب منه، بالاحتياط والتورع.

(٤) حفظ نفسه من ألسنة الناس واتهامهم له بالتساهل في الحرام والوقوع فيه.

(٥) الأرض المحمية التي يمنع دخولها والاقتراب منها (المحميات).

(٦) دع الأمر الذي يلحقك الشك والقلق والريب منه، وخذ بالاحتياط والعمل بما لا يلحقك منه شك وقلق.

افتراق المسلمين في دينهم

ومن أقوال النبي ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قُرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُفُونَ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ». «وَإِنَّ الْيَهُودَ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَإِنَّ النَّصَارَى افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَأِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَتَفْتَرِقَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ»، «وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»؛ «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»، «وَتْنَتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ».



الأمر بالتمسك بالسنة

قال النبي ﷺ: «لَتَنْقُضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةُ عُرْوَةٍ، كُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالتِّي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضُ الْحُكْمِ»^(١)، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ. وقال ﷺ: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»^(٢)،

والسنة هي: كل ما صدر عن النبي ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ مما يصلح أن يكون دليلًا لحكمٍ شرعي.

والسنة مع الكتاب (القرآن) في مرتبة واحدة من حيث الاعتبار والاحتجاج بهما على الأحكام الشرعية، مع أن الكتاب يمتاز عن السنة بأن لفظه منزل من عند الله سبحانه، متعبدٌ بتلاوته، معجزٌ للبشر أن يأتوا بمثله بخلافها. وقد روي عن عمران بن الحصين أنه كان جالسًا ومعه أصحابه فقال رجل من القوم: لا تحدثونا إلا بالقرآن، فقال له: أدن فدنا، فقال: «أرأيت لو وُكِلْتَ أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعًا، وصلاة العصر أربعًا والمغرب ثلاثًا تقرأ في اثنتين. أرأيت لو وُكِلْتَ أنت وأصحابك إلى القرآن، أكنت تجد الطواف سبعمائة، والطواف بالصفاء والمروة؟، ثم قال: أي قوم، خذوا عنا، فإنكم والله إن لا تفعلوا التضرُّع». وقد بلغ من اقتداء الصحابة بالنبي ﷺ أن كانوا يفعلون ما يفعل، ويتركون ما يترك دون أن يعلموا لذلك

(١) جاء في الحديث: «أَوَّلُ مَنْ يُبَدِّلُ سُنَّتِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ». قال الألباني: ولعل المراد بالحديث تغيير نظام اختيار الخليفة، وجعله وراثته. والله أعلم.

(٢) النواجذ: الأضراس. كناية عن شدة التمسك بالشيء.

سبباً، أو يسأله عن علته أو حكمته. وبلغ حرصهم على تتبعهم لأقواله وأعماله أن كان بعضهم يتناوبون ملازمة مجلسه يوماً بعد يوم، ثم يأتي بعضهم لبعض بما تعلموه. ونقل الصحابة أنه ﷺ سَعَلَ سَعْلَةً فِي صَلَاتِهِ: «أَخَذَتِ النَّبِيَّ ﷺ سَعْلَةً فَرَكَعَ»، ونقلوا حتى حركة شعر لحيته ﷺ وهو يقرأ دعاء الاستفتاح في الصلاة، بل وحتى نظره إلى أصبعه السبابة في التشهد، فقد نقلوا كل سنته واجتهدوا أشدَّ اجتهداً في حفظها.

وقد أخبر ﷺ أَنَّ سُنَّتَهُ سَتُنْقَلُ عِبْرَ الْأَجْيَالِ فَقَالَ: «تَسْمَعُونَ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيَسْمَعُ مِمَّنْ سَمِعَ مِنْكُمْ»، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ؛ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ؛ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا؛ فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا؛ فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ».

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه في مناظرته الشهيرة للخوارج: «أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَمِنْ عِنْدِ ابْنِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ وَصَهْرِهِ، وَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْقُرْآنُ؛ فَهُمْ أَعْلَمُ بِتَأْوِيلِهِ مِنْكُمْ». فالصحابه هم أعلم الناس بفقه هذا الدين. وقد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «قِفْ حَيْثُ وَقَفَ الْقَوْمُ، وَقُلْ كَمَا قَالُوا، وَاسْكُتْ عَمَّا سَكَتُوا؛ فَإِنَّهُمْ عَنْ عِلْمٍ وَقَفُوا، وَبِصَرٍ نَافَذَ كَفُّوا».

ولا بد للمسلم أن يحذر ممن يخالفون هدي النبي ﷺ وهدى أصحابه رضي الله عنهم ويسمون أنفسهم (دعاة التنوير)، ومن صفاتهم: تأويل النص الشرعي بما يخرج عنه معناه وعن مراد الشرع تماماً، وإنكار حجية السنة النبوية، والقدح في علم الحديث، والتنقص من علماء السلف الصالح، وتبني الديانة الإنسانية، وتقديم حق البشر على حق الله، وإثارة القوميات والنعرات، والاصطفاف مع الملحدين في الحرب على المؤمنين.

الإسلام محفوظ بعلماء مجددٍين

قال النبي ﷺ: «يَرِثُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَحْرِيفَ الْعَالِينَ». وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا».

وقد اهتمَّ الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ بالرحلة في طلب العلم لما فرقتهم الفتوحات في الأمصار، فرحل جابر بن عبد الله إلى عبد الله بن أنيس في الشام واستغرق شهراً ليسمع منه حديثاً واحداً لم يبق أحدٌ يحفظه غير ابن أنيس. ورحل أبو أيوب الأنصاري إلى عقبة بن عامر بمصر، فلما لقيه قال: حدثنا ما سمعته من رسول الله ﷺ في ستر المسلم لم يبق أحدٌ سمعه غيري وغيرك، فلما حدثه ركب أبو أيوب راحلته وانصرف عائداً إلى المدينة ولم يحل رحله.

ثم لما تابعت الفتن والبدع بعد وفاة النبي ﷺ وجيل الصحابة رضوان الله عليهم وظهرت بدعة القول بالقدر، ثم التجهُّم، والرفض، فالاعتزال، وغيرها؛ سلكت الأجيال التالية لجيل الصحابة الأخيار من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم من أهل القرون المفضَّلة طرقاً لحفظ السُّنَّة والعناية بها تمثلت في: العناية بحفظها، والسؤال عن الإسناد، والبحث في أحوال الرجال ونقلة الأخبار. فتتج عن ذلك (علم الرجال والإسناد) الذي أصبح ميزة هذه الأمة المسلمة عن غيرها من الأمم. وعلى إثره كانت الرحلة في طلب الحديث وكان تدوين السُّنَّة الذي بدأ بصحيفٍ وأجزاء، ثم تطور إلى مصنَّفات مبوَّبة ومرتبَّبة إما على الأبواب؛ كصحيح البخاري، وصحيح

مسلم، وجامع الترمذي، وسنن النسائي، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجه والموطأ وغيرها، وإما على المسانيد؛ كمسند أحمد وغيره.

ولم يكن هناك خلاف بين أحد من السلف في القرون الثلاثة المفضلة في وجوب العمل بالسنة، دون تفريق بين ما سمي فيما بعد بخبر الأحاد وما سمي بالمتواتر، ولا ما سمي بأصول الدين وفروعه - وكلها تقسيمات محدثة مبتدعة - . ولما بزغت بعض رؤوس الفتنة في عصور السلف الأولى وردت السنة أو بعضها هبوا جميعاً في جوههم، وحذروا منهم، وكان أيوب السخيتاني يقول: «إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا وحدثنا بالقرآن، فاعلم أنه ضالٌّ مضلٌّ».

ثم اتسع العلماء في كتابة السنة في عصر ما بعد التابعين، وعولوا على تدوينها في الصحف؛ لأن الروايات انتشرت والمسانيد طالت، وأسماء الرجال وكناهم وأنسابهم كثرت، والعبارات بالألفاظ اختلفت، فعجزت القلوب عن حفظ كل ذلك، فانتشر تدوين السنة وصار علم السنة أكثر ثباتاً وحفظاً وتديناً. ووفق الله لها حفاظاً عارفين، وجهابذة عالمين، ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فتنوعوا في تصنيفها وتفننوا في تدوينها على أنحاء كثيرة، حرصاً على حفظها، وخوفاً من إضاعتها، وكان من أحسنها تصنيفاً وأجودها تأليفاً وأكثرها صواباً وأقلها خطأ، وأعمها نفعاً، وأعودها فائدة وأعظمها بركة، وأيسرها مؤونة، وأحسنها قبولاً عند الموافق والمخالف، وأجلها موضعاً عند الخاصة والعامة: «صحيح البخاري»، ثم «صحيح مسلم»، ثم بعدهما كتاب «السنن» لأبي داود، ثم كتاب «الجامع» للترمذي، ثم كتاب «السنن» للنسائي، ثم كتاب «السنن» لابن ماجه القزويني، وغيرها.



لكل نبي حواريون ويخلفهم مبدلون

وجاء عنه عليه السلام أنه: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ^(١) وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ». «لِيَحْمِلَنَّ شِرَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى سَنَنِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَذْوَ الْقَذَةِ بِالْقَذَةِ^(٢)، شَبْرًا بِشَبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، «حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّةً عَلَانِيَةً؛ لَكَانَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ»، «إِنْ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامُ الصَّبْرِ»؛ «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانُ الصَّابِرِ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهِنَّ يَوْمَئِذٍ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ».



(١) الحواريون هم: الصفوة والخلص والنخبة من الأصدقاء المقربين.

(٢) القذة: ريشة السهم. و(حذو القذة بالقذة): مثل للشئيين يستويان ولا يتفاوتان، أي: كما تُقَدَّر

كل واحدة منهما على قَدَرِ صاحبها وتُقَطَّع.

الأمر بالتمسك بالجماعة

ومن أقوال النبي ﷺ: «خِلَافَةُ النَّبِيِّ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً»^(١) ثُمَّ يُرْتِي اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ مُلْكُهُ مَنْ يَشَاءُ، «أَوَّلُ هَذَا الْأَمْرِ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ، ثُمَّ يَكُونُ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا وَرَحْمَةٌ، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاصًا»^(٢) فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعُهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً»^(٣) يَتَكَادِمُونَ عَلَيْهِ تَكَادِمَ الْحُمْرِ^(٤) فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعُهَا»^(٥)، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ

(١) قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُمَهَانَ: ثُمَّ قَالَ لِي سَفِينَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَمْسِكْ عَلَيْكَ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ سَتَيْنِ وَخِلَافَةَ عُمَرَ عَشْرًا وَخِلَافَةَ عُثْمَانَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ، وَخِلَافَةَ عَلِيٍّ سِتِّ سِنِينَ. قَالَ سَعِيدٌ: فَوَجَدْنَاهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً. وَالْأَصْلُ فِي الْخِلَافَةِ: أَنَّ أَهْلَ الشُّورَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَخْتَارُونَ الْإِمَامَ الْعَادِلَ الْعَالِمَ الْمُجْتَهِدَ وَالْخَيْرَ الْمُسْتَبْتَطَ لِلْأُمُورِ وَيَبَايَعُونَهُ مِنْ طَرِيقِ الشُّورَى وَتَعْقِدُ الْبَيْعَةَ بَيَانِ مَالِهِ وَمَا عَلَيْهِ. وَأَهْلُ الشُّورَى: هُمْ أَهْلُ الشُّوْكَةِ وَرُؤَسَاءُ الْجَنْدِ وَشِيوخُ الْقَبَائِلِ وَأَشْرَافُ النَّاسِ. لَكِنْ إِنْ تَوَلَّى عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَاكِمٌ مُسْلِمٌ بَغَيْرِ الشُّورَى يَقِيمُ الدِّينَ وَالصَّلَاةَ فِي الْمُسْلِمِينَ؛ فَلَهُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَرِيشٍ، وَلَوْ كَانَ عَبْدًا.

(٢) الْمَلِكُ الْعَضُوضُ، الْمُرَادُ بِهِ التَّعَسُّفُ وَالظُّلْمُ، كَأَنَّهُمْ يُعَضُّونَ فِيهِ عَضًّا.

(٣) الْمَلِكُ الْجَبْرِي: الْمُرَادُ بِهِ الْمَلِكُ بِالْقَهْرِ وَالْجَبْرِ.

(٤) أَيُّ: يَعْضُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

(٥) وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ عَزِيزًا مَنِيعًا، وَلَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ يَنْصَرُونَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُمْ عَلَيْهِ، إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً كُلُّهُمْ تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ وَكُلُّهُمْ مِنْ قَرِيشٍ). قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْاجْتِمَاعِ: انْقِيَادُهُمْ لِبَيْعَتِهِ، وَقَدْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، ثُمَّ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى مُعَاوِيَةَ عِنْدَ صَلَاحِ الْحَسَنِ، ثُمَّ اجْتَمَعُوا عَلَى وَلَدِهِ يَزِيدَ، ثُمَّ اجْتَمَعُوا عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، ثُمَّ أَوْلَادُهُ الْأَرْبَعَةُ: الْوَلِيدُ ثُمَّ سُلَيْمَانُ ثُمَّ يَزِيدُ ثُمَّ هِشَامُ، وَتَخَلَّلَ بَيْنَ سُلَيْمَانَ وَيَزِيدَ: عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَهُوَ لَأَسْبَغَةَ بَعْدَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَالثَّانِي

النُّبُوَّةُ^(١)، «فَعَلَيْكُمْ بِالْجِهَادِ، وَإِنَّ أَفْضَلَ جِهَادِكُمْ الرِّبَاطُ، وَإِنَّ أَفْضَلَ رِبَاطِكُمْ عَسَقْلَانٌ». «أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ»، «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ». «خِيَارُ أَيْمَتِكُمْ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ»^(٢)، وَشَرَارُ أَيْمَتِكُمْ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ». «يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءٌ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ»^(٣)، فَمَنْ أَنْكَرَ، فَقَدْ بَرَأَ^(٤)، وَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ سَلِمَ^(٥)، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ»^(٦)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟، قَالَ: «لَا، مَا صَلَّوْا»، «مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ»، «فَخَالِطُوهُمْ بِأَجْسَادِكُمْ وَزَايِلُوهُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَاشْهَدُوا عَلَى الْمُحْسِنِ بِأَنَّهُ مُحْسِنٌ، وَعَلَى الْمُسِيءِ بِأَنَّهُ مُسِيءٌ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْكُمْ وَلَا تَكُنْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ، فَافْكُرْهُوَ عَمَلُهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»، «أَفْضَلُ الْجِهَادِ: كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ».

عشر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك لما مات عمه هشام، فولي نحو أربع سنين، ثم قاموا عليه فقتلوه، وانتشرت الفتن وتغيرت الأحوال من يومئذ. وكانت الأمور في غالب أزمته هؤلاء الاثني عشر منتظمة، وإن وجد في بعض مدتهم خلاف ذلك، فهو بالنسبة إلى الاستقامة نادر والله أعلم.

(١) قد ينطبق ذلك على خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وعلى خلافة المهدي في آخر الزمان. وروى أحمد والبيهقي في «دلائل النبوة»: قَالَ حَبِيبُ بْنُ سَالِمٍ فَلَمَّا قَامَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ فِي صَحَابَتِهِ فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَذْكُرُهُ إِسَاءَةً فَقُلْتُ لَهُ إِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - يَعْنِي عُمَرَ - بَعْدَ الْمَلِكِ الْعَاصِ وَالْجَبَرِيَّةِ فَأَدْخَلَ كِتَابِي عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَسَرَّ بِهِ وَأَعْجَبَهُ.

(٢) يعني: يدعون لكم وتدعون لهم.

(٣) أي: تعرفون بعض أحوالهم وأقوالهم لموافقتها للشرع، وتنكرون بعضها لمخالفتها له، فمعنى (تعرفون): ترضون؛ لمقابلتها تنكرون.

(٤) أي: سلم من المداينة والنفاق.

(٥) أي: من أنكر بقلبه، وكره بقلبه فقد سلم من مشاركتهم في الوزر.

(٦) أي: من رضي بقلبه فعلهم، وتابعهم في العمل، فهو الذي شاركهم في العصيان.

«يَكُونُ بَعْدِي أئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهَدَايَ، وَلَا يَسْتَنُونَ بِسُنَّتِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ^(١)، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مِنْ أَجَابِهِمْ إِلَيْهَا، قَذَفُوهُ فِيهَا، هُمْ رِجَالٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِاللِّسَانِ، قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ»، «إِنْ كَانَ لِلَّهِ خَلِيفَةٌ فِي الْأَرْضِ^(٢) فَالزَّمْ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، «وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا وَاهْرُبْ حَتَّى تَمُوتَ، فَإِنْ تَمَتَّ وَأَنْتَ عَاظٌ بِجِذْلِ شَجَرَةٍ^(٣) خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتَّبِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ^(٤)»، «اسْمَعْ وَأَطِعْ» «لِلْأَمِيرِ»، «وَإِنْ جَلَدَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ»، «مَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفَقَةً يَدِهِ وَثَمَرَةً قَلْبِهِ فَلْيُطِعهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ»، «إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»، «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ»، «أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ؛ أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي لَا يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُونَ بِسُنَّتِي، يَكْذِبُونَ وَيُظْلِمُونَ، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ وَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ؛ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الْحَوْضُ، فَأُولَئِكَ قَدْ هَلَكُوا وَاهْلَكُوا. وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ؛ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الْحَوْضُ».

(١) يعني: ترى فيهم ما تعرفه أنه من ديني، وترى فيهم ما تنكر كونه من ديني.

(٢) يعني: خليفة من الله، وليس خليفة عن الله؛ لأن الله حي شاهد لا يغيب.

(٣) أي: بأصلها.

(٤) الإعلام الغربي يدعم الترويج لرؤوس أهل البدع والضلال من الزنادقة والغلاة من الشيعة والمتصوفة والمرجئة ويبرز أفعال الفرق المنحرفة كالخوارج وغيرهم من الضالين المنتسبين للإسلام بقصد تشويه دين الإسلام والصد عنه، ويدعمون الاستشراق والمستشرقين لدراسة الإسلام من أجل تشويبه وإبراز وتمجيد الشخصيات الضالة في تاريخ الإسلام، مثل: الحلاج، ورابعة والتوحيدي والجاحظ وابن عربي والخيام وغيرهم. والأئمة المضلون المنتسبين للإسلام هم أخطر على أمة الإسلام من المسيح الدجال. ولا يجوز تولية أهل البدع المضلين المناصب السيادية، وإنما يعاملون بين العقوبة والحد، ولا يتركون مجتمعين فتقوى شوكتهم؛ بل يفرقون بين أهل الإسلام ويعلمون الدين. ويجب التفريق في المعاملة بين المبتدع الساكت والمبتدع الداعي لبدعته.

النهي عن الابتداع في الدين

قال ﷺ: «وَيَاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، وقال ﷺ: «مَنْ أَخْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».

وذلك يعني أن استحداث عبادات جديدة في الدين أو تغيير الثابت منها هو ضلال مردود على صاحبه. فالمسلمون المهتدون هم أهل السنة والجماعة، المستمسكون بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وهم الأمة الوسط؛ فلا يكفرون المسلمين بمجرد ارتكاب أي ذنب، ولا يستحلون دماءهم، ولا يخرجون على الحاكم الشرعي أو يقاتلونه كالخوارج المارقين؛ بل يولونه السمع والطاعة في المعروف ما دام مقيمًا للدين والصلاة في الناس ولم يظهر كفرًا بواحد، ومن نقض البيعة فميته جاهلية، ولولي الأمر قتل الخارج الذي يشق الصف ويفرق الأمة.

ومن أعظم البدع في الدين: بدع المنافقين من الشيعة الرافضة، فقد حرّفوا قصة غدير خم ووصية النبي ﷺ فيها باتباع كتاب الله، ووصيته بأهل بيته التي رواها مسلم في (صحيحه)، فحرفها الرافضة حتى زعموا أنه عهد إلى علي رضي الله عنه بالخلافة، وأن الصحابة تمالؤوا على كتمان هذا النص، وغضبوا الوصي حقه، وفسقوا وكفروا إلّا نفرًا قليلًا. وزعموا أن القرآن ناقص أو محرف، وتجددهم يستخفون بالمصحف الشريف ويهينوه، ويتركون اتباع سنة النبي ﷺ، ويكفرون الصحابة، ويطعنون في أمهات المؤمنين. وينشرون الزنا والفساد والدعارة باسم المتعة، ويتحالفون مع الكفار ضد المسلمين، ويحيون عبادة النار، ويعتقدون عصمة أئمتهم، ويعتقدون أن التقية تسعة أعشار الدين. ويحبون الحسين أكثر من غيره لأنهم يزعمون أنه تزوج

ابنة كسرى، ويقدسون قبر أبي لؤلؤة المجوسي لأنه قتل خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويحزنون الحزن الشديد يوم عاشوراء كما يفعله النصارى في الشعانين. ويكرهون الرقم عشرة (١٠) كما يكره النصارى الرقم ثلاثة عشر (١٣)، وعندهم عقيدة المخلص المنتظر كما أن عند المجوس المخلص «شوشن»، وبسبب الرفضة حدث الشرك وعبادة القبور: وهم أول من بنى عليها المساجد، والإثنا عشرية منهم يكفرون النصيرية لأن مؤسس النصيرية محمد بن نصير يكفر بمهديهم الموهوم الذين يزعمون اختفاه في سرداب سامراء. والنصيريون الباطنيون يشهدون أن لا إله إلا حيدرة الأنزع البطين، ويؤلهون علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سماهم العثمانيون «العلي إلهية»، ثم حرفها الفرنسيون إلى «العلوية». والشيعية الباطنية وغيرهم من المنافقين هم أشد عداوة وخطرًا على المسلمين من الخوارج والزيدية.

وأهل السنة والجماعة يحبون آل البيت، ويعرفون لهم فضلهم وحقهم ومنزلتهم، دون أن يغفلوا فيهم أو يقدسوههم أو يعبدوهم، ويحبون أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ويترضون عنهم ويقتفون هديهم، ولا يكفروهم كما يفعل الروافض من الشيعة، بل يحبون الصالحين ولا يغفلون فيهم، ولا يدعونهم من دون الله، ولا يطوفون بقبورهم وأضرحتهم، ولا ينسبون لهم العصمة أو رفع التكليف أو حق الشريعة أو التحكم بالكون بدعوى الولاية كما يفعل الروافض والقبوريون والزنادقة وغلاة المتصوفة.

والإيمان عند أهل السنة والجماعة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وليس كما يعتقد الخوارج والمرجئة إما أن يذهب كله أو يبقى كله، وأنه لا يتجزأ ولا يتبعض. وليس الإيمان عند أهل السنة والجماعة نفاقاً ولا إرجاءً أو نطقاً ومعرفة دون الانقياد بالعمل الصالح كما هو حال جماعة ممن أضلهم الهوى. فتجد من أولئك طائفة يقدسون آراء وأهواء أوليائهم ويقدمونها على نصوص الوحي الصريحة، ويدورون مع رأي أوليائهم حيث داروا، ويوجبون التسليم لهم مطلقاً، ويشغلون ألسنتهم

وأقلامهم بأعراض من يختلفون معه من أهل السنة والجماعة، ويصفونهم بهتاناً بصفات المارقين من الدين وأصحاب الخروج والفتن، ويستبيحون غيبة من برز من دعاة التوحيد والسنة ويبحثون عن عيوبه وأخطائه وتتبع زلاته والافتراء عليه ويفجرون في الخصومة معه ويبهتونه ويوشون به وقد يستحلون دمه ويستعدون أهل السلطة عليه، ويمتحنون الناس في محبتهم له. فمن وافق ضلالهم وأهواءهم وصفوه بالإيمان، ومن خالفهم فهو عندهم ضال مارق من الدين. بل تجد منهم من يوالون المخالف لهم في أصل الدين، ويعادون أهل الملة والإيمان. ويصل بهم الأمر للتنازع بينهم في السيادة والظهور والتملق وتضليل بعضهم البعض وتحذير بعضهم من بعض، وأقوالهم تدعوا إلى الجماعة ويعنون جماعتهم، وأفعالهم تمزق جماعة المسلمين وتورث الفرقة، حتى صاروا موضع مدح وإطراء من أعداء الدين، وقد قال الشافعي رحمه الله لا يستدل على أهل الإرجاء بأقوى من قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمُورُ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ٥٦﴾ فالحنيفية والدين القيم هو الميل عن المشركين ومعاداتهم والبراءة منهم.



أهمية إصلاح القلب والنية

ومما جاء في الحديث عنه عليه السلام: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن ﷻ كقلب واحد يصرفه حيث يشاء»، «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك». «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». «إن الله تجاور لي عن أممي: الخطأ والسيان وما استكروها عليه».

«إنما الدنيا لأربعة نفر؛ عبد رزقه الله مالا وعِلما فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالا؛ لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما، فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما، فهو يقول: لو أن لي مالا؛ لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء». «من كانت الآخرة همه؛ جمع الله له أمره، وجعل الله غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه؛ فرّق الله عليه أمره، وجعل الله فقره بين عينيه، ولم يأت به من الدنيا إلا ما كُتب له».



القضاء والقدر والأخذ بالأسباب

«لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا». «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ»^(١)، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا». «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ؛ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ؛ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».



(١) من حفظ الله بإقامة شرعه، وأداء فرائضه، والوقوف عند حدوده؛ حفظه الله في الدنيا والآخرة.

رؤى المنام

«رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ، وَهِيَ عَلَى رَجُلٍ طَائِرٍ مَا لَمْ يُحَدِّثْ بِهَا صَاحِبُهَا، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ^(١)، وَلَا تُحَدِّثُوا بِهَا إِلَّا عَالِمًا أَوْ نَاصِحًا أَوْ حَبِيبًا»، «إِذَا لَعِبَ الشَّيْطَانُ بِأَحَدِكُمْ فِي مَنَامِهِ، فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ النَّاسَ»، «الرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: مِنْهَا أَهْوَيلُ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ بِهَا ابْنُ آدَمَ، وَمِنْهَا مَا يَهْمُ بِهِ الرَّجُلُ فِي يَقْظَتِهِ، فَيَرَاهُ فِي مَنَامِهِ، وَمِنْهَا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ بُشْرَى مِنَ اللَّهِ، فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا، فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ اللَّهِ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَلَيْهَا، وَلْيَقْصُصْهَا إِنْ شَاءَ، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَلْيُفَسِّرْهَا. وَإِنْ رَأَى مَا يَكْرَهُ؛ فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ، وَلْيَنْفُثْ حِينَ يَسْتَيْقِظُ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ثَلَاثًا، وَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ، وَلَا يُخْبِرْ بِهَا أَحَدًا، وَلَا يُفَسِّرْهَا، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ».



(١) أي: إن الرؤيا مُعلَّقةٌ غير مستقرة، كما لا تستقر رجل الطائر على غصن، ولا تقع وتتحقق ما لم يتكلم بها الرائي، ويُفصح عنها لأحد، فإذا تحدَّثَ بها وقعت وتحققت، ولا يلزم أن يكون وقوعها وتحققها موافقًا لتأويل أول شخص يؤولها، وذلك لقول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: «لما أول رؤيا صاحبي عند النبي ﷺ: (أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا)، والله أعلم».

أخلاق المؤمن وأخلاق المنافق

«الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ». «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ». «أَشْهَدُ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَمُوتُ عَبْدٌ يُشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ^(١) ثُمَّ يُسَدِّدُ^(٢)؛ إِلَّا سُلِكَ فِي الْجَنَّةِ». «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ»، «إِذَا سَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ، وَسَاءَتْكَ سَيِّئَتُكَ؛ فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ». «إِنَّمَا النَّاسُ كِبَإِلٌ مَائَةٍ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»، «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجاتِ الصَّائِمِ وَالْقَائِمِ». «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ وَالصَّدَقَةِ؟ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ؛ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ إِنَّهَا تَخْلُقُ الشَّعْرَ؛ وَلَكِنْ تَخْلُقُ الدِّينَ». «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ؛ وَإِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»، «لَا تَغْضَبْ». «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ». «وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ».

(١) قال ابن القيم: والتصديق بـ«لا إله إلا الله» يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة، بالتصديق بجميع أخباره وأوامره واجتناب نواهيه... فالمصدق بها على الحقيقة هو الذي يأتي بذلك كله، ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقوقها، وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقوقها.

(٢) دلالة على اشتراط العمل الصالح وارتباطه بالتصديق، وذلك بفعل الفرائض واجتناب الكبائر.

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»، «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»، «إِذَا سَمِعْتَ
جِيرَانَكَ يَقُولُونَ: أَنْ قَدْ أَحْسَنْتَ؛ فَقَدْ أَحْسَنْتَ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ: قَدْ أَسَاءْتَ؛
فَقَدْ أَسَاءْتَ». «لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَيْيَاتٍ؛ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ»،
«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلْيُكُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمْتُ». «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى
اِثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُخْزِنُهُ»، «مَنْ قَالَ: هَلَكَ النَّاسُ؛ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ». «مَنْ يُحَرِّمُ
الرِّفْقَ؛ يُحَرِّمُ الْخَيْرَ كُلَّهُ، فَإِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ
إِلَّا شَانُهُ». «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَرُوعَ مُسْلِمًا»، «وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمَتْهَا رَحِمَكَ اللَّهُ»، «إِذَا
ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلْيُحَدِّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِخْ ذَبِيحَتَهُ»^(١). «لَا ضَرَرَ»^(٢) وَلَا
ضِرَارَ»^(٣). «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا».

(١) ونهى ﷺ أَنْ تُحَدَّ آلَةُ الذَّبْحِ أَمَامَ الْحَيَوَانِ؛ لثَلَا تَرُوعُهُ. ونهى أَنْ تَذْبَحَ الْبَهِيمَةُ أَمَامَ اخْتِهَا، وَمِنْ
رَحْمَتِهِ ﷺ أَنَّهُ نَهَى أَنْ يَحُولَ أَحَدُ بَيْنَ حَيَوَانٍ أَوْ طَيْرٍ وَبَيْنَ وَلَدِهِ، وَرَأَى الصَّحَابَةُ حُمْرَةً (نوع
مِنَ الطُّيُورِ) مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذُوا فَرْخَيْهَا فَجَاءَتْ تَعْرِشُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ فَجَعَ هَذِهِ
بَوْلِدِهَا؟ رَدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا. وَرَأَى قَرْيَةً نَمَلٌ قَدْ حَرَّقَهَا بَعْضُ الصَّحَابَةِ. فَقَالَ: مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟
إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ. وَنَهَى ﷺ عَنِ الْمُثَلَّةِ بِالْحَيَوَانِ، وَهُوَ قَطْعُ جُزْءٍ
مِنْ أَطْرَافِهِ وَهُوَ حَيٌّ، وَلَعَنَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، وَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ اتِّخَاذِ شَيْءٍ فِيهِ الرُّوحُ غَرْصًا؛
لِيَتَعْلَمَ فِيهِ الرَّمْيُ، وَلَعَنَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، وَحَذَّرَ مِنْ إِيْذَاءِ الْحَيَوَانِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَأَخْبَرَ أَنَّ امْرَأَةً
دَخَلَتْ النَّارَ بِسَبَبِ هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا وَأَجَاعَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ. كَمَا حَثَّ عَلَى الْإِحْسَانِ لِلْبَهَائِمِ وَأَخْبَرَ
أَنْ بَغْيًا مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ بِسَبَبِ كَلْبٍ كَادَ أَنْ يَمُوتَ مِنَ الْعَطَشِ، فَسَقَتْهُ مَاءً.
وَنَهَى ﷺ عَنِ قَطْعِ الشَّجَرِ النَّافِعِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ. أَمَّا تَشْرِيعُ النَّبَاتِيِّينَ فَلَا يَتِمُّ لِعَقْلِ، وَلَا
بَصِيرَةٍ، وَنَهَايَتُهُ هَلَاكُ الْحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانِ. وَلَوْ سَارَ الْإِنْسَانُ خَلْفَ هَرَاءِ النَّبَاتِيِّينَ فَسَيَحْرُمُ عَلَى
نَفْسِهِ كُلِّ مَأْكُولٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَأْكُولٍ نَتَاجُ حَيَاةٍ وَاعِيَةٍ، وَسَيَحْرُمُ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى الْاِغْتِسَالُ؛ لِثَلَا
يَقْتُلُ الْمُسْتَعْمِرَاتُ الْبَكْتِيرِيَّةَ الَّتِي تَحْيَا عَلَى جِلْدِهِ.

(٢) لَا يَضُرُّ الرَّجُلَ أَخَاهُ.

(٣) (وَلَا ضِرَارَ) يَعْنِي: لَا يُضَارُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ وَيُدْخَلُ الضَّرَرُ عَلَى الَّذِي ضَرَّهُ؛ وَلَكِنْ
يَعْفُو عَنْهُ ﴿أَدْفَعْ بِأَلْيِ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا أَلَدَى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٢٤).

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ^(١) أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ»، «لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا، أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ». «تَهَادَوْا تَحَابُّوا».

«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌ، وَلَا مَنَّانٌ، وَلَا نَمَّامٌ»، «وَلَا قَاطِعٌ رَحِمٍ»^(٢)، «وَلَا مُؤْمِنٌ بِسِحْرِ»^(٣)، «وَلَا مُدْمِنٌ خَمِرٍ، وَلَا مُكْذِبٌ بِقَدَرٍ»، «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»، «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ جَسَدٌ غُذِيَ بِحَرَامٍ»، «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ»، «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»^(٤). «لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ: فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»، «اشْفَعُوا تَوْجَرُوا»، «مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ»، «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ»، «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ». لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا^(٥)، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا»، «لَا يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَيْعِ بَعْضٍ»، «وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ،

(١) أي: محمد ﷺ.

(٢) قاطع رحم: هاجر لأقاربه من المحارم فلا يصلهم ولا يزورهم.

(٣) مؤمن بسحر: يعتقد أن السحر يؤثر بذاته لا بتقدير الله وإذنه.

(٤) المعنى - والله أعلم - أنه من مات من المسلمين غير تائب من هذه المعاصي والكبائر فإن جزاءه أن لا يدخل الجنة قبل أن يطهر بالعذاب، إلا أن يغفر الله له إن شاء، ولذلك يحذر المسلم منها حذرًا شديدًا لعظم خطرها ولأنه ليس كل أحد يوفق للتوبة النصوح الصادقة مع إقلاع القلب وندمه وعدم إصراره، ولا يأمن أن يأتيه الموت قبل التوبة. أما حديث: «مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ، وَلَوْ كَانَ فَارًّا مِنْ الزَّحْفِ» فالمعنى - لو صحَّ إسناده - أنه إذا كان قائله تائب توبةً صحيحةً صادقةً من قلبه مع إقلاعه وندمه، وليست مجرد القول باللسان. أما إن كان فاعل الكبائر كافرًا جاحدًا لشرع الله وحكمه؛ فالكافر الذي يموت على كفره وقد بلغه الإسلام واستكبر ولم يسلم فإن جزاءه أن لا يدخل الجنة أبدًا لأنها خصصت لعباد الله الصالحين.

(٥) يعني: في مزايدات البيع، نهى أن يزيد أحد في سعر سلعة لا يريد شراءها.

لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، بِحَسَبِ امْرِئٍ مِّنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ». «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ اتِّلَافَهَا اتَّلَفَهُ اللَّهُ»، «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»، «وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ بَاعَ مِنْ أَخِيهِ بَيْعًا فِيهِ عَيْبٌ إِلَّا بَيْنَهُ لَهُ»، «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا»، «أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ، قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرْقُهُ»، «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ عَدَرَ^(١)، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ». «الْحِقُّوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبْقَتْ الْفَرَائِضُ فَلَاؤَلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»، «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لَادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ وَدِمَاءَهُمْ وَلَكِنِ الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِيِ وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ». «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدْ ثُمَّ أَصَابَ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ؛ فَلَهُ أَجْرٌ». «لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِيَّ وَالْمُرْتَشِيَّ فِي الْحُكْمِ»، «أَيُّمَا رَجُلٍ ظَلَمَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ؛ كَلَّفَهُ اللَّهُ ۖ أَنْ يَحْفِرَهُ حَتَّى يَبْلُغَ بِهِ سَبْعَ أَرْضِينَ^(٢)»، ثُمَّ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ»، «وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ». «الرَّبَّاءُ سَبْعُونَ حُوبًا^(٣)»، «أَيَسَّرَهَا أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ»^(٤)، «مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرَّبَّاءِ، إِلَّا كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قِلَّةٍ»، «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»، «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ»^(٥)، «وَلَا تُخْصِي؛ فَيُخْصِي اللَّهُ عَلَيْكَ، وَلَا تُوعِي فَيُوعِي اللَّهُ عَلَيْكَ»^(٦)، «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ

(١) أي: عاهد عهدًا وحلف عليه بالله، ثم نقضه.

(٢) قال ابن التين: وفيه أن الأرضين السبع طباق كالسماوات وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

(٣) حوبًا: إثمًا.

(٤) ولعن رسول الله ﷺ أكل الرباء، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: «هُم سَوَاءٌ».

(٥) ليس غنى العباد حقيقة بكثرة العرض والمال، ولكنه غنى النفس ورضاه.

(٦) المعنى - والله أعلم - لا تشغلي همك بأن تعدّي المال وتحسبي ما أنفقت لله وما أبقيت،

مَالٍ لَا يَبْغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»، «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ أَوْ دُونَ دِمِهِ أَوْ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»، «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ^(١)؛ إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ». «لَأَنْ أَمْشِيَ عَلَى جَمْرَةٍ، أَوْ سَيْفٍ، أَوْ أَخْصِفَ نَعْلِي بِرِجْلِي، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمْشِيَ عَلَى قَبْرِ مُسْلِمٍ». «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ: الثَّيْبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمَفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ». «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ^(٢)». «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ؛ لَا تَتَّبِعُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ^(٣)؛ فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»، «وَمَنْ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ؛ ضَبَّ فِي أُذُنِهِ الْآنُكَ^(٤)، يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»، «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيَ؛ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ». «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، وَإِنْ كَانَتْ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فِيهِ؛ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ^(٥)».

حتى لا تجزي بمثل عملك؛ فيحصي عليك نعمة وفضله وآلاءه ويحاسبك عليها يوم القيامة، ولا تبخلي وتدخري المال وتمسكي عن إنفاقه في سبيل الله والتصدق منه؛ فيكون ذلك سبباً أن يمنح الله عنك بركته وزيادته ونمائه وما يخلفه على المنفقين.

(١) سماهما (مسلمين) مع التواعد بالنار، وهذا الوعيد لمن قاتل على عداوة دنيوية، أو طلب مملك مثلاً، فأما من قاتل أهل البغي، أو دفع الصائل فقتل، فلا يدخل في هذا الوعيد؛ لأنه مأذون له في القتال شرعاً.

(٢) أي: من النياحة ونحوها وكذا الندبة كقولهم يا ويلاه يا ثوراه يا انقطاع ظهراه وما أشبه ذلك.

(٣) أي: لا تتبعوا وتتصيدوا أخطاءهم وسقطاتهم وزلاتهم لأجل فضحهم.

(٤) يعني الرصاص.

(٥) وفي رواية: (وإذا اتئمن خان).

العشرة بين الزوجين

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضَلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا؛ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسَرُهَا طَلَاقُهَا، فَدَارِهَا تَعِشْ بِهَا»، «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ»^(١) وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»، «رفقا بالقوارير»^(٢). «لَا يَفْرَكُ»^(٣) مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةٌ؛ إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ».

(١) وقد جاء الإسلام بإكرام المرأة ورفع الظلم عنها مما كان من أمر الجاهلية قبل الإسلام، قال قتادة: «كان الرجل في الجاهلية يُقامر على أهله وماله فيقعده حريًا سلبًا». وكان يجتمع الرهط (فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ، كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا) يعني بالزنا، وكانت المرأة تُورث كما يُورث المتاع، وكانت بعض الأطمعة تُمنع النساء من أكلها، ويختصُّ بأكلها الرجال فقط، حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحديث المتفق على صحته: «وَاللَّهِ إِنْ كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أُمْرًا، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ، وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ». وكانت اليتيمة تُورث بماله لمن يُربّيها، ويتزوجها الرجل ولا يدفع لها مهرًا؛ لأنها يتيمة، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْلَىٰ وَلَدِكُمْ وَرَبُّعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ﴾ [النساء: ٣]. كما أمر الإسلام بحماية المرأة المسلمة وفرض الحجاب على نساء المؤمنين صيانة لهن، وحثَّ على قرار المرأة في بيتها، وأوجب كفالتها والإنفاق عليها وصيانتها وحفظها وإكرامها، فلا يجوز دعوتها للتبرج ولا إحواجها للعمل مطلقًا ولا إلزامها بالإنفاق على الرجل، على عكس ما في بعض المجتمعات الكافرة التي تلزم محاكمها المرأة إذا كانت ذات مال بالإنفاق على الرجل بعد طلاقها منه!

(٢) يعني: النساء.

(٣) لا يبغيض.

«إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضَبَانِ عَلَيْهَا؛ لَعَنَّهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ».

«انظري أين أنتِ منه؟ فإنَّما هو جنتك ونارك»، «لَا تَجِدُ امْرَأَةً حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا».

«إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا؛ قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ».

«لَا تُنْكِحُ الثَّيِّبُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، وَلَا تُنْكِحُ الْبَكَرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ، وَإِذْنُهَا الصَّمُوتُ».

«مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا؛ جَاءَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَشَقُّهُ مَائِلٌ»، «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلْتُ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ».

«لَا تَسْأَلِ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا لِتَكْفَأَ مَا فِي إِنَائِهَا»^(١)، «إِنَّ الْمُخْتَلِعَاتِ وَالْمُتَنَزِعَاتِ

(١) فلا تطلبُ المرأةُ من زوجها أن يطلقَ ضرَّتها لِتَسْتَأْتِرَ بِخَيْرِ زَوْجِهَا وَحْدَهَا؛ فالله هو مقدر الأرزاق سبحانه. وهناك مشاكل مجتمعية معقدة يساهم التعدد بحلها، ومنها: العنوسة، والخianات الزوجية، والجوع العاطفي، والتفُّسُّخ الأخلاقي. وقُلَّ بين المسلمين من يتزوج امرأتين فأكثر؛ لأن هذا التعدُّد يشترط القدرة على أداء الحقوق بعدالة مع زيادة المسؤولية والنفقة المالية ورعاية كل زوجة. ولم يأذن النبي لعلي عليه السلام أن يتزوج على فاطمة رضي الله عنها تحريمًا لمباح، وإنما خشية أي ينال فاطمة أي أذى من عليٍّ بزواجه من ابنة أبي جهل؛ فقد يحصلُ لها الغيرةُ فيؤذيها ذلك، وفي أذاها أذى لرسول الله ﷺ، ولا يحلُّ فعلُ شيءٍ يتأذى به ﷺ ولو كان مباحًا فعله، وفي زيادة رواية في الصحيحين: «وإنِّي لستُ أُحرِّمُ حلالًا، ولا أُحلُّ حرامًا» إشارةً إلى جوازِ نكاحِ بنتِ أبي جهل، وقد قال ﷺ: «لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللَّهِ عِنْدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ»، فهذا إخبار الوحي أنه لا ولن تجتمع ضربتان إحداهما بنت رسول الله والأخرى بنتُ عدوِّ الله. والمرأة لا تُعدُّد؛ لأن عاطفتها أحادية، فالطبيعة النفسية للمرأة هي بأن تُخلص لرجل واحدٍ مع غيره الرجل على عرضه، وفيها حكم كثيرة، منها: استقرار البيت، وحفظ الأسرة وسعادة الحياة الزوجية الأسرية، وحفظ النسل، وحفظ النفوس من

هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ»، «لَا تُؤْذِي امْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا، إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ: لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلِكَ اللَّهُ، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكَ إِلَيْنَا». «اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ»، «أَلَيْسَ يَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً؟»، «وَأَيُّمَا رَجُلٍ جَحَدَ وَلَدَهُ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، احْتَجَبَ اللَّهُ مِنْهُ، وَفَضَحَهُ عَلَى رُءُوسِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ»، «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ - وَهُوَ يَعْلَمُ -؛ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ»، «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرَى أَنْ يَدَّعِيَ الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ يُرِي عَيْنَهُ مَا لَمْ تَرَ، أَوْ يَقُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَمْ يَقُلْ».



اقتتال الذكور، وحتى لا تختلط الأنساب وما يترتب عليها من حقوق والتزامات وصلات، وغير ذلك.

حجاب النساء وقرارهن في البيوت

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ^(١)، وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنْ رَبِّهَا إِذَا هِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا»، «خَيْرُ مَسَاجِدِ النِّسَاءِ قَعْرُ بُيُوتِهِنَّ».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لو أن رسول الله ﷺ رأى النساء اليوم؛ نهاهن عن الخروج، أو حرّم عليهن الخروج، لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدثت النساء لَمَنَعَهُنَّ الْمَسْجِدَ كَمَا مُنِعَتْ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَقَدْ رَأَيْتُنَا نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْفَجْرَ فِي مُرُوطِنَا، وَنَنْصَرِفُ وَمَا يَعْرِفُ بَعْضُنَا وَجُوهَ بَعْضٍ، يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُولَى؛ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ يَحْضُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾: شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ^(٢) فَاخْتَمَرْنَ بِهَا».

ودخلت حفصة بنت عبد الرحمن على عائشة زوج النبي ﷺ وعلى حفصة خمار رقيق، فشقته عائشة وكستها خماراً كثيفاً. ولما قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَكَيْفَ يَصْنَعْنَ النِّسَاءُ بِذِيُولِهِنَّ؟ قَالَ: «يُرْخِضْنَ شَبْرًا»، فَقَالَتْ: إِذَا تَنَكَّشَفُ أَقْدَامُهُنَّ، قَالَ: «فَيُرْخِضْنَ ذِرَاعًا، لَا يَزِدْنَ عَلَيْهِ».

(١) الأصل في الاستشراف: رفع البصر للنظر إلى الشيء، وبسط الكف فوق الحاجب، والمراد به نظر الشَّيْطَانِ إِلَيْهَا لِيُغْوِيَهَا وَيُغْوِيَهَا، أو المُرَادُ استشراف أهل الرِّيَّةِ، والإِسْنَادُ إِلَى الشَّيْطَانِ لَكُونِهِ الْبَاعِثُ عَلَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) المروط: جمع مرط بكسر الميم: وهو كساء المرأة، يكون من صوف وربما كان من خَزٍّ وغيره. وقيل: المَرَطُ بفتح فسكون: كل ثوب غير مخيط، وقيل: هو كساء أو رداء أو إزار أو مُطَرَف يشتمل به كالمحففة؛ والجمع: مُرَطٌ ومُرُوط. و(كن متلفعات بمروطهن) أي: بأكستيهن، واللفاع بالكسر: ثوب يغطي به الجسد كله، كساء كان أو غيره، وتلفع بالثوب: اشتمل به.

ومما بينه العلماء من شروط حجاب المرأة المسلمة: أن لا يكون زينة في نفسه مزخرفاً ومزيناً يلفت أنظار الرجال، وأن يستوعب جميع البدن إلا ما استثنى، وألا يشف عما وراءه، وأن يكون فضفاً - غير ضيق - لا يصف شيئاً من جسمها ولا يحدد حجم الأعضاء، ولا يكون مبخرًا مطبياً عند الخروج من المنزل والمرور بأماكن الرجال غير المحارم، وألا يشبه لباس الرجال ولا لباس الكافرات الخاص بهن، ولا يكون لباس إسراف وشهرة، ولا يكون من جلود نجسة كجلود السباع ونحوها.

وإنَّ من عنصرية الغربيين وتخلفهم، أنهم يقرّون الحجاب اليهودي وأنَّ من حق اليهودية أن تكون محجبةً، أما المرأة المسلمة فلا حق لها في الحجاب عندهم، وإذا تحجبت فهي عندهم إرهابية أو محرّضة على الإرهاب، وفرنسا تضع على المرأة المسلمة غرامة إذا لم تكشف شعرها، وتحظر عليها دخول الجامعة، فأين الحرية والتنوير المزعوم والمساواة؟!

ومن التناقض والعنصرية في المجتمعات الغربية أنَّ من حق الأرثوذكس أن تكون لهم حافلات خاصة يركب فيها الإناث فقط، أما إذا فعل ذلك المسلمون؛ فيصفونه بأنه تمييز ضد المرأة، وأنه تقليد فارسي نقله العرب إلى بيئتهم الصحراوية! وينبغي للمجتمع المسلم مراعاة الحقوق الأصيلة للمرأة المسلمة التي لازات تطالب بها، ومن أهمها: تعليمها أمر دينها وما ينفعها ويقربها إلى الله، وأن تحفظ كرامتها بالإنفاق عليها من قبل ولي أمرها أو ولي أمر المسلمين، وبمنحها مسكناً ملائماً لها، وخادمة إن احتاجت لها، وإذا كان لا بد لها من أن تعمل فليكن ذلك في المكان المناسب لها، والذي لا يחדش عفتها وكرامتها، وليكن تعيينها حيث تريد أو لأقرب مكان إليه، ومنحها إجازة حمل وأمومة مدفوعة الراتب، وتمنح مكافأة لكل مولود من بيت مال المسلمين كما فعل عمر بن الخطاب، وتعطى الأم - إذا أنجبت عددًا معينًا من المواليد - بطاقة أو امتيازًا يمنحها تخفيضًا أو مجانية في خدمات

عديدة كالمواصلات وغيرها، وأن يُنشأ للنساء مستشفيات نسائية خاصة وحافلات خاصة ومقاعد خاصة لهن في الطائرات، وأن يُمنع ما يخدش كرامة المرأة، كصور الممثلات والمذيعات والعارضات اللاتي يجعلن زوجها يرى أجمل منها، ومكافحة تبرج ودعوات الساقطات اللاتي قد لا يخلو منهن مجتمع.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ»، والفلاح في لسان الشرع، وهو تحصيل خير الدنيا والآخرة، فلا يفلحون الفلاح المطلق في الدين والدنيا، وهذا لا ينفي فلاحهم في أمر الدنيا. وتولي المرأة للولايات العامة في الدول على مر التاريخ هو في غاية الندرة، وإن وجد الفلاح في إمرة بعض النسوة فهذا من النادر، والنادر لا حكم له، وقد قصّ علينا القرآن ما كان من خبر ملكة سبأ، وكيف أنها أصابها الهلع والخور، وضعفت نفسها عن المواجهة، واختارت تقديم الهدية. وفيه أن المرأة بعاطفتها قلّ ما تنجح في إدارة أمور الناس في الولاية العامة، وهذا أمر لا يعيبها في شيء؛ فعاطفتها تأسرها، وقد خلقها الله بهذه العاطفة الجياشة لتحمل الولد، وتحنو عليه، وتصر عليه، وتسهر الليل كله وهي سعيدة راضية، فهذه رحمة من الله. إضافة للتقلبات النفسية للمرأة التي تحصل بوتيرة شبه ثابتة شهرياً؛ فإنه يكون لها تأثير حقيقي على اتخاذ القرار.

وحيث تكون المرأة أبعد من الرجل عن أحوال التجارة وأسعار السوق، وأحوال عقود البيع والشراء والبضائع، فلا تذكر هذه التفاصيل، فكان في مثل هذه الأمور شهادة المرأة على النصف من الرجل، فالمرأة في الغالب بعيدة عن هذه الأمور. فمن رحمة الإسلام بها أن انضمت لها شهادة امرأة أخرى حتى تذكرها إذا نسيت: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فطبيعة المرأة أنها تشغل أكثر بالأمور

الخاصة بالنساء، كمسائل الرضاع، وفي هذه المسائل كمثال؛ تُقبل شهادة المرأة، وتُرَدُّ شهادة الرجل.

والمرأة لا تلزم بأية نفقة في أي وقت، بل يُلزم الرجل في كل وقت بالنفقة عليها، وهو مسؤول عن المهر، والنفقة على الأولاد وكسوتهم، وفي الميراث لها حالات مختلفة؛ فتارة ترث المرأة نصف ميراث الرجل، وتارة أخرى ترث مثل الرجل تمامًا، وتارة ثالثة ترث ضعف الرجل، وتارة رابعة ترث المرأة ولا يرث الرجل، وفق نظام عادل محكم بديع، شرعه خالق الذكر والأنثى، بعدالة وازنت بين درجة القرابة بين الميت والوارث، وموقع الجيل الوارث من التابع الزمني للأجيال، والعبء المالي الذي سيتحمله الوارث.

وإنَّ من أعظم أصول الفطرة: فطرة العفاف، وكان آدمٌ وحواءُ يستترانِ لِنَفْسَيْهِمَا، لا وجودَ لبشرٍ معهما قال الله ﷻ: ﴿يَبْنَىٰ آدَمَ لَا يَفْتَنَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾. ويتبع العفاف شرائع كثيرة؛ كغَضِّ البَصَرِ، وخَفْضِ صوتِ المرأة، وعدمِ خضوعِها به، والحجاب، وإخفاء المفاتيح منعًا للإثارة، وعدم الاستهانة بالخلوة، والفصل بين الجنسين، وترك الغزل، وعدم اتخاذ الأصدقاء بين الجنسين، وغيرها.

وكما أن التوحيد أصل العبادات، فالفطرة هي أصل المُرُوءات. ولِعِظَم هذا الأصلِ الفِطْرِيِّ؛ العفاف؛ خلق الله في الإنسان الغيرة على غيره. وجعل حفظ الأعراض من الضرورات، وجعل مجرد قذف البريء بالزنا، مُهْلِكٌ ومُوبِق، فكيف بفعله أو إشهاره وإذاعته؟!!

وعلماء الإسلام المعتبرون مجتمعون ومتفقون ولا خلاف بينهم على أن ستر وجه المرأة عن الرجال الأجانب عنها خير وأفضل للمرأة، وأن المرأة التي تضع زينة على وجهها أو تكون جميلة تسبب الفتنة؛ فإنه يجب عليها تغطية وجهها عن الرجال

الأجانب عنها. وأمر الرجال غير المحارم أن يخطبوا النساء الأجنبيةات عنهن من وراء حجاب، وأن يغضوا من أبصارهم، وأمر النساء ألا يبدین زینتهن إلا للنساء وللمحارم فقط من الرجال.

وشدّد الله على الرجل في غَضِّ البصر لأن افتتانه بالمرأة أقوى، ولأنه أجسر في الإقدام على الزنى. كما شدّد على المرأة في الحجاب؛ حتى يقلّ ما بينهما من تجاذب وميل. ولا يعني هذا أنه يجوز للرجل إبداء مفاتيحه؛ فيفتن، ولا أنه يجوز للمرأة إطلاق بصرها؛ فتفتن. فإذا لم يغضّ الرجل بصره؛ فإن المرأة تدفع فتنته بحجابها. وإن لم تتحجب المرأة؛ فالرجل يدفع فتنتها بغضّ بصره. ويجوز النظر للمرأة العجوز التي لا يفتتن بها، ويجوز نظر الخاطب إلى المخطوبة، ونظر القاضي للتعرف على أحد الخصمين إن كان امرأة؛ أو لإدلاء المرأة بشهادة.

وكان تبرُّج الجاهلية الأولى الذي نهى الله عنه في قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ بين عهد نوح وإدريس - قبل وجود العرب - أنهن كنَّ يُلْقِينَ الخمارَ على رؤوسهنّ ولا يَشُدُّنَّه، فيبدو وجه المرأة وأقراط أذنيها وعنقها وتمشي كذلك بين الرجال.

ومع الأمر بشد الخمار على الرأس وتغطية النحر؛ أمر النساء أيضًا بإسدال الجلابيب من فوق رؤوسهن على وجوههن لستر وجوههن، فتتميز بذلك الحرة المؤمنة العفيفة عن الإماء وعن غير المؤمنات، ورُخص للعجائز من النساء وهن القواعد اللاتي لا يرغب أحد في نكاحهن؛ أن يبدین وجوههن بشرط ألا تكون وجوههن مزينة، وجعل ستر وجوه العجائز واستعفاهن كبقية النساء الحرائر المؤمنات هو أفضل لهن. وأما الإماء فكن ينشغلن بالخروج والخدمة، وتصيبهن الشمس وسفعة الوجه، وغالبًا لا يفتتن بهن، وقد يعرضن للبيع والشراء؛ فلم يؤمرن بتغطية وجوههن، وخُفف عن الإماء في الحجاب ما لم يسببن فتنة.

ولما كانت صفية بنت حيي رضي الله عنها في سبي خيبر واصطفها النبي ﷺ لنفسه؛ تساءل الصحابة فيما بينهم هل سيتزوجها أم لا؟ قال بعضهم: إن حجبها فهي إحدى أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه، وهكذا كان الأمر الظاهر الذي يفرقون به بين الحرة والأمة؛ بأن الحرة تغطي وجهها، والأمة لا تغطي وجهها، وأن الحرة تحتجب، والأمة تبرؤ. وإن كان بعض الإماء يفرض عليهن الحجاب لجمالهن وفتنتهن، حيث يتفق العلماء على أن الأمة إن كانت فاتنة أو تسبب فتنة للرجال الذين ينظرون إليها؛ فإنه يجب عليها ستر وجهها وزينتها بالحجاب، ويجب على الرجال غض البصر عنها وعن مثيلاتها، وإبعادهن عن الريبة.

وذكر الحافظ ابن حجر أن النبي ﷺ فرض الحجاب على مارية القبطية رضي الله عنها التي أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية وهي ليست من زوجات النبي أمهات المؤمنين، وإنما هي من إماءه رضي الله عنه، وقد تسراها النبي ﷺ وكان يطؤها بملك اليمين، وولدت له ابنه إبراهيم. وكثير من نساء العرب قبل الإسلام لم تكن المرأة فيهن تكشف وجهها إلا في الإحرام للنسك، وكن يلبسن البراقع والوصاوص، لكن الشيطان أضل أهل الجاهلية من العرب فكان فيهم طواف العرة حول الكعبة، وشعر فاحش، وغزل ماجن، وتساهل بزنى الإماء والتكسب منهن. وكانوا يفرقون بين الحرة والأمة بكشف الوجه، والحرائر لا يكشفن إلا عند الشدائد والحروب عند خوف السبي والأسر؛ ليراهن العدو فيحسبهن إماء، فيتركهن زهداً بهن.

ولما كان الله يكره أن يكشف الرجال والنساء مواضع معينة من أبدانهم؛ سُميت عورة. ولما كانت المرأة العفيفة تكره أن ينظر إلى شيء من جسمها رجل غير زوجها غريزة وشهوة؛ سُمي المنظور إليه عورة.

وكثير من الكتاب يخطئ فينقل أقوال الفقهاء عند كلامهم على لباس المرأة في الصلاة: «المرأة عورة إلا وجهها وكفيها»، ويجعلها في أحكام النظر، ولا يفرق بين

عورة الصلاة والسَّتر، وبين عورة النظر، فالمرأة يجب عليها أن تستر كل شيء في صلاتها إلا وجهها وكفَّيها، ولو كانت في بيتها وحدها.

وقد نصَّ الفقهاء من المذاهب الأربعة على أنَّ المرأة إن كانت في الصلاة وعندها أجنب، أنَّها تستر وجهها، لأنَّ كشف وجه المرأة وكفَّيها في الصلاة ليس من واجبات الصلاة بالإجماع، ولكنَّ تغطية ما عدا الوجه والكفين واجب؛ فيجب التفريق بين ما يجب ستره، وما يجوز كشفه؛ فللمرأة أن تغطي وجهها في الصلاة بسبب مرور رجل أو غبار أو ريح كريهة، ولا تبطل بذلك صلاتها.

وحُرِّمَ حال الإحرام على المرأة من اللباس نوعين: النَّقاب، والقَفَّاز؛ لأنهما مفصَّلان على الأعضاء. وتحريم لباس معين لا يعني كشف العضو؛ فالحكم يتعلق باللباس لا بما تحته؛ فلو غطَّت المرأة وجهها أو كفَّيها في الإحرام بثوب؛ لم تأثم. لكن لو لبست قفَّازاً؛ أثمت، فالحكم للباس لا للعضو.

وأجمع العلماء من جميع المذاهب الأربعة وغيرها: أنَّ تغطية وجه المرأة الحرة الشابة عند خوف الفتنة بها: واجب؛ خاصة عند مَنْ يُطلقون أبصارهم إليها، ولا تحترز منهم إلا بتغطية وجهها.

وفسَّر ابن عباس رضي الله عنه آية إدناء الجلابيب بتغطية الوجه فقال: «أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهنَّ في حاجة أن يُغطينَّ وجوههنَّ من فوق رؤوسهنَّ بالجلابيب، ويُبدن عينا واحدة». وقالت عائشة رضي الله عنها: «تسدُّ المرأة جلابيبها من فوق رأسها على وجهها». وفي قصة الإفك قالت عائشة: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا؛ أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا؛ خَرَجَ بِهَا مَعَهُ فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ..»، ثم قالت عن صفوان ابن المعطل رضي الله عنه: «.. فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَيْتِي وَقَدْ كَانَ يَرَانِي قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ

عَلَى فَاسْتَيْقَظَتْ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي فَخَمَرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي؛ فدل أنهن كن يستترن ويغطين وجوههن بعد نزول الأمر بالحجاب، وأمّهات المؤمنين أبعد النساء من الريّة ولا يطمع فيهن أحد، ومع ذلك أمرن بالحجاب وتغطية وجوههن حتى لا يعرفن، فغيرهن من باب أولى.

ومعنى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: في الزينة الظاهرة للمحارم من النسب والرضاع، وليست للأجانب؛ فالسلف لا يختلّفون في جواز كشف المرأة وجهها للأقربين؛ وإنما يذكرون الوجه اختصاراً لإجازة زينته تبعاً من الكحل والقرط، ويذكرون اليد اختصاراً ليدخل فيها زينتها من الخاتم والخضاب والسوار، ولا يعنون الوجه بذاته، ولا اليد بذاتها.

والثياب التي رخص الله بوضعها للعجوز هي ما تختص بستر الوجه، وحكي الإجماع على أنه لا يجوز للعجوز أن تكشف شعرها للأجانب مهما بلغ سنّها، ورخص الله للقاعد من النساء وضع جلبابها وكشف وجهها؛ ولكنه منعها من الزينة، ثم فضّل لها الستر بالجلباب. فرخص في كشف الوجه للأمة والعجوز ما لم يحصل بهن فتنة وهو ما يندر، أما كشف الشعر فلم يرخص فيه لا للعجوز ولا لغيرها.

ولم يتكلّم مالك وأبو حنيفة والشافعي في مسألة كشف المرأة لوجهها لذاته، ولا يُعرف هذا في كتبهم ولا في مسائل أصحابهم المُقَرَّبِينَ منهم، وإنما يتكلّمون في مسألة وجه المرأة وكفّيها عند تعلّقها بمسألة أخرى من العبادات أو المعاملات؛ كالصلاة والحجّ، والعقود والخطبة؛ وذلك لأنّ المسألة عندهم ظاهرة في أنّ الأصل في النساء الحرائر السّتر والعفاف وتغطية الوجه.

أما الأحاديث الأربعة التي أشكلت على بعض المتأخرين كحديث قصّة دخول أسماء بنت أبي بكر على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق؛ فليس له سند يحتج به. ومن وجوه نكارته أنّ أسماء معروفة بسترها لوجهها وكفّيها عند الرجال، والثابت

بسند صحيح عن فاطمة بنت المنذر قالت: «كُنَّا نُخَمِّرُ وجوهنا ونحنُ مُحَرِّمَاتٌ مع أسماء بنت أبي بكرٍ».

وأما حديث المرأة الخثعمية فقد صحَّ أنَّ الخثعمية جاريةٌ شابةٌ وأنها عُرِضَتْ على النبي ﷺ في حَجِّهِ ليرأها فيتزَوَّجها. وهذا الوصفُ: (جاريةٌ شابةٌ) يُطْلَقُ عادةً على الإماء، لا على الحرائر، والأمةُ ليستَ مخاطبةً بالجلبابِ وتغطيةِ الوجهِ كالْحُرَّة. وهذا الحديث لم يكن العلماء المتقدمون يستدلون به على كشفِ المرأةِ الحُرَّةِ لوجهها؛ وإنما يُوردونه في الحكمِ المتعلِّقِ بنظرِ الرجلِ لا كشفِ المرأة؛ لأنَّ حكمَ تغطيةِ الوجهِ خاصٌّ بالحُرَّة، والنظرُ المحرَّمُ عامٌّ للجميع؛ للحرَّة والأمة.

وأما حديثُ سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّة التي توفي زوجها ووضعت حملها بعده بأيام ثم تزينت في بيتها، فالأصلُ أنَّ سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّة مولاةٌ كزَوْجها، والنبي ﷺ هو الذي أنكحها؛ وهذا لا يكونُ في الحرائر؛ فإنَّ الحُرَّة يزوّجها عادةً أهلها، كما أنه ليس في الحديث أنها كانت كاشفة لوجهها؛ وإنما رأى أبو السنابل زينتها، واستنكر ذلك؛ يَظُنُّها في عِدَّتِها، والمعتدةُ بوفاةِ زوجها مُنَعَتْ مِنَ الخِصَابِ وهو في الكفِّ، وَمِنْ الكُحْلِ وهو في العَيْنِ لا يسترُه النَّقَابُ، وحيث أن أبا السنابل قد يكون دخلَ عليها راجباً بالخِطْبَةِ لها؛ وهذا جائزٌ؛ وفي «البخاري»: «وكان أبو السنابل فيمن خطبها» وكون ذلك في حُجْرَتِها، ولم تكن بارزةً بزيّتها في الطُّرُقَات.

وأما حديث (سَفْعَاءِ الخَدَّيْنِ) فـ «السَّفْعَةُ» شُحُوبٌ وسوادٌ أو تَغْيِيرٌ، وغالباً ما يُصِيبُ كبارَ السِّنِّ، أو الجوارِي؛ لكثرةِ بُرُوزِهنَّ. ويؤيد ذلك رواية: «مِنْ سَفَلَةِ النِّسَاءِ، سَفْعَاءُ الخَدَّيْنِ» يعني: مِنْ أَقَلِّ النِّسَاءِ شَأْنًا؛ لبيّن أنها ليست مما تَفْتِنُ الناظرَ إليها، وقد تكون من القواعد، والمحكم يغني عن المتشابه.



النهي عن الدخول على النساء الأجنيات ومخالطتهن

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «لَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحَرَمٍ، وَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا رَجُلٌ إِلَّا وَمَعَهَا مَحَرَمٌ»، «الرِّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تَحَرِّمُ الْوِلَادَةُ»، «يَحَرِّمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحَرِّمُ مِنَ النَّسَبِ». «إِيَّاكُمْ وَالْدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ، الْحَمُّ الْمَوْتُ»^(١). «لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمَخِيطٍ مِنْ حَدِيدٍ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ»، «لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ»، «لَا تَلْجُوا عَلَى الْمُغِيبَاتِ»^(٢)، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أَحَدِكُمْ مَجْرَى الدَّمِّ، «لَا يَدْخُلَنَّ رَجُلٌ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا عَلَى مُغِيبَةٍ، إِلَّا وَمَعَهُ رَجُلٌ أَوْ اثْنَانِ».



(١) المراد به (الحمو) في الحديث: أقارب الزوج من الرجال - غير آبائه وأبنائه - لأنهم ليسوا محارم للزوجة ويتساهل البعض بخلو الأخ بامرأة أخيه، فشبهه بالموت، وهو أولى بالمنع من الأجنبي؛ فإن الخلوة بالحمو قد تؤدي إلى هلاك الدين إن وقعت المعصية، أو إلى الموت إن وقعت المعصية ووجب الرجم، أو إلى هلاك المرأة بفراق زوجها إذا حملته الغيرة على تطليقها.

(٢) الْمُغِيبَةُ: من غاب عنها زوجها.

الزينة واللباس والستر

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «عشر من الفطرة»^(١): قص الشارب^(٢)، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم^(٣)، ونتف الإبط، وحلق العانة^(٤)، وانتقاص الماء^(٥)، والاختتان^(٦). «قصوا»^(٧) الشوارب وأرخوا^(٨) اللحي، خالفوا المجوس، خالفوا المشركين»، «من لم يأخذ من شاربه فليس منا»، «لَعَنَ اللَّهُ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ، وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَالنَّامِصَةَ وَالْمُتَمِصَّةَ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمَغِيرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ»^(٩).

(١) الفطرة: هي الجبلة وأصل الخلقة، أي أن الله ﷻ خلق الخلق وجبلهم عليها في أصل الخلقة وصبغة الدين، فسوي الفطرة والخلقة يفعل هذه الأشياء بمقتضى الفطرة. وقيل: الفطرة: السنة والملة والدين.

(٢) وفي رواية: (وتقصير الشارب).

(٣) (البراجم): العقد التي في ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ، الواحدة برجمة بالضم.

(٤) العانة: هي الشعر المحيط بالفرج.

(٥) أي: الاستنجاء بالماء.

(٦) الختان: قطع الجلد والحشفة الزائدة التي تكون على الفرج من الذكر أو الأنثى.

(٧) وفي روايات: (أحفوا) و(جزوا).

(٨) وفي روايات: (وفروا) و(أعفوا).

(٩) الواصلة التي تصل شعر المرأة بشعر آخر، والمستوصلة: التي تطلب من يفعل بها ذلك. والوشم: غرز إبرة أو نحوها حتى يسيل الدم، ثم يحشى ذلك الموضع بالكحل أو غيره فيخضر أو يتلون بلون آخر، ومنه ما يسمى اليوم بالتاتو. والنامصة: التي تزيل الشعر من الحاجب، والتمنصة: التي تطلب منها فعل ذلك. والمتفلجات أي: مفلجات الأسنان بأن تبرد ما بين أسنانها الثنايا والرباعيات فتجعل بينها فراغات. ونهي أيضًا عن وشر الأسنان

«الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفَنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ»، «وَارْفَعِ إِزَارَكَ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَلِىِ الْكَعْبَيْنِ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ، فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ»، «مَا مَسَّتِ الْأَرْضُ مِنَ الْإِزَارِ إِلَى مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ فِي النَّارِ»، «مَنْ لَبَسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا؛ لَبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ أَلْهَبَ فِيهِ نَارًا»^(١)، «لَعَنَ اللَّهُ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ»^(٢).

«إِنَّ اللَّهَ ﷻ حَيِّيٌّ سَتِيرٌ»^(٣) يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ؛ فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَرِ، «وَلَا تَمْشُوا عُرَاةً»، «غَطِّ فَخْذَكَ فَإِنَّهَا مِنَ الْعَوْرَةِ»^(٤)، «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ»، «إِنَّا نُهِنَا أَنْ تَرَى عَوْرَاتِنَا»، «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ فَافْعَلْ».

وتحديددها وبردها لتكون في مستوى واحد. ونهى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ (الْقَزَعِ)، وهو: أَنْ يُحْلَقَ رَأْسُ الصَّبِيِّ فَيُتْرَكَ بَعْضُ شَعْرِهِ.

(١) ومن شروط لباس الرجل أن يكون ساتراً لا يكشف العورة وهي ما بين السرة إلى الركبة، ولا يكون ضيقاً بحيث تبدو منه تفاصيل الجسم، وأن يكون فوق الكعبين، وأن يجتنب الإسراف والشهرة، ولا يتشبه بالكفار في لباسهم الخاص بهم، ولا يشبه لباس المرأة، وأن يجتنب ما ورد فيه النهي كالحرير وجلود السباع والجلود النجسة.

(٢) ولعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء، الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ.

(٣) الأكثرون على أنها: (سَتِيرٌ) على وزن: فعيل، ككثير من صفات الله تعالى كعليم وخبير وسميع وبصير... إلخ. وعند بعض العلماء (سَتِيرٌ).

(٤) (العورة): أصلٌ إطلاقها على النقص والخلل، ولما كان صاحبُ النقص يَكْرَهُ أَنْ يُرَى وينكشفَ نَقْصُهُ، دَخَلَ فِي مَعْنَى (العورة) كُلُّ مَا يَشْتَرِكُ فِي كِرَاهَةِ رُؤْيَيْهِ عَقْلاً أَوْ شَرْعاً أَوْ عُرْفاً. ولما كان الله يَكْرَهُ أَنْ يَكْشِفَ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ مَوَاضِعَ مَعْيَنَةٍ مِنْ أَبْدَانِهِمْ، سُمِّيَتْ عَوْرَةً، وَلَمَّا كَانَتِ الْمَرْأَةُ الْعَفِيفَةُ تَكْرَهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ جَسَمِهَا رَجُلٌ غَيْرُ زَوْجِهَا غَرِيزَةً وَسَهْوَةً، سُمِّيَ الْمَنْظُورُ إِلَيْهِ عَوْرَةً.

الإحسان إلى الإماء والعبيد (ملك اليمين)

(مَلِكُ الْيَمِينِ) هم الإماء والعبيد، و(الْأَمَةُ): هي المرأة التي ثبت عليها الرّق فتكون مملوكة لسيدها، ولا يثبت الرق بالاختطاف أو بيع الأب بنته بسبب الفقر ونحو ذلك كما في الجاهلية، وإنما يثبت الرق في الإسلام بأحد طريقين:

الأول: أن يقع الكافر أسيرًا في أيدي المسلمين إثر حرب بين دولة الإسلام ودولة الكفر، ويأذن إمام المسلمين باسترقاقه لمصلحة أو معاملة بالمثل مع فارق إكرام الرقيق في الإسلام، وله أن يأمر بقتل الأسير، أو إطلاق سراحه بمال أو بدون مال، حسب ما يراه من المصلحة للمسلمين، وهذه الأحكام سارية في هذا العصر وإلى يوم القيامة.

الثاني: أن يكون مستولداً من أمة مستركة، إذا كان من غير سيدها فيكون رقيقاً - يعني العبد أو الأمة - حتى تتاح له فرصة فيعتق مجاناً أو بمكاتبة.

وعلى هذا فلا يثبت الرق في حرب وقعت بين طائفتين من المسلمين في أي عصر من العصور، ولا يثبت الرق على الأسير الكافر إذا أمر إمام المسلمين بقتله أو إطلاق سراحه بمال أو مجاناً، لمصلحة المسلمين، ولا يثبت الرق على العبد المعتق، ولا على الحر. والرقيق يملكه سيده ويباع ويشترى مِمَّنْ يَمْلِكُهُ مِلْكًا صَحِيحًا مُعْتَرَفًا بِهِ شَرْعًا، وَكَذَا بِالْهَبَةِ وَالْوَصِيَّةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْمِيرَاثِ وَغَيْرِهَا مِنْ صُورِ انْتِقَالِ الْأَمْوَالِ مِنْ مَالِكٍ إِلَى آخَرَ.

وجاء الإسلام وأقر الرق لمصالح كثيرة، منها: أن الأسير الكافر إذا استرق وبقي بين أظهر المسلمين فإنه يبدأ حياة جديدة يتعرف فيها على أحكام الإسلام وآدابه،

وعلى عدله وسماحته، فيشرح صدره للإسلام، ويحبب الله إليه الإيمان، ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، لا سيما إذا كان أهل الإسلام على قدر من الخلق وحسن المعاملة، فإذا خالط الإيمان بشاشة قلبه، كان ممن يتشوق الإسلام إلى مكاتبته أو عتقه مجاناً، كما دل على ذلك تشريع سائر الكفارات، ككفارة القتل الخطأ، والإفطار في رمضان، والحنث في اليمين، والظهار. وشجع الإسلام على مكاتبته الرقيق وتيسير دفع ما يلزمه، وجعل عتق الرقاب من الكفارات، وأمر بالإحسان إلى الرقيق حتى تحين الفرصة لعتقه، والوصايا في ذلك كثيرة يكفي منها مراعاة شعوره، فلا يقال له: عبي أو أمتي، بل يقال: فتاي وفتاتي، أو غلامي وجاريتي. مع إكرامه في مطعمه وملبسه كما في الحديث: «هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم». فلا يأمر السيد عبده أو أمته بمعصية الله ولا ينهاه عن طاعته، وعليه أن يحافظ على حياة عبده، فلا يقتله أو يجرحه، أو يؤذيه في بدنه، ولا يكلفه بأعمال شاقة فوق طاقته، ولا يجبره على تغيير دينه، وعليه إطعامه وكسوته وإسكانه، قدر حاجته وكفايته، وأن ينفق عليه إذا مرض أو عجز عن العمل أو كان صغيراً، وأن يسعى في إعفائه إذا كان أعزباً فيزوجه خشية انحرافه، ولا يجبره على الزواج بمن لا يرضاها، وإذا كان العبد متزوجاً فعليه أن يمكنه من الاستمتاع بزوجه ليلاً، ولا يجبره على تطلق زوجته. وأوصى ديننا أن نعطي العبيد من أموالنا بحيث يصبحون أحراراً، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]. بل والأعجب أن الإسلام يحض على تزويجهم ليعيشوا حياة مستقلة كريمة سوية نفسياً. قال الله ﷻ: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَّامَ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْزِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]. وفي مصر وصل المماليك - العبيد - للحكم، وابن سيرين كان

مولي، ومجاهد والحسن البصري وعطاء وسعيد بن جبير كل هؤلاء كانوا من العبيد. ومما يجب معرفته من أحكام الإماء: أن من تُسبى من النساء لا تكون متعةً مشاعةً لكل أحد من المسلمين، بل هي لمن تقع في سهمه من المسلمين فقط، فهي رقيقة مملوكة لسيّد واحد منهم، لا يجوز له أن يُجبرها على معاشرة غيره من المسلمين. وشرع ملك اليمين واسترقاق الجوّاري؛ حرصاً عليهن من أن يتشرّدن فيتعرّضن للإهانة في شرفهن وكرامتهن، ومن انتشار الفساد إذا تُركنَ بغير مُعيل يعيلهن ولا راعٍ يرعى شؤونهن. وأبيح التسري بالإماء دون تحديد بعدد؛ فلمالك الأمة أن يطأها (يجامعها) بملكه إياها - أي: بلا عقد زواج عليها - فهذا معنى وطء الأمة بملك اليمين، وهو (التسري)، ويكون بعد الاستبراء بحيضة؛ للتأكد من عدم حصول حمل من زوجها السابق قبل معاشرة مالکها لها. وشرع تسري السيد بأُمته؛ لأنها غالباً ستنضم إلى عياله وأهله، وليحصل الإعفاف لكل منهما، بدلاً من أن يقعاً في الحرام أو تلجأ الجارية إلى فعل الفواحش والمنكرات في المجتمع، وفي هذا معاملة كريمة لها؛ إذ إنها بذلك تعامل معاملة سيدها، فيستمتع بها كما يستمتع الزوج بزوجه، سواء ولد له منها أم لا. والأمة إذا عاشرها مالکها فحملت منه وولدت؛ فقد صارت (أم ولد)، وأم الولد تخرج من الرق الكامل خروجاً جزئياً بمجرد الوضع للمولود، فلا يجوز بيعها لأنه يؤدي إلى التفريق بينها وبين ولدها، ثم إنها تعتق عتاقاً كاملاً وتُصبح حرة بمجرد موت سيدها. وقد تسرى النبي ﷺ بأُمته مارية القبطية، وولد له منها إبراهيم، وليست من زوجاته، وليست من أمهات المؤمنين. وروي أن هاجر كانت أمة لسارة فوهبتها لإبراهيم ﷺ، وكان التسري على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم، وقد فعله الخليل إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرّم مثل هذا في التوراة عليهم. وكذلك كان الجمع بين الأختين شائعاً، وقد فعله يعقوب عليه السلام، جمع بين الأختين ثم حرّم ذلك عليهم في التوراة.

وإذا سُبي الرجل مع زوجته ووقع تحت ملك رجل واحد من المسلمين، فيبقى زواجهما على ما هو عليه، ولا يجوز لمالك الأمة حينئذ معاشرتها، بل عليه أن يمكنها من معاشرة زوجها ليلاً، إلا أن يفرق بينهما ببيع أحدهما لمالك آخر، فيكون هذا كالطلاق، وَلَا يَجُوزُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَتَسَرَّى جَارِيَةً، وإنما يتزوجها بإذن سيدها. ولا يجوز للمسلم الحر أن يتزوج أمة إلا إذا لم يجد مهرًا يتزوج به حرة مؤمنة عفيفة، فبذلك يجوز له أن يتزوج أمة بإذن سيدها، بشرط أن تكون مؤمنة، عفيفة، فلا يتزوج أمة كافرة كتابية أو غير كتابية، ولا أمة غير عفيفة، وولدها يكون رقيقاً تابعاً لسيدها.

ولو كان الأمر شهوةً كما يُصوره أعداء الإسلام؛ لما حُرِّمَ وطء المشركة. بل لو أقدم أحد المسلمين على اغتصاب مسبية؛ سواء كانت مشركة أو غير مشركة أُقيم عليه حد الزنا. ولو أن امرأةً أسيرةً مسترقّةً رفضت الوطء والسبي في المجمع؛ فإنها تُكاتب، والمكاتب تكون بأن تدفع قسطاً زهيداً من المال مقابل تحرير نفسها.

ولما كانت الإمامة تكثرُ إليهن الحاجة في الاستخدام وأمور المهنة وكنّ مبتدلات بكثرة الذهب والمجىء وبالبيع والشراء وهن يحتجن في مثل هذا إلى أن كشف الوجه والرأس والكفين ولكون فرض الحجاب عليهن مما يشقُّ مشقةً بالغة؛ كان من رحمة الله بعباده أنه لم يفرض عليهن الحجاب كما فرضه على الحرائر، ودليل ذلك النص واتفاق السلف، والإمام في عهد الرسول عليه الصّلاة والسّلام كُنَّ لا يحتجن كالحرائر؛ لأن الفتنة بهنَّ أقلُّ، فَهُنَّ يُشْبِهْنَ القواعدَ من النّساء اللاتي لا يرجون نكاحاً، وقد فرق العلماء بين الأمة البرّزة (وهي التي تبرز كثيراً كالرجل) وبين الأمة الخفّرة (وهي التي لا تظهر غالباً، وإنما تكون في البيت). وروي عن عمر أنه كان إذا رأى أمةً مُخْتَمِرةً، ضَرَبَهَا - بالدرة ضرباً خفيفاً للزجر - وقال: أنتشبهين بالحرائر؟، لأن الأمة لها أحكام العبودية، وليُميّزَ عن أهل البيت من المسلمات؛ إذ لو كنَّ جميعاً منتقبات، فقد يُنسب لأهل البيت ما تفعله هذه الأمة، والتي هي في

الأصل رقيقة الدين، وهذا في إماء الاستخدام والابتذال اللاتي يبرزن ولا يفتتن بهن. وأما إماء التسري اللاتي جرت العادة بصونهن وحجبهن والإماء الحسان الوجوه، فلسن كالإماء المبتذلات، ويجب عليهن ستر كل بدنهن عن النظر، لأن المقصود من الحجاب في باب عورة النظر هو ستر ما يخاف منه الفتنة، ولم يطلق الله ورسوله للأعين النظر إلى الإماء البارعات الجمال، وإذا خشي الناظر الفتنة بالنظر إلى الأمة حرم عليه بلا ريب.

واتفق العلماء على وجوب احتجاب المرأة أمام العبيد الأجانب الذين لا تملكهم، أما بالنسبة لعبدها الذي تملكه فقد أجاز فريق من العلماء أن ينظر المملوك إلى الوجه والكفين من مولاته للحاجة فقط ما دامت مالكة له كله، فإذا زال الملك أو بعضه لم يجز النظر، وأنه بذلك لا يعد كمحارمها، فلا يجوز له الخلوة بها ولا السفر بها دون محرم، ولأنها لا تحرم عليه على التأيد، ولا يحل له استمتاعها، فلم يكن محرماً لها، وإنما هو كزوج أختها، وهو غير مأمون عليها؛ إذ ليست بينهما نفرة المحرمية، والمُلك لا يقتضي النفرة الطبيعية، بدليل السيد مع أمته، وإنما أبيض له من النظر ما تدعو الحاجة إليه، كالشاهد والمبتاع ونحوهما، وليس في هذا ما يوجب أن يكون محرماً يسافر بها، بل هو كغير أولي الإربة الذين لا يشتهون النساء ولا يميلون لهن ولا حاجة لهم فيهن، فإنهم يجوز لهم النظر وليسوا محارم يسافرون بها، فليس كل من جاز له النظر جاز له السفر بها ولا الخلوة بها، بل عبدها ينظر إليها للحاجة وإن كان لا يخلو بها ولا يسافر بها، فإنه لم يدخل في قوله ﷺ: (لا تسافر امرأة إلا مع زوج أو ذي محرم) فإنه يجوز له أن يتزوجها إذا عتق، كما يجوز لزوج أختها أن يتزوجها إذا طلق أختها، والمحرّم هو: من تحرم عليه على التأيد. وإذا تحرر العبد ولم يعد ملكاً للمرأة فلا خلاف في وجوب احتجاب المرأة منه، وأنه لا يجوز له أن ينظر إليها، بل يحرم عليه ذلك؛ لأنه صار كغيره من الرجال الأجانب، إلا إن كان من

التابعين من الخدم وقاصدي فضول الطعام إن كانوا من غير أولي الإربة والشهوة أو من الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء.

والرق في الإسلام حكم شرعي لا يجوز إلغاؤه بالكلية وإنما تلغى أسبابه غير الشرعية، وكانت آخر وصية للنبي عليه الصلاة والسلام (الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم). وانظر إلى روعة مقولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا»، ويقصد عتق سيدنا بلال رضي الله عنهم أجمعين. وَكَانَ آخِرُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يُعَزَّزُ بِهَا فِي صَدْرِهِ، وَمَا كَانَ يُفِيضُ بِهَا لِسَانَهُ: الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فأوصى بالإماء والعبيد والتأكيد على حسن معاملتهم.

أما في الحضارة الغربية فظهرت أنظمة الطبقيّة وتقسيم الناس إلى رجال دين ونبلاء وعامة، وتم فيها المتاجرة بالبشر في الدعارة والجنس وبيع الأعضاء، وتم اصطياد واستعباد ذوي البشرة السوداء واقتيادهم مسلسلين في البواخر، والزعم بأن السود عبيد، وتم نهب ثروات بلدانهم، وتقطيع أرجل السود في مزارع القطن حتى يعملوا ولا يهربوا، وقد قدر البروفيسور الفرنسي «تزيان» في كتابه «مصرع الديمقراطية» عدد من استعبدتهم الغرب من الأفارقة السود بمائة مليون إنسان، ثم بعد ذلك كله ترى الغرب يتفاخر زورًا بأنه حرر العبيد وألغى الرق !!



غض الأبصار وحفظ الفروج

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «إِنَّمَا جُعِلَ الْإِسْتِثْنَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ»، «مَنْ أَطْلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَفَقَتْهُ عَيْنُهُ، فَلَا دِيَةَ لَهُ، وَلَا قِصَاصَ»، «لَا تُتَّبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ»، «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزَنَا الْعَيْنِ النَّظْرُ، وَزَنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»، «إِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ وَوَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ؛ فَلْيَعْمِدْ إِلَى امْرَأَتِهِ فَلْيُؤَاقِعْهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ، فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا»، «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ^(١) فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصَرِ وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ^(٢)». «وَلَا تَكُونُوا كَرَهْبَائِيَّةِ النَّصَارَى»، «إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا إِذَا كَانَ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا لِخِطْبَتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَا تَعْلَمُ». «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ، فَإِنِّي مَكَائِرُ بَكُمْ الْأُمَمَ»، «إِنِّي مُكَائِرٌ بِكُمْ الْآلَنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا

(١) الباءة: النكاح، لأن من تزوج امرأة بوأها منزلاً، والوطء سمي بقاء أيضاً، والمعنى: مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْجَمَاعَ لِقُدْرَتِهِ عَلَى مُؤْنِهِ وَهِيَ مُؤْنُ النِّكَاحِ فَلْيَتَزَوَّجْ. ومن نصائح قدماء الأطباء قولهم: لَا تَتَزَوَّجُوا مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا شَابَةً، وَلِيَقْلَ عَشْيَانِ النِّسَاءِ، وَالْجَمَاعُ عَلَى الْبُطْنَةِ يَهْدِمُ الْبَدَنَ، وَلَا تَتَكَارَهَنَّ عَلَى الْجَمَاعِ. وَأَرْبَعَةٌ تَزِيدُ فِي الْجَمَاعِ: أَكْلُ الْعَصَافِيرِ، وَالْإِطْرِيفِلِ، وَالْفُسْتِقِ، وَالْخَرْوَبِ. وَإِنْ وَطِئَ الْمَرْأَةُ الْحَائِضَ يُولَدُ الْجُذَامُ، وَالْجَمَاعُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُهْرِيقَ الْمَاءَ عَقِبَهُ يُولَدُ الْحَصَاةُ، وَمُجَامَعَةُ الْعَجَائِزِ تُهْرِمُ أَعْمَارَ الْأَحْيَاءِ، وَتُسَقِّمُ أَبْدَانَ الْأَصِحَّاءِ.

(٢) وجاء: أي كاسر للشهوة.

الشَّيْطَانُ وَجَنَّ الشَّيْطَانُ مَا رَزَقْتَنَا؛ ثُمَّ قُدِّرَ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ وَلَدٌ؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا وَلَمْ يُسَلِّطْ عَلَيْهِ»^(١).



(١) أي: لم يضر الولد المذكور، بحيث يتمكن من إضراره في دينه أو بدنه، وليس المراد رفع الوسوسة من أصلها.

خطر الفواحش والمعاصي

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ ثُمَّ مَرَّتْ عَلَى الْقَوْمِ لِيَجِدُوا رِيحَهَا؛ فَهِيَ زَانِيَةٌ، وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ تَطَيَّبَتْ ثُمَّ خَرَجَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ لِيُوجَدَ رِيحُهَا؛ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهَا صَلَاةٌ حَتَّى تَغْتَسِلَ اغْتِسَالَهَا مِنَ الْجَنَابَةِ». «ثَلَاثَةٌ قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالْعَاقُ، وَالذَّيْوُثُ الَّذِي يُقَرُّ فِي أَهْلِهِ الْخَبَثُ».

وكما حرم الإسلام الديانة؛ فقد حرم أكل الحيوان المشهور بديانته وعدم غيرته هو الخنزير الذي يأكله الغربيون فيتصفون بصفاته، فمن عاداتهم السيئة أن الفتاة عندهم يتاح لها أن تفعل الفاحشة ويعدون ذلك حرية، وأنها لا بد أن تكون مجربة فاقدة العذرية قبل الزواج، والخاطب لا بد أن يكون كذلك، وإلا جاؤوا له بعاهرة من الشارع قبل الدخول! والزوجة عندهم إذا وجدوها عذراء عابوها وقالوا إنها باردة جنسياً! وهذا من تبديل الشيطان فطرتهم، فأصبحت مفاهيمهم وأخلاقهم منكوسة مع عقيدتهم الفاسدة، - والعياذ بالله -.

وقد غزا الغرب المتنكس عقيدة وأخلاقاً مجتمعات المسلمين بأفلامه المنحرفة وقنواته المنحلة التي تصور ممارسة الفاحشة ومقدماتها الفاضحة بحركات وكلمات مثيرة وصور عارية للنساء في صالات رقص، وعرض فاحشة اللواط بطريقة مثيرة وعرض الشباب عراة من الخلف ومشاهد الضم والعناق والقبلات الساخنة والملابس الفاضحة القصيرة والممزقة، والأغاني الساقطة وتناول الخمر ونشر الألفاظ السيئة، وتأسيس مفهوم الزنا والخيانة الزوجية والعلاقة المحرمة بين الرجل والمرأة خارج إطار الأسرة، والشذوذ الجنسي، وتأكيد مفهوم الانغماس في

قدارة الفواحش والانحراف سعيًا إلى اللذة والمتعة كهدف أساس للحياة، وتدميرًا للعرض والشرف.

ولم يصل الغرب للتطبيع مع الزنا بالتراضي إلا بعد قبول: الإغواء والخيانة والتبرج والخلوّة المحرّمة. وكان من نتيجة الزنا بالتراضي: فساد البيوت، واختلاط الأنساب، والإجهاض المتعمّد، وقتل الأجنة، ولتحوّل المرأة في نظر الرجل إلى مجرد علاقة شهوانية عابرة، وليكون الزنا بالتراضي مدمرًا المفهوم الأسرة، وسببًا مباشرًا لأمراض جنسية، وانتشار أبناء الزنا الذين لا آباء لهم. وقد قال ﷺ: «شَرُّ الكَسْبِ مَهْرُ الْبَغْيِ»، فشر الكسب أن تتمّ المتاجرة بجسدها. بل إن المسلم يقاتل ويُقتل من أجل حفظ المرأة، وقال النبي ﷺ: «ومن قاتل دون أهله، فهو شهيد».

وقد كانت المرأة عندنا مصونة لا يراها أجنبي، مكفولة لا تحتاج أن تتوظف، فأصبح التقدم - عند المتأثرات بالغربيين - هو أن يراها الكفار، وأن تخلع الحجاب بمجرد أن تركب الطائرة وأن تسافر بلا محرم، وأن تفخر إذا عملت خادمة جوية أو ممرضة في مستشفى وما أشبه ذلك، وهمها الوظيفة والمال والمتعة بعيدًا عن الزواج والأسرة والعفة التي صورها الإعلام الغربي المنحرف بأنها قيود للحرية والمتعة!!

وجاء في الحديث عنه ﷺ: «صِنْفَانِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سَيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا». «لَا تَذْهَبُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ حَتَّى تَشْرَبَ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّوْنَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا»، «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَّ^(١) وَالْحَرِيرَ، وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ»، «لَيَسَيَنَّ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى أَكْلِ وَلَهْوٍ وَلَعِبٍ، ثُمَّ لَيُضْبَحَنَّ قِرْدَةٌ وَخَنَازِيرٌ، وَلَيَكُونَنَّ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ

(١) الحِر: الفرج، والمعنى: يستحلون الزنا.

وَقَذَفُ وَمَسَخٌ وَذَلِكَ إِذَا شَرِبُوا الْخُمُورَ، وَاتَّخَذُوا الْقَيْنَاتِ^(١)، وَضَرَبُوا بِالْمَعَارِفِ». «الْثِّيَّانِ يُجْلَدَانِ وَيُرْجَمَانِ^(٢)، وَالْبِكْرَانِ يُجْلَدَانِ وَيُنْفَيَانِ»، «لَا يَنْكُحُ الزَّانِي الْمَجْلُودَ إِلَّا مِثْلَهُ»^(٣)، «أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمٍ مِنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، وَلَنْ يُدْخِلَهَا اللَّهُ جَنَّتَهُ»، «لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةٍ جَارِهِ»، «مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا»، «مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوْ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»^(٤). «ملعونٌ مَنْ عَمِلَ بِعَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ»، «مَنْ

(١) القينات: المغنيات.

(٢) معناه أن الزاني إذا كان بكرًا؛ لم يسبق له أن تزوج؛ فعقوبته أن يجلد مائة جلدة وينفى ويبعد عن مكان إقامته لمدة سنة، وأن الزاني إذا كان ثيبًا؛ أي قد سبق وأن تزوج ودخل بزوجه، وكذا الزانية إذا كانت ثيبًا؛ فعقوبتهما: الجلد مائة جلدة، ثم الرجم. وقال بعض العلماء أن الجلد منسوخٌ في حق الثيبِ بالآية التي نُسِختْ تلاوتُها وبقي حُكْمُها، كما عند ابنِ ماجه عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أنه كان مما يُقرأ في القرآن: «الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَانَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ»، وأكثر ما يقام الرجم بالاعتراف بالزنا، ونادر جدًا طوال التاريخ أن يقام بالشهود.

(٣) أي: لا يرعَّبُ في الزواج من الزَّانِي - وفي حُكْمِهِ الزَّانِيَة - الذي ظَهَرَ زَنَاهُ فَجُلِدَ، إِلَّا زَانٍ مِثْلَهُ، وأنه لا تتأخَّرُ بين العفيفِ والزَّانِيَة أو الزَّانِيَة والعفيفِ، فإن من زنى ولم يتب لا يحل له نكاح العفيفة حتى يتوب، وكذلك من زنت ولم تتب لا يحل لها نكاح العفيف حتى تتوب، ومن زنى ولم يتب ثم تزوج من عفيفة دون علمها كان لها الفسخ، وإن علمت بفسقه وزناه وأنه لم يتب ثم رضيت به كذلك؛ فنكاحها محرم لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥)، وأما الوصف بالمجلود فهذا خرج مخرج الغالب، وإلا فالحكم لازم لكل زانٍ في تحريم نكاح العفيفة وإن لم يجلد.

(٤) قال الترمذي: «وَأَيُّمَا مَعْنَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى التَّغْلِيظِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (مَنْ أَتَى حَائِضًا فَلَيْتَصَدَّقَ بِدِينَارٍ) فَلَوْ كَانَ إِيْتَانُ الْحَائِضِ كُفْرًا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ بِالْكَفَّارَةِ». وقال في تحفة الأحوذى: «الظَّاهِرُ أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى التَّغْلِيظِ وَالتَّشْدِيدِ كَمَا قَالَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقِيلَ: إِنْ كَانَ الْمُرَادُ الْإِيْتَانُ بِاسْتِحْلَالٍ وَتَصْدِيقٍ، فَالْكُفْرُ مَحْمُولٌ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَإِنْ كَانَ بِدُونِهِمَا فَهُوَ عَلَى كُفْرَانِ النُّعْمَةِ».

وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلًا لَّوْطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ، وَمَنْ وَجَدْتُمُوهُ وَقَعَ عَلَىٰ بَهِيمَةٍ فَاقْتُلُوهُ، وَاقْتُلُوا الْبَهِيمَةَ».

«خَمْسٌ بِخَمْسٍ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّىٰ يُعْلِنُوا بِهَا؛ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَفَشَا فِيهِمُ الْمَوْتُ. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ؛ إِلَّا مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَثُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ؛ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْ لَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا. وَلَمْ يَنْقُصُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ؛ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضُ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَكَانَ الْقَتْلُ بَيْنَهُمْ. وَمَا لَمْ تَحْكُمِ أَيْمَتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ؛ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ، وَجَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهَمِ بَيْنَهُمْ»^(١).



(١) وفي الحديث: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْأَعَاجِمِ»، قِيلَ: وَمَا قُلُوبُ الْأَعَاجِمِ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، سُنَّتُهُمْ سُنَّةُ الْأَعْرَابِ، مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ رِزْقٍ جَعَلُوهُ فِي الْحَيَوَانِ يَرُونَ الْجِهَادَ ضَرَرًا، وَالصَّدَقَةَ مَغْرَمًا». و(الْحَيَوَانُ): مُبَالِغَةٌ فِي الْحَيَاةِ، كَمَا قِيلَ لِلْمَوْتِ الْكَثِيرِ: مَوْتَانٌ. و(مَغْرَمًا) أَيُّ: يَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَدَاؤُهَا، بَحِيثٌ يُعَدُّونَ إِخْرَاجَهَا غَرَامَةً يَغْرَمُونَهَا، وَمَصِيبَةٌ يُصَابُونَهَا.

حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «حُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»، «مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، وَلَا مِثْلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا». «مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ»، «مَنْ قَضَى اللَّهُ عَلَيْهِ الْخُلُودَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا». «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ عليه السلام إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَبَإِذَا هِيَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ اللَّهُ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا، قَالَ: فَأَمَرَ اللَّهُ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا». «مَا سَأَلَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ اللَّهَ تعالى الْجَنَّةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَطُّ إِلَّا قَالَتِ الْجَنَّةُ: اللَّهُمَّ ادْخُلْهُ إِيَّايَ، وَلَا اسْتَجَارَ مِنَ النَّارِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ إِلَّا قَالَتِ النَّارُ: اللَّهُمَّ اجْزِهِ مِنِّي». «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ».



الدِّينُ: النَّصِيحَةُ

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «الدِّينُ: النَّصِيحَةُ»^(١)، لله^(٢) ولكتابه^(٣) ولرسوله^(٤) ولأئمة المسلمين^(٥) وعامتهم^(٦). «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(٧). «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ

(١) أي: عماد الدين وقوامه النصيحة، كقوله: «الحج عرفة» أي: عماده ومعظمه عرفة. والنصيحة هي فعل وبذل الخير تجاه الغير والخلوص من الشوائب وحظوظ النفس. يقال: نصح العسل، إذا صفي وخلص من الشمع والشوائب.

(٢) وتكون لله الغني عن عباده بتوحيده وطاعته وتعود منفعتها للعبد، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾.

(٣) وتكون لكتاب الله بتدبره وتعظيمه وحسن تلاوته والعمل به.

(٤) ولرسوله بتوقيره ونصرته وطاعته وإحياء سنته.

(٥) ولأئمة المسلمين بمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وتذكيرهم به وتنبههم برفق ومنهم العلماء ببث علومهم ونشر مناقبهم وتحسين الظن بهم.

(٦) ولعامتهم بإرشادهم لمصالحهم وحب الخير لهم.

ولا يكون ناصحاً لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم إلا من بدأ بالنصيحة لنفسه، واجتهد في طلب العلم والفقه، ليعرف به ما يجب عليه، ويعلم عداوة الشيطان له وكيف الحذر منه، ويعلم قبيح ما تميل إليه النفس حتى يخالفها بعلم، ومن تدين بالدين الحق فقد نصح نفسه. (٧) وتغيير المنكر بالقلب، لا بد أن يصحبه تمعر الوجه أو تقطيب الجبين وما أشبه ذلك، ومن المصالح المرجوة في إنكار المنكر: أن يتوب صاحب المنكر ويتغير إن شاء الله، وأن تقوم الحجة على المنكر عليه، وأن يسقط الإثم عمن أنكر عليه ويعذر بذلك إلى الله، وترفع العقوبة عمن أنكر.

أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا يَصْعَدُونَ فَيَسْتَقُونَ الْمَاءَ، فَيَصُبُّونَ عَلَى الَّذِينَ فِي
 أَعْلَاهَا، فَادَّوَّهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا خَرْقًا فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ، وَلَمْ نَمُرَّ عَلَى
 أَصْحَابِنَا فَنَنُذِرِيهِمْ، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا، هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ،
 نَجَّوْا، وَنَجَّوْا جَمِيعًا».



عدل الله وغناه عن خلقه

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى: «يا عبادي إنني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا، يا عبادي كلّكم ضالّ إلاّ من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلّكم جائع إلاّ من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلّكم عارٍ إلاّ من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنّكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي إنّكم لن تبلغوا ضريّ فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أنّ أولّكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على اتّقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أنّ أولّكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أنّ أولّكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيدٍ واحد فسألوني فأعطيت كل إنسانٍ مسألته، ما نقص ذلك ممّا عندي إلّا كما ينقص المِخيطُ إذا أُذخِلَ البحرُ. يا عبادي، إنّما هي أعمالكم أُحصيها لكم، ثمّ أوفّيكم إياها، فمنّ وجد خيراً، فليحمد الله، ومنّ وجد غير ذلك، فلا يلو منّ إلّا نفسه».

«إنّ الله ﷻ كتَبَ الحَسَنَاتِ والسيِّئَاتِ، ثمّ بيّن ذلك، فمنّ همّ بحسنة، فلمّ يعملها، فعلم الله أنّه قدّ أشعرها قلبه، وحرّص عليها؛ كتَبها الله عنده حسنةً كاملةً، وإنّ همّ بها فعَمِلها، كتَبها الله عنده عشرَ حَسَنَاتٍ إلى سبع مئة ضِعْفٍ إلى أضعاف كثيرة، وإنّ همّ بسيئة، فلمّ يعملها، كتَبها الله عنده حسنةً كاملةً، وإنّ همّ بها، فعَمِلها كتَبها الله سيئةً واحدةً أو محاهها الله، ولا يهلك على الله إلّا هالكٌ».

الحساب على الأعمال

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ وَجِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ». «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ تَمَّ^(١) دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ». «الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا؛ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ». «الظُّلْمُ ثَلَاثَةٌ: ظَلُمْتُ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وَظَلُمْتُ يَغْفِرُهُ، وَظَلُمْتُ لَا يَتْرُكُهُ، فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، فَالشَّرُّ، قَالَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الشَّرَّكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٢)، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يَغْفِرُهُ، فَظَلُمْتُ الْعِبَادَ أَنْفُسَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ ﷻ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَتْرُكُهُ، فَظَلُمْتُ الْعِبَادَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

«الدَّيْنُ دَيْنَانِ، فَمَنْ مَاتَ وَهُوَ يَنْوِي قَضَاءَهُ؛ فَأَنَا وَلِيُّهُ^(٣)، وَمَنْ مَاتَ وَلَا يَنْوِي

(١) يعني يوم القيامة.

(٢) (فأنا وليه) أي: أفضيه عنه مما يفيء الله علي من الغنائم، فإنه ﷺ كَانَ يَمْتَنِعُ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى الْمَدْيُونِ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْبِلَادَ وَكَثُرَتِ الْأَمْوَالُ صَلَّى عَلَى مَنْ مَاتَ مَدْيُونًا وَقَضَى عَنْهُ، وَذَلِكَ مَشْعَرٌ أَنَّ مَنْ مَاتَ مَدْيُونًا اسْتَحَقَّ أَنْ يُقْضَى عَنْهُ دِينُهُ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ أَحَدُ الْمَصَارِفِ الثَّمَانِيَةِ، إِذَا اسْتَدَانَ فِي مَوَاضِعٍ يَبَاحُ لَهُ فِيهَا الاسْتِدَانَةُ وَاسْتَمَرَّ عَجْزُهُ عَنِ الْوَفَاءِ

قَضَاءُهُ؛ فَذَلِكَ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ، لَيْسَ يَوْمَئِذٍ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ.



حتى مات أو أتلف شيئاً خطأ وعجز عن غرامته حتى مات وكان في نيته وعزمه الوفاء والسداد ولم يوفَّ غريمه؛ فالظاهر أن هذا لا مطالبة في حقه في الآخرة إذ لا معصية منه، والمرجو أن الله تعالى يعوِّض صاحب الحق، والله أعلم.

الأعمال بالخواتيم

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلًا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلًا أَهْلُ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ». «اعملوا؛ فكلُّ ميسرٍ لما خُلِقَ لَهُ، فَأَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ، فَيَسِرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ، فَيَسِرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ». «إِنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُدْخِلُهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُدْخِلُهُ بِهِ النَّارَ».



الحسنات وأبواب الخير

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ». «مَا مِنْ أَمْرٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وَضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرُ كُلُّهُ». «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكْفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ».

«كُلُّ سَلَامَى^(١) مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ تَعْدِلُ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ: صَدَقَةٌ. وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»، «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ طَيْرٌ أَوْ دَابَّةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ». «إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ؟، فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ».

«مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا؛ نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ؛ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»، «مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛

(١) السَّلَامَى: بضم السين: المفاصل، وهي ثلاثمائة وستون مفصلاً. لا تتأني الحركة والسكون إلا بها، فهي من أعظم نعم الله ﷻ على الإنسان، وحق المنعم عليه أن يقابل كل نعمة منها بشكر يخصها فيعطي صدقته - على وجه الاستحباب - كما أعطي منفعته.

سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»، «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا؛ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(١)، «مَا جَلَسَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»، «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ». «الصَّلَاةُ نُورٌ»^(٢) وَالصَّدَقَةُ وَالزَّكَاةُ بُرْهَانٌ^(٣)، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ^(٤)، وَالصَّوْمُ جَنَّةٌ^(٥)، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ^(٦) ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٧) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾».

وَقَالَ ﷺ لِمَعَاذٍ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟» فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ»

(١) وإضافة لما أنعم الله به على المسلمين من علوم القرآن والسنة - التي هي أشرف العلوم التي ترفع درجة صاحبها - فقد نبغ المسلمون كذلك في مختلف العلوم الدنيوية النافعة وأثروها بالمؤلفات والاختراعات. ومما سبق المسلمون غيرهم في معرفته: الساعات الحائطية، والبريد، والورق، والمدافع، والتكيف عن طريق الجدران، وفن الهندسة المعمارية في الأسقف والقناطر والأنفاق. وعلى تصويبات ابن الهيثم في البصريات استطاع الغرب أن يصنع النظارات، ونسبها إلى «جون ويلسون» الإنجليزي، وكذلك الصفر والكسور العشرية والكسور الاعتيادية والأرقام العربية لم يعرفها الغرب إلا من المسلمين.

(٢) ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، و«بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلُمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ النَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(٣) برهان (كوهج الشمس) عَلَى إِيْمَانِ فَاعِلِهَا.

(٤) الصَّبْرُ الْمَحْمُودُ الَّذِي لَا جَزَعُ فِيهِ وَلَا شَكْوَى لِلخَلْقِ هُوَ (ضِيَاءٌ) لَا يَزَالُ صَاحِبُهُ مُسْتَضِيًّا بِهِ مُهْتَدِيًّا عَلَى الصَّوَابِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْحَرَارَةِ وَالْأَلَمِ.

(٥) أي: هُوَ مَانِعٌ مِنَ الْمَعَاصِي بِكُسْرِ الْقُوَّةِ وَالشَّهْوَةِ.

(٦) أي أنها من أبواب الخير ومما يدخل الجنة ويباعد عن النار.

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكَ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ ثُمَّ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: «ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يُكَبُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»، «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ». وَقَالَ ﷺ: «الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ؛ فَمُعْتِقُهَا^(١) أَوْ مُوْبِقُهَا^(٢)». «اغْتَنِمْ خُمْسًا قَبْلَ خُمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ».

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى - فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ -: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِذَّنَّهُ».



(١) إِمَّا يَبِيعُهَا اللَّهُ تَعَالَى بِطَاعَتِهِ فَمُعْتِقُهَا مِنَ الْعَذَابِ.

(٢) أَوْ يَبِيعُهَا لِلشَّيْطَانِ وَالْهَوَىٰ بِاتِّبَاعِهِمَا فَمُهْلِكُهَا وَمُوْبِقُهَا.

فضائل ذكر الله

وقال ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، تَمْلَأُنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، «أَفَلَا أَعَلَّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ قَدْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟ تَسْبِحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾». «أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرِ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَخَيْرِ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ ذَكَرُ اللَّهِ ﷻ».

«لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ»^(١)، «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ؛ الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ». «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»^(٢)، «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ»^(٣)

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ شَرَّاعِ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّهُ بِهِ، قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ».

(٢) الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ معناها - عند جمهور العلماء - : من الله تعالى : الرحمة، ومن الملائكة : الاستغفار، ومن آدميين : الدعاء، وذهب آخرون إلى أن معنى الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ هو الشَّاءُ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، لما حكاه البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال : «صَلَاةُ اللَّهِ تَنَاوُهُ عَلَى عَبْدِهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى» وقالوا : إن هذا هو الأصوب. ويكون دعاء الملائكة ودعاء المسلمين بالصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ بأن يثني الله تعالى عليه في المَلَأِ الْأَعْلَى. ويضاف معها السلام بمعنى التحية أو السلامة من النقائص والردائل، أو الأمان. والعطف على الآل في قولنا : (وآله) أي : أتباعه على دينه، والجمع بين الآل والصحب هو من عطف الخاص على العام لمخالفة المبتدعة الذين يوالون القرابة دون الصحب.

(٣) أي : استيقظ بصوت من استغفارٍ أو تسبيحٍ أو نحوه.

فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،
سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ^(١)، ثُمَّ
قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي - أَوْ دَعَا - اسْتَجِيبَ لَهُ، فَإِنْ عَزَمَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ».
«مَنْ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ طَاهِرًا يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى يُدْرِكَهُ النَّعَاسُ، لَمْ تَمْضِ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ
يَسْأَلُ اللَّهَ فِيهَا شَيْئًا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ». «مَنْ قَالَ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ
الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» - ثَلَاثًا -؛ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنْ
الزَّحْفِ»^(٢).

«سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا
عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ
بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»، مَنْ قَالَهَا مِنْ
النَّهَارِ - مُوقِنًا بِهَا - فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنْ
اللَّيْلِ - وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا - فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةً
مَرَّةً، كَانَتْ لَهُ عَدَلٌ عَشْرٍ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةٌ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةٌ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ
لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلِ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا مَنْ
قَالَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي، كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ».



(١) أي: لا تحوّل من حال إلى حال، ولا قدرة على ذلك؛ إلا بالله.

(٢) فيه ذكر التوبة في قوله: «وأَتُوبُ إِلَيْهِ»، وقد اشترط العلماء صدق التوبة وتحقق شروطها

- خصوصًا من الكبائر - لتحقيق المغفرة لجميع الذنوب.

آداب الطعام

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك». «من نسي أن يذكر اسم الله في أول طعامه، فليقل حين يذكر: «بسم الله في أوله وآخره»، فإنه يستقبل طعامًا جديدًا، ويمنع الخبيث ما كان يصيب منه»^(١)، «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذْكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ». «الْبَرَكَهُ تَنْزِلُ وَسَطَ الطَّعَامِ؛ فَكُلُوا مِنْ حَافَتَيْهِ»^(٢)، وَلَا تَأْكُلُوا مِنْ وَسْطِهِ»^(٣).

«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ، حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمْ اللَّقْمَةُ، فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذَى، ثُمَّ لِيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ، فَإِذَا فَرَغَ فَلْيَلْعَقْ أَصَابِعَهُ، وَلَا يرفع الصَّخْفَةَ حَتَّى يَلْعَقَهَا أَوْ يُلْعِقَهَا؛ فَإِنَّهُ لَا يَذْري فِي أَيِّ طَعَامِهِ تَكُونُ الْبَرَكَهُ». «من أكل طعامًا ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٤).

(١) الخبيث هو الشيطان. وفي الحديث: قال إبليس: يا رب، كل خلقك قد سببت أرزاقهم، فما رزقي؟ قال: كل ما لم يذكر اسمي عليه.

(٢) أي من جَوَانِبِ الْقُصْعَةِ وَحَوَالِيهَا وَأَسْفَلِهَا، كما في روايات أخرى.

(٣) أي النبي عليه السلام بتمر، فَكَانَ يَأْكُلُ التَّمْرَ وَيَضَعُ النُّوْيَ عَلَى ظَهْرِ أَصْبَعِيهِ السَّبَّابَةِ وَالْوَسْطَى، ثُمَّ يَرْمِي بِهِ. قال أبو بكر بن حماد: رأيت الإمام أحمد يأكل التمر، ويأخذ النوى على ظهر إصبعيه السبابة والوسطى. وعلله بعضهم بصيانة باطن الأصابع من فضلة اللعاب الباقي في النوى، حتى لا يعود بها إلا صحن التمر فتمس ما سيأكله غيرك، ولكيلا يفسد التمر الباقي إذا مسه شيء من اللعاب العالق في النوى أو الأصابع.

(٤) وما عاب رسول الله عليه السلام طعامًا قط، كان إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه. والأفضل - والله

«إذا شرب أحدكم فلا يشرب نفساً واحداً»، «لا يتنفس أحدكم في الإناء إذا كان يشرب منه، ولكن إذا أراد أن يتنفس فليؤخره عنه، ثم يتنفس»^(١). «أَحَلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ: فَالْحَوْثُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ».

«ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكالات يُقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(٢).

أعلم - عدم نزع النخالة من الدقيق لحديث أم أيمن بركة بنت ثعلبة رضي الله عنها قالت: عَرَبْتُ دَقِيقًا فَصَنَعْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ رَغِيفًا، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟»، فَقُلْتُ: طَعَامٌ تَصْنَعُهُ بِأَرْضِنَا، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَصْنَعَ مِنْهُ لَكَ رَغِيفًا، فَقَالَ: «رُدِّيهِ فِيهِ، ثُمَّ اعْجِنِيهِ».

(١) ونهى عن الشرب من ثلثة (كسر) القدح أو أذنه، وأن يشرب من فم القربة أو السقاء؛ لأن ذلك ينتنه. وكان يأكل بثلاث أصابع، فإذا فرغ لعقها قبل أن يمسحها. وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل متكئاً، أي: لا يميل على أحد جنبيه. ونهى أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه، وعن النفخ في الطعام والشراب.

ومن وصايا أهل الطب قولهم: مَنْ سَرَّهُ الْبَقَاءُ - وَلَا بَقَاءَ - فليباكر الغداء، وليعجل العشاء، وَلَا تَأْكُلُوا الْجَوْزَ عِنْدَ الْمَسَاءِ، وَأَكُلِ الْقَدِيدَ الْيَابِسَ بِاللَّيْلِ مُعِينٌ عَلَى الْفَنَاءِ. وَلَا تَأْكُلَنَّ حَتَّى تَجُوعَ، وَلَا تَأْكُلَنَّ طَعَامًا، وَفِي مَعِدَتِكَ طَعَامٌ، وَلَا يَأْكُلُ مَنْ بِهِ عَمُّ حَامِضًا. وَأَجِدْ مَضْغَ الطَّعَامِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ مَا تَعْجِزُ أَسْنَانُكَ عَنْ مَضْغِهِ، فَتَعْجِزَ مَعِدَتُكَ عَنْ هَضْمِهِ. وَاحْذَرِ أَنْ تَجْمَعَ الْبَيْضَ وَالسَّمَكَ أَوِ اللَّبَنَ وَالسَّمَكَ أَوِ اللَّبَنَ وَالنَّبِيذَ. وَاسْتَدِيمُوا الصَّحَّةَ بِتَرْكِ الْإِمْتِلَاءِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَلِتَأْكُلْ عَلَى نَقَاءٍ، وَلِتَشْرَبْ عَلَى ظَمَأٍ، وَلَا تَأْكُلُوا فَوْقَ شَبْعِكُمْ، وَالْأَكْلَ الْكَثِيرَ يُفْسِدُ فَمَ الْمَعِدَةِ، وَيُضْعِفُ الْجِسْمَ، وَيَوْلِدُ الرِّيَّاحَ الْعَلِيظَةَ، وَالْأَدْوَاءَ الْعَسِيرَةَ، وَمَنْ أَكَلَ بَيْضًا مَسْلُوقًا بَارِدًا، وَامْتَلَأَ مِنْهُ، فَأَصَابَهُ رُبُوبٌ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

وَإِذَا أَكَلْتَ نَهَارًا فَلَا بَأْسَ أَنْ تَنَامَ، وَلِتَتَمَدَّدَ بَعْدَ الْغَدَاءِ وَلِتَنَمَ عَلَى إِثْرِ غَدَائِكَ سَاعَةً، وَإِذَا أَكَلْتَ لَيْلًا فَلَا تَنَمَ حَتَّى تَمْشِيَ بَعْدَ الْعَشَاءِ وَلَوْ أَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسِينَ خُطْوَةً. وعماد طعام العرب: التمر واللبن والسمن ودقيق البر والشعير والشحوم والعسل واللحم والسّمك والجراد والأقط. و«الثريد» سيد الطعام ويهيا بسلق قطع اللحم الملقاة في الماء، وقد يضاف إليه البصل والحمص، فإذا سلق اللحم ونضج وتولد منه مرق، أُلقي مع مرقه على الخبز المشرود.

(٢) يعني: للهواء.

«مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكَرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَى مِمَّا يَتَأَذَى مِنْهُ بَنُو آدَمَ». «إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرِبُ فِي آيَةِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ؛ إِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ»،

«كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ»، «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ»، «مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ»، «لَيْشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسْمُونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا»، «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ وَسَكِرَ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ فَشَرِبَ فَسَكِرَ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ فَشَرِبَ فَسَكِرَ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ رَدْغَةِ الْخَبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (عُصَاةُ أَهْلِ النَّارِ)»، «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ»^(١).



(١) ونهى النبي ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، ولحم الحمار الأهلي. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾. وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾.

التداوي وحفظ الصحة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «تَدَاوُوا عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا وَقَدْ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهَلَهُ مَنْ جَهَلَهُ، إِلَّا السَّامَ»^(١)، فتداووا، ولا تتداووا بحرام^(٢)، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِي حَرَامٍ.

«إن أفضل ما تداويتم به: الحجامة»^(٣)، والقُسْطُ البحري، «إذا هاج بأحدكم الدم

(١) وهو الموت. وفي رواية: «إِلَّا الْهَرَمَ»، وهو: الشيخوخة وكبر السن.
(٢) ونهى عليه الصلاة والسلام عن الدواء الخبيث. وقد شكى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ﷺ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ الْقَمْلَ فِي غَزَاةٍ لَهُمَا، فَرَخَّصَ لَهُمَا فِي لُبْسِ الْحَرِيرِ. وقال لمن شكَا وجعًا في رجله: «اذهب فاخضبها بالحناء». وَكَانَ لَا يُصِيبُ النَّبِيَّ ﷺ قَرْحَةٌ وَلَا شَوْكَةٌ وَلَا نَكْبَةٌ إِلَّا وَضَعَ عَلَيْهَا الْحَنَاءَ. ولما جُرْحُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ورأت فاطمة الدم لا يزيد إلا كثرةً، أخذت قطعة حصير البردي، فأحرقتها حتى إذا صارت رمادًا ألصقته بالجرح فاستمسك. وعن أم سلمة ﷺ قالت: كنا نطلي وجوهنا بالورس (الكركم) من الكلف (وهو شيء يعلو الوجه كالسمسم، وهو لون بين السواد والحمرة، وهي حمرة كدرة).

(٣) الحجَم: لغة المص. والمحجمة هي الآلة التي يمص بها الدم ويحجم بها المريض. والحجامة: هي ما يفعله الحجام وهو المصاص وسمي بذلك لأنه يمص الدم الفاسد من المحجوم عن طريق المحجمة أو المحجم: وهو مشروط الحجام الذي يشترط به الجلد، ويفضل أن تكون الحجامة على الريق وبعد منتصف الشهر وأفضلها يوم السابع عشر أو التاسع عشر أو الحادي والعشرين، ويحتاج إليها أكثر في وقت الحر، وتفيد في قوة الحفظ والبصر وعلاج الأمراض والصداع والبلغم، وقد احتجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِطَرِيقِ مَكَّةَ وَهُوَ مُخْرِمٌ فِي وَسْطِ رَأْسِهِ مِنْ صُدَاعٍ وَجَدَهُ، وَاحْتَجَمَ وَهُوَ مُخْرِمٌ عَلَى وَرِكَهِ (مَا فَوْقَ الْفَخِذِ) مِنْ أَلَمٍ كَانَ بِهِ، وَاحْتَجَمَ وَهُوَ مُخْرِمٌ عَلَى ظَهْرِ الْقَدَمِ مِنْ وَجَعٍ كَانَ بِهِ.

فليحتجم، فإن الدم إذا تبَيَّغ^(١) بصاحبه يقتله^(٢). «مَنْ أَرَادَ الْحِجَامَةَ؛ فَلْيَتَحَرَّ سَبْعَةَ عَشَرَ أَوْ تِسْعَةَ عَشَرَ أَوْ إِحْدَى وَعِشْرِينَ».

«الشَّفَاءُ فِي ثَلَاثٍ: شَرْبَةُ عَسَلٍ^(٣)، وَشَرْطَةُ مِحْجَمٍ، وَكَيْيَةُ نَارٍ تَوَافِقُ الدَّاءَ، وَمَا أَحَبُّ أَنْ أَكْتُوِي، وَأَنْهِيَ أُمَّتِي عَنِ الْكَيْيِ»^(٤).

- (١) باغ الدم: ثار وهاج، كما يكون الحال عند من به ارتفاع في ضغط الدم.
- (٢) وقال عليه الصلاة والسلام لمن شكا وجعاً في رأسه: «أذهب فاحتجم».
- (٣) أجود العسل ما تغذى نحله على الأزهار وكان طيب الرائحة، حلو الطعم، صافي اللون كأقرب ما يكون إلى لون الذهب، لم يصبه ماء ولا رطوبة ولا نار ولا دخان، إذا صب امتدّ ولم يتقطع، وإذا قطر على الأرض استدار واجتمع إلى نفسه استدارة الزئبق ولم يتغش ولم يختلط بالتراب، وإذا لطح على فتيلة ثم أوقد فيها النار اشتعلت. ولم يعرض لعمليات (الفلترَة أو البسترة)، ولم يعرض لضوء شمس أو ضوء شديد، أو حرارة تسخين أو غلي أو تجميد، ولم يحفظ في معدن أو حديد ذي صدأ أو في آنية رديئة، وعسل الجبال في العموم أفضل من غيره لتغذي النحل على نباتات الأدوية التي تكثر في الجبال، وبحسب ما يتغذى عليه النحل ويستخلصه من الدواء تكون الفائدة، والعسل الطبيعي إذا مزج بالماء غبّره بسبب حبيبات اللقاح فيه. وقد قال عليه الصلاة والسلام لمن جاءه يشكو استطلاق (إسهال) بطن أخيه: (صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَّبَ بَطْنُ أَخِيكَ، اسْقِهِ عَسَلًا)، فَسَقَاهُ فَبَرَأَ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: عَلَيْكُمْ بِالشَّفَاءَيْنِ: الْعَسَلِ وَالْقُرْآنِ. ويوصف الماء المغلي والعسل لأوجاع الخاصرة والكلية، وملعقة عسل صغيرة للطفل قبل النوم لمساعدته على عدم التبول أثناء النوم بالليل، أما لكبار السن فملعقة عسل مع الحليب الدافئ. ويوصف ماء الشعير مع العسل لإخراج حصوات الكلى، ويعالج العسل كثيرًا من الجروح والحروق دون ترك أثر بطلائه عليها. وذكر ابن القيم له فوائد كثيرة في كتابه زاد المعاد ثم قال: «وهو غذاء مع الأغذية، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة، وحلو مع الحلوى، وطلاء مع الأطلية، ومُفَرِّجٌ مع المفْرِحات، فما خُلِقَ لنا شيء في معناه أفضل منه، ولا مثله، ولا قريبًا منه، ولم يكن معوّل القدماء إلا عليه، وأكثرُ كتب القدماء لا ذكر فيها للسُّكر البتّة، ولا يعرفونه، فإنه حديث العهد حدث قريبًا، وكان النبي صلى الله عليه وآله يشربه بالماء على الرّيق، وفي ذلك سرٌّ بديع في حفظ الصحة لا يُدرّكه إلا الفطن الفاضل».
- (٤) في الحديث إشارة جامعة إلى أصول العلاجات الثلاث: وهي إدخال مادة دوائية تواجه

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ^(١)؟، صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ». «السَّوَاكُ مَطَهْرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاءٌ لِلرَّبِّ». «خَيْرُ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَاءُ زَمْزَمَ، فِيهِ طَعَامٌ مِنَ الطَّعْمِ وَشِفَاءٌ مِنَ السُّقَمِ»، «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شَرِبَ لَهُ، إِنْ شَرِبْتَهُ تَسْتَشْفِي بِهِ؛ شَفَاكَ اللَّهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لَشَبِعَكَ؛ أَشْبَعَكَ اللَّهُ بِهِ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لَيَقْطَعَ ظَمَأَكَ؛ قَطَعَهُ اللَّهُ»، «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، وَهِيَ هَزْمَةُ جَبْرِيلَ^(٢) وَسُقْيَا اللَّهِ إِسْمَاعِيلَ». «إِنْ فِي الْحَبَةِ السُّودَاءِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ^(٣)». «عليكم بالسني والسنوت^(٤) فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام».

السموم وتسهل خروجها كالغسل. أو إخراج واستئصال السموم والمادة الفاسدة من الجسم كما في الحجامة. أو التأثير الخارجي على العضو المصاب بمؤثر يغير حالته كما في الكي. وفيه إشارة إلى أن يؤخَّر العلاج بالكي حتى تدفع الضرورة إليه، ولا يجعل التداوي به لما فيه من استعجال الألم الشديد في دفع ألم قد يكون أضعف من ألم الكي، ولأنَّ الكي فيه تعذيب بالنار، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ، وَهُوَ اللَّهُ ﷻ وَلِأَنَّ الْكَيَّ يَبْقَى مِنْهُ أَثَرٌ فَاحِشٌ. وفي حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب أنهم لا يكتون. قيل: كانوا في الجاهلية يكتون وهم صحاح حتى لا يصيبهم المرض، وحمل بعضهم النهي عن الكي على ذلك. وكما جَاءَ النَّهْيُ عَنِ الْكَيِّ، فَقَدْ جَاءَتْ الرُّخْصَةُ فِيهِ لِيَبَانَ جَوَازُهُ. (١) (وَحَرَ الصَّدْرِ): مَا يَخْصُلُ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْكُدُورَاتِ وَالْقَسْوَةِ، وَقِيلَ: الْحِقْدُ وَالْغَيْظُ، وَقِيلَ: أَشَدُّ الْغَضَبِ.

(٢) ضربة جبريل ﷺ في الأرض لحفر بئر زمزم. قَالَ جَابِرٌ: «أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ تُفْتَحَ مَكَّةُ إِلَى سُهَيْلِ بْنِ عَمْرِو: أَنْ أَهْدِيَ لَنَا مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، وَلَا يَتْرُكُ»، قَالَ: فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِمَزَادَتَيْنِ.

(٣) السام هو الموت. والحبة السوداء (الشونيز) هي من أفضل مقويات المناعة. ومن طرق استخدامها: أن تؤخذ سبع حبات أو وتراً إلى إحدى وعشرين ثم تدق في خرقة، فيما تشم باستمرار أو تنقع في ماء ليلة ثم يقطر بها في الأنف. كما أن باحثين مصريين استخلصوا مركباً رائعاً من زيت الحبة السوداء وسموه نيجلون Nigellone على شكل نقط أو أقراص.

(٤) السنأ أو (السنامكي) نبات ينبت في مكة وفي غيرها، وهو مفيد جداً في تنقية الجسم من السموم، لكن الإكثار منه خطر جداً. وقيل: إن السنوت هو الشمر، وقيل: الشبت، وقيل:

«مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً عَلَى الرَّيِّقِ، لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ»^(١) حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ أَكَلَهَا حِينَ يُمْسِي؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يُصْبَحَ». «كلوا الزيت وادهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة». «تداووا بألبان البقر فإني أرجو أن يجعل الله فيها شفاء، فإنها تأكل من كل الشجر»، «أَلْبَانُ الْبَقَرِ شِفَاءٌ، وَسَمْنُهَا دَوَاءٌ، وَلَحُومُهَا دَاءٌ»^(٢)، «لو خر جُثَمٌ إِلَى إِبِلِ الصَّدَقَةِ فَشَرِبْتُمْ مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا». «الكُمَاةُ مِنَ الْمَنِ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»^(٣). «عليكم بالإثمَد فإنه خير

الكمون، وقيل غيرها. والأقرب إلى الصواب - والله أعلم - في معنى (السنوات): أنه العسل الذي يكون في زقاق السمن. ويدل عليه رواية: (ثَلَاثٌ فِيْهِنَّ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ: السَّنا والسنوات) فأشار إلى ثلاثة أدوية وذكر اثنين، فدل أن السنوات مركب من دوائين. واستعماله بأن يخلط السنا مدقوقاً بالعسل المخالط للسمن ثم يلعق فيكون أصلح من استعماله مفرداً لما في العسل والسمن من إصلاح السنا وإعانتته على الإسهال.

(١) في رواية: (مَنْ أَكَلَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةٍ مِمَّا بَيْنَ لَابَتِي الْمَدِينَةِ عَلَى الرَّيِّقِ حِينَ يُصْبَحُ؛ لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ أَكَلَهَا حِينَ يُمْسِي؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يُصْبَحَ)، وَاللَّابَتَانِ: هُمَا الْحَرَّتَانِ، وَالْمَدِينَةُ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ، وَ(الْحَرَّةُ): الْأَرْضُ الْمُتَبَسَّةُ حِجَارَةً سَوْدَاءَ. وفي رواية: (فِي عَجْوَةِ الْعَالِيَةِ أَوَّلُ الْبُكَرَةِ عَلَى الرَّيِّقِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سِحْرٍ أَوْ سُمٍّ) وَالْعَالِيَّةُ: مَا كَانَ مِنَ الْحَوَائِطِ مِنْ جِهَةِ الْمَدِينَةِ الْعُلْيَا مِمَّا يَلِي نَجْدًا، أَوْ السَّافِلَةُ مِنَ الْجِهَةِ الْأُخْرَى، مِمَّا يَلِي تِهَامَةَ، قَالَ الْقَاضِي: وَأَدْنَى الْعَالِيَةِ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ، وَأَبْعَدُهَا ثَمَانِيَةٌ مِنَ الْمَدِينَةِ. وَ(أَوَّلُ الْبُكَرَةِ) أَيُّ: فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ. وجاء في رواية: (الْعَجْوَةُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَفِيهَا شِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ). وتمر العجوة فيه شفاء من السموم. ومن طرق الاستشفاء به: أن تؤخذ من العجوة سبع تمرات فتدق بنواها ويدلك بها الموضع على البطن أو جهة القلب. وفي حديث: (خَيْرُ تَمَرَاتِكُمُ الْبَرْنِيُّ يُذْهِبُ الدَّاءَ، وَلَا دَاءَ فِيهِ) وَالْبَرْنِيُّ: ضَرْبٌ مِنَ التَّمْرِ، أَحْمَرٌ مُشْرَبٌ بِصُفْرَةٍ، كَثِيرُ اللَّحَاءِ، عَذْبُ الْحَلَاوَةِ. والرطب عمومًا مفيدة للحامل والنفساء، ومن لا تجد رطباً فتمر مبلول.

(٢) قال الحليمي: «إِنَّهُ ﷻ قَالَ فِي الْبَقَرِ ذَلِكَ؛ لِيُتَّسَ الْحِجَازُ، وَيَبُوسَةَ لَحْمِ الْبَقَرِ مِنْهُ، وَرُطُوبَةُ أَلْبَانِهَا وَسَمْنُهَا».

(٣) الكُمَاة وتسمى: (الفقع)، وتسميها العرب: نبات الرعد؛ لأنها تكثر بكثرتة، وتنفطر عنها الأرض، وهي تشبه البطاطس وليس لها شجرة. وهي من أطعمة أهل البوادي، وتكثر بأرض

أَكْحَالِكُمْ؛ يَجْلُو الْبَصِرَ وَيَنْبِت الشَّعْرَ»^(١). «إِذَا اكْتَحَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَكْتَحِلْ وَتَرَا»، و«إِذَا اشْتَكَى عَيْنَيْهِ وَهُوَ مُحْرِمٌ؛ ضَمَدَهُمَا بِالصَّبْرِ».

«شَفَاءُ عِرْقِ النِّسَاءِ»^(٢): إلية شاة أعرايية تذاب ثم تجزأ ثلاثة أجزاء، ثم يشرب على الريق في كل يوم جزء». «التَّلْبِينَةُ»^(٣) مُجِمَّةٌ^(٤) لِفَوَادِ الْمَرِيضِ، تَذْهَبُ بَبَعْضِ الْحُزَنِ»^(٥). «عليكن بهذا العود الهندي فإن فيه سبعة أشفية»^(٦)،

العرب، وأجودها ما كانت أرضها رملية قليلة الماء. وقيل: سبب تكونها من اختلاط غاز احتراق البرق مع ماء المطر مع توافق مادة التربة. وللإفادة منها: تقشر وتسلق قليلاً ثم تعصر ويجمع ماؤها في قارورة ويكتحل به لشفاء العين، أو تشوى ويستقطر ماؤها. ويمكن عجن الإثمد بماء الكمأة لتعظيم الفائدة الشفائية.

(١) يفضل الاكتحال بالإثمد قبل النوم، والأفضل أن يضاف له قليل من المسك أو من ماء الكمأة. كما أن النظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري يقوي البصر. ولا تمس العين باليد مباشرة، وإنما تكون اليد مبلولة بالماء لتغسل العين.

(٢) (عِرْقُ النِّسَاءِ): وَجَعٌ يَبْدَأُ مِنْ مَفْصِلِ الْوَرَكِ وَيَنْزِلُ مِنْ خَلْفٍ عَلَى الْفَخْذِ، وَرُبَّمَا عَلَى الْكَعْبِ، وَكُلَّمَا طَالَتْ مُدَّتُهُ زَادَ نَزْوُهُ، وَتَهْزُلُ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالْفَخْذُ، وَالنِّسَاءُ: ويريد يمتد على الفخذ.

(٣) التلبينة: طعام يتخذ من دقيق أو نخالة وربما جعل فيها عسل، وسميت بذلك لشبهها باللبن في البياض والرقّة، والنافع منه ما كان رقيقاً نضيجاً، لا غليظاً نيئاً.

(٤) المجمة: مكان الاستراحة، وجم الفرس: إذا ذهب إعياءه. والمعنى: أنها تريح فؤاده، وتزيل عنه الهم وتنشطه.

(٥) وكانت عائشة ؓ إذا مات الميت من أهلها، فاجتمع لذلك النساء ثم تفرقن إلا أهلها وخاصتها، أمرت ببرمة (قدر) من تلبينة فطبخت، ثم صنع ثريد (وهو أن يخلط اللحم والخبز المفتت مع المرق) فصبت التلبينة عليها، ثم قالت: كلن منها، فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «التلبينة مجمة لفؤاد المريض، وتذهب ببعض الحزن». وتقول: هو البغيض النافع (أي: يبعثه المريض مع كونه ينفعه كسائر الأدوية).

(٦) قال ابن حجر: «وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ السَّبْعَةُ أَصُولُ صِفَةِ التَّدَاوِي بِهَا، لِأَنَّهَا إِمَّا طَلَاءٌ، أَوْ شَرْبٌ، أَوْ تَكْمِيدٌ، أَوْ تَنْطِيلٌ، أَوْ تَبْخِيرٌ، أَوْ سَعُوطٌ، أَوْ لَدُودٌ، فَالطَّلَاءُ يَدْخُلُ فِي الْمَرَاهِمِ، وَيَحَلَّى

يستعط^(١) به من العُدْرَة^(٢)، ويُلدُّ^(٣) به من ذات الجنب^(٤). «علام تعذبن أولادكن؟؛ إنما يكفي إحداكن أن تأخذ قُسطًا هنديًا فتحكه بماءٍ سبع مراتٍ ثم توجِّره إياه»^(٥). «الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء»^(٦). «إذا حُمَّ أحدكم فليُشْن^(٧) عليه الماء

بِالزَّيْتِ، وَيُلَطِّخْ، وَكَذَا التَّكْمِيدُ، وَالشَّرْبُ يُسْحَقُ وَيُجْعَلُ فِي عَسَلٍ أَوْ مَاءٍ أَوْ غَيْرِهِمَا، وَكَذَا التَّنْطِيلُ وَالسَّعُوطُ، يُسْحَقُ فِي زَيْتٍ وَيُقْطَرُ فِي الْأَنْفِ، وَكَذَا الدُّهْنُ وَالتَّبَخِيرُ وَاضِحٌ، وَتَحْتَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ السَّبْعَةِ مَنَافِعٌ لِأَدْوَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَلَا يُسْتَعْرَبُ ذَلِكَ مِمَّنْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ». فتح الباري (ج ١٦ / ص ٢٠٦).

(١) مأخوذ من السعوط، وهو ما يصب في الأنف، بأن يدق العود ناعمًا، ويدخل في الأنف. أو بيل ويقطر فيه.

(٢) العُدْرَة هي: اللهاة. فالقسط الهندي علاج لالتهاب اللوزتين سعوطًا أو شربًا بماء. فلا تقطع اللهاة ولكن تعالج بالقسط الهندي.

(٣) اللد: صب الدواء في أحد شقي الفم.

(٤) مرض ذات الجنب - المعروف عند الأطباء اليوم - هو التهاب يصيب الجنبَة أو البلورا، وهي غشاء مزدوج الطبقة يحيط بالرتتين ويفصلهما عن جدار الصدر. ومن علاماته الوجع تحت الأضلاع وضيق النفس مع ملازمة الحمى والسعال، وهو في النساء أكثر.

(٥) الوجور: الدواء يوجر في وسط الفم، وتوجر الدواء: بلعه شيئًا بعد شيء، والرجل إذا شرب الماء كارهًا فهو التوجر والتكاره. وفي رواية: «ثم تسعطه إياه». يعني عن طريق الأنف.

(٦) كانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها إذا أتيت بالمرأة قد حمت؛ تدعو لها، وأخذت الماء فصبته بينها وبين جيبها، وقالت: «كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نبردها بالماء». ولا يجوز سب الحمى، وهي تنفي الذنوب.

(٧) أي: فليرش عليه منه رَشًا متفرقًا. قال في النهاية: والشن بالمعجمة الصب المنقطع. والسن - بالمهمله -: الصب المتصل. وهو يؤيد رواية المعجمة. وبما يؤيد به أيضا أن أسماء بنت الصديق رضي الله عنها كانت ترش على المحموم قليلاً من الماء بين ثديه وثوبه، وهي لملازمتها للمصطفى ﷺ داخل بيته أعلم بمراده. وقال العسكري: بمهمله، وقال: بمعجمة. (ثلاث ليال من) أي: في (السَّحَر) بفتح السين، أي: قبيل الصبح؛ فإنه ينفع في فصل الصيف في القُطَر الحار في الحمى العرضية.

البارد ثلاث ليالٍ من السحر»، «الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، فَأَبْرَدُوهَا بِالمَاءِ»^(١). «لَا يُورَدَنَّ مُمَرِّضٌ عَلَى مُصِحٍّ»^(٢). «لَا تُدِيمُوا النَّظَرَ إِلَى الْمَجْدُومِينَ»^(٣)، «فِرٌّ مِنْ الْمَجْدُومِ فَرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ». «الطَّاعُونُ»^(٤) رَجَزٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، ثُمَّ بَقِيَ مِنْهُ بَقِيَّةٌ، فَيَذْهَبُ الْمَرَّةَ وَيَأْتِي الأُخْرَى، غُدَّةٌ^(٥) كَغُدَّةِ الْبَعِيرِ يَخْرُجُ فِي الْمَرَاقِ^(٦) والإبط، فإذا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِ، وإذا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَارًا مِنْهُ». «الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ».

«غَطُّوا الْإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السِّقَاءَ، فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ لَا يَمُرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ غِطَاءٌ أَوْ سِقَاءٌ لَيْسَ عَلَيْهِ وَكَاءٌ؛ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَبَاءِ»^(٧). «إذا وقع الذباب في طعام أحدكم أو شرابه فليغمسه كله فيه ثم لينزعه، فإن في إحدى جناحيه داء والأخرى شفاء، وإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء، فليغمسه كله، فيذهب شفاؤه بدائه»^(٨).

(١) وفي رواية: (بِمَاءٍ زَمْزَمَ).

(٢) الْمُمَرِّضُ: صاحب الإبل المراض، والمُصِحُّ: صاحب الإبل الصحاح، فمعنى الحديث: لا يورد صاحب الإبل المراض إبله على إبل صاحب الإبل الصحاح؛ لأنه ربما أصابها المرض بفعل الله تعالى وقدره الذي أجرى به العادة لا بطبعها، فيحصل لصاحبها ضرر بمرضها. وكان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه رسول الله ﷺ: أن ارجع، فإننا قد بايعناك.

(٣) الجذام: علة رديئة تحدث من انتشار المَرة السوداء في البدن كله، فتفسد مزاج الأعضاء حتى تتآكل وتجنم الأصابع وتقطعها.

(٤) جاء في رواية قال: (وخز أعدائكم من الجن).

(٥) الغدة: الورم في الجسد، وهو قطعة صلبة يركبها الشحم، تكون في العنق وغيره.

(٦) المراق: ما سفلى من البطن فما تحته من المواضع التي ترق جلودها.

(٧) قال الليث: فالأعاجم عندنا يتقون ذلك في كانون الأول (ديسمبر).

(٨) ومن الأمور النافعة لحفظ الصحة: أن يتجنب تناول الطعام أو الشراب وهو شديد السخونة، وكذلك الماء المغلي وهو ساخن، إلا ما كان فيه غسل. والمريض من الحمى في طور النقاهة والحفاظ على مناعته قد يمنع من الرطب والتمر والحلو، والمريض من الرمد يمنع من الإكثار

«لا تكرهوا مرضاكم على الطعام، فإن الله يطعمهم ويسقيهم»^(١).

منها ولا يزيد على سبع تمرات، وقد يكون السفر من أسباب الصحة. ومن الأدوية المفيدة: الثفاء (حب الرشاد) والكندر (اللبان)، والحلبة مفيدة جدًا، ويمكن أن تؤكل مطبوخة بالتمر أو العسل أو التين. ويطبخ معها سمن بقري لعلاج الخاصرة والكلى. وماء الحلبة المغلي يعالج الجلد المتشقق والتهاب الحلق واللوزتين، والبصل والكراث والثوم والليمون مقاومة لكثير من الأمراض. والصبر مفيد جدًا وهو سائل لزج مُر يستخرج من النبات المعروف حديثًا باسم: الصبار - بتشديد الباء -، علمًا أن اسم (الصبار) قديمًا - بتخفيف الباء - يطلق على التمر الهندي. وقد يتأثر لون البول من الصبغ بالحناء أو أكل الشمندر والزعفران وغيرها، وكان قدماء الأطباء يفحصون البول، وقد روي فحص البول عن مالك وعمر بن عبدالعزيز والزهري.

(١) من خلاصة ما نصح به قدماء الأطباء قولهم: لَا تَشْرَبِ الدَّوَاءَ إِلَّا مِنْ عِلَّةٍ، وَلَا يَتَعَلَّجَنَّ أَحَدُكُمْ مَا احْتَمَلَ بَدَنُهُ الدَّاءَ. وَاسْتَدِيمُوا الصَّحَّةَ بِتَرْكِ التَّكَاسُلِ عَنِ التَّعَبِ. وَلَا تَحْسِبِ الْبَوْلَ، فَإِنْ طَوَّلَ الْمُكْثُ فِي الْمَخْرَجِ يُؤَلِّدِ الدَّاءَ الدَّوِيَّ. وَلَا يَنْمَ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَعْصِ نَفْسَهُ عَلَى الْخَلَاءِ، وَإِيَّاكَ وَالنَّوْمَ الْكَثِيرَ، وَلَا يَنْمَ مَنْ بِهِ زُكْمَةٌ عَلَى قَفَاهُ، وَالنَّوْمُ عَلَى الْفَقَا يَضُرُّ الذَّهْنَ، وَلَا يَنْمَ صَاحِبُ الْحُمَّى الْبَارِدَةِ فِي الشَّمْسِ. وَمَنْ أَرَادَ الصَّحَّةَ، فَلْيَجُودِ الْغِذَاءَ، وَالْإِفْلَاحَ مِنَ الضَّارِّ خَيْرٌ مِنَ الْإِكْثَارِ مِنَ النَّافِعِ. وَعَلَيْكَ بِالْعَسَلِ مِنَ الدَّخَالِ وَالزَّيْتِ مِنَ الْخَارِجِ، وَلَا تَأْكُلْ مِنَ الْفَاكِهَةِ إِلَّا فِي أَوَانٍ نَضَجَهَا، وَلَا تَأْكُلْ مِنَ اللَّحْمِ إِلَّا فَتِيًّا، وَلَا تَأْكُلْ فِي الصَّيْفِ لَحْمًا كَثِيرًا، وَمَنْ شَرِبَ كُلَّ يَوْمٍ فِي الشِّتَاءِ قَدَحًا مِنْ مَاءٍ حَارًّا؛ أَمِنَ مِنَ الْأَعْلَالِ، وَلَا تَقْرَبِ الْبَاذِنَجَانَ الْعَتِيقَ الْمُبَرَّرَ. وَمِمَّا يَقْوِي الْجِسْمَ: لُبْسُ الثَّوبِ النَّاعِمِ وَلُبْسُ الْكُتَّانِ وَتَخْفِيفُ الرِّدَاءِ، وَدُخُولُ الْحَمَامِ الْمَعْتَدِلِ، وَأَكْلُ اللَّحْمِ وَأَكْلُ الطَّعَامِ الْحَلْوِ الدَّسَمِ، وَشَمُّ الرَّوَائِحِ الطَّيِّبَةِ، وَكَثْرَةُ الْغُسْلِ مِنْ غَيْرِ جَمَاعٍ. وَأَرْبَعَةٌ تَفْرِحُ: النَّظَرُ إِلَى الْخَضِرَةِ، وَإِلَى الْمَاءِ الْجَارِي، وَالْمَحْبُوبِ، وَالنَّمَارِ. وَمِمَّا يُوْهِنُ الْبَدَنَ وَيَمْرُضُهُ: كَثْرَةُ الْجَمَاعِ، وَكَثْرَةُ الْهَمِّ، وَكَثْرَةُ شُرْبِ الْمَاءِ عَلَى الرَّيْقِ، وَكَثْرَةُ أَكْلِ الْحَامِضِ، وَالْكَلَامِ الْكَثِيرِ، وَالْأَكْلُ الْكَثِيرِ، وَالنَّوْمُ الْكَثِيرُ، وَالْحُزْنُ، وَالْجُوعُ، وَالسَّهَرُ، وَالْغَبَارُ، وَالِدُخَانُ، وَالنَّتْنُ، وَالتَّخَلُّلُ بِالرَّيْحَانِ. وَعَلَيْكُمْ بِتَنْظِيفِ الْمَعْدَةِ فِي كُلِّ شَهْرٍ، فَإِنَّهَا مُذْيِبَةٌ لِلْبَلْغَمِ، مَهْلِكَةٌ لِلْمَرَّةِ، مُنْبِتَةٌ لِلْحَمِّ، وَعَلَيْكَ فِي كُلِّ أَسْبُوعٍ بِقِيَّتِهِ تَنْقِي جِسْمَكَ، وَعَلَيْكَ بِالْقِيَّةِ فِي الصَّيْفِ، وَلَا يَتَفَيَّأُ مَنْ تَوَلَّاهُ عَيْنُهُ، وَلَا تَحْسِبْ فِي الْمَعْدَةِ طَعَامًا تَأْدِيَتْ بِهِ. وَعَلَيْكَ



بُدْخُولِ الْحَمَّامِ (مكان الاغتسال) فَإِنَّهُ يُخْرِجُ مِنَ الْأَطْبَاقِ مَا لَا تَصِلُ الْأَدْوِيَةُ إِلَى إِخْرَاجِهِ،
وَمَرَّةً فِي الصَّيْفِ خَيْرٌ مِنْ عَشْرِ فِي الشِّتَاءِ، وَخُذْ مِنَ الْحَمَّامِ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْكَ، وَمَنْ ذَلِكَ
جِسْمُهُ فِي الْحَمَّامِ بِقُشُورِ الرُّمَّانِ أَمِنْ مِنَ الْجَرَبِ وَالْحَكَّةِ، وَالْإِغْتِسَالُ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ بَعْدَ أَكْلِ
السَّمَكِ الطَّرِيِّ يُؤَلِّدُ الْفَالِجَ، وَأَكْلُ الْمُلُوحَةِ وَالسَّمَكِ الْمَالِحِ وَالْإِفْتِصَادُ بَعْدَ الْحَمَّامِ يُؤَلِّدُ
الْبَهَقَ وَالْجَرَبَ. وَدُخُولُ الْحَمَّامِ عَقِيبَ الْإِمْتِلَاءِ؛ يَهْدِمُ الْبَدَنَ وَقَدْ يَصِيبُ بِالْفَالِجِ. وَنَعَمْ
الْكَنْزُ الدَّمُ فِي جَسَدِكَ، فَلَا تُخْرِجْهُ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَإِيَّاكَ وَالْفُصْدَ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ،
وَلَا يُسْرِعِ الْمَشْيَ مَنْ افْتَصَدَ، فَإِنَّهُ مُخَاطَرَةُ الْمَوْتِ، وَمَنْ افْتَصَدَ، فَأَكَلَ مَالِحًا فَأَصَابَهُ بَهَقٌ أَوْ
جَرَبٌ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

علاج العين والسحر والاستشفاء بالرقى

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود»^(١). «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ، فَلْيَدْعُ بِالْبَرَكَةِ». فيُشْرَعُ لِمَنْ وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى شَيْءٍ يَعْجِبُهُ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ أَهْلِهِ أَوْ غَيْرِهِ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى فيقول: «تبارك الله» أو «اللهم بارك عليه» أو «اللهم بارك له» أو «تبارك الله أحسن الخالقين» وكذلك قول: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله».

وفي الحديث: «اسْتَعِذُوا بِاللَّهِ؛ فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا»^(٢).

(١) نعم الله فيها حكمة الله، وفتنة للناس واختبار شكرهم وطاعتهم، فتكون منه وتكون جزاءً أو استدراجاً. والحسد: استكثار النعمة على المنعم عليه مع تحرق القلب وعدم استحضرار وذكر لفضل المنعم وحكمته وبركته، ومنه (العين) التي قد تكون بتحرق القلب أو بإعجابه. ومن الفروق بين الحسد والعين:

١ - أن مصدر الحسد: تحرق القلب واستكثار النعمة على المحسود وتمني زوالها عنه أو عدم حصولها، أما العين فقد تكون كذلك، وقد تكون بسبب الإعجاب، لذا فقد يصيب العائن بعينه جماداً أو حيواناً أو زرعاً أو مالاً، وربما أصابت عينه أحد أبنائه أو أهله أو نفسه.

٢ - الحاسد يمكن أن يحسد في الأمر المتوقع قبل وقوعه، بينما العائن لا يعين إلا الموجود بالفعل.

٣ - أن الحاسد تتكيف نفسه وتتوجه لمن حسده سواء في حضرته أو غيبته، أما العائن فإن نفسه تتكيف عند مقابلة المعين ومعاينته.

(٢) قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمته الله تعالى: «وقد جربنا أن غسل الوجه والمضمضة وغسل اليدين وحده يكفي في إزالة العين؛ إذا اتهم إنسان بعين ولو لم يغتسل». وَإِنَّمَا يُسْتَرْقَى مِنْ

وَقَد رَأَى عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ يَغْتَسِلُ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ مُخْبَأَةٍ، فَلَبِطَ سَهْلٌ، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَكَ فِي سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ؟ وَاللَّهِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «هَلْ تَتَّهَمُونَ لَهُ أَحَدًا؟» قَالُوا: نَتَّهَمُ عَامِرَ بْنَ رَبِيعَةَ، قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامِرًا فَتَغَيَّطَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ، أَلَا بَرَكْتَ؟! اغْتَسِلْ لَهُ». أَوْ قَالَ: تَوَضَّأَ لَهُ. فَغَسَلَ عَامِرٌ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، وَرُكْبَتَيْهِ وَأَطْرَافِ رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ (طرفه الذي يلي الجسد) فِي قَدَحٍ، ثُمَّ صَبَّ ذَلِكَ الْمَاءَ عَلَيْهِ، يَصُبُّهُ رَجُلٌ عَلَى رَأْسِهِ وَظَهْرِهِ مِنْ خَلْفِهِ، يُكْفِي الْقَدَحَ وَرَاءَهُ، فَرَأَى سَهْلٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَيْسَ بِهِ بَأْسٌ. فَإِذَا عُرِفَ الَّذِي أَصَابَهُ بِعَيْنِهِ فَإِنَّهُ يُؤْمَرُ بِالْوُضُوءِ أَوْ الْاِغْتِسَالِ لِلْمَصَابِ.

وطريقة اغتسال العائن التي شرحها العلماء هي: أَنْ يُؤْتَى بِقَدَحٍ مَاءٍ، وَلَا يُوضَعُ الْقَدَحُ عَلَى الْأَرْضِ أَثْنَاءِ الْاِغْتِسَالِ، فَيَأْخُذُ غَرْفَةً فَيَتَمَضَّمُضُ، ثُمَّ يَمَجُّهَا فِي الْقَدَحِ، ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْهُ مَا يَغْسِلُ بِهِ وَجْهَهُ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِشِمَالِهِ مَا يَغْسِلُ بِهِ كَفَّهُ الْيُمْنَى، ثُمَّ بِيَمِينِهِ مَا يَغْسِلُ بِهِ كَفَّهُ الْيُسْرَى، ثُمَّ بِشِمَالِهِ مَا يَغْسِلُ بِهِ مِرْفَقَهُ الْيُمْنَى، ثُمَّ بِيَمِينِهِ مَا يَغْسِلُ بِهِ مِرْفَقَهُ الْيُسْرَى وَلَا يَغْسِلُ مَا بَيْنَ الْمِرْفَقَيْنِ وَالْكَفَّيْنِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَهُ الْيُمْنَى، ثُمَّ الْيُسْرَى، ثُمَّ رُكْبَتَهُ الْيُمْنَى، ثُمَّ الْيُسْرَى عَلَى الصِّفَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي الْقَدَحِ، ثُمَّ يَغْسِلُ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ - وهو الطرف من ثوبه الذي يلي حقوه (خصره) الْيُمْنَى - وذلك بغمسه في القَدَحِ، وَإِذَا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ؛ صَبَّهُ مِنْ خَلْفِهِ عَلَى رَأْسِهِ [فَجَأَةً أَوْ بَغْتَةً] صَبَةً وَاحِدَةً يَجْرِي عَلَى جَسَدِهِ، ثُمَّ يَكْفَأُ (يَقْلِبُ) الْقَدَحَ وَرَاءَ الْمَصَابِ عَلَى الْأَرْضِ.

الْعَيْنُ إِذَا لَمْ يُعْرِفِ الْعَائِنُ أَوْ تَعَذَّرَ اِغْتِسَالُهُ لِلْمَصَابِ. وَقِيلَ: يُمْكِنُ أَنْ يُوْخَذَ الْأَثَرُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ مَسَّهُ الْعَائِنُ مِنْ رِيْقٍ أَوْ عَرَقٍ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ رَائِحَةُ الْعَائِنِ لِكَيْ تَطْرُدَ شَيْطَانَهُ الْمَتَسَلِّطَ عَلَى الْمَعِينِ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَيُوْخَذُ مِثْلًا: بِقَايَا أَكْلِهِ أَوْ شَرْبِهِ أَوْ مَا مَسَّهُ جَسَدُهُ مِنَ الْمَبَاحَاتِ.. كَمَسْحِ مَقْبُضِ الْبَابِ وَلَوْ لِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّهَا نَافِعَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ كَمَا هُوَ بِالتَّجَرُّبَةِ، وَلَا يَكْرُرُ اخْتِذَ الْأَثَرِ.

وجاء في الحديث: «الْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ، وَتُدْخِلُ الْجَمَلَ الْقَدْرَ»^(١).

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةٌ - وَهِيَ: شُحُوبٌ وَسَوَادٌ أَوْ تَغْيِيرٌ - فَقَالَ: (اسْتَرْقُوا لَهَا، فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ). أَيْ: أُصِيبَتْ بِالْعَيْنِ. قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ: «قال الحسين بن مسعود الفراء: وقوله: (سفعة) أي (نظرة) يعني: من الجن، يقول: بها عين أصابتها من نظر الجن أنفذ من أسنة الرماح». ويجب في الرقية: إخلاص النية من الراقي والمرقي، وأن يعتقد كل منهما أن الشفاء من عند الله، وأن الرقية بكلام الله سبب من الأسباب النافعة وأنها لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله

(١) وفي الحديث: (أَكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمَّتِي - بَعْدَ فَصَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ - بِالْعَيْنِ). قيل إنما صار هكذا لأن هذه الأمة أيدت باليقين وفضلت به، وطريقهم إلى الله تعالى واسعة، فطولوا بما فضلوا أن ينسبوا كل شيء يستحسنونه إلى خالقه ويبركوا، فيقولوا: تبارك الله، فإذا تركوا ذلك إعجاباً بذلك الشيء تهافت ذلك الشيء وذهب حسنه وهلك.

ويذكر بعض المشتغلين بالرقية أنه قد يكون للعين أعراضٌ جسمية عادة ما تظهر قبل القراءة أو أثناء الرقية الشرعية، ومنها:

صفار الوجه وشحوبة، وشعور المصاب بضيق شديدة في منطقة الصدر، أو صداع متنقل، مع الشعور بزيادة الصداع أثناء الرقية الشرعية، أو الشعور بالحرارة الشديدة، أو تصبب العرق، خاصة في منطقة الظهر، ويتبع ذلك عادة قوة العين، أو ألم شديد في الأطراف، أو التثاؤب المستمر بشكل غير طبيعي وملفت للنظر، وكذلك البكاء أو تساقط الدموع دون سبب واضح. وقد تظهر أعراض التثاؤب المستمر وتساقط الدموع لدى بعض المعالجين أو غيرهم نتيجة الرقية إن كانت الحالة المعالجة مصابة بالعين والحسد، وأكثر ما يظهر ذلك مع بعض النساء المعالجات، وكذلك ارتجاف الأطراف وتحركات غير إرادية وذلك بحسب قوة العين وشدتها، أو خفقان القلب، أو توتر العضلات، أو الشعور بالخمول بشكل عام وعدم القدرة على القيام بالعمل، أو الشعور ببرودة في الأطراف أحياناً، أو ظهور كدمات مائلة إلى الزرقة أو الخضرة دون تحديد أسباب طبية. وقد تؤثر العين من الناحية الاجتماعية على المصاب من خلال علاقاته بالآخرين، ومن بعض تلك المظاهر: فقدان التجارة والمال، أو الكره والبغض من الأهل والأصدقاء والمعارف، أو فقدان المنصب والوظيفة والعمل.

تعالى. ومن شروط الرقية أن تكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته أو بما أثر عن النبي ﷺ من التعوذات، وأن تكون بلسان عربي مبين، أو بما يُعرف معناه، وأن لا تكون بهيئة محرمة أو بدعية كأن تكون في الخلاء مثلاً أو في مقبرة.

والمسلم إذا أصيب بمرض فإنه يسأل الله الشفاء ويستشفى بالقرآن والرقية الشرعية والتطبب والتداوي بالأدوية الطبية لدى من يثق في علمهم وطبهم فيجمع بين العلاج المادي والعلاج الروحي بالقرآن والأدعية والأذكار والرقية، وينبغي تقوية نفس المصاب للتغلب على ما يتسلط عليه من مؤثرات مادية أو روحية.

ويستحسن في الرقية الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والتسمية وحمد الله والثناء عليه بتوحيده وتمجيده، والصلاة والسلام على رسول الله، ودعاء الراقي لنفسه وللمريض بأسماء الله وصفاته، وباسمه الأعظم. ووضع يد المعالج على المكان الذي يألم منه المريض أو على رأسه، وبعد الانتهاء من الرقية الشرعية من الكتاب والسنة، يجمع المعالج كفيه وينفث أو يتفل بهما ويمسح وجه المريض وما يلي جسده، وأما بالنسبة للنساء فيأمكن المعالج النفث أو التفل في كفي محرمها، بحيث يقوم المحرم بمسح وجهها وما يلي جسدها.

ويتجنب سؤال المريض أو أمره بتخيل صورة من أصابه بعين أو سحر أو نحو ذلك، حيث قد يحصل ذلك من عمل الشيطان وتليسه. ويمكن النفث في الماء والزيت ونحوه، ولا مانع من قراءة أكثر من قارئ ونفثهم في نفس الإناء أو القارورة. ويمكن أن تكون الرقية بدون نفث، ويمكن أن تكون بذكر الله مع خلط الريق بالتراب.

ولا شك أن رقية المصاب لنفسه أفضل إن كان يمكنه. وفي الحديث: «بِسْمِ اللَّهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةٍ بَعْضِنَا، لِيُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا». والمعنى: إذا اشتكى الإنسان الشيء منه، أو كانت به قرحة أو جرح؛ فيأخذ من ريق نفسه على أصبعه السبابة، ثم

يضعها على التراب، فيعلق بها منه شيء، فيمسح به على الموضع الجريح أو العليل، ويقول هذا الكلام في حال المسح، والله أعلم.

وفي الحديث: «مَا لَصِيْبِكُمْ هَذَا يَبْكِي؟ هَلَّا اسْتَرْقَيْتُمْ لَهُ مِنَ الْعَيْنِ»^(١). وفي الحديث: «أُعِيدُكُمْ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ»^(٢).

والشيطان: هو الشرير من الجن، وقد يطلق على من يفعل أفعالاً مشينة من الناس. ويجوز أن يدخل شيطان الجن في الناس، لأن أجسام الجن رقيقة، فليس بمتنكر أن يدخلوا في جوف الإنسان من خروقه كما يدخل الماء والطعام في بطن الإنسان وهو أكثف من أجسام الجن، وقد يكون الجنين في بطن أمه وهو أكثف جسمًا من الشيطان.

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ويجوز أن يُكتب للمصاب وغيره من المرضى شيئاً من كتاب الله وذكره بالمداد المباح، ويغسل ويسقى، كما نص على ذلك أحمد وغيره». ولا يتبخر بالشب والأعشاب أو الأوراق وغيرها من إصابة العين لأنها ليست من الأسباب العادية لعلاج العين، وقد يكون المقصود بهذا التبخر استرضاء شياطين الجن والاستعانة بهم على الشفاء، وإنما يُعالج ذلك بالرقى الشرعية ونحوها مما ثبت في الأحاديث الصحيحة. وجاء في العلوم الحديثة أن الريق والظفر والشعر ترسل ذبذبة خاصة من جسم صاحبها حتى ولو انفصلت عنه وهو ما يعرف بعلم «راديونيك» ويتفرع منه الموجه الذاتية، وهو علم يُستخدم في التشخيص والعلاج الطبي، وله مدارس متعددة في كل من بريطانيا وألمانيا وفرنسا وأمريكا، وثبت أن لكل إنسان موجه «ذبذبة» خاصة لا تشبه أي إنسان آخر كالبصمة تمامًا في تميزها، وكل ما ينفصل عن الإنسان من شعر أو ظفر أو ريق أو عرق أو دم يحمل معه هذه الموجه الخاصة! ولا يبطل هذه الموجه إلا إتلاف هذه الأشياء المنفصلة أو دفنها، وهذا ما يفعله عامة الناس وهو حسن وإن لم يرد به نص لأنه من إكرام الإنسان وأيضًا يقطع تلك الذبذبة حتى لا يستفيد منها السحرة.

(٢) كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَوِّذُ بِهَا الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ. والهامة: كل ذات سم يقتل، والجمع: الهوام، فأما ما يَسُمُّ ولا يقتل فهو السامة كالعقرب والزبور، وقد يقع الهوام على ما يدبُّ من الحيوان وإن لم يقتل كالحشرات، واللامّة: أي ذات لمم وهي كل داءٍ وآفة تُلَمُّ بالإنسان من خبل وجنون ونحوهما، وقيل: العين اللامّة: التي تصيب بسوء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن دخول الجنى بدن الإنسى وتكلمه على لسانه بأنواع من الكلام وغير ذلك؛ أمر قد علمه كثير من الناس بالضرورة وقد اتفق عليه أئمة الإسلام كما اتفقوا على وجود الجن». وفي الحديث: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾. أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخطب الشيطان له.

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: إن قومًا يزعمون أن الجنى لا يدخل في بدن الإنسى، فقال: يا بني، يكذبون هو ذا يتكلم على لسانه.

قال الشيخ ابن باز: «وهذا الذي قاله أمر مشهور، فإنه يصرع الرجل فيتكلم بلسان لا يعرف معناه، ويضرب على بدنه ضربًا عظيمًا لو ضرب به جمل لأثر به أثرًا عظيمًا، والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب ولا بالكلام الذي يقوله، وقد يجبر المصروع غير المصروع، ويجبر البساط الذي يجلس عليه ويحول الآلات، وينقل من مكان إلى مكان، ويجري غير ذلك من الأمور من شاهدها أفادته علمًا ضروريًا بأن الناطق على لسان الإنسى والمحرك لهذه الأجسام جنس آخر غير الإنسان».

وقال الإمام ابن القيم: «الصرع صرعان: صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية، وصرع من الأخلاط الرديئة، والثاني: هو الذي يتكلم فيه الأطباء في سببه وعلاجه. وأما صرع الأرواح: فأئمتهم وعقلاؤهم يعترفون به ولا يدفعونه».

وجاء في الأحاديث ما يدل على إمكان تلبس شيطان الجن بالإنس، فعن يعلى بن مرة الثقفي رحمه الله قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ معها صبي لها به لمم فقال النبي ﷺ: «أخرج عدو الله، أنا رسول الله»، قال: فبرأ، فأهدت إليه كبشين وشيئًا من أقط وشيئًا من سمن، فقال رسول الله ﷺ: «خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين، وردّ

عَلَيْهَا الْآخَرِ». وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا اسْتَعْمَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الطَّائِفِ، جَعَلَ يَعْزِضُ لِي شَيْءٌ فِي صَلَاتِي، حَتَّى مَا أَذْرِي مَا أَصْلِي، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ رَحَلْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «ابْنُ أَبِي الْعَاصِ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَرَضَ لِي شَيْءٌ فِي صَلَوَاتِي حَتَّى مَا أَذْرِي مَا أَصْلِي، قَالَ: «ذَاكَ الشَّيْطَانُ، اذْنُهُ»، فَذَنُوتُ مِنْهُ فَجَلَسْتُ عَلَى صُدُورِ قَدَمَيَّ، فَضَرَبَ صَدْرِي بِيَدِهِ، وَتَفَلَ فِي فَمِي وَقَالَ: «اخْرُجْ عَدُوَّ اللَّهِ»، فَفَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «الْحَقُّ بِعَمَلِكَ». قَالَ عُثْمَانُ: فَلَعَمْرِي مَا أَحْسِبُهُ خَالَطَنِي بَعْدُ. وَفِي رَوَايَةٍ: «فَمَا نَسِيتُ مِنْهُ شَيْئًا بَعْدَ أَحْبَبْتُ أَنْ أَذْكُرَهُ».

وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا اسْتَكَيْتَ مِنْ وَجَعٍ؛ فَضَعْ يَدَكَ الْيَمْنَى عَلَى الَّذِي تَأْلَمُ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ - ثَلَاثًا - وَامْسَحْهُ بِيَمِينِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ وَقُلْ فِي كُلِّ مَسْحَةٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَازِرُ» ^(١). وَقُلْ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَالْمَعُودَتَيْنِ حِينَ تَمْسِي وَحِينَ تَصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ^(٢). وَمَنْ

(١) أَتَى جَبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اسْتَكَيْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ، أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، وَاللَّهُ يَشْفِيكَ. وَفِي رَوَايَةٍ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَكَى رَقَاهُ جَبْرِيلُ، فَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ يُبْرِيكُ، وَمِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي عَيْنٍ.

(٢) كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتِ الْمَعُودَتَانِ فَلَمَّا نَزَلَتَا، أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا. وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: لَدَعْتُ رَجُلًا مِنْهَا عَقْرَبٌ وَنَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ كَانَتْ عِنْدَنَا رُفِيَةٌ تَرْقِي بِهَا مِنَ الْعَقْرَبِ، وَإِنَّكَ نَهَيْتَ عَنِ الرُّقَى، فَقَالَ لَهُمْ: «اعْرِضُوا عَلَيَّ»، فَعَرَضُوهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: «لَا بَأْسَ بِهِدِهِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ».

وَلَدَعَتْ النَّبِيَّ ﷺ عَقْرَبٌ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْعَقْرَبَ، مَا تَدْعُ نَبِيًّا وَلَا غَيْرَهُ إِلَّا لَدَعَتْهُمْ، افْتُلُوها فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ». ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ وَمِلْحٍ، وَجَعَلَ يَمَسْحُ عَلَيْهَا وَيَقْرَأُ بِ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ^(١)، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ^(٢)، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ^(٣).

عَادَ مَرِيضًا، لَمْ يَحْضُرْ أَجْلُهُ فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مَرَارٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيكَ، إِلَّا عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ^(١). وَمَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ. وَإِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلْيُسَمِّ اللَّهَ، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا خَلَقَهُ بَعْدَهُ عَلَى فِرَاشِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْطَجِعَ، فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ وَلْيَتَوَسَّدْ يَمِينَهُ، وَلْيَقُلْ: «بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتَ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَأَرْحَمَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَأَحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ».

«إِذَا أُوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ». «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ».

«مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا سَقَمٍ وَلَا حَزَنٍ - حَتَّى الْهَمُّ يَهْمُهُ -؛ إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ».

وفي الصحيحين حديث المرأة السوداء التي أتت النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أَصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيَنِي، قَالَ: «إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيَكَ، وَإِنْ شِئْتَ

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوَّذَاتِ، وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُوفِّي فِيهِ، طَفِقَتْ أَنْفُثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوَّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفُثُ، وَأَمْسَحَ بِبِدِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ لِأَنَّهَا كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَهٍ مِنْ يَدِي». فيسن للمسلم أن يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث على يديه، ثم يمسح بهما وجهه وجسده.

(١) قوله: (إِلَّا عَافَاهُ اللَّهُ) استثناء من الشرطية العامة، فكأنه قال: «ما عاد أحد مريضاً وقال كذا إِلَّا عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ»، والحصص غالبى أو نسبي على شروط لا بد من تحققها، كذا في الحرز وفي حاشية سنن أبي داود للسيوطي. «الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية» (٤/ ٦٢). وسيأتي في الفصل التالي أسباب إجابة الدعاء ومنعه.

فأصبري، وَلَا حِسَابَ عَلَيْكَ»، قَالَتْ: بَلْ أَصْبِرُ، وَلَا حِسَابَ عَلَيَّ. ثُمَّ قَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ. فَدَعَا لَهَا.^(١)

وعلى الراقي أن يتجنب الرقية الجماعية أو القراءة الجماعية لمفاسدها، والرقية تكون من الراقي على المريض مباشرة، ولا تكون بواسطة مكبر الصوت ولا بواسطة الهاتف، وإن كان سماع القرآن عبرها فيه خير كثير، ويشترط في الراقي النية وهي غير متحققة في مثل هذه الأجهزة^(٢). قال ابن القيم: «النشرة: حل السحر عن المسحور،

(١) ذكر أهل الاختصاص أن حالات المرض النفسي يكون لها نمط معين في السلوك والتصرف، بينما صرع الأرواح الخبيثة ليس لها نمط أو سلوك محدد. كما أن حالات المرض النفسي غالباً ما تكون أعراضها مستمرة ومتناسبة مع نوعية المرض الذي تعاني منه الحالة المرضية، بينما مرضى صرع الأرواح الخبيثة تختلف تلك الأعراض وتتذبذب من فترة لأخرى. وأيضاً فإن حالات المرض النفسي لا يظهر عليها أية أعراض أثناء الرقية الشرعية، وقد يشعرون براحة وسكينة، بينما مرضى صرع الأرواح الخبيثة تظهر عليهم تأثيرات وأعراض نتيجة الرقية الشرعية. والأمراض النفسية قد تصيب الإنسان أحياناً نتيجة ظروف وعوامل اجتماعية مختلفة، بينما صرع الأرواح الخبيثة يكون نتيجة أسباب معينة كالإيذاء والسحر والعين والعشق ونحوه. ومن أسباب انتشار الأمراض النفسية والروحية بعد قضاء الله وقدره: ضعف الإيمان وقلة ذكر الله ودعائه والبعد عن القرآن وعدم الاهتمام بالصلاة وترك التحصن بالأوراد الشرعية وعدم الرضا بالقضاء والقدر وإهمال الرقية والتوبة مع الانغماس في المعاصي واللهو وعدم الصبر على المصائب وصعوبات الحياة، وتعلم السحر واتباع كلام السحرة والمشعوذين، ويضاف لذلك التنشئة والتربية الاجتماعية على تخويف الأطفال بالخرافات والأشباح والأكاذيب والمبالغة الشديدة في تخويفهم من الحسد والعين التي تلاحقهم في كل أمورهم. وأنه ينبغي كذلك الحذر من الخادמות اللاتي يأتين من بلاد يكثر فيها السحر والجهل؛ فبعضهن يأتين وقد غرّر بهن لعمل السحر من أجل تسخير أهل البيت أو إشغالهم وصرفهم، أو للانتقام من التسلط وكثرة العمل، أو للتقرب إلى الشياطين، وغير ذلك.

(٢) في حال مرض الإنسان نفسياً أو روحياً واستنفد الأطباء المختصون جهدهم ولم يشف

وهي نوعان: أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان. وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناصر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور. والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة. فهذا جائز». وأحياناً يمكن علاج المسحور بالعثور على ما فعله الساحر من عقد أو غيرها، وإتلافها، وهذا يكون بالبحث والتقصي ومعرفة أماكن إقامة وحركة المسحور ونحو ذلك مما يوصل حساً إلى العثور عليه، لا باستعمال الشياطين.

ومن الرقية الشرعية التي تستعمل في رقي المسحور وغيره: قراءة الفاتحة، وآية الكرسي، و«قل يا أيها الكافرون»، و«قل هو الله أحد»، والمعوذتين مع آيات السحر في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١٩﴾، وفي سورة

المريض، وغلب على الظن أن المريض مصابٌ بمس من الجن؛ فإن حضر الجني على المصاب فيؤمر بالخروج من بدن المصروع بدون ضرب ويبين له أن ذلك لا يحل له، فإن وافق فالحمد لله، وإن امتنع عن الخروج يتم نصحه بالترغيب والترهيب، فإن أصر؛ فيكون علاج المريض بالرقية، وبعض الجن يتعمد سباب وشتم الراقي حتى ينشغل بضربه وينصرف عن التركيز في قراءة الرقية. وإذا كان لابد من الضرب فلا بد أن يكون طرْقاً خفيفاً، وقت حضور الجني حضوراً كاملاً، ويضرب على الأكتاف والأرداف والأطراف، إن لم يكن المريض في جسده عملية جراحية أو جرح، والمرأة ليست بحامل، مع الاحتشام ووجود المحرم وعدم الخلوة بالنساء، ويمكن للمعالج أن يضع يده (مع الرجال والمحارم فقط) عند الرقية على أماكن لها تأثيرٌ شديدٌ على الجني حسب تجربة بعض الرقاة وهي: جانبي الجبهة (الصدغين)، وأوسط الرأس، وبين الحاجبين والأنف (جذر الأنف)، وفوق منطقة أوسط البطن، وبين الإبهام والسبابة أو يمسك السبابة، والضغط على الحاجبين، وخلف الأذن. ومن الأخطاء الشائعة الاعتقاد أن الشيطان يحترق بسماع القرآن، والصحيح أن من الجن من يسمتع القرآن وينشرح صدره لسماعه ويتنفع به كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ الآيات، ومنهم كفار لا يحبون سماع القرآن ولا ينتفعون به.

يونس: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ٧١﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾، وفي سورة طه: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخْبِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾، هذه الآيات العظيمة ينفث بها في الماء، - ويمكن أن يضيف في الماء سبع ورقات من ورق السدر الأخضر الرطب، يدقها بحجر أو نحوه - ثم بعد ذلك يصب هذا الماء الذي قرأ فيه على ماء أكثر، ثم يغتسل به المسحور ويشرب منه بعض الشيء، كثلث حسوات يشربها منه، ويزول السحر - بإذن الله - ويبطل ويعافى من أصيب بذلك.

ولا ينبغي للراقي ولا المريض أن يستبطئ الشفاء: لأن الرقية دعاء، وإذا استعجل الداعي الإجابة فإنه قد لا يستجاب له، وقد قال ﷺ: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لي». وقد تتكامل الأسباب من قراءة القرآن وتعاطي الأسباب الدوائية، ووجود الاستعداد عند المريض لتقبل العلاج القرآني أو الدوائي، ومع ذلك لا يشفى المريض! فليس لازماً أن يقع الشفاء، لأن فوق كل هذه الأسباب إرادة المسبب وهو الله ﷻ، وقد يشاء الله بقاء المريض مع تكامل الأسباب لحكمة يريد بها من تفويض الأمر لله، أو تمحيصاً لذنوب العبد، أو ابتلاءً له فيؤزعه ربُّه الصبر ويرفع به درجاته، أو لحكمة لا يعلمها العبد.



أسباب إجابة الدعاء ومنعه

جاء في أحاديث النبي ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، «لا يردُّ القدرُ إلاَّ الدعاء»، «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِيْثَمٌ وَلَا قِطِيعَةٌ رَحِمَ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشُّوْءِ مِثْلَهَا»^(١). «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ؛ يَقُولُ: دَعَوْتُ وَدَعَوْتُ وَلَا أَرَاهُ يُسْتَجَابُ لِي»، قال الله في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»^(٢). وقال النبي ﷺ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ»^(٣)، «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمَرَيْنِ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بُرَّهُ»، «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَيِّيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ». «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ، وَمَنْ سَأَلَكَمُ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ أَتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ؛ فَادْعُوا لَهُ، حَتَّى تَعْلَمُوا أَنَّ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»، «نَعَمْ دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾»، فإنه لم يدع بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطُّ

(١) فَقَالُوا: إِذَا نَكُثَرُ. يعني: من الدعاء. فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (اللَّهُ أَكْثَرُ)، أي: أكثر إجابة من دعائكم. والدعاء من القدر، وفيه دلالة أن الدعاء يرد الله به السوء مما هو مقدر على العبد، وفي الحديث: (لا يردُّ القدرُ إلاَّ الدعاء، ولا يزيدُ في العمرِ إلاَّ البرُّ)، والدعاء والبر كلاهما من القدر، ولا يخرج شيء عن قدر الله ﷻ.

(٢) وفي حديث عند الترمذي وغيره حسنه بعض العلماء وضعفه بعضهم: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٌ غَافِلٌ لَهُ».

(٣) وفي رواية: (على ولده).

إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ». وَ «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أُمْتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا». «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعِزَّزَ فِي الدُّعَاءِ فَإِنَّ اللَّهَ صَانِعُ مَا شَاءَ لَا مُكْرَاهَ لَهُ، وَلِيُعْظِمَ الرَّغْبَةَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ عَظَاهُ». قَالَ اللَّهُ ﷻ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ». وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ». «كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»، «قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْانْتِفَاعَ بِشُحُومِ الْمَيْتَةِ؛ جَمَلُوهُ^(١)، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ»، وَ «إِنَّ اللَّهَ إِذَا حَرَّمَ شَيْئًا حَرَّمَ ثَمَنَهُ»، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. ثُمَّ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يُمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛^(٢) قَالَ ﷺ: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!».



(١) يعني: أذابوا الشحم بالتسخين.

(٢) أي: قلبه وسمعُه وبصرُه وفرجُه.

قتال الفئة الممتنعة عن الصلاة أو الزكاة

قال النبي ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؛ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى»^(١).



(١) الطائفة من المسلمين إذا امتنعت عن إقامة الصلاة أو دفع الزكاة فإنها تعتبر مرتدة عن الإسلام ويجب قتالها. والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك، وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] أي: فتثبتوا. فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى. وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي شَيْءٍ وَكَذَّبَهُ فِي شَيْءٍ؛ أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ. وَكَذَلِكَ إِذَا آمَنَ بَعْضُ الْقُرْآنِ وَجَحَدَ بَعْضَهُ، وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ الَّذِينَ نَهَاكَمُ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ لَمْ يَطِيعُوهُ وَاتَّخَذُوا ذَاتَ أَنْوَاطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لَكَفَرُوا. فالشهادتان مع إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة تعصم دَمَ صاحبها وماله في الدنيا إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ مَا يُسِيحُ دَمَهُ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ، فَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ ﷻ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا، أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْجَنَّةَ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَإِنَّهُ مِنْ جَمَلَةِ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝٢٢﴾ أي: لست مسلطاً على إدخال الإيمان في قلوبهم قهراً ولا مكلِّفاً بذلك، إِنَّ مَرْجَعَ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ إِلَى اللَّهِ وَحِسَابُهُمْ عَلَيْهِ.

دعوة الكفار وقتال المعتدين

وقال ﷺ: «إذا لقيتم العدو فادعوهم إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا فالجزية، فإن أعطوا وإلا فقاتلوهم»، و«إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة»^(١). «دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم». وكان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه

(١) من أخلاق المسلمين في الحرب: عدم قتل من لم يقاتل كالنساء والأطفال والرهبان وكبار السن والمدنيين، والوفاء بالعهود، والصدقة على الأسير، ومنع التعذيب، وتخيير الطرف الآخر قبل قتاله، والنبد إليه بإعلامه بفسخ عهد الهدنة قبل حربه إذا ظهر منه ما يدل أو يخشى من خيانتة للهدنة، حتى يستعد للحرب ولا يقع الغدر به. والمسلمون الأوائل مع قلة العدد والعدة وفي نحو ربع قرن طبقوا الإسلام وشريعته العادلة وجاهدوا في سبيل الله ونشر دينه وأسقطوا الامبراطوريتين الفارسية والرومية وأوقفوا ظلمها واستبدادها ونشروا فيها العدل والمعرفة والقوانين والأنظمة العادلة تأكيداً للمفهوم الإسلامي (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟) وأن البقاء للأتقى، وليس للأقوى كما يزعم داروين. وقد حكم عمر بن عبد العزيز لأهل سمرقند لما علم أن قتيبة بن مسلم الباهلي دخل مدينتهم غدرًا. وأنكر عمرو ابن عبسة على معاوية بن أبي سفيان ؓ أن يهاجم الروم قبل أن ينبذ إليهم. وأنكر أبو عبيدة أن يقام أهل الذمة في الشمس. بل قال امبراطور بيزنطي للسلطان محمد الفاتح: «لأن أرى العمائم العثمانية أحب إلي من أن أرى الصليبان البابوية». وقد شهد المؤرخ الفرنسي الشهير غوستاف لوبون بقوله: «ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب» يعني: المسلمين. ومن عدل المسلمين أنهم فرحوا بانتصار الروم النصارى على الفرس المجوس لأن النصارى أهل كتاب، كما كتب شيخ الإسلام ابن تيمية لملك قبرص يحثه على إطلاق أهل الذمة مع المسلمين. وفي المقابل فرح النصارى بانتصار المجوسي «جنكيز خان» على المسلمين، وتحالفوا مع «هولاكو ضد المسلمين».

مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ: ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ إِلَيْهِ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَسَلِّهِمُ الْجَزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّكَ، فَلَا تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَبِيكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ آبَائِكُمْ، أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ.

وَإِنْ حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، أَمْ لَا».



أخبار الفتن وأشرار الساعة

وأشرف^(١) رسول الله ﷺ على أطم^(٢) من أطام المدينة، فقال: «هل ترون ما أرى؟»، قالوا: لا. قال: «إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر». وقال: «اللهم بارك لنا في شامنا، وبارك لنا في يمننا»، فقال رجل: وفي عراقنا (وفي نجدنا) (وفي مشرقنا) يا رسول الله؟، فقال عليه الصلاة والسلام: «هناك الزلازل والفتن، ومن هنالك يطلع قرن الشيطان^(٣)»،

(١) يعني: نظر من مكان مرتفع.

(٢) الأطم: هو القصر والحصن، وجمعه أطام.

(٣) قرن الشيطان وقرناه: أمته والمتبعون لرأيه، وانتشاره وتسليطه. وقيل: يحتمل أن يريد بالقرن: قوة الشيطان، وما يستعين به على الإضلال، وكان أهل المشرق يومئذ أهل كفر، فأخبر ﷺ أن الفتنة تكون من تلك الناحية، فكان كما أخبر، وأول الفتن كان من قبل المشرق، فكان ذلك سببا للفرقة بين المسلمين، وذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به، وكذلك البدع، نشأت من تلك الجهة حيث حدثت وقعة صفين، ثم ظهور الخوارج في أرض نجد والعراق، وما ورائها من المشرق، وكانت الفتنة الكبرى التي كانت مفتاح فساد ذات البين: قتل عثمان رضي الله عنه، وكذلك فتنة التتار، وغيرها. لكن بعض دعاة البدع والمحاربين للسنّة والمنحرفين عن التوحيد يطعنون في الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله مجدد دعوة التوحيد في الجزيرة العربية، ويحملون الحديث عليه باعتباره من بلاد (نجد) المعروفة اليوم بهذا الاسم، وجعلوا أو تجاهلوا أن جمعا من العلماء قد بينوا أن المقصود بهذا الحديث: (العراق) كما دل عليه أكثر طرق الحديث، وبذلك قال العلماء قديما، كالإمام الخطابي، وابن حجر العسقلاني، وغيرهم. مع أن كون الرجل من بعض البلاد المذمومة، لا يستلزم أنه هو مذموم أيضا إذا كان صالحا في نفسه، والعكس بالعكس، فكم في مكة والمدينة والشام من فاسق وفاجر، وفي العراق من عالم وصالح، وما أحكم قول سلمان الفارسي لأبي الدرداء حينما دعاه أن يهاجر

وقال ﷺ: «النجوم أمانة^(١) للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمانة لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون^(٢)، وأصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون^(٣)».



من العراق إلى الشام: «أما بعد، فإن الأرض لا تقدر أحدًا، وإنما يقدر الإنسان عمله».

(١) الأمانة: الأمن والأمان. والمعنى أن النجوم ما دامت باقية، فالسماوات باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة، وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت.

(٢) أي: من الفتن والحروب، وارتداد من ارتد من الأعراب، واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أنذر به صريحًا، وقد وقع كل ذلك.

(٣) أي: من ظهور البدع، والحوادث في الدين، والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان، وظهور الروم وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة، وغير ذلك.

ظهور الكذابين مدعي النبوة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَابِينَ، مِنْهُمْ صَاحِبُ الْيَمَامَةِ وَمِنْهُمْ صَاحِبُ صَنْعَاءَ - الْعَنْسِيُّ - وَمِنْهُمْ صَاحِبُ حَمِيرَ، وَمِنْهُمْ الدَّجَالُ، وَهُوَ أَكْظَمُهُمْ فِتْنَةً». «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين - منهم أربع نسوة - كلهم يزعم أنه رسول الله، يكذب على الله وعلى رسوله، وإني خاتم النبيين، لا نبي بعدي». «بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فكرهتهما وأهمني شأنهما، فأوحى إلي في المنام أن انفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما:

العنسي صاحب صنعاء^(١)، ومسيلمة صاحب اليمامة^(٢).

(١) كانت فتنة خروج الأسود العنسي وادعائه النبوة قبل حجة الوداع في العام العاشر، ودامت أربعة أشهر، وكانت أول ردة في الإسلام، وقد أثار الأسود موضوع أخذ الزكاة من اليمن، وتمكن المسلمون من قتله في قصره، وإعلان العودة إلى الإسلام.

(٢) وقد قال ﷺ لمسيلمة: (لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها، ولن تعدوا أمر الله فيك، ولئن أدبرت؛ ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيه ما أريت). والصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ بايعوا أبا بكر الصديق على الخلافة عبر مجلس شورى من كبار الصحابة في سقيفة بني ساعدة. وظهرت ردة مسيلمة الكذاب وقبائل عديدة في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ، وامتنعت بعض القبائل عن دفع الزكاة، فأوضح الصديق للصحابة رضوان الله عليهم بقوله: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً - أي معزة - كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها». ووافقه الصحابة، واعتمد أبو بكر ﷺ على أهل المدينة ومكة والطائف وما حولها من قبائل في تجهيز الجيوش للقضاء على المرتدين. ونصره الله عليهم وعادت تلك القبائل إلى الإسلام. وترجع عوامل الردة



إلى عدم تغلغل الإيمان في القلوب لتأخر إسلامهم وبسبب قصر الزمن الذي تم فيه تبليغ الدعوة، وطبيعة الأعراب المتسمة بالجفاء مع ضعف المستوى الثقافي مما جر إلى ضعف فقه تعاليم الدين وخاصة بالنسبة للزكاة التي اعتبرها البعض ضريبة مهينة، واستثقلوا الصلاة والعبادات الأخرى، كما أن العصبية القبلية لا زالت عميقة في تلك البلاد النائية ووسط نجد حيث ترى القبائل أنها أضخم عدداً وعُدداً من قريش وبالتالي فهي أولى بالزعامة، وعلى الأقل لم تكن ترضى بالخضوع لحكم قريش. ولم يشرك الصديق ﷺ أحداً من المرتدين في الفتوح الإسلامية في خلافته، بل جردهم من السلاح لأنه لم يأمنهم لحداثة عهدهم بالردة، وعقوبة لهم بإظهار الاستغناء عنهم، ثم لأنه لم يشأ أن يكونوا طلائع الفتح الإسلامي فلا يقدمون لسكان المناطق المفتوحة المثال الصالح للجندي المسلم. وقد تم جمع القرآن في صحف بعد استشهاد كثير من قراء الصحابة في الإمامة.

استشهاد الخلفاء الثلاثة بعد الصديق

وصعد رسول الله ﷺ أُحُدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد أبي وقاص ورفعت فرجف بهم، فضربه رسول الله ﷺ برجله وقال: اثبت أُحُد، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد.

وقال ﷺ: «إنكم تلقون بعدي اختلافاً وفتنة»، فمر عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال النبي ﷺ: «يُقْتَلُ فيها هذا يومئذ مظلوماً، هذا يومئذ ومن اتبعه على الهدى، عليكم بالأمن وأصحابه» وهو يشير إلى عثمان بذلك.

وقال ﷺ لعثمان لما كلمه وضرب منكبه: «يا عثمان إن ولاك الله هذا الأمر يوماً فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه حتى تلقاني». يقول ذلك ثلاث مرات^(١).

وقال ﷺ لنسائه وفيهن عائشة رضي الله عنها: «أيتكن تنبح عليها كلاب الحوآب؟»^(٢).

(١) في خلافة عثمان رضي الله عنه اتسعت الفتوح وأنشأ الأسطول البحري وانتصر على الروم في موقعة ذات الصواري في البحر الأبيض المتوسط عام (٣٤) هـ. وتعتبر فتنة مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه من أخطر الأحداث التي مرت بها الدولة الإسلامية في عصر الخلافة الراشدة، وأصلها أن ابن سبأ يهودي من صنعاء ادعى الإسلام في خلافة عثمان، وقام ببث الدعاية ضده في الحجاز والعراق والشام ومصر وكان الولاة إذا أحسوا به طردوه إلى بلد آخر. فتبادل أشياعه الرسائل التي يوضحون فيها تذرهم وشكاواهم من عمال عثمان، وكانت هذه الرسائل تقرأ في الأمصار المختلفة، فتثير الفتن، وينشأ عند العامة تصور للسوء والفوضى والظلم الذي انحدرت إليه الدولة!! وكان ابن سبأ وراء الوفود المصرية والعراقية التي قدمت المدينة وحاصرت دار عثمان وقتلته.

(٢) قال قيس بن أبي حازم البجلي: «لما أقبلت عائشة بلغت مياه بني عامر ليلاً نبحت الكلاب.

وقال ﷺ: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرَجِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ»، «سَلَامَةُ الرَّجُلِ فِي الْفِتْنَةِ أَنْ يَلْزِمَ بَيْتَهُ»، «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتَلَ فِتْنَانِ عَظِيمَتَانِ دَعَوَاهُمَا وَاحِدَةٌ، فَيَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَيَحْ عَمَارُ، تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَةُ»^(١).

قالت: أي ماء هذا؟ قالوا ماء الحوَاب. قالت: ما أظنني إلا أني راجعة. إن رسول الله ﷺ قال لنا: (كيف بإحداكنَّ تنبح عليها كلاب الحوَاب؟!). فقال لها الزبير: ترجعين!! عسى الله ﷻ أن يصلح بك بين الناس». وكانت تقول: «وددت أني كنت غصناً رطباً ولم أسر مسيري هذا». وتقول: «إنه كان قدراً». وتتضافر روايات تؤكد أن النبي ﷺ أخبر علياً بما سيكون بينه وبين عائشة وأوصاه بها خيراً، فكانت أحداث الفتنة من أعلام النبوة التي تحققت في جيل الصحابة رضوان الله عليهم. وكان ابن عباس قد نبّه علياً إلى خطورة الموقف قبل توليه الخلافة بقوله لعلي ﷺ: «إن الناس سيلزمونك دم عثمان». وسئل علي ﷺ عن (أهل الجمل) فقال: «إخواننا بغوا علينا؛ فقاتلناهم. وقد فاؤوا، وقد قبلنا منهم». وقال عمار لعلي يوم الجمل: ما ترى في سبي الذرية؟ فقال: إنما قاتلنا من قاتلنا - أي أنه استجاز القتال دفاعاً عن النفس لأن خصومه شرعوا في قتاله - قال عمار: لو قلت غير هذا لخالفتك».

(١) كان سبب معركة صفين بين جيش علي وجيش معاوية ﷺ، هو أن معاوية يرى أنه ولي دم عثمان، لأنه صار رأس بني أمية مكانه، والأحاديث النبوية تدل على أن عثمان يُقتل مظلوماً، بل تذكر أن النبي ﷺ أوصاه بأن لا يخلع نفسه من الخلافة، ووصف الخارجين عليه بالمنافقين، وشهد الصحابي كعب بن مرة البهزي أمام معسكر معاوية بأن النبي ﷺ قال عن عثمان بن عفان: «لتخرجنَّ فتنة من تحت قدمي هذا - أو من بين رجلي هذا -، هذا ومن اتبعه يومئذ على الهدى»، فكان معاوية ومن معه يتأولون أن الحق معهم، وكانوا يضغطون بقوة لإنفاذ القصاص بقتلة عثمان، ولم يعذروا علياً في سياسته التي تميل إلى إماتة الفتنة وتخطيطها بتأخير إيقاع القصاص حتى يستتب له الأمر، ويدخل في بيعته الناس جميعاً، وليتأكد من تحديد القتلة بأعيانهم. ولم يتبين خطأ أهل الشام إلا بعد مقتل عمار بن ياسر في صفين، ومقتل المخدج في النهروان. ولم يكن الطرفان يكفران بعضهما، وقد سئل علي ﷺ عن قتلى يوم صفين فقال: «قتلانا وقتلناهم في الجنة، ويصير الأمر إلي وإلى معاوية». وقال سالم بن عبيد الأشجعي ﷺ: «رأيت علياً بعد صفين، وهو آخذ بيدي، ونحن نمشي في القتلى، فجعل علي يستغفر لهم حتى بلغ أهل الشام، فقلت له: يا أمير المؤمنين، إننا في أصحاب معاوية؟! فقال علي: إنما الحساب عليّ وعلى معاوية».

ظهور الخوارج وقتالهم

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «تَمُرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ، يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ، يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَلَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ، الْخَوَارِجُ كِلَابُ النَّارِ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ وَقَتْلُوهُ، مَنْ قَاتَلَهُمْ كَانَ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْهُمْ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ، سَيَمَاهُمْ التَّحْلِيْقُ، آيَتْهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عَصْدِيهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدْرَدُرُ»^(١).



(١) أي: كقطعة لحم تترجرج وتضطرب. وقد قاتلهم علي عليه السلام في موقعة النهروان عام (٣٨هـ) لما خرجوا وقطعوا الطرق وقتلوا عبدالله بن خباب بن الارت وأم ولده وآخرين وأفسدوا، وقال: «لو يعلم الجيش الذي يصيبونهم ما قضي لهم على لسان نبيهم ﷺ لا تكلوا عن العمل». وقد عاملهم معاملة البغاة، فلم يكفّرهم، ولم يتعقب فاريتهم، ولم يجهز على جريحتهم، ولم يسبهم، ولم يغنم أموالهم. ولما طعنه ابن ملجم في صلاة الفجر صبيحة إحدى وعشرين من رمضان سنة (٤٠هـ) لم يمت حتى أوصى بقاتله خيراً، وقال: «إنه أسير فأحسنوا نُزْلَهُ وأكرموا مثواه، فإن بقيت قتل أو عفوت، وإن مت فاقتلوه قتلي ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين».

تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية

وكان النبي ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(١).
وروي في الحديث ذكر استشهاد الحسين ﷺ^(٢).

(١) بعد اغتيال الخوارج أمير المؤمنين علي ﷺ، تنازل ابنه الحسن بن علي ﷺ عن الخلافة لمعاوية ﷺ، ليعيد الأمة إلى الجماعة.

(٢) روي عنه ﷺ أنه قال: «قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات» رواه الإمام أحمد في مسنده ٦٤٨، وصححه إسناده أحمد شاكر، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة: ١١٧١، وضعف إسناده شعيب الأرناؤوط، لكنه هو وحسين أسد حسنا إسناده الحديث الذي عند ابن حبان (٦٧٤٢) وأبي يعلى (٣٤٠٢) بلفظ: «أما إن أمتك ستقتله، إن شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه». وذلك أن معاوية ﷺ دعا أهل الشام إلى البيعة بولاية العهد لابنه يزيد؛ فبايعوه، ولم يكن صحابياً، والحسين ﷺ لم يبايع يزيد بن معاوية، بل سعى لتصحيح خطأ توريث الخلافة، دفاعاً عن حق أهل الحل والعقد والشورى في اختيار الأصلاح لها، وقد نصح الصحابة الحسين بعدم السير إلى الكوفة، ولم يكن ذلك لأنهم يرونه خارجاً على الإمام؛ بل خشية عليه من خذلان أهل الكوفة وكذبهم في نصرته على تصحيح توريث الخلافة لما عرفوه عنهم. والصحابة لم يتابعوا الحسين رضوان الله عليه، ولم ينكروا عليه، ولا أئموه، لأنه مجتهد، وهو أسوة للمجتهدين به. وكان ظنه القدرة على ذلك، وأن الناس يطيعونه وينصرونه في إعادة الشورى، فلما رأى انصرافهم عنه، طلب الرجوع إلى وطنه أو الذهاب إلى الثغر، أو إتيان يزيد، ولم يخرج من الجماعة، ولم يطلب الولاية لنفسه، ولم يقاتل عليها، وكان الواجب على ابن زياد أن يجيب الحسين لأحد مطالبه، ولو كان طالب ذلك أقل الناس، فكيف لا تجب إجابة الحسين؟! ويزيد بن معاوية لم يأمر بقتل الحسين، لكن عبيد الله بن زياد تعنت وطلب من الحسين أن ينزل على حكمه، وحقاً للحسين أن يرفض



ذلك؛ لأن النزول على حكم ابن زياد قد يكون القتل، وهذا العرض إنما كان يعرضه رسول الله ﷺ على الكفار المحاربين أعداء الإسلام، والحسين رضي الله عنه هو من أفاضل المسلمين وسيدهم، ولهذا قال ابن تيمية: «وطلبه أن يستأسر لهم، وهذا لم يكن واجباً عليه». فقتل مظلوماً وهو يدفع عن نفسه وأهل بيته. وقضى الله ﷻ أن يكون مقتل ابن زياد في نفس يوم عاشوراء بعد ست سنين من قتله للحسين رضي الله عنه، فقتله إبراهيم بن الأشتر في الحرب، وبعث برأسه إلى المختار، وبعث به المختار إلى ابن الزبير وبعث به ابن الزبير إلى علي بن الحسين.

توسع الفتوحات الإسلامية

وقال عليه السلام في خالد بن الوليد رضي الله عنه: «لَا تُؤْذُوا خَالِدًا، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ صَبَّهُ اللَّهُ عَلَى الْكُفَّارِ»^(١). وقال لعدي بن حاتم رضي الله عنه: «إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرِينَ الظَّعِينَةَ»^(٢) ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى بن هرمز»، «لَتَفْتَحَنَّ عِصَابَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْبَيْتَ الْأَبْيَضَ، بَيْتَ كِسْرَى وَآلِ كِسْرَى فَيَسْتَخْرِجُونَ كَنْزَهُ»، «إِذَا هَلَكَ كِسْرَى، فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ، فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ»^(٣)، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، «لئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطوف بصدقته، فلا يجد من يقبلها منه»^(٤).

(١) وفي عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه تمت فتوح في العراق والمشرق وأجزاء من الشام أشهرها بقيادة خالد بن الوليد الذي لم يهزم في أي معركة، ولعل ذلك من الإعجاز النبوي في وصفه سيفاً من سيوف الله.

(٢) الظعينة: المرأة المسافرة في الهودج على ظهر البعير، والظعينة في الأصل: اسم للهودج.
(٣) قَالَ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: مَعْنَاهُ لَا يَكُونُ كِسْرَى بِالْعِرَاقِ، وَلَا قَيْصَرٌ بِالشَّامِ كَمَا كَانَ فِي زَمَنِهِ عليه السلام فَعَلَّمَنَا عليه السلام بِانْقِطَاعِ مُلْكِهِمَا فِي هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ.

(٤) وقد وقعت هذه الأمور، قال عدي: «فهذه الظعينة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت في غير جوار، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز». وذلك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد سمح للمرتدين التائبين بالاشتراك بالفتوح في زمن خلافته بعد ثباتهم على الدين وحسن إسلامهم. واتجه عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بيت المقدس فحاصرها، واشترط سفرونيوس بطريق المدينة أن يتولى الصلح الخليفة عمر رضي الله عنه بنفسه ليكون أوكد، فقدم عمر بنفسه إلى الجابية وكتب كتاب الصلح للقدس، وسلمت مفاتيحها إليه. ثم تم فتح مصر التي كانت

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ لَكُمْ، ثُمَّ فَارِسَ، فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ لَكُمْ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ لَكُمْ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَالَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ لَكُمْ»، «إِنَّكُمْ ستفتحون مصر، وهي أرض يُسَمَّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها، فاستَوْصُوا بأهلها خيراً، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا».



مصدر تموين القسطنطينية عاصمة الروم. وساعد القبط المسلمين بإصلاح الطرق وإقامة الجسور وإمدادهم بالموونة، وكان اضطهاد البيزنطيين لهم دينياً وإجحافهم لهم بالضرائب، وصورة الحرية الدينية التي أتاحتها المسلمون لنصارى الشام جعلتهم يرحبون بالمسلمين. وقد غلبت الدولة الإسلامية في عهده الفرس والروم وحررت الهلال الخصيب ومصر، ومصرت الكوفة والبصرة والفسطاط، وما زالت في صعود وامتداد. حتى اغتاله أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة وهو يؤم المسلمين في صلاة الفجر ليلة الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ للهجرة، بعد خلافة دامت عشر سنين وستة أشهر، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة. وتحقق في عهد عمر بن عبدالعزيز ﷺ أن عم الخير أرجاء بلاد المسلمين حتى أنهم لم يجدوا من يقبل الصدقة.

أمن ورخاء في بلاد الإسلام

وقال ﷺ: «وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(١).

بركان عظيم في الحجاز

وقال ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى»^(٢).



(١) وقد أخبر ﷺ أن أم حرام بنت ملحان ستكون من غزاة البحر، وحصل ذلك في زمن معاوية رضي الله عنه.
(٢) أي: يبلُغ ضوءها إلى الإبل التي تكون ببُصْرَى، وهي مدينة معروفة من أرض الشام، وهي مدينة حوران، وقد ظهرت هذه النار سنة أربع وخمسين وستمائة هجرية (٦٥٤) هـ.

قتال التتار

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا التُّرْكَ»^(١)، «خُورًا وَكَرْمَانَ»^(٢) مِنَ الْأَعَاجِمِ، «صِغَارَ الْأَعْيُنِ كَأَنَّ أَعْيُنَهُمْ حَدَقُ»^(٣) الْجَرَادِ، عِرَاضَ الْوُجُوهِ، حُمْرَ الْوُجُوهِ، فُطْسَ الْأَنْوْفِ، وَجُوهَهُمْ مِثْلَ الْمَجَانِّ الْمُطْرَقَةِ، يَتَّعِلُونَ الشَّعْرَ، وَيَلْبَسُونَ الشَّعْرَ، وَيَتَّخِذُونَ الدَّرَقَ»^(٤)، حَتَّى يَرْبُطُوا خِيُولَهُمْ بِالنَّخْلِ، وَهُمْ

(١) وهم (التتار)، وقد قاتلهم المسلمون في معارك كثيرة في الفترة من ٦١٦ هـ إلى ٧٠٢ هـ، وأعظم انتصارات المسلمين عليهم كانت في معركة عين جالوت بين نابلس وبيسان، في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ وفي معركة شَقَبَ في شهر رجب سنة ٧٠٢ هـ. وقد عدَّهم جمع من العلماء: طائفة من يأجوج ومأجوج. وفي حديث خالد بن حرملة: (تُقَاتِلُونَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، عِرَاضَ الْوُجُوهِ صِغَارَ الْعُيُونِ صُهْبَ الشُّعُورِ، مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، كَأَنَّ وَجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ). وقال القرطبي في تفسيره (١١ / ٥٨): (نعت النبي ﷺ الترك كما نعت يأجوج ومأجوج). وفي الحديث: (ويل للعرب من شر قد اقترب: فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) فيبين أنه سيحل بالمسلمين والعرب منهم خاصة شر عظيم، يهلك فيه الصالحون، وهو - والله أعلم - ما وقع لهم سنة (٦٥٦) هـ على يد التتار حيث أسقطوا عاصمة دولة الخلافة وقتلوا أهلها وأتلفوا كتبها. وقد سطر ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) وقت اجتياح المغول فقال: «كيف أكتب نعي الإسلام والمسلمين، يا ليت أُمِّي لم تلدني»، وذلك لعظم المصيبة التي حلت ببلاد المسلمين، ومع ذلك فإن الله جعل فيها خيرًا؛ فقد أعجب كثير من التتر بدين الإسلام، ودخل من ملوكهم وشعوبهم فيه أفواجًا، وكان في تركستان والتركمان والقيرغيز والأوزبك وأذربيجان والقرم من نسلهم! وسيأتي الحديث عنهم أيضًا عند ذكر (خروج يأجوج ومأجوج) بمشيئة الله.

(٢) خُورَ مِنْ بِلَادِ الْأَهْوَازِ، وَكَرْمَانَ بَلَدٌ مَشْهُورَةٌ مِنْ بِلَادِ الْعَجَمِ أَيْضًا بَيْنَ خُرَاسَانَ، وَبَحْرِ الْهِنْدِ.

(٣) الحدق - بفتح الحاء - جمع حدقة؛ وهي سواد العين الأعظم.

(٤) الدَّرَقَ جمع دَرَقَةٍ، أي: الْحَجَفَةِ، وهي تُرْسٌ مِنْ جُلُودٍ، لَيْسَ فِيهِ خَشَبٌ وَلَا عَقَبَ.

أَهْلُ الْبَارِزِ»^(١). «يَنْزِلُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي بِغَائِطٍ يُسَمُّونَهُ: الْبَصْرَةَ، عِنْدَ نَهْرٍ يُقَالُ لَهُ: دِجْلَةٌ، يَكُونُ عَلَيْهِ جِسْرٌ، يَكْثُرُ أَهْلُهَا وَتَكُونُ مِنْ أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا كَانَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، جَاءَ بَنُو قَنْطُورَاءَ، عِرَاضُ الْوُجُوهِ، صِغَارُ الْأَعْيُنِ، حَتَّى يَنْزِلُوا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ، فَيَتَفَرَّقُ أَهْلُهَا ثَلَاثَ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ يَأْخُذُونَ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَالْبَرِيَّةِ وَهَلَكُوا، وَفِرْقَةٌ يَأْخُذُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَكَفَرُوا، وَفِرْقَةٌ يَجْعَلُونَ ذَرَارِيَّهُمْ خَلْفَ ظُهُورِهِمْ وَيَقَاتِلُونَهُمْ، وَهُمْ الشُّهَدَاءُ».



(١) قيل المراد به: أرض فارس، وقيل: أهل البارز هم الأكراد الذين يسكنون في البارز أي الصحراء، ويحتمل أن يراد به: الجبل؛ لأنه بارز عن وجه الأرض، وقيل: هم الديالمة (أهل شمال فارس).

تداعي الأمم الكافرة على المسلمين

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ يَوْمَئِذٍ؛ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»، «أُنَاسٌ صَالِحُونَ فِي أُنَاسٍ سُوءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ». «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ^(١)، وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ^(٢)، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ». «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ مِنْ كُلِّ أَفْقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا^(٣)، أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غَتَاءٌ كَغَتَاءِ السَّيْلِ يَنْتَرِعُ اللَّهُ مِنْ قُلُوبٍ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةِ مِنْكُمْ، وَيَقْدِفُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ».

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ

(١) العينة: بيع ربوي، حيث يبيع البائع شيئاً للمشتري بضمن مؤجل ثم يشتريه منه قبل قبض الثمن بضمن أقل. وترك الربا من أسباب البركة والنجاح، وتعزى نهضة ألمانيا واليابان الاقتصادية بعد أن دمرتها الحرب العالمية الثانية، إلى أن الناس فيهما لم يقرضوا أموالهم للبنوك باسم الإيداع، بل بنوا بها المدن والمصانع وغيرها.

(٢) حمل هذا على الاشتغال بالزراعة في زمن يتعين فيه الجهاد.

(٣) الأكلة: جمع أكل. والقصة: وعاء يؤكل فيه. والمعنى أن الكفرة يدعوا بعضهم بعضاً للأخذ من بلاد المسلمين بلا مانع ولا منازع، فيأكلونها عفواً وشفواً، ويأخذون ما في أيدي المسلمين بلا تعب ينالهم، أو ضرر يلحقهم، أو بأس يمنعهم. يقول الله ﷻ: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكَ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

مُلْكُهَا مَا رُويَ لِي مِنْهَا، وَإِنِّي أُعْطِيتُ الْكَزَيْنِ: الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ - يَعْنِي الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ -، «لَا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ بَيْتٌ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ كَلِمَةً الْإِسْلَامَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، إِمَّا يُعِزُّهُمْ اللَّهُ فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِهَا أَوْ يَذِلُّهُمْ فَيَذِلُّونَ لَهَا». «إِنِّي صَلَّيْتُ صَلَاةَ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ لِأُمَّتِي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَهُمْ بِمَا أَهْلَكَ بِهِ الْأُمَمَ قَبْلَهُمْ؛ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُظْهَرَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ؛ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَلْبِسَهُمْ شَيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضُهُمْ بِأَسْ بَعْضٍ؛ فَمَنْعَنِيهَا، فَقَالَ لِي رَبِّي: «يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً، فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أُعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ جُوعًا فَأُهْلِكَهُمْ بِهِ، وَلَنْ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا». «وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي، لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، «أُمَّتِي هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، جُعِلَ عَذَابُهَا بِأَيْدِيهَا فِي دُنْيَاهَا، لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ، عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا: الْفِتْنُ وَالزَّلَازِلُ وَالْقَتْلُ». «رَأَيْتُ مَا تَلْقَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي وَسَفَكَ بَعْضُهُمْ دِمَاءَ بَعْضٍ، وَسَبَقَ ذَلِكَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا سَبَقَ فِي الْأُمَمِ، فَأَحْزَنْنِي وَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَسَأَلْتُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُؤَلِّينِي فِيهِمْ شَفَاعَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَفَعَلَ».

ولما انتشر دين الإسلام في وسط الأرض، أضاء قلوب أهل تلك البلدان بنور الوحي الصافي، فتدبروا القرآن الكريم، وتدبروا ما يحدثه الله من الآيات في الأنفس والآفاق وأيقنوا أنه الحق، وعملوا بما تدبروه وأيقنوه من العلم؛ أزال الله عنهم الخرافات والعصبيات والطبقيات والعدوان والضلالات، وارتقى بأرواحهم وفكرهم وأخلاقهم وأحكامهم، واتصلت تعاليم الدين بكل مجالات الحياة، فانعكس ذلك على جودة حياتهم بنماء وتطور مظاهر الرقي في المعيشة، والعمل، والاجتماع، والتعليم، والحكم، وفنون الإدارة والنظم والاتصال، وترتيب وسائل

الراحة، وأسباب الرفاهية المباحة، فضلاً عن الجانب المادي من العمران، وما ينتجه العلم التجريبي من الابتكار والاختراع فيما يتصل بجميع مرافق الحياة؛ كالصناعة والزراعة، والطب، والهندسة، وما إليها مما يكون عوناً على تيسير العيش، ورغد الحياة، فيما يوصف بـ (الحضارة الإسلامية).

وارتحل المسلمون في أنحاء الأرض متمسكين بالعقيدة الصحيحة والفضيلة السليمة والأخلاق العالية، فأسلمت أممٌ كبيرة في الشرق الآسيوي بأخلاق التجار المسلمين وأمانتهم في تجارتهم؛ دون أن يروا فارساً واحداً.

وقد نورّ المسلمون الدنيا علماً ودينًا وأخلاقاً ورقياً في دولة الخلافة الإسلامية، في زمن كانت فيه أوروبا تعيش في تخلف وجهل.

ولذلك يعمد كثير من المؤرخين الغربيين إلى تجاهل ألف سنة تقريباً من تاريخ أوروبا الغابر، من عام ٤٥٠ م حتى عام ١٤٩٢ م، وهي عشرة قرون يصفونها بـ (المظلمة) في أوروبا؛ حيث كان رجال الكنيسة ورقباء الأخلاق والسلوك فيها يحاربون المعرفة. ثم يزعم أولئك المؤرخون الغربيون أن التطورات ظهرت لديهم فجأة في عصر النهضة كما لو كانت بفضل معجزة!!

وكل عالم معتبر يدرك أن الحضارة المادية لا يمكن أن تظهر بالمصادفة، وإنما تكون باستمرار التطور في العلوم في تلك الحقبة التي وُصِفَت بالعصور الذهبية لحضارة العالم الإسلامي المادية؛ من حيث التطور والارتقاء في جوانب المعيشة من الصناعة والزراعة والتجارة والطب والهندسة والكتابة والتعليم، منذ بروزها في القرن الهجري الثاني إلى القرن الحادي عشر الهجري (٨٠٠ - ١٦٠٠ م).

من آسيا الوسطى حتى شواطئ المحيط الأطلسي، مروراً بمراكز التطور الحضاري المادي والعلمي في بغداد ودمشق والقاهرة والأندلس والسلطنة العثمانية،

والتي ابتكر علماءها المسلمون الجبر واللوغارتيمات التي أدت إلى بناء الحواسيب وحل الشيفرة.

وفحص أطباؤها جسم الإنسان واكتشفوا علاجات جديدة للأمراض، ونظر فلكيوها في السماوات وسمّوا النجوم، ومهدوا الطريق أمام استكشاف أسرارها ونظامها، وأثّاروا اهتمامًا هائلًا بالعلوم والتقانة. وبرز فيها الرواد المسلمون الذين اشتهروا في الكيمياء، والفيزياء، والطب، وعلم الأحياء، والجبر، والهندسة، والعمارة، والزخرفة، والزراعة، وفي الصناعات الإنتاجية، التي كان لها أثر ملموس على الحضارة الحديثة.

وكانت المدرسة في العالم الإسلامي مرتبطة بـ(المسجد)؛ إذ لم يكن هناك فصل بين الدين والمعارف الدنيوية كما كان عند الروم النصارى، لأن المسجد كان مكانًا للتعبّد والتعلّم في آن واحد، فلم يُقَمَّ مسجد إلا وكان في الوقت نفسه معهد تعليم، وكانت مكتبة المسجد تسمى: (دار الكتب) أو (بيت الكتب) أو (كتب خانة).

وكان في بغداد قبل أن يدمرها المغول ست وثلاثون مكتبةً وأكثر من مئة كُتبي، وكان العلماء يُملّون على طلاب العلم والنُسخ.

وفي المسجد الأموي الكبير في حلب كانت (المكتبة السيفية) تضم عشرة آلاف مجلد، وكان مسجد الزيتونة الجامعي في تونس يضم عشرات الآلاف من الكتب، وكان في مكتبة قرطبة ستمائة ألف مجلد، وأقدم جامعةٍ في العالم ما زالت قائم بحسب اليونيسكو هي جامعة القرويين التي أنشأها المسلمون.

وما يُذكر هو غيض من فيض، إذ يصعب حصر إنجازات وبراعة وسبق علماء المسلمين في الابتكار والاكتشاف وتطوير العلوم والحضارة.

فكان المسلمون هم الأسبق إلى معرفة علم الحركة، حيث نبغ فيهم ابن باجه (ت ٥٣٣هـ) وابن ملكا البغدادي (ت ٥٦٠هـ)، والسابق في معرفة نظرية الجاذبية

هم بنو موسى بن شاكر وهم ثلاثة: أبو جعفر محمد (ت ٢٥٩هـ) وأحمد وحسن، الذين ابتكروا الكثير من الآلات الهندسية، وكذلك أبو الفتح عبد الرحمن الخازني أو الخازن (ت ٥٥٠هـ تقريباً).

وأول مَنْ فسّر ظاهرة (المد والجزر) وربطها بحركة القمر: هو العالم الفلكي المسلم أبو معشر البلخي (ت ٢٧١هـ).

كما أن ابن الهيثم (ت ٤٣٠هـ) - وليس كبلر (ت ١٠٤٠هـ) ولا غيره - هو مكتشف قوانين الضوء، وقد استخدم البرهان التجريبي لفحص نظرياته، واستخدم في تجاربه مصطلح «البيت المُظلم» الذي ترجم إلى اللاتينية بمصطلح (Camera Obscura)، وما زالت كلمة «كاميرا» قيد الاستعمال اليوم شأنها شأن الكلمة الدارجة في العربية «قمرة» التي تعني غرفة خاصة أو مظلمة.

وابن النفيس (ت ٦٨٧هـ) - وليس هارفي (ت ١٠٦٧هـ) - هو مكتشف الدورة الدموية.

وقد سطر ابن رشد (ت ٥٩٥هـ) في كتبه لا سيما كتابه «السما والعالَم» العديد من القوانين الفلكية المشتهرة، وكذلك فعل ابن الشاطر (ت ٧٧٧هـ).

كما أن ابن وحشية (ت ٢٩٦هـ) - وليس شامبليون (ت ١٢٤٧هـ) - هو الكاشف عن الرموز الهيروغليفية المؤدّية إلى فك رموز حجر رشيد.

وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) - وليس أوغُست كونت (ت ١٢٧٤هـ) ولا دوركهام (ت ١٣٣٥هـ) - هو مؤسس علم الاجتماع.

والجوهري صاحب معجم الصحاح (ت ٣٩٣هـ) وعباس بن فرناس (ت ٢٧٤هـ) هما أول من حاول الطيران.

والرازي (ت ٣١١هـ) هو مؤسس علم طب الأطفال.

والغزالي (ت ٥٠٥ هـ) - وليس بافلوف (ت ١٣٥٥ هـ) - هو مكتشف الفعل المنعكس الشرطي.

وابن يونس (ت ٣٩٩ هـ) هو المكتشف لقانون النّواس (البندول)، وهو أيضًا المخترع له في مجال استعماله، وليس غاليليو الإيطالي (ت ١٠٥٢ هـ).

وكان العالم الإسلامي إقليمًا موحدًا، فَطَوَّر المسلمون أنظمة ري مكثف، وأنشأوا المزارع التجريبية، وأثبتوا الملكية الفردية للأرض، وكتبوا سجلات مفصلة لعقود بين مالكي الأرض والفلاحين، ونقلوا أشجار النخيل وقصب السكر وأصنافًا من الرمان والتين وغيرها إلى الأندلس، وصدّروا القطن والصوف والحريز، وزرعوا الأرز وابتكروا السقي بالنواعير، وحسنوا سلالات الخيول والبهايم، وحفروا آقنية تحت الأرض يجري فيها الماء عبر الأراضي الوعرة والقاحلة والصحراوية، وحسبوا الارتفاعات بدقة من خلال حساب المثلثات وآلة الأسطرلاب.

وصنعوا (الجداول الفلكية) لتبين أوقات الزراعة وأوان الحصاد، وبنوا طرق إثراء التربة بالحرارة العادية والعميقة والعزق والحفر والتسوية، وطرق الري بالتنقيط، وصنفوا التربة والماء وفق أنواعها وقدراتها، واستخدموا طاقة الرياح والماء على نطاق واسع لتشغيل رحى الطواحين في طحن الحبوب ورفع الماء لسقاية الأرض، وتفننوا في البناء والزخرفة والإضاءة والتهوية وتوزيع الصوت، وكذلك في فنون بناء الأقواس والقناطر والقباب والمنائر والمحاريب، وبناء الأقبية والعقود المضلعة، والمقرنصات، والجواسق، والحمامات.

وأنشأ المسلمون (المستشفيات) التي تسمى المارستانات، والفاخرة منها تُسمّى البيمارستانات، وكان تمويلها بالصدقات والهبات والأوقاف أو من بيت مال المسلمين، وكان العلاج متقدمًا جدًا بمعايير تلك العصور، ومتاحًا للجميع بلا

مقابل، وكانت أدوات الجراحة المستعملة في غاية التقدم، وما زالت الملاقط التي ابتكرها الجراحون المسلمون تُستخدم حتى اليوم.

كما أنشأوا محطات الاستراحة على طريق التجارة التي تعرف بالخانات (الفنادق) لتقدم للمسافرين المأوى والطعام ثلاثة أيام بالمجان.

وكان المسلمون يصدّرون للعالم (الأواني) الزجاجية المزخرفة، والمزهريات، حيث أتقنوا مهارات التزجيج والتلميع المعدني لعدة قرون، وكانت الآنية الإسلامية رمزًا لمكانة مالكيها في أوروبا.

كما صدّر المسلمون المنتجات العاجية المحفورة، والقرميد، والبلاط والخزف والفخار، والجلود الملونة من مختلف الأنواع، والورق والسجاد، والمخطوطات المزودة بالصور والرسوم والشروح، والمنتجات المعدنية بما فيها السيوف الدمشقية، وكذلك الأقمشة القطنية الناعمة والمنسوجات الحريرية الثمينة، وصنعوا الصابون الصلب وقطروا العطور، وكتبوا على رق الجلد وورق البردي، ونقشوا على الرخام والآجر والزجاج والقماش والخزف وأشغال الخشب والمعدن والحجارة الكريمة وشبه الكريمة، وكتبوا بأقلام القصب بمداد وأحبار مختلفة الأنواع والألوان.

وطوروا صناعة (الورق) من القنب، واشتهر عندهم الورق الشاطبي، وازدهرت الصباغة وصناعة الحبر والنسخ والخط، وتجارة الكتب، وحفّزوا الناس على التعلم والقراءة واقتناء المكتبات الخاصة، كما ازدهرت لديهم صناعة السجاد الإسلامي العثماني والفارسي، وما زالت بعض المنتجات تحمل الأسماء العربية مثل الموسلين (muslin) الذي كان يصنع أساسًا في مدينة الموصل، والدامسكو (damask) في دمشق، والبلداتشين (baldachin) في بغداد، والغوز (gauze) في غزة، وكلمة (cotton) هي من الكلمة العربية (قطن) التي تعني القطن الخام.

واستخرج الغواصون المسلمون اللؤلؤ والمرجان من البحار، واستخرج الزمرد في جنوب مصر، والفيروز في فرغانة، والياقوت في بدخشان، والعقيق الأحمر والعقيق اليماني في اليمن والأندلس، والملح الصخري أو الذهب الأبيض وهو من المواد الثمينة المستخرجة من المناجم في حضرموت وأصفهان وأرمينيا وشمال وغرب إفريقيا، ومادة الشب من مصر والسودان، واستخرجوا ملح النطرون.

كما سَكَّت (العُمَلات الإسلامية) دراهم ودنانير، وأضيف معها ما يعرف بالصكوك ومفردها صك، وكلمة cheque (الشيك) مأخوذة من كلمة (صَك) العربية، وهو كتاب شرف يلتزم فيه الموقع بالدفع لقاء حصوله على السلع عندما تصل إلى غايتها.

واخترع علماء المسلمين (أدوات مختبرات الكيمياء) مثل البوتقة، ووعاء الإنبيق أو المعوجة، ورأس الإنبيق، وأنبوب التوصيل، إضافة إلى أنماط مختلفة من الأفران أو المواقد.

كما أسسوا (علم الجبر) وطوروا العمليات الحسابية، وواء المسلمون الأرقام من ١ إلى ٩ وفق الزوايا وطوروها إلى الأرقام الحديثة المستخدمة اليوم، وكانت تسمى بالأعداد الغبارية.

وابتكروا (الصُّفْر) وأعطوه خاصيةً رياضيةً تنص على أنه إذا ضُرب بأي عدد آخر كانت النتيجة صفراً، وكان يحدد له في السابق فراغ أو «لا شيء»، وسمّاه الأوروبيون صفروم Cephrirom وصايفر Ciphir، ومن خلاله مع الأعداد الغبارية أتيح للناس أن يكتبوا أي عدد يريدون.

وأبداع المسلمون في (علم المثلثات) وعلم المثلثات الكروي، والهندسة وتجارب الطيران، وصنعوا آلات ساعات كثيرة مختلفة الأحجام والأشكال.

وطور المسلمون (البارود)، وصمموا المدافع، وصنعوا القذائف، وصنعوا أول طوربيد مائي وكان يسمى (البيضة المتفجرة ذاتية الحركة)، وقد صمم لينطلق على سطح الماء، وسمي (البيضة التي تتحرك ذاتياً وتحرق)، واستخدم المسلمون أعمدة إسناد داخل القلاع لتعزيز صمود الجدران.

واستخدم الخلفاء العباسيون (الحمام الزاجل) لإيصال رسائل البريد، وقد ألف ابن عبد الظاهر كتاباً عن الحمام الزاجل.

كما برع المسلمون في علم التعمية (التشفير)، وكان من أهم أساليب فك الشيفرة ما أورده الكندي في كتابه «رسالة استخراج المَعَمَّى».

وارتحل علماء المسلمين في أنحاء الأرض وتأملوا فيها، ودونوا رحلاتهم وملحوظاتهم ومشاهداتهم.

فكَتَبَ في (الرحلات) ابن بطوطة وابن فضلان وغيرهم، وحدد ابن سعيد المغربي خط العرض وخط الطول لكل مكان زاره.

وأسس ابن خلدون نظريات علم الاجتماع في كتابه التاريخي الاجتماعي الشهير «العبر» الذي عرف بـ «تاريخ ابن خلدون» والذي اشتهرت مقدمته الفريدة.

وقد أبدع المسلمون في التأمل في خلق الأرض والسماء، وأنشأوا المراصد الفلكية في بغداد ودمشق وغيرها، وابتكروا وطوّروا العديد من الاختراعات الفلكية؛ مثل مجسمات الكرة السماوية، والكرة الأرضية، والأسطرلابات المتنوعة، والمحلّقات، وهياكل الربيعيات والسُدسيات، ورسموا خرائط الأرض، وحددوا أحجام نحو ١٠٢٢ نجماً وكوكبة، وما زال ١٦٥ نجماً حتى اليوم تحمل أسماءً تعكس أصولها العربية.

ومكنهم تطوير (الأسطرلاب) من رصد مواقع النجوم ووضع جداول دقيقة لفصول السنة ومواعيد الصلاة، ومعرفة الاتجاهات في الرحلات والسفر والاتجاه

إلى الكعبة في مكة، وقياس ارتفاع الشمس، وتحديد الزمن في الليل والنهار، وإيجاد زمن الحدث السماوي كبزوغ الشمس وغروبها أو حساب ذروة النجم في كبد السماء، وتقويماً لتحويل يوم الشهر إلى موقع الشمس على دائرة البروج، ومقاييس مثلثاتية ومدرجاً بـ ٣٦٠ درجة، وذلك مبني على أن الأرض مركز الكون الكروي، مع مراقب خيالي موضوع على ارتفاع معين ووقت معين خارج هذه الكرة، وينظر إليها من الأعلى. وطور علي بن خلف أسطراًلاً كونياً، وصنع الزرقالي أو ابن الزرقالة أسطراًلاً معقداً ومتقدماً يمكن استخدامه في أي مكان جغرافي، وسماه (الصفحة) أو (الصفحة المشتركة لجميع العروض).

وللحصول على إحداثيات أكثر دقة للأجرام السماوية الضرورية للجداول الفلكية المفصلة استخدموا الأسطراًلاب مع أدوات أخرى؛ كالربعيات الكبيرة، والمحلقات الرصدية، حيث أنشأ العلماء المسلمون مجسماً أو آلة فلكية تسمى (المحلقة) أو (ذات الحلق)، وقد كتب عنها مسلمة المجرطي وابن الصفار وعلي ابن عيسى والخوارزمي، وهي نموذج صغير للكرة الأرضية محاط بحلقات دائرة البروج، ودائرة خط الاستواء، والمدارات والدوائر القطبية، وكلها مرتبطة بحلقة مدرجة، محورها محور خط الاستواء.

وتتكون المحلقات من حلقات معدنية متحدة المراكز، وتكون الأرض في مركزها والأجرام حولها لتمثل حال السماء وإحاطة الأرض بكرة من النجوم، وتبين الحركات النسبية للأجرام السماوية حول الأرض، وقد ذكرها الفيزاري (ت ١٨٠ هـ) في كتابه: (العمل بالأسطراًلابات ذات الحلق)، كما كتب عنها جابر بن أفلح الإشبيلي.

وقد أمر الخليفة المأمون مجموعة من الفلكيين المسلمين بقياس (محيط الكرة الأرضية)؛ فقاموا طول الدرجة القوسية الأرضية التي وجدوا أنها تساوي ٦٦٦، ٥٦ ميلاً عربياً، أي ما يعادل ٨١٢، ١١١ كم، وبالتالي حددوا طول محيط الكرة الأرضية

بما يعادل ٤, ٢٥٣, ٤٠ كم، وهو قياس قريب جداً من القياس الحديث في هذا الزمان بأجهزة التقانة (التكنولوجيا) المتطورة والذي بلغ ٤٠, ٠٧٤ كم.

وكان للمسلمين سبق في اختراع (الخرائط)، كخرائط الإدريسي صاحب كتاب: (نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق) الذي صنع مجسماً دائرياً من فضة ليبين كروية الأرض وتضاريسها، وحسب محيطها، ورسم سبعين خريطة إقليمية.

وكخرائط القائد البحري العثماني بيري ريس أو بيري ريس - مؤلف «كتاب البحرية» أو «تقاليد البحر» - التي أذهلت علماء الحضارة الغربية في دقتها، حيث رسم خارطتين مرسومتين بتسعة ألوان علي جلد الغزال للشواطئ الغربية لإفريقيا، والشواطئ الشرقية للأمريكتين والحدود الشمالية لليابسة في القارة القطبية الجنوبية (أنتاركتيكا).

وقد أظهرت هذه الخرائط بوضوح أماكن لم يكتشفها الإنسان في ذلك الزمان، ورسم عليها جبال القارة القطبية الجنوبية ووديانها، في حين لم تتوصل المراكز الجغرافية المعاصرة إلى رسمها إلا بعد عام ١٩٥٢ م بعد أن تسلحت بأحدث تقنيات المسح الزلزالي.

ومما زاد الغرب حيرة أن الصور التي التقطتها المركبات الفضائية للقارة القطبية الجنوبية جاءت مطابقة لخرائط الرئيس بيري، والشيء نفسه للحدود الشرقية في القارتين الأمريكيتين، مما سبب إحراجاً لعلماء التأريخ وعلماء الجغرافيا الغربيين، وأثبت لهم أن المسلمين وصلوا منذ القدم لأقصى أنحاء الأرض ولأمريكا قبلهم.

ولذلك يرفض الغربيون الاعتراف بأن من رسم هذه الخرائط المذهلة هو السيد بيري (بيري ريس)؛ لأن اعترافهم بها يعني أن المسلمين كانوا يجولون في السواحل الأمريكية قبل مولد كولومبس، وأنهم كانوا يرحلون في جميع المحيطات بين القطبين، ولكونها تحوي بعض الملاحظات والكتابات التاريخية التي يعلم منها

أن السواحل الشرقية لقارة أمريكا كانت مسجلة ضمن الممتلكات العثمانية تحت اسم «أنتيليا» منذ عام ١٤٦٥ م، أي قبل كولومبس بـ ٢٧ عامًا، وأن تشابه اسم جزر الأنتيل الحالية مع اسم أنتيليا يشير إلى أن هذا الاسم مأخوذ من اللغة المحلية لشعب تلك المنطقة آنذاك.

وهذا الاعتراف يجرد الغرب من كثير من الاكتشافات الجغرافية التي يفخرون بها، ولكون هذه الخرائط تدل على التفوق العلمي آنذاك لكونها شديدة الدقة، حتى ادعى بعض الغربيين أنها من رسم كائنات فضائية، وهي موجودة في مكتبة بقصر الباب العالي في إسطنبول بتركيا.

وكانت دولة الخلافة الإسلامية تمر بمراحل قوة كلما تمسكت بدينها وأقامت العدل، ومراحل ضعف كلما ابتعدت عنه؛ بالميل للرفاهية والتفرق والاختلاف والتخاصم على الملك والاستعانة بالأعداء، والثقة بأهل الانحراف والبدع كالجهمية والمعتزلة والرافضة وغيرهم.

وقد تلاشى مُلك بني أمية وضمحل لما تركوا سيرة ونهج الخليفة عمر بن العزيز، وجعلوا الجعد بن درهم مُربيًا، وترجموا الفلاسفات الوثنية، وأشغلوا الناس بالنقائض بين جرير والفرزدق، وأشاعوا الغناء في الحجاز، وأبعدوا الصديق وقرّبوا العدو، وزيّن لهم المنافقون أن طاعتهم واجبة في كل شيء.

وهكذا جاءت الخلافة العباسية وما بعدها، وحين غلب الترف والانشغال بملذات الحياة على المسلمين، وضعف تمسكهم بدينهم وأخلاقهم، وانشغلوا بالفلاسفات والمعازف واللهو، وتفرقوا واختلفوا وانقسمت دولتهم إلى دويلات، وتركوا الأخذ بأسباب القوة والجهاد؛ سقطت خلافتهم التي أنارت قلب العالم ونشرت العلم والمعرفة في عصور ظلمات أوروبا.

ثم قامت على إثرها الحضارة الغربية، التي اكتسبت من علوم ونبوغ المسلمين وحضارتهم وأنظمتهم وكتبهم ومخترعاتهم، إلا أنها لم ترتبط بنور الوحي الإلهي، وإنما امتزجت بآفات الوثنية والإلحاد والعنصرية، فابتدأت بالتطهير العرقي والتفنن في تعذيب المسلمين، وإقامة محاكم التفتيش في الأندلس (إسبانيا) وتطوير أدوات القتال، وإبادة غير النصارى وسلبهم.

وظهر في أوروبا نظام الطبقة والاستتار والعنصرية، والحروب النووية المدمرة، ونوادي العراة وزواج المثليين. وأصبحت الجرائم الكبيرة تنتشر من تأثير أفلام الرعب وأفلام الجنس والإباحية التي ينشرونها.

وقد كان عند العرب في الجاهلية من الأخلاق ما هو أنبل من أخلاق أهل الحضارة الغربية اليوم، فكانوا على أمور من الفطرة وبقايا من الحنيفية كنصرة المظلوم والشجاعة والكرم والضيافة، وكانوا أفصح الناس، وأبعدهم عن الفلسفات، ولم يكن عند مشركي العرب نكاح المحارم الذي يفعله المجوس، ولا نظام الطبقات كما عند الهنود، ولا ادعاء أن المسيح ابن مريم خلق السماوات والأرض كما يقول النصارى، ولم يكن عندهم زنا المرأة الحرة. فمن أراد المقارنة؛ فليقارن الجاهلية الكافرة قبل الإسلام بالحضارة الغربية، وأما الإسلام فهو أسمى من أن يقارن بالأخلاق الغربية المتكسة.

ففي الحضارة الغربية ظهرت أنظمة الطبقة وتقسيم الناس إلى رجال دين، ونبلاء، وعامة، وفي الحضارة الغربية ظهرت المتاجرة بالبشر في الدعارة والجنس وبيع الأعضاء، وتم اصطياد واستعباد ذوي البشرة السوداء واقتيادهم مسلسلين في البواخر، والزعم بأن السود عبيد، وتم نهب ثروات بلدانهم، وتقطيع أرجل السود في مزارع القطن حتى يعملوا ولا يهربوا، وقد قدر البروفيسور الفرنسي «تريفان» في

كتابه «مصرع الديمقراطية» عدد من استعبدتهم الغرب من الأفارقة السود بمائة مليون إنسان، ثم بعد ذلك كله يأتي الغرب ليتفاخر زورًا بأنه حرر العبيد وألغى الرق !!

وأصبح من آفات الحضارة الغربية نشر المسكرات وظهور المخدرات، وأكل الخنزير وهو حيوان مستقذر يأكل العذرة وينشر الأمراض، وله دهون ضارة، ويسبب الدياثة، وقد حذرت من أكله وزارة الزراعة الأمريكية، وقال الدكتور «جايلورد هاووزر» الملقب بزعيم التغذية في العصر الحديث: «لا يدخل الخنزير في أي نظام صحي».

أما المسلمون فلا يشربون الخمر ولا يأكلون الخنزير ولا المستقذرات والخبائث، في حين تأكل بعض الشعوب الشرقية الصراصير والخنافس، حتى أن بعضهم يأكل البراز.

والغريون يأكلون الخنزير ويتصفون بصفاته ومنها: الدياثة؛ فمن عاداتهم السيئة أن الفتاة عندهم يتاح لها أن تفعل الفاحشة، ويعدون ذلك من الحرية، وأنها لا بد أن تكون مجربة فاقدة العذرية قبل الزواج، والخاطب لا بد أن يكون كذلك، وإلا جاؤوا له بعاهرة من الشارع قبل الدخول! والزوجة عندهم إذا وجدوها عذراء عابوها وقالوا إنها باردة جنسيًا! وهذا من تبديل الشيطان فطرتهم، فأصبحت مفاهيمهم وأخلاقهم منكوسة مع عقيدتهم الفاسدة - والعياذ بالله -.

وإن من عنصرية الغربيين وتخلفهم، أنهم يقرّون الحجاب اليهودي، وأن من حق اليهودية أن تكون محجبة. أما المرأة المسلمة فلا حق لها في الحجاب عندهم، وإذا تحجبت فهي عندهم إرهابية أو محرّضة على الإرهاب، فهم يدّعون زورًا أنهم يطبقون مبدأ الحرية، وهم في الواقع يناقضونها، ومما يثبت تناقض حريتهم المزعومة: منع المرأة المسلمة في بعض البلدان الغربية من لبس الحجاب أو لبس لباس السباحة

الساتر (البوركيني)، وبعض البلدان الأوروبية تضع على المرأة المسلمة غرامة إذا لم تكشف شعرها، وتحظر عليها دخول الجامعة.

ومن التناقض والعنصرية في المجتمعات الغربية أنَّ من حق النصارى الأرثوذكس أن تكون لهم حافلات خاصة يركب فيها الإناث فقط، أما إذا فعل ذلك المسلمون؛ فيصفونه بأنه تمييز ضد المرأة، وأنه تقليد فارسي نقله العرب إلى بيئتهم الصحراوية! كما أنهم يمنعون المسلم من الولاية على أسرته، ومن حق التأديب الأخلاقي لأولاده وتوجيههم وفق شرائع الإسلام الراقية، ويمنعونه من ذبح المواشي ذبحاً إسلامياً صحيحاً.

ولا تعجب عندما ترى بلداً أوروبياً يصفونه بالحياد وليس فيه إلا ثلاث مآذن فقط؛ ومع ذلك صوّت أكثر شعبه لمنع بناء المآذن. فأين الحرية والتنوير المزعوم والمساواة؟!

وقد غزا الغرب المنتكس عقيدة وأخلاقاً مجتمعات المسلمين بأفلامه المنحرفة وقنواته المنحلة التي تصور ممارسة الفاحشة ومقدماتها الفاضحة بحركات وكلمات مثيرة وصور عارية للنساء في صالات رقص، وعرض فاحشة اللواط بطريقة مثيرة وعرض الشباب عراة من الخلف مع مشاهد الضم والعناق والقبلات الساخنة والملابس الفاضحة القصيرة والممزقة، والأغاني الساقطة وتناول الخمر ونشر الألفاظ السيئة، وتأسيس مفهوم الزنا والخيانة الزوجية والعلاقة المحرمة بين الرجل والمرأة خارج إطار الأسرة، والشذوذ الجنسي، وتأكيد مفهوم الانغماس في قذارة الفواحش والانحراف سعياً إلى اللذة والمتعة كهدف أساس للحياة، وتدميراً للعرض والشرف.

ولم يصل الغرب للتطبيع مع الزنا بالتراضي إلا بعد قبول الإغواء والخيانة والتبرج والخلوة المحرمة.

وكان من نتيجة الزنا بالتراضي: فساد البيوت، واختلاط الأنساب، والإجهاض المتعمّد، وقتل الأجنة، وتحوّل المرأة في نظر الرجل إلى مجرد علاقة شهوانية عابرة، فكان الزنا بالتراضي مدمراً لمفهوم الأسرة، وسبباً مباشراً لأمراض جنسية، وانتشار أبناء الزنا الذين لا آباء لهم.

وقد قال النبي ﷺ: «شَرُّ الكَسْبِ مَهْرُ البَغْيِ»، فنهى أن تتاجر المرأة بجسدها. في حين أن المسلم يقاتل ويُقتل من أجل حفظ المرأة، وقد قال ﷺ: «ومن قاتل دون أهله، فهو شهيد».

كما يمارس الإعلام الغربي تشويه الإسلام بالترويج لرؤوس أهل البدع والانحراف والضلال من الخوارج والزنادقة وغلاة روافض الشيعة والمتصوفة والمرجئة المنتسبين إلى الإسلام، ويبرز أفعال الفرق الضالة المنتسبة للإسلام بقصد تشويه دين الإسلام والصد عنه، ويدعم الغريون الاستشراق والمستشرقين لدراسة الإسلام من أجل تشويهه وإبراز وتمجيد الشخصيات الضالة في تاريخ الإسلام، مثل: الحلاج، ورابعة، والتوحيدي، والجاحظ، وابن عربي، والخيام، وغيرهم.

وابتدع الغريون فكرة (نسبية الأخلاق)، حيث زعموا أن الأخلاق نسبية، وأن ما هو أخلاقي عند قوم ربما يكون غير أخلاقي عند غيرهم، وهي فكرة تدمر المجتمعات؛ لأن الأخلاق لو كانت نسبية لما استطاع أحد أن يمنع الفساد ويحكم المفسدين.

كما يشوّه الغريون شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقضاء الإسلامي والمناهج التعليمية الإسلامية؛ لأنها لا تتوافق مع الأهواء الغربية التي انغمست في الفساد الأخلاقي الغربي والانحلال الفطري باسم الحرية والترفيه ومقاومة ما يسمونه (التشدد والوصاية) ولو كانت شريعة إلهية.

وشريعة المسلمين وعقيدتهم وأخلاقهم أعلى وأرقى من قوانين الغرب؛ الذي

ينبغي أن تكون لديه عقدة النقص لتثليثه ودياثته وخرافاتة وتحيزه للصهيانية وأمثالهم، وتحقيق مصالحه بظلم الآخرين.

فمثلاً تجد في الحضارة الغربية أن الأقوى يتسلط على الأضعف لتحقيق مصالحه بعيداً عن الأخلاق، فمع ما تعانيه أوروبا من تفكك لغوي وتفكك عرقي وبيئة شتائية قاسية؛ إلا أن إحدى الدول الغربية الكبرى تجبر البلدان الأوروبية على أن تبور ١٥ من الأراضي لكي تبقى أسعار قمحها على ما هي عليه.

أما الإسلام فقد حرّم الظلم وإتلاف الأموال والإسراف فيها، وفرض الزكاة على الأغنياء وحث على بذل الصدقات للفقراء، وشرع الوقف الذي هو من أحكام الشريعة الإسلامية التي لم تشرع في غيره، وحرّم الضرائب التي تؤخذ من الفقراء وتعطى للأغنياء، وحرّم الربا والميسر وأكل أموال الناس بالباطل. وليس في الإسلام شح يهودي، ولا نقشف بوذي، ولا احتكار وقرصنة كما عند الغرب، فالمسلمون لا يعبدون المال، ولا يلغون الملكية الفردية.

وفي الغرب يدعون حرية التعبير؛ لكنهم يمنعون انتقاد عريضة اليهود وإفسادهم وإرهابهم وظلمهم واحتلالهم ونهبهم، ويصنفون ذلك بأنه بغض ومعاداة للسامية ونشر لخطاب الكراهية، مع أن النصارى تاريخياً هم الذين اتهموا اليهود أنهم سبب الوباء الأسود!!

ويطالب الغرب المسلمين بمنح الأقليات ويعنون المفسدين الذين يشيرون الفتن من أهل الزندقة والخوارج والروافض والمرتدين حقوقهم، في حين أن الغربيين أنفسهم لا يعطون المسلمين المحافظين المغترين عندهم حقوقهم، بل لا يمنحون حتى فئات وأقليات النصارى - الذين يخالفونهم من اللاتينيين الكاثوليك والمورمن والإميش - حريتهم!!

والعالم اليوم يرى الغربيين المتشدقين بحقوق الإنسان يتغاضون عن مآسي المسلمين في مختلف البلدان، ويتهمون العمل الإسلامي الخيري الإغاثي في كل مكان. وما يوافق مصالح المسلمين ويعارض مصالحهم يضعونه في قائمة الإرهاب، مع أن في الغرب أكثر من ١٤٠٠ تنظيم متطرف، منها: النازيون الجدد، وحليقو الرؤوس، والذئاب الغبر، والألوية الحمراء، والصليبيون الجدد، وأصحاب القمصان الزرق. وفيها العديد من المنظمات والحركات السرية الهدامة كـ «الصليب الوردي» و«اليسوعية» و«أصحاب الأيكة» و«البنائي برث» ونوادي «اليوغا».

وقد اجتاحت (الاشتراكية الكافرة) نصف الكرة الأرضية تقريباً، سافكة دماء ٨٠ مليوناً من البشر، وفق إحصاءات إعادة البناء (البروسترويكا) ثم سقطت في النهاية مستسلمة للرأسمالية اليهودية.

والغريون ينحازون دائماً للصهاينة ويركزون على اتهام هتلر بالإبادة لأنه قتل اليهود، ويتغاضون عن إبادات «ستالين» و«روزفلت» و«تشرشل» و«ماوتسي تونغ» و«نتنياهو»، وعن الذين أبادوا وقتلوا بوحشية المدنيين بتدمير دوسلدورف الألمانية ودمروا هيروشيما وناجازاكي اليابانيتين بالقنابل النووية، ودمروا الصومال والعراق وأفغانستان وغيرها.

ويصرح بعضهم في مناسبات كثيرة وعبر عقود طويلة بأن الاعتدال هو الاعتراف بدولة الاحتلال الصهيوني على أرض فلسطين، وأن التشدد هو رفض ذلك. فهم يجرمون مقاومة الاحتلال والعدوان - كما في فلسطين - ويصنّفونه إرهاباً، ويسعون لعزل جريمة احتلال فلسطين والمسجد الأقصى عن بقية المسلمين، وجعلها مجرد قضية بين دولتين. كما أنهم ينهكون اقتصاد الدول الشرقية، ويفتعلون قضايا الإرهاب وإشغال المسلمين بها عن الإرهاب الحقيقي وهو «الإسلاموفوبيا».

وقد ظهرت عدوانية الغرب للمسلمين في الحروب الصليبية، واستعمار البلدان الإسلامية الضعيفة، ونهب ثرواتها، وبث إعلام الغزو الفكري والسلوكي، وفرض الثقافة واللغة الغربية، وزعزعة الاقتصاد في البلدان الأخرى، وإبقاء هيمنة الدولار - الذي أصبح ورقاً ولم يعد له أي تغطية حقيقية بمقابل من الذهب -؛ لإبقاء التفوق العسكري والاقتصادي الغربي.

كما أنهم مسخوا العلاقات الدولية المعاصرة لتقوم على المصالح المادية للدول، وليس على الحق والمبدأ، وجعلوا حق النقض «الفيتو» حكراً على الدول التي هزمت «هتلر»، ولم يغيروا ذلك منذ عقود، وهو ظلم لبقية شعوب الأرض، ومما يطالب أكثر الدول بتعديله في ميثاق الأمم المتحدة.

وينادي الغربيون بمبادئ ومعايير غير منضبطة لديهم، ويفسرها كل منهم على ما يهوى، ومن أمثلة ذلك: الحشمة، والاعتدال، والمعقولة، والترشيد، والشفافية، والعدالة الانتقالية، والإرهاب.

واستخدموا قوة الإعلام في التلاعب بالمصطلحات؛ فيسمون احتلالهم «مطلباً حكومياً»، ويسمون حربهم على الإسلام «مكافحة الإرهاب»، ويسمون إقصاء المنتخبين «قضاء على الديكتاتورية»، ويسمون دعمهم للصهاينة «نشراً للديمقراطية»، ويسمون غزوهم لبلاد المسلمين «تحريراً»، ويسمون الدياثة «تطوراً»، ويسمون الهيمنة الاقتصادية «استثماراً»، ويسمون احتكارهم «تسويقاً»، ويسمون النهب «تنمية».

والواقع أن التقدم المادي المفتقد للإيمان هو انحراف يؤدي للكوارث في أية لحظة، كما في الحروب العالمية المجنونة التي قادتها أكثر دول العالم تقدماً مادياً في ذاك الوقت. وقد قال كبير فلاسفة القرن العشرين «برتراند رسل»: «إن نظامي روما وموسكو يعني الرأسمالية والشيوعية - لم يجلبا للبشرية إلا الدمار».

ولذلك نجد أن الدين الوحيد الذي أنشأ حضارةً هو: الإسلام. أما بقية الديانات فقد احتضنتها حضارات؛ فالحضارة الغربية احتضنت المسيحية، والحضارة الهندية احتضنت الهندوسية، في حين أن الإسلام قد أسَّس «الحضارة الإسلامية»، وبدخوله للقسطنطينية عام ٨٥٧هـ - ١٤٥٣م انتهت العصور الوسطى المظلمة في أوروبا.

فتاريخ انتهاء العصور المظلمة هو ٨٥٧هـ - ١٤٥٣م، وهو العام نفسه الذي دخل فيه الإسلام أوروبا، وما أن دخل الإسلام قلب أوروبا حتى شَعَّ فيها نور العلم بعد أن كانت شوارعُ عواصم أوروبا أشبه بالمراحيض العمومية. والعجيب أن الغربيين اليوم يريدونك أن تخجل من مركز القيمة الراقية في دين الإسلام، وأن تستورد منهم القيم الأرضية الدنيوية الساقطة.

إنَّ دين الإسلام الحق قد جاء متممًا لمكارم الأخلاق، وعَلَّمَ الإنسان أنه يؤدي ما عليه قبل أن يطالب بما هو له، وأن يحرص الفرد على الوصول إلى الحق سواء كان له أو عليه، وبالإسلام يسعى المجتمع إلى التراحم والتكافل والتواصل بدلًا من التناحر والتنافس، ويخلص كل موظف في عمله ويتقنه ولو ضعفت الجهات الرقابية أو عُدمت أو تحيزت، ويأمن المجتمع ويطمئن، ويضع حدًا لسعار الشهوة وتطور الجريمة والفساد، وينعم الناس بالإخوة الإيمانية، ويتجنبون مهالك النعرات الجاهلية والتمزق الحزبي والقبلي والطبقي، وبالدين ينقاد الشريف للوضع في النسب؛ كما انقاد كبار قريش لابن أبزى مع أنه مولى.

وبالدين يُجمَع بين دولة العقيدة ودولة الرفاهية، وفي ذلك خير الدنيا والآخرة، كما كان عليه المسلمون في قرونهم الأولى وحضارتهم الباهرة في وقت عصور ظلام أوروبا. وعليه؛ فلو لم يكن الإسلام الحنيف بين أيدينا؛ لكان الواجب علينا أن نبحث عنه في أي مكان، ونشتريه بأي ثمن، ونستمسك به؛ لأنه يحقق السعادة والعدالة والأمن والرخاء.

ومن المهم أن يعرف المسلم كيف اجتمع اليهود والنصارى على حرب المسلمين مع أن اليهود والنصارى كانوا يعادون بعضهم البعض؟! فاليهود ملعونون في الإنجيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكاثوا يعتدون، وعند النصارى فإن أعظم جرائم اليهود ليست مجرد الكفر بالله وشتم المسيح واتهامه بالسحر والكذب وشتم أمه واتهامها في عرضها وقتل الأنبياء وإنكار التثليث وتضليل النصارى والوعد بقتلهم فقط؛ بل يرون أعظمها: قتل ربهم المسيح (كما يزعمون)!!! ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾.

وهكذا ظلت العداوة لا تنطفئ بين الطائفتين - اليهود والنصارى -، واستمرت الكنيسة البابوية التي مقرها روما في لعن وعداوة اليهود، وقامت حملات عارمة تزعمها البابا لتنظيف المجتمعات الأوروبية من اليهود، وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر استمرت حملات التنظيف؛ فنظفت بريطانيا وألمانيا وفرنسا وكثير من دول أوروبا من اليهود؛ لأنهم يرونهم أخطر خلق الله وأكثرهم شراً - وهم كذلك -.

ومن جحيم أوروبا في عصور ظلماتها لجأ اليهود إلى كنف الأندلس وآواهم المسلمون، وبعدما احتل النصارى مدريد الإسلامية وشنوا حربهم الإبادية الشاملة على المسلمين في الأندلس شمل ذلك اليهود معهم؛ فلجئوا إلى الولايات التركية وخاصة اليونان. ثم لما ظهرت الحركة البروتستانتية النصرانية ابتهج اليهود هذه الحركة ووجدوا فيها متنفساً لهم وفرصة للانتقام من البابا وأتباعه وضرب النصارى بعضهم ببعض؛ فسخروا مكرهم ودهاءهم وأموالهم لنشرها، والبروتستانت: هي الطائفة النصرانية التي تحتج على البابا - زعيم الكاثوليك -، وتخرج عليه وتؤمن بأن البشر لا يتوسطون بين الناس وبين الله، وقالوا: إن على كل إنسان أن يقرأ الكتاب

المقدس مباشرة ويطبقه مباشرة، وترفض احتكار رجال الكهنوت لتعليم الدين وتفسير الإنجيل، وقد تأثروا في ذلك بالمسلمين إبان الحروب الصليبية؛ إذ رأوا أن المسلمين يتعاملون مع كتاب الله مباشرة، ولا يتوسط أحد بينهم وبين الله ﷻ.

والذي حدث في أوروبا أنه بعد ظهور هذه العقيدة بدأ الناس يرجعون إلى الأصول التوراتية اليهودية المحرفة، وقام مارتن لوثر صاحب حركة البروتستانت بترجمة التوراة المحرفة إلى اللغة الألمانية، وكذلك الإنجليزية، وقد انتشرت الحركة البروتستانتية أكثر ما انتشرت في ألمانيا وبريطانيا وآمن هؤلاء بحرفية الكتاب المقدس وعصمة التوراة المحرفة، وأن كل حرف في التوراة المحرفة هو حق من عند الله، فآمنوا به وبضرورة تحقيقه، وأعرضوا عن تفسيرات البابا ورجاله للعلاقة مع اليهود.

وقد خرج النصارى البروتستانت من أوروبا بروح التدين التوراتي المحرف، فلما دخلوا أمريكا تفاءلوا بأن هذا خروج كخروج بني إسرائيل من التيه ودخلهم إلى الأرض المقدسة، وأخذوا يسمون المدن والمناطق في أمريكا بأسماء من التوراة المحرفة، واعتقدوا أن هذه الأرض البكر بشرى بشرهم الله بها في الدنيا، وتأسس المجتمع الأمريكي على أساس بروتستانتية توراتي، وكان ذلك من آثار استغلال اليهود الكتاب المحرف الذي يؤمن به اليهود والنصارى معاً، وهو القسم الأول من الكتاب المقدس الذي يتكون من قسمين يسمون كلا منهما عهداً، فالأول هو العهد القديم وهو التوراة التي تشتمل على النصوص المحرفة التي تمجد اليهود والمتناقضة مع ما في الإنجيل من لعن اليهود وعداوتهم، والآخر هو العهد الجديد وهو الأناجيل والرسائل المحرفة.

ولذلك يتعاون اليهود والنصارى على حرب الإسلام والمسلمين، ومن الناحية السياسية يتفقون على أهمية إقامة دولة موالية للغرب في قلب العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة تقوم بإثارة المشاكل وإشغال دول المسلمين وإضعافهم دينياً وفكرياً

واقتصادياً وتفصل مشرقهم عن مغربهم وتعمل على عدم اتحادهم حتى لا تعود الخلافة الإسلامية من جديد. وقد تعهد اليهود أن يقوموا بهذه المهام مقابل دعم النصارى لهم لتحقيق المصلحة للطرفين.

كما يتفق اليهود والنصارى أيضاً من الناحية العقدية على أن قيام دولة إسرائيل وتجمع بنى إسرائيل في فلسطين هو تمهيد لنزول المسيح المنتظر الذي يحالفه النصر ويحكم العالم ويقضي على أعدائه، كما يفسره كل منهما، وأنه ستكون هناك حرب لا هوادة فيها ببلاد الشام وهي (معركة هرمجدون). لكنهم يختلفون في من هو هذا المسيح المنتظر؟ هل هو عيسى ابن مريم كما يؤمن النصارى وأنه سيقتل اليهود والمسلمين؟ أم هو ملك يهودي من نسل داود (المسيح الدجال) كما يزعم اليهود وأنه سيقتل النصارى والمسلمين؟!

ويعتقد كل من الطائفتين أنه سيتنصر بقيادة المسيح الذي ينتظره ويفني الآخرين تماماً!!.

واليهود ﴿صُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَيَنْ مَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ﴾ وهم بحاجة إلى من يساندتهم من الناس، ولذا ابتدع حاخامات صهيون حيلة أقرهم عليها قادة الإنجيليين النصارى وهي تأجيل الخوض في نتيجة (معركة هرمجدون) التي ينتظرها كل منهما ليهلك الآخر، وأن تظل هذه المسألة معلقة تماماً ولا يتم التطرق لها، وأن يكون التعاون بينهما على مبدأ التهيئة لنزول المسيح المنتظر بإقامة دولة تجمع بنى إسرائيل في فلسطين، فإذا نزل المسيح فعندها يرى؛ أهو مسيح اليهود أم مسيح النصارى. لأن الخوض في نتيجة المعركة حالياً ليس من مصلحة الطائفتين معاً!! لكن المصلحة المحققة لهما تكون بأن يعملوا سوياً للقضاء على العدو المشترك لهما وهو (المسلمون)!! وهم يسعون بجهود حثيثة سياسياً وعسكرياً إلى إخضاع بلاد العرب والمسلمين للرهبة اليهودية العسكرية، وفرض الحماية الغربية

على المنطقة، ثم من خلال ما يسمى بمنظورهم (عملية السلام) مع العرب؛ يسعون إلى التضييق على الدعوة الإسلامية وتغيير المناهج الإعلامية والتعليمية لمحو كل ما يثير العداء نحو اليهود، وفرض السيطرة المالية الاقتصادية ونشر الثقافة اليهودية والنصرانية ونهب ثروات المنطقة النفطية والمائية وإفساد بلاد المسلمين أخلاقياً عن طريق السياحة والآثار والترفيه، وفتح الباب لغزو الجاسوسية لأماكن ما كانت تحلم بها من قبل.



بقاء طائفة منصوره على الحق والجهاد

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ مَا دَامَ الْعَدُوُّ يُقَاتِلُ»، «سَتَكُونُ هَجْرَةً بَعْدَ هَجْرَةٍ، فَخِيَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ أَلَزَمُهُمْ مُهَاجَرَةُ إِبْرَاهِيمَ»، «إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلَا خَيْرَ فِيكُمْ»، «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَوَّامَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُمْ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يُبَالُونَ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ نَصَرَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ، يُزِيغُ اللَّهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ فِيَقَاتِلُونَهُمْ وَيَرْزُقُهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ عليه السلام وَيَنْزِلَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عليه السلام، حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمْ^(١) الْمَسِيحَ الدَّجَالَ»، «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَلِكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا».



(١) قال مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عليه السلام: وَهُمْ أَهْلُ الشَّامِ.

كثرة المال والترف والتجارة

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»، «سَيَكُونُ رَجَالٌ مِنْ أُمَّتِي يَأْكُلُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ، وَيَشْرَبُونَ أَلْوَانَ الشَّرَابِ، وَيَلْبَسُونَ أَلْوَانَ اللِّبَاسِ، وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ، أُولَئِكَ شِرَارُ أُمَّتِي». «سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُغْدِي عَلَى أَحَدِكُمْ بِالْقِصْعَةِ مِنَ الثَّرِيدِ وَيَرَاخُ عَلَيْهِ بِمِثْلِهَا»، «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَرَاخَ فِي حُلَّةٍ؟ وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ وَرُفِعَتْ أُخْرَى؟ وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُّ الْكُعْبَةُ؟»، «وَحَتَّى يَبْنِيَ النَّاسُ بُيُوتًا يُوشُونَهَا وَشِيَ الْمَرَا حِيلُ^(١)، وَأَنْتُمْ عَلَى دِينِكُمْ الْيَوْمَ، لَأَنْتُمْ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ»، «إِنَّ الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ أَهْلَكَمَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَهُمَا مُهْلِكَاكُمْ»، «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعْفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ؛ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ».

«وَأَنْ تَفْشُو التَّجَارَةَ، وَتَتَقَارَبَ الْأَسْوَاقُ، وَيَبِيعَ الرَّجُلُ الْبَيْعَ فَيَقُولَ: لَا، حَتَّى أَسْتَأْمِرَ تَاجِرَ بَنِي فَلَانٍ»^(٢)، «حَتَّى تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التَّجَارَةِ»، «وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِضُ، حَتَّى يُهِمَّ رَبُّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ، يَخْرُجُ بِزَكَاةٍ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ، يَقُولُ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ: لَا أَرَبَ لِي بِهِ».

(١) (وَشَيْ الثَّوْبِ): نَفْسُهُ. يَعْنِي الثِّيَابَ الْمُحَطَّطَةَ. وَالْمَرْحَلُ: الَّذِي قَدْ نُفِشَ فِيهِ تَصَاوِيرُ الرِّحَالِ،

ومنه الحديث: كَانَ يَصْلِي وَعَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْمُرَحَّلَاتِ، يَعْنِي الْمُرُوطِ الْمُرَحَّلَةِ.

(٢) أي: يريد أن يبيع المبيع لمن سامه؛ (فَيَقُولُ: لَا). أي: لَا أَعْقِدُ الْبَيْعَ مَعَكَ (حَتَّى أَسْتَأْمِرَ تَاجِرَ

بَنِي فَلَانٍ)، أي: حَتَّى أَشَاوَرَهُ. وَمُرَادُهُ أَنْ يَسْأَلَهُ عَنْ سَعْرِ الْمَتَاعِ؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا يَزِيدُ عِنْدَهُ، وَهَذَا

دَلِيلٌ عَلَى كَثْرَةِ اهْتِمَامِ النَّاسِ، وَحِرْصِهِمْ عَلَى إِصْلَاحِ الدُّنْيَا. أَوْ أَنَّهُ إِشَارَةٌ لِلْوَكَالَاتِ التِّجَارِيَةِ

وَأَنْظَمَتَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

انتشار الكتابة وكثرة الجهل

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «وَيَظْهَرُ الْقَلَمُ»، «وَيَقِلُّ الْعِلْمُ»، «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ»^(١)، «وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ»، «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ثَلَاثًا إِحْدَاهُنَّ أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ»، «وَيَنْقُصَ الْعَمَلُ».

كثرة الفساد والفتن

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «تَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتْنٌ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ أَقْوَامٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا».

«مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أَصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ»^(٢)، فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا

(١) لعل من ذلك موت العلماء، ومنه حين يترك العمل بالقرآن والسنة، وتكون تلاوة القرآن دون

العمل به، وقد ذَكَرَ النَّبِيُّ عليه السلام شيئًا، فَقَالَ: (ذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ)، قال راوي الحديث زياد بن لبيد: يا رسول الله، وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ، وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَنَقْرَأُهُ أَبْنَاءَنَا، وَيُقْرَأُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ عليه السلام: (تَكِلْتِكَ أُمَّكَ زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأُرَاكَ مِنْ أَفْقِهِ رَجُلٌ بِالْمَدِينَةِ، أَوْ لَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ لَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا).

(٢) الْيَمُّ: الْبَحْرُ وَالنَّهْرُ الْعَظِيمُ، قِيلَ هُوَ كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ. وَقِيلَ مَعْرَبٌ عَنِ السَّرْيَانِيَّةِ وَأَصْلُهُ فِيهَا (يَمًا)

وَقَالَ شَيْدَلَةُ: هُوَ مِنَ الْقَبْطِيَّةِ، وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: هُوَ مِنَ الْعِبْرِيَّةِ، وَلَعَلَّهُ مَوْجُودٌ فِي هَذِهِ

اللُّغَاتِ. وَلَعَلَّ أَصْلَهُ عَرَبِيٌّ وَأَخَذَتْهُ لُغَاتُ أُخْرَى سَامِيَّةٌ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ وَأَطْلَقَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى بَحْرِ

تَرْجِعُ». «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا مَرَجَ الدِّينُ وَظَهَرَتِ الرَّغْبَةُ»^(١)، «وَوَضَعَتِ الزَّيْنَةُ»^(٢)، «وَيَظْهَرُ الزَّنَا»، «وَتُشْرَبُ الْخَمْرُ»، «وَتَظْهَرُ الْفِتْنُ»، «إِذَا اسْتَحَلَّتْ أُمَّتِي خَمْسًا فَعَلَيْهِمُ الدَّمَارُ: إِذَا ظَهَرَ التَّلَاعُنُ، وَشَرِبُوا الْخُمُورَ، وَلَبَسُوا الْحَرِيرَ، وَاتَّخَذُوا الْقِيَانَ، وَاکْتَفَى الرَّجَالُ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ»، «وَإِذَا سُفِكَ الدَّمُ»، «وَاخْتَلَفَ الْإِخْوَانُ»، «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالْبُخْلُ»، «وَيُلْقَى الشُّعْ»، «وَيَكْثُرُ الْكَذِبُ»، «وَيَظْهَرُ النِّفَاقُ»، «وَسَهَادَةُ الزُّورِ»، «وَكَيْتْمَانُ شَهَادَةِ الْحَقِّ»، «وَقَطْعُ الْأَرْحَامِ»، «وَتَرْفَعُ الْأَمَانَةُ»، «وَتَقْبِضُ الرَّحْمَةُ»، «سَيَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ شَرِطَةٌ يَغْدُونَ فِي غَضَبِ اللَّهِ وَيَرُوحُونَ فِي سَخَطِ اللَّهِ، فِي أَيْدِيهِمْ أَسْيَاطٌ مِثْلُ أَذْنَابِ الْبَقَرِ»، «بَادِرُوا بِالْمَوْتِ سِتًّا: إِمْرَةُ السُّفْهَاءِ»^(٣)، «وَبَيْعُ الْحُكْمِ»^(٤)، «وَكَثْرَةُ الشَّرِّطِ»^(٥)، «وَأَسْتِخْفَافًا بِالْدَّمِ»^(٦)، «وَقَطِيعَةَ الرَّحِمِ»..



الْقُلُومُ، الْمَسْمُومُ فِي التَّوْرَةِ بِحَرْ سُوفَ، وَهُوَ الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ. وَعَلَى نَهْرِ النِّيلِ، وَكِلَاهُمَا لَهْمَا اتِّصَالٌ بِأَرْضِ مِصْرَ.

(١) قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: (الرَّغْبَةُ) قِلَّةُ الْعِفَّةِ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ.

(٢) وَقَدْ ظَهَرَتِ الزَّيْنَةُ وَانْتَشَرَتْ فِي الْأَبْنِيَةِ وَالْأَلْبَسَةِ وَالْأَسْوَاقِ وَالْمَرْكُوبَاتِ وَحَتَّى نَعَالِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

(٣) السُّفْهَاءُ: الصَّغِيرُ وَنَاقِصُ الْعَقْلِ، لَمَّا يَحْدُثُ مِنْهُمْ مِنَ الْعَنْفِ وَالطَّيْشِ.

(٤) بَيْعُ الْحُكْمِ: بِأَخْذِ الرِّشْوَةِ فِي الْقَضَاءِ.

(٥) أَيُّ كَثْرَةِ الْجَنْدِ بِأَبْوَابِ الْأَمْرَاءِ وَالْوَلَاةِ وَبِكَثْرَتِهِمْ غَالِبًا يَكْثُرُ الظُّلْمُ.

(٦) اسْتِخْفَافًا بِالْدَّمِ: أَيُّ بِحَقِّهِ، وَأَنْ لَا يَقْتَصَّ مِنَ الْقَاتِلِ.

طلب الدنيا بقراءة وتعلم القرآن

.. وَنَشَأُ^(١) يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ، يُقَدِّمُونَ الرَّجُلَ^(٢) لَيْسَ بِأَفْقَهُمْ وَلَا بِأَعْلَمِهِمْ مَا يُقَدِّمُونَهُ إِلَّا لِيُغْنِيَهُمْ غِنَاءً، وَإِنْ كَانَ أَقْلَهُمْ فَفَهًا.

«إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ؛ الَّذِي إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ حَسْبْتُمُوهُ يَخْشَى اللَّهَ.»
«كِتَابُ اللَّهِ وَاحِدٌ، وَفِيكُمْ الْأَحْمَرُ وَفِيكُمْ الْأَبْيَضُ، وَفِيكُمْ الْأَسْوَدُ، اقْرَءُوا فَكُلُّ حَسَنٌ، تَعْلَمُوهُ وَابْتَغُوا بِهِ اللَّهُ ﷻ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ زَمَانٌ يَتَعَلَّمُهُ نَاسٌ يَقُومُونَهُ كَمَا يَقُومُ السَّهْمُ^(٣)، يَتَعَجَّلُونَ أَجْرَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ»^(٤).

«تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، وَسَلُّوا اللَّهَ بِهِ الْجَنَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ بِهِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَتَعَلَّمُهُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ يُبَاهِي بِهِ، وَرَجُلٌ يَسْتَأْكِلُ بِهِ، وَرَجُلٌ يَقْرَأُهُ ﷻ»^(٥).

(١) أي جماعة أو فتياناً أحياناً صغاراً، قيل لأن ذلك يكثر فيهم.

(٢) يعني يقدمونه لإمامتهم في الصلاة من أجل صوته وتلحينه ليطربهم، وفي رواية عن أبي ذر ﷺ: «يقدمون الرجل يؤمهم».

(٣) أي: يضبطون تجويد القراءة ومراعاة صفات ومخارج الأحرف.

(٤) أي: يرجون بذلك أجر الدنيا العاجل من المال أو الجاه والمباهاة والخطوة عند الناس، ولم يخلصوا لله فيبتغوا بتعلم القرآن وقراءته وجه الله وما أعدّه الله من الأجر في الآخرة.

(٥) ينبغي لقارئ القرآن أن يخلص في تلاوته لله عز وجل، وقد يكسل القارئ عن القراءة بأعلى مراتب التحسين والتجويد إن كان وحده، وينشط مع غيره ممن يستمع له، لكن عليه أن ينوي الخير والنفع بزيادة تجويد قراءة القرآن ليؤجر بنيتة في الخير وحسن قصده، وقد قال أبو موسى الأشعري للنبي ﷺ لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحبته لك تحجيراً يَبْتَغِي بِذَلِكَ فضيلة تحسين التلاوة وإرضاء ربه بإسماع رسول الله ﷺ ما يحبه، فقد كان ﷺ يحب أن يسمع القرآن من غيره وهو يتلوه تلاوة حسنة، كما قال ﷺ لعبد الله بن مسعود حين أمره

تغير أحوال المساجد

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «سَيَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يَجْلِسُونَ فِي الْمَسَاجِدِ حَلَقًا حَلَقًا، يَكُونُ حَدِيثُهُمْ فِي مَسَاجِدِهِمْ، إِمَامُهُمُ الدُّنْيَا، فَلَا تُجَالِسُوهُمْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ فِيهِمْ حَاجَةٌ»، «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَمُرَّ الرَّجُلُ بِالْمَسْجِدِ لَا يُصَلِّي فِيهِ رَكَعَتَيْنِ»، «وَأَنْ تَتَّخِذَ الْمَسَاجِدُ طُرُقًا»، «يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رَجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى سُرُجٍ كَأَشْبَاهِ الرَّحَالِ^(١) يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ»، «أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْخُشُوعُ، حَتَّى لَا تَرَى فِيهَا خَاشِعًا»، «وَيَبْهَاهِ النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ»، «إِذَا زَخَرْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ، وَحَلَيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ؛ فَالْدَّمَارُ عَلَيْكُمْ».

ضياع الأمانة والتعلق بالدنيا

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ الصَّلَاةَ، فَيُضْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ؛ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي

بِقِرَاءَةِ مَا تَبَسَّرَ مِنْهُ: «إِنِّي أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَ مِنْ غَيْرِي»، وَلِيَحْمَدَهُ النَّبِيُّ عليه السلام وَيَدْعُو لَهُ، فَيَحْصِلُ لَهُ الْخَيْرُ وَالْبِرَّةُ، كَمَا فَعَلَ أَبُوبَيٍّ حَيْثُ سَأَلَهُ فَأَجَابَهُ، فَقَالَ: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أبا الْمُنْذِرِ». قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: «وَفِي هَذَا جَوَازُ تَحْسِينِ الصَّوْتِ وَتَجْوِيدِ التَّلَاوَةِ لِأَجْلِ انْتِفَاعِ السَّامِعِينَ، وَلَا يُقَالُ إِنَّ زِيَادَةَ التَّجْوِيدِ فِي ذَلِكَ رِيَاءٌ لِأَجْلِ الْخَلْقِ إِذَا كَانَ الْمُقْصُودُ اجْتِنَابُ نَفْعِهِمْ، فَأَمَّا الْأَلْحَانُ الَّتِي يَصْنَعُهَا قِرَاءَةُ هَذَا الزَّمَانِ فَمَكْرُوهَةٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ، لِأَنَّهَا مَأْخُودَةٌ مِنْ طَرَائِقِ الْغِنَاءِ».

(١) (الرحال) جمع رحل، وهو كل شيء يعد للرحيل من وعاء للمتاع ومركب للبعير. ولعل فيه إشارة للمركبات والسيارات الحديثة.

فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ، وَمَا أَظْرَفَهُ، وَمَا أَجْلَدَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ». «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُؤْمِسِي كَافِرًا، أَوْ يُؤْمِسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بَعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا، لِيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالُ، أَمِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ».

صدق رؤيا المؤمن

وقال ﷺ: «فِي آخِرِ الزَّمَانِ لَا تَكَادُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِبُ، وَأَصْدَقُهُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُهُمْ حَدِيثًا».

انتفاخ الأهلة

وروي عنه ﷺ أنه قال: «مِنْ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ: انْتِفَاخُ الْأَهْلَةِ؛ «إِنَّ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ: أَنْ يَرَى الْهَلَالَ لِلَّيْلَةِ يَقَالُ: لِلَّيْلَتَيْنِ»^(١).

فناء قريش وزوال ملكها

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «أَسْرَعُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ فَنَاءُ قُرَيْشٍ، وَيُوشِكُ أَنْ تَمُرَّ الْمَرْأَةُ بِالنَّعْلِ، فَتَقُولَ: إِنَّ هَذَا نَعْلُ قُرَيْشٍ»، «كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي حِمِيرٍ، فَزَعَهُ اللَّهُ ﷻ

(١) قد يفهم منه أن ذلك يكون فيما يرى للناس لأي سبب من الأسباب، وأن الهلال على حقيقته لم ينتفخ، والله أعلم.

مِنْهُمْ فَجَعَلَهُ فِي قَرِيْشٍ، وَسَيَعُوْذُ إِلَيْهِمْ»، «لَا تَقُوْمُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِّنْ قَحْطَانَ يَسُوْقُ النَّاسَ بَعْصَاهُ».

تغير موازين الصدق والأمانة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ سَنَوَاتٌ خَدَاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ»، «حَتَّى يُخَوِّنَ الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ»، «وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ» (الرَّجُلُ التَّافَهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ).

مضر تفتن الصالحين

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى مُضَرَ^(١) يَوْمٌ لَا تَدْعُ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ عَبْدًا صَالِحًا إِلَّا فَتَنَتْهُ وَأَهْلَكَتَهُ، حَتَّى يُدْرِكَهَا اللَّهُ بِجُنُودٍ مِنْ عِبَادِهِ، فَيَذَلُّهَا حَتَّى لَا تَمْنَعَ ذَنْبَ تَلْعَةٍ^(٢)».

انقلاب سيادة الناس

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «لَا تَذْهَبُ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي حَتَّى يَمْلِكَ رَجُلٌ مِّنْ

(١) مُضَرَ: هي القبيلة المشهورة التي منها جميع بطون قَيْسٍ وقريش وغيرهم.

(٢) التلعة: مَسِيلُ الْمَاءِ مِنْ أَعْلَى الْوَادِي، ومعنى (لَا تَمْنَعُ ذَنْبَ تَلْعَةٍ) أي: لَا تَحْمِي وَلَا تَحْفَظُ مِثْلَ هَذَا الْمَكَانِ، لضعفها وهوانها.

المَوَالِي يُقَالُ لَهُ الْجَهْجَاهُ»^(١). «إِذَا رَأَيْتَ الْعَرَبَ أَهْلَ الْبَادِيَةِ الْعُرَيْبِ الْعَالَةَ الْحَفَاءَةَ
الْعُرَاءَةَ الْجِيَاعَ الصُّمَّ الْبُكْمَ رُعَاةَ الشَّاءِ رُعَاةَ الْإِبِلِ الْبُهْمَ يَتَطَاوُلُونَ فِي الْبُنْيَانِ، وَكَانُوا
مُلُوكَ الْأَرْضِ وَرُؤُوسَ النَّاسِ»^(٢)، «وَشَرُفَ الْبُنْيَانِ»^(٣)، «وَيَهْلِكَ الْوُعُولُ» (وَجُوهُ
النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ)، «وَتَظْهَرُ التَّحَوُّتُ» (الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ لَا يَعْلَمُ بِهِمْ)،
«وَأَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّهَا وَرَبَّتَهَا»^(٤).

اثنا عشر ألفاً يخرجون من عدن لنصرة الدين

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «يَخْرُجُ مِنْ عَدَنٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا، يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،
هُمْ خَيْرٌ مِنْ بَنِي وَبَيْنَهُمْ».

حصار العراق والشام ومصر والمدينة

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «يُوشِكُ أَهْلُ الْعِرَاقِ أَنْ لَا يُجِبِيَ إِلَيْهِمْ قَفِيزٌ وَلَا
دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ الْعَجَمِ يَمْنَعُونَ ذَاكَ». «وَيُوشِكُ أَهْلُ الشَّامِ أَنْ لَا يُجِبِيَ إِلَيْهِمْ دِينَارٌ

(١) أَضْلُ الْجَهْجَاهِ: الصِّيَاحُ.

(٢) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: الْمَقْصُودُ الْإِخْبَارُ عَنْ تَبَدُّلِ الْحَالِ، بِأَنْ يَسْتَوِلِيَ أَهْلُ الْبَادِيَةِ عَلَى الْأَمْرِ، وَيَتَمَلَّكُوا
الْبِلَادَ بِالْقَهْرِ، فَتَكْثُرُ أُمُالُهُمْ، وَتَنْصَرِفُ هِمَمُهُمْ إِلَى تَشْيِيدِ الْبُنْيَانِ وَالتَّفَاخُرِ بِهِ.

(٣) أَي: ارتفع البناء.

(٤) الْأُمَّة: هِيَ مَنْ ثَبَتَ عَلَيْهَا الرِّقُّ، فَتَكُونُ مَمْلُوكَةً لِسَيِّدِهَا، وَالْمَعْنَى: أَنْ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ
تَكْثُرَ السَّرَارِيُّ بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى تَلِدَ الْمَمْلُوكَةَ سَيِّدَتَهَا، أَيْ تَحْمِلَ مِنْ سَيِّدِهَا وَتَلِدَ سَيِّدَتَهَا؛ لِأَنَّ

بَنَتِ السَّيِّدَ: سَيِّدَةً، وَابْنِ السَّيِّدِ: سَيِّدًا.

وَلَا مُدْيٍ، مِنْ قَبْلِ الرُّومِ يَمْنَعُونَ ذَاكَ»، «وَمَنَعَتْ مِصْرُ إِزْدَبَهَا وَدِينَارَهَا»، «وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ»، «وَحَتَّى يُحَاصِرَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى يَكُونَ أَبْعَدَ مَسَالِحِهِمْ^(١)»، «سَلَّاحُ»^(٢)، «لَيَأْرِزَنَّ الْإِيمَانُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا»^(٣).

كثرة القتل وموت الفجأة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «وَيَكْثُرُ الْقَتْلُ»، «وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ»، لَيْسَ بِهِ الدِّينُ، مَا بِهِ حُبُّ لِقَاءِ اللَّهِ، مَا بِهِ إِلَّا الْبَلَاءُ». «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيْمَ قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيْمَ قُتِلَ»^(٤). «مِنْ أَفْتِرَابِ السَّاعَةِ: أَنْ يَفْشَوْ مَوْتُ الْفُجَاءَةِ».

اقتتال الناس على معادن تخرجها الأرض

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «سَتَكُونُ مَعَادِنُ يَحْضُرُهَا شِرَارُ النَّاسِ»، «لَا

(١) الْمَسْلَحَةُ: الثَّغْرُ مِنَ الْبِلَادِ، وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُخَافُ مِنْهُ هُجُومُ الْعَدُوِّ. وكذلك: المسالِح

تطلق على القوم ذوي السلاح.

(٢) مَوْضِعٌ أَسْفَلَ خَيْرٍ.

(٣) معنى (يأرز): يرجع ويثبت، كما أن الحية إذا خرجت من جحرها رجعت إليه، وذكر بعض أهل العلم أن في هذا إشارة إلى أن هذا الدين سوف يرجع إلى هذا المكان بعد أن تفسد البلدان الأخرى، والله أعلم.

(٤) فَقِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «الْهَرْجُ، الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ».

تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْسِرَ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ، وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ: لَعَلِّي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنْجُو، فَمَنْ حَضَرَهُ فَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ شَيْئًا». «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقِيءَ الْأَرْضُ أَفْلاذَ كِبِدِهَا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ أَمْثَالَ الْأُسْطُوانِ^(١)، فَلَا يُنْتَفَعُ بِهَا بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، يَمُرُّ بِهَا الرَّجُلُ فَيَضْرِبُهَا بِرَجْلِهِ وَيَقُولُ: فِي هَذِهِ كَانَ يَقْتَتِلُ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، وَأَصْبَحَتِ الْيَوْمَ لَا يُنْتَفَعُ بِهَا، فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ يَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ يَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحْمِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ يَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ يَدِي، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا».

قلة الرجال وكثرة النساء

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «وَيَقِلُّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرُ النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً قِيَمُهُنَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ».

تسارع الزمان

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «وَيَتَقَارَبُ الزَّمَانُ فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَاخْتِرَاقِ السَّعْفَةِ».

(١) (الْأُسْطُوان): السَّارِيَّة، وَالْعُمُود، وَشَبَّهَهُ بِالْأُسْطُوانِ لِعَظَمِهِ وَكَثْرَتِهِ.

كلام السباع والأشياء

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُكَلِّمَ السَّبَاعُ الْإِنْسَ، وَحَتَّى تُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذْبَهُ سَوْطِهِ^(١) وَشِرَاكَ نَعْلِهِ^(٢) وَتُخْبِرَهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ مِنْ بَعْدِهِ».

أمطار لا تنبت شيئاً

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُمَطِّرَ النَّاسُ مَطَرًا عَامًّا وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا».

عودة جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا».

كثرة الصواعق

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «تَكْثُرُ الصَّوَاعِقُ عِنْدَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ، حَتَّى يَأْتِيَ الرَّجُلُ الْقَوْمَ، فَيَقُولُ: مَنْ صُعِقَ قَبْلَكُمْ الْغَدَاةُ؟ فَيَقُولُونَ: صُعِقَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ».

(١) الْعَذْبَةُ: طَرَفُ السَّوْطِ.

(٢) الشَّرَاكُ: سَيْرُ النَّعْلِ الَّذِي يُمَسِّكُ بِالنَّعْلِ عَلَى ظَهْرِ الْقَدَمِ.

عودة قبائل إلى الشرك وعبادة الأوثان

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ»، «وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ»، «وَحُرِّقَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ»!

تناكر الناس وتسليم الخاصة

وروي عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ؛ أَنْ لَا يُسَلِّمَ الرَّجُلُ إِلَّا عَلَى مَنْ يَعْرِفُ»، «وَيُلْقَى بَيْنَ النَّاسِ التَّنَاكُرُ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يَعْرِفُ أَحَدًا».

الدخان والخسوفات والآيات الكبرى

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «لَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ: الدُّخَانُ^(١)، وَالذَّجَالُ، وَالذَّابَّةُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولُ عِيسَى

(١) جاء في تفاصيل وصفه روايات ضعيفة. قال ابن حجر: لكن تضافر هذه الأحاديث يدل على أن لذلك أصلاً. وقد وصف بأنه دخان عظيم عام يظهر قرب قيام الساعة بسبب ترك الحق، وكثرة المعاصي، يملأ الأرض كلها فتصبح كبيت أوقد فيه. يأخذ بالمؤمنين كالزكمة، وأما الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه. قال القرطبي رحمه الله: قال مجاهد: كان ابن مسعود يقول: «هما دخانان قد مضى أحدهما، والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض ولا يجد المؤمن إلا كالزكمة، وأما الكافر فتثقب مسامعه».

ابن مَرِيَمَ ﷺ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ..^(١)

وثلَاثَةٌ خُسُوفٍ: خُسُوفٌ بِالشَّرْقِ^(٢)، وَخُسُوفٌ بِالمَغْرِبِ، وَخُسُوفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ^(٣)، «وَتَكَثَّرَ الزَّلَازِلُ»، «وَأَخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ اليمَنِ»، «مِنْ قَعْرِ عَدَنِ»، «تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»^(٤)، «الآيَاتُ خَرَزَاتٌ مَنْظُومَاتٌ فِي سِلْكٍ، فَإِنْ يُقَطَّعَ السِّلْكُ، يَتَابَعْنَ كَمَا تَتَابَعُ الْخَرَزُ فِي النِّظَامِ»^(٥).

(١) سيأتي تفصيل الكلام عن هذه الآيات.

(٢) وروي حديث: «يَا أُنْسُ إِنَّ النَّاسَ يَمْضُرُونَ أَمْصَارًا وَإِنْ مِصْرًا مِنْهَا يُقَالُ لَهُ: الْبَصْرَةُ، فَإِنْ أَنْتَ مَرَرْتَ بِهَا، أَوْ دَخَلْتَهَا، فَإِيَّاكَ وَسَبَاحَهَا وَكَلَاءَهَا وَسُوقَهَا وَبَابُ أَمْرَائِهَا وَعَلَيْكَ بِضَوَاحِيهَا فَإِنَّهُ يَكُونُ بِهَا خُسُوفٌ وَقَذْفٌ وَرَجْفٌ، وَقَوْمٌ يَبْتَئُونَ؛ يُصْبِحُونَ قَرَدَةً وَخَنَازِيرَ». رواه أبو داود وصححه الألباني، ويرى بعض المحققين أنه لا يثبت رفعه، وأنه موقوف من قول عبد الله بن عمرو ﷺ، ولكون أنس ﷺ قد سكن البصرة.

(٣) جاء في الأحاديث عنه عليه الصلاة والسلام: «الْعَجَبُ أَنَّ أَنَاسًا مِنْ أُمَّتِي يُؤْمِنُونَ هَذَا الْبَيْتَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ اسْتَعَاذَ بِالْحَرَمِ، لَا تَنْتَهِي الْبُعُوثُ عَنْ غَزْوِ هَذَا الْبَيْتِ حَتَّى يُخَسَفَ بِجَيْشٍ مِنْهُمْ بِالْبَيْدَاءِ، سَيَعُودُ بِهَذَا الْبَيْتِ - يَعْنِي الْكَعْبَةَ - قَوْمٌ لَيْسَتْ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَلَا عَدَدٌ وَلَا عُدَّةٌ، يُبْعَثُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ؛ خُسِفَ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، وَلَمْ يَنْجُ أَوْسَطُهُمْ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُمْ إِلَّا الشَّرِيدُ الَّذِي يُخْرِ عَنْهُمْ». قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: إِنَّهَا لِبَيْدَاءِ الْمَدِينَةِ. وَعَنْ بُقَيْرَةَ الْهَلَالِيَةِ - امْرَأَةِ الْقَعْقَاعِ بْنِ أَبِي حَذَرٍ ﷺ - قَالَتْ: إِنِّي لَجَالِسَةٌ فِي صُفَّةِ النِّسَاءِ، فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ وَهُوَ يُشِيرُ بِيَدِهِ الْيُسْرَى، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِذَا سَمِعْتُمْ بِجَيْشٍ قَدْ خُسِفَ بِهِ هَهُنَا قَرِيبًا، فَقَدْ أَظَلَّتِ السَّاعَةُ».

(٤) المحشر: أرض الشام. وسيأتي ذكر هذه النار التي تحشر الناس.

(٥) (النظام): العقد من الجواهر والخرز ونحوهما، و(سلكه): خيطه. والمعنى: أنه لا يفصلُ بينهما فاصلٌ طويلٌ عُرْفًا.

خراب المدينة وأحداث آخر الزمان

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «إِذَا رَأَيْتَ الْخِلَافَةَ قَدْ نَزَلَتْ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ فَقَدْ دَنَتْ الزَّلَازِلُ وَالْبَلَايَا وَالْأُمُورُ الْعَظَامُ»، وقال النبي صلى الله عليه وآله عن المدينة: «وَيْحَ أُمِّهَا! قَرْيَةٌ يَدْعُهَا أَهْلُهَا أَيْنَعَ مَا يَكُونُ»^(١)، «عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ»، «مُرْتَبَةً مُوْنَعَةً»، «مُذَلَّلَةً أَرْبَعِينَ عَامًا» «يَأْكُلُ ثَمَرَهَا عَافِيَةُ الطَّيْرِ وَالسَّبَاعِ»، «حَتَّى يَدْخُلَ الذُّبُّ فَيَعْوِي عَلَى بَعْضِ سَوَارِي الْمَسْجِدِ أَوْ عَلَى الْمِنْبَرِ». «عُمَرَانُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ: خَرَابٌ يَثْرِبُ، وَخَرَابٌ يَثْرِبُ: خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ، وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ: فَتْحُ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ: خُرُوجُ الدَّجَالِ».

ظهور مهدي من العترة

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَمْتَلِئَ الْأَرْضُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي، مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، يَمْلَأُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مِلَأَتْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا»، «الْمَهْدِيُّ مِنْ عِتْرَتِي»^(٢) مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي، وَاسْمُ

(١) قد يكون سبب خروجهم وتركهم المدينة ما رواه عُمَرُ بْنُ شَبَّهٍ فِي كِتَابِهِ (تَارِيخُ الْمَدِينَةِ) قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ: حَدَّثَنَا حَرْبٌ، وَأَبَانُ بْنُ يَزِيدَ الْعَطَّارُ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو جَعْفَرٍ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «لَيَخْرُجَنَّ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ خَيْرَ مَا كَانَتْ، نِصْفًا زَهْوًا، وَنِصْفًا رُطْبًا. قِيلَ: مَنْ يَخْرُجُهُمْ مِنْهَا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: أُمَرَاءُ السُّوءِ. تَارِيخُ الْمَدِينَةِ لِابْنِ شَبَّهٍ (٢٧٧ / ١).

(٢) عترة الرجل: أحصى أفراده، وعترة النبي صلى الله عليه وآله بنو عبد المطلب، وقيل: قريش. والمشهور المعروف أنهم: الذين حرمت عليهم الزكاة.

أَبِيهِ اسْمُ أَبِي، أَجَلَى الْجَبْهَةِ^(١) أَقْنَى الْأَنْفِ^(٢)، يُصْلِحُهُ اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ^(٣)، يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا».

«يَلْبِثُ فِيكُمْ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا، فَإِنْ كَثُرَ فَتَسْعًا، فَتَنْعَمُ فِيهِ أُمَّتِي نِعْمَةً لَمْ يَنْعَمُوا مِثْلَهَا قَطُّ، وَلَا تَمْنَعُ السَّمَاءُ شَيْئًا مِنْ قَطْرِهَا وَلَا الْأَرْضُ شَيْئًا مِنْ نَبَاتِهَا، وَيُعْطِي الْمَالَ صِحَاحًا وَتَكْثُرُ الْمَاشِيَةُ، وَتَعْظُمُ الْأُتَمَّةُ، وَالْمَالُ يَوْمِئِذٍ كُدُوسٌ^(٤) فَيَجِيءُ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَيَقُولُ: يَا مَهْدِيَّ أَعْطِنِي، أَعْطِنِي. فَيَحْثِي لَهُ فِي ثَوْبِهِ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَهُ».

مصالحة الروم والفرو معهم وغدرهم

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «سَتَصَالِحُكُمُ الرُّومُ صُلْحًا آمِنًا، ثُمَّ تَغْزُونَ أَنْتُمْ وَهُمْ عَدُوًّا مِنْ وَرَائِكُمْ فَتَنْصَرُّوْنَ، وَتَغْنَمُونَ، وَتَسْلَمُونَ، ثُمَّ تَرْجِعُونَ حَتَّى تَنْزِلُوا بِمَرْجٍ ذِي ثَلُولٍ، فَيَرْفَعُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ الصَّلِيبَ، فَيَقُولُ: «غَلَبَ الصَّلِيبُ». فَيَغْضَبُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَقُومُ إِلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَغْدِرُ الرُّومُ وَيَجْتَمِعُونَ لِلْمَلْحَمَةِ، فَيَأْتُونَكُمْ حِينِيذٍ فِي ثَمَانِينَ غَايَةً^(٥) تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا..».

(١) أي: منحسر الشعر من مقدم رأسه، أو واسع الجبهة.

(٢) القنا في الأنف: طوله ودقة أرنبته، مع حذب في وسطه.

(٣) قيل: إن إصلاحه بمعنى تهيئته وقبوله لولاية أمر المسلمين، وليس أنه لم يكن من أهل التقوى والصلاح.

(٤) أي: كثير فائض.

(٥) أي: راية. وسميت بذلك لأنها غاية المتبع إذا وقفت وقف.

الملحمة الكبرى في الغوطة

«.. فَيُثَوِّرُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى أَسْلِحَتِهِمْ، فَيَقْتَتِلُونَ، فَيُكْرِمُ اللَّهُ تِلْكَ الْعِصَابَةَ^(١) بِالشَّهَادَةِ، وَتَكُونُ عِنْدَ ذَاكُمُ الْقِتَالِ رَدَّةٌ شَدِيدَةٌ^(٢)، فَسَطَّاطُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ الْكُبْرَى بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا (الْغُوطَةُ) إِلَى جَانِبِ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا (دِمَشْقُ) خَيْرَ مَنَازِلِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ، فَيَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً^(٣)، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلُّ غَيْرِ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ، ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلُّ غَيْرِ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ، ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يُمْسُوا، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلُّ غَيْرِ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الرَّابِعِ، نَهَدَ إِلَيْهِمْ بَقِيَّةَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ^(٤)، فَيَجْعَلُ اللَّهُ الدَّبْرَةَ عَلَيْهِمْ^(٥)، فَيَقْتَتِلُونَ^(٦) مَقْتَلَةً لَمْ يَرِ مِثْلُهَا^(٧)، حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنَابَتِهِمْ فَمَا يَخْلِفُهُمْ حَتَّى يَخَرَّ مَيِّتًا، فَيَتَعَادُ بَنُو الْأَبِ كَانُوا مِائَةً، فَلَا يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنْهُمْ إِلَّا الرَّجُلُ الْوَاحِدُ فَبَآئٍ غَنِيمَةٌ يُفْرَحُ؟، أَوْ أَيُّ مِيرَاثٍ يُقَاسَمُ؟».

(١) أَيُّ: تِلْكَ الْجَمَاعَةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

(٢) بفتح الراء، أي: عطفة قوية ورجوع قوي بعد الفر أو صولة شديدة.

(٣) يعني: يقتطع المسلمون من عسكرهم طائفة للتضحية؛ إما الاستشهاد أو النصر، ويعزمون على أن هذه الطائفة لا ترجع إلا بالنصر أو تموت.

(٤) أي بقيتهم من الأشرار الثلاثة.

(٥) أي: تكون الدائرة والهزيمة على الروم الكفار.

(٦) المسلمون والروم الكفار.

(٧) أو (لا يرى مثلها) أي نظيرها ومثيلها في المستقبل.

فتح القسطنطينية

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِذَا وَقَعَتِ الْمَلَاحِمُ، بَعَثَ اللَّهُ بَعْثًا مِنَ الْمَوَالِي مِنْ دِمَشْقَ، هُمْ أَكْرَمُ الْعَرَبِ فَرَسًا، وَأَجْوَدُهُ سِلَاحًا، يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهِمُ الدِّينَ».

«حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقِ^(١) فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمِيذٍ، فَإِذَا تَصَافَوْا قَالَتِ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَّوْا^(٢) مِنَّا نَقَاتِلُهُمْ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لَا وَاللَّهِ، لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَيَقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزُ ثُلُثُ^(٣) لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا^(٤)، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ هُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ، وَيَفْتَحُ الثُّلُثُ لَا يَفْتَنُونَ أَبَدًا.

فَيَفْتَحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ مَدِينَةَ جَانِبٍ مِنْهَا فِي الْبَرِّ، وَجَانِبٍ مِنْهَا فِي الْبَحْرِ يَغْزَوْهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْحَاقَ^(٥)، فَإِذَا جَاءُوهَا نَزَلُوا، فَلَمْ يَقَاتِلُوا بِسِلَاحٍ، وَلَمْ يَرْمُوا بِسَهْمٍ، قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَيَسْقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا الَّذِي فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ يَقُولُونَ الثَّانِيَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الْآخَرُ، ثُمَّ يَقُولُونَ الثَّالِثَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا

(١) هما مَوْضِعَانِ بِالشَّامِ بِقُرْبِ حَلَبَ.

(٢) جاءت في بعض النسخ بفتح السين والباء (سَبَّوْا) أي: أَسْرَوْا مقاتلي الروم. وفي نسخ أخرى بضم السين والباء، (سُبَّوْا) أي: أَسْرَوْا من الروم، ثم لعلهم أسلموا وقاتلوا مع المسلمين.

(٣) من المسلمين.

(٤) لا يلهمهم الله التوبة، بل يصرون على الفرار.

(٥) ولعلهم أكراد الشام، وهم من نسل إسحاق النبي ﷺ، وهم مسلمون. قال القاضي عياض:

«كذا هو في جميع أصول صحيح مسلم من بني إسحاق»، ثم قال: «قال بعضهم: المعروف

المحفوظ من بني إسماعيل، وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه لأنه إنما أراد العرب».

اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَيُفْرَجُ لَهُمْ، فَيَدْخُلُوهَا فَيَغْنَمُوا^(١)، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْمَغَانِمَ قَدْ عَلَقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ؛ إِذْ جَاءَهُمُ الصَّرِيخُ (صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ) فَقَالَ: إِنَّ الدَّجَالَ قَدْ خَرَجَ، قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِكُمْ. فَيَخْرُجُونَ فَيَتْرَكُونَ كُلَّ شَيْءٍ وَيَرْجِعُونَ - وَذَلِكَ بَاطِلٌ - فَإِذَا جَاءُوا الشَّامَ خَرَجَ، فَيَبْعَثُونَ عَشْرَةَ فَوَارِسَ طَلِيعَةٍ، إِنِّي لَأَعْرِفُ أَسْمَاءَهُمْ، وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ، وَاللَّوَانَ خِيُولِهِمْ، هُمْ خَيْرُ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ».



(١) وليس المراد من هذا الفتح ما وقع بيد السلطان محمد فاتح في سنة (٨٥٧) هـ وإنما يقع هذا الفتح قبل خروج الدجال بقليل بجيش فيهم المهدي.

خروج الدجال يتبعه يهود وشياطين

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَالُ^(١) عَلَى النَّاسِ»، «فِي خَفَقَةٍ مِنْ الدِّينِ وَإِدْبَارٍ مِنَ الْعِلْمِ وَسُوءِ ذَاتِ بَيْنٍ»، «مَنْ غَضِبَتْ يَغْضِبُهَا». «إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ مُنْذُ ذَرَأَ اللَّهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ»، «إِذَا فَرَغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشْهَدِ الْآخِرِ؛ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ».

«مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ»، «مَسِيحَ الصَّلَالَةِ»، «أَنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنِّي أَنْذَرُكُمْوَهُ، وَلَكِنِّي سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ، إِنَّهُ يَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ ﷺ حَتَّى يَمُوتَ، وَإِنَّهُ أَعْوَرَ عَيْنِ الْيُمْنَى وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»، «إِحْدَى عَيْنَيْهِ قَائِمَةٌ»، «كَأَنَّهَا زُجَاجَةٌ خَضِرَاءُ»، «كَأَنَّهَا كَوَكَبٌ دُرِّيٌّ»، «كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»، «مَمْسُوحُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى»، «مَطْمُوسُ الْعَيْنِ لَيْسَ بِنَاتِيَةٍ وَلَا حَجَرَاءُ»، «عَلَيْهَا ظَفَرَةٌ^(٢) غَلِيظَةٌ»، «يَهُودِيٌّ»، «وَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كُفْرٌ^(٣)» «ك ف ر» «يَقْرُؤُهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ»، «أُمِّي وَكَاتِبٌ»، «قَارِئٌ وَغَيْرُ قَارِئٍ»، «رَأَيْتُهُ^(٤) فَيَلْمَانِيَا^(٥)»

(١) وهو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم السفلي.

(٢) أي: جلدة.

(٣) أو كافر أو كفر أو كُفر أو ك ف ر، كما في الروايات.

(٤) وذلك حين أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ.

(٥) عظيم الجسم.

أَقَمَرٌ^(١)، «أَحْمَرًا، جَسِيمًا»، «هَجَانُ أَزْهَرُ»^(٢) «كَانَ رَأْسُهُ أَصْلَةً»^(٣) «كَانَ شَعْرُ رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ»، «حُبْكُ حُبْكُ حُبْكُ»^(٤)، «قَصِيرٌ أَفْحَجٌ»^(٥)، «وَأَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهَا ابْنُ قَطَنِ»^(٦)، «عَقِيمٌ لَا يُوَلِّدُ لَهُ»، «وَلَا يُسَخِّرُ لَهُ مِنَ الْمَطَايَا إِلَّا الْحِمَارُ»، «حِمَارٌ يَرْكَبُهُ عَرَضُ مَا بَيْنَ أُذُنَيْهِ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا»، «فَهُوَ رَجَسٌ عَلَى رَجَسٍ»، «وَأَنَا آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ، وَهُوَ خَارِجٌ فِيكُمْ لَا مَحَالَةَ»، «إِنَّهُ لَحَقٌّ، وَأَمَّا أَنَّهُ قَرِيبٌ؛ فَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ»، «فَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ؛ فَكُلُّ امْرِئٍ حَاجِبٌ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»، «يَكْفِيكُمْوهُ اللَّهُ بِالصَّالِحِينَ»، «لِفِتْنَةٍ بَعْضُكُمْ أَخَوْفُ عِنْدِي مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ»، «إِنَّهَا لَيَسْتُ مِنْ فِتْنَةٍ صَغِيرَةٍ وَلَا كَبِيرَةٍ إِلَّا تَتَضَعُ لِفِتْنَةِ الدَّجَالِ، فَمَنْ نَجَا مِنْ فِتْنَةٍ مَا قَبْلَهَا نَجَا مِنْهَا، وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ مُسْلِمًا».

«لَيَفِرَنَّ النَّاسُ مِنَ الدَّجَالِ فِي الْجِبَالِ»، «وَإِنَّهُ يَخْرُجُ فِي يَهُودِيَّةِ أَصْبَهَانَ»، «يَخْرُجُ مِنْ أَرْضِ الْمَشْرِقِ يَقَالُ لَهَا: خُرَاسَانُ»، «يَخْرُجُ مِنْ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ»، «فَيَعِثُ يَمِينًا وَيَعِثُ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَانْبُتُوا»، «يَمُرُّ بِكُلِّ مَاءٍ وَمَنْهَلٍ إِلَّا الْمَدِينَةَ وَمَكَّةَ حَرَّمَهُمَا اللَّهُ عَلَيْهِ»، «يَسِيرُ مَعَهُ جِبَالُ الْخُبْزِ، وَأَنْهَارُ الْمَاءِ»، «وَالنَّاسُ فِي جَهْدٍ إِلَّا مَنْ تَبِعَهُ»، «وَمَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ، أَنَا أَعْلَمُ بِهِمَا مِنْهُ، نَهْرٌ يَقُولُ: الْجَنَّةُ، وَنَهْرٌ يَقُولُ: النَّارُ، أَحَدُهُمَا رَأَيْ الْعَيْنِ مَاءٌ أَبْيَضُ، وَالْآخَرُ رَأَيْ الْعَيْنِ نَارٌ تَأْجَجُ، فَأَمَّا الَّذِي يَرَى النَّاسُ أَنَّهَا النَّارُ، فَمَاءٌ بَارِدٌ عَذْبٌ، وَأَمَّا الَّذِي يَرَى النَّاسُ أَنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ، فَنَارٌ تُحْرِقُ،

(١) أبيض البشرة.

(٢) يعني: شديد البياض.

(٣) الأصله هي: الحية.

(٤) يعني: شعر رأسه منكسر من الجعودة.

(٥) يعني: إذا مَسَى بَاعَدَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ عَيْبٌ فِي الْخَلْقَةِ.

(٦) قَالَ الزُّهْرِيُّ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ، هَلَكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلَا يَهْلِكَنَّ بِهِ؛ فَلَيَاتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا وَلْيَغْمِضْ عَيْنَيْهِ ثُمَّ لِيُطَاطِئَ رَأْسَهُ فَيَشْرَبَ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ، فَمَنْ أَدْخَلَ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْجَنَّةَ؛ فَهُوَ النَّارُ، وَمَنْ أَدْخَلَ الَّذِي يُسَمِّيهِ النَّارَ؛ فَهُوَ الْجَنَّةُ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ، وَجَنَّتُهُ نَارٌ»، «فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ وَزُرُّهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ، وَجَبَ وَزُرُّهُ، وَحُطَّ أَجْرُهُ».

«وَيَبْعَثُ اللَّهُ مَعَهُ شَيَاطِينَ تُكَلِّمُ النَّاسَ، فَيَقُولُ لِأَعْرَابِيٍّ: أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ؟، أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ؟، فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ رَبُّكَ»، «وَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ، فَتُمْطِرُ، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ أَنْ تُنْبِتَ، فَتُنْبِتُ، حَتَّى تَرَوْحَ مَوَاشِيَهُمْ مِنْ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ أَسْمَنَ مَا كَانَتْ، وَأَعْظَمَهُ، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ وَأَدْرَهُ ضُرُوعًا، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ، فَيَكْذِبُونَهُ وَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَلَا تَبْقَى لَهُمْ سَائِمَةٌ إِلَّا هَلَكَتْ، وَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَتَتَّبِعُهُ أَمْوَالُهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمَحِلِّينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ»، «وَيَمُرُّ بِالْخَرِيبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكَ وَيَنْطَلِقْ، فَتَتَّبِعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّحْلِ».

«مَنْ سَمِعَ بِالْذَّجَالِ فَلْيَنَأْ عَنْهُ؛ فَوَاللَّهِ إِنْ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَلَا يَزَالُ بِهِ حَتَّى يَتَّبِعَهُ، لِمَا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ». «يبدأ فيقول: «أَنَا نَبِيٌّ» - ولا نبيَّ بعدي - ثم يُشَنِّي فيقول: «أَنَا رَبُّكُمْ»، «إِنْ مِنْ بَعْدِكُمُ الْكَذَابُ الْمُضِلُّ وَإِنَّهُ سَيَقُولُ: «أَنَا رَبُّكُمْ»، فَمَنْ قَالَ: «لَسْتُ رَبَّنَا، لَكِنَّ رَبَّنَا اللَّهُ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا، وَإِلَيْهِ أُنْبَأ، نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ»؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ». «فَمَنْ لَقِيَهِ مِنْكُمْ فَلْيَتَّقِلْ فِي وَجْهِهِ، وَلْيَقْرَأْ فَوَاتِحَ سُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ»، «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عَصِمَ مِنَ الذَّجَالِ»^(١).

(١) وورد في روايات أخرى: (مِنْ خَوَاتِيمِ سُورَةِ الْكَهْفِ)، (مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ).

«لَبِثُهُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا: يَوْمٌ كَسَنَهُ^(١) وَيَوْمٌ كَشَّهَرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَيَوْمٌ كَالْأَيَّامِ، ثُمَّ سَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ»، «وَأَخِرُ أَيَّامِهِ كَالسَّرَابِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ عِنْدَ بَابِ الْمَدِينَةِ فَيُمْسِي قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ بَابَهَا الْآخِرَةَ»، «تَقْدُرُونَ فِيهَا ثُمَّ تَصَلُّونَ، كَمَا تَقْدُرُونَ فِي الْأَيَّامِ الطَّوَالِ»، «إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ»، «وَتَطْوِي لَهُ الْأَرْضُ طَيَّ فَرَوَةَ الْكَبْشِ».

«لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطُوهُ الدَّجَالُ، إِلَّا مَكَّةَ، وَالْمَدِينَةَ، لَيْسَ لَهُ مِنْ نِقَابِهَا نَقْبٌ، إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِّينَ يَخْرُسُونَهَا»، «وَلَا يَقْرُبُ أَرْبَعَةَ مَسَاجِدَ: مَسْجِدَ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدَ الْمَدِينَةِ، وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، وَمَسْجِدَ الطُّورِ»، «لَا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ رُغْبًا الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»، «فَلَا يَقْرُبُهَا الدَّجَالُ، وَلَا الطَّاغُوتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

«يَأْتِي الْمَسِيحُ الدَّجَالُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ وَهَمَّتُهُ الْمَدِينَةُ فَيَغْلِبُ عَلَى خَارِجِهَا وَيَمْنَعُ دَاخِلَهَا، وَقَامَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَبْوَابِهَا، وَلَهَا يَوْمٌ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ»، «عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَكَانِ»، «فَإِنَّهُ لَا يَأْتِيهَا مِنْ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهَا، إِلَّا لَقِيَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالسُّيُوفِ صَلَتَةً»، «حَتَّى يَنْزِلَ دُبُرُ أَحَدٍ»، «فَيَصْعَدُ أَحَدًا فَيَطْلُعُ فَيَنْظُرُ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ أَلَا تَرَوْنَ إِلَى هَذَا الْقَصْرِ الْأَبْيَضِ، هَذَا مَسْجِدُ أَحْمَدَ»، «فَيَأْتِي سَبْخَةَ الْجُرْفِ فَيَضْرِبُ رِوَاقَهُ ثُمَّ تَرْتَجِفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، فَلَا يَبْقَى مُنَافِقٌ وَلَا مُنَافِقَةٌ، وَلَا فَاسِقٌ وَلَا فَاسِقَةٌ إِلَّا خَرَجَ إِلَيْهِ، فَتَخْلُصُ الْمَدِينَةُ وَذَلِكَ يَوْمُ الْخَلَاصِ».

«وَأَنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يُسَلِّطَ عَلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ مِنْ بَنِي آدَمَ فَيَقْتُلُهَا، ثُمَّ يُحْيِيهَا، وَأَنَّهُ لَا يَعْدُو ذَلِكَ، وَلَا يُسَلِّطُ عَلَى نَفْسٍ غَيْرِهَا»، «فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمٌ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) في صحيح مسلم: (قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَهُ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: لَا، أَفْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ).

مُؤْتَلِّيًا شَبَابًا، هُوَ خَيْرُ النَّاسِ، أَوْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ، فَتَلْقَاهُ مَسَالِحُ الدَّجَالِ^(١)، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَيْنَ تَعْبُدُ؟ فَيَقُولُ: أَعْبُدُ إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَوْ مَا تُؤْمِنُ بِرَبَّنَا؟، فَيَقُولُ: مَا بِرَبَّنَا خَفَاءَ، فَيَقُولُونَ: اقْتُلُوهُ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ قَدْ نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ؟، فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَالِ، فَإِذَا رَأَاهُ الْمُؤْمِنُ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَذَا الدَّجَالُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَأْمُرُ الدَّجَالُ بِهِ فَيَسْبَحُ^(٢)، فَيَقُولُ: خُذُوهُ فَشَجُّوهُ^(٣)، فَيُوسِعُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ ضَرْبًا، فَيَقُولُ: أَوْ مَا تُؤْمِنُ بِي؟، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَالُ الَّذِي حَدَّثَنَا عَنْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَهُ، فَيَقُولُ الدَّجَالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ؟، هَلْ تَشْكُونَ فِي الْأَمْرِ؟، فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ رَمِيَةَ الْغَرَضِ فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ، «فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُنْشَرُ بِالْمِنْشَارِ مِنْ مَفْرَقِهِ حَتَّى يُفَرَّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ حَتَّى يُلْقَى شِقَّتَيْنِ، ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا، فَإِنِّي أَبْعَثُهُ الْآنَ، ثُمَّ يَزْعُمُ أَنَّ لَهُ رَبًّا غَيْرِي، ثُمَّ يَدْعُوهُ يَقُولُ لَهُ: قُمْ، فَيَبْعَثُهُ اللَّهُ، فَيَسْتَوِي قَائِمًا، وَيَقُولُ لَهُ الْخَبِيثُ مَنْ رَبُّكَ؟ أَتُؤْمِنُ بِي؟ أَيُّهَا النَّاسُ، هَلْ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا إِلَّا الرَّبُّ؟، فَيَقْبَلُ إِلَيْهِ يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَأَنْتَ عَدُوُّ اللَّهِ، أَنْتَ الدَّجَالُ، وَاللَّهُ مَا أزدَدْتُ فَيْكَ إِلَّا بَصِيرَةً، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ. فَيَأْخُذُهُ الدَّجَالُ لِيَذْبَحَهُ، فَيَجْعَلُ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوتِهِ نُحَاسًا، فَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَقْدِفُ بِهِ، فَيَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّهَا قَذَفُهُ إِلَى النَّارِ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ، فَهَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

«ثُمَّ تَصْرِفُ الْمَلَائِكَةُ وَجْهَهُ قَبْلَ الشَّامِ»، «ثُمَّ يَسِيرُ حَتَّى يَأْتِيَ الشَّامَ»، «يَتَبَعُ

(١) المسالِح: قوم ذوو سلاح.

(٢) أي: يُمَدُّ لِلضَّرْبِ. وَالسَّبْحُ: مَدُّ الشَّيْءِ بَيْنَ أُوتَادِ كَالْجِلْدِ وَالْحَبْلِ.

(٣) أي: اكْسِرُوا رَأْسَهُ، وَفِي نُسَخَةٍ (فَشَبَّحُوهُ) أي: مُدُّوهُ لِلضَّرْبِ.

الدَّجَّالُ مِنْ يَهُودٍ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا، عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ»^(١)، «عَلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ سَاحٌ»^(٢) وَسَيْفٌ مُحَلَّى».

«ثُمَّ يَأْتِي إِبِلْيَاءَ (القدس)»، «الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ، وَجُلُّهُمْ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، وَإِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ»، «فَيَقْرُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى جَبَلِ الدُّخَانِ بِالشَّامِ، فَيَأْتِيهِمْ فَيَحَاصِرُهُمْ، فَيَسْتَدُّ حِصَارَهُمْ، وَيُجْهِدُهُمْ جَهْدًا شَدِيدًا، فَيَقُولُ لَهُمُ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّحَرِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى الْكَذَّابِ الْخَيْثِ؟ مَا تَتَّظَرُونَ بِهَذَا الطَّاغِيَةِ أَنْ تُقَاتِلُوهُ حَتَّى تَلْحَقُوا بِاللَّهِ أَوْ يُفْتَحَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ: «هَذَا رَجُلٌ جَنِّيٌّ». فَيَأْتِمِرُونَ أَنْ يُقَاتِلُوهُ إِذَا أَصْبَحُوا».



(١) جمع طيلسان وهو كساء يغطي به الرأس أو على الكتف يلبس فوق الثياب يشبه الغترة.

(٢) هو الطيلسان الأخضر أو الأسود أو المدور.

نزول عيسى ابن مريم وقتله الدجال

«فَبَيْنَمَا إِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يُصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحَ، إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ   عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ^(٣) وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَتَيْنِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ، رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ^(٤)، سَبْطٌ^(٥) كَانَ رَأْسُهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصْبِهِ بَلَلٌ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسُهُ قَطَرٌ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُحْمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ»، «فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ»، «فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ». «عَصَابَتَانِ مِنْ أُمَّتِي أَحْرَزَهُمَا اللَّهُ مِنَ النَّارِ؛ عَصَابَةٌ تَغْزُو الْهِنْدَ، وَعَصَابَةٌ تَكُونُ مَعَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ  »، «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا نَزَلَ فِيكُمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ؟!»، «مِنَّا الَّذِي يُصَلِّي عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خَلْفَهُ». «فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَقَدَّمَ يَا رُوحَ اللَّهِ، صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، لِيَتَقَدَّمَ إِمَامُكُمْ فَلْيُصَلِّ بِكُمْ، إِنْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةً اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ. فَيُصَلِّي بِهِمْ إِمَامُهُمْ، فَإِذَا انْصَرَفَ؛ قَالَ عِيسَى: افْتَحُوا الْبَابَ، فَيُفْتَحُ وَوَرَاءَهُ الدَّجَالُ، مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ، كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلَّى وَسَاجٍ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَالُ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ^(٦)، وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا»، «فَيَطْلُبُهُ»، «فَيَهْلِكُهُ اللَّهُ   عِنْدَ عَقَبَةِ أَفِيقَ»^(٧)، «حَتَّى يُدْرِكَهُ بِفِلَسْطِينَ

(٣) ثوبين مصبوغين بالهَرْد وهو: الكركم، أو نحوه.

(٤) الثياب المُمَصَّرَة: التي فيها صُفْرَة خفيفة.

(٥) الشعر السَّبْط: المُبْسِط المُسْتَرسل.

(٦) قد يكون فيه حجة لمن قال بأن الدجال ليس إنسيًا، والله أعلم.

(٧) عقبة أفيق: قرية من قرى منطقة حوران، جنوب غرب دمشق، وتقع تقريبًا في منتصف المسافة

بين دمشق وباب الد في فلسطين.

عِنْدَ بَابِ اللُّدِّ الشَّرْقِيِّ»^(١)، «فَيَوْمُ النَّاسِ، فَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ رَكْعَتِهِ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»^(٢)؛ قَتَلَ اللَّهُ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ»، «فَلَوْ تَرَكَهُ لَأَنْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ»^(٣)، فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ»، «وَوَضَعَهُ الْمُسْلِمُونَ».



(١) بلدة شمال غرب القدس.

(٢) لعل ذلك في صلاة الخوف أثناء قتال الدجال ومن معه.

(٣) يعني: أن الله يجعل قتل الدجال على يد عيسى، كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

مسألة: هل الدجال هو ابن صياد؟ أم المقيد في جزيرة الجساسة؟

وردت أحاديث في (ابن صياد) فهل هو الدجال؟ أم أن الدجال هو الوارد في حديث الجساسة؟

والجواب: اختلف أهل العلم في ذلك، ومن العلماء من يذهب إلى كون الدجال هو ابن صياد، وهم مع ذلك يُصحّحون حديث الجساسة، كابن بطال في «شرحه للبخاري» (١٠ / ٣٨٦)، وأبي العباس القرطبي في «التذكرة» (ص / ١٣٤٠)، وهو ظاهر كلام النووي في «شرحه لمسلم» (١٨ / ٤٦ - ٤٧)، والشوكاني في «نيل الأوطار» (٧ / ٢٣٧ - ٢٤٢).

وابن صياد أو ابن صائد، قيل: اسمه: صافي، وقيل: عبد الله بن صياد أو صائد. كان من يهود المدينة، وكان صغيراً عند قدوم النبي ﷺ إلى المدينة.

وقصته مع النبي ﷺ جاء فيها أنه: انطلقَ عُمَرُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي رَهْطٍ ^(١) قَبْلَ ابْنِ صَيَّادٍ، فَوَجَدُوهُ يَلْعَبُ مَعَ الصَّبِيَّانِ عِنْدَ أُطَمٍ ^(٢) بَنِي مَغَالَةَ، وَقَدْ قَارَبَ ابْنُ صَيَّادٍ الْحُلْمَ ^(٣)، فَلَمْ يَشْعُرْ ابْنُ صَيَّادٍ بِشَيْءٍ، حَتَّى ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ظَهْرَهُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لِابْنِ صَيَّادٍ: «تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟»، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ فَقَالَ: «أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الْأُمِّيِّينَ» ^(٤). ثُمَّ قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَتَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ؟»،

(١) الرَّهْطُ: عَدَدٌ مِنَ الرِّجَالِ مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَى عَشْرَةٍ، قَالَ الْقَزَّازُ: وَرَبَّمَا جَاوَزُوا ذَلِكَ قَلِيلًا.

(٢) الْأُطَمُ: البناء المرتفع.

(٣) أَي: قَارَبَ الْبُلُوغَ.

(٤) قَوْلُهُ: (أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الْأُمِّيِّينَ) فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانَ ابْنُ صَيَّادٍ مِنْهُمْ كَانُوا

فَرَفَضَهُ^(١) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ». ثُمَّ قَالَ لَهُ: «يَا ابْنَ صَائِدٍ مَاذَا تَرَى؟»، قَالَ: أَرَى عَرْشًا عَلَى الْمَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَرَى عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ، وَمَا تَرَى؟»، قَالَ: «أَرَى صَادِقِينَ وَكَاذِبًا، أَوْ كَاذِبِينَ وَصَادِقًا»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُلِطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ»، ثُمَّ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تُرَبُّهُ الْجَنَّةُ»، قَالَ: «دَرْمَكَةُ^(٢) بَيْضَاءُ مِسْكٍ يَا أَبَا الْقَاسِمِ»، قَالَ: «صَدَقْتَ»، ثُمَّ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئَةً^(٣)» - وَخَبَأَ لَهُ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ -^(٤)، فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: «هُوَ الدُّخَانُ»، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِحْسَاءُ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ^(٥)»، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عَنْقَهُ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعُهُ، فَإِنْ يَكُنْ الَّذِي نَخَافُ؛ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ قَتْلَهُ»، «إِنْ يَكُنْهُ؛ فَلَنْ تُسَلِّطَ عَلَيْهِ»، «فَلَسْتُ صَاحِبَهُ، إِنَّمَا صَاحِبُهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ»، «وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ؛ فَلَا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ»، «فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَقْتُلَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ».

مُعْتَرِفِينَ بِبَعْثَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكِنَّهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّهَا بَعْثَةٌ مَخْصُوصَةٌ بِالْعَرَبِ وَفَسَادُ حُجَّتِهِمْ وَاضِحٌ جَدًّا، لِأَنَّهُمْ إِذَا أَقْرَأُوا بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، اسْتَحَالَ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، فَإِذَا ادَّعَى أَنَّهُ رَسُولُهُ إِلَى الْعَرَبِ وَإِلَى غَيْرِهَا، تَعَيَّنَ صِدْقُهُ، فَوَجَبَ تَصْدِيقُهُ. فتح الباري (٩ / ٢٩١)

(١) أَي: تَرَكَهُ، وَقَدْ كَانَ مُمَسِّكًا بِهِ كَمَا تَقْدُم.

(٢) الدَّرْمَكُ: هُوَ الدَّقِيقُ الْخَوَارِيُّ الْخَالِصُ الْبَيَاضُ. شرح النووي (٩ / ٣١٧)

(٣) أَي: أَخْفَيْتُ لَكَ شَيْئًا.

(٤) [سورة الدخان: آية ١٠]، وَرَوَى الْبَزَّازُ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ ابْنِ حَارِثَةَ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ خَبَأَ لَهُ سُورَةُ الدُّخَانِ»، وَكَأَنَّهُ أَطْلَقَ السُّورَةَ، وَأَرَادَ بَعْضُهَا، فَإِنَّ عِنْدَ أَحْمَدَ عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ فِي حَدِيثِ الْبَابِ: «وَخَبَأْتُ لَهُ ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾﴾»، وَحَكَى أَبُو مُوسَى الْمَدِينِيُّ أَنَّ السَّرَفِيَّ امْتِحَانَ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ يَقْتُلُ الدَّجَالَ بِجَبَلِ الدُّخَانِ، فَأَرَادَ التَّعْرِيفُ لِابْنِ الصَّيَّادِ بِذَلِكَ، وَأَمَّا جَوَابُ ابْنِ صَيَّادٍ بِالْدُّخَانِ، فَقِيلَ: إِنَّهُ إِندَهَشَ، فَلَمْ يَقَعْ مِنْ لَفْظِ الدُّخَانِ إِلَّا عَلَى بَعْضِهِ. فتح الباري - (ج ٩ / ص ٢٩١)

(٥) أَي: قَدَّرَ أَمْثَالَكَ مِنَ الْكُفَّانِ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ مِنْ إِلْقَاءِ شَيَاطِينِهِمْ مَا يَحْفَظُونَهُ مُخْتَطِطًا صِدْقُهُ بِكَذِبِهِ.

فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُشْفِقًا أَنَّهُ الدَّجَالُ، ثُمَّ انْطَلَقَ بَعْدَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَنْ كَعْبٍ ﷺ إِلَى النَّخْلِ الَّتِي فِيهَا ابْنُ صَيَّادٍ، وَهُوَ يَخْتَلُ^(١) أَنْ يَسْمَعَ مِنْ ابْنِ صَيَّادٍ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ ابْنُ صَيَّادٍ، فَرَأَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ فِي قَطِيفَةٍ لَهُ فِيهَا زَمْزَمَةٌ^(٢)، فَرَأَتْ أُمُّ ابْنِ صَيَّادٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَتَّقِي بِجُدُوعِ النَّخْلِ، فَقَالَتْ لِابْنِ صَيَّادٍ: يَا عَبْدَ اللَّهِ - وَهُوَ اسْمُ ابْنِ صَيَّادٍ - هَذَا مُحَمَّدٌ، فَتَارَ^(٣) ابْنُ صَيَّادٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا لَهَا قَاتَلَهَا اللَّهُ؟، لَوْ تَرَكَتَهُ لَبَيَّنَ».

وأما حديث الجساسة؛ فقد روت فاطمة بنت قيس وأبو هريرة وعائشة وجابر رضي الله عنهم حديث النبي ﷺ أن تميم الداري ذكر له أنه رأى الدجال في الدَّيرِ (دار سكن منقطعة ومنعزلة للرهبان) في جزيرة الجساسة على هيئة جاء فيها وصف الدجال أنه: أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَوْهُ خَلْقًا قَطُّ، وَأَشَدُّهُ وَثَاقًا، يَجْرُ شَعْرُهُ، مُسْلَسَلٌ فِي الْأَغْلَالِ مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ، يَنْزُو فِيمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، وَأَنَّ أَحَدَ مَنْخَرَيْهِ مَمْدُودٌ وَإِحْدَى عَيْنَيْهِ مَطْمُوسَةٌ، وَأَنَّهُ شَيْخٌ، وَأَنَّهُ سَأَلَهُمْ عَنْ مَاءِ بُحَيْرَةِ الطَّبْرِيةِ (شمال فلسطين) وعن عَيْنِ زُغَرَ (على شاطئ البحر الميت الجنوبي) هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟، وعن نَخْلٍ يَبْسَانُ الَّذِي بَيْنَ الْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ (وبيسان تسمى اليوم: «بيت شان» في شمال غرب فلسطين، وهي جنوب بحيرة طبرية)، وسألهم الدجال عن بعثة محمد ﷺ وحال قومه معه.

ومما جاء في حديث الجساسة ما روي - في صحيح مسلم وغيره - عَنْ فَاطِمَةَ

(١) أَي: يَتَعَفَّلُهُ لِيَسْمَعَ شَيْئًا مِنْ كَلَامِهِ، وَيَعْلَمَ هُوَ وَالصَّحَابَةُ حَالَهُ فِي أَنَّهُ كَاهِنٌ، أَمْ سَاحِرٌ، وَنَحْوَهُمَا. وَفِي الْحَدِيثِ كَشَفُ أَحْوَالٍ مَنْ تَخَافُ مَفْسَدَتَهُ، وَفِيهِ كَشَفُ الْإِمَامِ الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ

بِنَفْسِهِ. فَتَحَ الْبَارِي (ج ٩ ص ٢٩١)

(٢) (الزَمْزَمَةُ): صَوْتُ خَفِيِّ لَا يَكَادُ يُفْهَمُ.

(٣) أَي: نَهَضَ مِنْ مَضْجَعِهِ وَقَامَ.

بِنْتِ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ نِدَاءَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُنَادِي: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، فَخَرَجْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَصَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكُنْتُ فِي صَفِّ النِّسَاءِ الَّتِي تَلِي ظُهُورَ الْقَوْمِ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاتَهُ، جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: لِيَلْزَمَ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلَّاهُ ^(١)، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «إِنِّي مَا وَاللَّهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَهْبَةٍ ^(٢) وَلَا رَغْبَةٍ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ لِأَنَّ تَمِيمَ الدَّارِي كَانَ رَجُلًا نَصْرَانِيًّا، فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافِقَ الَّذِي كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ عَنِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ مَعَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ لَحْمٍ وَجَذَامٍ ^(٣)، فَلَعِبَ بِهِمُ الْمَوْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ» وَفِي رَوَايَةٍ: «حَدَّثَنِي أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ فَلَسْطِينَ رَكَبُوا سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ، فَجَالَتْ بِهِمْ، ثُمَّ أَرْفُتُوا ^(٤) إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّى مَغْرِبِ الشَّمْسِ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرَبِ ^(٥) السَّفِينَةِ، فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ يَلْتَمِسُونَ الْمَاءَ، فَإِذَا بِامْرَأَةٍ تَجُرُّ شَعْرَهَا. (وَفِي رَوَايَةٍ: فَلَقِيَتْهُمُ دَابَّةٌ أَهْلَبُ ^(٦) كَثِيرَةُ الشَّعْرِ، لَا يَدْرُونَ مَا قُبْلُهُ مِنْ دُبْرِهِ مِنْ كَثَرَةِ الشَّعْرِ). وَفِي رَوَايَةٍ: (لَا يَدْرِي ذَكَرُ هُوَ أَمْ أَنْثَى لِكَثَرَةِ شَعْرِهِ). فَفَرَّقُوا ^(٧) مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، فَقَالُوا: وَيْلَكَ مَا أَنْتِ؟، قَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ ^(٨) فَقَالُوا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟، قَالَتْ: أَيُّهَا الْقَوْمُ، انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي هَذَا الدَّيْرِ - وَفِي رَوَايَةٍ: (ذَلِكَ الْقَصْرِ) - فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا حَتَّى دَخَلْنَا

(١) أَي: مَوْضِعُ صَلَاتِهِ فَلَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ.

(٢) أَي: وَلَا لَأَمْرِ مَرْغُوبٍ فِيهِ مِنْ عَطَاءٍ كَغَنِيمَةٍ.

(٣) لَحْمٌ وَجَذَامٌ: قَبِيلَتَانِ مِنْ قِبَالِ الْيَمَنِ.

(٤) أَي: اِلْتَجَأُوا إِلَيْهَا، وَمَرَفَأُ السُّفُنِ: الْمَوْضِعُ الَّذِي تُسَدُّ إِلَيْهِ، وَتُوقَفُ عِنْدَهُ.

(٥) (أَقْرَبُ): جَمْعُ قَارِبٍ.

(٦) الْأَهْلَبُ: غَلِيظُ الشَّعْرِ، كَثِيرُهُ.

(٧) أَي: خَافُوا.

(٨) سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِتَجَسُّسِهَا الْأَخْبَارَ لِلدَّجَالِ.

الدَّيْرَ، فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ خَلَقًا قَطُّ، وَأَشَدُّهُ وَثَاقًا. وفي رواية: (يَنْزُو^(١)) فِيمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ). يَجْرُ شَعْرُهُ، مُسْلَسَلٌ فِي الْأَعْلَالِ، مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ، مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، فَقُلْنَا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبْرِي، فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ؟، فَقُلْنَا: نَحْنُ أَنْاسٌ مِنَ الْعَرَبِ، رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، فَصَادَفْنَا الْبَحَرَ حِينَ اغْتَلَمَ^(٢)، فَالْعَبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْرًا ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ، فَجَلَسْنَا فِي أَقْرِبِهَا فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِينَا دَابَّةً أَهْلَبُ كَثِيرَةِ الشَّعْرِ، لَا يُدْرَى مَا قُبْلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثَرَةِ الشَّعْرِ، فَقُلْنَا: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟، فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، فَقُلْنَا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟، فَقَالَتْ: ااعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ فَإِنَّهُ إِلَى خَبْرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعًا، وَفَرَعْنَا مِنْهَا، وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً. فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ، الَّذِي بَيْنَ الْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ؟، فَقُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخِيرُ؟، قَالَ: أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا هَلْ يُثْمَرُ؟، فَقُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لَا يُثْمَرَ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بُحِيرَةِ الطَّبْرِيةِ؟، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخِيرُ؟، قَالَ: هَلْ فِيهَا مَاءٌ؟، فَقُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، قَالَ: أَمَا إِنْ مَاءُهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرٍ؟، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخِيرُ؟، قَالَ: هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ، وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ؟، فَقُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا. قَالَ: هَلْ خَرَجَ نَبِيُّ الْأُمِّيِّينَ؟، فَقُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: مَا فَعَلَ؟، فَقُلْنَا لَهُ: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ، وَنَزَلَ يَثْرِبَ، قَالَ: أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ؟، فَقُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ؟، فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ، فَقَالَ لَنَا: قَدْ كَانَ ذَلِكَ؟، قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ، وفي رواية: (أَنَا الدَّجَالُ)، وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يُؤَدِّنَ لِي فِي الْخُرُوجِ فَأَخْرُجْ، فَاسِيرْ فِي الْأَرْضِ، فَلَا أَدَعُ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً،

(١) أَي: يَنْبِثُ وَثُوبًا.

(٢) أَي: حِينَ هَاجَ.

غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ، فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً مِنْهُمَا، اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السِّيفُ صَلْتًا^(١) يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَيَّ كُلَّ نَفَبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةٌ يَحْرُسُونَهَا. قَالَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ قَيْسٍ: «فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَطَعَنَ بِمُخَصَّرَتِهِ^(٢) فِي الْمُنْبَرِ: «أَبْشُرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ - يَعْنِي الْمَدِينَةَ - أَلَا هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ؟»، فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَيْمٍ أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ، أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّامِ، أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ، لَا بَلَّ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ، مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ، مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ - وَأَوْ مَا بِيَدِهِ قَبْلَ الْمَشْرِقِ -».

وكان جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ - مع أنه من رواة حديث تميم الداري (حديث الجساسة) - يَحْلِفُ بِاللَّهِ: أَنَّ ابْنَ الصَّائِدِ: الدَّجَالَ، ويقول: إِنِّي سَمِعْتُ عُمَرَ يَحْلِفُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُنْكِرْهُ النَّبِيُّ ﷺ.

وروي كذلك عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: لِأَنَّ أَحْلَفَ عَشْرَ مَرَارٍ أَنَّ ابْنَ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَالُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ وَاحِدَةً أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ.

ولا شك أن ابن صياد دجال من الدجاجلة، وقد حذر النبي ﷺ من الدجالين وقال: (لا تقوم الساعة حَتَّى يُبْعَثَ دَجَالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ)، وابن صياد منهم، وقد قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟»، فادعى الرسالة بذلك. وَمِنْ دَجَلِهِ دَعْوَاهُ أَنَّهُ يَأْتِيهِ صَادِقٌ وَكَاذِبٌ وَأَنَّهُ يَرَى عَرْشًا فَوْقَ الْمَاءِ. وقد أَلْمَحَ ابن صياد بنفسه أنه هو المسيح الدجال؛ حيث قال لأبي سعيد الخدري:

(١) أَي: مَسْلُولاً.

(٢) الْمُخَصَّرَةُ: مَا يَخْتَصِرُهُ الْإِنْسَانُ بِيَدِهِ فَيُمْسِكُهُ مِنْ عَصَا، أَوْ عُكَّازَةٍ، أَوْ مِقْرَعَةٍ أَوْ قُضِيبٍ، وَقَدْ يَتَكَيُّ عَلَيْهِ.

«وَاللّٰهُ إِنِّي لَا عَرَفُهُ، وَأَعْرِفُ مَوْلَدَهُ، وَأَيْنَ هُوَ السَّاعَةَ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، وَقِيلَ لِي: أَيْسُرُكَ أَنَّكَ ذَاكَ الرَّجُلُ؟، فَقُلْتُ: لَوْ عُرِضَ عَلَيَّ مَا كَرِهْتُ».

والنبي ﷺ قال لعمر ﷺ: «إِنْ يَكُنْهُ، فَلَنْ تُسَلِّطَ عَلَيْهِ». فلم يستطع عمر ﷺ أن يتسلط عليه مع قوة عمر في الحق حتى في خلافته، ومع حلفه أن ابن صياد هو الدجال، ومع ما يروى من ادعاء ابن صياد أنه أسلم، وبذلك يخرج من كونه من أهل العهد، ومع تسلط عمر على أهل الريبة والإفساد كصبيغ وغيره. فهذا كله مما يقوي القول بأن ابن صياد هو المسيح الدجال.

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَقِيتُ ابْنَ صَائِدٍ مَرَّتَيْنِ، فَأَمَّا مَرَّةً، فَلَقِيتُهُ وَمَعَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ، فَقُلْتُ لِبَعْضِهِمْ: نَشَدْتُكُمْ بِاللَّهِ، إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ لَتَصْدُقُنِي؟، قَالُوا: نَعَمْ، فَقُلْتُ: هَلْ تُحَدِّثُونِي أَنَّهُ هُوَ؟، قَالُوا: لَا وَاللَّهِ، فَقُلْتُ: كَذَبْتُمْ، وَاللَّهِ لَقَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُكُمْ - وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَقْلُكُمْ مَا لَا وَوَلَدًا - أَنَّهُ لَا يَمُوتُ حَتَّى يَكُونَ أَكْثَرُكُمْ مَا لَا وَوَلَدًا، وَهُوَ الْيَوْمَ كَذَلِكَ، قَالَ: فَتَحَدَّثْنَا، ثُمَّ فَارَقْتُهُ. ثُمَّ لَقِيتُهُ مَرَّةً أُخْرَى يَوْمًا وَمَعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ وَقَدْ نَفَرَتْ عَيْنُهُ، قَدْ طَفِئَتْ وَهِيَ خَارِجَةٌ مِثْلَ عَيْنِ الْجَمَلِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَتَى فَعَلْتَ عَيْنُكَ مَا أَرَى؟ مَتَى طَفِئَتْ عَيْنُكَ؟، قَالَ: لَا أَدْرِي - وَالرَّحْمَنُ -، قُلْتُ: كَذَبْتَ، لَا تَدْرِي وَهِيَ فِي رَأْسِكَ؟، فَقَالَ: مَا تُرِيدُ مِنِّي يَا ابْنَ عُمَرَ؟ إِنْ شَاءَ اللَّهُ خَلَقَهَا فِي عَصَاكَ هَذِهِ. فَمَسَحَهَا وَنَخَرَ ثَلَاثًا، وَنَخَرَ كَأَشَدِّ نَخِيرِ حِمَارٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ، وَانْتَفَخَ حَتَّى سَدَّ الطَّرِيقَ. فَرَعَمَ الْيَهُودِيُّ أَنِّي ضَرَبْتُ بِيَدَيَّ صَدْرَهُ وَقُلْتُ لَهُ: اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَكَ، وَزَعَمَ أَصْحَابِي أَنِّي ضَرَبْتُهُ بِعَصَا كَانَتْ مَعِيَ حَتَّى تَكْسَرَتْ، وَأَمَّا أَنَا، فَوَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَحَدَّثْتُهَا، فَقَالَتْ لِي: رَحِمَكَ اللَّهُ، مَا أَرَدْتَ مِنْ ابْنِ صَائِدٍ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا يَخْرُجُ الدَّجَالُ عَلَى النَّاسِ مِنْ غَضَبَةٍ يَغْضِبُهَا».

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: «فَقَدْنَا ابْنَ صَيَّادٍ يَوْمَ الْحَرَّةِ». فلم يثبت أنه مات أو دفن، مع اشتهاؤه أمره.

وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي تَارِيخِ أَصْبَهَانَ مَا يُؤَيِّدُ كَوْنَ ابْنِ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَالُ، فَسَاقَ مِنْ طَرِيقِ شَيْبَلِ بْنِ عَرْزَةَ عَنْ حَسَّانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ لَمَّا افْتَتَحْنَا أَصْبَهَانَ كَانَ بَيْنَ عَسْكَرِنَا وَبَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ فَرَسُخٌ فَكُنَّا نَأْتِيهَا فَنَمْتَارُ مِنْهَا فَاتَتْيُهَا يَوْمًا فَإِذَا الْيَهُودُ يَزْفُونُ وَيَضْرِبُونَ، فَسَأَلْتُ صَدِيقًا لِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: مَلِكُنَا الَّذِي نَسْتَفْتِحُ بِهِ عَلَى الْعَرَبِ يَدْخُلُ. فَبِتَّ عِنْدَهُ عَلَى سَطْحٍ فَصَلَّيْتُ الْغَدَاةَ، فَلَمَّا طَلَعَتِ الشَّمْسُ إِذَا لِرَهْجٍ مِنْ قِبَلِ الْعَسْكَرِ، فَظَرْتُ فَإِذَا رَجُلٌ عَلَيْهِ قُبَّةٌ مِنْ رِيحَانٍ وَالْيَهُودُ يَزْفُونُ وَيَضْرِبُونَ فَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ ابْنُ صَيَّادٍ، فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ فَلَمْ يُعِدْ حَتَّى السَّاعَةِ. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَّانَ مَا عَرَفْتُهُ، وَالْبَاقُونَ ثِقَاتٌ.

وقال أبو عبد الله القرطبي: الصحيح أن ابن صياد هو الدجال.. وما يبعد أن يكون بالجزيرة في ذلك الوقت، ويكون بين أظهر الصحابة في وقت آخر.

وَأَخْرَجَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ مِنْ طَرِيقِ جُبَيْرِ بْنِ نَفِيرٍ وَشُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ وَعَمْرِو بْنِ الْأَسْوَدِ وَكَثِيرِ بْنِ مَرَّةٍ (وكلهم ثقات) قَالُوا جَمِيعًا: «الدَّجَالُ لَيْسَ هُوَ إِنْسَانٌ وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ مُوْتَقٌ بِسَبْعِينَ حَلَقَةً فِي بَعْضِ جَزَائِرِ الْيَمَنِ لَا يَعْلَمُ مَنْ أَوْثَقَهُ سُلَيْمَانُ النَّبِيُّ أَوْ غَيْرُهُ فَإِذَا أَنْظَرَهُ فَكَ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ عَامٍ حَلَقَةً فَإِذَا بَرَزَ أَتَاهُ عَرُضٌ مَا بَيْنَ أَذُنَيْهَا أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا فَيَضَعُ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْبَرًا مِنْ نُحَاسٍ وَيَقْعُدُ عَلَيْهِ وَيَتَّبِعُهُ قَبَائِلُ الْجِنِّ يُخْرِجُونَ لَهُ خَزَائِنَ الْأَرْضِ». قال الحافظ ابن حجر: «ولعل هؤلاء مع كونهم ثقات تلقوا ذلك من بعض كتب أهل الكتاب». وقال: «وَأَقْرَبُ مَا يُجْمَعُ بِهِ بَيْنَ مَا تَضَمَّنَتْهُ حَدِيثُ تَمِيمٍ وَكَوْنَ ابْنِ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَالُ؛ أَنَّ الدَّجَالَ بَعِيْنُهُ هُوَ الَّذِي شَاهَدَهُ تَمِيمٌ مُوْتَقًا، وَأَنَّ ابْنَ صَيَّادٍ شَيْطَانٌ تَبَدَّى فِي صُورَةِ

الدَّجَالِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ إِلَى أَنْ تَوَجَّهَ إِلَى أَصْبَهَانَ فَاسْتَرَعَ قَرِينَهُ إِلَى أَنْ تَجِيءَ الْمُدَّةُ الَّتِي قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى خُرُوجَهُ فِيهَا». انتهى.

وقد أشكل عند العلماء الجمع بين حيث تميم الداري (حديث الجساسة) وأحاديث ابن صياد وأقوال جمع من الثقات بأن الدجال شيطان وليس إنسان، فيحتمل - والله أعلم - أن يكون ابن صياد هو الدجال الإنسي، وأن الذي رآه تميم الداري في الجزيرة هو قرينه وشيطانه الجنّي، وأن خروج الدجال الإنسي يكون مع شيطانه الجنّي من قبل المشرق لما يؤذن بخروجه، ولعله بهذا تجتمع الأقوال، ويؤيده ما صح من أن أصحاب المهدي الذين يقاتلون الدجال بالشام يقولون عن الدجال لما يحاصرهم: (هَذَا رَجُلٌ جَنِّيٌّ). وقد يشبه ذلك - والله أعلم - ما جاء في مسند أحمد (١١٩٦) من حديث عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام لما ذَكَرَ حَدِيثَ الْمُخْدَجِ ووجده في قنلى الخوارج، قَالَ عَلِيٌّ: «فَوَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ» - ثلاثاً - «أَمَا إِنَّ خَلِيلِي أَخْبَرَنِي أَنَّهُمْ: ثَلَاثَةُ إِخْوَةٍ مِنَ الْجِنِّ، هَذَا أَكْبَرُهُمْ، وَالثَّانِي لَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ، وَالثَّلَاثُ فِيهِ ضَعْفٌ». وقد حسن إسناده شعيب الأرناؤوط، وصححه أحمد شاكر.

ويؤيد هذا الجمع أيضاً أنه لم يرو عن صحابي واحد فيما أعلم أنه ينفي عن ابن صياد كونه الدجال مستدلاً بحديث تميم الداري (حديث الجساسة)، بل حتى ابن صياد نفسه حين أراد أن ينفي عن نفسه أنه الدجال؛ لم يحتج بحديث تميم الداري، وإنما تحجج بأمور أخرى كإسلامه ودخوله المدينة وسلامة عينيه وأن له ذرية وليس عقيماً، وكل ذلك قد يزول ويمنع عنه لما يؤذن له بالخروج، ومع ذلك حلف ابن صياد أنه يعرف الدجال، وقال لأبي سعيد الخدري: (يَا أَبَا سَعِيدٍ، أَمَا وَاللَّهِ لَا أُخْبِرُكَ خَبْرًا حَقًّا، وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَعْرِفُهُ وَأَعْرِفُ مَوْلِدَهُ وَأَيْنَ هُوَ السَّاعَةَ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، وَقِيلَ لِي: أَيْسُرُكَ أَنَّكَ ذَاكَ الرَّجُلُ؟، فَقُلْتُ: لَوْ عُرِضَ عَلَيَّ مَا كَرِهْتُ). ولكون الصحابة إما بين جازم ومؤكد بالحلف أو ظان في كون ابن صياد هو الدجال، كما

جاء عن عمر الجزم بذلك، وحلفه على ذلك أمام النبي ﷺ، وسكوت النبي عليه الصلاة والسلام وعدم تخطئته لعمر، وحلف جابر أيضًا على ذلك مع أنه من رواية حديث الجساسة، وهو الظاهر أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري كما في حديث سفره مع ابن صياد، وكذلك جزم ابن عمر بقوله: «والله ما أشك أن ابن صياد هو المَسيحُ الدَّجالُ»، وسبق ذكر قصته مع ابن صياد وفيها ظهور العلامات والقرائن كنفور عين ابن صياد، وانتفاخه حتى ملأ السكة، ونخيره، وتعليق حفصة أم المؤمنين على تلك الواقعة بما يشبه الجزم بأنه هو الدجال، وقول أبي ذر كذلك، وأن حديث الناس في عهد الصحابة والتابعين أن ابن صياد هو الدجال كما هو الظاهر من قصته مع أبي سعيد، وأن الناس تفرقوا عن ابن صياد لما نزلوا في ذلك السفر لظنهم فيه، وكون ذلك مستمرًا بعد وفاة النبي ﷺ، وبعد انتشار حديث تميم الذي كان على الملأ في المسجد وجمع له الناس ونودي عليهم بـ (الصلاة جامعة)، ورواه عدد من الصحابة منهم فاطمة بنت قيس وثلاثة من المكثرين من رواية الحديث وهم: أبو هريرة وعائشة وجابر، ومع ذلك بقي جزم من علمنا خبرهم من الصحابة أو غلبة ظنهم في ابن صياد أنه هو المسيح الدجال، وحيث «يَتَّبَعُ الدَّجَالُ قَبَائِلَ الْجِنِّ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ مَعَهُ شَيَاطِينَ تَكَلِّمُ النَّاسَ»، فلعل منهم شيطان جزيرة الجساسة، والله أعلم. وعند مقتل الدجال ينهزم اليهود.



انهزام اليهود وقتلهم مع الدجال

قال ﷺ: «وَيَهْزِمُ اللَّهُ الْيَهُودَ، فَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ، إِلَّا أَنْطَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ، لَا حَجَرَ وَلَا شَجَرَ، وَلَا حَائِطَ، وَلَا دَابَّةً إِلَّا قَالَ: «يَا رُوحَ اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ»، «يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ يَخْتَبِئُ وَرَائِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ»، «إِلَّا الْغُرْقَدَ لَا تَنْطُقُ؛ فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»، «فَلَا يَتْرُكُ مِمَّنْ كَانَ يَتَّبِعُهُ أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ».

إفساد يأجوج ومأجوج ثم مقتلهم

«فَيَلْبِثُ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ»، «ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بَدْرَ جَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ»، «فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقَتْلِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ». «وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»^(١).

(١) هذا هو الخروج المشهور أو الأخير، حيث إن من العلماء من يعدُّون خروج الترك (التتار) أنه الخروج الأول ليأجوج ومأجوج، وقد جاء في الحديث: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا التُّرْكَ، صِغَارَ الْأَعْيُنِ، حُمْرَ الْوُجُوهِ، ذُلْفَ الْأَنْوْفِ، كَأَنَّ وُجُوهُهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ)، وقد قال جمع من العلماء: إنَّ الترك طائفة من يأجوج ومأجوج. وجاء في حديث خالد بن حرملة: (تُقَاتِلُونَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، عَرَاضَ الْوُجُوهِ صِغَارَ الْعُيُونِ صُهْبَ الشُّعُورِ، مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، كَأَنَّ وُجُوهُهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ). وقال القرطبي في تفسيره (١١ / ٥٨): (نعت النبي ﷺ الترك كما نعت يأجوج ومأجوج). وفي حديث: (ويل للعرب من شرٍ قد اقترب: فتح من

«وَهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿مَنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾^(١)، فَيَعْمُونَ الْأَرْضَ، وَيَنْحَارُ مِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ وَلَا يَبْقَى مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا فِي حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ، وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ، وَيَشْرَبُونَ مِياهِ الْأَرْضِ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةٍ طَبْرِيَّةٍ فَيَشْرَبُونَ مَا

ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) أنه سيحلُّ بالمسلمين والعرب منهم خاصة شرٌ عظيم، يهلك فيه الصالحون، وهو - والله أعلم - ما وقع لهم سنة (٦٥٦) هـ على يد التتار؛ حيث تحركت القبائل التتارية من موطنها، واكتسحت العالم المعمور كلّ تقريباً شرقاً وغرباً وجنوباً، ودمروا الحضارة الإنسانية فترة من الزمن، وارتكبوا من الجرائم والإفساد في الأرض ما لا تعرفه البشرية في تاريخها من قبل، وقد قاتلوا المسلمين، ودخلوا بغداد، وسقطت سنة (٦٥٦) هـ وقتلوا الخليفة العباسي والعلماء والصلحاء وأسرفوا في القتل حتى بلغ القتلى مليوني نفس، كما ذكر ابن كثير في البداية (١٣ / ٢١٥). وهذا ما لا يعرف المسلمون والعرب مثله من قبل، ولم يحلَّ بهم من الذلِّ والهوان والقتل مثل ما حلَّ بهم على أيدي التتار. وقد قال القرطبي في تفسيره (١١ / ٥٨) وهو معاصر لهذه الأحداث: (وقد خرج منهم في هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله تعالى، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج، أو مقدمتهم). ولا شك أن هذا غير خروجهم الآخر في آخر الزمان، إذ يتحصن المؤمنون في حصونهم ولا يحصل بينهم وبين يأجوج ومأجوج قتال أصلاً.

(١) قال بعض أهل العلم: إن يأجوج ومأجوج لم يثبت نص صريح في أن السد سيكون حاجزاً يمنعهم عن أمم الأرض إلى وقت بعثهم وخروجهم، وإنما كان يمنعهم من الإفساد في الأرض فترة من الزمن. ثم إن ذلك السد القوي الممتنع قد زال جزء منه في العهد النبوي وفيه إشارة إلى أن ما يزول منه في ازدياد، وجاء في سورة الكهف أنه سيزول ويكون دكاء يوم القيامة، وستصبح الأرض مستوية لا معلم فيها. ولهذا صرح العلامة عبدالرحمن السعدي وغيره أن يأجوج ومأجوج قد خرجوا من خلف ذلك السد بما هيأه الله لهم من أسباب ومخترعات، وهم اليوم أهل شمال وشرق آسيا ومنغوليا والصين ونحوها، وأن خروجهم وانفتاحهم وانبعاثهم على أهل الأرض قبل قيام الساعة لم يثبت نص صريح في كونه متعلقاً بانهدام السد وجعله دكاء، وإنما يكون خروجهم ذلك بأسباب قدرية كونية يهيوها الله ﷻ، - ولعل منها جذب الأرض زمن الدجال وتغير أحوالها ثم مقتل الدجال - فتكون الباعث على خروجهم وانفتاحهم على أهل الأرض، فيحلُّ بأهل الأرض ما أخبر به النبي ﷺ، والله أعلم.

فِيهَا، ثُمَّ يَمُرُّ بِهَا آخِرُهُمْ، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهِذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّى يَتَّهِوْا إِلَى جَبَلِ الْخَمَرِ، وَهُوَ جَبَلُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ، هَلَمْ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، فَيَرْمُونَ بِنُسَابِهِمْ^(١) إِلَى السَّمَاءِ، فَيَرُدُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نُسَابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا لِلْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ، فَيَقُولُونَ: قَدْ قَتَلْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، وَيُحَاصِرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْعَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعْفَ^(٢) فِي رِقَابِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا، فَيُضْبِحُونَ فَرَسِي^(٣) كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، يَرَكِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَيُضْبِحُ الْمُسْلِمُونَ لَا يَسْمَعُونَ لَهُمْ حِسًّا، فَيَقُولُونَ: مَنْ رَجُلٍ يَشْرِي نَفْسَهُ وَيَنْظُرُ مَا فَعَلُوا؟، فَيَنْزِلُ رَجُلٌ مِنْهُمْ لِذَلِكَ مُحْتَسِبًا لِنَفْسِهِ، قَدْ وَطَّنَهَا عَلَى أَنَّهُ مَقْتُولٌ، فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَيُنَادِي يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَلَا أَبْشَرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ^(٤) وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْعَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ^(٥)، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ بِالْمُهْبِلِ^(٦).



(١) أي: سهامهم، واحده نشابة.

(٢) النَّعْفُ: دود يكون في أنوف الإبل والغنم، الواحدة: نعفة.

(٣) أي: قتلى. الواحد: فريس، من فرس الذئب الشاة وافترسها إذا قتلها.

(٤) دَسَمُهُمْ.

(٥) البخت: نوع من الجمال طوال الأعناق.

(٦) الْهُوَّةُ الذَّاهِبَةُ فِي الْأَرْضِ وَالْهُوِيُّ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ. وقيل: مطلع الشمس، أو اسم لموضع،

وقيل: مكان بيت المقدس.

مطر يغسل الأرض ويعيد بركتها

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنْ^(١) مِنْهُ بَيْتٌ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَقَةِ^(٢)، كَفَاثُورِ^(٣) الْفِضَّةِ، وَيَسْتَوْقِدُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قِسِيِّهِمْ وَنُشَابِهِمْ وَأَتْرَسِيهِمْ سَبْعَ سِنِينَ. وَلِيُحَجَّجَنَّ الْبَيْتُ وَلِيُعْتَمَرَ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ».

«وَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبَتِي ثَمَرَتِكَ وَرُدِّي بَرَكَتِكَ بِعَهْدِ آدَمَ. وَتُنْزِلُ السَّمَاءُ رِزْقَهَا، وَتُخْرِجُ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا، فَلَوْ بَذَرْتَ حَبَّكَ عَلَى الصَّفَا لَنَبَتَ. فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرِّمَانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَحْفِهَا^(٤)، وَيَجْتَمِعُ النَّفَرُ عَلَى الْقُطْفِ مِنَ الْعِنَبِ فَيُشْبِعُهُمْ، وَيَكُونُ الثَّوْرُ بِكَذَا وَكَذَا مِنَ الْمَالِ، وَتَكُونُ الْفَرَسُ بِالْذَّرِيهِمَاتِ وَيُبَارِكُ فِي الرِّسْلِ^(٥) حَتَّى إِنَّ الْفِئَامَ^(٦) مِنَ النَّاسِ لَيَكْتَفُونَ بِاللَّقْحَةِ^(٧) مِنَ الْإِبِلِ، وَإِنَّ الْقَبِيلَةَ لَيَكْتَفُونَ بِاللَّقْحَةِ مِنَ الْبَقَرِ، وَإِنَّ الْفَخْدَ مِنَ النَّاسِ لَيَكْتَفُونَ بِاللَّقْحَةِ مِنَ الْغَنَمِ».



(١) أي: لا يمنع من نزول الماء بيت، والمدر هو الطين الصلب.

(٢) الزلقة: المرأة، وشبهها بالمرأة في صفاتها ونظافتها.

(٣) الفاثورة: المائدة، أو الطست، والإناء الواسع.

(٤) القشر المقعر.

(٥) اللبن.

(٦) الفئام: الجماعة الكثيرة.

(٧) الحلوب.

الإسلام يعم الأرض في زمن المسيح

«ثُمَّ يَمُكُّ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، فَيَمُكُّتَ عِيسَى ﷺ فِي أُمَّتِي حَكَمًا عَدْلًا، وَإِمَامًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ^(١) وَالْخَرَاجَ^(٢) وَتُجْمَعُ لَهُ الصَّلَاةُ وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَلَلَ كُلَّهَا غَيْرَ الْإِسْلَامِ».

«وَيَنْزِلُ بِفَجِّ الرُّوحَاءِ^(٣)، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيُهْلِكَ^(٤) مِنْهَا حَاجِبًا أَوْ مُعْتَمِرًا، أَوْ لَيَنْشِيَهُمَا جَمِيعًا، ثُمَّ لَئِنْ قَامَ عَلَى قَبْرِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، لَا جِيبَنَّهُ. وَلَتَتَرَنَّ الْقِلَاصُ^(٥) فَلَا يُسْعَى عَلَى شَاةٍ وَلَا بَعِيرٍ، وَيَتْرُكُ الصَّدَقَةَ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَتُرْفَعَ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، وَتَتَّخِذُ السُّيُوفُ مَنَاجِلَ، وَتُمَلَأُ الْأَرْضُ مِنَ السَّلَامِ كَمَا يُمَلَأُ الْإِنَاءُ مِنَ

(١) الجِزْيَةُ: هِيَ الْمَالُ الَّذِي يُعْقَدُ لِلْكِتَابِيِّ عَلَيْهِ الذِّمَّةُ، وَهِيَ فِعْلَةٌ، مِنْ الْجَزَاءِ، كَأَنهَا جَزَتْ عَنْ قَتْلِهِ، وَيُدْفَعُونَ الْجِزْيَةَ مُقَابِلَ إِقَامَتِهِمْ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَحِمَايَتِهَا لَهُمْ.

(٢) الْخَرَاجُ: مَعْنَاهُ الْغَلَّةُ، لِأَنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ أَمَرَ بِمَسَاحَةِ أَرْضِ السَّوَادِ وَأَرْضِ الْفَيْءِ، وَدَفَعَهَا إِلَى الْفَلَاحِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِيهِ، عَلَى غَلَّةٍ يُوَدُّونَهَا كُلَّ سَنَةٍ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ خَرَاجًا، ثُمَّ قِيلَ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْبِلَادِ الَّتِي افْتُتِحَتْ صُلْحًا وَوُظِّفَ مَا صَوْلَحُوا عَلَيْهِ عَلَى أَرَاذِيهِمْ: خَرَاجِيَّةٌ، لِأَنَّ تِلْكَ الْوُظِيفَةَ أَشْبَهَتْ الْخَرَاجَ الَّذِي أُلْزِمَ بِهِ الْفَلَاحُونَ، وَهُوَ الْغَلَّةُ.

(٣) (فَجِّ الرُّوحَاءِ): بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَكَانَ طَرِيقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَدْرٍ وَإِلَى مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ، وَعَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ.

(٤) الْإِهْلَالُ: رَفْعُ الصَّوْتِ بِالتَّلْبِيَةِ.

(٥) الْقِلَاصُ: بِكسْرِ الْقَافِ، جَمْعُ قُلُوصٍ بِفَتْحِ الْقَافِ، وَهِيَ النَّاظِقَةُ الشَّابَّةُ.

الْمَاءِ، وَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، وَتَكُونُ الْكَلِمَةُ وَاحِدَةً؛ فَلَا يُعْبَدُ إِلَّا اللَّهُ، وَتَسْلُبُ قُرَيْشُ مُلْكَهَا^(١)، وَتُنَزِعُ حُمَةً كُلَّ ذَاتِ حُمَةٍ^(٢)؛ حَتَّى يُدْخِلَ الْوَلِيدُ يَدَهُ فِي الْحَيَّةِ فَلَا تَضُرُّهُ، وَتَقَعُ الْأَمَنَةُ عَلَى الْأَرْضِ، حَتَّى تَرْتَعَ الْأَسْوَدُ مَعَ الْإِبِلِ، وَالنَّمَارُ مَعَ الْبَقَرِ، وَالذَّنَابُ مَعَ الْغَنَمِ، وَيَكُونُ الذَّنْبُ فِي الْغَنَمِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا، وَتُفَرِّ الْوَلِيدَةُ الْأَسَدَ كَمَا تُفَرُّ وَلَدَ الْكَلْبِ الصَّغِيرِ فَلَا يَضُرُّهَا، طُوبَى لِعَيْشٍ بَعْدَ الْمَسِيحِ، طُوبَى لِعَيْشٍ بَعْدَ الْمَسِيحِ، وَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً^(٣)، ثُمَّ يَتَوَفَّى وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَيَدْفِنُونَهُ، ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.



(١) (وَتَسْلُبُ) أي: تأخذُ (قُرَيْشُ مُلْكَهَا) من أيدي الكفرة والظلمة؛ لأن المهدي من سلالة قريش؛ مِنْ سَلْبِ الْمُجَاهِدِ سَلَبَ قَتِيلَهُ.

(٢) الْحُمَةُ: السم. يعني: سموم الحيات وما يلسع.

(٣) يحتمل أن المراد: أن عيسى ﷺ يمكث سبع سنين على الأرض بعد نزوله وقتله الدجال، لحديث: (ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ)؛ وذلك أنه لما رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ كَانَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ - عَلَى الْمَشْهُورِ -، وَلَمَّا يَنْزِلُ يَمْكُثُ سَبْعَ سِنِينَ؛ فَتَمُّ لَهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ يَتَوَفَاهُ اللَّهُ ﷻ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

طلوع الشمس من مغربها

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «والشمس كُلَّمَا غَرَبَتْ فَإِنَّهَا تَعْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ، تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَسَجَدَتْ^(١) وَاسْتَأْذَنْتْ فِي الرُّجُوعِ، فَأُذِنَ لَهَا، حَتَّى إِذَا بَدَأَ اللَّهُ أَنْ تَطْلُعَ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَعَلَتْ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ، أَتَتْ تَحْتَ الْعَرْشِ فَسَجَدَتْ، فَاسْتَأْذَنْتْ فِي الرُّجُوعِ، فَلَمْ يُرَدَّ عَلَيْهَا شَيْءٌ، ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ فِي الرُّجُوعِ فَلَا يُرَدُّ عَلَيْهَا شَيْءٌ، ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ، فَلَا يُرَدُّ عَلَيْهَا شَيْءٌ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْهَبَ، وَعَرَفَتْ أَنَّهُ إِنْ أُذِنَ لَهَا فِي الرُّجُوعِ لَمْ تُدْرِكِ الْمَشْرِقَ، قَالَتْ: رَبِّ مَا أَبْعَدَ الْمَشْرِقَ، مَنْ لِي بِالنَّاسِ؟، فَيُقَالُ لَهَا: مِنْ مَكَانِكَ فَاطْلُعِي، فَطَلَعَتْ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَاكَ حِينَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾^(٢). «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا؛ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

(١) لا يلزم من ذلك أن تترك الشمس مدارها أو تترك فلكها، فهي في كل حين تحت العرش، إذ العرش سقف المخلوقات جميعاً، ولكل مخلوق سجوده الذي يختص به، وعليه يفهم أن للشمس في وقت غروبها عن مكة والمدينة سجوداً الله أعلم بكيفيته، في مكان يكون مستقراً لها؛ والله تعالى أعلم.

(٢) طلوع الشمس من مغربها وهو أوَّلُ الآياتِ العظامِ المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوي. وجاء في الحديث: (ثلاث إذا خرجن؛ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض).

خروج الدابة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَوَّلَ آيَاتِ خُرُوجًا تَطْلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحَى»^(١)، تَكَلَّمَ النَّاسُ، وَتَسَمَّ النَّاسُ عَلَى خِرَاطِيمِهِمْ^(٢)، ثُمَّ يَغْمُرُونَ فِيكُمْ، حَتَّى يَشْتَرِيَ الرَّجُلُ الْبَعِيرَ فَيَقُولُ: اشْتَرَيْتَهُ مِنْ أَحَدِ الْمَخْطُمِينَ»^(٣).

«وَإِنَّهَا تَخْرُجُ ثَلَاثَ خَرَاجَاتٍ فِي بَعْضِ الْبَوَادِي، ثُمَّ تَكْمُنُ، ثُمَّ تَخْرُجُ فِي بَعْضِ الْقُرَى حَتَّى يُذْعَرُوا وَحَتَّى تُهْرِيقَ فِيهَا الْأُمَرَاءُ الدَّمَاءَ، ثُمَّ تَكْمُنُ، فَيَنْمَأ النَّاسُ عِنْدَ أَعْظَمِ الْمَسَاجِدِ وَأَفْضَلِهَا وَأَشْرَفِهَا؛ إِذَا رَنَقَتِ الْأَرْضُ وَيَهْرُبُ النَّاسُ، وَيَبْقَى عَامَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَنْ يُنَجِّيَنَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْءٌ، فَتَخْرُجُ فَتَجْلُو وَجُوهَهُمْ حَتَّى تَجْعَلَهَا كَالْكَوَاكِبِ الدَّرِّيَّةِ، ثُمَّ تَنْطَلِقُ تَتَّبِعُ النَّاسَ فَتَخْطُمُ الْكَافِرَ وَتَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ، وَتَأْتِي الرَّجُلَ وَهُوَ يُصَلِّي؛ فَتَقُولُ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، فَيَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَتَخْطُمُهُ، ثُمَّ لَا يَنْجُو مِنْهَا هَارِبٌ، وَلَا يَذَرُكُهَا طَالِبٌ. وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ جِيرَانٌ فِي الرَّبَاعِ»^(٤)، شُرَكَاءُ فِي الْأَمْوَالِ، أَصْحَابُ فِي الْأُسْفَارِ.

(١) جاء في الحديث: «فَإِيَّتُهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتَيْهَا فَأَلْأُخْرَى عَلَى إِثْرَهَا قَرِيبًا»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: وَأَظُنُّ أَوَّلَهُمَا خُرُوجًا تَطْلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا.

(٢) تضع علامات على أنوفهم.

(٣) الخطم والمخطم: الأنف. ومنه سمي: الخطام. والمقصود بالمخطم: الموسوم بعلامة على أنفه.

(٤) الرَّبَاعُ: - بكسر الراء، وتخفيف الموحدة: جمع رُبْع - بفتح، فسكون، كِسْهَامٌ وَسَهْمٌ: وهي محلة القوم، ومنزلهم، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى الْقَوْمِ مَجَازًا.

ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ^(١) كَرِيحِ الْمِسْكِ، مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، فَلَا تَتْرُكُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَبَضَتْهُ، تَأْخُذُهُمْ تَحْتَ أَبْطَاهُمْ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ، لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ».

اختفاء أثر الإسلام ورفع القرآن

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «يُقْبِضُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ»، «يَدْرُسُ^(٢) الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ^(٣)، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَدَقَةٌ وَلَا نَسْكَ، وَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ص فِي لَيْلَةٍ، فَيَرْفَعُ إِلَى السَّمَاءِ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَلَا مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَلَا الزَّبُورِ^(٤)، وَيُنْتَزَعُ مِنْ قُلُوبِ الرِّجَالِ، فَيُصْبِحُونَ وَلَا

(١) وفي رواية: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُبْعَثَ رِيحٌ حَمْرَاءُ مِنْ قِبَلِ الْيَمَنِ، فَيَكْفِتُ اللَّهُ بِهَا كُلَّ نَفْسٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا يُنْكِرُهَا النَّاسُ مِنْ قِلَّةٍ مَنْ يَمُوتُ فِيهَا، مَاتَ شَيْخٌ فِي بَنِي فُلَانٍ، وَمَاتَتْ عَجُوزٌ فِي بَنِي فُلَانٍ). فيحتمل أنهما ريحان تجتمعان، أو أنها ريح واحدة تأتي من قبل الشام، ثم تعدل.

(٢) تختفي معالمه.

(٣) وَشْيُ الثَّوْبِ: نَقْشُهُ. وَالْوَشْيُ خَلْطُ لَوْنٍ بِلَوْنٍ.

(٤) فيه إشارة أنه باق منها شيء مما لم يحرف من الحق.

يَدْرُونَ مَا هُوَ، وَبَقِيَ حُثَالَةٌ كَحُثَالَةِ التَّمْرِ وَالشَّعِيرِ، لَا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِمْ شَيْئًا، لَا يُبَالِيهِمْ اللَّهُ بَالَةً^(١)، ويبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير، والعجوز الكبيرة، يقولون: أدر كنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها. «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللَّهُ، اللَّهُ». «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُحَجَّ الْبَيْتُ».

«حَتَّى تَصِيرَ الدُّنْيَا لِلْكَعِ ابْنِ لُكْعِ»، «يُبَايِعُ لِرَجُلٍ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، وَلَنْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ إِلَّا أَهْلُهُ، فَإِذَا اسْتَحْلَوْهُ، فَلَا تَسْأَلُ عَنْ هَلَكَةِ الْعَرَبِ، ثُمَّ تَجِيءُ الْحَبَشَةُ فَيُخَرَّبُونَهُ خَرَابًا لَا يُعْمَرُ بَعْدَهُ أَبَدًا، وَهُمْ الَّذِينَ يَسْتَخْرِجُونَ كَنْزَهُ»، «اسْتَمْتِعُوا مِنْ هَذَا الْبَيْتِ فَإِنَّهُ قَدْ هُدِمَ مَرَّتَيْنِ، وَيُرْفَعُ فِي الثَّالِثَةِ»، «اتْرُكُوا الْحَبَشَةَ مَا تَرَكَوْكُمْ، فَإِنَّهُ لَا يُخَرَّبُ الْكَعْبَةُ إِلَّا ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ^(٢) مِنَ الْحَبَشَةِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أَصِيلَعِ^(٣) أَفِيدَعِ^(٤) أَسْوَدَ أَفْحَجَ يُجَرِّدُهَا مِنْ كِسْوَتَيْهَا، وَيَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمِسْحَاتِهِ^(٥) وَمِعْوَلِهِ^(٦) فَيَنْقُضُهَا حَجَرًا حَجَرًا وَيَسْلُبُهَا حِلْيَتَهَا وَيَسْتَخْرِجُ كَنْزَهَا». ^(٧)

- (١) أي: لَا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِمْ، وتقول العرب أيضًا في مصدر باليت: (مبالاة) كما تقول: (بالة).
- (٢) السُّوَيْقَةُ: تصغير ساق وهي مؤنثة فلذلك ظهرت التاء في تصغيرها، وإنما صغر الساق لأن الغالب على سوق الحبشة الدقة والحموشة.
- (٣) أَصِيلَعِ: هو تصغير الأصيلع، وهو الذي انحسر الشعر عن رأسه.
- (٤) أَفِيدَعِ: تصغير أفدع، والفذع - بالتحريك - : زيع بين القدم وبين عظم الساق، وكذلك يكون في اليد، وهو أن تزول المفاصل عن أماكنها.
- (٥) المسحاة هي المجرفة من الحديد.
- (٦) المعول: الفأس العظيم التي ينقر بها الصخر.
- (٧) أَيُّ: لَيْسَ ابْنُ لَيْسٍ، أَيُّ: رَدِيءُ النَّسَبِ، ذَنِيءُ الْحَسَبِ. وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ مَنْ لَا يَعْرِفُ لَهُ أَصْلًا، وَلَا يُحْمَدُ لَهُ خُلُقٌ.

بقاء شرار الناس على الأرض

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «ثُمَّ يَبْقَى شَرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ^(١) وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ^(٢)، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، يَتَسَافِدُونَ فِي الطَّرِيقِ تَسَافِدَ الْحَمِيرِ^(٣)، هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟، فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟، فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ»، «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلْيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخَلَصَةِ^(٤)»، «وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رِزْقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهَ عَلَيْهِمْ^(٥)»، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»، «وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ»، «تَلْفِظُهُمْ أَرْضُهُمْ، تَقْدَرُهُمْ نَفْسُ اللَّهِ، وَتَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْفِرْدَوْسِ وَالْخَنَازِيرِ».

نار تخرج من اليمن تحشر الناس للشام

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «وَأَخْرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ»، «سَتَخْرُجُ نَارٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ أَوْ مِنْ نَحْوِ بَحْرِ حَضْرَمَوْتَ»، «مِنْ قَعْرِ عَدَنِ»، «تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى

(١) أي: في سرعتهم إلى الشر، والفساد.

(٢) أي: في أخلاقهم، وطباعهم من الظلم، والبغي، والعدوان.

(٣) أي: يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير، ولا يكثرثون لذلك.

(٤) (أليات): جَمْعُ أَلِيَّةٍ، وَالْأَلِيَّةُ: الْعَجِيزَةُ، وَجَمْعُهَا أَعْجَاز. وَ(ذُو الْخَلَصَةِ): صَمٌّ كَانَتْ تَعْبُدُهُ

دَوْسٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَتَبَالَةٍ وَهِيَ قَرْيَةٌ بَيْنَ الطَّائِفِ وَالْيَمَنِ، بَيْنَهُمَا سِتَّةُ أَيَّامٍ.

(٥) لا يستجيب دعاءهم لقبح حالهم وسوء صنيعهم.

مَحْشَرِهِمْ»^(١) «فَتَبَيَّتْ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا»^(٢)، «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشْرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَيَحْشَرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ». «الشَّامُ أَرْضُ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ»^(٣).



(١) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ». وَالْمُرَادُ مِنَ الْمَحْشَرِ: أَرْضُ الشَّامِ، إِذْ صَحَّ فِي الْخَبَرِ أَنَّ الْحَشَرَ يَكُونُ فِي أَرْضِ الشَّامِ، وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ الْمُرَادَ أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأُهُ مِنْهَا، أَوْ تُجْعَلَ وَاسِعَةً تَسَعُ خَلْقَ الْعَالَمِ فِيهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) مِنَ الْقِيلُولَةِ، وَهِيَ النُّومُ فِي نِصْفِ النَّهَارِ.

(٣) أَيُّ: الْبَقْعَةُ الَّتِي يَجْمَعُ النَّاسُ فِيهَا إِلَى الْحِسَابِ وَيَنْشُرُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ ثُمَّ يَسَاقُونَ إِلَيْهَا.

نفخة الصق

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ التَّقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَأَصْغَى السَّمْعَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ»، «إِنَّ طَرْفَ صَاحِبِ الصُّورِ مُذْ وَكَّلَ بِهِ مُسْتَعِدٌّ يَنْظُرُ نَحْوَ الْعَرْشِ، مَخَافَةَ أَنْ يُؤْمَرَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ، كَأَنَّ عَيْنَيْهِ كَوَكَبَانِ دُرِّيَّانِ». «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا». «وَأَخِرُ مَنْ يُحْشَرُ: رَاعِيَانِ مِنْ مَرْيَنَةَ يُرِيدَانِ الْمَدِينَةَ يَنْعِقَانِ بَغْنَمَهُمَا فَيَجِدَانِهَا وَحُوشًا، حَتَّى إِذَا بَلَغَا ثِيَّةَ الْوَدَاعِ خَرَا عَلَى وُجُوهِهِمَا». «وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ أَنْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقَحْتِهِ^(١) فَلَا يَطْعُمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ^(٢) فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعُمُهَا».

«يُنْفَخُ فِي الصُّورِ^(٣) يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيْتًا^(٤) وَرَفَعَ لِيْتًا، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ^(٥) حَوْضَ إِبِلِهِ؛ فَيَضَعُ، «وَيَضَعُ النَّاسُ»، «فَيَضَعُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، فَأَضَعُ مَعَهُمْ».

(١) ناقته.

(٢) يطيئه.

(٣) الصور: هو قرن يُنْفَخُ فِيهِ، والنافخ من الملائكة، وهو إسرافيل عليه السلام.

(٤) أصغى: أمال. والليت: جانب الرقبة.

(٥) لأط الحوض: طلاه بالطين، ومَلَّسه به، وأصلحه.

الحياة البرزخية في القبر

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»، «لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ قَرِيبًا مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا؛ لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسَمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ». «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»^(١)، اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ مِنَ السَّمَاءِ، يَبْضُ الْوُجُوهَ، كَأَنَّ وَجُوهَهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ حَرِيرَةٌ بَيَضَاءُ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ^(٢)، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَأَنْتِ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ، وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطِيبِ رِيحٍ مِسْكٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَإِذَا أَخَذَهَا، لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، حَتَّى أَنَّهُ لَيَنَاقِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمَّ يَجْعَلُونَهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، فَيَتَلَقَّاهَا

(١) موت الإنسان هو بداية آخرته، فبداية اليوم الآخر لكل إنسان بحسبه، فمن مات في أي وقت فقد قامت قيامته، وانتهت دنياه وبدأ في طريق الآخرة، أما يوم البعث ويوم الحشر فهو لكل الناس. والإنسان منذ تفارق روحه بدنه هو إما في نعيم وإما في عذاب، فلا يتأخر النعيم والعذاب عن النفوس إلى حين القيامة العامة، وإن كان كماله حينئذ. وحياة المؤمن في قبره مستمرٌ سريعًا، كما سيُمرُّ عليه يوم القيامة سريعًا.

(٢) أي: قَرِيبًا مِنْهُ مَعَ كَمَالِ الْأَدَبِ، يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَ الرُّوحِ مِنْهُ.

مَلَكَانِ يُصْعِدَانَهَا حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى بَابِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيَفْتَحُ لَهُمْ،
فَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرِّيحَ، رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، مَنْ هَذَا؟،
فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ - بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا - فَيَقَالُ:
مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ، وَعَلَى جَسَدِكَ كُنْتَ
تَعْمُرُ بِهِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ، وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانٍ، وَيُشِيعُهُ مِنْ
كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُتَمَّتَ بِهَا إِلَى
السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ ﷻ فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ ﷻ فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَ
عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا
أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرَعَ
نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْزَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ،
وَالْآخَرُ: النَّكِيرُ، فَيُجْلِسَانِهِ غَيْرَ فَرَعٍ وَلَا مَشْعُوفٍ^(١)، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ:
رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ اللَّهَ؟ فَيَقُولُ: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَرَى اللَّهَ، فَيَقُولَانِ
لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ،
الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا
عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ، وَجَاءَنَا
بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْنَاهُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ: صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ
مِنْ الْجَنَّةِ، وَاللِّسْوَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ
تَقُولُ هَذَا، فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قَبْلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَقَالُ لَهُ: انْظُرْ
إِلَى مَا وَقَاكَ اللَّهُ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ قَبْلُ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيَقَالُ لَهُ: هَذَا
مَقْعَدُكَ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطَيِّبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، وَيُقَالُ

(١) قال السيوطي: الشعف: شدة الفرع، حتى يذهب بالقلب.

لَهُ: عَلَى الْيَقِينِ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: دَعُونِي أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأُبَشِّرُهُمْ، فَيَقُولَانِ لَهُ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوَعِّدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟، فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي. فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدُمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُونَهُ مَاذَا فَعَلَ فَلَانٌ؟، مَاذَا فَعَلَ فَلَانٌ؟، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَنْظِرُوا أَخَاكُمْ حَتَّى يَسْتَرِيحَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي كَرْبٍ، فَيَقْبَلُونَ عَلَيْهِ يَسْأَلُونَهُ: مَا فَعَلَ فَلَانٌ؟، مَا فَعَلْتَ فَلَانَةُ؟، هَلْ تَزَوَّجْتَ؟، فَإِذَا سَأَلُوا عَنِ الرَّجُلِ قَدْ مَاتَ قَبْلَهُ، قَالَ لَهُمْ: إِنَّهُ قَدْ هَلَكَ، أَمَا أَنْتَ؟، قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، ذَهَبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَوَايَةِ، فَبُسَّتِ الْأُمُّ، وَبُسَّتِ الْمَرْيِيَّةُ، فَتُعَرِّضُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ، فَإِذَا رَأَوْا حَسَنًا؛ فَرِحُوا وَاسْتَبَشَرُوا، وَقَالُوا: اللَّهُمَّ هَذِهِ نِعْمَتُكَ عَلَى عَبْدِكَ فَأَتِمَّهَا، وَإِنْ رَأَوْا سُوءًا؛ قَالُوا: اللَّهُمَّ رَاجِعْ بِعَبْدِكَ^(١).

وَإِنَّ الْكَافِرَ الرَّجُلَ السَّوَّاءَ إِذَا اخْتُصِرَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ^(٢) فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: اخْرُجِي أَتَيْتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً، اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكَ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ ﷻ وَأُبَشِّرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَاقٍ^(٣)، وَآخِرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ. فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَتَرَعَّعُهَا كَمَا يَتَرَعَّ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ

(١) أَي: رُدَّةً إِلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ.

(٢) الْمُسُوحُ: جَمْعُ مُسَحٍ وَهُوَ ثَوْبٌ مِنْ شَعْرِ أَسْوَدَ.

(٣) صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ.

الْمَبْلُولِ، فَتَقَطَّعَ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جِيْفَةٍ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَلَا يُفْتَحُ لَهَا، فَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: مَا أَنْتَ هَذِهِ الرِّيحُ، رُوحٌ خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قَبْلِ الْأَرْضِ، مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ - بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا - فَيَقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي دَمِيمَةً، فَإِنَّهَا لَا تُفْتَحُ لَكَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الْأَذِيَّتَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿١١﴾ فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿١٣﴾ فَيُرْسَلُ بِهَا مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ فُتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ.

وَيَأْتِيهِ الْمَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِ فِي قَبْرِهِ فَرِعًا مَشْعُوفًا، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟، فَيَقُولُ: هَاهُ، هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟، فَيَقُولُ: هَاهُ، هَاهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟، فَيَقُولُ: هَاهُ، هَاهُ، لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلًا فَقُلْتُ مِثْلَهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ ^(١)، قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ. ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا الْخَلْقُ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، فَيُفْرَجُ لَهُ قَبْلُ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيَقُولَانِ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قَبْلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَقُولَانِ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، عَلَى الشَّكِّ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ

(١) أَي: لَا فَهَمْتَ، وَلَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ، وَالْمَعْنَى: لَا دَرَيْتَ، وَلَا اتَّبَعْتَ مَنْ يَذَرِي. وقيل: أَي: مَا اسْتَطَعْتَ. وقيل: إنها إتباع ولا معنى لها.

اللَّهُ تَعَالَى . فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ حَتَّى تَأْتُوا بِهِ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَالْبِسْوُهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ فَيَقَالُ لِلْأَرْضِ: التَّيْمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتِمُ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُتِنُّ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوَعِّدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تَقِمِ السَّاعَةَ، ثُمَّ يَقْيِضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكَمَ لَا يَسْمَعُ صَوْتَهُ فَيَرْحَمُهُ مَعَهُ مِرْزَبَةً مِنْ حَدِيدٍ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُ بِهَا صُرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، فَيَصِيرُ تُرَابًا، ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ».

نزول ماء الحياة ونمو الأجساد

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «ثُمَّ يُنَزَّلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءَ الْحَيَاةِ فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ^(١) وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجَبُ الذَّنْبِ»^(٢)، «لَا تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ أَبَدًا فَإِنَّهُ مِنْهُ خُلِقَ»^(٣)، «وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، «حَتَّى إِذَا أُخْرِجَتِ الْأَجْسَادُ، أَرْسَلَ اللَّهُ الْأَرْوَاحَ، وَكَانَ كُلُّ رُوحٍ أَسْرَعَ إِلَى صَاحِبِهِ مِنَ الطَّرْفِ».

(١) أي ينبت الخلائق من ذلك الماء كما ينبت البقل والخضروات من المطر. أي: فإذا تهبأت الأجسام وكُمِلت؛ نفخ في الصور نفخة البعث فخرجت الأرواح من المحال التي هي فيها، فتأتي كل روح إلى جسدها فيحييه الله بها، كل ذلك في لحظة ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

(٢) هو الْعَظْمُ اللَّطِيفُ الَّذِي فِي أَسْفَلِ الصُّلْبِ وَهُوَ رَأْسُ الْعُضْعُصِ.

(٣) أي: ابتدئ منه خلق الإنسان أولاً.

نفخة البعث

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، مَحْشُورُونَ حُفَاءَ عُرَاءَ غُرُلًا»، «يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَطِشُ^(١) عَلَيْهِمْ»، «فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ»، «أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ»، «فَإِذَا مُوسَى ﷺ أَخَذَ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَذْرِي، أَكَانَ فِيمَنْ صُعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَشْنَاهُ اللَّهُ ﷻ فَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ»، «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»^(٢).

أول من تنشق عنه الأرض

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنِّي لَأَوَّلُ النَّاسِ تَنْشَقُ الْأَرْضُ عَنْ جُمُجْمَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَلِوَاءِ الْحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ - آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ - إِلَّا تَحْتَ لَوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ». «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ بِالسُّجُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ، فَانْظُرْ إِلَى

(١) أي: تُمَطِّرُ مطرًا خفيفًا.

(٢) قال أصحاب أبي هريرة له: أربعون يومًا؟ قال أبو هريرة: أبيت. قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت قالوا: أربعون سنة؟ قال: (أبيت) أي: أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يومًا، أو سنة، أو شهرًا، بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة. قال النووي: وقد جاءت مفسرة من رواية غير مسلم (أربعون سنة).

بَيْنَ يَدَيَّ، فَأَعْرِفَ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ، وَمِنْ خَلْفِي مِثْلُ ذَلِكَ، وَعَنْ يَمِينِي مِثْلُ ذَلِكَ، وَعَنْ شِمَالِي مِثْلُ ذَلِكَ، هُمْ غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ، لَيْسَ أَحَدٌ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ، وَأَعْرِفُهُمْ أَنَّهُمْ يُؤْتُونَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، وَأَعْرِفُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ».

من أحوال وأهوال يوم القيامة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ»^(١) كَقَرَصَةِ النَّقِيِّ^(٢) لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ.

«تَذْنُو الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدَرٍ مِيلٍ وَيَزَادُ فِي حَرِّهَا»، «يَغْلِي مِنْهَا الْهَوَاءُ كَمَا تَغْلِي الْقُدُورُ، فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَرَقُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَرَقُ إِلَى سَاقِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَرَقُ إِلَى وَسْطِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا»^(٣)، «حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا». «الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاصَتْ عَيْنَاهُ».

(١) شديدة البياض.

(٢) (النَّقِيِّ): خُبْزُ الدَّقِيقِ الْحَوَارِي، وَهُوَ النَّظِيفُ الْأَبْيَضُ.

(٣) وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ. يَعْنِي: إِلَى فَمِهِ.

«مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ؛ أَظْلَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ».

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ مَجْرُوحٍ يُجْرَحُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجْرَحُ فِي سَبِيلِهِ - إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ جُرْحٍ تَفَجَّرُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ الدِّمِّ كَالزَّعْفَرَانِ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمِسْكِ».

«يُطَوَّلُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَلَى النَّاسِ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَتَغَشَّاهُ الْمَوْتُ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهُوَ عَلَيْهِ كَالزَّكَمَةِ»^(١).

(١) يوم القيامة هو يوم عبوس، قمطير، طويل، قدره خمسون ألف سنة، فيه مواقف ومشاهد كثيرة، تُبَدِّلُ فِيهِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ، فتنشق السماء وتصير كالوردة وكالدهان، وواهية وكالمهل، وتزال من مكانها، وتصير أبواباً وطرقاً للملائكة، وتنتشر الكواكب، وتطمس النجوم ويخسف القمر، ويجمع مع الشمس، ويصبح الناس كالفرش المبعوث، وكالجراد المنتشر، وتبرق الأبصار من الهول وتشخص، فلا تطرف من الخوف والفرع، وتترك النوق الحوامل وتُهْمَلُ، ويترك كل نفس، وتجمع البهائم ليقتنص لبعضها من بعض، وتُلْفُ الشمس، ويذهب ضوءها، وتتناثر النجوم ويطمس نورها، وترجُّ الأرض وتذك وتزلزل، وتخرج ما في بطنها من الأموات والكنوز، وتذك الجبال وتنسف وتسير عن وجه الأرض، فتكون هباءً منبثاً، كالرمل وكالصوف المنفوش المتطاير، حتى تستوي الأرض كالبساط، وتوقد البحار وتسجّر وتفجّر فتكون ناراً، ويشتد الزحام فليس للإنسان إلا موضع قدميه، وكل أحد يبعث على ما مات عليه، ويقوم أكل الربا من قبره كالذي يتخبطه الشيطان من المس، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، وتدنو الشمس من رؤوس العباد وهي حامية، ويؤتى بجهم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، ويشتد الخوف والفرع، ويكون أناس في ظل العرش، وأناس تظلل عليهم قراءتهم لسورتي البقرة وآل عمران، والمجرمون يؤوون إلى ظل النار في أرض الموقف، ظلُّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ، لَا ظِلِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ، وتتطاير الصحف، والناس ينتظرون فصل القضاء وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي، وتشرق الأرض بنور ربها حين يأتي الرحمن لفصل القضاء بين الخلق، وتنصب الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء.

الحوض

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ»، «لَكُمْ سِيْمًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ غَيْرِكُمْ، تَرِدُونَ عَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مِنَ الشُّجُودِ، مُحَجَّلِينَ بُلُقٌ مِنْ أَثَارِ الْوُضُوءِ»، «وَأَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ». «إِنِّي لَبِعُتْقِرِ حَوْضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَذُودُ النَّاسِ لِأَهْلِ الْيَمَنِ، أَضْرِبُ بِعَصَايَ حَتَّى يَرْفَضَ عَلَيْهِمْ»، «وَأَوَّلُ النَّاسِ وَرُودًا عَلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ، الشَّعْثَةُ رُءُوسُهُمْ، الشَّحْبَةُ وُجُوهُهُمْ، الدَّنِسَةُ ثِيَابُهُمْ، الَّذِينَ لَا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعَّمَاتِ وَلَا تُفْتَحُ لَهُمُ الشُّدُودُ - يَعْنِي أَبْوَابَ السُّلْطَانِ -، يُوَكَّلُ بِهِمْ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، يُعْطُونَ كُلُّ الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَلَا يُعْطُونَ كُلُّ الَّذِي لَهُمْ». «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، كَمَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَصَنْعَاءَ، يَشْحَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ مِنْ وَرَقٍ وَذَهَبٍ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ»، «أَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ»، «أَبْيَضُ مِنَ الْوَرَقِ»، «وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ»، «وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكَبِيرَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، كَأَنَّ الْأَبَارِيقَ فِيهِ النُّجُومُ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، وَلَمْ يَسْوَدَّ وَجْهُهُ أَبَدًا»، «أَنِيَّتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ»^(١)، «وَسَيَاتِي رِجَالٌ وَنِسَاءٌ بَانِيَةٌ وَقَرِيبٌ ثُمَّ لَا يَذُوقُونَ مِنْهُ شَيْئًا».

(١) عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ ؓ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ بِجُزْءٍ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ جُزْءٍ مِمَّنْ يَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضُ»، قَالَ طَلْحَةُ: فَقُلْنَا لِرَبِّدٍ: وَكَمْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: كُنَّا سَبْعَ مِائَةٍ أَوْ ثَمَانِ مِائَةٍ.

انتظار فصل القضاء

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً، شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُونَ فَصَلَ الْقَضَاءِ، يُبْصِرُهُمُ النَّاطِرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَنَجِيءٌ نَحْنُ^(١) فَوْقَ النَّاسِ، وَمَا جِئَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ. يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾، فَذَاكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ».

«إِنَّ اللَّهَ لَنْ يُعْجِزَنِي فِي أَمْتِي أَنْ يُؤَخِّرَهَا نِصْفَ يَوْمٍ»، «يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِقْدَارَ نِصْفِ يَوْمٍ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، فِيهِوْنَ ذَلِكَ الْيَوْمَ عَلَى الْمُؤْمِنِ، كَتَدَلِّي الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ»، «كَقَدَرِ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ»، «يَكُونُ ذَلِكَ الْيَوْمُ أَقْصَرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ»، «يُوضَعُ لَهُمْ كِرَاسِيٌّ مِنْ نُورٍ، مُظَلَّلٌ عَلَيْهِمُ الْغَمَامُ»، «أَنْتُمْ تُوفُونَ^(٢) سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ».

إخراج بعث النار وهول الموقف

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ آدَمُ، فَيَنَادِيهِ رَبُّهُ تَعَالَى فَيَقُولُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَيْتَكَ يَا رَبِّ وَسَعْدَيْكَ، فَتَرَاعَى ذُرِّيَّتَهُ، فَيَقَالُ: هَذَا أَبُوكُمْ آدَمُ،

(١) في زيادة: عَلَى كَذَا وَكَذَا انْظُرْ أَيُّ ذَلِكَ.

(٢) يعني: تَكْمَلُونَ.

فَيَقُولُ لَهُ رَبُّنَا: أَخْرِجْ نَصِيبَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَكَمْ أَخْرِجُ؟، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ، تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، فَحِينَئِذٍ يَشِيبُ الصَّغِيرُ (وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)، اْعْمَلُوا وَأَنْبِشِرُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ شَيْءٍ إِلَّا كَثَرَتَا: (يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) وَ(مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ)، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، لَا يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا أَدْخَلَ اللَّهُ مَكَانَهُ النَّارَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ دُفِعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَيَقَالُ: هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ^(١)، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَا أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنِّي لَا أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعْرَةِ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ.

شهادة أمة محمد للأنبياء بالبلاغ

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «يُدْعَى نُوحٌ وَأُمَّتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ لَهُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَغْتَ؟، فَيَقُولُ: نَعَمْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟، فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فَتُدْعَى أُمَّةُ مُحَمَّدٍ، فَيَقَالُ: هَلْ بَلَغَ هَذَا؟، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: وَمَا

(١) أَيُّ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي مَنْزِلَتَكَ فِي النَّارِ إِيَّاهُ، وَيُعْطِي مَنْزِلَتَهُ فِي الْجَنَّةِ إِيَّاكَ، وَقَدْ جَاءَ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ مَنْزِلَيْنِ. وَقَدْ قَدَّرَ لِلنَّارِ عِدَدٌ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ، فَإِذَا دَخَلَهَا الْكُفَّارُ بِكُفْرِهِمْ وَدُنُوبِهِمْ صَارُوا فِي مَعْنَى الْفِدَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ.

عَلِمُكُمْ بِذَلِكَ؟، فَيَقُولُونَ: أَخْبَرَنَا نَبِينَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا، فَصَدَّقْتَاهُ. فَتَشْهَدُونَ لَهُ بِالْبَلَاغِ، ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ. وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(١).

الشفاعة في الخلاص من كرب المحشر

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «وَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟، أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا بَلَّغَكُمْ؟، أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا. فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ فَيَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّنَا فَلْيَقْضِ بَيْنَنَا. فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ آدَمُ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنْكَ جَنَّتَهُ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ آدَمُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ؟ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَايَنِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ^(١)، وَسَمَّاكَ

(١) وَقَدْ اسْتَشْكَلَتْ هَذِهِ الْأَوَّلِيَّةُ بِأَنَّ آدَمَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَكَذَا شِيثٌ وَإِدْرِيسُ وَهُمْ قَبْلَ نُوحٍ، وَالْجَوَابُ أَنَّ الْأَوَّلِيَّةَ هُنَا مُقْبِدَةٌ بِقَوْلِهِ (أَهْلُ الْأَرْضِ) لِأَنَّ آدَمَ وَمَنْ ذَكَرَ مَعَهُ لَمْ يُرْسَلُوا إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَبَعَثَتْهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بِاعْتِبَارِ الْوَاقِعِ لِصَدَقَ أَنَّهُمْ قَوْمُهُ، بِخِلَافِ عُمُومِ بَعَثَ نَبِينَا مُحَمَّدٍ ﷺ لِقَوْمِهِ وَلِغَيْرِ قَوْمِهِ، وَأَنَّ رِسَالَاتِ آدَمَ كَانَتْ إِلَى بَنِيهِ وَهُمْ مُحْذَرُونَ لِيَعْلَمَهُمْ شَرِيعَتَهُ، وَنُوحٌ كَانَتْ رِسَالَتُهُ إِلَى قَوْمٍ كُفَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ.

الله ﴿عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿٣﴾ اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟، ألا ترى إلى ما بلغنا؟، فيذكر خطيئته التي أصاب - سؤاله ربه ما ليس له به علم -، فيقول: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، إِنِّي دَعَوْتُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ دَعْوَةً فَأَهْلِكُوا. نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟، فيقول لهم إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ. وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كِذَبَاتٍ. وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ﴿٨٩﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وَقَوْلُهُ فِي الْكَوْكَبِ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ ﴿١﴾، وَأَتَى عَلَى جَبَّارٍ مُتْرَفٍ وَمَعَهُ أَمْرَاتُهُ، فَقَالَ: أَخْبِرِيهِ أَنِّي أَخُوكَ فَإِنِّي مُخْبِرُهُ أَنَّكَ أُخْتِي ﴿٢﴾، إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، عَبْدًا اصْطَفَاهُ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا. فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَصَلِّكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟. فيذكر موسى خطيئته التي أصاب، فيقول: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ، وَرُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتِهِ. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلِمَتِ النَّاسِ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟، فيقول عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ عِيسَى ذَنْبًا -،

(١) تقدم أن الثلاث في ذات الله ليحاج قومه.

(٢) يعني في الدين.

نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، فَإِنَّهُ قَدْ حَضَرَ الْيَوْمَ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ كَانَ مَتَاعٌ فِي وَعَاءٍ قَدْ خُتِمَ عَلَيْهِ، هَلْ كَانَ يُقَدَّرُ عَلَى مَا فِي الْوِعَاءِ حَتَّى يُفْضَ الْخَاتَمُ؟، فَيَقُولُونَ: لَا، قَالَ: فَإِنَّ مُحَمَّدًا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي عَلَى تَلٍّ، وَيَكُونُنِي رَبِّي ﷺ حُلَّةً خَضِرَاءَ، فَيَأْتُونِي وَإِنِّي لَفَائِمٌ أَنْتَظِرُ أُمَّتِي تَعْبُرُ عَلَى الصِّرَاطِ، إِذْ جَاءَنِي عِيسَى فَقَالَ: هَذِهِ الْأَنْبِيَاءُ قَدْ جَاءَتْكَ يَجْتَمِعُونَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، وَيَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يُفَرِّقَ جَمْعَ الْأُمَمِ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ اللَّهُ لِعِغْمٍ مَا هُمْ فِيهِ، فَالْخَلْقُ مُلْجَمُونَ فِي الْعَرَقِ، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَلْيَقْضِ بَيْنَنَا، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟، أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، أَنْتَظِرُ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لِي، فَأَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَقُولَ، فَذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ. فَاتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَاتِي بَابَ الْجَنَّةِ، فَأَخْذُ بِحُلَقَةِ الْبَابِ فَأَقْعَعُهَا، فَيَقَالُ: مَنْ هَذَا؟، فَأَقُولُ: مُحَمَّدُ، فَيَفْتَحُونَ لِي، وَيَرْحَبُونَ بِي، فَيَقُولُونَ: مَرْحَبًا، فَإِذَا الْجَبَّارُ ﷻ مُسْتَقْبِلِي، فَأَخِرُّ سَاجِدًا، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٌ قَبْلِي^(١)، فَأَوْحَى اللَّهُ ﷻ إِلَى جِبْرِيلَ: اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تَشْفَعُ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ. فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِي مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ^(٢). «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمَصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجْرٍ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى».

(١) فَلَقَنِي نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ مَا لَمْ يَلِقْ مَلَكٌ مُصْطَفًى، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

(٢) وَهَذَا هُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ ٧٦.

عرض الأعمال على العبد

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «وإن الله يُدْني المؤمنَ، فيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ^(١) وَيَسْتُرُهُ، فيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟، فيَقُولُ: نَعَمْ، فيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟، فيَقُولُ: نَعَمْ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ بِيَمِينِهِ، ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾^(٢) وهذا هو العرض، تُعْرَضُ عَلَيْهِ ذُنُوبُهُ، ثُمَّ يُتَجَاوَزُ لَهُ عَنْهَا، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ. وَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَرْجُمَانٌ يَتَرَجَّمُ لَهُ وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ».

سد نقص الفرائض من النوافل

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «إِنْ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ: صَلَاتُهُ»، «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يُتِمَّهَا؛ زِيدَ عَلَيْهَا مِنْ سُبْحَاتِهِ حَتَّى تَتِمَّ، فَإِنْ أَكْمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ نَافِلَةٌ وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ ﷻ: انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ يُكْمِلُ لَهُ مَا انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ، قَالَ: أَتِمُّوا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، فَإِنْ صَلَحَتْ، فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ، فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ، ثُمَّ يُفْعَلُ بِسَائِرِ الْأَعْمَالِ الْمَفْرُوضَةِ مِثْلَ ذَلِكَ».

(١) الكنف: الستر. أي يستره فلا يفضحه.

حال فقراء المسلمين

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «تَجْتَمِعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيَقَالُ: أَيْنَ فُقَرَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟، فيَقُومُونَ، فيَقَالُ لَهُمْ: مَاذَا عَمِلْتُمْ؟، فيَقُولُونَ: رَبَّنَا، ابْتَلَيْنَا فَصَبَرْنَا، وَوَلَّيْتَ الْأُمُورَ وَالسُّلْطَانَ غَيْرَنَا، فيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: صَدَقْتُمْ، فيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ النَّاسِ، وَتَبْقَى شِدَّةُ الْحِسَابِ عَلَى ذَوِي الْأَمْوَالِ وَالسُّلْطَانِ».

الحساب

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ أَلَا فِكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»، «لَا يَسْتَرْعِي اللَّهُ ﷻ عَبْدًا رَعِيَّةً قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ إِلَّا سَأَلَهُ اللَّهُ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَقَامَ فِيهِمْ أَمْرَ اللَّهِ أَمْ أَضَاعَهُ، حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ خَاصَّةً».

السؤال عن النعيم

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ

يُقَالُ لَهُ: أَلَمْ أَصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ؟، وَأَرْوِكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟ أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَوَلَدًا؟، وَأَفْضَلَ عَلَيْكَ؟، فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغُكَ؟، فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: أَيُّ فُلٍ أَلَمْ أَخْلُقْكَ؟ أَلَمْ أَجْعَلْكَ سَمِيعًا بَصِيرًا؟ أَلَمْ أَزُوجْكَ؟ أَلَمْ أَكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ؟ أَلَمْ أُسَوِّدْكَ وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى أَيُّ رَبِّ، فَيَقُولُ: فَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. وَيُلْقَاهُ الْآخَرُ، فَيَقُولُ: أَيُّ فُلٍ أَلَمْ أَخْلُقْكَ؟ أَلَمْ أَجْعَلْكَ سَمِيعًا بَصِيرًا؟ أَلَمْ أَزُوجْكَ؟ أَلَمْ أَكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ؟ أَلَمْ أُسَوِّدْكَ وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّ»، «حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ لَهُ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تُنْكِرَ الْمُنْكَرَ إِذْ رَأَيْتَهُ؟، فَمَنْ لَقْنَهُ اللَّهُ حُجَّتَهُ قَالَ: يَا رَبِّ، رَجَوْتُكَ وَخِفْتُ مِنَ النَّاسِ».

شهادة الجسد على صاحبه

«فَيَقُولُ: فَمَاذَا أَعْدَدْتَ لِي، أَيُّنَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَيَقُولُ: آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرَسُولِكَ وَصَدَّقْتُ وَصَلَيْتُ وَصُمْتُ، فَيَقُولُ: فَهَاهُنَا إِذَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَلَا نَبَعْتُ عَلَيْكَ؟، فَيَفْكَرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ هَذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ - وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ الَّذِي يَغْضَبُ اللَّهَ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ لِيُعَذِّرَ مِنْ نَفْسِهِ -، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجَرِّنِي مِنَ الظُّلَمِ؟، فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهَدَاءَ. فَيُخْتَمَ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لَأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، وَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَتَكَلَّمُ مِنَ الْآدَمِيِّ فَخِذُهُ وَكَفُّهُ. وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ: انْطِقِي فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَعَظَامُهُ وَعَصْبُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ، ثُمَّ يَخْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ

وَسُحْقًا، فَعَنْكَنَّ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ. فَيَنْظُرُ قُدَّامَهُ، وَبَعْدَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ فَلَا يَجِدُ شَيْئًا يَبْقَى بِهِ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ يَنْظُرُ تَلَقَاءَ وَجْهِهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ. اتَّقُوا النَّارَ، اتَّقُوا النَّارَ، اتَّقُوا النَّارَ، تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ شِقِّ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

حساب المنافقين والمرائين

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ - وَكُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ -، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو اللَّهُ بِهِ: رَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ. فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِي: أَلَمْ أَعْلَمَكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ فِيكَ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، فَكُنْتُ أَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: بَلْ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: هُوَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أَوْسَعُ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعَكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟، قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ، وَأَتَصَدَّقُ، وَمَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا، إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ

حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِي مَادَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ، أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تَسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

موقف المتجاوز عن المعسرين

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ رَجُلًا مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ وَكَانَ تَاجِرًا يُدَايِنُ النَّاسَ فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَخُذْ مَا تَيْسَّرُ، وَاتْرُكْ مَا عَسَرَ وَتَجَاوَزْ عَنْهُ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَلَمَّا هَلَكَ قَالَ لَهُ اللَّهُ - ﷻ: هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أَدَايِنُ النَّاسَ وَكَانَ لِي غَلَامٌ، فَكُنْتُ إِذَا بَعَثْتُهُ لِيَتَقَاضَى قُلْتُ لَهُ: خُذْ مَا تَيْسَّرُ، وَاتْرُكْ مَا عَسَرَ، وَتَجَاوَزْ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَوَّلِي بِذَلِكَ مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي، فَغُفِرَ لَهُ». «مَنْ أَقَالَ نَادِمًا يَبِيعَتُهُ، أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(١) قَالَ الْوَلِيدُ أَبُو عُمَانَ: فَأَخْبَرَنِي عَقْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ أَنَّ الشَّامِيَّ دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: قَدْ فُعِلَ بِهِؤْلَاءِ هَذَا، فَكَيْفَ بِمَنْ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ؟، ثُمَّ بَكَى مُعَاوِيَةُ بُكَاءً شَدِيدًا حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ هَالِكٌ، وَقُلْنَا: قَدْ جَاءَنَا هَذَا الرَّجُلُ بِشَرٍّ، ثُمَّ أَفَاقَ مُعَاوِيَةُ وَمَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ٥٥ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾.

القصاص بين الخلق

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «يَقْتَصُّ الْخَلْقُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ - حَتَّى اللَّطْمَةُ - الْجَنُّ وَالْإِنْسُ وَالْبَهَائِمُ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلَحَاءُ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ تَنْطَحُّهَا، وَحَتَّى الدَّرَّةُ مِنَ الدَّرَّةِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ تَبَعَةٌ عِنْدَ وَاحِدَةٍ لِأُخْرَى؛ قَالَ اللَّهُ: كُونُوا تُرَابًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: ﴿بَلَّيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾».

القضاء بين الخصوم

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «أَلَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَخْتَصِمَنَّ كُلُّ شَيْءٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، «أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَارَانِ»، «كَمْ مِنْ جَارٍ مُتَعَلِّقٍ بِجَارِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، سَلْ هَذَا لِمَ أَغْلَقَ بَابَهُ دُونِي، وَمَنْعَنِي فَضْلَهُ».

القضاء في الدماء

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»، «إِنَّ الْمَقْتُولَ يَجِيءُ بِالْقَاتِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَاصِيئَتُهُ وَرَأْسُهُ فِي يَدِهِ وَأَوْدَاجُهُ تَشْخَبُ دَمًا،

حَتَّى يُدْنِيَهُ مِنَ الْعَرْشِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، سَلْ عَبْدَكَ هَذَا لِمَ قَتَلَنِي؟ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟، فَيَقُولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ، فَيَقُولُ: فَإِنَّهَا لِي، وَيَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّ هَذَا قَتَلَنِي، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟، فَيَقُولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلَانٍ، فَيَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلَانٍ، فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ لِلْقَاتِلِ: تَعِسْتَ، وَيَذْهَبُ بِهِ إِلَى النَّارِ».



أحوال العصاة يوم القيامة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ إِلَّا وَقَفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيَقَالَ: يَا فُلَانُ، هَذَا فُلَانٌ قَدْ خَانَكَ فِي أَهْلِكَ، فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ»^(١).

«مَنْ أَكَلَ بِمُسْلِمٍ أَكْلَةً، أَطْعَمَهُ اللَّهُ بِهَا أَكْلَةً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ اكْتَسَى بِمُسْلِمٍ ثَوْبًا، كَسَاهُ اللَّهُ ثَوْبًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ قَامَ بِمُسْلِمٍ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ أَقَامَهُ اللَّهُ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

«مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزَّنَا وَهُوَ بَرِيءٌ مِمَّا قَالَ؛ جُلِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْحَدَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ».

«مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ؛ مِثْلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبَيَّتَانِ يَتَّبِعُ صَاحِبَهُ حَيْثُمَا ذَهَبَ - فَاتِحًا فَاهُ - وَهُوَ يَفِرُّ مِنْهُ، فيَقُولُ: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ فيَقُولُ: أَنَا مَالِكَ الَّذِي كُنْتُ تَبْخُلُ بِهِ، أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي خَبَّاتُهُ. فَوَاللَّهِ لَنْ يَزَالَ يَطْلُبُهُ حَتَّى يَطْوِقَهُ فَيَتَّقِيهِ بِيَدِهِ، فَيَلْقَمُهَا، فَلَا يَزَالَ يَقْضُمُهَا كَمَا يَقْضُمُ الْفَحْلُ، ثُمَّ يَتْبَعُهُ بِسَائِرِ جَسَدِهِ فَيَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - حَتَّى يَقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿١٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٩﴾». «مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبَ

(١) وفي الحديث: «... ثُمَّ اتَّفَقَتِ الْيَنَابِرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَا ظَنُّكُمْ، تُرَوْنَ يَدْعُ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْئًا؟».

وَلَا فِضَّةٌ لَا يُودِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُنِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ، فَأُحْمِي عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ، وَجَبِينُهُ، وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»^(١).

«لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ»^(٢) لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمَحَمَةٌ؛ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثَعَاءٌ؛ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاخٌ؛ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ^(٣)؛ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ^(٤)؛ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ».

«أَيُّمَا رَجُلٍ ظَلَمَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ، كَلَفَهُ اللَّهُ ﷻ أَنْ يَحْفِرَهُ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَ سَبْعِ أَرْضِينَ، ثُمَّ يَحْمِلَ تُرَابَهَا إِلَى الْمَحْشَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ».

(١) وكذلك الإبل والغنم والبقر التي ما أدى حق الله فيها من زكاة بهيمة الأنعام، وعروض التجارة؛ يُطَّح لها بقاع مستوٍ أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلاً واحداً، تطوّه بأخفافها، وتعضه بأفواهها، وتنطحه بقرونها، وتطوّه بأظلافها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

(٢) يعني من الغُلُول.

(٣) الْمُرَاد بِهَا الثِّيَابُ تَضْطَرِبُ إِذَا حَرَّكَتْهَا الرِّيَّاحُ.

(٤) (الصَّامِتُ): الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ. وَقِيلَ: مَا لَا رُوحَ فِيهِ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ.

«لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، «يُنْصَبُ لَهُ بَغْدَرَتُهُ»، «عِنْدَ اسْتِهِ»، «يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بَنِ فُلَانٍ».

«مَا مِنْ رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا فَكَتَمَهُ؛ إِلَّا أَتَيْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنَ النَّارِ». «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتَّبِ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ، فَإِنَّهَا تُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»^(١).

«يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، يُسَاقُونَ حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: بُولَسَ، فَتَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسَقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ؛ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ».

«مَنْ سَأَلَ النَّاسَ فِي غَيْرِ فَاقَةٍ نَزَلَتْ بِهِ أَوْ عِيَالٍ لَا يُطِيقُهُمْ؛ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِوَجْهِ لَيْسَ عَلَيْهِ لَحْمٌ».



(١) وفي رواية: وَدِرْعٌ مِنْ لَهَبِ النَّارِ.

الميزان

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَوْ وَزَنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ». «يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سَجِلًا، كُلُّ سَجَلٍ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَظْلَمَكَ كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَلَمْ تُعْذِرْ، أَلَمْ تَحْسَنْ؟ فَيَهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنْ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ، مَعَ هَذِهِ السَّجِلَاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَظْلَمُ، فَتُوضَعُ السَّجِلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السَّجِلَاتُ، وَثَقَلَتِ الْبِطَاقَةُ». «إِنَّهُ لِيَأْتِيَ الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، اقْرَأُوا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠١) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ (١٠٣)» (١).

(١) الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ لَا يُحَاسِبُونَ مُحَاسَبَةً مِنْ تَوَزُنَ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتٍ لَهُمْ وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ وَتُحْصَى فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا وَيُجْزَوْنَ بِهَا، وَيُؤْتَوْنَ كِتَابَهُمْ بِشِمَالِهِمْ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٤). ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (١٠٥)، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ (١٠٦)، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْحَسُونَ﴾ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٠٨).

كل أمة تتبع ما كانت تعبد

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «ينادي مناد أيها الناس! ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً أن يولي كل أناس منكم ما كانوا يتولون ويعبدون في الدنيا؟! أليس ذلك عدلاً من ربكم؟ قالوا: بلى. فينطلق كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ويتولون في الدنيا»، «ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ»، «فَيَدْعَى الْيَهُودُ، فَيَقَالُ لَهُمْ: مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ؟»، قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عَزِيرَ ابْنِ اللَّهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَا تَرِيدُونَ؟، قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِيدُونَ؟ اشْرَبُوا.

ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيَقَالُ لَهُمْ: مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ؟، قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَا تَرِيدُونَ؟، فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِيدُونَ؟ اشْرَبُوا.

فَيَنَادِي مُنَادٍ فَيَقُولُ: لَتَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ. فَيُمَثِّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيبِ صَلَيبُهُ، وَيُمَثِّلُ لِمَنْ كَانَ يَعْبُدُ عِيسَى شَيْطَانُ عِيسَى، وَيُمَثِّلُ لِمَنْ كَانَ يَعْبُدُ عَزِيرًا شَيْطَانُ عَزِيرٍ، وَيُمَثِّلُ لِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ، وَلِصَاحِبِ النَّارِ نَارُهُ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتِ الطَّوَاغِيتَ.

فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلَيبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الْأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ إِلَهَةٍ مَعَ إِلَهَتِهِمْ، فَيَحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقُطُونَ فِي النَّارِ.

«يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَرْزَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِهِ آزَرٌ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خَزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رَجْلِكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ^(١) فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ».



(١) الذِّبْحُ: ذَكَرُ الضَّبَّاعِ. وَقِيلَ: لَا يُقَالُ لَهُ «ذَبْحٌ» إِلَّا إِذَا كَانَ كَثِيرَ الشَّعْرِ. وَ(مُتَلَطِّخٌ) أَي: فِي رَجِيعٍ، أَوْ دَمٍ، أَوْ طِينٍ. وَقِيلَ: الْحِكْمَةُ فِي مَسْخِهِ: لَتَنْفِرَ نَفْسُ إِبْرَاهِيمَ مِنْهُ، وَلَيْثَلَا يَبْقَى فِي النَّارِ عَلَى صُورَتِهِ فَيَكُونَ فِيهِ غَضَاضَةٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ.

صفة النار وأهلها

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنْ قَدَرَ مَا بَيْنَ شَفِيرِ النَّارِ وَقَعْرِهَا، كَصَخْرَةٍ زَنْتُهَا سَبْعُ خَلِفَاتٍ بِشُحُومِهِنَّ وَلُحُومِهِنَّ وَأَوْلَادِهِنَّ، تَهْوِي فِيمَا بَيْنَ شَفِيرِ النَّارِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ قَعْرَهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا، وَوَاللَّهِ لَتَمْلَأَنَّ^(١)»، «أَتَحْسَبُونَ أَنَّ نَارَ جَهَنَّمَ مِثْلُ نَارِكُمْ هَذِهِ؟ فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُمْ مِثْلُ حَرِّهَا»، «هِيَ أَشَدُّ سَوَادًا مِنَ الْقَارِ». «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي تُوقِدُونَ، جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ نَارِ جَهَنَّمَ وَضُرِبَتْ بِالْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنَفَعَةً لِأَحَدٍ»، «اشْتَكَّتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: رَبِّ أَكُلْ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ: نَفْسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ؛ فَمِنْ نَفْسِ جَهَنَّمَ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهِيرِ؛ فَمِنْ نَفْسِ جَهَنَّمَ». «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الرَّقُومِ قَطِرَتْ فِي الْأَرْضِ لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعِيشَتَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ طَعَامُهُ؟، وَلَيْسَ لَهُ طَعَامٌ غَيْرُهُ؟»، «إِنَّ فِي النَّارِ حَيَاتٍ كَأَمْثَالِ أَعْنَاقِ الْبُخْتِ تَلْسَعُ إِحْدَاهُنَّ اللَّسْعَةَ، فَيَجِدُ حَمَوْتَهَا أَرْبَعِينَ خَرِيفًا، وَإِنَّ فِي النَّارِ عَقَارِبَ كَأَمْثَالِ الْبُغَالِ الْمُوكِفَةِ تَلْسَعُ إِحْدَاهُنَّ اللَّسْعَةَ، فَيَجِدُ حَمَوْتَهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً». «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ثُورَانِ مُكُورَانِ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٢)». «تَخْرُجُ عَنْقُ مِنْ

(١) قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ (٣٢) كَأَنَّهُ جَمَلٌ صَفَرٌ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ (٣٢). قَالَ: كُنَّا نَعْمِدُ إِلَى الْخَشَبَةِ ثَلَاثَةَ أَذْرُعٍ أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ، فَتَرْفَعُهُ لِلشِّتَاءِ فَنُسَمِّيهِ الْقَصْرَ، كَأَنَّهُ جَمَلٌ صَفَرٌ (٣٢). قَالَ: حِبَالُ الشُّفَنِ، تُجْمَعُ حَتَّى تَكُونَ كَأَوْسَاطِ الرِّجَالِ.

(٢) كأنهما يمسحان، وتقول: كَوَّرْتُ الرجلَ، أي: طرحته في الأرض، ولا يَلْزَمُ مِنْ جَعْلِهِمَا فِي النَّارِ تَعْذِيبُهُمَا، فَإِنَّ اللَّهَ فِي النَّارِ مَلَائِكَةً وَحِجَارَةً وَغَيْرَهَا لِيَكُونَ لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا، وَآلَةً مِنْ

النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ تَقُولُ: إِنِّي وَكَلْتُ الْيَوْمَ بِثَلَاثَةٍ؛ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ». «يُوتَى بِأَنعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ: اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً فَيَغْمَسُ فِيهَا، ثُمَّ يَقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟، هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟، فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَيْتُ خَيْرًا قَطُّ، وَلَا قُرَّةَ عَيْنٍ قَطُّ».

«أَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبَرَ لَهُ^(١)، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ نَبْعٌ، لَا يَتَّبِعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا^(٢)، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ - وَذَكَرَ الْبُخْلُ أَوْ الْكَذِبُ - وَالشَّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ^(٣)، كُلُّ عُتْلٍ^(٤) جَوَاطِ^(٥) مُسْتَكْبِرٍ جَعْظَرِيٍّ^(٦) جَمَاعٍ^(٧) مَنَاعٍ^(٨). «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَيُعْظَمُ لِلنَّارِ، حَتَّى يَكُونَ الضُّرْسُ مِنْ أَضْرَاسِهِ كَأُحْدٍ»، «مَا بَيْنَ مَنْكَبَيْ الْكَافِرِ فِي النَّارِ مَسِيرَةٌ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ، وَغِلْظٌ جِلْدُهُ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا

آلاتِ الْعَذَابِ وَمَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا تَكُونُ هِيَ مُعَذِّبَةً، وَلَكِنَّهُ تَبْكِي لِمَنْ كَانَ يَعْبُدُهُمَا فِي الدُّنْيَا، لِيَعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لَهُمَا كَانَتْ بَاطِلًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) أي: ضعيف العقل الذي لا تماسك له عند مجيء الشهوات؛ فلا يرتدع عن فاحشة ولا يتورع عن حرام، قال القرطبي: وسمي العقل زبراً؛ لأن الزبر في أصله هو المنع والزجر.
(٢) أي: لا يطلبون ولا يريدون (أهلاً) يتعففون بهم عن الفاحشة (ولا مالاً) يتكففون به عن مسألة الناس.

(٣) الشَّنْظِيرُ: سيء الخلق، والفَحَّاشُ: المكثّر للفحش.

(٤) الْعُتْلُ: الْجَافِي، الشَّدِيدُ الْخُصُومَةِ بِالْبَاطِلِ، وَالْفُظُّ الْغُلِيظُ.

(٥) الْجَوَاطِ: الْغُلِيظُ الْفُظُّ، أَيُّ: سَيِّئُ الْخُلُقِ.

(٦) الْجَعْظَرِيُّ: الْفُظُّ الْغُلِيظُ الْمُتَكَبِّرُ، وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي يَتَمَدَّحُ وَيَنْفُخُ بِمَا لَيْسَ عِنْدَهُ.

(٧) أي: كثير الجمع للمال.

(٨) أي: كثير المنع له والشح والتهافت على كنزه.

- بِذِرَاعِ الْجَبَّارِ^(١) - وَضُرْسَهُ مِثْلُ أُحَدٍ، وَفَخِذُهُ مِثْلُ الْبَيْضَاءِ^(٢)، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ»، «لَوْ كَانَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، وَفِيهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَتَنْفَسَ فَأَصَابَهُمْ نَفْسُهُ، لَا حَتَرَكَ الْمَسْجِدُ وَمَنْ فِيهِ».

حسرة أهل النار

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ، فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي»، «يُرْسَلُ الْبُكَاءُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ، فَيَكُونُ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ، حَتَّى لَوْ أُجْرِيَتِ الشُّفُنُ فِي دُمُوعِهِمْ لَجَرَتْ»، «وَأِنَّهُمْ لَيَكُونُونَ الدَّمَ».

أهون أهل النار عذاباً

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ تَوَضَّعَ فِي أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمَرْجُلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي النَّارِ إِلَى كَعْبِيهِ مَعَ إِجْرَاءِ الْعَذَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي النَّارِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ مَعَ إِجْرَاءِ الْعَذَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي النَّارِ

(١) الجبار: الشخص العظيم القوى الطويل، وقيل: غني به رجل أو ملك جبار كان يوصف بطول الذراع وعظم الجسم. والمراد: مزيد الطول.

(٢) البيضاء: موضع بحمى الربدّة، والربدّة: موضع قرب المدينة.

إِلَى صَدْرِهِ مَعَ إِجْرَاءِ الْعَذَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي النَّارِ إِلَى أَرْبَبَتِهِ مَعَ إِجْرَاءِ الْعَذَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ اغْتَمَرَ فِي النَّارِ مَعَ إِجْرَاءِ الْعَذَابِ. «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ وَهُوَ مُتَّعِلٌ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ؛ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»، «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ^(١) مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبِيهِ».

استغاثة أهل النار

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ لَيَدْعُونَ مَا لَكَا: ﴿يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، فَلَا يُجِيبُهُمْ أَرْبَعِينَ عَامًا، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّكُمْ مَلَائِكُونَ﴾»، ثُمَّ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ﴿١٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٧﴾»، فَلَا يُجِيبُهُمْ مِثْلَ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ ﴿١٨﴾»، ثُمَّ يَبْأَسُ الْقَوْمُ، فَمَا هُوَ إِلَّا الزَّفِيرُ وَالشَّهيقُ، تُشَبِّهُ أَصْوَاتُهُمْ أَصْوَاتَ الْحَمِيرِ، أَوَّلُهَا شَهيقٌ، وَآخِرُهَا زَفِيرٌ».



(١) الضَّحْضَاح مِنَ الْمَاءِ: مَا يَبْلُغُ الْكَعْبِ.

بقاء أمة التوحيد يقودهم ربهم إلى الجنة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، فِيهَا مُنَافِقُوهَا وَغُبَرُ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ^(١)، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ ﷻ فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَوْقَ عَلَيْهِمْ - وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَى كَوْمٍ - . فَيَقُولُ لَهُمْ: مَا بَالُ النَّاسِ ذَهَبُوا وَأَنْتُمْ هَاهُنَا؟ مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟ مَا تَنْتَظِرُونَ؟ أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ؟ لَتَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلَا يَكْلُمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُونَ: فَارَقَنَا النَّاسُ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَفْقَرِ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نَصَاحِبْهُمْ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ: نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْكَ، لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِينَا رَبُّنَا، فَإِذَا آتَانَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ. - وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُنْثِيهِمْ - فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَهُ؟، فَيَقُولُونَ: إِذَا تَعَرَّفَ إِلَيْنَا عَرَفْنَاهُ. فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ بِهَا؟، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، السَّاقُ. ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: مَنْ تَنْظُرُونَ؟، فَيَقُولُونَ: نَنْظُرُ رَبَّنَا، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ^(٢). فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَتَجَلَّى

(١) في الحديث قال الراوي: وَقَلَّلَهُمْ بِيَدِهِ.

(٢) قال الصحابة: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟، فَقَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟»، قالوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةً الْبَدْرُ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟»، قالوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَيْهِمَا». ومعنى (تُضَارُّونَ) أي: تضرون؛ لأن الضير: المضرة، من قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾. أي: لا تضرون أحدًا، ولا يضركم بمنازعة، ولا مجادلة، ولا مضايقة. وفي رواية: «تَضَامُون» بضم أوله من الضيم، أي: تلحقكم مشقة. وفي أخرى: بفتح التاء وتشديد الصاد والميم معًا (تَضَامُون): تتفاعلون من التزاحم والانضمام.

لَنَا ضَاحِكًا وَيَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى كُلُّ مُنَافِقٍ. وَمَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً؛ يَجْعَلُ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْجُدَ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ٤٢، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِي. فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا. فَيَتَّبِعُونَهُ؛ فَيَقُودُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ».

إعطاء المؤمن نوره والمنافق قبل الصراط

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ - مُنَافِقٍ أَوْ مُؤْمِنٍ - نُورًا، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورُهُ مِثْلَ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورُهُ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورًا مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورًا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ رَجُلٌ يُعْطَى نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ، يُضِيءُ مَرَّةً، وَيُطْفِئُ مَرَّةً، فَإِذَا أَضَاءَ قَدَمَ قَدَمَهُ فَمَشَى، وَإِذَا طَفِئَ قَامَ».

وضع الصراط على جهنم

وروي عنه ﷺ أنه قال: «ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ (الصِّرَاطِ) مَدْحَضَةً مَزَلَّةً، مِثْلَ حَدِّ السَّيْفِ الْمُرْهَفِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ».

تبديل الأرض والسموات

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾، قال ﷺ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ».

طي السماوات والأرض

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «يَطْوِي اللَّهُ ﷻ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١)، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضَيْنِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْأُخْرَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا اللَّهُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمُتَعَالِي، أَنَا الْكَرِيمُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾»، «يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ».

المرور على الصراط

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «وَالرَّبُّ ﷻ أَمَامَهُمْ يَقُولُ: مُرُوا. وَفِي حَافَتَيِ الصَّرَاطِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكَةٌ مُفْلَطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عَقِيفَاءُ مِثْلُ شَوْكِ

(١) كما تطوى الصحيفة على ما كُتب فيها.

تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، مُعَلَّقَةً
مَأْمُورَةً بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَتَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ. وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ،
فَتَقُومَانِ جَنَبَتِي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمُؤْمِنِ. فَأَكُونُ
أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأَمَّتِهِ، فَيُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، وَيَنْجُوا الْمُؤْمِنُونَ، فَتَنْجُو
أَوَّلَ زُمْرَةٍ كَالْبَرْقِ، أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟،
وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يُحَاسِبُونَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَضْوَاءِ
نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ كَذَلِكَ، ثُمَّ كَمَرَّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرَّ الطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ
وَالرَّكَابِ، وَآخَرُونَ يَسْعَوْنَ سَعْيًا، وَآخَرُونَ يَمْشُونَ مَشْيًا، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ،
وَنِيِّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ. وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا
الرُّسُلُ، وَدَعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. فَمِنْهُمْ الْمُؤْمِنُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ (١)
وَمِنْهُمْ الْمُجَازَى حَتَّى يُنَجَّى، وَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ، مَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.
فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمِنْهُمْ الْمُخْرَدُلُ ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى تَعْجَزَ أَعْمَالُ
الْعِبَادِ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي أُعْطِيَ نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمَيْهِ، يَحْبُو عَلَى وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ
وَرِجْلَيْهِ، تَخْرُ رِجْلٌ، وَتَعْلُقُ رِجْلٌ، وَيُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا
رَحْفًا، يُسْحَبُ سَحْبًا، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَخْلُصَ، فَإِذَا خَلَصَ وَقَفَ عَلَيْهَا
ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا، أَنْ نَجَانِي مِنْهَا بَعْدَ إِذْ
رَأَيْتُهَا. ثُمَّ يُؤْذَنُ لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ أَنْ يَشْفَعُوا (٢).

(١) أي: على الصراط بلا خطف ولا سقوط في جهنم.

(٢) صَحَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَوْلِيَاءَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَفْرَاطَ يَشْفَعُونَ.

القنطرة بعد الصراط

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «فإذا عبر المؤمنون الصراط وقفوا على قنطرة»^(١) بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض قصاصًا تزول به الأحقاد والبغضاء ليدخلوا الجنة إخوانًا متصافين، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم بدخول الجنة، فوالذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده؛ لأحدُهم أهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»^(٢).

شفاعة المؤمنين في إخوانهم

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مُجَادَلَةٌ أَحَدِكُمْ لِصَاحِبِهِ فِي الْحَقِّ يَكُونُ لَهُ فِي الدُّنْيَا، بِأَشَدِّ مُجَادَلَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ فِي إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ أُدْخِلُوا النَّارَ؛ يَقُولُونَ: رَبَّنَا، إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَحُجُّونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَأَدْخَلْتَهُمُ النَّارَ. فَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ وَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ، وَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ»

(١) جسر صغير.

(٢) ويكون رجال لم يتقرر مصيرهم بعد على الأعراف وهو حاجز مرتفع يجعله الله في يوم القيامة بين الجنة والنار، يشرف منه أصحاب الأعراف على فريقي الجنة والنار، يعرفون كلاً بسيماهم، ثم يكون مآلهم إلى الجنة. وقيل إن الأعراف هو السور الذي يضرب بين أهل الجنة وأهل النار، وأن الذين عليه هم من استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهذا هو المشهور عند جمع من أهل العلم، ولم أقف على دليل صحيح يعتمد عليه في ذلك، والله أعلم.

مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذُرَّةً مِنْ إِيْمَانٍ». «يُخْرِجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بَعْدَ مَا يُصِيبُهُمْ سَفْعٌ عُقُوبَةٌ بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا، ثُمَّ يَدْخُلُهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ يُقَالُ لَهُمْ: الْجَهَنَّمِيُّونَ». «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ أَكْثَرُ مِنْ مُضَرٍّ». «إِنَّ الرَّجُلَ يَشْفَعُ لِلرَّجُلَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ، وَالرَّجُلُ لِلرَّجُلِ». «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ الَّذِينَ يُرِيدُ اللَّهُ ﷻ إِخْرَاجَهُمْ، يُمِيتُهُمْ فِيهَا إِمَاتَةً، حَتَّى يَصِيرُوا فَحْمًا، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَأَرَادَ رَحْمَةً مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ مِمَّنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ وَأَذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَقَالَ لَهُمْ: اذْهَبُوا فَأَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ مِنْهُمْ، فَيَعْرِفُونَهُمْ بِصُورِهِمْ، لَا تَأْكُلِ النَّارُ صُورَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، فَكُلْ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ، إِلَّا دَارَاتِ وَجُوهِهِمْ^(١)، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ. فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ النَّارُ إِلَى حُجْرَتِهِ^(٢) وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ النَّارُ إِلَى عُنُقِهِ، قَدْ امْتَحَشُوا^(٣) وَعَادُوا حُمَمًا^(٤)، فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ خَلْقًا كَثِيرًا، فَجِيءَ بِهِمْ صَبَائِرُ صَبَائِرَ^(٥)، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِيهِ كَمَا تَنْبُتُ الْجَبَّةُ^(٦)

(١) دَارَاتِ الْوُجُوهِ: جَمْعُ دَارَةٍ، وَهِيَ مَا يُحِيطُ بِالْوَجْهِ مِنْ جَوَانِبِهِ. وَمَعْنَاهُ أَنَّ النَّارَ لَا تَأْكُلُ دَارَةَ الْوَجْهِ لِكُونِهَا مَحَلَّ السُّجُودِ.

(٢) الْحِجْزَةُ: مَعْقِدُ الْإِزَارِ وَالسَّرَاوِيلِ.

(٣) أَيْ: احْتَرَقُوا، وَالْمَحْشُ: احْتِرَاقُ الْجِلْدِ وَظُهُورِ الْعِظَمِ.

(٤) الْحَمَمُ: جَمْعُ حَمَمَةٍ، وَهِيَ الْفَحْمَةُ.

(٥) الضَّبَائِرُ: جَمَاعَاتٌ فِي تَفَرُّقَةٍ.

(٦) الْجَبَّةُ - بِكسْرِ الحاء وتشديد الباء -، وَجَمْعُهَا: حَبَبٌ - بِكسر الحاء وفتح الباء المخففة -

وهي: اسم لبذر العشب. وقيل: التشبيه لبياضها، وسرعة نباتها لأنها تنبت في يوم وليلة، وهو

أسرع النبات.

فِي حَمِيلٍ^(١) السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَ مَا يَكُونُ مِنَ النَّبْتِ إِلَى الشَّمْسِ يَكُونُ أَخْضَرَ، وَمَا يَكُونُ إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَصْفَرَ؟ أَلَمْ تَرَوْهَا كَيْفَ تَنْبُتُ صَفَرَاءَ مُلْتَوِيَةً؟، فَيُخْرِجُونَ مِنْ أَجْسَادِهِمْ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ، فِي أَعْنَاقِهِمُ الْخَاتَمُ: عِتْقَاءُ اللَّهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَمَا تَمْنَيْتُمْ أَوْ رَأَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ لَكُمْ. ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، قَالَ: فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ^(٢) فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا.

شفاعة النبي ﷺ فيمن دخل النار من أُمته

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَأَدْخُلُ، فَإِذَا الْجَبَّارُ ﷻ مُسْتَقْبِلِي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا، لَا تَحْضُرُنِي إِلَّا، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، فَيَدْعُنِي اللَّهُ مَا شَاءَ أَنْ يَدْعَنِي، ثُمَّ

(١) الحميل: ما يجيء به السيل من طين أو غثاء وغيره.

(٢) الإيمان قول وعمل، ومنه أعمال القلوب وأعمال الجوارح، والله أعلم. وتأمل رحمة الله ﷻ في هذا الحديث، وفي قوله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، اِرْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، وَسَلِّ تَعْطُ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي، أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ. ثُمَّ أَعُوذُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، اِرْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلِّ تَعْطُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي، أُمَّتِي، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ. فَيَقُولُ: انْطَلِقْ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ. ثُمَّ أَعُوذُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، اِرْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ، وَسَلِّ تَعْطُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي، أُمَّتِي، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى شَيْءٍ. فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بَرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ مِنَ الْخَيْرِ ذَرَّةً. ثُمَّ أَعُوذُ الرَّابِعَةَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، اِرْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ، وَسَلِّ تَعْطُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ. يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَيَقُولُ: هَذِهِ لَيْسَتْ لَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَلَا لِأَحَدٍ، هَذِهِ لِي، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَرَحْمَتِي، لَا أَدْعُ فِي النَّارِ أَحَدًا يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبَرِيَّائِي وَعَظَمَتِي لَا أَخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمًا وَاحِدًا مُخْلِصًا، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ».

يعتق الله من النار مَنْ كانت له ذرّة توحيد

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «فَإِذَا فَرَعَ اللَّهُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، وَأَدْخَلَ مَنْ بَقِيَ مِنْ أُمَّتِي النَّارَ مَعَ أَهْلِ النَّارِ، يَقُولُ أَهْلُ النَّارِ: مَا أَغْنَى عَنْكُمْ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ اللَّهَ لَا تُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا؟، يَقُولُ الْجَبَّارُ ﷻ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا شَفَاعَةُ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، فَبِعِزَّتِي لَا أُعْتَقَنَّهُمْ مِنَ النَّارِ. فَيَقْبِضُ الْجَبَّارُ ﷻ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ^(١)، قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ، فَيُخْرِجُونَ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمُ، وَيُكْتَبُ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ: هَؤُلَاءِ عَتَقَاءُ اللَّهِ ﷻ فَيَذْهَبُ بِهِمْ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ الْجَهَنَّمِيُّونَ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ. فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَلْ هَؤُلَاءِ عَتَقَاءُ الْجَبَّارِ.

ثُمَّ يَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ وَمِثْلُهُ مَعَهُ. فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟، فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا.

(١) عدا شهادة توحيد الله واعتقاد ما فيها من عمل القلب، لما يظهر من قول أهل النار لهم: «مَا أَغْنَى عَنْكُمْ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ اللَّهَ لَا تُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا؟». ولحديث: «فَأَقُولُ يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فَيَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ، وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبَرِيَّائِي وَعَظَمَتِي وَجِبَرِيَّائِي لِأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». والله أعلم.

أول من يدخل الجنة

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ، لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ».

أبواب الجنة

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «إِنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، وَلِكُلِّ أَهْلٍ عَمَلٍ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يُدْعَوْنَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ»، «إِنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مِصَارِيحِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيطٌ مِنَ الزَّحَامِ».

دخول الفقراء الجنة قبل الأغنياء

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «يَدْخُلُ فَقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِنِصْفِ يَوْمٍ، وَهُوَ خَمْسُ مِائَةِ سَنَةٍ، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿١٧﴾». «أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ الْفُقَرَاءُ وَالْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ تَسُدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ وَتَتَقَى

بِهِمُ الْمَكَارِهِ وَإِذَا أَمَرُوا سَمِعُوا وَأَطَاعُوا، وَإِذَا كَانَتْ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ حَاجَةٌ إِلَى السُّلْطَانِ لَمْ تَقْضَ لَهُ، حَتَّى يَمُوتَ وَهِيَ فِي صَدْرِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَدْعُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْجَنَّةَ، فَتَأْتِي بِزُخْرُفِهَا وَزِينَتِهَا، فَيَقُولُ: أَيُّنَ عِبَادِي الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِي، وَقُتِلُوا فِي سَبِيلِي، وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِي؟، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَيَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»، «فَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ وَيَسْتَفْتِحُونَ، فَيَقُولُ لَهُمُ الْخَزَنَةُ: أَوْقَدْ حُوسِبْتُمْ؟، فَيَقُولُونَ: بِأَيِّ شَيْءٍ نَحَاسَبُ؟، وَإِنَّمَا كَانَتْ أَشْيَانَا عَلَى عَوَاتِقِنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى مِتْنَا عَلَى ذَلِكَ. فَيَفْتَحُ لَهُمْ، فَيَقِيلُونَ فِيهَا أَرْبَعِينَ عَامًا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا النَّاسُ»، «فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ: انْتَهُهُمْ فَحَيُّوهُمْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: نَحْنُ سُكَّانُ سَمَائِكَ، وَخَيْرَتُكَ مِنْ خَلْقِكَ، أَفَتَأْمُرُنَا أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءِ فَنَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ؟، فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَتُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيَتَقَى بِهِمُ الْمَكَارِهِ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً، فَتَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (١)».

عظم نعيم الجنة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضُرًّا وَبَلَاءً كَانَ فِي الدُّنْيَا فَيَقَالُ: اغْمِسُوهُ غَمْسَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيَغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً، فَيَقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟، هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟، فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ». «لَقَابُ (١) قَوْسٍ أَحَدَكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنَ الْجَنَّةِ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا

(١) القاب بمعنى: القدر. وفي رواية: «لَقِيدٌ سَوَاطٍ أَحَدَكُمْ»، والقيد بكسر القاف هي بنفس المعنى.

ومنه حديث ارتفاع الشمس قيد رمح.

فِيهَا». «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ جَنَّتَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ، آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا». «تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّوْهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ نَزْلاً لِأَهْلِ الْجَنَّةِ»، «إِدَامُهُمْ بِالْأَمِّ» ^(١) وَتُونُ ^(٢) يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةٍ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا». «لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ، إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ، لِيَزِدَّادَ شُكْرًا، فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي».

صفة أهل الجنة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي أَوَّلُ زُمْرَةٍ سَبْعُونَ أَلْفًا بَغَيْرِ حِسَابٍ، عَلَى مِسْحَةِ آدَمَ، وَصُورَةِ يُوسُفَ، وَقَلْبِ أَيُّوبَ، مُتَمَاسِكُونَ أَخِذُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لَا يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوَكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً» ^(٣)، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَازِلُ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهَرُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنَعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُوا الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ^(٤)، «لَا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ»، «وَلَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ»، «وَلَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ»، «وَيَكُونُ

(١) تُونُ.

(٢) حوت.

(٣) وفي الحديث: «وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَثَلَاثُ حَثِيَّاتٍ مِنْ حَثِيَّاتِ رَبِّي ﷺ». وفي رواية: «وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَقُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَاسْتَرَدَّتْ رَبِّي ﷺ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا».

طَعَامُهُمْ ذَلِكَ جُشَاءً، «أَنِيتُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ»، «وَأَمْسَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ»، «وَرَشَحُهُمْ»^(١) الْمِسْكُ، وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الْأَلْوَةُ الْأَنْجُوجُ»^(٢)، «يُلْهَمُونَ التَّسْيِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفْسَ»، «يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا». «أَخْلَقْتُهُمْ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ»، «قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ»، «لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ»، «أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ»، «عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ فِي سَبْعَةِ أَذْرُعَ عَرَضًا»، «جُرْدُ مُرْدٍ»^(٣)، «مُكْحَلُونَ»، «يَبِضُّ جِعَادٌ»^(٤)، «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْتَدَتْهُمْ مِثْلُ أَفْعِدَةِ الطَّيْرِ». «إِنَّ أَقَلَّ سَاكِنِي الْجَنَّةِ النِّسَاءَ»، «لَوْ أَنَّ مَا يُقَلُّ ظُفْرًا مِمَّا فِي الْجَنَّةِ بَدَأَ؛ لَتَرَخَّرَفَتْ لَهُ خَوَافِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَ فَبَدَتْ أَسَاوِرُهُ لَطَمَسَ ضَوْؤُهُ ضَوْءَ الشَّمْسِ، كَمَا تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُومِ». «حَاجَةٌ أَحَدِهِمْ عَرَقُ يَفِيزٍ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلُ رِيحِ الْمِسْكِ، فَإِذَا بَطْنُهُ قَدْ ضَمَرَ».

أزواج أهل الجنة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «أَزَوَاجُهُمُ الْخُورُ الْعَيْنُ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يَرَى مُنَحَّ سُوْقِيهِمَا مِنْ وَرَاءِ الْعُظْمِ وَاللَّحْمِ وَالثِّيَابِ مِنْ

(١) يعني رائحة عرقهم.

(٢) يعني: العود الهندي الحبيد الذي يُتَبَخَّرُ بِهِ.

(٣) الأجرد: هو الذي لا شعر على جسده. والأمرد: هو الذي لم يبلغ سن إنبات شعر لحيته، والمقصود هنا أن أهل الجنة ليس على وجوههم ولا على أجسادهم شعر، كشعر الرجلين والعانة والإبط، وغيره مما هو شعر زائد.

(٤) الجعد: هو ما فيه التواء في شعره وانقباض، لا كمفلفل السودان، وفيه جمال ودلالة على قوة البدن.

الحُسْنِ، كَمَا يَرَى الشَّرَابُ الْأَحْمَرُ فِي الزُّجَاجَةِ الْبَيْضَاءِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَغْزَبُ». وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ أَحَدَهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْمَطْعَمِ، وَالْمَشْرَبِ، وَالشَّهْوَةِ، إِنْ الرَّجُلُ لَيَصِلُ فِي الْيَوْمِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءٍ، «دَحْمًا دَحْمًا»، «فَإِذَا قَامَ عَنْهَا، رَجَعَتْ مُطَهَّرَةً بَكْرًا»، «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُونَ مِيلًا وَطُولُهَا سِتُونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا لِلْمُؤْمِنِ أَهْلٌ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا». «إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً﴾ جَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَثَرَابًا ﴿٣٧﴾». «لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ، لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَكَمَلَّتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَطَابَ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». «الْمُؤْمِنُ إِذَا اشْتَهَى الْوَلَدَ فِي الْجَنَّةِ، كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسَنَّهُ فِي سَاعَةٍ كَمَا يَشْتَهِي». «إِنَّ أَزْوَاجَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُغْنِيَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ سَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ، وَإِنَّ مِمَّا يُغْنِيَنَّ: نَحْنُ الْخَيْرَاتُ الْحَسَنَاتُ، أَزْوَاجُ قَوْمٍ كِرَامٍ، يَنْظُرْنَ بِقُرَّةِ أَعْيَانٍ، وَإِنَّ مِمَّا يُغْنِيَنَّ بِهِ: نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا يَمُوتُنَّ، نَحْنُ الْأَمَنَاتُ فَلَا يَخْفَنَّهُ، نَحْنُ الْمُقِيمَاتُ فَلَا يَظْعَنَنَّ».

درجات الجنة وأنهارها

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَنْفَجِرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ﷻ». «أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ جِبَالٍ مِسْكٍ». «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَحْرَ الْمَاءِ، وَبَحْرَ الْعَسَلِ، وَبَحْرَ اللَّبَنِ، وَبَحْرَ الْخَمْرِ ثُمَّ تَشَقُّقُ الْأَنْهَارُ مِنْهَا بَعْدُ»، «سَيِّحَانُ وَجَيْحَانُ وَالنَّيْلُ وَالْفَرَاتُ، كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ».

«إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى مِنْ فَوْقِهِمْ؛ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوَكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ؛ لِيَتَفَاضَلَ مَا بَيْنَهُمْ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ».

منازل الجنة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ، مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١١) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٢)». «بَنَؤُهَا لِبَنَتِهِ مِنْ فِضَّةٍ، وَلِبَنَتِهِ مِنْ ذَهَبٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ».

غرف الجنة

وروي عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يَرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا، لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ».

أشجار الجنة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ ﷻ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟، قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي أَحَبُّ أَنْ أَرْعَ. فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ

نَبَاتُهُ وَاسْتَوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ، فَكَانَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ ﷺ: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ». «نَخْلُ الْجَنَّةِ جُذُوعُهَا مِنْ زُمْرِدٍ أَخْضَرَ، وَكَرْبُهَا^(١) ذَهَبٌ أَحْمَرٌ، وَسَعْفُهَا كِسْوَةٌ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، مِنْهَا مُقَطَّعَاتُهُمْ وَحُلُلُهُمْ، وَثَمَرُهَا أَمْثَالُ الْقِلَالِ وَالِدَّلَاءِ، أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَالَّذِينَ مِنَ الزُّبْدِ، لَيْسَ فِيهَا عَجَمٌ»^(٢)، «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ الْجَوَادُ الْمُضْمَرُّ السَّرْبُعُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَفْطَعُهَا وَهِيَ شَجَرَةُ الْخُلْدِ». ﴿فِي سِدْرِ مَخْضُودٍ﴾؛ فَإِنَّ اللَّهَ خَضَدَ شَوْكَهُ، فَجَعَلَ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةً مِثْلَ خَضِيَةِ التَّيْسِ الْمَلْبُودِ - يَعْنِي الْمَخْصِيَّ - فِيهَا سَبْعُونَ لَوْناً مِنَ الطَّعَامِ، مَا فِيهِ لَوْنٌ يُشَبِّهُ الْآخَرَ، «مَا فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ إِلَّا وَسَاقُهَا مِنْ ذَهَبٍ»^(٣).

(١) أي: أغصان النخيل وخصوها. والمعنى مناظر النخل براقة جذابة خلابة من معادن متألئة وأحجار كريمة، وجواهر غالية ودرر ثمينة.

(٢) وهو: النوى.

(٣) في مسند الإمام أحمد (١٧٦٤٢): عَنْ عَامِرِ بْنِ زَيْدِ الْبُكَالِيِّ، أَنَّهُ سَمِعَ عُبَيْدَ بْنَ عَبْدِ السَّلَامِيِّ، يَقُولُ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الْحَوْضِ، وَذَكَرَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: فِيهَا فَاكِهَةٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهَا شَجَرَةٌ تُدْعَى طُوبَى»، فَذَكَرَ شَيْئًا لَا أَدْرِي مَا هُوَ؟ قَالَ: أَيُّ شَجَرٍ أَرْضُنَا تُشَبِّهُ؟ قَالَ: «لَيْسَتْ تُشَبِّهُ شَيْئًا مِنْ شَجَرِ أَرْضِكَ». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَيْتَ الشَّامَ؟» فَقَالَ: لَا، قَالَ: «تُشَبِّهُ شَجَرَةً بِالشَّامِ تُدْعَى الْجَوْرَةُ، تَنْبُتُ عَلَى سَاقٍ وَاحِدٍ، وَيَنْفِرُشُ أَعْلَاهَا»، قَالَ: مَا عِظَمُ أَصْلِهَا؟ قَالَ: «لَوْ أَرْتَحَلْتَ جَذْعَةً مِنْ إِبِلٍ أَهْلِكَ، مَا أَحَاطَتْ بِأَصْلِهَا حَتَّى تَنْكَسِرَ تَرْقُوتُهَا هَرَمًا» قَالَ: فِيهَا عِنَبٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: فَمَا عِظَمُ الْعُنُقُودِ؟ قَالَ: «مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِلْغُرَابِ الْأَبْقَعِ، وَلَا يَفْتُرُّ»، قَالَ: فَمَا عِظَمُ الْحَبَّةِ؟ قَالَ: «هَلْ ذَبَحَ أَبُوكَ تَيْسًا مِنْ غَنَمِهِ قَطُّ عَظِيمًا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَسَلِّحْ إِهَابَهُ فَأَعْطَاهُ أُمَّكَ، قَالَ: اتَّخِذِي لَنَا مِنْهُ دَلْوًا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: فَإِنَّ تِلْكَ الْحَبَّةَ لَتُشْبِعُنِي وَأَهْلَ بَيْتِي؟ قَالَ: «نَعَمْ وَعَامَّةَ عَشِيرَتِكَ». قَالَ الشَّيْخُ شُعَيْبُ الْأَرْنَؤُوطُ: إِسْنَادُهُ قَابِلٌ لِلتَّحْسِينِ. وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: «شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ، مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا». السَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ: ١٩٨٥، ٣٤٣٢.

يوم الجمعة في الجنة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل ﷺ وفي كفه امرأة بيضاء، فيها نكتة سوداء، فقلت: ما هذه يا جبريل؟، قال: هذه الجمعة، يعرضها عليك ربك ﷻ لتكون لك عيدا، ولقومك من بعدك، تكون أنت الأول، ويكون اليهود والنصارى من بعدك، قلت: ما لنا فيها؟، قال: لكم فيها خير، لكم فيها ساعة من دعا ربّه ﷻ فيها بخير هو له قسم، أعطاه الله ﷻ أو ليس له بقسم، إلا ذخر له ما هو أعظم منه، أو تعود فيها من شر ما هو مكتوب عليه، إلا أعاده الله من أعظم منه، ونحن ندعوه في الآخرة: يوم المزيد، وذلك أن ربك اتخذ في الجنة واديا أفح من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة، نزل ﷻ من عليين على كرسيه، ثم حف المنابر بكراسي بمنابر من نور، ثم جاء النبيون حتى يجلسوا عليها، ثم حف المنابر بكراسي من ذهب، ثم جاء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا عليها، ثم يجيء أهل الجنة حتى يجلسوا على الكتيب وهو كتيب أبيض من مسك أذفر، يقول الله ﷻ: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن، فيتجلى لهم ربهم ﷻ حتى ينظروا إلى وجهه ﷻ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مuhlًا به؟، فالله أجل وأعظم، وذلك آية في خلقه، فوالله ما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، ﴿وَجُوهٌ نَّاصِرَةٌ﴾ ١١ إلى ربها ناظرة ﴿١٢﴾. وهو يقول: أنا الذي صدقتكم وعدي، وأنتمت عليكم نعمتي، وهذا محل كرامتي، فاسألوني، فيسألونه الرضا، فيقول: رضى أحلكم داري وأنالكم كرامتي، فسلوني،

فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ رَغَبَتُهُمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ، إِلَى مِقْدَارِ مُنْصَرَفِهِمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، ثُمَّ يَرْجِعُ أَهْلُ الْغُرَفِ إِلَى غُرَفِهِمْ، وَهِيَ زَبْرَجَدَةٌ خَضِرَاءُ أَوْ يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءُ، مُطَرَّدَةٌ، فِيهَا أَنْهَارُهَا، مُتَدَلِّئَةٌ فِيهَا ثِمَارُهَا، فِيهَا أَرْوَاجُهَا وَخَدَمُهَا، فَلْيَسُوا هُمْ فِي الْجَنَّةِ بِأَشْوَقَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ، لِيَزِدَّادُوا مِنْهُ كَرَامَةً، وَلِيَزِدَّادُوا نَظْرًا إِلَى وَجْهِهِ ﷺ وَلِذَلِكَ دُعِيَ يَوْمَ الْمَزِيدِ.

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ سُوقًا يَأْتُونَهَا كُلُّ جُمُعَةٍ فِيهَا كُتُبَانُ الْمُسْكِ، فَإِذَا خَرَجُوا إِلَيْهَا هَبَّتْ رِيحُ الشَّمَالِ، فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهُمْ وَثِيَابَهُمْ وَيُيَوِّتُهُمْ مِسْكًَا فَيَزِدَّادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا. فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِهِمْ وَقَدْ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللَّهِ لَقَدْ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدْ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا».

إحلال الرضا الأبدي على أهل الجنة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟، فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْطَيْكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟، فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

آخر أهل النار دخولاً الجنة

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، فَهُوَ

يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَيَقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعَرِّضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيَقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا، وَكَذَا، وَكَذَا، وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ - لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ - وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعَرِّضَ عَلَيْهِ - فَيَقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا، يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذِكَاؤُهَا، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو اللَّهَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: لَعَلَّكَ إِنْ أَعْطَيْتَكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟، فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، فَيُعْطِي اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ عَهْدٍ وَمِثَاقٍ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ. فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا التَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكَ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَذْنِبِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، فَلَا سِتْظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا؟، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا - وَرَبُّهُ يَعْذُرُهُ، لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ - فَيَذْنِبُهُ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَذْنِبِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَذْنِبْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟، فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا - وَرَبُّهُ يَعْذُرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ - فَيَذْنِبُهُ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأَوَّلَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَذْنِبِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا - وَرَبُّهُ يَعْذُرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ - فَيَذْنِبُهُ مِنْهَا، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا رَأَى بَهْجَتَهَا وَمَا فِيهَا مِنَ النُّصْرَةِ وَالسُّرُورِ، وَسَمِعَ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ،

فَيَقُولُ اللَّهُ: وَيَحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ؟، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي أَشَقَى خَلْقِكَ، فَيَضْحَكُ اللَّهُ ﷻ مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذُنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَا يَصْرِفُنِي مِنْكَ؟^(١)، أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مُلْكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ أَيْرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا مَعَهَا؟، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَتُسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟^(٢) فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ، وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَعَ هَذَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَدَّتْ عَيْنُكَ. فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللَّهُ لَهُ: تَمَنَّهُ. فَسَأَلَ رَبَّهُ وَتَمَنَّى حَتَّى تَنْقَطِعَ بِهِ الْأَمَانِيُّ، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ أُمْنِيَّتُهُ قَالَ اللَّهُ ﷻ: تَمَنَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا. فَيَتَمَنَّى، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: تَمَنَّ مِنْ كَذَا فَيَتَمَنَّى. - يُدَكِّرُهُ رَبُّهُ - حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَكَ ذَلِكَ، وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ. ثُمَّ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَ النَّاسِ رُفِعَ لَهُ قَصْرٌ مِنْ دُرَّةٍ، فَيَخِرُّ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، مَا لَكَ؟، فَيَقُولُ: رَأَيْتُ رَبِّي، أَوْ تَرَاءَى لِي رَبِّي، فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّمَا هُوَ مَنْزِلٌ مِنْ مَنَازِلِكَ، قَالَ: ثُمَّ يَلْقَى رَجُلًا، فَيَتَهَيَّأُ لِلْسُّجُودِ لَهُ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا لَكَ؟، فَيَقُولُ: رَأَيْتُ أَنَّكَ مُلْكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَيَقُولُ: إِنَّمَا أَنَا خَازِنٌ مِنْ خَزَائِنِكَ، عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِكَ، تَحْتَ يَدَيِ أَلْفِ قَهْرْمَانٍ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ. فَيَنْطَلِقُ أَمَامَهُ حَتَّى يَفْتَحَ لَهُ الْقَصْرَ، وَهُوَ فِي دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ، سَقَائِفُهَا وَأَبْوَابُهَا وَأَعْلَافُهَا وَمَفَاتِيحُهَا

(١) أَي: مَا يَقْطَعُ مَسْأَلَتَكَ مِنِّي؟

(٢) وَضَحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ «فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مِنْ ضَحِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ - يَعْنِي ذَلِكَ الْعَبْدُ -: أَتُسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟».

مِنْهَا، تَسْتَقْبِلُهُ جَوْهَرَةٌ خَضْرَاءُ مُبَطَّنَةٌ بِحَمْرَاءَ، كُلُّ جَوْهَرَةٍ تُفْضِي إِلَى جَوْهَرَةٍ عَلَى غَيْرِ
لَوْنٍ الْآخَرَى، فِي كُلِّ جَوْهَرَةٍ سُرُرٌ وَأَزْوَاجٌ، وَوَصَائِفٌ، أَذْنَاهُنَّ حَوْرَاءٌ عَيْنَاءٌ عَلَيْهَا
سَبْعُونَ حُلَّةً يَرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ حُلَلِهَا، كَبِدُهَا مِرَاتُهُ، وَكَبِدُهُ مِرَاتُهَا، إِذَا أَعْرَضَ
عَنْهَا إِعْرَاضَةً، أَزْدَادَتْ فِي عَيْنِهِ سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، وَإِذَا أَعْرَضَتْ
عَنْهُ إِعْرَاضَةً، أَزْدَادَ فِي عَيْنِهَا سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ لَهَا: وَاللَّهِ لَقَدْ
أَزْدَدْتُ فِي عَيْنِي سَبْعِينَ ضِعْفًا، وَتَقُولُ لَهُ: وَأَنْتَ وَاللَّهِ لَقَدْ أَزْدَدْتَ فِي عَيْنِي سَبْعِينَ
ضِعْفًا، فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ رَوْجَتَاهُ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ، فَتَقُولَانِ لَهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَاكَ
لَنَا، وَأَحْيَانَا لَكَ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: أَشْرَفَ، فَيُشْرِفُ، فَيُقَالُ لَهُ: مُلْكُكَ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ يَنْفِذُهُ
بَصْرُهُ. فَيَقُولُ: مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُعْطِيتُ. وَذَلِكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً.

امتلاء الجنة والنار

وفي الحديث عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَحَاجَّتِ النَّارُ وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أَوْثَرْتُ
بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ
وَعَجْزُهُمْ؟» فَقَالَ اللَّهُ ﷻ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ
لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أَعَذِّبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا،
فَأَمَّا النَّارُ يُقَالُ لِجَهَنَّمَ: هَلْ امْتَلَأَتْ؟، فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟، ثُمَّ يُطْرَحُ فِيهَا فَوْجٌ،
فَيُقَالُ: هَلْ امْتَلَأَتْ؟، فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟، حَتَّى إِذَا أَوْعِبُوا فِيهَا فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى
يَضَعَ اللَّهُ ﷻ قَدَمَهُ عَلَيْهَا فَهَنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ فَتَقُولُ: قَطٌّ، قَطٌّ،
قَطٌّ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ. وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ ﷻ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَيَبْقَى فِيهَا مَا شَاءَ
اللَّهُ أَنْ يَبْقَى فَيَنْشِئُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنُهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ.

ذبح الموت

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «فَإِذَا أَدْخَلَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، أَتَى بِالمَوْتِ كَبْشًا أَمْلَحًا مُلَبَّيًّا^(١) فَيُوقَفُ عَلَى السُّورِ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَطْلَعُونَ خَائِفِينَ وَجِلِينَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَطْلَعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ فَرَحِينَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَيَرَوْنَ أَنْ قَدْ جَاءَ الْفَرَجُ. فَيُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ - وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ - فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ: قَدْ عَرَفْنَاهُ، هُوَ المَوْتُ الَّذِي وَكَّلَ بِنَا. فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُضْجَعُ، فَيَذْبَحُ ذَبْحًا عَلَى السُّورِ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ».

الخلود الأبدي

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «ثُمَّ يُقَالُ لِلْفَرِيقَيْنِ كِلَاهُمَا: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فِيمَا تَجِدُونَ، لَا مَوْتَ فِيهَا أَبَدًا، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فِيمَا تَجِدُونَ لَا مَوْتَ فِيهَا أَبَدًا. فَيَزِدَادُ أَهْلَ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزِدَادُ أَهْلَ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ. فَيَأْمَنُ هَؤُلَاءِ، وَيَنْقَطِعُ رَجَاءُ هَؤُلَاءِ، ﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢)».

(١) فِي الْقَامُوسِ لَبَّيْهُ تَلَبُّبًا جَمَعَ ثِيَابَهُ عِنْدَ نَحْرِهِ فِي الْخُصُومَةِ ثُمَّ جَرَّ. كَأَنَّهُ أَخَذَ بِتَلَابِيهِهِ، وَهُوَ اسْتِعَارَةٌ، وَالْأَخْذُ بِالتَّلَابِيْبِ: أَنْ يَجْمَعَ عَلَى الْإِنْسَانِ ثَوْبُهُ، وَيَأْخُذُ بِمَقْدَمِهِ فَيَجْرُ بِهِ.

الخاتمة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۖ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ.﴾

وقال ﷺ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْشَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوُّهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۖ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.﴾
وقال ﷺ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى.﴾

اللهم اهدنا صراطك المستقيم، واجعلنا من عبادك المؤمنين، وارزقنا رضاك،
وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين يا أرحم الراحمين، وأدخلنا الجنة بلا حساب ولا عذاب.

انتهت (قصة الحياة) ..

رحم الله من جمعها وكتبها ومن قرأها ونشر علمها.

والحمد لله رب العالمين.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الله ﷻ	٨
بدء الخلق	٢١
خلق السماوات والأرض	٢٣
النجوم والأبراج	٣٤
التأريخ وحساب السنين والمواسم	٣٦
خلق الملائكة والجن	٥٠
رحمة الله	٥٢
قصة خلق آدم	٥٣
إخبار الله الملائكة بخلق البشر	٥٧
سجود الملائكة لآدم واستكبار إبليس	٥٩
خلق حواء وإسكانها الجنة مع آدم	٦١
إغواء الشيطان لآدم وزوجه	٦٢
توبة آدم وحواء	٦٣
هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض	٦٤
وجود إبليس وذنوب البشر لحكمة	٦٦
إكرام الله بني آدم وإنعامه عليهم	٦٨
تحذير البشر من عدوهم الشيطان	٦٩
وفاة آدم ﷻ	٧١

الصفحة

الموضوع

٧٣	ذرية آدم وتربص الشيطان بهم
٧٥	الأنبياء والمرسلون
٧٦	نوح
٧٨	إرسال هود إلى عاد
٧٩	إرسال صالح إلى ثمود
٨١	بعثة إبراهيم في العراق
٨٤	هجرة إبراهيم إلى الشام
٨٥	قصة إبراهيم وسارة مع ملك مصر
٨٧	رجوع الخليل من مصر إلى الشام
٨٨	انتقال لوط إلى قرية سدوم
٨٩	ولادة إسماعيل وقصة زمزم
٩٢	إرسال لوط
٩٣	مجيء إبراهيم إلى مكة لتفقد حال ابنه
٩٥	إبراهيم وإسماعيل بينان الكعبة
٩٧	قصة الذبيح إسماعيل ومناسك الحج
١٠٠	بشارة إبراهيم بإسحاق
١٠١	إهلاك قوم لوط في قرى سدوم
١٠٣	إرسال شعيب إلى مدين
١٠٥	إسحاق
١٠٦	قصة ذي القرنين
١٠٨	فضائل خليل الله إبراهيم ووفاته
١١٢	يعقوب (إسرائيل)
١١٣	أيوب

الصفحة

الموضوع

١١٥	يوسف بن يعقوب ﷺ
١٢٩	مكوث بني إسرائيل في مصر
١٣٠	اضطهاد بني إسرائيل من فرعون
١٣٢	موسى وهارون ﷺ
١٣٨	بعثة موسى بن عمران
١٤٣	تكذيب فرعون وقومه بالآيات المعجزات
١٤٥	نصيحة مؤمن آل فرعون
١٤٧	إصرار فرعون على استئصال المؤمنين
١٤٨	خروج موسى ببني إسرائيل من مصر
١٤٩	هلاك فرعون وجنده
١٥٠	بنو إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون
١٥١	ذهاب موسى لميقات ربه
١٥٣	إنزال الله التوراة على موسى
١٥٥	قصة السامري والعجل
١٥٧	رجوع موسى إلى بني إسرائيل
١٥٩	إهلاك قارون
١٦١	قصة موسى مع الخضر
١٦٥	حياء موسى وإيذاء بني إسرائيل له
١٦٦	قصة البقرة
١٦٩	رفض بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة
١٧١	وفاة موسى ﷺ
١٧٣	يوشع بن نون ﷺ
١٧٤	كالب بن يوفنا

الموضوع	الصفحة
حزقيل بن بُودَى	١٧٤
إلياس ؑ	١٧٥
اليسع ؑ	١٧٥
من الأنبياء والأقوام الذين أشير إليهم	١٧٦
قصة أصحاب الكهف	١٧٧
قصة أصحاب السبت	١٨٠
قصة طالوت وجالوت	١٨٢
داود ؑ	١٨٤
سليمان ؑ	١٨٥
يونس ؑ	١٩٢
قصة النبي شُعَيْبُ بْنُ أُمِّصَيَّا	١٩٤
الخراب الأول لبيت المقدس	١٩٦
قصة بختنصر مع دانيال ؑ	١٩٨
قصة عُزَيْرٍ ؑ	٢٠٢
اختلاف بني إسرائيل	٢٠٥
تحريف اليهود التوراة	٢٠٦
زكريا ويحيى وآل عمران	٢٠٨
المسيح عيسى بن مريم ؑ	٢١١
نزول الإنجيل على المسيح ابن مريم	٢١٤
ميثاق الأنبياء بالإيمان بمحمد ونصرته	٢١٥
كفر اليهود بالمسيح ابن مريم ؑ	٢١٦
قتل يحيى بن زكريا ؑ	٢١٧
قصة رفع المسيح عيسى ابن مريم ؑ إلى السماء	٢١٩

الصفحة

الموضوع

٢٢٠	زعم اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه
٢٢١	الخراب الثاني لبيت المقدس
٢٢٢	شاؤول اليهودي (بولس) يحرف دين النصارى
٢٢٣	إنجيل برنابا ينقض تحريفات بولس
٢٢٤	تحريف الإنجيل واختلاف نُسَخه
٢٢٥	بنو إسرائيل كتبوا كتابًا وتركوا التوراة
٢٢٧	تحريف النصارى دينهم وتفرقهم
٢٢٨	تغيير الملك قسطنطين دين النصارى
٢٣٠	اضطهاد الأريوسيين الموحدين
٢٣٣	قصة سبأ وسد مأرب
٢٣٥	قِصَّةُ تَيْعِ أَبِي كَرْب
٢٣٧	قِصَّةُ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ بنجران
٢٤٠	تسلط الأحباش النصارى على اليمن
٢٤٢	قصة أصحاب الفيل
٢٤٧	ولادة النبي محمد ﷺ ونشأته
٢٥١	زواج النبي ﷺ من خديجة بنت خويلد
٢٥٣	وضع الحجر الأسود في مكانه
٢٥٥	حال الأرض قبل بعثته ﷺ
٢٥٩	بعثة محمد ﷺ
٢٦٢	إرسال النبي ﷺ للناس كافة
٢٦٤	نزول وحى القرآن عليه ﷺ
٢٧٣	من معجزات النبي ﷺ وخصاله
٢٧٧	الدَّعْوَةُ السَّرِيَّةُ في مكة

الصفحة

الموضوع

٢٧٩	إعلان الدعوة الجهرية.....
٢٨٠	إيذاء المسلمين وتعذيب ضعفائهم.....
٢٨٢	استهزاء المشركين ومجادلتهم للنبي ﷺ.....
٢٨٧	الهجرة الأولى إلى الحبشة.....
٢٨٨	الهجرة الثانية إلى الحبشة.....
٢٩٤	قريش تساوم أبا طالب لتسليم النبي ﷺ.....
٢٩٥	دعوة وشعر أبي طالب لحماية النبي ﷺ.....
٢٩٨	حصار الشعب على المسلمين وبني هاشم وبني المطلب.....
٣٠٠	وفاة أبي طالب وخديجة في عام واحد.....
٣٠٣	اشتداد أذى قريش على رسول الله ﷺ.....
٣٠٥	خروجه ﷺ إلى الطائف ورفضهم دعوته.....
٣٠٦	لقيا جبريل وملك الجبال في قرن المنازل.....
٣٠٧	مرور الجن به ﷺ في منطقة نخلة.....
٣٠٨	مكوثه ﷺ في غار حراء وطلبه الجوار.....
٣٠٨	العودة لمكة وبيعة العقبة الأولى.....
٣١٠	انشقاق القمر.....
٣١١	رحلة الإسراء والمعراج (١ ق هـ).....
٣١٨	بيعة العقبة الثانية قبيل الهجرة.....
٣٢٠	اتفاق مشركي قريش على قتل النبي ﷺ.....
٣٢٢	قصة الهجرة.....
٣٣٠	السنة الأولى من الهجرة (١ هـ): بناء مسجد قباء والمسجد النبوي.....
٣٣٢	فرح أهل المدينة.....
٣٣٣	دعوة يهود المدينة للإسلام.....

الصفحة

الموضوع

٣٣٥	الدعاء للمدينة بالصحة
٣٣٧	المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
٣٣٨	كتابة الصحيفة
٣٤٠	قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه
٣٤٥	مشروعية الأذان
٣٤٦	السنة الثانية من الهجرة: صيام عاشوراء
٣٤٧	إعلان قريش الحرب على المدينة
٣٤٨	بدء الغزوات
٣٥٠	تحويل القبلة إلى الكعبة
٣٥١	فرض الصيام وزكاة الفطر
٣٥٢	غزوة بدر الكبرى
٣٥٣	وفاة رقية بنت محمد رضي الله عنه
٣٥٤	إجلاء يهود بني قينقاع
٣٥٥	غزوة السويق
٣٥٦	السنة الثالثة من الهجرة: مقتل كعب بن الأشرف
٣٦٢	غزوة أحد
٣٦٤	غزوة حمراء الأسد
٣٦٥	السنة الرابعة من الهجرة: يوم الرجيع واستشهاد خبيب
٣٦٧	حادثة بئر معونة
٣٦٨	إجلاء يهود بني النضير
٣٧٠	السنة الخامسة من الهجرة: غزوة دومة الجندل
٣٧١	غزوة المريسيع (بني المصطلق)
٣٧٢	حادثة الإفك

الصفحة

الموضوع

٣٧٣	غزوة الخندق (الأحزاب)
٣٧٥	نزول آية الحجاب
٣٧٦	غزوة بني قريظة
٣٧٧	السنة السادسة من الهجرة: غزوة ذي قرد وقصة سلمة بن الأكوع
٣٧٩	سرية الخط (سيف البحر)
٣٨٠	خروج عمرو بن العاص إلى الحبشة
٣٨١	قصة صلح الحديبية
٣٩٥	نزول سورة الفتح
٣٩٨	قدوم المهاجرات من مكة
٣٩٩	قصة أبي بصير
٤٠١	السنة السابعة من الهجرة: دعوة الملوك إلى الإسلام
٤٠٣	دعوة ملك الحبشة وإسلامه
٤٠٥	دعوة ملك الغساسنة في الشام
٤٠٦	دعوة قيصر ملك الروم
٤١٠	دعوة كسرى ملك الفرس
٤١١	دعوة المقوقس ملك القبط في مصر
٤١٢	دعوة هُوْذَة الحنفي ملك اليمامة بنجد
٤١٣	غزوة خيبر
٤١٧	تسميم اليهود طعام النبي ﷺ في خيبر
٤١٩	الرجوع من خيبر
٤٢١	عودة المهاجرين من الحبشة
٤٢٢	غزوة ذات الرقاع جهة نجد
٤٢٣	إرسال السرايا إلى عَجْز وفدك والميفعة وغطفان والغابة

الصفحة

الموضوع

٤٢٥	عمره القضاء
٤٢٦	السنة الثامنة من الهجرة: وفاة زينب بنت محمد ﷺ
٤٢٦	إسلام خالد بن الوليد وعمر بن العاص
٤٢٧	إرسال السرايا إلى بني الملوحة وقضاة وهوازن
٤٢٩	غزوة مؤتة
٤٣٠	غزوة ذات السلاسل
٤٣١	فتح مكة وهدم الأصنام
٤٣٧	غزوة حنين
٤٣٩	تتبع الفارين في أوطاس ونخلة وثقيف
٤٤٠	قسمة الغنائم في الجعرانة
٤٤١	الإحرام بالعمرة من الجعرانة
٤٤١	دعوة ملك البحرين (الأحساء)
٤٤٢	دعوة ملك عُمان
٤٤٣	السنة التاسعة من الهجرة (عام الوفود)
٤٤٣	وفاة النجاشي أصحابه
٤٤٤	غزوة تبوك
٤٤٥	المرور بمساكن ثمود في الحجر
٤٤٦	من الأحداث في تبوك
٤٤٨	العودة ومحاولة المنافقين قتل النبي ﷺ
٤٤٩	قصة الثلاثة الذين خلفوا
٤٥٦	وفاة أم كلثوم بنت محمد ﷺ
٤٥٦	وفاة كبير المنافقين ابن سلول
٤٥٧	قدوم الوفود ومنهم نصارى نجران

الصفحة

الموضوع

٤٥٩	حج أبي بكر بالناس والبراءة من المشركين
٤٦٠	السنة العاشرة من الهجرة: وفاة إبراهيم ابن النبي ﷺ
٤٦١	كسوف الشمس وصلاة وخطبة عظيمة
٤٦٤	حجة الوداع
٤٦٤	اكتمال إبلاغ الدين
٤٦٥	السنة الحادية عشرة من الهجرة: وفاة النبي ﷺ
٤٦٨	من جوامع ما أخبر به النبي ﷺ أصحابه
٤٧٤	فطرة الإنسان
٤٧٦	خطر الشرك الأكبر والأصغر
٤٨٠	ركائز دين الإسلام ومعالمه
٤٨٤	افتراق المسلمين في دينهم
٤٨٥	الأمر بالتمسك بالسنة
٤٨٧	الإسلام محفوظ بعلماء مجددّين
٤٨٩	لكل نبي حواريون ويخلفهم مُبدّلون
٤٩٠	الأمر بالتمسك بالجماعة
٤٩٣	النهي عن الابتداع في الدين
٤٩٦	أهمية إصلاح القلب والنية
٤٩٧	القضاء والقدر والأخذ بالأسباب
٤٩٨	رؤى المنام
٤٩٩	أخلاق المؤمن وأخلاق المنافق
٥٠٤	العشرة بين الزوجين
٥٠٧	حجاب النساء وقرارهن في البيوت
٥١٦	النهي عن الدخول على النساء الأجنبية ومخالطتهن

الصفحة

الموضوع

٥١٧	الزينة واللباس والستر
٥١٩	الإحسان إلى الإماء والعبيد (ملك اليمين)
٥٢٥	غض الأبصار وحفظ الفروج
٥٢٧	خطر الفواحش والمعاصي
٥٣١	حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات
٥٣٢	الدِّين: النَّصِيحَةُ
٥٣٤	عدل الله وغناه عن خلقه
٥٣٥	الحساب على الأعمال
٥٣٧	الأعمال بالخواتيم
٥٣٨	الحسنات وأبواب الخير
٥٤١	فضائل ذكر الله
٥٤٣	آداب الطعام
٥٤٦	التداوي وحفظ الصحة
٥٥٥	علاج العين والسحر والاستشفاء بالرقى
٥٦٦	أسباب إجابة الدعاء ومنعه
٥٦٨	قتال الفئة الممتنعة عن الصلاة أو الزكاة
٥٦٩	دعوة الكفار وقتال المعتدين
٥٧١	أخبار الفتن وأشرار الساعة
٥٧٣	ظهور الكذابين مدعي النبوة
٥٧٥	استشهاد الخلفاء الثلاثة بعد الصديق
٥٧٧	ظهور الخوارج وقتالهم
٥٧٨	تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية
٥٨٠	توسع الفتوحات الإسلامية

الصفحة

الموضوع

٥٨٢	أمن ورخاء في بلاد الإسلام
٥٨٢	بركان عظيم في الحجاز
٥٨٣	قتال التتار
٥٨٥	تداعي الأمم الكافرة على المسلمين
٦٠٩	بقاء طائفة منصور على الحق والجهاد
٦١٠	كثرة المال والترف والتجارة
٦١١	انتشار الكتابة وكثرة الجهل
٦١١	كثرة الفساد والفتن
٦١٣	طلب الدنيا بقراءة وتعلم القرآن
٦١٤	تغير أحوال المساجد
٦١٤	ضياع الأمانة والتعلق بالدنيا
٦١٥	صدق رؤيا المؤمن
٦١٥	انتفاخ الأهلة
٦١٥	فناء قريش وزوال ملكها
٦١٦	تغير موازين الصدق والأمانة
٦١٦	مضر تفتن الصالحين
٦١٦	انقلاب سيادة الناس
٦١٧	اثنا عشر ألفاً يخرجون من عدن لنصرة الدين
٦١٧	حصار العراق والشام ومصر والمدينة
٦١٨	كثرة القتل وموت الفجأة
٦١٨	اقتتال الناس على معادن تخرجها الأرض
٦١٩	قلة الرجال وكثرة النساء
٦١٩	تسارع الزمان

الصفحة

الموضوع

٦٢٠	كلام السباع والأشياء.....
٦٢٠	أمطار لا تنبت شيئاً.....
٦٢٠	عودة جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً.....
٦٢٠	كثرة الصواعق.....
٦٢١	عودة قبائل إلى الشرك وعبادة الأوثان.....
٦٢١	تناكر الناس وتسليم الخاصة.....
٦٢١	الدخان والخسوفات والآيات الكبرى.....
٦٢٣	خراب المدينة وأحداث آخر الزمان.....
٦٢٣	ظهور مهدي من العترة.....
٦٢٤	مصالحة الروم والغزو معهم وغدرهم.....
٦٢٥	الملحمة الكبرى في الغوطة.....
٦٢٦	فتح القسطنطينية.....
٦٢٨	خروج الدجال يتبعه يهود وشياطين.....
٦٣٤	نزول عيسى ابن مريم وقتله الدجال.....
٦٣٦	مسألة: هل الدجال هو ابن صياد؟ أم المقيد في جزيرة الجساسة؟.....
٦٤٦	انهزام اليهود وقتلهم مع الدجال.....
٦٤٦	إفساد يأجوج ومأجوج ثم مقتلهم.....
٦٤٩	مطر يغسل الأرض ويعيد بركتها.....
٦٥٠	الإسلام يعم الأرض في زمن المسيح.....
٦٥٢	طلوع الشمس من مغربها.....
٦٥٣	خروج الدابة.....
٦٥٤	ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين.....
٦٥٤	اختفاء أثر الإسلام ورفع القرآن.....

الصفحة

الموضوع

٦٥٦	بقاء شرار الناس على الأرض
٦٥٦	نار تخرج من اليمن تحشر الناس للشام
٦٥٨	نفخة الصعق
٦٥٩	الحياة البرزخية في القبر
٦٦٣	نزول ماء الحياة ونمو الأجساد
٦٦٤	نفخة البعث
٦٦٤	أول من تنشق عنه الأرض
٦٦٥	من أحوال وأهوال يوم القيامة
٦٦٧	الحوض
٦٦٨	انتظار فصل القضاء
٦٦٨	إخراج بعث النار وهول الموقف
٦٦٩	شهادة أمة محمد للأنبياء بالبلاغ
٦٧٠	الشفاعة في الخلاص من كرب المحشر
٦٧٣	عرض الأعمال على العبد
٦٧٣	سد نقص الفرائض من النوافل
٦٧٤	حال فقراء المسلمين
٦٧٤	الحساب
٦٧٤	السؤال عن النعيم
٦٧٥	شهادة الجسد على صاحبه
٦٧٦	حساب المنافقين والمرائين
٦٧٧	موقف المتجاوز عن المعسرين
٦٧٨	القصاص بين الخلق
٦٧٨	القضاء بين الخصوم

الصفحة

الموضوع

٦٧٨	القضاء في الدماء
٦٨٠	أحوال العصاة يوم القيامة
٦٨٣	الميزان
٦٨٤	كل أمة تتبع ما كانت تعبد
٦٨٦	صفة النار وأهلها
٦٨٨	حسرة أهل النار
٦٨٨	أهون أهل النار عذاباً
٦٨٩	استغاثة أهل النار
٦٩٠	بقاء أمة التوحيد يقودهم ربهم إلى الجنة
٦٩١	إعطاء المؤمن نوره والمنافق قبل الصراط
٦٩١	وضع الصراط على جهنم
٦٩٢	تبديل الأرض والسموات
٦٩٢	طي السماوات والأرض
٦٩٢	المروور على الصراط
٦٩٤	القنطرة بعد الصراط
٦٩٤	شفاعة المؤمنين في إخوانهم
٦٩٦	شفاعة النبي ﷺ فيمن دخل النار من أمته
٦٩٨	يعتق الله من النار من كانت له ذرة توحيد
٦٩٩	أول من يدخل الجنة
٦٩٩	أبواب الجنة
٦٩٩	دخول الفقراء الجنة قبل الأغنياء
٧٠٠	عظم نعيم الجنة
٧٠١	صفة أهل الجنة

الموضوع	الصفحة
أزواج أهل الجنة	٧٠٢
درجات الجنة وأنهارها	٧٠٣
منازل الجنة	٧٠٤
غرف الجنة	٧٠٤
أشجار الجنة	٧٠٤
يوم الجمعة في الجنة	٧٠٦
إحلال الرضا الأبدي على أهل الجنة	٧٠٧
آخر أهل النار دخولاً الجنة	٧٠٧
امتلاء الجنة والنار	٧١٠
ذبح الموت	٧١١
الخلود الأبدي	٧١١
الخاتمة	٧١٢
فهرس الموضوعات	٧١٣

